المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٧ ـ ٣٢

الجـامِعُ الأَزْهَـر
تـارِيخُهُ وتَطَـوُّرُه

أيمن فؤاد سيِّد

الجامِعُ الأَزْهَرُ أوَّلُ جامعٍ أُسِّسَ بمدينةِ القاهِرَةِ الفاطِمِيَّة، بَناهُ القائِدُ الفاطِمِيُّ جَوْهَرُ الصَّقَلِّيّ، وبَدأَت أَعْمالُ البِناءِ فيه يوم السبت ٢٨ جُمادَى الأُولَى سنة ٣٥٩هـ/ أبريل سنة ٩٧٠م، وافْتُتِحَ للصَّلاةِ يومَ الجُمُعَةِ السَّابع من رَمَضان سنةَ ٣٦١هـ/ يوليو سنة ٩٧٢م[1].

---

(١) راجع عن الجامع تاريخه وعمارته، المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، قابله بأصوله وأعدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م، ٤: ٩١ ـ ١٠٧؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٦٩م، ٢: ٢٥٥ ـ ٢٥٨ و٤: ٢٩ ـ ٩٢؛ محمد عبد العزيز مرزوق: مساجد القاهرة قبل عصر المماليك، القاهرة ١٩٤٣م، ٥٣ ـ ٦٦؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٤٦ و٢٠١٠م، ٤٧ ـ ٦٣؛ أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٦م، ١: ٤١ ـ ٥٩؛ محمد عبد الله عنان: تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٥٨م؛ محمد عبد العزيز الشناوي: الأزهر جامع وجامعة، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو ١٩٨٣م؛ وانظر كذلك الأزهر تاريخه وتطوره، القاهرة ـ وزارة الأوقاف ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م؛ أحمد حسن الباقوري: «الأزهر في خدمة الإسلام بين الخليفة المعز والرئيس جمال عبد الناصر»، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ القاهرة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧١م، ١: ٧١ ـ ١١٣؛ عبد العزيز محمد الشناوي: «دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني»، المرجع السابق ٢: ٦٦٥ ـ ٧١٥؛ محمد البهي: «حاضر الأزهر بعد أمسه»، المرجع السابق ٣: ٩٩٩ ـ ١٠٢٢، وحياتي في رحاب الأزهر، القاهرة ١٩٨٣م؛ L. HAUTCOEUR, *Les mosquées du*

وكان يُوجَدُ بدائرِ القُبَّةِ التي في الرِّواقِ الأوَّلِ للجامعِ على يَمْنَةِ المِحْرابِ والمِنْبَرِ نَصٌّ إنشائيٌّ ، فُقِدَ الآن ورآهُ المَقريزيُّ في القرنِ التَّاسعِ الهجريِّ/الخامِس عَشَر الميلاديّ ، جاءَ فيه :

«مِمَّا أمَرَ ببِنائِه عبدُ اللهِ ووَلِيُّه أبُو تَمِيم مَعَدّ الإمامُ المُعِزُّ لدِينِ اللهِ أميرِ المُؤمِنين ، صَلَواتُ اللهِ عليه وعلى آبائِه وأبْنائِه الأكْرَمِينَ ، على يَدِ عَبْدِه جَوْهَرِ الكاتِبِ الصَّقْلَبِيِّ ، وذلك في سَنَةِ ستِّين وثلاثِ مائة»(١) .

وعُرِفَ هذا الجامِعُ ـ على الأقَلِّ حتى العَقْدِ الأوَّلِ من القَرْنِ الخامِسِ الهجريِّ/ الحادي عَشَر الميلاديِّ ـ بـ «جامِع القاهِرَة» ، هكذا يذكرُه ابنُ زُولاق والمُسَبِّحِيّ في حَوْلِيَّاتِهِما كما يُورِدُها نَقْلًا عنهما المَقْريزيُّ ومُعاصِرُوه(٢) ، ولم يَتَبَدَّل اسْمُه إلى قُرْبِ نهايةِ عَهْدِ الإمامِ الحاكِم بأمْرِ الله (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/٩٩٦ ـ ١٠٢١م) بعدَ الانْتِهاءِ من بِناء «جامِع الخُطْبَةِ» خارِج بابِ الفُتُوح الأوَّل ، وهو الجامِعُ الذي بدَأَه

Caire, Paris 1932, pp.218 - 20 ; K.A.C. CRESWELL, *MAE* I, pp. 36 - 64, 254 - 57; J. JOMIER, *EI* ² art. *al-Azhar* I, pp.837 - 44; N. RABBAT, «Al - Azhar Mosque: An Architectural Chronicle of Cairos History», *Muqarnas* 13 (1996), pp.45 - 67; JACOB SKOVFGAARD - PETERSEN, *EI* ³ art. *al-Azhar* (2007), III, pp.185-88.؛ عبد الشافي محمد عبد اللطيف : «الأزهــر»، موسوعة التاريخ الإسلامي ، القاهرة ـ وزارة الأوقاف ٢٠١٥ م ، ١: ١٠٦ ـ ١٢٣؛ محمد علي حلة : الأزهر في الأرشيف المصري ـ وثائق من القرنين التاسع عشر والعشرين ، القاهرة - دار الكتب المصرية ٢٠١٥ م ؛ وأصْدَرَ مركز دراسات الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي المعاصر بمكتبة الإسكندرية مؤخَّرًا كتابًا في جزءين بعنوان : الجامِع الأزْهَر الشَّريف، الإسكندرية ٢٠١٥ م.

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٩١.

(٢) المسبحي : الجزء الأربعون من أخبار مصر (القسم التاريخي) ، قابله بأصوله وأعدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٥م، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٣، ١٧١، ١٧٣، ١٨٤؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢: ٢١٤، ٢١٨، ٣٠٠، ٣٠٧، ٤١٨، ٥٢٣ واتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ، قابله بأصوله وأعَدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٦م ، ١: ٢٦٢، ٣٠٤، ٣١١، ٣١٦، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٣٨؛ ٢: ٢٤، ٧٨، ١٠٦، ١٢٤، ١٣١، ١٣٣.

والِدُه العَزيزُ باللهِ سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ، وعُرِفَ بـ «الجامع الأنْوَر»[١] ، فأُطْلِقَ على جامِع القاهِرَة «الجامعُ الأزْهَر» ، وبعدَ ذلك عُرِفَت جميعُ المساجِدِ الجامِعَة التي أنشأها الأئِمَّةُ الفاطِميُّون داخِل القاهِرَة بصِيغَةِ أفْعَلِ التَّفْضِيل : «الجامِعُ الأقْمَر» الذي بَناهُ الإمامُ الآمِرُ بأحْكامِ الله سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م ، و«الجامِعُ الأفْخَر» الذي بَناهُ الإمامُ الظَّافِرُ بأعْدَاءِ الله سنة ٥٥٣هـ/١١٥٧م[٢] (جامِع الفَكَهاني الآن بالغُورِيَّة) .

كانت بِدايَةُ التَّدْرِيسِ في الجامِع في سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م ، بعد ثَلاثِ سَنَوات من وُصولِ الإمام المُعِزِّ لدين الله إلى مِصْر ، ففي صَفَرٍ من هذا العام جَلَسَ القاضي عليُّ بن النُّعْمان في الجامِع وأَمْلَى مُخْتَصَرَ أبيه في الفِقْهِ عن أهْلِ البَيْت ، المعروف بـ «الاقْتِصـار»[٣] ، في جَمْعٍ حافِلٍ من العُلَماء والكُبَراءِ وأَثْبَتَ أسْماءَ الحاضِرين ، فكانت هذه ـ كما يقولُ المَقْرِيزي ـ أوَّلَ حَلْقَةٍ للدَّرْسِ بالجامِعِ الأزْهَر[٤] .

وشَهِدَت سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م أوَّلَ مُحاوَلَةٍ لتَرْتِيبِ دَرْسٍ مُنَظَّمٍ في جامِعِ القاهِرَة ، عندما اسْتَأْذَنَ الوَزيرُ يَعْقُوبُ بن كِلِّس الإمامَ العَزِيز بالله في تَعْيِين جَماعَةٍ منَ الفُقَهاءِ بجامِعِ القاهِرَة كان عَدَدُهُم سبعةً وثلاثين فَقِيهًا كانوا يَتَحَلَّقُون كلَّ يوم جُمُعَةٍ بالجامِع بعد الصَّلاة يتكلَّمون في الفِقْه حتَّى وَقْتِ العَصْر ، ورَتَّبَ لهم العَزيزُ باللهِ أرْزاقًا وجِرايات شهريَّةً ، وأقامَ لهم دارًا للسَّكَنِ بجِوار الجامِع[٥] ، يقولُ

---

(١) المسبحي : الجزء الأربعون من أخبار مصر ٧٢؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢: ٢٠٨.

(٢) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر ـ تفسيرٌ جديد، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٦م، ٦١٣.

(٣) نشره محمد وحيد ميرزا وصدر عن المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة ١٩٥٧م.

(٤) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٣٨٩ واتعاظ الحنفا ١: ٢٦٢.

(٥) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض=

المَقْريزيُّ : «وهي أوَّلُ مَرَّةٍ يُقامُ بها دَرْسٌ في مِصْرَ بمَعْلُومٍ جارٍ مِن قِبَلِ السُّلْطان»[١] .

وقامَ جامِعُ القاهِرَةِ ، أو الجامِعُ الأزْهَرُ ، بدَوْرٍ مُهِمٍّ طَوالَ العَصْرِ الفاطِمِيِّ فيما يَخُصُّ الدَّعْوَةَ الفاطِمِيَّةَ الإسْماعِيلِيَّة ، فقد كانت القاهِرَةُ وَقْتَئِذٍ هي مَرْكَزَ الدَّعْوَةِ الإسْماعِيلِيَّةِ في العالَمِ الإسْلاميّ[٢] ، وكان جامِعُ القاهِرَة ، الجامِعُ الأزْهَرُ فيما بَعْد ، مَقَرَّ داعِي الدُّعاة ، على الأقَلِّ حتَّى وَفاةِ داعِي الدُّعاة المُؤَيَّد في الدِّين هِبَة الله الشِّيرازي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م[٣] . وكان الإمامُ الفاطِمِيُّ يُلْقِي فيه خُطْبَةَ الجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ في شهرِ رَمَضان[٤] ، كما كانت تُعْقَدُ فيه «مَجالِسُ الدَّعْوَةِ (الحِكْمَة)» التي كان يتولَّاها داعِي الدُّعاةِ الفاطِمِيّ[٥] . يقولُ المُسَبِّحِيّ : «وكان الدَّاعِي يُواصِلُ الجُلُوسَ بالقَصْرِ لقِراءَةِ ما يُقْرأ على الأوْلِياء والدَّعاوَى المُتَّصِلَة ، فكان يُفرِدُ للأوْلِياء مَجْلِسًا وللخاصَّةِ وشُيُوخِ الدَّوْلَة ومن يَخْتَصُّ بالقُصُورِ من الخَدَمِ وغيرهم مَجْلِسًا ، ولعَوامِّ النَّاسِ وللطَّارِئين على البَلَدِ مَجْلِسًا ، وللنِّساءِ في جامِعِ القاهِرَة ـ المعروف بالجامِعِ الأزْهَر ـ مَجْلِسًا وللحُرَمِ وخَواصِّ نِساءِ القُصُورِ مَجْلِسًا .

وكان يَعْمِلُ المَجالِسَ في دارِه حتى يُنْفِذَها إلى مَنْ يَخْتَصُّ بخِدْمَةِ الدَّوْلَة ، وتُتَّخَذُ لهذه المَجالِس كُتُبًا يُبَيِّضونَها بعد عَرْضِها على الخَلِيفَة ، وكان يُقْبَضُ في كُلِّ

=١٩٧٦م ، ٢٧٨؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٩٣ و٣٨٩.

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٩٣ و٤٥٢.

(٢) S. STERN, «Cairo as the Centre of Isma'ili Movement», *CIHC*, pp.437-50.

(٣) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، حقَّقه وقَدَّم له وعَلَّق عليه أيمن فؤاد سيد ، بيروت ـ أوراق شرقية ١٩٩٦م ، ٣٢؛ المقريزي : المواعظ ٢: ٥٠٧.

(٤) المصدر نفسه ٣٧ ـ ٣٨؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ١٢٣ وقارن القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١ ـ ١٤، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩١٢ ـ ١٩٣٨م ، ٣: ٥٠٥ ـ ٥٠٨.

(٥) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر ٥٧٤ ـ ٥٨٣.

مَجْلِس من هذه المجَالِس ما يَتَحَصَّلُ من النَّجْوَى من كُلِّ مَنْ يَدْفَع شيئًا من ذلك عَيْنًا ووَرِقًا من الرِّجالِ والنِّساء، ويَكْتُبُ أسْماءَ مَنْ يَدْفَعَ شيئًا على ما يَدْفَعُه، وكذلك في عِيدِ الفِطْر يَكْتُبُ ما يُدْفَعُ عن الفِطْرَة، ويَحْصُلُ من ذلك مالٌ جَلِيلٌ يُدْفَعُ إلى بَيْتِ المالِ شيئًا بعد شيءٍ، وكانت تُسَمَّى مَجالِسُ الدَّعْوَةِ: مَجالِسَ الحِكْمَة»(١).

ولم يكن بالجامِع أيَّةُ خِزانَةٍ للكُتُبِ في العَصْرِ الفاطِمِي، فما ذَكَرَه ابْنُ مُيَسَّر في آخِرِ حَوادِث سنة ٥١٧هـ/١١١٤م عن تَوْلِيَة أبي الفَخْر صالِح مَنْصِبَ داعِي الدُّعاة إضافَةً إلى الخَطابَة بالجامِع الأزْهَر مع خِزانَة الكُتُب(٢)، لا يعني وُجودَ خِزانَةِ كُتُبٍ بالجامِع، وإنَّما يُشِيرُ إلى خِزانَةِ الكُتُبِ الفاطِمِية الشَّهِيرَة بالقَصْرِ الفاطِمِي والتي أسْهَبَ في ذِكْرِها المُؤَرِّخون(٣).

وحَرَصَ الإمامُ الفاطِمِي على أداء الجُمُعَة الثَّالِثَة من شَهْرِ رَمَضان في الجامِع الأزْهَر. فتَبَعًا لرِوايَةِ ابن الطُّوَيْر كان الإمامُ بعد انْقِضاء رُكُوبِ أوَّلِ شهر رَمَضان يَسْتَرِيحُ في أوَّلِ جُمُعَة ويَرْكَبُ في الجُمُعَة الثَّانية إلى الجامِع الأنْوَر (جامِع الحاكِم) عند بابِ الفُتُوح شَمال القاهِرَة، ويَرْكَبُ في الجُمُعَة الثَّالِثَة إلى الجامِع الأزْهَر من القَشَّاشِين ويُؤَدِّي الجُمُعَة الأخِيرَة في جامِع عَمْرو بِمِصْر الفُسْطاط في مَوْكِبٍ مَشْهودٍ وَصَفَهُ لنا ابن الطُّوَيْر وابن عبد الظَّاهِر(٤).

(١) المسبحي: أخبار مصر ١٧١ - ١٧٢؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، قابله بأصوله وأعَدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد، القاهرة - دار الكتب المصرية ٢٠١٥م، ١٢٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ١٢٦.

(٣) أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق ٥٩٤ - ٦٠٩، و«خزانة كتب الفاطميين، هل بقي منها شيء؟»، مجلة معهد المخطوطات العربية ١/٤٢ (١٩٩٨م)، ٧ - ٣٢.

(٤) راجع ابن الطوير: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، أعاد بناءه وأعدَّه للنشر أيمن فؤاد سيِّد، القاهرة - دار الكتب المصرية ٢٠١٥م، ١٦٩ - ١٧٣؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة ٣٧ - ٣٨؛=

وإذا كان هذا حالُ «جامع القاهِرَة (الأَزْهَر)» طَوالَ العَصْرِ الفاطِمِي ، فقد كان «جامِعُ عَمْرو (الجامِع العَتيق)» بمصر الفُسْطاط ، الذي تأسَّسَ مع الفَتْحِ العَرَبي الإسْلامي لمصر ، هو مَرْكَزَ الحياة العِلْمِيَّة خِلالَ القُرُون الثَّلاثَة الأولى للإسْلام ثم أضْحَى مَرْكَزَ المُقاوَمَة السُّنِّيَّة طَوالَ العَصْرِ الفاطِمي وشارَكَتْه في ذلك مَدِينَةُ الإِسْكَنْدَرِيَّة التي غَلَبَ على أهْلِها المَذْهَبُ المالِكِي . فكان جامِعُ عَمْرو منذ إنْشائِه مَرْكَزَ حَلْقاتِ العِلْم ومَجالِسِه ؛ ويُعَدُّ يَزِيدُ بن أبي حَبِيب ، المتوفَّى سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٦ م ، أوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ العِلْمَ بمصر والحَدِيثَ في مَسائِل الحَلالِ والحَرَام[١] . ويُعَدُّ اللَّيْثُ بن سَعْدٍ وعبدُ الله بن لَهِيعَة أهَمّ عُلَماء مصر للفَتْرَة التَّالية[٢] . كما أنَّ الإمامَ محمد بن إدْرِيسِ الشَّافِعِي ظَلَّ يَجْلِسُ في حَلْقَتِه في جامِعِ عَمْرو كُلَّ يَوْمٍ بعد صَلاةِ الصُّبْح منذ قُدُومِه إلى مصر ، سنة ١٩٨هـ/٨٠٣م ، وحتَّى وَفاتِه بها سنة ٢٠٤هـ/٨٠٩م[٣] . ويَذْكُرُ ابْنُ زُولاق أنَّه كان للفُقَهاءِ المالِكِيّين في جامِعِ عَمْرو ، في سنة ٣٢٦هـ/٩٣٨م ، خَمْسُ عَشْرَة حَلْقَة ومِثْلُها للشَّافِعِيين ، بينما لم يكُن لأصْحابِ أبي حَنِيفَة سوى ثَلاثِ حَلْقات[٤] . وكان يحضر حَلْقَةَ أبي بَكْر النَّعّال ـ إمامِ المالِكِيَّة في مصر في وَقْتِه ، المتوفَّى سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ـ حَشْدٌ كبيرٌ في

=المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ١٢٣ ـ ١٢٦؛ أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر ٤٣٣ ـ ٤٣٩.

(١) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ١ ـ ٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ـ ١٩٦٧م ، ١: ٢٩٩.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ١ ـ ٨، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ـ دار الثقافة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢م ، ٣: ٣٨ ـ ٣٩ و ٤: ١٢٧ ـ ١٢٨؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٣٠١ و ٢: ١٤١.

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ١ ـ ٢٠، نشرة أحمد فريد رفاعي ، القاهرة ـ دار المأمون ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨م ، ١٧: ٣٠٤؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٣٠٤.

(٤) ابن زولاق تضمين عند ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب (قسم مصر) ، حققه زكي محمد حسن وآخران ، القاهرة ـ جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣م ، ١٧٣.

الجامعِ العَتيق حتَّى إنَّها كانت تَدُورُ على سَبْعَة عَشَرَ عَمُودًا في المَسْجِد[١] . وبَلَغَت حَلْقاتُ العِلْمِ في جامعِ عَمْرو قُرْبَ نهاية القرن الرَّابع الهجري/ العاشِر الميلادي ، كما يذكر المَقْدِسي البَشاري ، مئة وعَشْرَة مَجالِس[٢] . ويَصِفُ ناصِر خُسْرو ، في أواسِط القرن الخامِس الهجري /الحادي عَشَر الميلادي ، جامِعَ عَمْرو بأنَّه مَكانُ اجْتِماعِ سُكَّانِ المَدِينة الكَبِيرَة وأنَّ المُدَرِّسِينَ والمُقْرِئِينَ يُقِيمُونَ فيه ، ويُضِيفُ بعد ذلك أنَّه لا يَقِلُّ عَدَدُ مَنْ فيه في أي وَقْتٍ عن خَمْسَة آلاف من طُلاَّبِ العِلْمِ والغُرَباء والكُتَّاب الذين يُحَرِّرُونَ العُقُودَ وغيرها[٣] .

واخْتَلَفَ هذا الوَضْعُ بعدَ أنْ تَوَلَّى السُّلْطانُ النَّاصِرُ صَلاحُ الدِّين يوسُفُ بنُ أيُّوب الوَزارَة للإمام العاضِد لدين الله آخِر خُلَفاء الفاطِمِيِّين (٥٦٤ ـ ٥٦٧هـ/ ١١٦٩ ـ ١١٧١م) ، فشَرَعَ في تَغْيير الدَّوْلَة وإزالَتِها وحَجَرَ على العاضِد وأوْقَعَ بأُمَراء الدَّوْلَة وعَساكِرِها وأنْشأ بمَدِينَة مصر الفُسْطاط مَدْرَسَةً للفُقَهاء الشَّافِعِيَّة وأُخْرَى للفُقَهاء المالِكِيَّة ، فمَهَّدَ بذلك لإعْلانِ انْقِلابِه السِّلْمِيّ على الدَّوْلَةِ الفاطِمِيَّة ، في المحرَّم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، الذي وَضَعَ نِهايَةً لدَوْلَتِهِم[٤] ؛ فعَزَلَ قُضاةَ مصر الشِّيعَة كُلَّهُم وفَوَّضَ القَضاءَ لقاضِي القُضاةِ صَدْرِ الدِّين عبدِ المَلِكِ بنِ دِرْباس المارانيِ الهَذَبانيِ الشَّافِعِي وجَعَلَ إليه الحُكْمَ في جميع بِلادِ مصر بَعْدَما أحْضَرَهُ من المَحَلَّة ، فعَزَلَ مَنْ كان بها من القُضاة ولم يَسْتَنِب عنه في إقْليم مِصْر إلَّا مَنْ كان شافِعِيَّ المَذْهَب ، يقولُ المَقْرِيزي : «فتَظاهَرَ النَّاسُ من حينئذٍ بمَذْهَبَيِ

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٤٥١.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، نشر M. J. DE GOEJE، ليدن ـ بريل ١٩٠٦م ، ٢٠٥.

(٣) ناصر خسرو : سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشَّاب ، بيروت ـ دار الكتاب الجديد ١٩٧٢م ، ١٠٢.

(٤) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٣٩٦ واتعاظ الحنفا ٣: ٣٧٨ ـ ٣٧٩؛ أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ٣٠٠ ـ ٣٠٩.

مالِكٍ والشَّافِعِي واخْتَفَى مَذْهَبُ الشِّيعَة والإسْماعِيلِيّة والإمامِيَّة حتّى فُقِدَ من أرْضِ مِصْر، وبَطَلَ من حينئذٍ مَجْلِسُ الدَّعْوَةِ بالجامِعِ الأزْهَر وغيره»[١]. ولم يَكْتَفِ النَّاصِرُ صلاحُ الدِّين بذلك فقامَ بحَمْلِ الكافَّة على عَقِيدَةِ الشَّيْخ أبي الحسن عليّ بن إسْماعيل الأشْعَري وشَرَطَ ذلك بأوْقافِه التي بدِيارِ مصر. يقولُ المَقْرِيزي: «فاسْتَمَرَّ الحالُ على عَقِيدَةِ الأشْعَري بدِيارِ مِصْر وبِلادِ الشَّام وأرْضِ الحِجازِ واليَمَن وبِلاد المَغْرِب.... والأمْرُ على ذلك إلى اليَوْم»[٢]. وفَوْرَ أنْ تَوَلَّى القاضي عبد المَلِك بن دِرْباس عَمِلَ بمقتضى مَذْهَبِه وأفْتَى بامْتِناعِ إقامَةِ خُطْبَتَيْنِ للجُمُعَة في بَلَدٍ واحِد ـ كما هو مَذْهَبُ الشَّافِعِي ـ فأبْطَلَ الخُطْبَةَ من الجامِعِ الأزْهَر، باعْتِبارِه رَمْزًا للدَّعْوَةِ الإسْماعِيلِيَّة، وأقَرَّها بالجامِع الأنْوَر (الحاكِمِي) شَمال القاهِرَة من أجْلِ أنَّه أوْسَع[٣] بالنِّسْبَة لسُكَّانِ القـاهِرة، وبجامِعِ عَمْرو بالنِّسْبَة لسُكَّانِ الفُسْطاط.

ونتيجةً لذلك تَعَطَّلَت خُطْبَةُ الجُمُعَة من الجامِعِ الأزْهَرِ قُرابَةَ المِئَةَ عام (٥٦٧ ـ ٦٦٥هـ/١١٧١ ـ ١٢٦٧م) أدَّت إلى هَجْرِ الجامِعِ وتَصَدُّعِه[٤] إلى أنْ أعادَها إليه السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْسُ سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م ـ المُؤسِّسُ الحَقيقي لدَوْلَةِ المَماليك ومُحْيِي الخِلافَةَ العَبَّاسِيَّةَ بالقاهِرَة بعد أنْ أسْقَطَها المُغُول في بَغْداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[٥] ـ عندما دارَ حَدِيثٌ بين الفُقَهاءِ في جَوازِ إقامَةِ الجُمُعَةِ بالجامِعِ وما يَرَى

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٢٠٥، ٤: ٣٩٦؛ المصدر نفسه ٣: ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٣٩٦ ـ ٣٩٧؛ وانظر مقدمتي لكتاب «مذاهب أهل مصر وعقائدهم إلى أن انتشر مذهب الأشعرية» للمقريزي، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٦م، ٢٩ ـ ٣٣.

(٣) المصدر نفسه ٤: ١٠٣.

(٤) المصدر نفسه ٤: ١٠٣؛ حتى إنَّ ابن عبد الظاهر، الذي ألَّفَ كتابه «الرَّوْضة البهية الزاهرة في خِطَط المعزية القاهرة» سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، أي قبل الإجراءات التي اتَّخَذَها الظَّاهِرُ بَيْبَرْس لإعادة الخُطْبَة للجامِع، خَصَّصَ له سطرًا واحدًا في نهاية ذكره للجوامع التي بالقاهرة والتي بدأها بذكر الجامع الأنْوَر (جامع الحاكم) الذي حَلَّ محلَّ الجامع الأزْهَر طوال العَصْر الأيُّوبي. (ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٨٥).

(٥) راجع ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٩٩ ـ ١١٢، ١٤١ ـ ١٤٨؛ المقريزي: المواعظ ٣: =

العُلَماءُ في ذلك. فكُتِبَتْ فُتْيا أُخِذَت فيها خُطُوطُ العُلَماءِ بجَوازِ إقامَةِ الجُمُعَة في هذا الجامعِ والْتِئامِها به، فكَتَبَ جماعَةٌ خُطُوطَهُم فيها. وأُعِيدَت الخُطْبَةُ وصَلاةُ الجُمُعَة إلى الجامِعِ في الثَّامِن عَشَر من رَبِيعِ الآخَر سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، وإنِ امْتَنَعَ عن حُضُورِها السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس وقاضِي القُضاة تاجُ الدِّين بن بنت الأعَزّ[1]؛ وأقِيمَت صَلاةُ الجُمُعَة به واسْتَمَرَّت، يقولُ المَقْريزيُّ: «فوَجَدَ النَّاسُ به رِفْقًا وراحَةً لقُرْبِه من الحارات البَعِيدَة من الجامِعِ الحاكِمِي»[2]. وتَبَرَّعَ له الأميرُ عِزُّ الدِّين أَيْدَمُر الحِلِّي «بجُمْلَةٍ مستكثرةٍ من المالِ الجزيل، واسْتَطْلَقَ له من السُّلْطانِ جملةً من المالِ وشَرَعَ في عِمارَتِه، فعَمَّرَ الواهِيَ من أرْكانِه وجُدْرانِه وبَيَّضَهُ وبَلَّطَهُ وأصْلَحَ سُقُوفَه وفَرَشَهُ وكَساهُ حتَّى عادَ حَرَمًا في وَسَطِ المَدِينَة واسْتَجَدَّ به مَقْصُورَةً حَسَنَةً وأَثَّرَ آثارًا صالِحَةً يُثِيبُه الله عليها»[3]. ويُضِيفُ ابن عبد الظَّاهِر أنَّ الأميرَ بَدْرَ الدِّين بَيْلَبَك الخازِنْدار عَمِلَ فيه كذلك مَقْصُورَةً كبيرةً رَتَّبَ فيها مُدَرِّسًا وجَماعَةً من الفُقَهاء على مَذْهَبِ الإمامِ الشَّافِعِي ـ وإنْ كان مَذْهَبُه حَنَفِيًا ـ ورَتَّبَ في هذه المَقْصُورَة مُحَدِّثًا يُسْمِعُ الحَدِيثَ النَّبَوي والرَّقائِقَ وشَيْخًا لقِراءَةِ القُرْآن[4].

ووَقَعَت العِنايَةُ بالجامِع طَوالَ العَصْرِ المَمْلوكِيّ بعد الإهْمالِ الذي لَحِقَه في العَصْرِ الأيُّوبي، فتَمَّ تَرْمِيمُه وصِيانَتُه أكثر من مَرَّة، أهَمُّها ما تَمَّ في أعْقابِ الزِّلْزالِ الذي ضَرَبَ مِصْرَ والقاهِرَةَ سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وتَوَلَّى عِمارَتَه الأميرُ

= ٧٨٣ ـ ٧٨٧ وما ذكر في هامشه من مراجع ودراسات حديثة.

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٢٧٧؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤م، ١: ٥٥٧.

(٢) المقريزي: المواعظ ٤: ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٢٧٧؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٠١ والسلوك ١: ٥٥٦.

(٤) المصدر نفسه ٢٧٧.

سَيْفُ الدِّين سَلار بن عبد الله المَنْصوري نائِبُ السَّلْطَنَة[١]. وتوالَت عَمَلِيَّةُ تَجْديد وعِمارَة الجامِع، فجَدَّدَ عِمارَتَه القاضي نَجْمُ الدِّين محمَّد بن حُسَيْن بن عليّ الأسْعَرْدي مُحْتَسِبُ القاهِرَة سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م؛ وكذلك الطَّواشِي سَعْد الدِّين بَشير الجامَدار النَّاصِري عندما أقامَ بجِوارِه بخُطِّ الأبَّارِين، سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٦ م، فتَتَبَّعَ جُدْرانَه وسُقُفَه بالإصْلاحِ حتَّى عادَت كأنَّها جَدِيدَةٌ وبَيَّضَ الجامِعَ كُلَّهُ وبَلَّطَه[٢].

واسْتِكْمالًا لشَكْلِ النَّمَطِ التَّعْلِيمِي الذي كان سائِدًا في العَصْرِ المَمْلُوكي، أقِيمَت على بابِ الجامِعِ الغَرْبِي مَدْرَسَتان: المَدْرَسَةُ الطَّيْبَرْسِيَّةُ سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م[٣]، والمَدْرَسَةُ الآقْبُغاوِيَّةُ سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م[٤]، ثم المَدْرَسَةُ الجَوْهَرِيَّةُ في طَرَفِه الشَّرْقِيِّ التي أنْشَأها، في سنة ٨٤٤هـ/١٨٤٥م، الأميرُ جَوْهَرُ القُنْقُبائِيّ[٥].

وتَرْجِعُ أقْدَمُ إشارَةٍ وَصَلَت إلينا إلى وُجُودِ «أرْوِقَةٍ» بالجامِعِ الأزْهَر إلى عام ٨١٨هـ/١٤١٦م، في عَهْدِ السُّلْطانِ المُؤَيَّد شَيْخ المَحْمودي؛ فقد كان هناك دائمًا عِدَّةٌ من الفُقَراءِ يُلازِمُونَ الإقامَةَ فيه، وبَلَغَت عِدَّتُهُم في هذا الوَقْت ٧٥٠ رجلًا، ما بين عَجَم وزَيالِعَةٍ ومن أهْلِ رِيفِ مصر ومَغارِبَة، ولكُلِّ طَائِفَةٍ رِواقٌ يُعْرَفُ بهِم. فقامَ الأمير سُودُون القاضي حاجِبُ الحُجَّابِ بإخْراجِهِم من الجامِعِ،

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٠٣ وما ذكر من مصادر ومراجع؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٩٩م، ٦: ٥ ـ ١٣.

(٢) المصدر نفسه ٤: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٥٣٦ ـ ٥٣٨.

(٤) المصدر نفسه ٤: ٥٤٠ ـ ٥٤٤.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧١م، ١٥: ٤٨٥ ـ ٤٨٦ والمنهل الصافي ٥: ٤٢؛ السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١ ـ ١٢، القاهرة ـ مكتبة القدسي ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥هـ، ٣: ٨٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ١ ـ ٥، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ـ فيسبادن ١٩٦١ ـ ١٩٧٥م، ٢: ٢٢٧.

ومَنَعَهم من الإقامَةِ في هذه السَّنَةِ . وعَلَّقَ المَقْريزيُّ على ذلك بأنَّه «ما كان إلَّا من أعْظَمِ الذُّنُوبِ وأكْثَرِها ضَرَرًا ، فإنَّه حَلَّ بالفُقَراءِ بَلاءٌ كبيرٌ من تَشَتُّتِ شَمْلِهِم وتَعَذُّرِ الأماكِنِ عليهم ، فسارُوا إلى القُرَى وتَبَذَّلُوا بعدَ الصِّيانَةِ ، وفُقِدَ من الجامِعِ أكثرُ ما كان فيه من تِلاوَةِ القُرآنِ ، ودِراسَةِ العِلْمِ ، وذِكْرِ الله»[١] . الأمْرُ الذي يَدُلُّ على أنَّ تَواجُدَهُم لم يكن بغَرَضِ الدَّرْسِ المُنْتَظِم وتَلَقِّي العِلْم ، وإنَّما المُجاوَرَة والاحْتِماء بالجامِعِ كمَكانٍ للإيواء والسَّكَن .

وكانت أهَمُّ العِماراتِ التي أُجْرِيَت على الجامِعِ في العَصْرِ المَمْلُوكي العِمارَةُ التي أجْراها السُّلْطانُ الأشْرَفُ قايِتْباي (٨٧٢ ـ ٩٠١هـ/١٤٧٨ ـ ١٤٩٦م) ، سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م ، حيث هَدَمَ بابَ الجامِعِ الغَرْبيّ الكبير ، وهو البابُ القَديمُ للجامِعِ الذي كانت تَعْلُوه المَنارَةُ ، وجَدَّدَه على ما هو عليه الآن وأقامَ على يَمْنَتِه مَنارَةً رَشِيقَةً[٢] .

ثُم تتابَعَت عِمارَةُ الجامِع في عَصرِ السُّلْطان الأشْرَف قايِتْباي ، فكان آخِرُها ما قامَ به الخَواجا مصطفى بن الخَواجا رُسْتُم ، الذي أضافَ مَقْصورَةً خَشَبِيَّةً على وَجْهِ الأرْوِقَةِ الثَّلاثَة التي تفتحُ على الصَّحْن . وتُوجَدُ لَوْحَةٌ تارِيخِيَّةٌ تُشيرُ إلى ذلك جاءَ فيها :

> «أَمَرَ بتَجْديدِ هذا الجامِعِ سَيِّدُنا ومَوْلانا السُّلْطانُ الملكُ الأشْرَفُ قايِتْباي على يدِ الخَواجا مصطفى بن الخَواجا محمود بن الخَواجا رُسْتُم غَفَرَ الله لهم بتأريخِ شهرِ رَجَب عامَ إحْدى وتِسْعِ مائَة»[٣] .

---

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ : ١٠٦ ـ ١٠٧ والسلوك ٤ : ٣٢٢ ـ ٣٢٤.

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ٦ : ٢٠٩.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ٣ : ٣٠٦، ٤٣١.

ثم أضافَ السُّلْطانُ الأشْرَفُ قانْصُوه الغُوريُّ (٩٠٦ - ٩٢٢هـ/١٥٠١ - ١٥١٦م) إلى الجامِع، في سنة ٩١٥هـ/١٥١٠م، مَنارَةً متميِّزَةً ذاتَ رَأْسٍ مُزْدَوَجٍ، امتازَتْ كذلك بتَلْبِيسِ القاشانيِّ ببَدَنِ دَوْرَتِها الثَّانِيةِ، هي آخِرُ ما أُضِيفَ إلى الجامِعِ في العَصْرِ المَمْلُوكِيِّ[1].

ويَتَّضِحُ من ذلك أنَّه لم يكن للجامِعِ الأزْهَر دَوْرٌ تَعْليمِيٌّ مُهِمٌّ في العَصْرِ المَمْلُوكي، لأنَّ هذا الدَّوْرَ كانت تقومُ به المَدارِسُ التي بَدَأت مع الأيُّوبِيين وازْدَهَرَت في ظِلِّ دَوْلَةِ سَلاطِين المَماليك، وكانت تُدَرِّسُ الفِقْهَ على المَذاهِبِ الأرْبَعَة وعُلُومَ القرآن والحَدِيثَ واللُّغَة والنَّحْو والعَقِيدَةَ الأشْعَرِيَّة، إضافَةً إلى بعض العُلُومِ التَّطْبِيقِيَّة مثل الرِّياضِيات والفَلَك. ولم يَمْنَع ذلك من إلْقاءِ بعض كِبارِ العُلَماءِ لدُرُوسٍ في الجامِع الأزْهَر، مثل عالِم الاجْتِماعِ والفَقِيه المالِكِي المعْروف عبد الرَّحْمَن بن خَلْدُون عندما قَدِمَ إلى القاهِرَة في أوَّل ذي القعدة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، يقولُ: «ولمَّا دَخَلْتُها أقَمْتُ أيَّامًا وانْثالَ عَلَيَّ طَلَبَةُ العِلْم بها يَلْتَمِسُونَ الإفادَة مع قِلَّةِ البِضاعَة، ولم يُوسِعُوني عُذْرًا، فجَلَسْتُ للتَّدْريس بالجامِع الأزْهَر منها»[2]، ولكنَّها لم تكن دُرُوسًا نِظامِيَّةً مثل تلك التي كانت تَضْطَلِعُ بها المَدارِسُ بما كانت تَشْتَمِلُ عليه من خَزائِنَ للكُتُبِ وأماكِنَ لإعاشَةِ الطَّلَبَة وإقامَتِهِم وجِرايات لهم وجامَكِيّات لمُدَرِّسيها تقومُ بها الأوْقافُ المَوْقوفَة على هذه المَدارِس (مَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن والمَدْرَسَة الظَّاهِرِيَّة الجَدِيدَة والمَدْرَسَة النَّاصِرِيَّة ومَدْرَسَة صَرْغَتْمَش وغيرها من المَدارِس التي أَتَى على ذِكْرِها المَقْريزي في «المَواعِظ والاعْتِبار»)[3].

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٥: ٩٤.

(٢) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، تونس - دار القيروان ٢٠٠٦م، ٢٥٥؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/٢: ٤٨٠.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٤٥١ - ٦٨٩.

وأشارَ ابْنُ خَلْدُون نفسه إلى ذلك فنَجِدُه يقولُ في «المُـقَـدِّمَة» ، وهو يَذْكُر تَراجُعَ دَوْرِ مَراكِز العِلْم القَدِيمَة في بَغْداد وقُرْطُبَة والقَيْرَوان والبَصْرَة والكُوفَة :

«ونحن لهذا العَهْدِ نَرَى أنَّ العِلْمَ والتَّعْلِيمَ إنَّما هو بالقـاهِرَة من بِلادِ مِصْر ، لما أنَّ عُمْرانَها مُسْتَبْحِرٌ وحَضارَتها مُسْتَحْكِمَةٌ منذ آلافٍ من السِّنِين ، فاسْتَحْكَمَت فيها الصَّنائِعُ وتَفَنَّنَت ، ومن جملتها تَعْلِيمُ العِلْم . وأكَّدَ ذلك فيها وحَفِظَه ما وَقَعَ لهذه العُصُورِ بها منذ مئتين من السِّنِين في دَوْلَةِ التُّرْكِ من أيَّامِ صَلاحِ الدِّين بن أيُّوب وهلم جَرًّا ... فاسْتَكْثَروا من بِناءِ المَدارِس والزَّوايا والرُّبُط ووَقَفُوا عليها الأوْقافَ المُغِلَّة ... فكَثُرَت الأوْقافُ لذلك وعَظُمَت الغَلَّاتُ والفَوائِدُ وكَثُرَ طالِبُ العِلْم ومُعَلِّمُه بكَثْرَةِ جِراياتِهِم منها ؛ وارْتَحَلَ إليها النَّاسُ في طَلَبِ العِلْمِ من العِراق والمَغْرِب ، ونَفَقَت بها أسْواقُ العُلُومِ وزَخَرَت بِحارُها»[1] .

وأكَّدَ ذلك في «التَّعْرِيف» ، يقولُ في وَصْفِ المَماليك حُكَّامِ مِصْرَ والشَّام :

«أهْلُ هذه الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة بمِصْرَ والشَّام مَعْنِيُّون على القِدَم منذ عَهْدِ مَوالِيهِم مُلُوكِ بني أيُّوب بإنْشاءِ المَدارِس لتَدْرِيس العِلْمِ والخَوانِق لإقامَة رُسُومِ الفُقَراء في التَّخَلُّق بآدابِ الصُّوفِيَّة السُّنِّيَّة في مُطارَحَة الأذْكارِ ونَوافِلِ الصَّلَوات ، أخَذُوا ذلك عَمَّن قَبْلَهُم من الدُّوَلِ الخِلافِيَّة ، فيَخْتَطُّون مَبانِيها ويَقِفُونَ الأراضي المُغِلَّة للإنْفاقِ على طَلَبَةِ العِلْمِ ومُتَدَرِّبِي الفُقَرَاء ... واقْتَدَى بسُنَّتِهِم في ذلك مَنْ تحت أيْدِيهِم من أهْلِ الرِّياسَة والثَّرْوَة ، فكَثُرَت المَدارِسُ والخَوانِقُ بمَدِينَةِ القاهِرَة ، وأصْبَحَت مَعاشًا للفُقَرَاءِ من الفُقَهاءِ والصُّوفِيَّة ،

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، تحقيق إبراهيم شبوح ، تونس ـ دار القيروان ٢٠٠٦م ، ٢: ١٨٣.

وكان ذلك من مَحاسِنِ هذه الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة وآثارِها الجَمِيلَةِ الخالِدَة»[١].

وهو ما اتُّبِعَ مع ابن خَلْدُون نفسه عندما وَلَّاهُ السُّلْطانُ تَدْرِيسَ المَدْرَسَة القَمْحِيَّة بفُسْطاطِ مصر سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م[٢]، وعندما وَلَّاهُ بعد ذلك تَدْرِيسَ المالِكِيَّة بالمَدْرَسَة الظَّاهِرِيَّة الجَدِيدَة بين القَصْرَيْن فور الفَراغِ من بِنائِها سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م[٣]، وكذلك تَوْلِيَتُه وَظِيفَة تَدْرِيس الحَدِيث عند شُغُورِ هذه الوَظِيفَة بمَدْرَسَة صَرْغَتْمَش المُجاوِرَة لجامِع ابن طُولُون في سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م[٤].

*

* *

ولكن مع سُقُوطِ دَوْلَةِ المَمالِيك في مِصْرَ والشَّام ومَدِّ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّة سَطْوَتَها عليها وعلى الأراضي التي أُطْلِقَ عليها فيما بعد «العَالَم العَرَبي»، سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، تَنامَى دَوْرُ الجامِعِ الأَزْهَر[٥] وتَرَسَّخَت مَكانَته كمُؤسَّسَةٍ عِلْمِيَّةٍ مع تَراجُع دَوْرِ المَدارِسِ المَمْلوكِيَّة في ظِلِّ نِظامِ الأَوْقافِ الذي تَبَنَّاهُ العُثْمانِيُّون ـ الحُكَّامُ الجُدُد ـ ابْتِداءً من عَهْدِ السُّلْطان سُلَيْمان القانُوني الذي وَقَفَ العَدِيدَ من الرِّزَقِ الأَحْباسِيَّة والعَقارات على الجامِعِ الأَزْهَر، الأَمْرُ الذي ساعَدَ على إبْرازِ

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، ٢٨٦.

(٢) المصدر نفسه ٢٦٠، ٢٨٦.

(٣) المصدر نفسه ٢٩٣.

(٤) المصدر نفسه ٣٠١.

(٥) راجع عبد العزيز محمد الشناوي: «دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني»، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ القاهرة ٢: ٦٦٥ ـ ٧١٥؛ عبد الجواد صابر إسماعيل: دور الأزْهَر في مصر إبان الحكم العثماني ٩٢٢ ـ ١٢١٣هـ/١٥١٧ ـ ١٧٩٨م، ماجستير بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٩٦٩م، ومجتمع علماء الأزْهَر في مصر إبان الحكم العثماني، دكتوراة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٩٧٨م.

المَكانَة العِلْمِيَّة للجامع[1]. يقولُ الرَّحّالَةُ التُّرْكِي أَوْلِيا شَلَبِي، الذي زارَ مصر في الفَتْرَة بين سنتي ١٠٨٣ ـ ١٠٩١هـ/١٦٧٢ ـ ١٦٨٠م، في وَصْفِ الجامِع الأزْهر:

> «ليس في مصر جامِعٌ له ما للأزْهَر من جَماعَة، إذْ هو واقِعٌ في عَيْنِ فِعْلِ مصر، فهو مُزْدَحِمٌ بالنَّاسِ لَيْلًا ونَهارًا، فلا تَجِدُ فيه مَوْضِعًا للسَّجْدَة، يَجْتَمِعُ فيه اثْنا عَشْر أَلْف طالِب لَيْلَ نَهار، وتَطِنُّ أصْواتُهُم كأصْواتِ النَّحْلِ مِمَّا يُدْهِشُ الإنْسان، وقد انْهَمَكوا في مُباحَثات عِلْمِيَّة»[2].

وعَرَفَ الجامِعُ الأزْهَرُ كذلك في نهاية القَرْنِ الحادي عَشَر الهجري/السَّابع عَشَر الميلادي مَنْصِبَ «شَيْخ الإسْلام»، وهو اللَّقَبُ الذي تَحَوَّلَ بعد ذلك إلى «شَيْخ الأزْهَر». ورَغْم أنَّنا نَجْهَلُ التَّأْرِيخَ الدَّقِيقَ لظُهُورِ هذا اللَّقَبِ والظُّرُوفَ التي أحاطَت بنَشْأتِه، فإنَّه لم يَظْهَر إلى الوُجُودِ قبل نِهايَة القَرْنِ السَّابع عَشَر، وأوَّلُ شَخْصٍ نَعْرِفُ أنَّه سُمِّيَ «شَيْخ الإسْلام» هو الشَّيْخ محمد بن عبد الله الخَرَشِيّ المالِكِيّ، ولا نَعْرِفُ متى تَبَوَّأَ هذا المَنْصِبَ الذي يَتِمُّ باخْتِيارِ كِبارِ العُلَماء، ونَعْرِفُ فقط أنَّه تُوُفِّيَ في سنة ١١٠١هـ/١٦٩٠م[3].

---

(١) حسام محمد عبد المعطي: شيخ الجامع الأزْهَر في العصر العثماني ٩٤٥ ـ ١٢٢٧هـ/١٥٣٨ ـ ١٨١٢م، الإسكندرية ـ مكتبة الإسكندرية ٢٠١٦م، ١٧ ـ ١٩.

(٢) أوليا شلبي: سياحتنامة سي مصر، ترجمة محمد علي عوني وعبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان ومراجعة أحمد فؤاد متولي، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠٠٣م، ٢٧١.

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٩٨م، ١: ١٢١؛ DANIEL CRECELIUS, «The Emergence of the *Shaykh al-Azhar* as the Pre-Eminent Religious Leader in Egypt», *CIHC*, pp.109-23؛ ومؤخرًا حسام محمد عبد المعطي: شيخ الجامع الأزْهَر في العصر العثماني ٩٤٥ ـ ١٢٢٧هـ/١٥٣٨ ـ ١٨١٢م؛ وانظر كذلك حلمي النمنم: الأزْهَر الشَّيْخ والمَشْيَخة، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢م.=

ووَجَدَ الجامعُ بعد ذلك عِنايَةً مُتناهِيَةً من الوُلاةِ العُثمانيِّين وأُدْخِلَت عليه إصْلاحاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ، لَعَلَّ أهَمَّها العِمارَةُ التي قامَ بها، سنة ١١٦٧هـ/١٧٥٤م، الأميرُ عبدُ الرحمن كَتْخُدا، التي أَضافَت إلى مِساحَةِ الجامِع الأرْوِقَةَ الموجودةَ خَلْفَ المِحْرابِ الفاطِمِيِّ القديمِ، وهي الزِّيادَة التي جَدَّدَها الخِديو محمَّد توفيق باشا سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م. ويُوجَدُ في النِّهايَةِ القِبْلِيَّةِ لهذا الرِّواقِ بابٌ يُؤدِّي إلى القُبَّةِ التي دُفِنَ فيها الأميرُ عبدُ الرحمن كَتْخُدا سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م، وهو الذي أنْشأَ كذلك بابَ الصَّعايِدَة والمنارَةَ الموجودةَ أعْلاهُ، كما أَنشأَ الشُّرْفَةَ في الطَّرَفِ الشَّرْقي البَحْري. وجَدَّدَ كذلك واجِهَةَ المَدْرَسَةِ الطَّيْبَرْسِيَّةِ وأنشأَ البابَ الغربيَّ الكبيرَ الرَّئيس للجامع المعروفِ الآن بباب المُزَيِّنِين (وهو عِبارَة عن بابَيْن عَظِيمَيْن كلّ بابٍ بِمِصْراعَيْن)[1]، فضَمَّ بذلكَ المَدْرَسَةَ الطَّيْبَرْسِيَّةَ والمَدْرَسَةَ الآقْبُغاوِيَّةَ إلى الجامع[2]؛ يقولُ الجَبَرْتي وهو يُعَدِّدُ مُنْشَآت عبد الرَّحْمَن كَتْخُدا بالقاهِرَة: «ولو لم يَكُنْ له مِنَ المآثِرِ إلاّ ما أنْشأ بالجامِعِ الأزْهَر من الزِّيادَة والعِمارَة التي تَقْصُرُ عنها هِمَمُ المُـلُوكِ لكَفاهُ ذلك»[3]. وقد فُكَّت مَباني هذا الباب وأُعِيدَ بناؤُه سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م عند تَوْسِعَة الشَّارِع الذي تُطِلُّ عليه الواجِهَةُ، ومع بِناءِ الرِّواقِ العَبَّاسِيّ الذي أمَرَ بِبنائِه الخِديو عَبَّاس حِلْمي الثَّاني.

*

* *

=وبلغ عدد مشايخ الأزهر منذ هذا التأريخ وحتى الآن ثمانية وأربعين شيخًا.

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٧.

(٢) المصدر نفسه ٢: ٦ ـ ٧؛ A. Raymond, «Les constructions de l'Emir Abd al-Rahman Katkhuda au Caire», *An. Isl.* XI (1972), pp. 235-51؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧٠م، ٤: ٤٥ ـ ٤٦؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) المصدر نفسه ٢: ١٠.

وجاءَ التَّحَوُّلُ الكبيرُ في دَوْرِ الجامِعِ الأزْهَر مع وُصُولِ الحَمْلَةِ الفِرَنْسِيَّةِ إلى مصر، سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، وانْهِزامِ قُوَّاتِ الأمير مُراد بك المملوكي وانْسِحابِ القُوَّاتِ المُدافِعَة الأُخْرَى إيمانًا منها بعُقمِ القِتال، فتُرِكَت القاهِرَةُ تحت رَحْمَةِ الغُزاة وسادَ في أرْجائِها الاضْطِرابُ والذُّعْر. هنا بَرَزَ دَوْرٌ جَدِيدٌ للأزْهَر، هو القِيادَة الشَّعْبِيَّة والزَّعامَة الوَطَنِيَّة، ونَجَحَ بعد التَّفاوُضِ مع الفِرنْسِيين، في ١٣ صفر سنة ١٢١٣هـ/٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨م، في تأْلِيفِ «دِيـوَانٍ» يُشْرِفُ على حُكْمِ القاهِرَة وتَدْبِيرِ شُئونِها مُؤَلَّفٍ من تِسْعَةِ أعْضَاء من شُيُوخ الأزْهَر على رَأْسِهِم الشَّيْخ عبد الله الشَّرْقاوي شَيْخُ الجامِعِ آنَذاك، وتولَّى أمانَةَ الدِّيوَان الشَّيْخُ محمَّد المَهْدِي. وبالرَّغْم من أنَّ سُلْطَةَ هذا الدِّيوان كانت محدودةً وخاضِعَةً لتَوْجِيه المُحْتَلِّين، فإنَّ في تأْلِيفِه على هذا النَّحْو، تَنْويهًا ظاهِرًا بأهمية الجامِع الأزْهَر ومَكانَةِ عُلَمائِه في هذا الوَقْت واعْتِرافًا بزَعامَتِهِم الشَّعْبِيَّة والوَطَنِيَّة[1]. وتَشَكَّلَت داخِلَ الجامِع لَجْنَةٌ للثَّوْرَة على المَظالِم الفِرنْسِية قادَت ثَوْرَةَ القاهِرَة الأولى (١٧٩٨م)، التي لم يجد الفِرنْسِيُّونَ سَبِيلًا للقَضَاءِ عليها سوى احْتِلالِ الجامِعِ الأزْهَر وضَرْبِه بالقَنابِل واقْتِحامِهِم له بخُيولِهِم، ممَّا أدَّى إلى قَتْلِ الكثيرِ من النَّاس ودَفْنِ عَدَدٍ كبيرٍ منهم تحت الأنْقاض[2].

وكان للأزْهَرِ كذلك شأنٌ يذكر في مُسانَدَة محمَّد علي باشا(١٨٠٥ ـ ١٨٤٩م) في الوُصُولِ إلى السُّلْطَة، وتَدَخَّلَ عُلَماؤه بعَرائِضِهِم إلى السُّلْطانِ سَلِيم

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ١٦ ـ ١٧، ٤٠ ـ ٤١؛ وانظر إسماعيل الخَشَّاب: التاريخ المسلسل في حوادث الزمان ووقائع الدِّيوان (١٨٠٠ ـ ١٨٠١)، تحقيق وتحليل وتعليق محمد عفيفي وأندريه ريمون، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ٢٠٠٣م، حول وقائع الدِّيوان الذي أنشأه القائد الفرنسي مينو MENOU في أكتوبر سنة ١٨٠٠م.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٤١ ـ ٤٦؛ وراجع دراسة جلال محمد كشك: .. ودخلت الخيلُ الأزهر، بيروت ـ الدار العلمية ١٩٧٢م.

الثَّالِث العُثْماني (١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ/١٧٨٩ ـ ١٨٠٧م) في الآسِتانَة لدَعْمِه وتأييده غير مَرَّة، وكان لمَوْقِفِهم أثَرَهُ في حَشْدِ الشَّعْبِ من حَوْلِه وتَوْطِيدِ مَرْكَزِه بالتَّعاوُنِ مع نَقِيبِ الأشْرَاف الزَّعِيم الوَطَني الكبير عُمَر مَكْرَم، وكُلِّلَت مَساعِيهُم يومئذٍ بالنَّجَاح، واشْتَرَكَ شَيْخُ الجامِع الأزْهَر، الشَّيْخُ عبد الله الشَّرْقاوي، مع السَّيِّد عُمَر مَكْرَم، نَقِيب الأشْراف، في إلْباسِ خِلْعَةِ الوِلايَة لمحمَّد علي باشا سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م[1]. ولَبِثَ الأزْهَرُ بعد ذلك محتفظًا بمَكانَتِه ونُفوذِه، وقد يَتَضاءَل هذا النُّفُوذُ أحيانًا تحت ضَغْطِ سُلْطانِ الطُّغْيانِ السِّياسي، ولكنَّه يبقى كامِنًا يبدو عند أوَّلِ فُرْصَة.

وابْتِداءً من عَصْرِ الخِدِيو إسْماعيل باشا (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م) أخَذَ الأزْهَرُ يَتأثَّرُ بالتَّغْييرات الحَدِيثَة والنُّقْلَة الحَضارِيَّة التي قادَها إسْماعيلُ باشا، وساهَمَ كذلك في إذْكاءِ هذه الرُّوح الجَدِيدَة وفي مُضاعَفَة وَعْي الأزْهَر وطُمُوحِه مَقْدِمُ المُصْلِح الكبير السَّيِّد جَمال الدِّين الأفْغاني(١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) إلى مصر واتِّصالِه بالأزْهَر وطُلَّابِه (بين سنتي ١٨٧١ ـ ١٨٧٩م)[2]. وكان من أكبر المتأثِّرين به مُفْتِي الدِّيارِ المصرية بعد ذلك الإمامُ محمَّد عَبْدُه (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) والذي نَجِدُه لا يَتَرَدَّدُ في التَّحَوُّلِ من مُناصِرٍ لأراءِ المَدْرَسَةِ الأشْعَرِيَّة في كِتابِ «العَقِيدَة المُحَمَّدِيَّة» إلى مُناصِرٍ للمُعْتَزِلَة والعَقْلِيين في كِتاب «الحاشِيَة على شَرْحِ العَقائِد النَّسَفِيَّة»، ويُقْبِلُ في الوَقْتِ نفسه على دِراسَةِ العُلُومِ المُخْتَلِفَة التي خَلَت منها مَناهِجُ التَّدْرِيس في الأزْهَر، كالفَلْسَفَة وعِلمِ الكَلام والرِّياضِيَّات والأخْلاق والسِّياسَة[3].

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٥٢١ ـ ٥٢٢.

(٢) انظر J. JOMIER, *EI*^{2} art. *Djamal al-Din al-Afghani* II, pp. 427-30.

(٣) انظر عثمان أمين: «جمال الدِّين الأفْغاني في القاهرة»، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ القاهرة، القاهرة ١٩٧١م، ٨٣٣ ـ ٨٤٧.

وقامَ الشَّيْخُ محمَّد عَبْده ، إضافَةً إلى ذلك ، بدَعْوَةِ الخِدِيو عَبّاس حِلْمِي الثّاني (١٨٩٢ ـ ١٩١٤م) ، سنة ١٨٩٦م ، لإنْشاءِ مَكْتَبَةٍ للأزْهَرِ تُجْمَعُ بها الكُتُبُ الخَطِّيَّةُ المُتناثِرَةُ في أرْوِقَةِ الجامِع والتي تكوَّن أغْلَبُها خِلالَ العَصْرِ العُثْماني ، واخْتِيرَ مَوْضِعًا لها المَدْرَسَةُ الآقْبُغاوِيَّةُ على يَسارِ الدَّاخِلِ من بابِ المُزَيِّنِين ؛ ثم أُهْدِيَت إليها ـ بعد ذلك ـ مَكْتبات شُيوخ أزْهَرِيين وعُلَماء آخَرين واحْتَفَظَت بأسْمائِهم كان أوَّلُها مَكْتَبَة الشَّيْخ حَسُّونَة النَّواوي شَيْخ الأزْهَر الذي افْتُتِحَت في عَهْدِه المَكْتَبَة ثم مَكْتَبَة سُلَيْمان باشا أباظَة الذي أهْدَى وَرَثَتُهُ المَكْتَبَة إلى الجامِع[1].

وتَلَقَّى الأزْهَرُ ، باعْتِبارِه مَرْكَزَ التَّعْلِيم العالي الإسْلامي في مصر ، بعد ذَهابِ دَوْرِ المَدارِس التي ازْدَهَرَت في العَصْرِ المَمْلُوكي ، تَغْيِيرات مُهِمَّة منذ أواخِرِ القرن التَّاسِع عَشَر . فمع بِدايَةِ الإدارَةِ الحُكومِيَّةِ الحَدِيثَةِ في مصر أصْبَحَ مَجالُ التَّعْلِيم تَدْرِيجِيًّا هَدَفًا مُشْتَرَكًا لسِياسات الدَّوْلَة ، فأُنْشِئَت مُؤَسَّساتٌ تَعْلِيمِيَّةٌ جديدةٌ ووُضِعَت المؤسَّساتُ القَدِيمَةُ تحت نَظَرِ الدَّوْلَة ، فأصبح انْفِرادُ الأزْهَر بالتَّعْلِيم في مصر يُواجِه تَحَدِّيَات فَرَضَتْها المُؤَسَّساتُ التَّعْلِيمِيةُ الجديدة ، مثل دار العُلُوم (١٨٧٢م) وبعد ذلك مع تأسِيسِ مَدْرَسَةِ القَضاء الشَّرْعِي (١٩٠٧م)[2] ، وقبل ذلك مع تأسِيس محمد علي باشا لمَدْرَسة الطِّبّ والمُهَنْدِسْخاناه ومَدْرَسَة الألْسُن[3] .

وعَرَفَ الأزْهَرُ إصْلاحاتٍ جَوْهَرِيَّة مع قَوانِين تَنْظِيمِه الصَّادِرَة في عامَيّ ١٨٩٦ و١٩١١م التي أوْجَدَت بِيروقْراطِيَّةً مركزية ترأسَّها شَيْخُ الجامِع الأزْهَر باعْتِبارِه

---

(١) راجع محمد أبا الوفا المراغي : «المخطوطات في المكتبة الأزهرية» ، مجلة معهد المخطوطات العربية ١ (١٩٥٥) ، ٥٦ ـ ٦١.

(٢) راجع ، عبد المتعال الصعيدي : تاريخ الإصلاح في الأزهر ـ صفحات من الجهاد في الإصلاح ، القاهرة ١٩٥١م ، ٨٦.

(٣) راجع لمزيد من التَّفْصِيل أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، القاهرة ـ دار النهضة المصرية ١٩٣٨م .

مُشْرِفًا على هَيْئَةٍ إدارية تُدِيرُ شُئونَ التَّعْليم والطَّلَبَة والاخْتِبارات إضافَةً إلى اخْتِيار الهيئة التَّعْليمِية والإدارية. وتأسَّسَت «هَيْئَةُ كِبارِ العُلَماء»، في عام ١٩١١م، من ثلاثين من كِبارِ المَشائِخ ليُحاضِرُوا الطَّلَبَة وليُرْجَع إليهم في كلِّ ما يتعلَّقُ بالأُمُورِ الدِّينِيَّةِ والشَّرْعِيَّة، وأُنْشِئَت معاهِدُ دينيَّة جديدة تابِعَة للأزْهَر في عَواصِم بعض المُدِيرِيَّات وأُضِيفَت مَوادّ دِراسِيَّة جَدِيدَة إلى مَناهِجِ الأزْهَر مثل التَّارِيخ والجُغْرافيا والرِّياضَة ومَبادىء الكِيمْياء والطَّبِيعَة، وأصبحَ مَنْهَجُ الدِّراسَةِ منذ هذا التَّأْرِيخ محدَّدًا بتدرُّجٍ واضِحٍ وجَدِيدٍ أصبح الطَّالِبُ يَجْتازُ بمُقْتَضاه بعد ثَمانِ سنوات اخْتِبارَ «الأهْلِيَّة»، وبعد أرْبَعِ سنوات أخْرَى اخْتِبارَ «العالَمِيَّة» التي تؤهِّلُه للتَّدْرِيس[1].

وأثَّرَ في الحَياةِ العامَّةِ في التَّارِيخ المصري في مَطْلَعِ القَرْن العِشْرين طائِفَةٌ من نَوابِغ المُفَكِّرين والصَّحَفِيين والأدَباء الذين دَرَسُوا في مَرْحَلَةٍ من حَياتِهم في الجامع الأزْهَر، وكان لهم أثَرٌ يُذْكَرُ في تَوْجِيه الرَّأي العام وإيقاظِ الشُّعُورِ الوَطَني الذي تَجَلَّى خِلالَ ثورة سنة ١٩١٩م حيث كان الجامِعُ الأزْهَر، صَحْنُه وأرْوِقَتُه، ساحَةً من أهَمِّ ساحاتها.

وكانت التَّطَوُّراتُ التي شَهِدَها العالَمُ في العَقْدِ الثَّاني من القرن العِشْرين نتيجةً لانْدِلاعِ الحَرْبِ العالَمِيَّة الأُولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م)، وعلى الأخَصِّ تَوابِعُها على الدَّوْلَة العُثْمانِيَّة والتي أنْهَت عَلاقَة مصر بالدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّة مع إعْلانِ الحِمايَة البريطانية عليها سنة ١٩١٤م، وكذلك الإجْراءَات التي اتَّخَذَها بعد ذلك مصْطَفى كمال (أتاتورك) من إعْلانِ الجُمْهُورِيَّة وإلْغاء السَّلْطَنَة العُثْمانِيَّة في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣م ثم إلْغاءِ «الخِلافَةِ الإسْلامِيَّة» و مَنْصِبِ «شَيْخ الإسْلام» في إسْتانْبول في ٥ مارس سنة ١٩٢٤م[2]، إيذانًا ببَدْء عَهْدٍ جَدِيدٍ لمصْر والأزْهَر في

(١) راجع، عبد المتعال الصعيدي: المرجع السابق ١٠٣ ـ ١٣٧.

(٢) انظر أكرم كيدو: مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، ترجمة هاشم الأيوبي، طرابلس ـ=

مُحِيطِ العالَمِ الإسْلامِي . هنا دَخَلَ الأزْهَرُ في مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ من تارِيخِه نَتَجَ عنها أنْ أصبح يُمَثِّلُ بالتَّدْرِيج المَرْجِعِيَّةَ الدِّينِيَّةَ الأولى للعالَم الإسْلامي السُّنِّي ، وأوْكَلَ إليه المَلِكُ فؤاد الأوَّل (١٩١٧ ـ ١٩٣٦م) ، في سنة ١٩٢٥م ، تَنْظِيمَ مؤتمرٍ دَوْلي عن الخِلافَة ، وهي المَرَّة الأولى التي يُعْهَدُ فيها إلى الأزْهَرِ القِيامَ بدَوْرٍ مُساعِدٍ في السِّياسَةِ الخارِجية المصرية⁽¹⁾ ؛ ولهذا السَّبَبِ اتَّخَذَ الأزْهَرُ مَوْقِفًا مُعادِيًا من الشَّيْخ علي عبد الرَّازِق (١٨٨٨ ـ ١٩٦٦م) الذي أصْدَرَ في نفس هذا العام كِتابَه «الإسْلام وأصُول الحُكْم» يَدْحَضُ فيه فِكْرَةَ الخِلافَة ويُثْبِتُ أنَّها ليست من أصُولِ الإسْلام مُشِيرًا إلى الظُّرُوفِ التَّارِيخِية المختلفة التي صاحَبَت وُصُولَ الخُلَفاء الأرْبَعَة الرَّاشِدِين ثم الخُلَفاء الأُمَوِيين وبعدهُم الخُلَفاء العَبَّاسيين ـ سواءٌ في العِراق أو في مصر ـ وحتَّى السَّلاطِين (الخُلَفاء) العُثْمانِيين ، مُعارِضًا بذلك الفِكْرَةَ التي بدأ يدعو إليها الأزْهَر⁽²⁾ .

وكرَدٍّ فِعْلٍ على سُقُوطِ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّة في إسْتانْبول بدأت الجَماعاتُ الإسْلامِيَّةُ الرَّادِيكالِيَّة في الظُّهُور في مصر مُمَثَّلَةً في جَماعَة «الإخْوان المُسْلِمِين» ،

=جروس برس ١٩٩٢م ؛ أحمد صدقي شقيرات : تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني ، ٨٢٨ ـ ١٣٤١هـ/١٤٢٥ ـ ١٩٢٢م ، ١ ـ ٢، إربد ـ دار الكندي للنشر والتوزيع ٢٠٠٢م ومعجم شيوخ الإسلام في العهد العثماني ٨٢٨ ـ ١٣٤١هـ/١٤٢٥ ـ ١٩٢٢م ، ١ ـ ٢، إربد ـ عالم الكتب الحديث ٢٠١٤م . وكان آخر شَيْخٍ للإسلام الشيخ مصطفى صبري (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤م) الذي فَرَّ سنة ١٩٢٢م مع وكيل المشيخة الشيخ محمد زاهِد الكَوْثَري (١٨٧٩ ـ ١٩٥٢م) إلى مصر وتوفِّيا ودُفِنَا بها ، رَحِمَهُما الله .

(١) JACOB SKOVFGAARD-PETERSEN, *EI*³ art. *al-Azhar* (2007), III, p.186.

(٢) وأصدر عبد الرزّاق السَّنْهوري في سنة ١٩٢٧م رسالته بعنوان ABD AL-RAZZAQ AL-SANHOURY, *Le califat son évolution vers une sociète des Nations Orientales,* Paris 1927؛ نقلها إلى العربية بشيء من التصَرُّف توفيق محمد الشَّاوي ونادية عبد الرزَّاق السَّنْهوري بعنوان : فِقْه الخِلافَة وتَطَوُّرها لتصبح عُصْبَة أُمَم شرقية ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م . وهي دراسة بحث فيها عن كيفية إيجاد بديلٍ عصري للخِلافة .

سنة ١٩٢٨م، وبعض التّيّارات السّلَفِيّة التي مثّلَها بعضُ الشّوام مثل: السّيِّد محمّد رَشِيد رِضَـا والسّيِّد مُحِبّ الدِّين الخَطِيب وبعضُ المُنْتَمِين مَذْهَبِيًّا إلى الدَّوْلَة السُّعُودِيّة الثّانية، التي تأسَّسَت سنة ١٩٣٢م، مثل جَماعَة أَنْصَار السُّنَّة؛ وهي تيّاراتٌ لم يَكُن لها تَواجُدٌ واضِحٌ قبل هذا التّأْرِيخ.

وجاءَ تأسِيسُ الجامِعَة المصرية الرَّسْمِيَّة (جامِعَة فؤاد الأوّل وجامِعَة القاهِرَة فيما بعد)، سنة ١٩٢٥م، ليُوجِدَ مُنافِسًا حَقِيقِيًّا للتَّعْلِيم الدِّيني التَّقْلِيدي الذي كان يُمَثِّلُه الأزْهَرُ حتّى ذلك الوَقْت[1]، بما أنّها اخْتَصَّت بتَدْرِيسِ العُلُومِ الحَدِيثَة وأصبح خِرِّيجُوها يُمَثِّلُونَ دَعْمًا قويًّا للبناء الإداري للدَّوْلَة في تَنْظِيمِه الحَدِيث. وكانت المشكلةُ الدّائِمَةُ التي واجَهَت الأزْهَر هي ارْتِفاعَ مُعَدَّلِ رُسُوبِ الطَّلَبَة المُتقدِّمين إليه في الاخْتِبارات والذين كانوا يُمَثِّلُون طَبَقَةً أدْنَى من نُظَرائِهِم المُتَقَدِّمين لِنظامِ التَّعْليم الجَدِيد. فرَغْمَ أنَّ عَدَدَ الطَّلَبَة المُسَجَّلِين به بَلَغَ حوالي عشرة آلاف طالِب، في الفَتْرَة بين عاميّ ١٨٩٩ و١٩٢٥م، فلم يَحْصُل منهم على «العالَمِيّة» إلاّ عَدَدٌ قليلٌ، من ١١ عالمية سنة ١٨٩٩م إلى ٣٢٤ عالمية في سنة ١٩٢٥م! وبالرَّغْم من قِلَّةِ عَدَدِ الخِرِّيجين فإنَّ فُرَصَ العَمَلِ المُتاحة أمامَهُم كانت قليلةً لأنَّ خِرِّيجي الأزْهَر كان عليهم مُنافَسَة خِرِّيجي الكُلِّيّات الجامِعِيَّة الحَدِيثَة (الآداب والحُقُوق ودار العُلُوم والمُعَلِّمِين العُلْيا)، ولم يَجِدوا أمامَهُم سوى وَظائِفَ الأئِمَّة والمُؤَذِّنين الأقَلّ عائِدًا.

ومن أجْلِ رَفْعِ مستوى خِرِّيجي الأزْهَر في سُوقِ العَمَل جاءَ قانُونُ إعادَة تَنْظِيم الأزْهَر رقم ٤٦ لسنة ١٩٣٠م، الذي أصْدَرَهُ الملكُ فؤاد الأوّل، بإنْشاءِ كُلِّيّاتِ أُصُولِ الدِّينِ والشَّرِيعَةِ واللُّغةِ العَرَبِيَّةِ التي أُقِيمَت لها مَبانٍ على الطِّرازِ المَمْلُوكي

(١) راجع رؤوف عباس حامد: تاريخ جامعة القاهرة، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

الحَدِيث New Mamluk Style في الجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ للجامعِ افْتُتِحَت سنة ١٩٣٣م[١] ، لتَمْنَحَ ثَلاثَ دَرَجات عِلْمِيَّة تُعادِلُ الدَّرَجات التي تَمْنَحُها الجامِعَةُ المِصْرِيَّة ، كما أَصْدَرَ الأَزْهَرُ ، في سنة ١٩٣٥م ، مجلةً دَوْرِيَّةً أكادِيمِيَّةً بعنوان «مِجَـلَّة الأَزْهَــر»[٢] . وصَدَرَ بعد ذلك القانُونُ رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦م بإعادَة تَنْظِيم الجامِعِ الأَزْهَر ، والذي ظَلَّ مَعْمولًا به حتى صُدُورِ القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م[٣] .

*

* *

وعَرَفَ الأَزْهَرُ تَحَوُّلًا جَديدًا مع النِّظامِ الذي أَوْجَدَتْهُ حَرَكَةُ الضُّبَّاطِ الأَحْرار ، في يولية سنة ١٩٥٢م ، وقامَ تَحالُفٌ بين جَمال عبد النَّاصِر - قائِد النِّظام الجَدِيد (١٩٥٤ - ١٩٧٠م) - وشَيْخِ الأزْهَر آنَذاك الشَّيْخ محمود شَلْتوت (١٩٥٨ - ١٩٦٣م) ، الذي عَمِلَ على تَحْدِيثِ مَناهِجَ الدِّراسَة وتَبَنِّي دَوْرٍ خِدَمِي عام للأَزْهَر داخِلِيًّا وخارِجِيًّا ، وقامَ الأَزْهَرُ في عَهْدِه بدَوْرٍ مُهِمٍّ في التَّقْرِيبِ بين المَذاهِب الإسْلامية . وجاءَ قانُونُ إصْلاحِ الأَزْهَر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م ليَدْمِجَ الأَزْهَرَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ في مَجالات أَوْسَع من التَّعْلِيم العالي بغَرَضِ إنْتاجِ باحِثِين حَداثِيِّين ذَوِي مَعْرِفَةٍ بالعُلُومِ العَصْرِيَّة قادِرِين على خِدْمَةِ العالَم الإسلامي أمامَ التَّحَدِّيات العالَمِيَّة الجَدِيدَة ، وإنْ لم يَتَحَقَّق هذا الهَدَفُ على الوَجْه الذي كان يُرْجَى منه . فأَدْخَلَت

---

(١) راجع عبد المتعال الصعيدي : المرجع السابق ١٢٢ - ١٢٧؛ وانظر اعتراض محمد البهي على هذا الفصل بين الكليات الذي جعل طالب اللغة العربية لا يعرف في الفقه وطالب أصول الدين لا يعرف قواعد اللغة في مقاله : «حاضر الأزهر بعد أمسه» ، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ القاهرة ٣: ٩٩٩ - ١٠٢٢.

(٢) JACOB SKOVFGAARD-PETERSEN, *EI*[3] art. *al-Azhar* (2007), III, p.186 .

(٣) راجع عن هذه القوانين ، محمد علي حلة : الأزهر في الأرشيف المصري - وثائق من القرنين التاسع عشر والعشرين ، القاهرة - دار الكتب المصرية ٢٠١٥م .

إصْلاحاتُ هذا القانُون إلى الأَزْهَرِ للمَرَّةِ الأولى العُلُومَ غير الشَّرْعِيَّة (الطِّبّ والهَنْدَسَة والزِّراعَة والاقْتِصاد والتَّرْبِية .... إلخ) في حَرَمٍ جامِعِي جَدِيدٍ بمَدِينَةِ نَصْر وإلى القُرْبِ منه حَرَمٌ آخَرُ خاصٌّ بالبَنات للمَرَّة الأُولى كذلك؛ في الوَقْتِ نفسه الذي تَوَسَّعَ فيه الأَزْهَرُ في اسْتِقْبالِ طُلاَّبٍ من مختلفِ البِلادِ الإسْلامية (من أفْريقْيا وآسْيا وأوروبا الشَّرْقِيَّة والبَلْقان)جاءَت الغالِبِيَّةُ العُظْمَى منهم لدِراسَةِ العُلُومِ الشَّرْعِيَّة، وأنْشأ مَدِينَةً خاصَّةً لهؤلاء المَبْعُوثِين لاسْتيعابِهم وإعاشَتِهِم باسْم «المَدِينَة السَّكَنِيَّة لطَلَبَةِ البُعُوثِ الإسْلامِيَّة»، تَقَعُ الآن بطريق صَلاح سالِم أسْفَل كوبري الفِرْدَوْس[1].

وابتداءً من هذه الفترة ومع الدَّوْرِ المُتنامي لمصر في أفْريقْيا وآسيا أصبح الأَزْهَرُ يُمَثِّلُ المَرْجِعِيَّةَ الرَّئِيسَة للإسْلام السُّنِّي لدى مُسْلِمي هذه الدُّوَل إضافَةً إلى دُوَلِ البَلْقان، التي احْتَلَّ لديها الأَزْهَرُ المكانَةَ التي كانت من قبل للدَّوْلَةِ العُثْمانية قبل الانْقِلابِ الكمالي سنة ١٩٢٣م، وأصبح الكثيرُ من حُكّامِ هذه الدُّوَلِ أو الذين تَوَلَّوا مَراكِزَ مُهِمَّة فيها من خِرِّيجِي الأَزْهَر.

وكان من نَتائِجِ هذا القانون أنْ فَقَدَ الأَزْهَرُ الأَوْقافَ الخاصَّة به وأصبحت مِيزانِيَّته جزءً من المُوازَنَة العامَّة للدَّوْلَة، فتَحَوَّلَ عُلَماؤه بالتالي إلى مُوَظَّفِينَ في الجِهازِ الإداري للدَّوْلَة، كما أصبح هناك وَزِيرٌ مسئولٌ عن شُئونِ الأَزْهَر. وأصبح شَيْخُ الأَزْهَر يرأس المَجْلِسَ الأعْلَى للأزْهَر الذي يَشْمَل، إضافَةً إلى مَشْيَخَة الأَزْهَر، جامِعَة الأَزْهَر ومَجْمَع البُحوث الإسْلامِيّة ـ الذي حَلَّ مَحَلَّ هَيْئة كِبار العُلَماء ـ وإدارة المَعاهِد الأَزْهَرِيَّة[2].

---

(١) وُضِعَ مُؤَخَّرًا حَجَرُ أساسِ مَدينَةٍ جَديدَةٍ لتَسْتَوْعِبَ الأعْدادَ المُتَزايِدَة من المَبعوثِينَ إلى الأَزْهَر في التَّجَمُّع الخامس بالقاهرة الجديدة.

(٢) انظر لتفاصيل أكثر حول دَوْر الأَزْهَر وشيوخه وعلاقتهما بالسلطة خلال هذه الفترة دراسة حلمي النمنم: الأزهر الشيخ والمشيخة، القاهرة ٢٠١٢م.

وفي الوَقْتِ نفسه، وابتداءً من سَبعينات القَرْنِ العِشْرِين، نتيجةً للتَّطَوُّرات السِّياسِيَّة التي عَرَفَتْها مصروالتي أدَّت إلى بُزُوغِ نَجْمِ التَّيَّارات الإسْلامية في مُواجَهَة التَّيَّارات اليَسارِيَّة والنَّاصِرِيَّة، إضافَةً إلى التَّأْثِيرات النَّاتِجَة عن احْتِكاكِ العَدِيدِ من دارِسِي الأزْهَر بالأفْكارِ السَّلَفِيَّة بعد انْتِقال الكثير منهم للعَمَلِ في الجامِعات الإسْلامية التي بَدَأَت في الظُّهُور في المَمْلَكَة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة. قادَ ذلك إلى تَحَدٍّ جديدٍ أمامَ الأزْهَر في كَيْفِيَّة مُواجَهَة هذه التَّيَّارات واحْتِفاظِه بوَسَطِيَّتِه المعروفَة عنه.

*

* *

ثم كانت الانْتِفاضَةُ الشَّعْبِيَّةُ للمِصْرِيين في الخامِس والعِشْرين من يناير سنة ٢٠١١م إيذانًا ببِدايَةِ عَهْدٍ جديد، ولكن مع تَطَوُّرِ الأحْداثِ وَجَدَ الإسْلامُ السِّياسِي له مُتَنَفَّسًا وبَدَأت الجَماعاتُ الأُصُولِيَّةُ الرَّادِيكالِيَّةُ في الظُّهُورِ على السَّطْحِ داعِيَةً إلى الأفْكارِ الأكثر جُمُودًا وانْغِلاقًا، فكان على الأزْهَرِ أنْ يَتَصَدَّى لذلك مُوَضِّحًا صُورَةَ الإسْلام الصَّحِيح، وأنَّه مِلْكٌ للأُمَّة كلِّها وأنَّه يَقِفُ على مَسافَةٍ واحِدَةٍ من الجَمِيع ولا يَنْطَوِي تحت أيِّ تَيَّارٍ أو فِكْرٍ مُعَيَّنٍ، وأنَّه مَصدَرٌ للفِكْر الإسْلامي الذي يعتمدُ على القُرْآنِ والسُّنَّةِ الصَّحِيحَة وما اتَّفَقَ عليه عُلَماءُ الأمَّة، وأنَّه المُعَبِّرُ الأمِينُ عن المَذاهِبِ الفِكْرية والفِقْهِيَّة في المَدْرَسَةِ الإسْلامية. فكان أنْ دَعا الأزْهَرُ، بقِيادَة شَيْخِه الحالي العالِم الجَلِيل فضيلة **الدكتور أحْمَد الطَّيِّب**، إلى عَدَدٍ من اللِّقاءات تَجْمَعُ كَوْكَبَةً من المُثَقَّفِين والعُلَماءِ المصريين وعُلَماءِ الأزْهَرِ على اخْتِلافِ انْتِماءاتهم الفِكْرِيَّة والدِّينية، ليَتَدارَسُوا في عَدَدٍ من الاجْتِماعات مُقْتَضَيات اللَّحْظَة التَّارِيخية الفارِقَة التي تمرُّ بها مصر بعد أحْداثِ الخامِس والعشرين من يناير وأهميّتها في تَوْجِيهِ مُسْتَقْبَلِ مصر نحو غاياتِه النَّبِيلَة والمُطالَبَة بحُقُوقِ شَعْبِها في الحُرِّيَّة والكَرامَة والمُساواة والعَدالَة الاجْتِماعِية. ونَتَجَ

عن هذه الاجتِماعات المكثَّفة أربعةُ وَثائِقَ مُهِمَّةٌ صادِرَةٌ عن الأزْهَر[١]:

* وَثيقَةُ الأزْهَر حَوْلَ مُسْتَقْبَلِ مصر.
* وَثيقَةُ الرَّبيعِ العَرَبي ومُسانَدَةِ حَرَكاتِ التَّحَرُّرِ العَرَبي.
* بيَانُ الأزْهَر والمُثقَّفِين عن مَنْظُومَة الحُرِّيات الأساسِية.
* وَثِيقَةُ الأزْهَرِ لحُقُوقِ المرْأة.

وتَواكَبَ ذلك مع نَشاطٍ على المستوى الدَّوْلي، في العامين الأخيرين على الأخَصّ، في أعْقابِ ثَوْرَةِ الشَّعْبِ في ٣٠ يونية سنة ٢٠١٣م التي وَضَعَت نِهايَةً لسَنَةِ حُكْمِ الإخْوان (يولية ٢٠١٢ - يونية ٢٠١٣م)؛ فأصْبَحَ الأزْهَرُ مَقْصِدًا لمُلُوكِ ورُؤَساء الدُّوَلِ الذين يَزُورُونَ مصر، كما قامَ شَيْخُ الأزْهَر ومُعاوِنُوه بزيارات مُهِمَّة إلى العَدِيدِ من الدُّوَلِ العَرَبيَّة والأفْريقِيَّة والآسْيَوِيَّة والأورُوبية ومَقَرّ الجَمْعِيّة العامَّة للأمَم المُتَّحِدَة بنيويورك اسْتَقْبَلَه خِلالَها رُؤساءُ هذه الدُّوَل، وقامَ كذلك بزيارَةٍ لدَوْلَةِ الفاتيكان اسْتَقْبَلَه خِلالَها بابا الفاتيكان ومَجْمَع الكَنائِس العالَمي بجِنيف، كما شارَكَ الأزْهَر بوَفْدٍ رَفيعٍ تَرَأَّسَه شَيْخُ الأزْهَر في مُؤْتَمَر أهْلِ السُّنَّة والجَماعَة الذي اسْتَضافَتْه مَدِينَةُ جرُوزْني بجمهورية الشِّيشَان؛ كلّ ذلك من أجْلِ فَتْحِ آفاق للتَّعاوُن في المجالات المُتَّفِقَة وتَوْضِيحِ الصُّورَةِ الحَقِيقِيَّةِ للإسْلامِ الوَسَطِي بتَقْدِيمِ المَبادِىءِ الصَّحِيحَة للإسْلام وإيضاحِ حَقِيقَتِه السَّمْحَة ونَبْذِه للإرْهابِ وجَمِيعِ أشْكالِ العُنْفِ والتَّطَرُّف؛ وذلك في إطارِ الدَّعْوَةِ إلى «تَجْدِيد الخِطابِ الدِّيني» والتي أرَى أنَّ الأوْفَقَ أنْ تكونَ دَعْوَةً إلى «تَجْدِيد الفِكْرِ الدِّيني»، لا مُجَرَّد الخِطابِ الدِّيني، ليَتَناسَبَ مع مُتَطَلَّبات العَصْر ومُتَجَدِّداتِه والتَّحَدِّيَات التي يُواجِهُها العالَمُ الإسْلامِي.

---

(١) انظر أيمن فؤاد سيد: «وَثائِقُ الأزْهَر وصَوْنُ الدِّين والمجتمع في الزَّمَنِ الحاضِر»، مجلة التفاهم العمانية ١٢ (٢٠١٤م).

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦) ، ٣٣-٦٣

نِظَامُ «الأبوفورا» فِي أَثِينَا وإِسْبَرْطَةَ فِي العَصْرِ الكِلاسِيكِي
(دِرَاسَةٌ مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ المَصَادِرِ الكِلاسِيكِيَّةِ)

عبد اللطيف فايز علي*

نظام الأبوفورا في أثينا

لم تكن أثينا في نظامها الاقتصادي تعتمدُ على موردٍ واحدٍ مِنْ موارد الإنتاج ؛ فقد اعتمدت على الزراعة ، والتجارة ، والحرف والصناعات الصغيرة[١]، وفيما يتعلق بالأخيرتَيْن بشكلٍ خاص ، فقد شَجَّع القائمون على الحكم في أثينا التجارة والحرف والمهن والصناعات[٢] ، مما دَفَعَ مُلَّاك العبيد إلى استثمار عبيدهم للعمل في مختلف المهن والحرف والصناعات ، ومنهم مَنْ استثمر عبيده لتعزيز نشاطه الاقتصادي ، فاستغلهم في إدارة مشروعاته التجارية ، أو الصناعية أو المصرفية ، أو في إدارة ضيعته أو العمل بها ، أو في إدارة ورشته (ἐργαστήριον) أو العمل بها[٣]. كل ذلك نظير أن يحصل

* مدرس التاريخ اليوناني – الروماني، كلية الآداب – جامعة الفيوم.

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى : اليونان ، مقدمة في التاريخ الحضاري، الإسكندرية – دار المعرفة الجامعية ٢٠١٠م، ص ١٢١.

(٢) سيد الناصري : الإغريق ، تاريخهم وحضارتهم من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر ، القاهرة – دار النهضة العربية ١٩٧٦م، ص ١٩٨.

(٣) عن عمل العبيد في الورش، انظر :

- Silver. M., Slaves Versus Free Hired Workers in Ancient Greece, *Historia* : Bd. 55, H. 3 (2006), pp.257-263.

السيد، مالك العبد، من عبده على أبوفورا (ἀποφορά) وهي مبلغ من المال، أو جزء من ناتج عمل العبد، أو ضريبة أو إيجار عينيَّان يدفعهما العبد إلى سيده مباشرةً. وجدير بالذكر أنَّ مُصْطَلح «إيرجاسيا» (ἐργασία) كان يُستَخدم، أحيانًا، «مرادفًا» لمصطلح الأبوفورا(١).

لقد ورد لدى العديد مِنْ مؤرخي العصر الكلاسيكي وخطبائهم وشعرائهم ما يؤكِّد عمل العبيد لصالح أسيادهم، في العديد مِن المهن والحرف والأعمال التجارية، في مقابل تقديم هؤلاء العبيد لـ«الأبوفورا»، وسوف نعرض لذلك بالتفصيل.

إنَّ المثالَ الأكثرَ وضوحًا على عملِ العبيد لصالح أسيادهم ماورد عند أيسخينيس (Αἰσχίνης) السياسي الأثيني (٣٨٩-٣١٤ ق.م)، حيث ترك إيسخينيس لابنه تيمارخوس (Τιμάρχος) بعض الممتلكات، بالإضافة إلى ورشة صغيرة (ἐργαστήριον) يعمل بها تسعة أو عشرة من العبيد الماهرين (τέχναι) في صناعة الأحذية، كل منهم يَدْفَع له أوبولَيْن في اليوم، بالإضافة إلى رئيس الورشة أو المشرف عليها (ἡγεμὼν) الذى يدفع له ثلاثة أوبولات(٢).

δ᾽ ἕτερονχωρίον, "
χωρὶςδὲοἰκέταςδημιουργοὺςτῆςσκυτοτομικῆςτέχνηςἐννέα ἢδέκα,

- Akrigg. B & Tordoff. R., *Slaves and Slavery in Ancient Greek Comic Drama*, Cambridge, 2013.

(1) Hyperides, *Against Athenogenes*. 3. 22; Thucydides, *The Peloponnesian War*. 1. 139. 2; 4. 105.1; Plutarch, Publicola. 19. 6.

(2) Aeschines. Speeches "Against Timarchus" 1. 97.

ὧνἕκαστοςτούτῳδύ᾽ὀβολοὺς<u>ἀποφορὰν</u>ἔφερετῆςἡμέρας,
"ὁδ᾽ἡγεμὼντοῦἐργαστηρίουτριώβολον

«وإلى جانب ذلك ، كان هناك تسعة أو عشرة من العبيد الذين كانوا صُنَّاع أحذية ماهرين ، كل منهم يدفع له أوبولين في اليوم ، والمشرف على الورشة يدفع ثلاثة أوبولات».

وفى هذه الفِقْرَة ، ليس هناك ما يشير إلى كوْن هؤلاء العبيد عُمَّالًا مستقلين يعملون لحسابهم الخاص ، ويَدْفَعُونَ الأبوفورا ، أو كونهم يعملون لقاء أجر لصالح السيد المالك ، وإنْ كانت جملة «χωρὶςδὲοἰκέτας» التي تَعنِي «**العبيد المستقلين ، أو الذين يعيشون بمَعْزِلٍ عن أسيادهم**» الواردة بالفِقْرَة ربما تشيرُ إلى أنَّ هؤلاءَ العبيد يعيشون بعيدًا عن سيدهم ويعملون لحسابهم ، مقابل أنْ يدفعوا له الأبوفورا ، حيث يُطلق هذا المصطلح ، عادةً ، على «العبيد الذين يعيشون بشكل مستقل عن أسيادهم»[1].

ولقد ورد عند ثيوفراستوس (Θεόφραστος) (371-287 ق.م) ، وهو يُعدِّد لنا صفات شخصية البخيل (αἰσχροκερδής) ، أنَّ إحدى صفاته أنَّه يحصل على دَخْل (apophora) خادمهِ مِنْ عمله بصفته «أجيرًا» لدى الغير[2].

«καὶπαρὰπαιδόςκομιζόμενος<u>ἀποφορὰν</u>»
«وإلى جانب ذلك ، فإنَّ العبد (الطفل) عليه أن يدفع أبوفورا»

---

[1] Kazakevich. E. G. *Op. Cit.*, p. 347.
[2] Theophrastus, *Characters* : (αἰσχροκέρδεια Λ'), 30. 15.

ويروى لنا أندوكيديس (Ἀνδοκίδης) الخطيب والسياسي الأثيني (٤٤٠-٣٩٠ ق.م) قصة ديوكليديس (Διοκλείδης) الذي اضطر إلى إحضار أُجرة (apophora) عبده الذي كان يعملُ أجيرًا في مناجم لوريوم/ لوريون (Laurium/Λαυρείον)[١] في إقليم أتيكا ، حيث كانت الدولة تقوم بتأجيرها للأفراد الذين كانوا بدورهم يستأجرون العبيد للعمل بها[٢].

"ἔφηγὰρεἶναιμὲνἀνδράποδόνοἰἐπὶΛαυρείῳ, δεῖνδὲκομίσασθαι<u>ἀποφοράν</u>"

«وقال (ديوكليديس) إنَّه كان يملك عبدًا يعمل في (مناجم) لوريوم ، واقتضت الضرورة أن يحصل منه على (مبلغ) الأبوفورا المستحَق عليه»

ولا شك في أنَّ عبدَ ديوكليديس كان أجيرًا ، يعمل في المنجم لقاء أجر يقدمه كاملًا أو جزءًا منه إلى سيده. ولأنَّ جسدَ العبد (δοῦλάσώμα) – أو العبد نفسه – كان ملكًا لسيده ، فقد كان لزامًا عليه أنْ يُسَلِّمَ إلى سيده جزءًا مِن الأجر الذي يحصل عليه ، بصفة ذلك «إيجارًا» لجسده الذي هو مِلكٌ للسيد في الأساس ، وهذا الإيجار هو الأبوفورا ، أما باقي دخْل العبد فيصبح ملكًا له ، يُترَك له مِثل الـ«حافز كي يعملَ بدون إشراف سيده»[٣].

---

[1] Andocides, Speeches, "On the Mysteries" 1. 38.

[2] Xenophon, *Ways and Means* . 4. 1.

[3] Bradley. K & Cartledge. P., *The Cambridge world History of Slavery*, Vol. 1 "The Ancient Mediterranean World" Cambridge, 2011, p. 65.

وفي أحد مشاهد مسرحية التحكيم (ἐπιτρέποντες) لـ«ميناندروس» (Μένανδρος) (342-291 ق.م) ، يقول سوريسكوس (Συρίσκος) عبد (οἰκέτης) خيريستراتوس (Χαιρέστρατος) الذي يلعبُ دور مُشْعِل الفحم (The Charcoal burner) لزوجته :[١]

‘σὺδὲταυτί, γύναι

λαβοῦσαπρὸςτὸντρόφιμονἐνθάδ’ εἴσφρε

Χαιρέστρατον. νῦνγὰρμενοῦμενἐνθάδε, εἰςαὔριονδ’ ἐπἔργονἐξορμήσομεν

.τὴν<u>ἀποφορὰν</u>ἀποδόντες

«الآن يا زوجتي ، خذي هذه الأشياء (الحلي)

واحمليها إلى الداخل ، إلى السيد خيريستراتوس.

والآن ، سوف نبقى هنا الليلة ، وغدًا ، سوف نبدأ العمل ، بعد أنْ نكونَ قد دفعنا ماعلينا من مستحقات مالية (apophora)»

ويُوضِّح لنا هذا المشهد أنَّ سوريسكوس كان يسكنُ مع زوجته في مكانٍ ما بعيدًا عن سيده ، ويزور سيده مِنْ وقتٍ لآخر كي يُسَلِّمَه جزءًا مِنْ أرباحه التي يحصل عليها من عمله بصفته «مُشعِل» الفحم ، ويقدِّمه إليه كـ «أبوفورا»[٢].

---

[1] Menander's Arbitration, Act. II. ll. 376-380.

[2] Iversen. P. A., Coal for Diamonds : Syriskos' Character in Menandor's Epitrepontes, *AJP*, vol. 122, 2001, pp. 382-383; 383 note 5

ويذكر لنا الفيلسوف اليوناني ديوجينيس (412-323) (Διογένης ق.م) أنَّ الفيلسوف اليوناني زينون (336-263) (Ζήνων ق.م) كان يحصل على أبوفورا قَدْرُها أوبول واحد يوميًا من تلميذه الفيلسوف اليوناني كلينثيس (331 — 232 ق.م) (Κλεάνθης) ، عندما كان يتلقّى دروس الفلسفة على يديه[1].

وهنا لابد أن نطرحَ سؤالًا ، بما أنَّ الأبوفورا في أثينا تحديدًا ارتبطت في الغالبية العظمى منها بالعبيد ، إذ إنَّها كانت تُدْفَع مِن العبد إلى سيده ، أي من عبد إلى حر ، وليس من حر إلى حر ، فهل كان كلينثيس عبدًا؟ أو كان عبدًا ثم أُعْتِقَ (كما في حالة الفيلسوف إبيكتيتوس (55-135 م'Επίκτητος) حتى يَدْفَع الأبوفورا إلى أستاذه زينون؟ أم أنه كان مواطنًا حرًا؟ من خلال ما ورد عند ديوجينيس فيما يتعلق بـ«كلينثيس» ليس هناك ما يدل على أنّه عبد أو كان عبدًا يومًا ما ، كما أنَّ العلاقة بينه وبين زينون ليست علاقة عبد بسيده ، لكنها علاقة تلميذ بأستاذه[2]، لكن من خلال ما ورد عند ديوجينيس نستطيع أن نستنتجَ أنَّ كلينثيس ربما كان مجرد مواطن فقير دَفَع إلى أستاذه مبلغًا متواضعًا بوصفه «رسومًا» دراسية ، ونستدل على ذلك من خلال ما ورد في النص ، بأنَّ كلينثيس كان يعاني فقرًا مدقعًا (πένηςῶνἄγαν)، وأنَّه عندما وصل إلى أثينا قادمًا من أسوس (في آسيا الصغرى) كان يملك فقط أربعة دراخمات ،

---

(1) Diogenes Laertius, *Lives of Eminent Philosophers*, VII, pp. 169-170.

(2) عن علاقة زينون بـ(كلينثيس) انظر :

- Pearson. A. C., the Fragments of Zeno and Cleanthes : With Introd. and Explanatory Notes Essay. Cambridge, 2012. pp. 35-63.

- Shouler. K., The Everything Guide to Understanding Philosophy : Understand the Basic Concepts of the Greatest thinkers of all Time-Made Easy!, New York, 2008, p. 61.

مما اضطره للعمل ليلًا في رفع المياه من البئر (Φρεάντλης[1]) في الحدائق (κῆποι) ، أمَّا نهارًا فكان ينكبُّ على مطالعة دروسه[2].

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن العبيد الذين تم استثمارهم من قِبَل مُلَّاكهم لتعزيز نشاطهم الاقتصادي ، فاستغلوهم في إدارة مشروعاتهم التجارية ، أو الصناعية ، أو المصرفية ، أو في إدارة أراضيهم الزراعية (οὐσίαι)، نجد العديد مِن النماذج التي وردت في الكتابات الكلاسيكية. ويُقَسِّم أرسطو[3] العبيد إلى نوعَيْنِ : العبيد أصحاب القدرات الإدارية ، وهم العبيد الذين لديهم القدرة على إدارة أملاك أسيادهم ، فضلًا عن كسبهم ثقة أسيادهم ، وهؤلاء أشار إليهم بالمصطلح (ἐπίτροποι). والنوع الآخر : هم العبيد من العُمَّال ، أي الذين يعملون لدى الغير ، أو في ورش مملوكة لأسيادهم ، وهؤلاء أشار إليهم بالمصطلح (ἐργάται) ، وهذا النوع تم الحديث عنه سابقًا. أما النوع الأول فهو ما نحن بصدد الحديث عنه الآن.

يخبرنا ديموسثينيس (Δημοσθένης) الخطيب والسياسي الأثيني (٣٨٣-٣٢٢ ق.م) أنَّ والدَه كان يملكُ مصنعَيْن ؛ أحدهما متخصصٌ في صناعة الأسلحة (μἄχαιροποιεῖον) يعمل به ويديره حوالي ٣٢ أو ٣٣ عبدًا ، يحصل منهم على دخل يُقَدَّر بحوالي ٣٠ مينا سنويًا. والآخر متخصص في صناعة الأرائك أو المقاعد

---

[1] هي كلمة تتكون من مقطعَيْن ؛ الأول (φεράρ) ويعني «بئر» ، والآخر (ἀντλέω) ويعني «رفع المياه» (drawwater).

[2] Diogenes Laertius, Lives of Eminent Philosophers : 7. 168.

[3] Aristotle, Economics : 1. 1344a, ll. 26-27.

(κλινοποιεῖον) ، يعمل به حوالي ٢٠ عبدًا ، يحصل منهم على دخل يقدر بحوالي ١٢ مينا سنويًا[١].

ويبدو أنَّ هؤلاء العبيد لم يكُونوا يعملون بالأجر لدى والد ديموسثينيس ؛ وذلك لأنَّه كان يحصل منهم على مبالغ سنوية ، ولم يكونوا يحصلون منه على أجر لقاء عملهم في المصنعَيْن ، وإنْ دلَّ هذا على شيء فإنها يدل على أنَّ هؤلاء العبيد كانوا يديرون المصنعين لحسابهم الخاص أو لحساب والد ديموسثينيس ، مقابلَ مبلغ محدد يدفعونه له سنويًا.

كما أنَّ ليسياس (Λυσίας) الخطيب الأثيني (٤٤٥-٣٨٠ ق.م) كان يملك وأخوه بوليمارخوس (Πολεμάρχος) مصنعًا للدروع (ἀσπιδοπηγεῖον) يعمل به ١٢٠ عبدًا[٢] ، ربما كانوا يعملون به لقاء حصول ليسياس وأخيه على أبولين يوميًا من كل عبد ، كما في حالة تيمارخوس[٣].

ولقد ورد عند هايبيريديس أنَّ شخصًا يُدْعَى أثينوجينيس (Ἀθηνογένης) كان يملك ثلاثة محال لبيع العطور (μύρον) ، وأنَّ عبده ميداس (Μίδας) وابنَيْه كانوا يديرون أحد هذه المحال ، لقاء مبلغ ثابت من المال[٤] ، وفي هذا الصدد يقول «كاري» (Carey) : «ليس هناك شك في أنَّ ميداس كان عبدًا من فئة العبيد المستقلين

(1) Demosthenes, Speeches, Against Aphobus 1, 27. 9; 27. 24-25.

(2) Lysias, Against Eratosthenes, 12. 8 – 19.

(3) Aeschines. Speeches "Against Timarchus" 1. 97

(4) Hyperides, Against Athenogenes, 3. 4-11; 3. 19.

(χωρὶςοἰκοῦντες)» ، هؤلاء العبيد الذين يديرون أعمالًا تجارية في مقابل أن يدفعوا لأسيادهم مبلغًا ثابتًا من المال (apophora)(١).

كما يخبرنا كسينوفون (Ξενοφῶν (430-354 ق.م) أنَّ شخصًا يُدْعَى نيكياس (Νικίας) كان يملك منجمًا من الفضة ، كان يديره له عبيده ، وكان يحصل منهم على تالنت واحد سنويًا(٢).

كما أنَّ ثوكوديديس (Θουκυδίδης) المؤرخ اليوناني الشهير (٤٦٠-٣٩٥ ق.م) كان يملك منجمًا للذهب ، في تراقيا ، يعمل بها بعض العبيد(٣).

وثمَّة مثال آخر ورد عند ديموسثينيس ، وهو لامبيس (Λάμπις) الذي كان خادمًا (οἰκέτης) لدى شخص يُدْعَى ديون (Δίων) ، ووكيل أعماله أيضًا ، ولقد كان لامبيس يتاجر لصالح سيده ديون ، ويقوم برحلات تجارية من أثينا حتى مضيق البوسفور(٤).

والمثال الأبرز على إدارة العبيد ممتلكاتِ مُلَّاكهم أو مشروعاتهم ، ما تعلَّق بالعبدَيْنِ باسيون (Πασίων) وفورميون (Φορμίων)، الذي ورد لدى كلٍّ من ديموسثينيس(٥) وإيسوقراطيس (Ἰσοκράτης) الخطيب الأثيني (٤٣٦-٣٣٨ ق.م)(٦) ، ولقد بدأ باسيون مهنته «عبدًا» للمصرفيَّيْن أنتيسثينيس (Ἀντισθένες) وأرخيستراتوس

---

(1) Carey, C., Trials from Classical Athens, 2nd ed., Routledge, 2012, p. 137.

(2) Xenophon, Memorabilia : 2. 5. 2

(3) Thucydides, The Peloponnesian War. 4. 105. 1.

(4) Demosthenes, Speeches, Against Phormio, 34. 5-10.

(5) Demosthenes, Speeches, For Phormio, 36; Against Stephanus 2, 46; Against Neaera. 59. 2.

(6) Isocrates, Speeches, Trapeziticus, 17. 43.

(Ἀρχέστρατος) ، وفيما بعد استطاع باسيون أن يحصلَ على حريته ، وتم عتقه[١] من قِبَل مُلّاكه[٢] ، وبلغ حدًا من الثراء جعله يشتري هذا المصرف مِنْ مُلّاكه السابقين ، وقُبَيلَ وفاته قام باسيون بتأجير المصرف ومصنعٍ للدروع (ἀσπιδοπηγεῖον) إلى فورميون العبْد ، الذي كان يدير مصرفه ، والذي كان قد نال حريته في ذلك الوقت[٣] ، وفي وقت لاحق قام أبناء باسيون بتأجير المصرف إلى أربعة مِن العبيد ؛ هم كسينون (Ξένων) وإيوفرايوس (Εὐφραιος) وإيوفرون (Εὔφρον) وكالليستراتوس (Καλλιστράτος)[٤] ، وكانوا يحصلون منهم على تالنت وأربعين مينا «إيجارًا» للمصرف سنويًا ، كما حصلوا على تالنت واحد نظير تأجير مصنع الدروع للمدة نفسها[٥]. وطبقًا لما ورد عند كسينوفون ، فقد كان العبيد أيضًا يعملون في إدارة الضياع الزراعية الكبرى سواء المملوكة لأسيادهم[٦] أو المملوكة لآخرين[٧].

---

[٤] ذَكَر كامين (Kamen) أن باسيون تم عِتْقه عام ٣٩٤ ق.م ، ولاحقًا مُنِح المواطنة الأثينية مقابل الخدمات التي قدَّمها للدولة (ذكر ديموسثينيس أن باسيون وفرميون قد حصلا بالفعل على المواطنة الأثينية : (Demosthenes, Against Stephanus 2,46. 13) ويحلول عـــام ٣٨٦ ق.م أو بعد ذلك بقليل (عام ٣٧٧ ق.م) قبل وفاته (عام ٣٧٠/ ٣٦٩ ق.م) قام باسيون بتأجير المصرف ومصنع الدروع لـ«فورميون» عام ٣٧٣/ ٣٧٢ ق.م (Kamen. D., Status in Classical Athens, Princeton, 2013, p. 22).

[2] Demosthenes, Speeches, For Phormio, 36. 48.

[3] Demosthenes, Speeches, For Phormio, 36. 4; 36. 48; Against Stephanus 2, 46. 13.

[4] Demosthenes, Speeches, For Phormio, 36. 14.

[5] Demosthenes, Speeches. For Phormio, 36.37.

[6] Xenophon, Economics : 12. 2-3.

[7] Xenophon, Memorabilia : 2. 8. 1-4.

يبدو من خلال بعض ما سبق عرضه أنَّ واحدًا من الـ«أوبول» كان هو الأبوفورا الشائعة في أثينا ، رغم أنَّ القليل مِن المصادر تؤكد ذلك ؛ منها أنَّ الفيلسوف اليوناني زينون كان يحصل على أبوفورا قدْرُها واحد أوبول من تلميذه كلينثيس(١) ، كما أنَّ عبيد ديموسثينيس(٢) - صانعي الأثاث - كانوا يدفعون له المبلغ نفسه(٣) ، ويذكر كسينوفون أنَّ الدولة كانت تجبي «أوبول» واحدًا عن كل عبدٍ يوميًا ، إذ إنَّها اتَّبَعَت خطة لتأجير العبيد على نطاق واسع في عام ٣٧٠ ق.م(٤) ، ولدينا حالة واحدة فقط تشير إلى دفْع أوبولين فقط يوميًا ، وهي حالة عبيد تيمارخوس(٥) ، أما نيكياس فقد حصل مِنْ عبيده الذين كانوا يديرون له منجمه على واحد تالنت سنويًا(٦) ، بينما حصل أبناء باسيون مِن العبيد الأربعة الذين كانوا يستأجرون المصرف المالي على واحد تالنت وأربعين مينا سنويًا ، وحصلوا على واحد تالنت سنويًا من إيجار مصنع الدروع(٧).

ونستطيعُ القولَ إنَّه في ظل نظام الأبوفورا كان يُعْهَدُ بإدارة المشروعات التجارية والصناعية والمصرفية إلى عبد أو مجموعة من العبيد ، في مقابل دفع مبلغ ثابت من المال

---

(1) Diogenes Laertius, Lives of Eminent Philosophers : 7. 169-170.

(2) Demosthenes, Speeches, Against Aphobus 1, 27. 9.

(٦) ديموسثينيس كان يحصل مِن عبيده الذين يديرون مصنع الأثاث - الذين بلغ عددهم ٢٠ عبدًا - على ١٢ مينا سنويًا ، وانطلاقًا من أنَّ المينا يساوي ١٠٠ دراخمة فإنَّه يحصل منهم على ١٢٠٠ دراخمة ، ففي حالة الضَّرْب في رقم ٦ (حيث إنَّ الدراخمة = ٦ أوبول) = ٧٢٠٠ دراخمة ، إذا ما قُسِّموا على عدد أيام السنة يصبح الناتج ٢٠ «أوبول» على عشرين عبدًا ، فيصبح ما يحصل عليه من كل عبد «أوبول» واحدًا يوميًا. (Demosthenes, Speeches, Against Aphobus 1, 27. 9).

(4) Xenophon. De Vectigalibus, 4. 23; Bradley. K & Cartledge. P., Op. Cit., p. 65.

(5) Aeschines. Speeches "Against Timarchus" 1. 97.

(6) Xenophon, Memorabilia : 2. 5. 2.

(7) Demosthenes, Speeches. For Phormio, 36.37.

كل فترة زمنية ، وكان العبدُ القائمُ على إدارة المشروع يتحمَّل وحده الربح والخسارة ، ولا يتأثر دخل السيد بأداء العمل التجاري سواء بالسلب أو بالإيجاب[١] ، ويؤكدُ ذلكَ قول ديموسثينيس[٢] إنَّ الدخل الذي كان يحصلُ عليه مِن العبيد الذين كانوا يعملون في صناعةِ الأثاث ينبغي أنْ يستمر بالقيمة نفسها ، كما أنَّ ديموسثينيس[٣] يَصِفُ لنا عائدات السيد المالك بأنَّها «ἀτελεῖς» التي تعنِي «صافي الربح» ، حيث ذكر أنَّ مصنعَ الأسلحة كان يعملُ به ٣٢ أو ٣٣ عبدًا ، يحصل منهم على صافي دخل قدره ٣٠ مينا ، بينما مصنع الأثاث كان يعمل به ٢٠ عاملًا ، يحصل منهم على صافي دخل قدره ١٢ مينا.

إنَّ العبيدَ الذين كانوا يديرونَ مشروعات تجارية أو صناعية أو مصرفية ، كان يُشَارُ إليهم ، في الغالب ، بالمصطلح «χωρὶςοἰκοῦντες»[٤] الذي يعني **«أولئك الذين يعيشون بشكلٍ مستقل، أو أولئك الذين يعيشون بعيدًا عن أسيادهم أو بمعزلٍ عنهم»** ، لأنَّ هؤلاء العبيد لم يكونوا ضمن أفراد أسرة أيٍّ من المواطنين الأثينيين أو حتى

---

(1) Acton. P., Poiesis : Manufacturing in Classical Athens, Oxford, 2014. p. 253.

(2) Demosthenes, Against Aphobus 1, 27. 29.

(3) Demosthenes, Against Aphobus 1. 27. 9.

(4) Demosthenes, Philippic 1, 4. 36.

– للمزيد من الدراسات التي ناقشت هذا المصطلح ، انظر :

- Kazakevich. E. G. "Were the χωρὶςοἰκοῦντες Slaves? " GRBS, 48, 2008, pp. 343-380; Casson. L., The Athenian Upper Class and New Comedy, TAPA, Vol. 106 (1976), pp. 36-40; Jameson. M. H., Agriculture and Slavery in Classical Athens, CJ. Vol. 73, No. 2 (Dec., 1977 - Jan., 1978), pp. 122-145; Glotz. G., Ancient Greece at Work " an Economic History from the Homeric Period to the Roman Conquest" London, 1926, p. 209; Carey, C., Op. Cit., p. 137.

الأجانب (μέτοικοι) ، لكن كانت لديهم عائلاتهم الخاصة[١] ، وهؤلاء العبيد كان يُسْمَحُ لهم بأنْ يمتلكوا مشروعات تجارية خاصة ، وأنْ يحتفظوا بجزء من عائداتها ، وأنْ يتمتعوا بقدرٍ كبيرٍ مِن الاستقلال الاقتصادي ، فضلًا عن بعض الامتيازات الأخرى ؛ وذلك مقابل أنْ يدفعوا لأسيادهم أبوفورا ، ويحتفظوا بأي أرباح إضافية أخرى يكسبونها من عملهم[٢]، وهذا النوع من العبيد كان يَنْقَسِمُ بدورِهِ إلى مجموعتين : **المجموعة الأولى** هم العبيد الذين كان يتم تأجيرهم للغير ، مثلهم مثل أيَّة ملكية أخرى. أما **المجموعة الأخرى** فهم العبيد الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص ، ويدفعون لمُلَّاكهم جزءًا ثابتًا من دخلهم[٣].

كما كان يُشَارُ إليهم أيضًا بالمصطلح «ἀνδράποδαμισθοφοροῦντες»[٤] أي «العبيد الذين يعملون مقابل أجر» ، وذلك تمييزًا لهم عن العبيد الذين يعملون مباشرةً

---

(1) Hansen, M. H., The Shotgun Method : The Demography of the Ancient Greek City-state Culture, University of Missouri Press, 2006, p. 57, note. 112.

– مصطلح μέτοικοι (مفردها μέτοικος) ، يتكون من مقطعَيْن ؛ μετά ويعني «تغيير» ، و οἶκος ويعني «موطن» ، أي أنَّه يعني تغيير الموطن ، وهو مصطلح يشير إلى أولئك الذين تركوا موطنهم الأصلي وأقاموا في أثينا. لذا فقد كان يُطلَق عليهم الأجانب أو الغرباء .

(2) Kazakevich. E. G., Op. Cit., p. 348; Todd. S., Lady Chatterly's Lover and the Attic Orators : the Social Comosition of the Athenian Jury, JHS, vol. 110, 1990, 161; Hobden. F & Tuplin. C., Xenophon : Ethical Principles and Historical Enquiry, Boston, 2012, p. 729.

(3) Kazakevich. E. G., Op. Cit., p. 359.

(4) Isaeus. Speeches. 8. 35 ; Hobden. F & Tuplin. C., Op. Cit., p. 728. No. 13; Kazakevich. E. G., Op. Cit., p.358.

مع أسيادهم ، ويقيمون معهم ، الذين كان يُشَارُ إليهم عادةً بـ«οἰκέται» أو «δοῦλοι»[١].

وجديرٌ بالذكرِ أنَّ الـعبيد المستقلين (χωρὶςοἰκοῦντες) كانت لديهم فرصة أفضل لكي يتحرروا مِنْ ربقة العبودية ، لأنَّه كان يُسْمَحُ لهم بالاحتفاظِ ببعض المبالغ المالية التي كانوا يحصلون عليها من عملهم ، التي كانوا يدَّخرونها حتى يَتَمَكَّنوا في نهايةِ المطافِ مِنْ شِراءِ حُريتهم ، طالما أنَّهم يدفعون إلى أسيادهم حصةً ثابتة (apophora) مِنْ أرباحهم[٢] ، وتؤكد ذلك حالةُ كلٍّ مِن المصرفيَّيْنِ باسيون وفورميون سالفَي الذكر ، وهما اللذان استطاعا أنْ يُكَوِّنا ثروةً مِنْ عملهما ، واشتريا حريتهما ، بل حصلا على المواطنة الأثينية[٣].

ويؤكد كسينوفون ظاهرة عِتْق العبيد هذه ، عندما يتحسَّرُ على المكانة العالية التي وصل إليها بعض العبيد الأثينيين ، بقوله :

“εἰδέτιςκαὶτοῦτοθαυμάζει, ὅτιἐῶσιτοὺςδούλουςτρυφᾶναὐτόθικαὶμεγαλοπρεπῶςδιαιτᾶσθαιἐνίους, καὶτοῦτογνώμῃφανεῖενἂνποιοῦντες. ὅπουγὰρναυτικὴδύναμίςἐστιν, ἀπὸχρημάτωνἀνάγκητοῖςἀνδραπόδοιςδουλεύειν, ἵναλαμβάνωμεν<ὧν>πράττῃτὰςἀποφοράς,καὶἐλευθέρουςἀφιέναι”

(1) Kazakevich. E. G., Op. Cit., p. 358.

(2) Hobden. F & Tuplin. C. Op. Cit., p. 729.

(3) Demosthenes, Speeches, For Phormio, 36. 4-13; Against Stephanus 1, 45. 54, 73, 80, 85.

«لو أنَّ أي شخص ، أيضًا ، ذُهِلَ من حقيقة أنَّهم (الأثينيين) تركوا العبيد يعيشون حياة الترف هنا ، وأنَّ بعضًا منهم تبدو عليهم الفخامة ، فليكن من الواضح أنَّه حتى هذا قد فعلوه لعلةٍ ما. لأنَّه حيث تكون هناك قوة بحرية ، فمن الضروري ، لاعتبارات مالية ، أنْ يعمل العبيد مقابل أجر ، مِنْ أجلِ ذلك ؛ فإنَّنا نَحْصُلُ على حصة مِنْ أرباحهم (ἀποφορά) ومن ثم فإنَّنا مُضطَرُّونَ إلى عتقهم»(١).

ويبدو أنَّ ظاهرة عتق العبيد قد أقلقت أفلاطون وأثارت مخاوفه ، مما دعاه إلى القول إنَّه يجب أنْ يُحْسَب حسابٌ للرجال المُعْتَقين (ἀπελεύθεροι) ، خاصة الأثرياء منهم (πλούθιοι) ، بل ذهب إلى القولِ إنَّه ينبغي ألَّا يكونوا أكثر ثراءً مِنْ أسيادهم السابقين(٢).

كما تُسَجِّل لنا مجموعةٌ مِن النقوش الكتابية مؤرخة بـ(٣٣٠/ ٣٢٠ ق.م) عمليةَ عتق لمجموعةٍ مِن العبيد ، مصحوبة بإهداءات هؤلاء المعتقين فيأوانٍ مِن الفضة (phiale) إلى أثينا (ربة الحكمة) ، دُوِّنَ عليها تدوينات فردية ، تشمل : أسماء العبيد ، ومهنة كل واحد منهم ، وقيمة الآنية (١٠٠ دراخمة). وسبب هذه الإهداءات كسْب هؤلاء العبيد دعوى قضائية خاصة ، أُقيمت أمام المحاكم الأثينية مِنْ قِبَل المُلَّاك السابقين لهؤلاء العبيد ، وحصل العبيدُ مِنْ خلالها على حريتهم الكاملة(٣).

---

(1) Pseudo-Xenophon (Old Oligarch), Constitution of the Athenians. 1. 11.

(2) Plato, Laws, 11. 915a.

(3) IG. II (2) . 1553-1578.

– كما تُمُدُّنا هذه النقوش بمعلومات قيِّمة عن مهن هؤلاء العبيد وحِرَفِهم قبل عتقهم وبعده ، حيث وُجِدَ عمال في مجال الحِرَف الصناعية (حرفيو معادن – حرفيو أحجار وخزف – حرفيو خشب – حرفيو أقمشة) ، ومجال الزراعة (عمال الحقول –

إذا كان الذكورُ مِن العبيدِ يدفعونَ الأبوفورا إلى أسيادهم ، فهل كانت النساءُ من الإماء يدفعْن الأبوفورا أيضًا؟ أم أنَّ الأمرَ كان مقتصرًا على الذكور فقط؟

إنَّ دَفْعَ الأبوفورا لم يقتصر فقط على الذكور مِن العبيد ، لكنه شَمِلَ أيضًا النساء ، حيث يذكر لنا إيسايوس[(1)] (Ἰσαῖος) الخطيب الأثيني (٤٢٠-٣٤٨ ق.م) أنَّ شخصًا يُدْعَى كيرون (Κίρων) كان يمتلك ، فضلًا عن بعض الممتلكات الأخرى ، إماءً تتقاضين أجورًا من أعمالهن لدى الغير (ἀνδράποδαμισθοφοροῦντα) ، وهنَّ امرأتان وفتاة .

<u>δύο</u>. <u>καὶ</u>. <u>μισθοφοροῦντα</u>. <u>ἀνδράποδα</u>. <u>δὲ</u>. <u>ἔτι</u>. "
". <u>παιδίσκηνκαὶ</u>. <u>θεραπαίνας</u>.
«كانتْ لديه إماءٌ يعملْنَ مقابل أجر ، امرأتان وفتاة»

كما أنَّ كسينوفون[(2)] يخبرنا أنَّ أريستارخوس (Ἀρίσταρχος) يشتكي إلى سقراط (Σώκρατες) بعد أن انحدر إلى العَوَزِ ، أنَّ عليه أنْ يعولَ أربع عشرة من قريباته من النساء ، لكن ليس لديه دخل يُعِينه على ذلك ، ومِنْ خلال اعتراف أريستارخوس بأنَّ

مقلمو أشجار الكروم) ، ومجال التجارة (تجار التجزئة – تجار الحديد – الخبَّازون – البقَّالون – باعة الطعام الساخن – الطُّهاة – باعة سلع بعينها مثل : السمك المجفف ، والسمسم ، واللبَّان ، والقنب ، والخشب ، والعطور ، إلخ.) ، ومجال التسلية (عازف القيثارة (κιθαριστής)) ، ومجال النقل (سائقو البغال – سائقو الحمير– الحمَّالون – السقاة) فضلًا عن المرابين ، والكَتَبَة ، والوكلاء الخدم ، والمربيات ، والمرضعات. وثمَّة عدد كبير من النساء حَمَلْنَ لقب عاملات الصوف (ταλασιουργοι). وإن دل هذا على شيء فإنَّما يدل على أنَّ هؤلاء العبيد قد شكَّلوا جزءًا كبيرًا من القوى العاملة الأثينية.

(1) Isaeus. Speeches.Ciron, 8. 35

(2) Xenophon, Memorabilia, 2. 7.

قريباته هؤلاء يَعْرِفْنَ غَزْل ملابس الرجال والنساء(١)، اقترحَ عليه سقراط أنْ يَقُمْنَ بحياكةِ الملابس وبيعها في السوق ، وضرب له سقراطُ مثالًا ، قال له إنَّ عليه أنْ يحتذيَ به ، وهو ورشة تعمل في المجال نفسه تُدِيرُها نساءٌ من الإماء(٢).

لقد كانت للإماء فرصٌ كبيرة للحصول على حريتهن عن طريق العمل في بعض الحرف ؛ مثل العمل في مجال المنسوجات في المنازل ، ومِنْ ثَمَّ كُنَّ يَقُمْنَ بدفعِ الأبوفورا إلى أسيادهن ، وتوفير مبلغ كافٍ من دُخُولهن لشراء حريتهن(٣).

كما أنَّ قائمةَ العبيد المحررين ، الذين وردوا في نقوش أتيكا (Attica Stelai) سالفة الذكر(٤) تضم مِنْ بينها ما بين ٤٨ إلى ٥٢ امرأة كُنَّ يعملْنَ في إنتاج السلع وإعدادها

---

(1) Xenophon, Memorabilia, 2. 7. 5

(2) Xenophon, Memorabilia, 2. 7. 6.

(3) Thompson. W., Weaving : A Man's Work,The Classical World, vol. 75, 1982, pp. 221, note 13.

(4) IG, II2. 1553-1578.

عن هذه النقوش راجع أيضًا :

- Lewis. D. M., Attic Manumissions, Hesperia, 28, 1959, pp. 237-238
- Lewis. D. M., Dedications of Phialai at Athens, Hesperia, 37, 1908, pp. 368-380.
- Tod. M. N., Epigraphical Notes on Freedmen's Professions, Epigraphica, 12, 1950, pp. 3-26.

وبيعها ، وذُكِرْنَ في النقوشِ باسم (ταλασιουργοί)[١] أي عُمَّال الصوف (wool-worker)[٢].

فضلًا عما سبق ذكره من المعاني والدلالات التي تشيرُ إليها الأبوفورا ، نجد أنَّها تشيرُ في بعضِ المواضع إلى المال الذي تدفعه الدولة للعبيد الذين كانت تستخدمهم للعمل في الأسطول ؛ حيث يخبرنا ديموسثينيس أنَّ العبيد المستقلين (χωρὶςοἰκοῦντες)، والأجانب المقيمين (μετοίκοι) كانوا يعملون في الأسطول الأثيني[٣].

كما يخبرنا كسينوفون أنَّ العبيد كانوا يعملون في الأسطول البحري الأثيني ، وأنَّهم كانوا يتقاضون أجرًا لقاء ذلك ، وأنَّ أسيادهم كانوا يحصلون على حصة من هذا الأجر[٤].

ὅπουγὰρναυτικὴδύναμίςἐστιν, “
ἀπὸχρημάτωνἀνάγκητοῖςἀνδραπόδοιςδουλεύειν,
”ἵναλαμβάνωμεν<ὧν>πράττῃτὰς<u>ἀποφοράς</u>

---

[٥] عن المناقشات التي دارت حول هذا المصطلح راجع :

- Rosivach . V. R.,"Talasiourgoi" and "Paidia" in "IG" 22 1553-78 : A Note on Athenian Social History, Historia : Bd. 38, H. 3 (1989), pp. 365-370.

- Faraone. C. A, & McClure. L. K., Prostitutes and Courtesans in the Ancient World, University of Wisconsin Press, 2008, pp. 105-107.

- Kamen. D., Op. Cit., p. 21; Thompson. W., Op. Cit., p. 220.

[٦] لكنْثَمَّة مَن يرى أنَّ هذا المصطلح تلْطيفٌ لمعنى فتيات البغاء ، اللواتي يعمَلْنَ في حرفة الصوف بجانب ممارستهِنَّ البغاء .

- Kennedy. R., Immigrant Women in Athens : Gender, Ethnicity, and Citizenship in the Classical City, London, 2014, p. 131; Kamen. D., Op. Cit., p. 21, note 11.

(3) Demosthenes, Philippic 1, 4. 36.

(4) Pseudo-Xenophon (Old Oligarch), Constitution of the Athenians. 1. 11.

«لأنَّه حيث تكون هناك قوة بحرية ، فمن الضروري ، لاعتبارات مالية ، أنْ يعمل العبيد مقابل أجر ، مِنْ أجلِ ذلك ؛ فإنَّنا نَحْصُلُ على حصة مِنْ أرباحهم (ἀποφορά)»

كما أنَّ الأبوفورا كانت تدلُّ على ضريبة حرب (war tax)[١] أو إسهامات تُدفَع للقيام بحرب ، ويؤكد ذلك ما يخبرنا به ثوكوديديس[٢] من أنَّه قبل الحروب البلوبونيزية (٤٣١-٤٠٤ق.م) نشبت حرب بين مدينتَيْ لبريون (Λεπρέον) وأركاديا (Ἀρκάδια) ، فوقفت مدينة إليس (Ἠλείς) بجوار جارتها مدينة لبريون وقدمت لها المساعدات العسكرية ، وفي مقابل ذلك ، وافقت لبريون على دفع ضريبة (أبوفورا) إلى إليس ، قدْرُها واحد تالنت ، وإنْ كانت لبريون قد استغلت نشوب الحروب البلوبونيزية ذريعةً لوقف دفع هذه الضريبة.

كما أنَّها كانت تدلُّ على المبالغ المالية التي كانت تُدْفَعُ مِنْ قِبَلِ المدن اليونانية الحليفة لإسبرطة (٤٧٨/ ٤٧٧ ق.م) لمواصلة حربها ضد الفرس. وذلك طبقًا لما ورد لدى بلوتارخوس[٣].

---

(1) Plutarch, Quae. Conv. 2. 647f; Diodorus Siculus, Hist. 24. 12. 3; Diony. Hali. Hist. 10. 53. 4.

(2) Thucydides, The Peloponnesian War : 5. 31.2-4.

"πολέμουγὰργενομένουποτὲπρὸςἈρκάδωντινὰςΛεπρεάταιςκαὶἨλείωνπαρακληθέντωνὑπὸΛεπρεατῶνὲςξυμμαχίανἐπὶτῇἡμισείᾳτῆςγῆςκαὶλυσάντωντὸνπόλεμονἨλεῖοιτὴνγῆννεμομένοιςαὐτοῖςτοῖςΛεπρεάταιςτάλαντονἔταξαντῷΔιὶτῷὈλυμπίῳἀποφέρειν. [3] καὶμέχριμὲντοῦἈττικοῦπολέμουἀπέφερον, ἔπειταπαυσαμένωνδιὰπρόφασιντοῦπολέμουοἱἨλεῖοιἐπηνάγκαζον, οἱδ᾽ἐτράποντοπρὸςτοὺςΛακεδαιμονίους"

(3) Plutarch, Aristides : 24.

"Ἕλληνεςἐτέλουνμέντινακαὶ Λακεδαιμονίωνἡγουμέν ωνἀποφορὰνεἰςτὸνπόλεμον"

«لقد اعتاد اليونانيون على دفع نوعٍ من الإسهام (apophora) في الحرب (على الفرس)، حتى في الوقت الذي كان الإسبرطيون يَتَوَلّون القيادة»

ومِنْ خلالِ ماسبق، يمكننا القول إنَّ الأبوفورا في أثينا كانت **تُدْفَع مِنْ عبدٍ إلى حرٍّ**: وهي الأبوفورا التي كان يدفعها العبيد إلى أسيادهم، سواء أولئك الذين كانوا يعملون لدى الغير، أو الذين يعملون لحسابهم الخاص، أو الذين كانوا يديرون أعمال أسيادهم، فضلًا عن العبيد العموميين الذين كانوا يدفعون الأبوفورا للدولة نظير عملهم في الأسطول(١)، كذلك كانت **تُدْفَع مِنْ حرٍ إلى حر**: ومثال ذلك الأبوفورا التي كان يَدْفَعُهَا الفيلسوف اليوناني كلينثيس إلى أستاذه الفيلسوف زينون، كذلك الأبوفورا التي دفعتها مدينة لبريون إلى مدينة إليس نظير ماقدمته لها مِنْ مساعداتٍ عسكريةٍ في حربها ضد مدينة أركاديا. أيضًا الأبوفورا التي كانت تدفعها المدن اليونانية إلى إسبرطة لمواصلة حربها ضد الفرس. كما أنَّ الأبوفورا كانت **تُدْفَع من حرٍ إلى عبدٍ**: وهي الأبوفورا التي كانت تدفعها الدولة للعبيد الذين كانت تستأجرهم للعمل في الأسطول، طبقًا لما ورد لدى كلٍّ مِنْ ديموسثينيس(٢) وكسينوفون(٣).

نظام الأبوفورا في إسبرطة

---

(1) Pseudo-Xenophon (Old Oligarch), Constitution of the Athenians. 1. 11.

(2) Demosthenes, Philippic 1, 4. 36.

(3) Pseudo-Xenophon (Old Oligarch), Constitution of the Athenians. 1. 11.

لقد ارتبطت البدايـات الأولى للمجتمـع الإسبرطي بغزو القبـائل الدورية (١١٠٠ – ٨٠٠ ق.م) التي اجتاحت بلاد اليونان من الشمال لتستقر في آخر المطاف في بعض أقسام شبه جزيرة البلوبونيسوس ، حيث استولى هؤلاء الغزاة على منطقة لاكونيا في جنوبي شبه الجزيرة ، حيث يوجد الوادي الخصيب لنهر إيوروتاس (Eurotas)[١] وأخضعوا سكانها الأصليين لهم ، وحَوَّلوهم إلى رعايا تابعين أطلقوا عليهم اسم «السكان المحيطين أو المُجَاورين» (Perioekoi). وبعد ذلك استطاع الدوريون أنْ يستولوا على منطقة مسينيا (Messenia) الواقعة في غربي لاكونيا ، وهي أخصب مناطق شبه جزيرة البلوبونيسوس[٢]، وأخضعوا سكانها الأصليين لهم وحَوَّلوهم إلى طبقة من العبيد (الهيلوتيس) (Helots). فضلًا عن المُسَخرين (من الدولة لحساب مواطنيها) ، وكانوا فقراء مُعْدَمين ، غرباء في بلادهم ، لاعمل لهم سوى زراعة الأرض التي كانت تُوَزَّع على السادة الإسبرطيين بالتساوي ، وكانوا يزرعونها نظيرَ حصة محددة من المحصول ، أما الباقي فكان يَذْهَبُ إلى الإسبرطيين[٣]، وهذه هي الأبوفورا ، حيث إنَّ الأبوفورا كانت تعنِي الضريبة التي يدفعها الهيلوتيس إلى أسيادهم ، كما كانت الأبوفورا الالتزام الوحيد المفروض عليهم[٤].

---

[١] لطفي عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

[٢] المرجع نفسه ، ص ١٣٧ .

[٣] سيد الناصري : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

[4] Whitby. M., Sparta : "Edinburgh Readings on the Ancient World" London, 2002, p. 199.

إنَّ الوحيد الذي ينقلُ لنا صورة الوضع الاقتصادي للهيلوتيس ، وفي القلب منها نظام الأبوفورا ، هو المؤرخ بلوتارخوس (Πλούταρχος) لأنَّه الوحيد الذي أمَدَّنا بتحليلٍ متكاملٍ عن هذا الموضوع.

وطبقًا لما جاء عند بلوتارخوس فإنَّ نظام الأبوفورا في إسبرطة ارتبط بنظام الـ«كليروس» (κλῆρος) ؛ وهي قِطَع الأراضي التي كانت تُقْطَع للإسبرطي مِنْ قِبَل الدولة وهو في سن الطفولة ، حيث ذَكَر بلوتارخوس :[١]

τὸδὲγεννηθὲνοὐκῆνκύριοςὁγεννήσαςτρέφειν, "
ἀλλ᾽ἔφερελαβὼνεἰςτόποντινὰλέσχηνκαλούμενον,
ἐνῷκαθήμενοιτῶνφυλετῶνοἱπρεσβύτατοικαταμαθόντεςτὸπαιδ
άριον, εἰμὲνεὐπαγὲςεἴηκαὶῥωμαλέον, τρέφεινἐκέλευον,
κλῆροναὐτῷτῶνἐνακισχιλίωνπροσνείμαντεςεἰδ᾽ἀγεννὲςκαὶἄμο
ρφον, ἀπέπεμπονεἰςτὰςλεγομέναςἈποθέτας,
".παρὰΤαΰγετονβαραθρώδητόπον

«إنَّ مولودَ الإسبرطي لم يكن يُرَبَّى حسب إرادة الأب ، لكن كان المولودُ يُؤْخَذُ ويُحْمَلُ مِنْ قِبَل الأب إلى مكانٍ يسمى «ليسخي» (Λεσχη) (أي الأريكة) ، وهناك يقوم شيوخ القبائل (πρεσβύτατοι) بفحص المولود ، فإذا كان سليم الجسد قوي البُنيان أمروا الأب بتربيته ورعايته ، واقتطعوا له حصصًا مِن الأراضي الزراعية (κλῆροι) ، أما إذا كان معتل الجسد مشوه البنيان ، أرسلوه إلى مكان يسمى أبوثيتاي (Αποθέται) وهو مكان يشبه الهوة عند سفح جبل تايجيتوس (ταΰγετος) ، ويُلقَى به»

---

[1] Plutarch, Lycurgus, 16. 1.

وكما ذكرنا فإنَّ الهيلوتيس هم مَنْ كانوا يَقُومونَ بزراعة أرض السيد الإسبرطي ، نظيرَ حصة محددة مِن المحصول ، أما الباقي فكان يَذْهبُ إلى الإسبرطيين.

ويؤكدُ لنا بلوتارخوس ذلكَ بقوله :[١]

οἱ δὲ εἵλωτες αὐτοῖς εἰργάζοντο τὴν γῆν ἀποφέροντες " ἀποφορὰν τὴν ἄνωθεν ἱσταμένην.3 ἐπάρατον4 δ᾽ ἦν πλείονός τινα μισθῶσαι, ἵνα ἐκεῖνοι μὲν κερδαίνοντες ἡδέως "ὑπηρετῶσιν, οὗτοι δὲ μὴ πλέον ἐπιζητῶσιν

«إنَّ الهيلوتيس عملوا في الأرض لمصلحتهم هم ، مقابلَ دفع ضريبة ثابتة في البداية ، ولقد كان شيئًا ملعونًا (ἐπάρατος) أنْ يَدْفَعوا أكثرَ مِن الضريبة المقررة ، لذا فإنَّ الهيلوتيس مِنْ خِلالِ استفادتهم سوف يدفعونَ هذه الضريبة عن طِيبِ خاطر ، في حين أنَّ أسيادهم لن يطلبوا منهم المزيد».

كما يؤكدُ لنا بلوتارخوس مِنْ خلال هذا النص ثباتَ قيمة أو مقدار الأبوفورا في البداية ، وأنَّ محاولة زيادة هذا المقدار كان شيئًا ملعونًا (ἐπάρατος) ، وكلمة «ملعون» تعطي بُعدًاديئيًا بالنسبة للإسبرطيين ، وتُلْزِمهم بالإبقاء على هذا المقدار. كما يُظْهِرُ لنا بلوتارخوس الجانب التعاقدي بين الهيلوتيس والسيد صاحب الأرض ، والجانب التعاقدي هذا قائمٌ على المنفعةِ المتبادلة ، حيث يقومُ الهيلوتيس بالعملِ في الأرض ودَفْع الضريبة المقررة مقابلَ ضمان أنَّ الإسبرطيين لن يرفعوا قيمة الضريبة وأنهم يُبْقُون عليها كما هي. وهنا وَجَد كل طرف من الطرفين أنَّ هذا النظام مفيد له[٢]، وفي هذه الإفادة لم

---

[1] Plutarch, Instituta Laconica, 41= 239d

[2] Whitby. Loc. Cit.

يكن استقرار أو ثبات قيمة الأبوفورا بالنسبة للهيلوتيس الجانبَ الإيجابي فقط ، لكنهم حققوا أيضًا فائدة بسبب قيمة الأبوفورا المنخفضة[١].

كما يؤكدُ أثينايوس[٢] أيضًا ثبات قيمة الأبوفورا بقوله :

καὶ παραδόντες αὐτοῖς τὴν χώραν ἔταξαν μοῖραν ἣν αὐτοῖς "
"ἀνοίσουσιν αἰεί.' χηνίζειν δὲ εἴρηται ἐπὶ τῶν αὐλούντων

«إنَّ السيد الإسبرطي يَمْنَحُ الهيلوتيس قطعة محددة من الأرض يقوم بزراعتها ، وفي مقابل ذلك يحصل منه على مقدار ثابت من المحصول»

يمكننا القول إنَّ الأبوفورا ، بصفتها «ريعًا» اقتصاديًا ، تمثِّل العائد من قطعة الأرض (κλῆρος) التي كان يزرعها الهيلوتيس للسيد ، أو ناتج العمل أو الدخل الذي يحصل عليه الإسبرطي.

ويؤكد بلوتارخوس ذلك أيضًا[٣] بقوله :

"οἱ δὲ εἵλωτες αὐτοῖς εἰργάζοντο τὴν γῆν, ἀποφορὰν"

«إنَّ الهيلوتيس كانوا يزرعون الأرضَ لصالحهم ، ويدفعون مقابل ذلك أبوفورا»

كما ذكر بلوتارخ أنَّ كل فردٍ مِن الهيلوتيس كان يقدِّمُ للسيد صاحب الأرض من ناتج «الكليروس» سنويًا سبعين مكيالًا من الشعير ، ويقدِّم لزوجة السيد اثني عشر مكيالًا ، فضلًا عن كمية مناسبة من النبيذ والزيت[٤].

---

(1) Ibid., p. 200.
(2) Athenaeus, Deipnosophistae, 14. 74= 657c.
(3) Plutarch, Lycurgus : 24. 3.
(4) Plutarch. Lycurgus, 8. 4.

"

ὁδὲκλῆροςἦνἑκάστουτοσοῦτοςὥστεἀποφορὰνφέρεινἀνδρὶμὲν ἑβδομήκοντακριθῶνμεδίμνους, γυναικὶδὲδώδεκα, "καὶτῶνὑγρῶνκαρπῶνἀναλόγωςτὸπλῆθος

إنَّ هذا إنْ دلَّ على شيء فإنَّما يدل على أنَّ الأبوفورا لم تكن تقتصر فقط على تقديم الهيلوتيس حصة مِنْ محصول الكليروس ، لكن أيضًا كانت تشتمل على بعض المواد الغذائية التي كانت تقدم للسيد وعائلته.

في النهاية يمكننا القول إنَّ الأبوفورا "(ποφορά, η (ἀποφέρω" تعنِي إحضارَ أو سدادَ مبالغ مالية مستحقة ، أو دَفْع ضريبة أو إيجار عينيَّيْن[1]، وإنَّها حَمَلت العديدَ مِن المعاني والدلالات ؛ منها أنَّها تعني «ناتج عملٍ أو فائدة»[2]، كما أنَّها تعني الأرباح التي تعود على مُلَّاك العبيد مِنْ عبيدهم ، بالتالي تدل على المبلغ المالي أو المقدار العيني الذي يدفعه العبد إلى سيده ، عندما يعمل لحسابه الخاص. وذلك طبقًا لما ورد في العديد من الكتابات الأدبية[3] ، التي عرضنا لها بالشرح والتحليل ، كذلك منها ، على سبيل المثال ، ما ورد عن «هايبيريديس» (Ὑπερείδης) الخطيب الأثيني (٣٩٠-٣٢٢ ق.م)

"γὰρἐάντιἀγαθὸν3 πράξηἢἐργασίανεὕρηὁοἰκέτηςτοῦκεκτημένουαὐτὸ νγίγνεται"[4]

---

(1) Liddell & Scott. Greek-English Lexicon, Oxford, 2001, p. 96

(2) Plutarch, Lycurgus : 8. 4; Plutarch, Lycurgus : 24. 3; Aristotle, Politics : 1264a. 33.

(3) Aeschines, Speeches. 1. 97; Diogenes Laertius, Lives of Eminent Philosophers : 7. 170; Menander's Arbitration, Act. II. ll. 376-380; Athenaeus, The Deipnosophists. 13. 567d; Hyperides, Against Athenogenes. 3. 9; 3. 19.

(4) Hyperides, Against Athenogenes. 3. 22.

«لأنَّه إذا حقَّق عبدٌ أي نجاح أو حصل على أرباح ، فإنَّ سيده يتمتع بالفوائد»

كذلك تدل على المبلغ الذي يحصل عليه مُلَّاك العبيد عندما يسمحون لعبيدهم بالعمل لدى الغير مقابل أجر[١] ، مثل العمل في المناجم[٢] أو الورَش ، أو أي نوع آخر من أنواع العمل. فضلًا عن أنَّها تعنِي المال الذي تدفعه الدولة للعبيد الذين تستخدمهم للعمل في الأسطول[٣] سواء كانوا عبيدًا عموميين (δημόσιοιδούλοι)[٤]، أو مستقلين (χωρὶςοἰκοῦντες)[٥]، كما أنَّ الأبوفورا كانت تدل على ضريبة حرب (war tax) أو إسهامات تُدفَع للقيام بحرب[٦]، ومنها أنها كانت تدل على المبالغ المالية التي كانت تُدفع مِنْ قِبَل الدول الحليفة لإسبرطة لمواصلة حربها ضد الفرس[٧].

ولقد عَرَّفَ أحدُ الباحثينَ نظامَ الأبوفورا بأنَّه «**يعني ، بشكلٍ عام ، انخراط عبد في حرفة أو مهنة أو تجارة يقوم على إدارتها بشكلٍ شبه مستقل ، فضلًا عن إدارة بعض الأعمال التجارية**»[٨].

---

(1) Theophrastus. Phil. Characteres. 30. 15; Plutarch, Instituta Laconica : 239e.

(2) Andocides, Speeches, 1.38.

(3) Pseudo-Xenophon (Old Oligarch), Constitution of the Athenians. 1.11; Demosthenes, Philippic 1, 4. 36.

(4) Pseudo-Xenophon (Old Oligarch), Constitution of the Athenians. 1.11.

(5) Demosthenes, Philippic 1, 4. 36.

(6) Plutarch, Aristides : 24. 1; Dionysius of Halicarnassus, Antiquitates Romanae : 10. 53. 4; Diodorus. Siculus. Hist. 24. 12. 3. 2.

(7) Plutarch, Aristides : 24. 1

(8) Love. J. R., Antiquity and Capitalism : Max Weber and the Sociological Foundations of Roman civilization, Routledge, London, 1991, p. 98.

بينما عَرَّفهُ آخر[١] بأنَّه «**نظامٌ يرتبطُ بالمبلغ المالي الذي يُدْفَعُ مِنْ قِبَل العبد إلى سيده، مقابل أنْ يَسْمَح له سيده بإقامة مشروع تجاري أو صناعي خاص به. وأنَّه يرتبطُ أيضًا بالدخل الذي يعود على السيد من العبد الذي يتم تأجيره للغير، أي أنَّ الأبوفورا تعني المالَ الذي يحصلُ عليهِ العبدُ نظير عمله كـ«أجير» لدى الغير، ثم يدفعه كاملًا -أو جزءًا منه- إلى سيده**».

بينما عَرَّفه ثالثٌ[٢] بأنَّه يعني «**المبالغ المستحقة، أو ضريبة، أو نسبة مقررة على عمل ما أو شخص ما أو حتى دولة ما (tribute)، كما أنَّه يعني تحقيق ربح أو فائدة**».

الفرق بين الأبوفورا في أثينا وإسبرطة

١- إنَّ نظام الأبوفورا في إسبرطة كان قائمًا في الأساس على استثمار العبيد، فقط مِنْ خلال نظام الكليروس، أي أنَّ العبد كان يعمل فقط في ضيعة سيده.

أما نظام الأبوفورا في أثينا فقد كان قائمًا في الغالبية العظمى منه على استثمار مُلَّاك العبيد لعبيدهم في مختلف المهن والحرف والصناعات، فضلًا عن استثمارهم في إدارة بعض الأراضي الزراعية.

٢- إنَّ قيمة الأبوفورا في إسبرطة كانت ثابتة ومتساوية، تقريبًا، وذلك مرده إلى أنَّ حصص الأرض المملوكة كان لها الطابع نفسه.

---

(1) Kazakevich. E. G., Op. Cit., p. 350; 350, note 18.

(2) Acton. P., Op. Cit., p. 253.

أما الأبوفورا في أثينا فلم تكن ثابتة أو متساوية ؛ وذلك لأنها كانت تعتمدُ على نوع العبيد ، فالعبيد الذين يعملون مباشرةً مع أسيادهم ويقيمون معهم ، كانوا يدفعون قيمة تختلف عن العبيد الذين كانوا يعملون لحسابهم ، ويعيشون بشكل مستقل عن أسيادهم. فضلًا عن أنَّ الأبوفورا في أثينا كانت تعتمدُ على طبيعة عمل العبد.

٣- إنَّ الأبوفورا في إسبرطة كانت تُدفَع عينيَّة ، أما الأبوفورا في أثينا فقد كانت تُدفَع نقدًا ؛ وذلك لأنَّ الأولى كانت تُدْفَع مِنْ خِلالِ عملٍ زراعي ، أما الأخرى فقد كانت تُدْفَع مِنْ خِلالِ عملٍ حرفي.

٤- إنَّ نظام الأبوفورا في أثينا كان أكثرَ فائدةً للعبيد ؛ حيث منحهم هذا النظامُ فرصةً أكبر لتكوين ثروة ، ومِنْ ثَمَّ منحهم فرصةً أكبرَ للتحرر من ربقة العبودية. في حين أنَّ نظام الأبوفورا في إسبرطة لم تتعدَّ فائدته دفع أبوفورا منخفضة.

قائمة الاختصارات

١- AJP = The American Journal of Philology.

٢- CJ = The Classical Journal.

٣- GRBS = Greek, Roman, and Byzantine Studies.

٤- JHS = The Journal of Hellenic Studies.

٥- TAPA = Transactions of the American Philological Association.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا : المصادر الأدبية

Aeschines,Speeches "Against Timarchus" : (Translated by Charles Darwin Adams, Ph.D. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1919).

Andocides, Speeches :"On the Mysteries ."(Translated by K. J. Maidment, M.A. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1968).

Aristotle,Politics : (Translated by H. Rackham. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1944).

Aristotle, Economics : (Translated by G.C. Armstrong. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1935).

Athenaeus, The Deipnosophists .(Or Banquet Of The Learned Of Athenaeus. Translated by Henry G. Bohn, York Street, Covent Garden.London. 1854).

Demosthenes,Speeches, Against Aphobus 1 : (Translated by A. T. Murray, Ph.D., LL.D. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1939).

Demosthenes, Speeches, Against Phormio : (Translated by A. T. Murray, Ph.D., LL.D. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1939).

Demosthenes, Against Stephanus 1 : (Translated by A. T. Murray, Ph.D., LL.D. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1939).

Demosthenes, Against Neaera : (Translated by Norman W. DeWitt, Ph.D., and Norman J. DeWitt, Ph.D. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1949).

Demosthenes, Philippic 1 (Translated by J. H. Vince, M.A. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1930).

Diogenes Laertius,Lives of Eminent Philosophers : (Translated by R.D. Hicks. Cambridge. Harvard University Press. 1972 (First published 1925)).

Dionysius of Halicarnassus, Antiquitates Romanae : (Translated by Earnest Cary in the Loeb Classical Library, Harvard University Press, 1978).

Diodorus Siculus, Histories : (Translated by C. H. Old Father, Loeb Classical Library, London. 1976).

Hyperides, Against Athenogenes : (Translated by J. O. Burtt, M.A. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1962).

Isaeus Speeches : (Translation by Edward Seymour Forster, M.A. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1962).

Isocrates, Speeches, Trapeziticus : (Translated by i George Norlin, Ph.D., LL.D. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William

Lysias, Against Eratosthenes : (Translation by W.R.M. Lamb, M.A. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1930).

Menander's Arbitration : (.Translated by Gilbert Murray, George Allen & Unwin Ltd, London,1945).

Plato. Laws : (Translated by R.G. Bury. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1967 & 1968).

Plutarch,Lycurgus : (Translated by. Bernadotte Perrin. Cambridge, MA. Harvard University Press. London. William Heinemann Ltd. 1914).

PlutarchInstituta Laconica :(Translated by. Frank Cole Babbitt. Cambridge, MA. Harvard University Press. London. William Heinemann Ltd. 1931).

PlutarchAristides : (Translated by. Bernadotte Perrin. Cambridge, MA. Harvard University Press. London. William Heinemann Ltd. 1914).

Plutarch Publicola : (Translation by. Bernadotte Perrin. Cambridge, MA. Harvard University Press. London. William Heinemann Ltd. 1914).

Plutarch,Quaestiones Convivales : (Translated from the Greek by several hands. Corrected and revised by. William W. Goodwin, PH. D. Boston. Little, Brown, and Company. Cambridge. Press Of John Wilson and son. 1874).

Theophrastus, Characteres : "(αἰσχροκέρδειαΛ')" (Cambridge Classical Texts and Commentaries, Edited and Translated by James Diggle, Cambridge University Press, 2004).

Thucydides, The Peloponnesian War : (Translated by J. M. Dent; New York, E. P. Dutton. 1910).

Pseudo-Xenophon (Old Oligarch), Constitution of the Athenians : (Edited and Translated byE. C. Marchant. Harvard University Press, Cambridge, MA; William Heinemann, Ltd., London. 1984).

Xenophon, Ways and Means : (Translated byE. C. Marchant, G. W. Bowersock, tr. Constitution of the Athenians. Harvard University Press, Cambridge, MA; William Heinemann, Ltd., London. 1925)

Xenophon, Memorabilia : (Translated byE. C. Marchant. Harvard University Press, Cambridge, MA; William Heinemann, Ltd., London. 1923).

Xenophon, De Vectigalibus : (Translated byE. C. Marchant. Harvard University Press, Cambridge, MA; William Heinemann, Ltd., London. 1925).

ثانيًا : النقوش

IG. II (2) . 1553-1578

ثالثًا : المراجع العربية

سيد الناصري : الإغريق ، تاريخهم وحضارتهم ، من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر ، ط٢ ، القاهرة – دار النهضة العربية ١٩٧٦م.

لطفي عبد الوهاب يحيى : اليونان ، مقدمة في التاريخ الحضاري ، دار المعرفة الجامعية ٢٠١٠م.

رابعًا: المراجع الأجنبية

Acton. P : Poiesis : Manufacturing in Classical Athens, Oxford, 2014

Akrigg. B & Tordoff. R : Slaves and Slavery in Ancient Greek Comic Drama, Cambridge, 2013.

Bradley. K & Cartledge. P : the Cambridge world History of Slavery, Vol. 1 “the Ancient Mediterranean world” Cambridge, 2011.

Carey, C :Trials from Classical Athens, 2nd ed., Routledge, 2012

Casson. L : The Athenian Upper Class and New Comedy, TAPA, Vol. 106 (1976).

Glotz. G : Ancient Greece at Work “ an Economic History from the Homeric Period to the Roman Conquest” London, (1926).

Hansen, M. H., The Shotgun Method : The Demography of the Ancient Greek City-state Culture, University of Missouri Press, (2006).

Hobden. F & Tuplin. C : Xenophon : Ethical Principles and Historical Enquiry, Boston, (2012).

Iversen. P. A : Coal for Diamonds : Syriskos’ Character in Menandor’s Epitrepontes, AJP, vol. 122, 2001

Jameson. M. H : Agriculture and Slavery in Classical Athens, CJ. Vol. 73, No. 2 (Dec., 1977 - Jan., 1978).

Kamen. D : Status in Classical Athens, Princeton, (2013).

Kazakevich. E. G : “Were the χωρὶςοἰκοῦντες Slaves? ” GRBS, 48, (2008).

Love. J. R : Antiquity and Capitalism : Max Weber and the Sociological Foundations of Roman civilization, Routledge, London, (1991).

Pearson. A. C : the Fragments of Zeno and Cleanthes : With Introd, and Explanatory Notes Essay. Cambridge, (2012).

Shouler. K : The Everything Guide to Understanding Philosophy : Understand the Basic Concepts of the Greatest thinkers of all Time-Made Easy!, New York, (2008).

Silver. M : Slaves Versus Free Hired Workers in Ancient Greece, Historia : Zeitschrift für Alte Geschichte, Bd. 55, H. 3, (2006).

Thompson. W : Weaving : A Man’s Work, The Classical World, vol. 75, (1982).

Todd. S : Lady Chatterly’s Lover and the Attic Orators : the Social Composition of the Athenian Jury, JHS, vol. 110, (1990).

Whitby. M : Sparta : “Edinburgh Readings on the Ancient World” London, (2002).

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦) ، ٦٥-١٠١

المَوْقِعُ الجُغْرَافِيُّ لِمَدِينَةِ بِيزَنْطَة اليُونَانِيَّةِ وأَثَرُهُ السِّيَاسِيُّ والاقْتِصَادِيُّ مُنْذُ النَّشْأَةِ حَتَّى العَصْرِ الهِيلِّلِينِسْتِي

محمود أبو الحسن أحمد*

تمَّ تأسيس مدينة بيزنطة Βυζαντιον على يد الميجاريين[١] بقيادة القائد بيزاس Βυζας الذي حملت المدينة اسمه[٢] ، وذلك في عام ٦٥٩ ق.م[٣] ، فقد وَرَدَ عن

---

* مدرس التاريخ اليوناني والروماني ، قسم التاريخ والحضارة - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر .

(١) تقع ميجارا على بُعد ٨ ستاديا (ستاديا الواحدة = ٦٠٠ قدم) ، أو ميل واحد من جزيرة سلاميس ، وحوالي ٢٦ ميلاً من أثينا و٣١ ميلاً من كورنثا .

William Smith, *A Dictionary of Greek and Roman biography and mythology*, p. 492.

للمزيد عن ميجارا انظر:

Ronald P., *Legon, Megara: The Political History of a Greek City-State to 336 B. C.*, Cornell University Press,1981.

(٢) Robert. Bato, *Daily Life in Ancient and Modern Is*tanbul, Minnesota, 2000, pp. 7-8.

حملت ثلاث مدن اسم بيزنطة :

١ - المستعمرة اليونانية التي أنشأها الميجاريون عند مدخل البسفور .

٢ - مدينة في ليبيا ، وذلك وفقًا لما ورد عند إستيفانوس البيزنطي .

٣ - مدينة تقع على الشاطئ الغربي لساحل الهند .

Geaorgacs. D. J, *The Name of Constantinopole*, transaction and the proceeding of the American philogical association, 78, 1947, pp.347- 367.

(3) Strabo, 7.6, notes 1 .

إسترابون وتاكيتوس(١) أنَّ معبد الوحي في مدينة دلفي قد أرشد الميجاريين أن يُقِيموا مستعمرة جديدة في المكان المقابل لمدينة العميان ، طبقًا لموقع مدينة بيزنطة ، ويُقصَد بمدينة العميان خلقدونية Καλχηδόνος (كادي كوي بتركيا حاليًا) ، تلك المدينة التي تقع على الجانب الشرقي من مدخل البسفور ، التي أنشأها الميجاريون قبل سبعة عشر عامًا من إنشاء بيزنطة(٢) . ويبدو أن أصل الرواية (النبوءة) ، التي وَصَفت سكان خلقدونية بالعميان ، قد وردت عند هيرودوت في سياق حديثه عن الوالي الفارسي ميجابازوس Μεγάβαζος(٣) ؛ فعندما كان الأخير في بيزنطة أخبره البيزنطيون أن مدينتهم أُنشِئت بعد إنشاء خلقدونية بسبعة عشر عامًا ، لذلك وصَفَهم بالعميان ، لأنهم لم يختاروا موقع مدينة بيزنطة(٤) .

---

(1) Strabo, 7 ,6.2. & Tact, ann, XII, 63.

(2) Irad Malkin, *Religion and the Founders of Greek Colonies*, PH.D., University of Pennsylvania, 1981, p.18.

Strab, book 7, ch 6.note, p.284.

(٣) ميجابازوس : كان قائدًا تحت رئاسة الملك الفارسي داريوس ، وبعد فشل الملك في حملته على قبائل السكثيين Scythians عام ٥١٣ ق.م عُيِّن قائدًا على الممتلكات الفارسية في أوربا ، وكُلِّف بغزو تراقيا ، واستطاع أن يسيطر على بعض المدن في منطقة البحر الأسود .

Herodotus 5, 2. 6, 33.

(4) Herodotus, 4.144.

οὗτος δὲ ὁ Μεγάβαζος εἴπας τόδε τὸ ἔπος ἐλίπετο ἀθάνατον μνήμην πρὸς Ἑλλησποντίων. γενόμενος γὰρ ἐν Βυζαντίῳ ἐπύθετο ἑπτακαίδεκα ἔτεσι πρότερον Καλχηδονίους κτίσαντας τὴν χώρην Βυζαντίων, πυθόμενος δὲ ἔφη Καλχηδονίους τοῦτον τὸν χρόνον τυγχάνειν ἐόντας τυφλούς· οὐ γὰρ ἂν τοῦ καλλίονος παρεόντος κτίζε χώρου τὸν αἰσχίονα ἑλέσθαι, εἰ μὴ ἦσαν τυφλοί.

وأصبحتْ كلمات الوالي الفارسي مشهورة في المصادر القديمة(١)، كما سبق أن أشرنا . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما السبب الذي جعل سكان ميجارا يُنشِئون خلقدونية قبل بيزنطة على الرغم من أفضليّة موقع الأخيرة؟ إنّ ثَمَّة تفسيرات لهذا الأمر:

أولها: وجود القبائل التراقية على الجانب الغربي للبسفور ، وقد كانت تهدِّد أيَّ وجود للمستوطنات الإغريقية في هذا المكان ، وبالفعل نجحت هذه القبائل في منع العديد من محاولات الاستيطان على الضفة الغربية من ممر البسفور(٢) .

ثانيها: توجد أربع مستوطنات ميجارية في منطقة البحر الأسود ؛ وهي خلقدونية وإستاكوس Αστακος(٣) وسيلمبريا Σηλυμβρια(٤) وبيزنطة وهي آخرها . حيث أنشأت ميجارا المستعمرات الثلاث الأولى قبل بيزنطة ، وجميعها موانئ مهمة تتمتع

---

(1) Irad Malkin & Nino Samuel, "The City of the Blind and the Founding of Byzantium", *Mediterranean Historical Revew*, III, I, 1988, p.21.

(2) Ibid., p. 21.

(٣) مستعمرة ميجارية ، تقع على خليج إستاكوس Astacus ، ويرجع إنشاؤها إلى دورة الألعاب الأولمبية السابعة عشرة ، ووفقًا للأسطورة أُنشِئت المدينة على يد القائد إستاكوسبن بوسيلون ، ومن الجائز أن تكون هي المدينة نفسها التي حملت اسم أولبيا Olbia ، وذلك على يد المستعمرين الجدد من الأثينيين .

William Smith, *op.cit.* , p. 171.

(٤) وفقًا لما ورد عند Selymbria (Herdotus ,VI, 33) أو Selumbrie . و Selubria، وفقًا لما ورد عند Xenphone, (Anab,VII,2.) وحملت المدينة هذا الاسم نسبة إلى مؤسِّس المدينة من ميجارا ، وتم تغيير الاسم إلى أيدكسيوبوليس Eudoxiopolis ، نسبة إلى أيدوكسيا Eudoxia زوجة حاكم كاريا تشريفًا لها ، وهي الآن سيلفيري Silivri ، ومن الجدير بالذكر أن المدينة رفضت استقبال القائد الأثينيألكيبيادس في حملته على منطقة البحر الأسود عام ٣٠٨ ق.م ، وانضمت إلى مدينة بيزنطة عندما تعرَّضت للحصار على يد الملك فيليب المقدوني عام ٣٤٠ق.م .

William Smith, p. 798.

بتربة خصبة ، وجميعها تقع في شمال بحر بروبونتيس Προποντίς (بحر مرمرة) ، ويبدو أن ميجارا كانت تنوي احتكار السيطرة على المنطقة .

ثالثها: ساعدت الظروف السياسية في المنطقة اتجاه الميجاريين إلى إنشاء مستعمرة خلقدونية قبل بيزنطة ؛ فقد حدثَتْ تغيُّرات سياسية في غرب آسيا الصغرى خلال تلك الحِقْبَة ، وهي سقوط الإمبراطورية الفريجية(١) ، وصعود الأسرة الليدية(٢) ، مما سهَّل عملية الاستيطان في المنطقة ، ولم تَعُدْ هناك قوة مركزية تعوق ذلك(٣) .

---

(١) كانت المملكة الفريجية تقع في وسط آسيا الصغرى ، وازدهرت خلال القرن الثامن ق.م ، وكانت على اتصال واسع مع بلاد اليونان ، وتقع عاصمتها كورديون في سهل سانكاريوس وسط آسيا الصغرى ، وظلت قائمة إلى أن تم تدميرها على يد الكيميريين الذين كانوا يسكنون شمال البحر الأسود عام ٦٨٧ ق.م .

إيمان لفتة حسين: مملكة ليديا ٦٨٧ق.م – ٥٤٦ق.م، مجلة بابل للدراسات الإنسانية، المجلد الرابع، العدد٣، ٣١٨ .

(٢) مملكة ليديا : كانت تشغل مساحة كبيرة من منطقة آسيا الصغرى ، وتتطابق الآن مع بعض المحافظات التركية مثل أزمير ومانسيا ، واتخذ أهلها من مدينة ساردیس عاصمة لهم ، حيث كانت تتمتع بأهمية استراتيجية مهمة تمثل همزة الوصل بين الشرق والغرب ، حيث كانت تسيطر على طريق المواصلات الذي يربط جزر بحر إيجة بداخل آسيا ، بالإضافة إلى ذلك وقوعها على نهر باكتولوس ، الذي كان مضرب الأمثال في سهولة الحصول على معدن الذهب ، وكان سببًا رئيسًا في ازدهار هذه المملكة . ويسبب هذا الموقع الاستراتيجي المهم وغِنَى هذه المملكة ، أصبحت مطمعًا لكثير من الغزاة الذين كان في مقدمتهم الملك قورش الفارسي . وفي الوقت الذي كانت تعيش فيه مملكة ليديا أزهى عصورها في عهد آخر ملوكها الذي يُدعَى كرويسوس (٥٦١–٥٤٦ق.م) ، استطاع هذا الملك إخضاع جميع المدن الأيونية لنفوذه ، وسيطر على الشواطئ الإيجية ،غير أنه سمح لهذه المدن بالحكم الذاتي ، واقتصر حكمه على جباية ضريبة معتدلة منها ، ثم أخذ يتقرب من اليونانيين في جزر بحر إيجة وبلاد اليونان الأم ، وعقد معهم المعاهدات من أجل ضمان الولاء والمساعدة لمملكته من هجوم الأخمينيين.

إيمان لفتة حسين : المرجع السابق ، ٣٠٧–٣٢٣.

(3) Irad Malkin & Nino Samuel , *op.cit.*, p.31- 32.

فقط بعد سبعة عشر عامًا من تأسيس خلقدونية أُنشِئت مستعمرة بيزنطة على الجانب الأوربي من مضيق البسفور لتتحكم فيه ، دون أيَّة صعوبات ، فقد تلقَّت المساعدات من خلقدونية من أجل التغلُّب على الصِّعاب التي واجهتْها ؛ حيث قام القائد دينيوس Dineos بمساعدة بيزنطة عندما تعرَّضت للهجوم من قبل السكيثيين Σκύθας ، التي كانت تسكن شمال البحر الأسود[1] .

الموقع الجغرافي لمدينة بيزنطة

يحدِّثنا بوليبيوس Polybius عن موقع مدينة بيزنطة قائلًا:

«والآن غالبيةُ الناس غير ملمَّةٍ بهذا الموقع ، وذلك لأنها تقع خارج نطاق المناطق التي تتم زيارتها بشكل عام ، حيث نرغب جميعًا في الحصول على معلومات حول هذه المنطقة ، وإنْ أَمْكَنَ زيارة تلك الأماكن بشكل شخصي سيكون ذلك أمرًا شائقًا ، ويمكن الحصول على الحقيقة والانطباعات الخاصة بها بشكلٍ أفضل ، لكنه خارج نطاق إرادتنا ، وكان من حُسن الحظ أن أحصل على الحقائق الخاصة بهذه الحالة ، وشرْح ما هو سبب الازدهار الفريد لهذه المدينة .

---

[1] *Ibid.*, p.32.

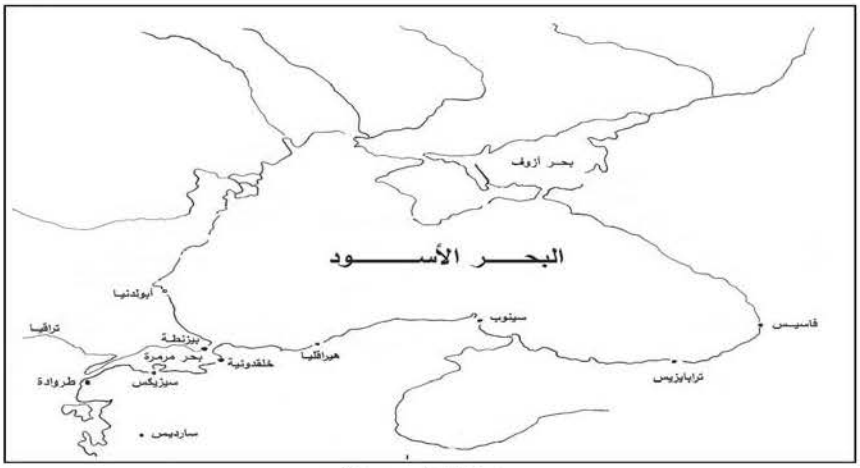

منطقة البحر الأسود

تبلغ مساحة بحر بونتوس Πόντος (البحر الأسود) ٢٢ ألف ستاديوم ، ويُفتَح على بوابتَيْن ، كلٌّ منهما عكس الأخرى ؛ البوابة الأولى تُفتَح على بحر بالوس مايوتيس Μαιώτιδος (بحر أزوف) من الشمال ، والبوابة الأخرى تُفتَح على بحر بروبونتيس Προποντίδο من الجنوب . ويمتلئ بحر أزوف والبحر الأسود عن طريق مياه الأنهار التي تتفرَّع على الجانبَيْن الآسيوي والأوربي ، وإنْ كانت أكثر على الجانب الآسيوي ، ويُسمَّى الممر الذي يربط البحر الأسود ببحر أزوف بسفور كيميريان Κιμμερικός، وتبلغ سَعَتُهُ حوالي ٣٠ ستاديوم ، وطوله حوالي ٦٠ ستاديوم ، وهو ممر سطحي قليل الغَوْر بشكلٍ عام .

وثمَّة سببانِ وراء تدفُّق مياه بحرَيْ أزوف وبونتوس باستمرار إلى الخارج ؛ الأول: التصريف المستمر للمياه الناتج عن التيارات الكثيرة في أحواض محدودة المساحة

والمحتوى ، والآخر: ترسيبات التربة الغرينية ، التي تحملها مياه الأنهار ، التي تصب في البحرين ، وتؤدي إلى ارتفاع مستوى القاع ، وتجبر المياه باستمرار على اتخاذ مستوى أعلى ، وقد أدى هذا الأمر إلى تدفق المياه بشكل مستمر من خلال قنوات التصريف .

أمّا الممر الذي يربط البحر الأسود ببحر مرمرة فيسمّى بسفور تراقيا Θρᾴκιος، ويبلغ طوله حوالي ١٢٠ ستاديا ، واتساعاته متفاوتة بين خلقدونية وبيزنطة ، ويبلغ اتساع القناة ١٤ ستاديا في بدايتها ، وتبدأ من مكان يُسمّى هيرون ἱερόν على الجانب الآسيوي في مواجهة تراقيا(١) .

في منتصف القناة على الجانب الأوربي يوجد لسان أرضي يُسمّى هيرمايوم Ἕρμαιος ، يمتد داخل القناة ، ليجعل المسافة بين الساحل الأوربي والساحل الآسيوي حوالي ٥ ستاديات ، وهي أضيق نقطة بالقناة ، حيث قام الملك الفارسي داريوس Δαρεῖος بإنشاء جسر يربط الجانبين ، حتى يتمكّن من العبور إلى الضفة

---

(١) Poly , 4 , 39.
ὁδὴκαλούμενοςΠόντοςἔχειτὴνμὲνπερίμετρονἔγγιστατῶνδισμυρίωνκαὶδισχιλίωνσταδίων, στόματαδὲδιττὰκατὰδιάμετρονἀλλήλοιςκείμενα, τὸμὲνἐκτῆςΠροποντίδος, τὸδ᾽ἐκτῆςΜαιώτιδοςλίμνης, ἥτιςαὐτὴκαθ᾽αὑτὴνὀκτακισχιλίωνἔχεισταδίωντὴνπεριγραφήν.
[2]εἰςδὲτὰπροειρημένακοιλώματαπολλῶνμὲνκαὶμεγάλωνποταμῶνἐκτῆςἈσίαςἐκβαλλόντων, ἔτιδὲμειζόνωνκαὶπλειόνωνἐκτῆςΕὐρώπης, συμβαίνειτὴνμὲνΜαιῶτινἀναπληρουμένηνὑπὸτούτωνῥεῖνεἰςτὸνΠόντονδιὰτοῦστόματος, τὸνδὲΠόντονεἰςτὴνΠροποντίδα.
[3]καλεῖταιδὲτὸμὲντῆςΜαιώτιδοςστόμαΚιμμερικὸςΒόσπορος, ὃτὸμὲνπλάτοςἔχειπερὶτριάκονταστάδια, τὸδὲμῆκοςἑξήκοντα, πᾶνδ᾽ἐστὶνἀλιτενές:
[4]τὸδὲτοῦΠόντουπαραπλησίωςὀνομάζεταιμὲνΒόσποροςΘρᾴκιος

الأخرى على الساحل الأوربي خلال هجومه على قبائل السكثيين ، وهو ما سوف نتناوله في الصفحات الآتية .

وفيما يتعلق بسرعة جريان المياه في القناة فإنها متشابهة إلى حد كبير ؛ حيث تتدفق المياه بطول القناة ، لتستقرَّ في النهاية أمام بيزنطة ، ليمتلئ الخليج الذي يُسمَّى (القرن الذهبي) – غربي بيزنطة – بالمياه والأسماك[1] .

تمتد بيزنطة على طول الجانب الغربي من بسفور تراقيا ، الذي يربط بحر بونتوس (البحر الأسود) ببحر بروبونتيس (مَرْمَرَة)[2] . ويحدثنا ديون كاسيوس عن موقع بيزنطة فيقول: «تقع المدينة بالضبط في المَوْضِع الأكثر ملاءمة من أراضي البسفور والبحر (مَرْمَرَة) ، الذي يفصل بينها وبين أعدائها ، وهي مُحَصَّنَة بطبيعة المكان نفسه وبفضْل البسفور ، ولقد تم بناؤها على تلٍّ مرتفع ، حيث تتقدم في البحر الذي يجري انطلاقًا من البحر الأسود كأنه سَيْلٌ ليلتطم بالشاطئ ويُحَوِّل جزءًا من مياهه إلى اليمين ، حيث يُكَوِّن خليجًا (القرن الذهبي) ومراسي ، ثم يَزيد جَرَيَانه سرعةً لتصب معظم مياهه في بحر مرمرة أمام المدينة نفسها ، وكانت لبيزنطة أسوار ضخمة ، وكانت المَتَارِيس مُكَوَّنة من أحجار سميكة مربَّعة الشكل ، تشدها لبعضها البعض

---

(1) Poly , 4, 43.
<u>ΒυζάντιονδιαστήματοςτὸπρὸςτὴνΠροποντίδα,</u> [2]<u>μεταξὺτούτωνἐστὶνἝρμαῖον,</u>
<u>τῆςΕὐρώπηςἐπὶπροσχῆςτινοςἀκρωτηριαζούσηςἐντῷστόματικείμενον,</u>
<u>ὅτῆςμὲνἈσίαςἀπέχειπερὶπέντεστάδια,</u>
<u>κατὰτὸνστενώτατονδὲτόπονὑπάρχειτοῦπαντὸςστόματος:</u>
<u>ἧκαὶΔαρεῖονζεῦξαίφασιτὸνπόρον,</u> <u>καθ᾽ὃνχρόνονἐποιεῖτοτὴνἐπὶΣκύθαςδιάβασιν</u>

(2) Poly , 4, 43.
<u>τοῦδὴστόματοςτοῦτὸνΠόντονκαὶτὴνΠροποντίδασυνάπτοντος</u>

صفائح برونزية ، وكانتْ داخل المدينة تحصينات بممرات مرتفعة ومبانٍ عالية ، بحيث كانت كل التحصينات تبدو كأنها لا تشكِّل إلا سورًا متينًا يوجد وراءه ممر مسقوف سهل الحراسة ، وكان بجانب سور المدينة عدَّة أبراج تتناظر فيما بينها حول المدينة ، بحيث كان المهاجمون يجدون أنفسهم محاصرين داخل الدائرة التي تشكِّلها هذه الأبراج ، وبالفعل فقد بُنِيت هذه الأبراج قريبة من بعضها البعض ، ليس على شكل خط مستقيم بل منحرف ، فلقد شُيِّدَتْ مجموعة من الأبراج على خط مستقيم ، ثم تلتها مجموعة ثانية على خط آخر ينحرف عن الخط الأول ، بحيث تحاصر مجموعةُ الأبراج هذه كلَّ مَن يحاول الاقتراب منها ، أما فيما يتعلق بسور المدينة فإن الجزء الذي يقف من جهة البر كان شاهقًا بحيث يصد هجمات العدو ، أما الجزء الذي كان يقع من ناحية البحر فإنه كان أقل ارتفاعًا ، لأن الصخور التي بُنِيَعليها واندفاع أمواج البسفور كانايُعَدَّان أحسن وسيلة للدفاع عن هذه الجبهة ، وكان مدخلا الميناءين الموجودين داخل الأسوار يُغلَقان بالسلاسل الحديدية . وعلى أرصفة الميناء امتدت من كل جهة أبراج كانت بموضعها المتقدِّم تجعل اقتراب العَدُو أمرًا عسيرًا . وجملة القول: إنه كان للبسفور أهمية كبرى بالنسبة لبيزنطة ؛ لأن السفن عندما كانت تجد نفسها وسط التيار البحري ، فإنها كانت تُدفَع حتمًا ، ورغمًا عنها ، نحو البرِّ ، وكان ذلك شيئًا ممتعًا بالنسبة لسفن الأصدقاء ، لكنه كان مُقْلقًا جدًا بالنسبة لسفن الأعداء»[1] .

---

(1) Cassius Dio Cocceianus, *Roman Histotry*, Herbert Baldwin Foster. William Heinemann, Harvard University Press. London; New York. 1914–127. book 74, 10.

هكذا كانت تحصينات بيزنطة ، وعلاوة على ذلك ، كانت آلات الحرب المختلفة تُرَى من فوق الأسوار في كل مكان ؛ حيث كانت تَقذِف الصخور وقطع الخشب على مَن كانوا يقتربون ، كما كانت تَرمِي الأحجار وتَرْشُق بالسِّهام والرماح كلَّ مَن كان يقترب كثيرًا من أسوار المدينة(١) .

أهمية الموقع الجغرافي لمدينة بيزنطة

يبدو للناظر من الوهلة الأولى ، أنَّ موقعَيْ مدينتَيْ بيزنطة وخلقدونية متشابهان إلى حدٍّ كبير ، لكن الواقع العملي يؤكد عكس ذلك .

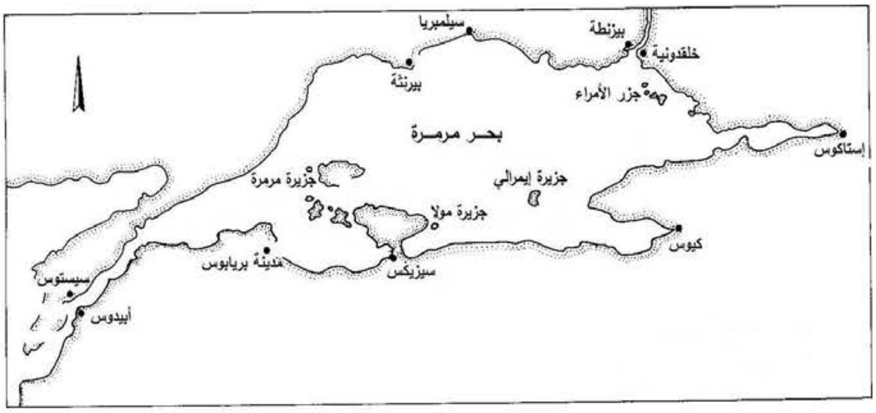

خريطة توضح صعوبة الإبحار عبر الساحل الآسيوي

ديون كاسيوس : التاريخ الروماني ، ترجمة وتعليق مصطفى غطيس ، ج١٠ ، الكتاب ٧٤، الفقرة ١٠، تطوان - كلية الآداب والعلوم الإنسانية ٢٠١٣م .

(١) Cassius Dio Cocceianus, book 74 ,11.

ديون كاسيوس : الجزء العاشر، الكتاب ٧٤، الفقرة ١١.

ἡδὲπόλιςαὐτῶνἐνκαιρῷπάνυκαὶτῶνἠπείρωνκαὶτῆςδιὰμέσουσφῶνθαλάσσηςκεῖται, τῇτετοῦχωρίουἅμακαὶτῇτοῦΒοσπόρουφύσει ”

إن هؤلاء الذين يُبْحِرون من الهلوسبونت Ἑλλήσποντος إلى البحر الأسود أو العكس، عبر بيزنطة بطول الساحل الأوربي، يكون طريقهم مستقيمًا سهلًا، وذلك بداية من أضيق نقطة عند سيستوس Σηστός وأبيدوس Ἄβυδος، لكنْ عندما يكون الإبحار من خلال الساحل الآسيوي عبر خلقدونية فإن الأمر يكون صعبًا وعكس ذلك تمامًا، حيث إن الساحل الآسيوي مليء بالخِلْجان العميقة والنتوءات الصخرية، التي من أبرزها شبه جزيرة كوزيكس (Κύζικος)[1] وجزيرة بروكونيسوس Προικόνησος (مرمرة حاليًا)[2]؛ الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى طول المسافة وصعوبة الإبحار، بالإضافة إلى ذلك وجود الرياح العاتية غير المُوَاتية خلال تلك الرحلات؛ حيث تتقابل الرياح الجنوبية التي تضرب البحر الأسود مع

---

[1] كوزيكس: شبه جزيرة تقع في بحر مرمرة، تتصل بالأرض الأم عن طريق جسر. وقد تميزت بخصوبة التربة واتساع محيطها الذي يبلغ طول قطره حوالي خمسمئة ستاديوم، وتحتوي على ميناءين.

Strabo, 12, 8.11.

[2] جزيرة مرمرة: أكبر الجزر الموجودة في بحر مرمرة، وتغطي مساحة من الأرض تبلغ ١٨ كيلومترًا تقريبًا من الشرق إلى الغرب، وحوالي ١٠ كيلومترات تقريبًا من الشمال إلى الجنوب، وتبعد عن بيزنطة حوالي ٧٠ ميلًا، وقد استوطن سكان مليتوس الجزيرة خلال القرن الثامن ق.م، ووفقًا للأدلة التاريخية أُحرِقَت الجزيرة بواسطة الأسطول الفينيقي الذي كان في خدمة الملك الفارسي عام ٤٩٣ ق.م. وفي عام ٤١٠ ق.م تعرضت المدينة للهيمنة الأثينية، وفي أوائل القرن الثالث ق.م تم غزو المدينة بواسطة الرومان وأصبحت جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. وقد اشتُهِرت المدينة بمحاجر المرمر خاصة في الجزء الشمالي.

Karagianni. A, the harbour of proconnesus in Greco – roman and early Byzantine times: the marble trade, asource of finiancial and cultural development. The European Archaeologist, 36, 2011/2012, www.e-a-a.org/tea/rep4_36.pdf

الرياح الشمالية مما يجعل الإبحار عبر مدينة خلقدونية عملًا صعبًا جدًا ، لذلك يتم تفادي ذلك من خلال الإبحار عبر بيزنطة[1] .

لقد كان من مزايا موقع بيزنطة – وفقًا لما ورد عن إسترابون – ذلك الخليج الذي يقع في الغرب من بيزنطة ، المعروف باسم القرن الذهبي ، الذي يبلغ طوله ٦٠ ستاديوم تقريبًا ، وهو بمثابة خط دفاع عن المدينة من الغرب . ومن الجدير بالذكر أن هذا الخليج كان مليئًا بالأسماك ،خاصة من نوع أسماك التونة الذي يُسمَّى بيلميديس Pelamydes، الذي كان يمكن صيده بسهولة ، وذلك لكثرة أعداده ، وفي الغالب كان يتم صيد السمك باليد المجردة نظرًا لضيق الممر المائي .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأسماك كانت تَبِيض داخل بحر أزوف ، وعندما تكتسب القليل من القـوة تخرج مُسرعةً من خلال مصب البحـر والتحرك في الساحـل الآسيوي بالبحـر الأسود ، وعندما تصل إلى سينوب Σινώπη تكون قد أصبحت ناضجة للصيد وصالحة للتمليح ، ثم تأخذ الأسماك طريقها إلى شاطئ خلقدونية ، وعلى الفور تتحول إلى الشاطئ الآخر عند بيزنطة وذلك بفعل التيار ، حيث يتم صيدها ، بذلك يكون التكوين الطبيعي لهذه المنطقة سببًا في تحويل تيار المياه من شاطئ خلقدونية إلى شاطئ بيزنطة والقرن الذهبي لبيزنطة ، بالتالي تمتَّـع البيزنطيـون بعائـد كبيـر ، أما خلقدونية فعلى الرغم مـن أنهـا تقع بالقرب من بيزنطة على الشاطئ الآخر ، فإنها لا تستفيد بأي حصة من أسماك التونة ، لذلك عندما ذهب

---

(1) Poly, 4, 44.

أهل ميجارا إلى الإله أبوللو ليرشدهم إلى مكان لإنشاء مستعمرة جديدة ، أرشدهم إلى المكان المقابل لمدينة العميان (خلقدونية) . وعلى الرغم من أن خلقدونية بُنِيت في وقت سابق على بيزنطة ، فإنها فشلت في السيطرة على ثروات المناطق المجاورة ، وصارت بذلك مدينة فقيرة[1] .

وعن أهمية موقع بيزنطة يقول بوليبيوس: «ذهبت رودوس لمحاربة بيزنطة ، وذلك للأسباب الآتية ؛ موقع بيزنطة الذي كان يطل على البحر ، الذي كان أكثر أمنًا وازدهارًا من أي مدينة أخرى في العالم ، أما الأرض فلم تَحْظَ بالمزايا نفسها ، فهذا الموقع على البحر كان بمثابة بابٍ للعبور لمنطقة البحر الأسود ، فلا يستطيع أحد أن يُبْحِر من منطقة البحر الأسود أو خارجها دون موافقة بيزنطة ، لذلك كانت لها السيطرة الكاملة على جميع المنتجات التي يتم توريدها إلى منطقة البحر الأسود ، التي كان السكان في حاجة إليها . وأيضًا المنتجات التي كان يتم تصديرها من منطقة البحر الأسود ، التي كانت عبارة عن أعداد كبيرة من الماشية والعبيد وكميات من العسل والشَّمْع والسمك المُمَلَّح ، في حين أن لدينا وفرة زائدة في منتجات زيت الزيتون والنَّبِيذ ، أمَّا الحبوب فكان هناك تبادل بيننا وبينهم ؛ فهي تَمُدُّنا عندما نكون في حاجة إليها ، ونحن نُصَدِّر إليهم عندما يكونون في حاجة إلينا . وإن اليونان كانت ستفقد

---

(1) Strab, 7, 6.2.
ἀπὸμὲνοὖντῆςἄκραςτῆςτὸπενταστάδιονποιούσηςἐπὶτὸνὑπὸτῇΣυκῇκαλούμενον λιμέναστάδιοιπέντεκαὶτριάκοντα, ἐντεῦθενδ᾽ἐπὶτὸΚέραςτὸΒυζαντίωνπέντε. ἔστιδὲτὸΚέραςπροσεχὴςτῷΒυζαντίωντείχεικόλποςἀνέχωνὡςπρὸςδύσινἐπὶσταδ ίουςἑξήκοντα, ἐοικὼςἐλάφουκέρατι: εἰςγὰρπλείστουςσχίζεταικόλπουςὡςἂνκλάδουςτινάς, εἰςοὓςἐμπίπτουσαἡπηλαμὺς

هذه التجارة ، وسوف يكون من غير المريح لنا أن تَفْسَد العلاقة بيننا وبين بيزنطة ، وكنا سنترك المنطقة أمام تراقيا وغاليا وقبائل البرابرة الموجودة على ضفاف المضيق ، وسوف يكون من الصعب الإبحار في منطقة البحر الأسود . ومن الجدير بالذكر أن البيزنطيين هم أصحاب الإفادة الأكبر من هذا الموقع لبلدتهم ؛ ذلك لأنها يُمْكِن أن تقوم بتصدير المنتجات بسهولة واستيراد ما يلزمها بشروط مُيَسَّرة دون أدنى خطر أو مشقة على السفن ، ويمكن أن أقول إن بيزنطة كانت تقدم خدمة عظيمة للشعوب الأخرى»[١] .

ويقول إسترابون ، في سياق حديثه عن المقارنة بين موقع كلٍّ من بيزنطة وخلقدونية: «إن بيزنطة مدينة شهيرة قريبة جدًا من الميناء ، تتمتَّع بموقعٍ جيدٍ للملاحة والسفر»[٢] .

كما ورد عند ديون كاسيوس ، في كتابه تاريخ الرومان ، في سياق حديثه عن الصراع بين سيفيروس والنيجر من أجل السيطرة على عرش الإمبراطورية الرومانية ، التي اتَّخَذ فيها النيجر من مدينة بيزنطة مركزًا له: «ولذلك عندما دخل جنود

(١) Poly, 4, 38.
τοιαύταςαἰτίας.
Βυζάντιοικατὰμὲνθάλατταν εὐκαιρότατονοἰκοῦσιτόπονκαὶπρὸςἀσφάλειανκαὶπρ ὸςεὐδαιμονίανπάντητῶνἐντῇκαθ᾽ἡμᾶςοἰκουμένῃ,
κατὰδὲγῆνπρὸςἀμφότεραπάντωνἀφυέστατον.
[2]κατὰμὲνγὰρθάλατταν οὕτωςἐπίκεινταιτῷστόματιτοῦΠόντουκυρίωςὥστεμήτ᾽ εἰσπλεῦσαιμήτ᾽ἐκπλεῦσαιμηδέναδυνατὸνεἶναιτῶνἐμπόρωνχωρὶςτῆςἐκείνωνβο υλήσεως.
(٢) Strab, 7, 6. 2.

سيفيروس بيزنطة ، وعَلِمَ بذلك ، حيث كان في بلاد الرافدين ، شَعُر بفرحٍ عظيم وخاطب جنوده قائلًا: وأخيرًا فتحْنا بيزنطة»(١) .

Βυζάντιοντὸκαὶδὲεἵλομεν‘

وذكر هيروديان Herodian في سياق حديثه عن النزاع بين سيفيروس ونيجر:

«إن نيجر بعث جيشًا لاحتلال بيزنطة في تراقيا ، حيث إنها كانت في ذلك الوقت مدينة كبيرة ومزدهرة وغنيَّة بالرجال والمال ، وتقع على مضيق البسفور ، ونَمَتْ بيزنطة من عائداتها البحرية ، سواء كانت رسومًا جمركية لعبور السفن عبر البسفور ، أو من الأسماك ، وكانت تمتلك الأرض الخصبة ، ويعود عليها ربْح من كل هذه المصادر»(٢) .

ويحدِّثنا تاكيتوس عن بيزنطة بقوله: «لعل السبب في أفضليَّة بيزنطة ، أنها كانت تتمتع بتربة خصبة ، وبحر مُثْمِر وأسماك منتشرة في مياه ضحلة»(٣) .

وإذا كان لموقع بيزنطة العديد من المزايا ، فإنه لم يَخْلُ من بعض السلبيات ، وإنْ كانت ضئيلة عند مقارنتها بمزايا هذا الموقع ؛ مِن ذلك أن بيزنطة كانت تشترك في الحدود من الجهة الغربية على الأرض مع تراقيا ، وهذا الأمر جعل البيزنطيين في حرب

---

(1) Cassius Dio Cocceianus , book 74 ,14.2.
[2]ὁδὲΣεουῆροςοὕτωςἥσθηἐπὶτῇἁλώσειτοῦΒυζαντίουὥςκαὶπρὸςτοὺςστρατιώτας, ἐντῇΜεσοποταμίᾳτότεὤν, αὐτὸτοῦτοεἰπεῖν, ‘εἵλομεν[3]δὲκαὶτὸΒυζάντιον.’
– ديون كاسيوس : المرجع السابق ، الكتاب ٧٤ ، الفقرة ١٤ .

(2) Herod, 3.1.
(3) tacitus, ann, book 12, 63.
quippe Byzantiumfertili solo, fecundo mari, quia vis piscium.

مستمرة مع التراقيين من هذه الجهة ، وفي الوقت نفسه جعل البيزنطيين غير قادرين على وضع نهاية لهذا النزاع من خلال معركة حاسمة . ومن الأمور الأخرى التي كانت تمثِّل خطرًا كبيرًا على البيزنطيين من خلال هذا الموقع أن بيزنطة لم تتمكن من الحصول على الرسوم الجمركية لعبور مضيق البسفور ، ولو لمرة واحدة دون صراع ، وهذا الأمر أدّى إلى تكتُّل الأعداء ضدها ، لذلك كانت مُثْقَلَة بحروب دائمة وخطيرة ، والأكثر من ذلك الحرب مع البرابرة الذين كانوا يعيشون على حدودها[١] .

ولعل ما ورد عند ديون كاسيوس أفضل تعبير ؛ حيث يشير إلى أضرار هذا الموقع بقوله: «لقد قام البيزنطيون بعدة أشياء ، ولقوا من أعدائهم الأمرين ، حيث إنهم عانوا من حصار أساطيل العالم بأسره ، إن صحَّ التعبير»[٢] .

أثر الموقع الجغرافي لمدينة بيزنطة سياسيًا واقتصاديًا

إذا كان الاقتصادُ المحركَ الرئيسَ لرسم السياسة الخارجية لأيَّة دولة ، فإن موقع بيزنطة المتميز تجاريًا وسياسيًا وعسكريًا ، كان سببًا في أن تصبح تلك المدينة محط أنظار ومَطْمَع الفُرْس والمدن اليونانية وممالك العصر الهللينيستي .

لقد سيطر الفرس على مدينة بيزنطة في الفترة من ٥١٣ – ٤٧٨ ق .م ، بالتحديد في عهد الملك داريوس (٥٢٢-٤٨٦ ق.م) ، وذلك في إطار استعداداته للهجوم على قبائل السكثيين Scythians؛ حيث أرسل الملك جنوده لتحديد الأماكن التي سوف

---

(١) Poly, 4, 44.

(٢) ديون كاسيوس : الكتاب ٧٤ ، الفقرة ١٢ .

يَتَّخذ منها قاعدة للجيش والأسطول ، ولتحديد مكان يمكن من خلاله إنشاء جسر عبر بسفور تراقيا ، وقد أكد له القائد أرتابانوس Ἀρτάβανος أنه لا توجد طُرُق تساعد في الهجوم على قبائل السكثيين ، وأن هناك صعوبات سوف تواجههم ، غير أن داريوس لم يقتنع بذلك ، وقام بعمل كل الاستعدادات من أجل هذا الغزو(١) ، فأبْحر داريوس من مدينة سوسة العاصمة الفارسية ، وعندما وصل إلى أضيق نقطة على مضيق البسفورقام ببناء جسر يربط بين خلقدونية وبيزنطة على الشاطئ الغربي للبسفور ، وركب سفينته ووصل إلى مكان مرتفع يُسمَّى كوينيان عند مدخل بحر مرمرة ، وأخذ يُحَدِّق النظر في البحر الأسود ، وبعد أن دقَّقَ داريوس النظر في البحر أبحر عائدًا إلى الجسر الذي شيَّده المهندس ماندروكليس Μανδροκλῆς من ساموس(٢) . واحتفالًا بهذا الجسر أقام عمودَيْن عند مقدمة الجسر ، سجَّل عليهما أسماء الشعوب التي شاركت معه في الحرب بأعدادهم(٣) . وكان داريوس سعيدًا ببناء هذا الجسر ؛ لذلك كافأ المهندس ماندروكليس وأكْرمه . وتم رسم لوحة فنية تصوِّر داريوس يجلس على مقعد فوق جسر البسفور ، يخاطب جنوده ، وقد وُضِعَت اللوحة بمعبد الرَّبَّة هيرا في مدينة ساموس(٤) . اتجه داريوس صوب أوربا(٥) ، وقد شاركه

(1) Herodotus, 4, 83.
(2) Svenson-Evers. H, Die Griechischer Und Klassisscher Zeit, 1996, pp. 59-66.
(3) Herodotus, 4, 87.
(4) Herodotus, 4, 88.
(5) Herodotus, 4, 89.

الحملة ضد قبائل السكثيين ، أريستون Ἄριστον طاغية بيزنطة ، ومن المُحتَمَل أن يكون هذا القائد قد أصبح حاكمًا على مدينة بيزنطة بمساعدة الفرس(١) .

بَعْد عدة أشهر من قتال داريوس قبائلَ السكثيين وهزيمته في معركة ساردييس ، عاد إلى آسيا . ويبدو أن بيزنطة قد رَفَضَت الهيمنة الفارسية ، ولعل خير دليل على ذلك قيام سكان مدينة بيزنطة بنقْل النصب التذكاري الذي وضعه داريوس عند مقدمة الجسر الذي يربط خلقدونية ببيزنطة ، واستخدامه في بناء معبد للرَّبَّة أرتميس وهيكل للمعبود ديونيسوس(٢) ، بعد ذلك انتشر الشغب والتمرد في مدينة بيزنطة ، مما يشير إلى عدم وجود حامية عسكرية في المدينة(٣) ؛ لذلك قام القائد الفارسي أوتانيس Ὀτάνης بالاستيلاء على مدينة بيزنطة وخلقدونية عام ٥١٠ ق.م(٤) ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أهمية موقع بيزنطة ، فهي المعبر الذي استخدمه الملك داريوس في العبور من آسيا إلى أوربا .

وظلت السيطرة الفارسية على المدينة ، حتى قيام ثورة المدن الأيونية عام ٤٩٩ ق.م ضد الفرس ، وبعد هزيمة الفرس في معركة بلاتيا عام ٤٧٨ق.م ، تم إرسال القائد الإسبرطي بوزنياس Παυσανίας قائد المعركة نفسها من أجل تحرير المدن اليونانية على الساحل الأيوني في آسيا الصغرى ، وكانت تحت إمْرته عشرون سفينة بالإضافة إلى ثلاثين سفينة أخرى بقيادة القائد الأثيني أريستيديس Ἀριστείδης، وقد استطاع

---

(1) Herodotus, 4, 138.

(2) Herodotus, 4, 87.

(3)Vasilev. M. I, *The Policy of Darius and Xerxes towards Thrace and Macedonia*, Brill 2015, p.56.

(4) Herodotus, 5, 26.

بوزنياس أن يستولي على قُبْرُص ، ثم استطاع أن يستولي على بيزنطة التي كانت تحت سيطرة الفرس ، وقد قام بقتل عدد منهم وطرْد آخرين ، وأَسرَ المتميزين منهم(١) ، وقد سلَّمَهم إلى الملك الفارسي أجزركسيس دون عِلْم الحلفاء ، حيث أعلن هروبهم ، وكان هذا العمل سببًا ظاهريًا في نشأة الصراع بين أثينا وإسبرطة حول بيزنطة لمدة طويلة من الزمن . وقد تم ذلك بمساعدة رجل يُدعَى جونجلو Γογγυλος من إريتريا Ερέτρια الواقعة في أيوبيا Euboea ثاني أكبر الجُزُر اليونانية ، وكان قد احتل مكانة مهمة في بيزنطة ، كما أنه قام بتسليم خطاب من بوزنياس إلى أجزركسيس ؛ ورد فيه ما يلي:

«بوزنياس قائد إسبرطة حريص على فعل الخير لك ، حيث أرسل إليك أسرى الحرب ، وأرجو أن توافق على زواجي من ابنتك ، وسوف أجعل إسبرطة وكل بلاد اليونان تحت سيطرتك ، وذلك بالتعاون معك»(٢) ، وردَّ عليه الملك الفارسي أجزركسيس على الفور ، برسالةٍ جاء فيها: «إنك مُؤْتَمَن عندي ، وإنَّ لديَّ الرغبة في التعاون معك»(٣) . وبعد أن تسلَّم بوزنياس رسالة الملك الفارسي أصبح أكثر فخرًا وغرورًا من أي وقت مضى ، ولم يَعُد يسلك ما كان يسلك من قبل ؛ حيث خرج في بيزنطة في ثوب فارسي وذهب إلى تراقيا بين حرَّاس من الميديين والمصريين ، واحتفظ بطاولة فارسية على غرار الطراز الفارسي ، واعتزل الناس وأصبح من الصعب الوصول إليه ، وصار متقلب المزاج مع كل شخص يقترب منه دون استثناء ، وكان ذلك

---

(1) Thucd, 1, 94. & Diod , XI, 44.
(2) Thucd, 1, 28.
(3) Thucd, 1,29.

السببَ الرئيس في لجوء اتحاد المدن اليونانية إلى أثينا[١] ، التي قامت بطرد بوزنياس على الفور بعد أن سيطر على المدينة لمدة سبع سنوات ،بالتحديد حتى عام ٤٧٠ق.م[٢].

يرجع اهتمام أثينا بمضيق البسفور ، ومدينة بيزنطة صاحبة السيطرة على مدخل المضيق ، إلى الحفاظ على التبادل التجاري بينها وبين منطقة البحر الأسود ، وذلك وفقًا لما ورد عند بوليبيوس في سياق حديثه عن موقع بيزنطة[٣] .

وانضمَّتْ بيزنطة إلى حلف ديلوس ، وأسهمت بمبالغ مالية ضخمة قُدِّرَتْ بحوالي ١٥ تالنت سنويًا[٤] ، وساعدَتْ أثينا في حربها ضد إسبرطة ، وقد ورد عند

---

(1) Thucd, 1, 30.

(2) Thucd, 1, 31.

(3) Sergidis. K, the Pursuit of powerand Security the Security the Influence of natural resources and Geography on Athenian Foreign policy, ph.D, University of Nottingham, 2012, p.98.

من الجدير بالذكر أن المحـرك الرئيس لسياسة أثينا الخارجية يتمثَّل في توفير الحبوب والطعام لمواطنيهـا والأخشاب لبناء السفن .

Sergidis. K, op.cit, p. 144.

انظر : حديث بوليبيوس عن أهمية بيزنطة لليونان .

(4) A dictionary of the ancient greek world, by David Sacks, Oxford university press , 1995, p. 77.

حلف ديلوس : يُطلَق عليه أيضًا تحالف المدن اليونانية برئاسة أثينا ، ويضم المدن الموجودة في منطقة بحر إيجة وما حولها ، ويرجع إنشاء هذا الحلف إلى نهاية الحرب مع الفرس عام ٤٧٨ ق.م ، واستمر حتى هزيمة أثينا في الحروب البلوبونيزية عام ٤٠٤ ق.م ، وخلال الخمس والعشرين سنة الأولى شكَّل الحلف جبهة تعاون ضد الفرس ، لكنه أصبح بعد ذلك قاعدة بحرية للإمبراطورية الأثينية في منطقة بحر إيجة ، وقد وصل عدد أعضاء الحلف إلى ٢٠٠ عضو خلال منتصف القرن الرابع ق.م. وكانت المدن الأعضاء تقوم بدفع ضريبة سنوية من التالنت الفضية ، كانت تُنفَق على الأعمال البحرية للحلف ، ومع مرور الوقت صارت تُنفَق على تطوير مدينة أثينا ، ومع بداية الحروب البلوبونيزية أصبح حلف ديلوس السلاح الموجَّه ضد إسبرطة بدلًا من الفرس. ويعد تاريخ الحلف مرحلة من التكبُّر والهيمنة الأثينية ضد حلفائها. ومن

أكسينوفون Xenphone ما يوضح أهمية بيزنطة ودَوْرها ؛ حيث جاء في كتابه: «نحن الأثينيين في حربنا ضد إسبرطة وحلفائها كانتْ لدينا أكثر من ثلاثمئة سفينة وترسانة لبناء السفن ، وثروة كبيرة في مدينتنا وفي مُتَنَاول أيدينا ، بالإضافة إلى العائدات السنوية التي تأتي إلينا من ممتلكاتنا الخارجية التي لا تقل عن ألف تالنت ، ونحن نفرض سيطرتنا على جميع الجُزُر ، ونمتلك العديد من المدن في آسيا وأوربا وأفضلها بيزنطة[1] . وظل هذا الأمر قائمًا حتى عام ٤١١ ق.م ، وذلك على أثر فشل أثينا في حملتها على سيراكوزة عام ٣١٣ ق.م ، وصقلية عام ٣١١ ق.م ، حيث فقدتْ معظم أسطولها ، وبدأ العديد من أعضاء حلف ديلوس يثورون ضد أثينا وينفضُّون من حولها ويقفون بجانب إسبرطة ، وكان من بينهم بيزنطة[2] .

وبعد عام من خروج بيزنطة من حلف ديلوس ، بالتحديد عام ٤١١ ق.م ، شاهد أجيس Ἄγις (٤٢٧-٤٠١ق.م) ملك إسبرطة أعدادًا كبيرة من السفن مُحَمَّلة

الجدير بالذكر أنه تم العثور على نقش كُتِبَ على لوحة من المرمر وُضِع فوق قمة الأكروبولس سُجِّلَت عليه المبالغ المالية التي كانت تدفعها المدن الأعضاء "أيجينا العدو القديم لأثينا ٣٠ تالنت ، وأبديرا ١٥ تالنت ، بيزنطة ١٥ تالنت وذلك عام ٤٥٧ ق.م ، باروس paros ١٦ تالنت ، أنيوس Aneus وكومي Cyme ولمباسكوس Lampsacus ١٢ تالنت ، ومليتوس mellitus وبيرنثا Perinthus ١٠ تالنت. وأتاحت أثينا للمدن الأعضاء الأخذ من النظام الديمقراطي الأثيني ، وقد عارضت الطبقات العليا هذا التحالف ، في الوقت الذي أيَّدتْه الطبقات الدنيا والوسطى .

A dictionary of the ancient greek world, p. 77.

عن النقوش التي أشارت إلى دفع هذه المبالغ يُنظَر :

CIA= corpvs Inscriptiovm Atticarum, VoL 1. 1, No.23, 233, 237, 239, 259.

(1) Xen , ann ,7 , 1.27.

(2) A dictionary of the ancient greek world , p.77. & Sergidis .K, op.cit, 144.

بالحبوب تُبْحِر إلى ميناء بيرية Πειραιεύς[١] ، لذا حاول منعَ وصول هذه السفن إلى أثينا ، والسيطرةَ على المناطق التي كانت تأتي منها هذه الحبوب عن طريق البحر ؛ لذلك أرسل القائد كليارخوس Κλέαρχος إلى بيزنطة ، وقد تمكَّن من الاستيلاء على المدينة[٢] . وعلى أثر ذلك ، في العام التالي لحريق معبد الرَّبَّة أثينا في فوكيس ، بالتحديد عام ٤٠٨ ق.م ، أبحر الأثينيون بقواتهم إلى جزيرةبروكونيسوس (مرمرة حاليًا)[٣] ، ومِن هناك انطلقوا تجاه خلقدونية وبيزنطة ، واستقروا بمعسكر بالقرب من خلقدونية ، وعندما عَلِم سكان خلقدونية بذلك وضعوا كل ثروتهم أمانةً لدى البثينيين Βιθυνία والتراقيين[٤] ، لذلك اتجه على الفور القائد الأثيني الكيبيادس على رأس قواته إلى بيثينيا وطالب بثروات الخلقدونيين ، ولم يجد البيثينيون مفرًا من تسليم كنوز خلقدونية إلى الكيبيادس[٥] ، ثم عاد القائد الأثيني بعد ذلك إلى معسكره بالقرب من خلقدونية بعد أن عقد معاهدة مع سكان بيثينيا[٦] . وبعد قتالٍ عنيفٍ مع القائد الإسبرطي هيبوكراتيس ، استطاع الكيبيادس أن يسيطر على خلقدونية ، وأجبرها

---

(١) يُعَدُّمن أهم الموانئ الأثينية ، ويقع في شبه جزيرة piraeeus على بعد خمسة أميال جنوب غربي أثينا . وكانت تحتوي شبه الجزيرة على ثلاثة موانئ : بيرية Piraeus على الجانب الغربي وهو أكبرهم ، وميناء زيا Zea على الجانب الشرقي ويفصل بينه وبين ميناء بيريه برزخ أسثموس Athmus ، وميناء مونخيا munchia ويقع على الجانب الشرقي . وقد تم تقسيم ميناء بيرية إلى ثلاثة مرافئ : زيا zea للسفن المحملة بالحبوب ، وأفروديس Aphrodis للسفن التجارية بصفة عامة ، وكانساروس cantharus للسفن الحربية .

A dictionary of the ancient greek world , p. 567.

(٢) Xenphone, Hell. 1.1. 35.

(٣) Xenphone, Hell. 1.3. 1.

(٤) Xenphone, Hell. 1.3.2.

(٥) Xenphone, Hell. 1.3. 3.

(٦) Xenphone, Hell. 1.3. 4.

على دفْع الجِزْيَة التي اعتادتْ على دفعها من قبل ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ بل أجبرهم على دفع المبالغ المتأخرة من الجزية(١) . وبعد أن انتهى الكيبيادس من اتِّخاذ التدابير اللازمة داخل المدينة ، جَمَعَ كل قواته في تراقيا وتوجَّه نحو بيزنطة ، حيث كان تحت قيادته ما يقرب من خمسة آلاف جندي ، وتجمَّعت القوات في مكان واحد وقاموا بمد جسر خشبي من البحر إلى البر(٢) . قام الأثينيون بفرْض الحصار حول مدينة بيزنطة وصاروا يهاجمون أسوار المدينة بالقذائف من أماكن قريبة(٣) ، وكان داخل بيزنطة القائدُ كليارخوس حاكم المدينة من قِبَل الإسبرطيين والقليلُ من الهيلوتيس (العبيد المحرَّرِين) الذين سمح لهم بالسفر خارج إسبرطة ، وبعض الميجاريين والبيوتيين تحت قيادة كويراتادس Κόερατάδες(٤) .

أمام هذا الحصار ، بدأ كليارخوس في إعادة ترتيب أموره ؛ حيث عَهِدَ إلى كويراتادس بإدارة المدينة ، واتجه إلى الضفة المقابلة من البسفور لمقابلة الوالي الفارسي في منطقة الهلوسبونت فارنابازوس Φαρνάβαζος، من أجل تزويده بالجنود والسفن اللازمة لمواجهة الكيبيادس(٥) ، لكن عندما أَبْحَر كليارخوس بعيدًا عن المدينة ، شرع أولئك الذين يريدون خيانته في عملهم ، وهم: كيدون Κύδων وأريستون Άριστον وأناكسكـــراتيس Αναξικράτες وليكورجـــوس Λυκύργος وأناكسيلاوس

---

(١) Xenphone, Hell. 1.3. 9.
(٢) Diod, book XIII, 66.
Xenphone, Hell. 1.3. 10.
(٣) Xenphone, Hell. 1.3. 14.
(٤) Xenphone, Hell. 1.3. 15.
(٥) Xenphone, Hell. 1.3. 17.

Αναξίλαος[١]؛ حيث قاموا بفتح البوابات التي تؤدي إلى ساحة تراقيا ليلًا ، وسمحوا للجيش الأثيني والكيبيادس بدخول المدينة[٢] ، ولم يعلم كويراتادس شيئًا عن ذلك المخطَّط ، وعندما سارع إلى ساحة السوق مع جميع قواته كان العدو قد أصبحتْ له السِّيادة في كل مكان ، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا سوى تسليم أنفسهم[٣] . ومن الجدير بالذكر أنه عندما حُوكِم أناكسيلاوس بعد ذلك في إسبرطة بتهمة الخيانة بَرِئَ بحجة أنه لم يَخِنِ المدينة ، بل إنه عمل على حفظها ، فهو بيزنطي وليس إسبرطيًا ، فعندما رأى الأطفال والنساء يموتون جوعًا من أجل كليارخوس كان هذا سببًا جعَلَه يشارك في فتح أبواب المدينة للكيبيادس ، وليس من أجل مال أو كراهية لجنود إسبرطة[٤] . لكن الأوضاع لم تستقر لأثينا في بيزنطة ، وبمساعدة المدن المؤيِّدة لها تم طرد الحامية الأثينية من المدينة ، أما هؤلاء الذين تعاونوا مع الكيبيادس فإنهم قد فروا إلى البحر الأسود ومنه إلى أثينا ، حيث أصبحوا مواطنين أثينيين ، وذلك في عام ٤٠٥ ق.م[٥].

وفي العام نفسه ، واجه سكان بيزنطة صعوبات كثيرة ؛ وذلك بسبب الصراعات الداخلية ، وهجوم القبائل التراقية على المدينة من الغرب ، لذلك طلبتْ بيزنطة المساعدة من إسبرطة ، التي أرسلت على الفور القائد كليارخوس ، الذي قام بجمع

---

(1) Xenphone, Hell. 1.3. 18.
(2) Xenphone, Hell. 1.3.20.
(3) Xenphone, Hell. 1.3.21.
(4) Xenphone, Hell. 1.3.19.
(5) Xenphone, Hell. 2.2.1.
Xenphone, Hell. 2.1.32.

أعداد كبيرة من المرتَزَقَة واستولى على المدينة ، وعامل سكانها معاملة سيئة[١] . وظلت الأوضاع على ذلك حتى استطاع القائد الأثيني ثرسبالوس Θρασύβολος طرْدَ كليارخوس ووضْع نهاية للوجود الإسبرطي في المدينة ، وعقدت أثينا معاهدة مع بيزنطة ، كان مِن بين ما نصَّتْ عليه: فرْض رسوم جمركية على كل السفن التي تمر عبر البسفور . وفرض ضريبة على المحاصيل الزراعية التي تُزْرَع في بيزنطة تُقَدَّر بـ ٥٪ ، وتغيُّر نظام الحكم داخل المدينة من الأوليجارخي إلى الديمقراطي[٢] .

وفي إطار الصراع بين مقدونيا وأثينا والفرس ، كانت بيزنطة طرفًا في هذا الصراع ؛ فعندما اشتبك فيليب المقدوني مع الأثينيين في منطقة بحر مرمرة ، بالتحديد عام ٣٤٠ق.م ، قام فيليب بمهاجمة مدينة بيرنثة Πέρινθος وحصارها ، ووفقًا لما ورد عند ديودورس ، كانت بيزنطة مؤيِّدة لأثينا ومعارِضة لفيليب ، وقد تم إمداد المدينة بالمُؤَن والجنود المرتزقة ، من قِبَل الوالي الفارسي في المنطقة ، وذلك بأوامر من الملك الفارسي الذي كان قلقًا من ازدياد النفوذ المقدوني في المنطقة ، وتمت مساعدة بيرنثة بواسطة بيزنطة ، التي قامت بإرسال الجنود والقادة إلى بيرنثة ، لذلك قام الملك فيليب بحصار بيزنطة ، حيث كان له هدفٌ ااستراتيجي من وراء حصار بيزنطة والاستيلاء عليها ، خاصة أنها بوابة منطقة البسفور ، ذلك المَضِيق المُتحَكِّم في العبور من منطقة البحر

---

(١) Diod, 14,12.

(٢) Xen. Hell. 4.8.27

Robert. j.b, *Thrasybulus and the Athenian Democracy*, Stuttgart, Steiner, 1998, p.116.

Terry buekley, *Aspects of Greek History, 750-323 BC: A Source-based Approach, Routledge*, 1996., p327.

الأسود وإليها . ولقد أثار هذا العمل العسكري من قِبَل فيليب الذُّعْر والخوف في قلوب الأثينيين ؛ ذلك لأن فيليب إذا سيطر على بيزنطة فإنه سوف يمنع مرور السفن المحمَّلَة بالحبوب من البحر الأسود إلى أثينا ، بالتالي سوف تتعرض أثينا للجوع والاستسلام ، لذا حرصت أثينا على تأمين طريق مرور القمح من منطقة البحر الأسود ، وسارعت بإرسال قوة بحرية على الفور تُقَدَّر بمئة وعشرين سفينة وأسلحة ومشاة ، لتأمين المنطقة البحرية حول المدينة ، وفي الوقت نفسه قامت قوس وردوس بإرسال مساعدات إلى بيزنطة ، لذلك اضطر فيليب أن يستخدم الطرق الدبلوماسية في علاج هذا الموقف وقام بفك الحصار عن مدينة بيزنطة[١] .

وخلال العصر الهللينيستي ، على الرغم من العقبات التي واجهها فيليب من بيزنطة ، فإن الإسكندر تَرَكَ المدينة في حالةٍ من الحكم الذاتي ، وسمح لها بسك العملة الخاصة بها ، ومن الواضح أن الإسكندر أدرك أهميتها الاستراتيجية ، وأنه لا يريد أن يتعرض لخطر الخيانة من جانب البيزنطيين ، لذلك عَرَضَت عليه المدينة المساعدة عن طريق إرسال قوة بحرية في حربه على نهر الدانوب[٢] . وبعد وفاة الإسكندر ، وفي إطار الصراع بين قادته ، أرسل أنتجونيس سفراءه إلى بيزنطة يطلب منها التحالف معه ، وفي الوقت نفسه وصل سفراء لوسيماخوس يطلبون الطلب نفسه ، لكن بيزنطة قررت الوقوف على الحياد والحفاظ على علاقات سِلْمِيَّة مع الطرفَيْن[٣] . ويبقى لنا حدثٌ مهم

---

[1] Diod, book 16, 74, 75, 76, 77.
Aspects of Greek History, pp.358- 359.
[2] Arr., An. 1.3.3.
[3] Diod, 19.17.

خلال العصر الهللينيستي يبيِّن لنا مدى الأهمية الاستراتيجية لموقع مدينة بيزنطة ؛ ففي عام ٢٧٩ ق.م استطاع الغاليون أن يسيطروا على تراقيا وجميع المناطق التي حول بيزنطة ، وأقاموا مدينة تيلوس (كيلوس حاليًا في تركيا) ، ووضعوا سكان بيزنطة أمام خطر شديد ، حيث إنهم تعرضوا للهجوم من قبل الغاليين ، بقيادة مَلِكِهم كومونتوريوس Κομοντόριος، وأَجْبَروا بيزنطة على دفع جزية تتراوح من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ قطعة ذهبية ، وبلَغَتْ في بعض الأحيان إلى ١٠٠٠٠ قطعة ، وفي عهد ملكهم كافاروس Καβάρος، سقطت دولة الغاليين وتعرَّضت بيزنطة للابتزاز على يد تراقيا ، مما دفعها إلى إرسال السفراء للمدن اليونانية ، من أجل الحصول على الدعم والتأييد في هذا الموقف الخطير ، لكنْ تم تجاهل نداء بيزنطة من قبل المدن اليونانية ، وأمام هذا الضغط اضطرت بيزنطة إلى فرض رسوم جمركية على السفن التي تُبحِر عبر البحر الأسود[1] .

غير أن هذه الرسوم الجمركية أصبحت تمثِّل عبئًا كبيرًا وثقيلًا على هذه السفن ، وصار الجميع في ضيق وشكوى ، لذلك ناشدوا جزيرة رودوس لأنها سيِّدة البحر ، كما ناشدوا كل الأطراف المشارِكة في التجارة للوقوف صفًا واحدًا أمام هذا الوضع ، ومن هنا نشأت الظروف التي نتجت عنها الحرب ؛ حيث إنه لم يكن أمام رودوس مع هذه الخسائر إلا أن تعلن الحرب على بيزنطة عام ٢٢٠ ق.م ، إذ قامت مع حلفائها بإرسال سفارة إلى بيزنطة من أجل إلغاء المُكُوس الجمركية ، لكن هذا الطلب قُوبِل

---

(1) Poly, 4, 46.

بالرفض ، حيث راح رؤساء الجهاز التنفيذي في بيزنطة يتحجَّجون بالكثير من الحجج لإقناع السفراء بأن لديهم الحق في فرض الرسوم الجمركية ، لذلك غادر المبعوثون بيزنطة دون تحقيق هدفهم ، وعند عودتهم إلى ديارهم كان صوت الحرب ضد بيزنطة هو المسموع ، وعلى الفور أرسلوا إلى بروسياس Πρωσίας (٢٤٣-١٨٢ق.م) ملك بيثنيا ، يطلبون منه التحالف معهم ، حيث كانوا على عِلْم بأنه على خلاف مع بيزنطة(١) .

اتخذ البيزنطيون خطوات مماثلة ؛ فأرسلوا إلى أتاللوس ملك برجاموم وأخايوس Ἀχαιός(٢) لطلب المساعدة ، كان أتاللوس مستعدًا لتقديم المساعدة ، لكن قواته كانت محدودة ، وذلك لأنه تم تقليص دوره ودور أسلافه في آسيا ، أمَّا أخايوس فكان صاحب سلطات واسعة في آسيا ، وقد وعد بيزنطة بالمساعدة ، ومِن ثَمَّ عَقَدَ عليه سكان بيزنطة آمالًا كبيرة ، ودبَّ الاكتئاب في نفوس الرودسيين وبروسياس(٣) ؛ حيث كانت بيزنطة على ثقة من مساعدة أخايوس الذي كان يمثِّل خطرًا على

---

(1) Poly, 4, 47.

(٢) أخايوس : أحد أحفاد أنطيوخوس الأول من الفرع الذي حُرِمَ من تولِّي العرش ، وكان يشغل منصب قائد قوات الملك أنطيوخوس الثالث ، وقد ركب الغرور رأسه بعد نجاحه في القضاء على حركات الانفصال القومية في آسيا الصغرى واستعادته معظم أجزاء الإمبراطورية السلوقية ، خاصة تلك التي استولت عليها مملكة برجامة عام ٢٢٠ق.م ، وشَعُرَ أخايوس أنه قد نجح في توحيد الإمبراطورية ، وشعر أنه الأجدر بالجلوس على العرش ، فأعلن استقلاله بالمناطق التي حرَّرها من برجامة .

سيد الناصري : تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم في العصر الهلينيستي ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٩٢م ، ٢٢٩.

(3) Poly, 4, 48.

بروسياس ملك بيثنيا ، وازداد هذا الخطر بتعاون بيزنطة مع تيبوتيس Τιβοητες عمِّ بروسياس ، الذي كان يعيش في مقدونيا ويَدَّعِي أحقيته في عرش بيثنيا ، لذلك دخل بروسياس الحرب وهو يحمل عداءً شديدًا لبيزنطة(١) .

وفي الوقت نفسه جَهَّزت رودوس ست سفن لبيزنطة ، بالإضافة إلى أربع سفن من حلفائها ، وانتخب إكسنفانتوس Ξενόφαντος لقيادة هذه السفن ؛ حيث أبحر على رأس سِرْب مكوَّنٍ من عشر سفن إلى الهلوسبونت ، ثم توقفت هذه السفن عند مدخل البحر الأسود ، وأبحر قائد الأسطول على رأس السفينة العاشرة إلى بيزنطة ، وذلك من أجل اختبار معنويات شعب بيزنطة ، ومعرفة مدى قلقهم بشأن هذه الحرب ، لكنَّه وجد أنه ليستْ لديهم أيَّة رغبة في الاستماع إليه ، لذلك غادر بأسطوله كاملًا إلى رودوس(٢) .

ولم تقف الأحداث عند هذا الحدِّ ؛ فقد سَعَتْ رودوس لعمل صداقة مع أخايوس ، حيث تبنَّت خطة لتحقيق أهدافها ، فقد رأتْ أن قرار بيزنطة خوْض الحرب ضدها كان مبنيًا على آمال دعم أخايوس لها ، وقد عَلِمت رودوس أن والد أخايوس كان أسيرًا في الإسكندرية ، لذا فكَّرت رودوس في التوسط عند الملك بطلميوس وفكِّ أسْر أندروماخوس والد أخايوس ، مما جعل الأخير يتخلَّى عن مساعدة بيزنطة ، لذلك أُصِيبت بخيبة الأمل ، وفي الوقت نفسه قُتِل تيبويتوس عم بروسياس خلال رحلته إلى بيزنطة قادمًا من مقدونيا ، بذلك ضعفت هِمَّة بيزنطة

---

(1) Poly, 4, 50.
(2) Poly, 4, 50.

وحماسها . وعلى الجانب الآخر ازداد حماس بروسياس ورودوس وإقبالهما على الحرب ، وفي الوقت نفسه منع التراقيون سكان بيزنطة من مغادرة أبواب المدينة ، وبذلك تحطمت آمالهم ، وبدأ البيزنطيون يبحثون عن ذَرِيعة للانسحاب من الحرب[١] .

تدخَّل كافاروس ملك غاليا من أجل إقرار السلام بين الطرفَيْن ، ووافق الطرفان على ذلك وتم عقْد معاهدة سلام بينهما ، كان من شروطها:

١- لا تقوم بيزنطة بجمع مُكُوس جمركية على السفن التي تُبْحِر عبر البحر الأسود ، وبذلك تكون رودوس وحلفاؤها في سلامٍ مع بيزنطة .

٢- (أمَّا فيما يتعلَّق بالسلام مع بروسياس): اتفق الطرفان على ألَّا يهاجم بروسياس بيزنطة ولا تهاجم بيزنطة بروسياس ، وأن يُعِيد الأخير إلى بيزنطة الأراضي والحصون والسكان والأسْرَى دون فِدْيَةٍ[٢] .

(1) Poly, 4, 51.
(2) Poly, 4, 52.

نتائج البحث

تناوَلَ البحث في الصفحات السابقة الموقع الجغرافي لمدينة بيزنطة اليونانية وأثره السياسي والاقتصادي منذ النشأة حتى العصر الهيلينيستي ، من خلال المحاور الآتية:

- تأسيس مدينة بيزنطة .
- الموقع الجغرافي لمدينة بيزنطة .
- أهمية الموقع الجغرافي لمدينة بيزنطة .
- أثر الموقع الجغرافي لمدينة بيزنطة سياسيًا واقتصاديًا .

من خلال المعالجة المتعمقة لكل هذه المحاور توصَّل الباحث إلى مجموعة من النتائج ، التي تتمثل في:

- تم تأسيس مدينة بيزنطة على يد الميجاريين عام ٦٥٩ ق.م ، وهي بذلك تمثِّل آخر المستوطنات التي أنشأها الميجاريون في منطقة البحر الأسود ، حيث شَيَّدوا من قبلها مدن خلقدونية وسيلمبريا وأستاكوس .

- تمتد مدينة بيزنطة على طول الساحل الغربي من بسفور تراقيا ، الذي يربط البحر الأسود ببحر مرمرة .

- قدَّم لنا المؤرخ بوليبيوس وصفًا متميزًا لموقع مدينة بيزنطة ؛ حيث أشار إلى تمتُّع المدينة بموقع متميز بفضل المكانوالبسفور ، بالإضافة إلى وجود أسوار تحيط بالمدينة . كما أوضح أن هؤلاء الذين يُبْحِرون من الهلوسبونت إلى البحر الأسود أو العكس عبر

بيزنطة بطول الساحل الأوربي يكون طريقهم مستقيمًا سهلًا ، بينما يكون الإبحار عن طريق الساحل الآسيوي عبر مدينة خلقدونية على درجة عالية من الصعوبة ، حيث إن الساحل الآسيوي مليء بالخلجان العميقة والنتوءات الصخرية . فضلًا عن ذلك أشار بوليبيوس إلى أن موقع المدينة على البحر كان بمثابة باب للعبور لمنطقة البحر الأسود ، فلا يستطيع أحد أن يُبْحِر إلى منطقة البحر الأسود أو خارجها دون موافقة بيزنطة ، لذلك كانَتْ لبيزنطة السيطرة الكاملة على جميع المنتجات التي يتم استيرادها أو تصديرها من المنطقة وإليها ، التي كان السكان في حاجة إليها .

– مِن مزايا موقع مدينة بيزنطة ، وفقًا لما ورد عن إسترابون ، أن الخليج الذي يقع إلى الغرب من المدينة ،الذي يُعرَف باسم القرن الذهبي ، ويبلغ طوله ٦٠ ستاديوم تقريبًا ، هو بمثابة خط دفاع عن المدينة من ناحية الغرب . ومن الجدير بالذِّكْر أن هذا الخليج كان مليئًا بالأسماك ، خاصة من نوع سمك التونة الذي يُسمَّى بيلميديس Pelamydes، وكان يمكن صيده بسهولة .

– على الرغم من أن مدينة خلقدونية كانت تقع بالقرب من بيزنطة على الشاطئ الآخر من بسفور تراقيا ، فإنها لم تكُنْ تُفِيد بأي حصة من أسماك التونة ، لذلك عندما ذهب أهل ميجارا إلى المعبود أبوللو ليرشدهم عن مكان لإنشاء مستعمرة جديدة ، أرشدهم إلى المكان المقابِل لمدينة العميان (خلقدونية) ، وهو المكان الذي تم إنشاء مدينة بيزنطة فيه .

– إذا كان لموقع بيزنطة الكثير من المزايا فإنه لم يَخْلُ من بعض السلبيات ، وإن كانت من الضآلة بحيث لا يمكن مقارنتها بمزايا هذا الموقع ، ومن ذلك أن بيزنطة كانت تشترك في الحدود من الجهة الغربية على الأرض مع تراقيا ، وهذا الأمر جعل البيزنطيين في حرب مستمرة مع التراقيين من هذه الجهة ، وفي الوقت نفسه جعل البيزنطيين غير قادرين على وضع نهاية لهذا النزاع من خلال معركة حاسمة . ومِن الأمور الأخرى التي كانت تمثِّل خطرًا كبيرًا على البيزنطيين من خلال هذا الموقع أن بيزنطة لم تتمكَّن من الحصول على الرسوم الجمركية لعبور مضيق البسفور ، ولو مرة واحدة ، دون صراعٍ ، وهذا الأمر أدَّى إلى تكتُّل الأعداء ضدها ، مما جعلها مُثْقَلة بحروب دائمة وخطيرة ، والأكثر من ذلك تلك الحروب مع البرابرة الذين كانوا يعيشون على حدودها .

– نظرًا لموقع بيزنطة المتميِّز تجاريًا وسياسيًا وعسكريًا ، فقد كان سببًا في أن تصبح تلك المدينة محط أنظار ومَطْمع الفرس والمدن اليونانية وممالك العصر الهللينيستي ، حيث سيطر عليها الفرس في الفترة بين ٥٢٠ – ٤٧٨ ق.م .

– وَقَعت المدينة تحت سيطرة القائد الإسبرطي بوزنياس لما يقرب من سبع سنوات ، وذلك في إطار الصراع بين إسبرطة وأثينا من جهة ، وبين إسبرطة والفرس من جهة أخرى ، إذْ أراد أن يتَّخِذ منها قاعدة لتأسيس دولة مستقلة برعاية الفرس ؛ وهو الأمر الذي دفع أثينا للتدخُّل على الفور وطرْد بوزنياس ، وذلك من أجل الحفاظ على مصالحها في منطقة البحر الأسود ، وذلك عام ٤٧٠ق.م ، وانضمت المدينة إلى

حلف ديلوس بقيادة أثينا ، وأسهمت بمبالغ مالية ضخمة قُدِّرت بحوالي خمسة عشر تالنتا سنويًا ، وظل هذا الأمر قائمًا حتى عام ٤١١ق.م على إثر ضعْف أثينا وتخلِّي العديد من المدن من حولها عنها ، منها: بيزنطة لتقف بجانب إسبرطة ، غير أن هذا الصراع تجدَّد مرة أخرى بين أثينا وإسبرطة حول المدينة ، الذي انتهى باستقلال بيزنطة.

– كانت بيزنطة طرفًا في الصراع القائم بين مقدونيا وأثينا والفرس ، حيث قام الملك فيليب المقدوني بمحاصرة المدينة ومحاولة السيطرة عليها ، بهدف منع مرور السفن المحمَّلَة بالحبوب من منطقة البحر الأسود إلى أثينا ، بالتالي تعاني من الجوع وتستسلم له ، مما دفع أثينا وبعض المدن اليونانية الأخرى والفرس للوقوف ضد فيليب المقدوني وإمداد بيزنطة بالمساعدات ، لذلك اضطر الملك فيليب المقدوني إلى فك الحصار عن المدينة أمام هذا الضغط .

– خلال العصر الهيللينيستي تَرَكَ الإسكندر المقدوني مدينة بيزنطة في حالةٍ من الحكم الذاتي ، وسمح لها بسك العملة الخاصة بها ، ومِن الواضح أن الإسكندر أدرك أهميتها الاستراتيجية مِن جهةٍ ، كما أنه لم يُرِدْ أن يتعرَّض لخطر الخيانة من جانب البيزنطيين من جهة أخرى .

– بعد وفاة الإسكندر ، في إطار الصراع بين قادته ، أرسل أنتجونيس سفراءه إلى بيزنطة يطلب منها التحالف معه . وفي الوقت نفسه وصل سفراء لوسيماخوس يطلبون الطلب نفسه ، لكنَّ بيزنطة قررت الوقوف على الحياد والحفاظ على علاقات سِلْمِيَّة مع الطرفين .

– بقِيَ لنا حدث مهم خلال العصر الهللينيستي يبيِّن مدى الأهمية الاستراتيجية لموقع مدينة بيزنطة ؛ ألا وهو حربها ضد مدينة رودوس عام ٢٢٠ق.م ، وذلك بسبب فرْض بيزنطة الرسوم الجمركية على السفن التي تَمُرُّ عبر مضيق البسفور من منطقة البحر الأسود وإليها ، لكن بتدخُّلٍ من كافاروس ملك غاليا انتهت الحرب بين بيزنطة ورودوس بعقد معاهدة سلام بين الطرفين .

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر الكلاسيكية

DIODORUS SICULUS, Library of History, Loeb Classical Library, 12 volumes, Greek Texts and Facing English Translation, Harvard University Press 1933 thru 1967.

CASSIUS DIO COCCEIANUS, Roman Histotry, Herbert Baldwin Foster. William Heinemann, Harvard University Press. London - New York. 1914–127.

ديون كاسيوس: التاريخ الروماني، ترجمة وتعليق مصطفى غطيس، ج١٠، الكتاب ٧٤، الفقرة ١٠، تطوان – كلية الآداب والعلوم الإنسانية ٢٠١٣م.

Flavii Arriani Anabasis Alexandri. Arrian. A.G. Roos. in Aedibus B. G. Teubneri. Leipzig. 1907. Keyboarding.

HERODOTUS, with an English translation by A. D. GOLLEY, Cambridge. Harvard University Press. 1920.

HERODIAN OF ANTIOCH'S *History of the Roman Empire*, 1961 Berkeley and Los Angeles.

Polybius Histories, Evelyn S. Shuckburgh. translator. London, New York. Macmillan. 1889. Reprint Bloomington 1962.

STRABO. ed. H. L. Jones, The Geography of Strabo. Cambridge, Mass: HarvardUniversity Press; London: William Heinemann, Ltd. 1924.

TACITUS, *Annals* ,Loeb Classical Library, 5 volumes, Latin texts and Facing English translation: Harvard University Press, 1925 thru 1937. Translation by C. H. MOORE (*Histories*) and J. JACKSON (*Annals*).

THUCYDIDES, *History of the Peloponnesian War*, BENJAMIN JOWETT. translator. Oxford. Clarendon Press 1881.

XENOPHON, *Xenophon in Seven Volumes* , 3 . Carleton L. Brownson. Harvard University Press, Cambridge, MA; William Heinemann, Ltd., London. 1922.

ثانيًا: المصادر الوثائقية:

CIA= *Corpus Inscriptionum Atticarum*, Vol. 1.

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

DAVID SACKS, *A Dictionary of the Ancient Greek World* , Oxford University Press 1995

IRAD MALKIN, *Religion and the Founders of Greek Colonies* , Ph.D , University of Pennsylvania 1981.

IRAD MALKIN & NINO SAMUEL, "The City of the Blind and the Founding of Byzantium" , *Mediterranean Historical Revew* , III , I, 1988.

GEAORGACS, D.J., "The Name of Constantinopole", *Transaction and the Proceeding of the American Philogical Association* , 78, 1947.

KARAGIANNI. A , "The Harbour of Proconnesus in Greco – Roman and Early Byzantine Times: The Marble Trade, A Source of Finiancial and Cultural Development", *The European Archaeologist*, 36, 2011/2012, www.e-a-a.org/tea/rep4_36.pdf

ROBERT. B, *Daily Life in Ancient and Modern Istanbul*, Minnesota, 2000.

RONALD P. L, **Megara:** *The Political History of a Greek City-State to 336 B. C.* , Cornell University Press ,1981.

ROBERT. J.B , *Thrasybulus and the Athenian Democracy*, Stuttgart, Steiner ,1998.

SERGIDIS,K., *The Pursuit of Power and Security the Security the Influence of Natural Resources and Geography on Athenian Foreign Policy* , Ph.D, University of Nottingham , 2012 , p. 98.

TERRY BUCKLEY, *Aspects of Greek History, 750-323 BC: A Source-based Approach*, Routledge, 1996.

WILLIAM SMITH, *A Dictionary of Greek and Roman biography and mythology.*

VASILEV .M. I , *The Policy of Darius and Xerxes towards Thrace and Macedonia*, Brill 2015.

رابعًا: المراجع العربية

إيمان لفتة حسين: مملكة ليديا ٦٨٧ق.م – ٥٤٦ ق.م ، مجلة بابل للدراسات الإنسانية ، المجلد الرابع .

سيد الناصري: تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم في العصر الهللينيستي ، القاهرة – دار النهضة العربية ١٩٩٢م .

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ١٠٣ ـ ١٣٨

جُهودُ الدَّولَةِ الإِسلامِيَّةِ في مُوَاجَهَةِ الكَوَارِثِ الطَّبيعِيَّةِ وَالأَوبِئَةِ وآثَارِهَا خِلالَ القُرُونِ الثَّلاثَةِ الأُولَى (٦٢٢ ـ ٩١٣م)

(بِلادُ الشَّامِ نَمُوذَجًا)

صالح بن عبد الله بن محمد الزهراني (*)

المقدمـة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد ...

فقد حَظِيَت حياة الأمة الإسلامية في عصورها الأولى بقدْرٍ وافرٍ من البحث في كل جوانبها، إلا أنَّ دراسةَ ما تعرَّضَتْ له الأمة الإسلامية في تلك الفترة من كوارثَ وأزماتٍ وطرق معالجتها أمرٌ لا يزال يحتاج إلى دراسات عميقة؛ لأنها من الموضوعات التي لم يُسْبَر غَوْرُها بشكلٍ عميقٍ في الدراسات التاريخية.

فدراسة هذا الجانب من التاريخ الإسلامي في صدره الأول تقدِّم صورة أخرى من أحداثه في تلك الفترة، كما نتعرَّف من خلالها على تعامل قادته مع هذه الكوارث والمشكلات في بداية تكوين وحدتهم السياسية

(*) ماجستير من جامعة أم القرى ـ كلية الشريعة ـ قسم التاريخ، باحث في مرحلة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي.

والاجتماعية، كما تعطينا بُعدًا أعمق لما تميَّزت به الأمة الإسلامية وقادتها من حِنْكة وبُعد نظر.

وهذا البحث يعرض جهود الدولة الإسلامية، بمراحلها السياسية المتنوعة في القرون الثلاثة الأُولى، في هذا الجانب، وذلك وفْق ما أُتيح لهم من قدرات وإمكانات في ذلك الوقت. وقد اشتمل على مقدمة وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، ثم مراجع البحث.

- المقدمة وهي هذه.
- التمهيد: إشارة لمعالجة القرآن والسُّنَّة وبعض الخلفاء الراشدين مثل هذه الأمور.
- المبحث الأول: الأوبئة والطواعين
- المبحث الثاني: الزلازل
- المبحث الثالث: القحط وغلاء الأسعار والمجاعات
- المبحث الرابع: الآفات الزراعية
- خاتمة بالنتائج والتوصيات
- المصادر والمراجع

تمهيد

قدَّم القرآن الكريم نماذج للمعالجات الحكيمة للأزمات الطارئة، مثل الأزمة الاقتصادية في عصر يوسف عليه السلام[١].

كما جاءت السُّنَّة النبوية بتنظيمات وقائية لمنع وقوع الأزمات، وبيَّنتْ ما ينبغي فعله في أثناء الأزمة، وما يترتب على هذه الأزمة، فتكاملت الأدوار التنظيمية لإدارة أيَّة أزمة عبر مراحلها الثلاث (قبل ـ في أثناء ـ بعد).

وسار الخلفاء الراشدون على هذا النهج، وقدَّموا ما أمكن للسيطرة على الكوارث، ومعالجة ما ينتج عنها، وسنستعرض بعض هذه الجهود في ثَنَايا هذا البحث.

في بلاد الشام واجهَ الخلفاء هذه الكوارث بكل ما يَقْدِرون عليه، وكانوا كثيرًا ما يلجؤون إلى الله تعالى لاتِّقاء هذه الكوارث.

كما أنَّ الأمويين جعلوا سبيل الخُمس[٢] سبيل الفَيْء أحيانًا؛ حُكْمُه للإمام، إنْ رأى أن يجعله لِمَنْ سمى الله جعلَهُ[٣]، وإنْ رأى أن الأفضل للمسلمين أن يضعه في

---

(١) للاستزادة انظر: الآيات من آية ٤٣ ـ ٤٩ من سورة يوسف، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، بيروت ـ دار المعرفة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ٢: ٥٠٠، ٥٠١، وسوسن الشيخ: إدارة ومعالجة الأزمات في الإسلام، ط ١، القاهرة ـ دار النشر للجامعات ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ٤٩ ـ ٦٠.

(٢) الخُمس: فرض مالي محدد بنسبة الخُمس، يتعلق بأنواع من المال؛ منها: غنائم الحرب، والركاز العادي، وما يكون من غوص أو معدن، انظر: القاسم بن سلام: الأموال، تحقيق مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ـ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨١م، ١٤.

(٣) قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]، وانظر للاستزادة: القاسم بن سلام: المصدر السابق، ١٤.

بيت مالهم لنائِبَةٍ تنوب بهم أو مصلحةٍ تعن لهم ، مثل سد ثغْرٍ ، وإعداد سلاح[١] .

ومما يُذكَر لعبد الملك بن مروان(٦٥ ـ ٨٦هـ/٦٨٥ ـ ٧٠٥م) أنه لمَّا سَمِعَ بما أحدَثَهُ سَيْلُ الجحاف سنة (٨٠هـ/٦٩٩م) بمكة المكرمة من جرفٍ للناس وهدْمٍ للدُّورِ فزع لذلك ، وبعَثَ بمالٍ عظيم ، وكتب لعامله على مكة عبد الله بن سُفْيانَ المخْزُومي بأن يعمل ضفائر[٢] للدور الشارعة على الوادي ، ويَرْدِم[٣] على أفْواهِ السككِ[٤] ؛ مما يدل على حرص الخلفاء على معالجة آثار الكوارث ، ولعل هذا يستوقف الباحث للتعريف بالكوارث الطبيعية والأوبئة ، فيقول : إن الكوارث جمع كارثة ، وتعني : المصيبة العظيمة والخراب الواسع ، والكوارث الطَّبيعيَّة : هي المصائب الراجعة إلى الطبيعة ، كالزلازل والفيضانات والأعاصير[٥] .

والأوبئة : جمع الوَبَاء ، والوباء هو كل مرض عام ، وقيل هو الطاعون خصوصًا[٦] .

---

(١) القاسم بن سلام : المصدر السابق ، ١٤، ١٣٣ ـ ١٣٦؛ ونجدت خماش : الشام في صدر الإسلام ، دمشق ـ دار طلاس ، ٣١٤.

(٢) الضفائر : البناء بحجارة بغير كلس ولا طين ؛ ومنه : وضفر الحجارة حول بيته ضفرًا ، انظر : ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ـ دار صادر ٢٠٠٨م ، ٩: ٥٠.

(٣) الردم : جمعه ردوم ، وهو سدُّكَ بابًا أو مدخلًا أو نحو ذلك ، وقيل : الردم أكثر من السد ؛ لأنه ما جعل بعضه فوق بعض. ابن منظور : لسان العرب ، ٦: ١٣٨.

(٤) الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي الصالح ، مكة المكرمة ـ مكتبة الثقافة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، ٢: ١٦٨.

(٥) انظر : أحمد مختار عبد الحميد عمر : معجم اللغة العربية المعاصرة ، القاهرة ـ عالم الكتب ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م ، ٣: ١٩١٨.

(٦) انظر : الفيروزآبادي ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب ، : القاموس المحيط ، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي ، بيروت ـ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، ٥٥.

المبحث الأول

الأوبئة والطواعين

وردَتْ عن النبي ﷺ أحاديثُ تحضُّ على الوقاية والتداوي؛ كقوله ﷺ: «ما أنزلَ اللهُ داءً إلا أنزلَ له شفاءً»(١).

وقوله ﷺ: «ما ملأَ ابنُ آدم وعاءً شرًّا من بطنٍ، حسْب ابن آدم أُكلات يقمْنَ صُلْبَه، فإنْ كانَ لا مَحالةَ فثُلُث طعام، وثلث شراب، وثلث لِنَفَسِه»(٢).

وقد كانت عناية الإسلام بالصحة عناية لا نظير لها في أي دين آخر؛ فالنظافة فيه عبادة وقُرْبة، بل فريضة من فرائضه، فكُتُب الشريعةِ تبدأ أول ما تبدأ ببابٍ عنوانُه الطهارة، أي: النظافة، وقد أشاد القرآن والسنة بالنظافة وأهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [الآية ٢٢٢ من سورة البقرة]، وأثنى على أهل مسجد قِباء فقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [الآية ١٠٨ من سورة التوبة]، وقال النبي ﷺ: «الطهورُ شطْرُ الإيمانِ»(٣).

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، القاهرة ـ دار الفجر ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٤: ٣٤، ورقم الحديث ٥٦٧٨. للاستزادة: صحيح البخاري، كتاب الطب، ٣٤ ـ ٥٦.

(٢) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، حققه السيد أبو المعاطي النوري وزملاؤه، بيروت ـ عالم الكتب ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٥: ٨٥٤، ورقم الحديث ١٧٣١٨. وإسناده صحيح. وانظر: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ٤: ١٦.

(٣) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، بيروت ـ عالم الكتب ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ١: ٢٠٣، ورقم الحديث ٢٢٣.

كما رغَّبَ الإسلام في العناية بصحة الأجسام، وحرَّمَ المُسْكرات والمفترات، وأنكر على مَن حرَّم ما أحل الله من الطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الآية ٣٢ من سورة الأعراف].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الآية ٨٧ من سورة المائدة].

كما نهى عن الإسراف في الطعام والشراب خشية الإضرار بالبدن؛ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الآية ٣١ من سورة الأعراف].

بل نهى الإسلام عن إضرار البدن وإن كان في صورة العبادة؛ فقد أنكر النبي ﷺ على رهْطٍ من أصحابه أراد أحدهم أن يقوم الليل فلا ينام، والثاني أن يصوم الدهر فلا يفطر، والثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج، وقال لهم: «أَمَا واللهِ إنِّي لأخشاكم للهِ، وأتقاكم له، لكني أصومُ وأفطِرُ، وأصلي وأرقدُ، وأتزوجُ النساءَ، فمَنْ رَغِبَ عن سُنتي فليس مني»[1][2].

يقول ابن القَيِّم: في قوله ﷺ: «لكل داء دواء» تقويةٌ لنفس المريض والطبيب، وحثٌّ على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه؛ فإن المريض إذا استشعرت نفسُه أن لِدائه دواءً يزيله تعلَّق قلبه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارةُ اليأس، ومتى قويت نفسُه انبعثت حرارتُه الغريزية، وكان ذلك سببًا لقوة الأرواح الحيوية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويتْ هذه الأرواح قويت القوى التي هي حاملةٌ لها، فقهرت المرَضَ ودفعَتْه، وكذلك الطبيبُ إذا عَلِمَ أن لهذا الداء دواءً أمكَنَه طلبه والتفتيش عليه»[3].

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، ٣: ٤٢٧، ورقم الحديث ٥٠٦٣.

(٢) موقع الشيخ يوسف القرضاوي على الشبكة الإلكترونية: http://www.qaradaw.net، من كتاب: فتاوى معاصرة، الجزء الأول، الخميس، ٥/٧/٢٠٠١م. (بتصرف).

(٣) ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ٣: ٨١٧ - ٨١٨.

وقد حرصت الدولة الإسلامية في قرونها الأولى على مواجهة الأوبئة عبر تنظيم إسلامي يراعي ما قبل المرض وفي أثنائه وبعده، فقد كانوا يحثون القادة والولاة عند بناء المدن وتمصيرها على اختيار الموقع الذي تتوفر فيه الشروط الصحية، وفي هذا يقول ابن خلدون: «اعلمْ أن المدن قرار تتخذه الأممُ عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، ولمَّا كان ذلك القرار والمأوى وجب أن يُراعَى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع، وتسهيل المرافق لها.

ومما يُراعَى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض؛ فإن الهواء إذا كان راكدًا خبيثًا، أو مجاورًا للمياه الفاسدة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها»[١].

وقد تميَّزتْ بلاد الشام بصحة هوائها[٢]؛ كما امتازت مدنها بـ«غزارة مياهها، وجمال أشجارها وبساتينها»[٣]، مما أضفَى عليها جوًا صحيًا متميزًا، و«يُذكَر عن حِمْص أنها كانت أصح بلاد الشام هواءً وتُرْبَة»[٤] «وأنطاكية موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء»[٥].

ورغم هذا فقد ابتُلِيَت الشام بالطواعين والأوبئة، ولعل ذلك لكثرة سكانها وتمركزهم بشكل عشوائي خاصة خلال العصر الأموي[٦].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ١: ٣٧٠.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ـ دار صادر، ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) ناصر محمد علي الحازمي: الحركة العلمية الطبية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ٤٩٢ ـ ٦٩٠هـ، رسالة دكتوراه في الحضارة والنظم الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ١٠٦.

(٤) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ١٨٤.

(٥) المصدر نفسه، ١٥٠.

(٦) للمزيد انظر: مصطفى شاكر: جنوب بلاد الشام في العصر العباسي ١٣٢ ـ ٣٥٨ه، عمان ـ منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام ١٩٩٢م، ٦.

وكان أول هذه الأوبئة طاعون عمواس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وتزامنت معه تلك المجاعة التي وقعت في الجزيرة العربية، بخاصة في المدينة النبوية وماحولها، فسُمِّيَ ذلك العام عام الرمادة[1].

يقول ابن كثير: «إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عَسَّ المدينة ذات ليلة عام الرَّمادَة فلم يجد أحدًا يضحك، ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة، ولم ير سائلا يسأل، فسأل عن سبب ذلك فقيل له: يا أمير المؤمنين، إن السُّؤَّالَ سألوا فلم يُعْطَوْا فقطعوا السؤالَ، والناسُ في همٍّ وضيقٍ لا يتحدثون ولا يضحكون»[2].

وقد واجه عمر ـ رضي الله عنه ـ المجاعة بقوةٍ وحكمةٍ، وسعى لجَلْب الطعام من مصر والعراق والشام، وأشرف بنفسه على توزيعه، كما أخَّر جِباية الزكاة، ولم ينفِّذ حدَّ السرقة عام المجاعة لشُبهة الاضطرار[3]، وأجرى الأقوات على المسلمين، وكان يرزق الضعفاء القوت، ونهى عن الحكرة[4] حاطبًا وغيره[5].

---

(١) وذلك أن الأرض كلها صارَتْ سوداء فشبهت بالرماد، كما أن الأرض كانت تسفى إذا ريحت ترابًا كالرماد فسُمِّي ذلك العام عام الرمادة، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٢: ٥٠٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب، مكة المكرمة ـ المكتبة التجارية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ٧: ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) الطبري: تاريخه، ٢: ٥٠٨ ـ ٥٠٩. وابن كثير: البداية والنهاية، ٧: ٨٥ ـ ٨٦؛ وصلاح التيجاني: معالجة الخليفة عمر بن الخطاب لمشكلة المجاعة في عام الرمادة، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الاقتصاد الإسلامي، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، مركز النشر العلمي، ١: ٧٩.

(٤) حَكَرَ: احتكار الطعام، جمعه وحبسه يتربص به الغلاء، وهو الحُكرة بالضم. الجوهري: معجم الصحاح، بيروت ـ دار المعرفة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ٢٥١.

(٥) ابن حبان البستي: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، تصحيح وتعليق السيد عزيز بك، ـ مؤسسة الكتب الثقافية ١٤١١هـ/١٩٩١م، ٤٧٦.

ولمَّا عَلِمَ بالطاعون في أثناء مسيره إلى الشام اتَّخذ الاحتياطات لحماية المسلمين؛ عملًا بقوله ﷺ عند وقوع الطاعون: «إذا سمعْتُمْ به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه». وهذا الحديث الشريف أساس الحَجْر الصِّحِّي الذي لم يُعرَفْ إلا في القرن العشرين[1].

ولمَّا فحش أثرُ الطاعون بالشام أجمع عمر المسير إليه ليقسم مواريث مَن مات من المسلمين؛ فإنه أشكل قَسْمُها على المسلمين، ففعل ذلك سنة (١٨هـ/٦٣٩م)، ورجع إلى المدينة في ذي الحجة[2]، فورَّث بعض الورثة من بعض وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم[3].

ولمَّا بلغَه موت أبي عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاحِ ويَزِيد بن سُفْيان أمَّر معاويةَ بن أبي سفيان على جند دمشق وخَرَاجِها، وأمَّر شُرَحْبيل بن حسنة على جُند الأُردنِّ وخراجها[4]، وهذا الإجراء كان ضروريًا لسد الفراغ في القيادة، كما أنه ذو أبعادٍ سياسية ونفسية على عموم المسلمين في بلاد الشام.

وقد كان عمرو بن العاص أول من فَطِنَ من قادة الشام إلى أن سكنى الجبال من أنْجَع الأمور المضادة لاشتعال الطاعون؛ لذلك أمر الجيش أن يرفعوا من المدن والقرى والدَّساكِر[5] إلى رءوس الجبال حيث البرودة والهواء النقي الذي لا يتلوث

---

(١) الطبري: التاريخ، ٢: ٤٨٦. وعبد الرزاق الكيلاني: الحقائق الطبية في الإسلام، دار القلم - دمشق ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ١٣٢.

(٢) الطبري: التاريخ، ٢: ٤٩٠. ابن كثير: البداية والنهاية، ٧: ٧٤. ابن خلدون: تاريخه، ٢: ٥٣٠؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في تاريخ البشر، بيروت - دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ١: ١٤١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق خليل مأمون، بيروت - دار المعرفة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ٢: ٥١٧.

(٤) ابن حبان: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ٤٧٧.

(٥) الدساكر: الدسكرة بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم، والجمع الدساكر، يكون للملوك، وهو مُعَرَّب، ابن منظور: لسان العرب، ٥: ٢٥٧.

بالأوبئة[١]، وذلك استجابة لتوجيه الخليفة عمر بنالخطاب الذي وجّه أبا عبيدة قائلا : «فإنك أنزلت الناس أرضًا غمقة[٢] فارفعْهُم إلى أرضٍ مرتفعة نَزِهَة»[٣] .

ويذكر الطبري : «أن عمرو بن العاص لما رأى فتك الطاعون بالجند أصدر أمره إلى الجميع ، مرضى وأصحاء ، بأن يرتفعوا بأنفسهم إلى قمم الجبال حيث قال : «أيها الناس ، إن هذا الوجع إنما يشتعل اشتعال النار ، فتجبلوا منه في الجبال . ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا ورفع الله الطاعون عنهم. قالوا: فبلغ ذلك عمر بنالخطاب من رأي عمرو بن العاص فوالله ما كرهه»[٤] .

ولم يكن اهتمام الخلفاء بالمسلمين فحسب ؛ بل امتد اهتمامهم حتى بأهل الذِّمَّة في الجانب الصحي ، فقد ذكر البَلاذري أن عمر بن الخطاب لما مَرَّ بالجابية من أرض دمشق مر بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يُعْطَوْا من الصدقات ، وأن يُجرَى عليهم القوت[٥] .

عناية الخلفاء بالمرضى والزمنى والمطعونين

كما سلك الخلفاء الأمويون سلوكًا مهمًا لتجنب الأوبئة والطواعين، نظرًا لكثرة الطواعين في عهد دولتهم ؛ فقد ذكر ابن حجر العسقلاني أن بعض المؤرخين

---

(١) محمد أحمد باشميل : حروب الإسلام في الشام ، دمشق ـ دار الفكر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

(٢) أرض غمقة أي : وخيمة ، يقال : غمقت الأرض غمقًا فهي غمقة ، أصابها ندى وثقل ووخامة ، وبلد غمق : كثير المياه رطب الهواء ، والغمقة القريبة من المياه والخُضر والنُزور ، فإذا كانت كذلك قاربت الأوبئة . والغمق في ذلك فساد الريح وخمومها من كثرة الأنداء فيحصل منها الوباء . ابن منظور : لسان العرب ، ١١: ٨٧.

(٣) الطبري : التاريخ ، ٢: ٤٨٨. والأرض النزهة : البعيدة من الريف . ابن منظور : لسان العرب ، ١١: ٨٧.

(٤) الطبري : التاريخ ، ٢: ٤٨٨. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٢: ٥١٥.

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ١٣٥.

كان يقول: «إن الطواعين فيزمن بني أمية كانت لا تنقطع بالشام؛ حتى إن خلفاء بني أمية إذا قرب أوانه[1]، وجاء زمن الطاعون يخرجون إلى البوادي والصحراء»[2].

واهتموا كذلك باستعداد الناس الصحي والنفسي للجهاد؛ ومِن ذلك أنه لمَّا أصاب الناس طاعون في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان سنة (٨٠هـ/٦٩٩م) لم يكن في تلك السنة غَزْوٌ[3] تقديرًا لأحوال الناس وظروفهم.

ومن جهود الدولة الأموية لمواجهة الأوبئة ما قام به الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ/٧٠٥ ـ ٧١٥م) من إنشاء أول بِيمَارِسْتان[4] في الديار الإسلامية[5] سنة (٨٨هـ)[6]، وتخصيص مستشفى للمجذومين[7]، واتخاذ

---

(١) ابن حجر: بذل الماعون في فضل الطاعون، الرياض ـ دار العاصمة ١٤١١هـ، ٢٢٣. وهذا يدل على أن الطاعون له أوقات محددة وعلامات معروفة عند الناس.

(٢) المصدر نفسه، ٣٦٣. وانظر: القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ١٩٨.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ١٧٦.

(٤) بِيمَارِسْتَان: كلمة من أصل فارسي تَعني دار المرضى. (الجوهري: الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت ـ دار العلم للملايين ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ٣: ٩٧٨؛ وأيضا ابن منظور: لسان العرب، ٦: ٢١٧).

(٥) عبد الرحمن الأربلي: خلاصة الذهب، تصحيح وتعليق مكي السيد، بغداد ـ مكتبة المثنى، ١. ومحمد خوام ورفاقه محمد عفت وحسن إبراهيم: تاريخ العلاج والدواء في العصور القديمة (العصر الإسلامي ـ عصر النهضة في أوروبا)، الرياض ـ دار المريخ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ٧٥.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم، تحقيق محمد عبد القادر، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٦: ٢٨٧. وعبد عون الروطنان: موسوعة تاريخ العرب، عمان ـ الأهلية ٢٠٠٤م، ٢: ١٢١.

(٧) مؤلف مجهول: العيون والحدائق في إخبار الحقائق، بغداد ـ مكتبة المثنى، ٤، وأحمد عبد الرزاق أحمد: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ١٦٤. وقد حدد موقعه في مرج العذراء إلى الشمال الشرقي من دمشق، ويذكر عبد علي ياسين أنه يبعد عن دمشق حوالي ٢٠ كيلو مترًا، ولا يزال يحمل هذا المستشفى اسم مستشفى الوليد. انظر كتابه: تاريخ صدر=

ديوان للزَّمْنَى[١] بدمشق، وجعَلَ عليه إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي[٢]، وقال له: «لأدعن الزَّمِن أحبَّ إلى أهله من الصحيح»[٣].

كما فرض الوليد للمجذومين، وقال: لا تسألوا الناس[٤]، وأوقف عليهم بلدًا[٥]، وأمر بإعطاء الزمنى[٦].

«وعند ابن عساكر أن صاحب الرقيق جاء إلى عمر بن عبد العزيز(٩٩ - ١٠١هـ/٧١٨ - ٧٢٠م)، فسأل أرزاقَهم وكِسْوَتَهم وما يُصْلِحُ حالَهم؛ فقال عمر: كم هم؟ قال: كذا وكذا ألفًا. فكتب إلى أمصار الشام أنارفعُوا إليَّ كل أعمى في الديوان أو مُقْعَدٍ أو مَن به الفَالِج[٧]، أو مَن به زمانة تَحُول بينه وبين القيام

=الإسلام من البعثة النبوية وحتى نهاية الدولة الأموية، عمان - دار يافا ٢٠٠٣م، ٤٠١.

(١) الزَّمْنَى: المصابون بأمراض مزمنة كالعاهات، وهو مايُسمَّى الآنَ الشَّلَل. ابن منظور: لسان العرب، ٧: ٦ (بتصرف).

(٢) إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب الخُزاعي كان على ديوان الزَّمْنَى بدمشق، وهو من أهلها، وسكن الأردنَّ، ووليها لهشام بن عبد الملك. بدران: تهذيب تاريخ دمشق، دمشق - المكتبة العربية ١٩١١م، ٢: ٤٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢: ٤٥٢.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت - دار الفكر ١٤١٧هـ/١٩٩٦، ٨: ٧٢؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، صيدا - المكتبة العصرية ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٥: ١٥٨؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور وأحمد دراج، مكة المكرمة - مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ٦٥؛ القرماني: أخبار الدول وآثار الأُول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، بيروت - عالم الكتب ١٤١٢هـ/١٩٩٢، ٣٢؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، القاهرة - دار الآفاق ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ٢: ١١٣.

(٥) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ٦٦.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٠: ٥.

(٧) الفَالِج: ريح يأخذ الإنسان فيذهب بشقه، وقد فُلج فلجًا فهو مفلوج؛ لأنه ذهب نصفه، وهو داء يرخي بعض البدن. ابن منظور: لسان العرب، ١١: ٢١٥.

إلى الصلاة ، فرفعوا إليه فأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم»[(١)] .

وذكر ابن عبد الحكم : «أن عمر بن عبد العزيز كان إذا كَثُرَ عنده أرقاء الخمس فرَّقه بين كل مُقعدين وبين كل زَمِنين غلامًا يخدمهما ، ولكل أعمى غلامًا يقوده»[(٢)] .

وقد شاركت المرأة في العصر الأموي في العناية والاهتمام بالمرضى ؛ من ذلك أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان أقامت دارًا للضيافة لتكون مأوى للمكفوفين في منطقة العقيبة في دمشق[(٣)] .

«ولما وَلِيَ الوليد بن يزيد (١٢٥ ـ ١٢٦هـ/٧٤٣ ـ ٧٤٤م) أجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم ، وأمر لكل إنسان منهم بخادم»[(٤)] .

كما اهتم الخلفاء الأمويون بالطب ، وأنشأوا البيمارستانات لعلاج المرضى ، وقد خطا الطب في عهد عمر بن عبد العزيز خطوة إلى الأمام ؛ وذلك بنقله تدريس الطب من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران ، وذلك بنقل الطبيب عبد الملك بن أبجر الكتاني[(٥)] ، كما استعان بطبيب يُدْعَى

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي ، ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ٤٥: ٢١٨.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه ، تصحيح وتعليق أحمد عبيد ، بيروت ـ عالم الكتب ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥٤.

(٣) وداد بنت عوض الجعيد : دور المرأة في الحياة السياسية والثقافية في العصر الأموي (دراسة عن بلاد الحجاز والشام والعراق ٤١ ـ ١٣٢هـ) ، رسالة ماجستير بجامعة الملك عبد العزيز ـ قسم التاريخ ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م ، ١٠٠.

(٤) الطبري : المصدر السابق ، ٤: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٥) كان طبيبًا عالمًا ماهرًا ، وكان في أول أمره مقيمًا في الإسكندرية ، ثم نقله عمر بن عبد العزيز إلى أنطاكية . انظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتعليق نزار رضا ، بيروت ـ دار مكتبة الحياة ١٩٦٥م ، ١٧١.

ماسرجويه[١] في تعريب كتاب أهدن بن أعين إلى العربية[٢].

وقد استعان الأمويون ببعض الأطباء مثل ابن أثال النصراني[٣]، وكان طبيبًا متميزًا في دمشق، قرّبه معاوية بن أبي سفيان[٤]، كذلك أبو الحكم النصراني[٥]، اتخذه معاوية طبيبًا خاصًا له، كما تُرْجِمَتْ كتب الطب والنجوموالكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية[٦]، وقد سُمِّيَ بحكيم بني أمية[٧]، وكانت له اليد طولى في الطب[٨].

---

(١) الطبيب البصري كان إسرائيليًا في زمن عمر بن عبد العزيز، وربما قيل في اسمه ماسرجيس، وكان عالمًا بالطب، وهو الذي تولى في أيام مروان في الدولة المروانية تفسير كتاب أهرن القس بن أعين وترجمته إلى العربية. له: كتاب قوي الأطعمة ومنافعها ومضارها، وكتاب قوي العقاقير ومنافعها ومضارها. ينظر: القفطي: أخبار العلماء بأخيار الحكماء، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ٢٤٢؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٢٣٢.

(٢) أحمد إسماعيل: تاريخ بلاد الشام منذ قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي، دمشق ـ دار دمشق ١٩٩٤م، ١٩٥؛ فيليب حتّى: تاريخ سورية، ١١٣؛ وكتاب أهدن ـ ويُقال أهرن ـ (قوي الأطعمة ومنافعها ومضارها).

(٣) كان طبيبًا متقدمًا من الأطباء المتميزين في دمشق، نصراني المذهب، ولمّا ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه والمحادثة معه ليلًا ونهارًا، وكان ابن أثال خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة وقواها وما منها سموم قواتل، وكان معاوية يقربه لذلك كثيرًا. ينظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ١٧١.

(٤) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ١٧١.

(٥) كان عالمًا بأنواع العلاج والأدوية، عُمِّر طويلًا حتى تجاوز المئة. انظر: ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ١٧٥.

(٦) ابن النديم: الفهرست، تعليق إبراهيم رمضان، بيروت ـ دار المعرفة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ٤٣٤؛ وأحمد عبد الرزاق أحمد: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ١٣٤.

(٧) المصدر نفسه، ٣٠٠؛ وفؤاد سلامة جميعان: مآثر العرب العلمية أساس حضارة الغرب، بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ٢٠٠١م، ٩٧.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ٩: ٦٥.

وقد واصل الخلفاء العباسيون هذه الجهود؛ فقد أجرى المهدي (١٥٨ ـ ١٦٨هـ/٧٨٥ ـ ٧٩٥م) على المجذومين وأهل السجون في سائر الأقاليم[١]، وفي سنة (١٦٦هـ) قعد للناس قعودًا عامًا، وفرّق فيهم ثلاثة آلاف ألف درهم، وأغنى كل عائلٍ، وجبر كل كسيرٍ[٢].

كما اشتُهر المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/٨١٣ ـ ٨٣٣م) بحبه للعلم والعلماء، وكانت له بصيرة بعلوم عِدَّةٍ «وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم»[٣]، وقام بنقل كتب الحكمة من اليونانية إلى العربية[٤].

وعند حديث البلاذري عن السامرة ذكَرَ أنه في عهد هارون الرشيد كان بفلسطين طاعون جارف، فخربت أرضهم وتعطلت؛ فوكل السلطان بها من عمَّرَها، وتألف الأُكرة والمزارعين إليها، فصارت ضياعًا للسامرة.

ولمَّا شكا السامرة إلى المتوكل سنة (٢٤٦هـ) والقاطنون في ضياعٍ تُدْعَى بيت ماما من كُورَة نابلس عجزَهم عن أداء الخَرَاج على خمسة دنانير، أمَرَ المتوكل بردهم إلى ثلاثة[٥].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ٨: ٢٥٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٣م، ٤: ٢٧٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ١٠: ١٤٥؛ عبد عون: موسوعة تاريخ العرب، ٢: ٢٠٣.

(٢) ابتسام أكرم مندورة: أوضاع الدولة العباسية وعلاقاتها خلال فترة حكم الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ)، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى ـ قسم التاريخ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ٣٣١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء،، تحقيق خيري سعيد، القاهرة ـ المكتبة التوفيقية، ٩: ٤١.

(٤) القلقشندي: مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد، بيروت ـ عالم الكتب، ٢٠٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ١٦٣.

المبحث الثاني

الزَّلازِل

كانت لمعاوية بن أبي سُفْيان ـ رضي الله عنه ـ جهود كثيرة في معالجة آثار الزلازل ؛ فقد «أمر سنة (٦٠هـ) بترميم بيعة[١] الرها الكبرى[٢] وإعادتها إلى سابق عهدها ، بعد أن هُدِمَتْ من الزَّلازِل»[٣] ، وقام بترميم عَكًّا عند ركوبه منها إلى قبرص[٤] ، ورمَّم صور ، ثم إن عبد الملك بن مَرْوان جدَّدَهما وقدكانتا خَرِبَتَا[٥] .

وقد بنَى سليمان بن عبد الملك(٩٦ ـ ٩٩هـ/٧١٥ ـ ٧١٧م) مدينة الرَّمْلَة[٦] ،

---

(١) البيعة بكسر الباء مفرد بِيع ، وهي معبد النصارى ، وقيل معبد اليهود . ينظر : الجوهري : الصحاح ، ٣: ١١٨٩. البعلي : المطلع على أبواب المقنع ، ط ١، تحقيق محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب ، ـ مكتبة السوادي للتوزيع ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م، ٢٦٧. ولسان العرب، ٨: ٢٦.

(٢) بضم أوّله ، والمدّ ، والقصر : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ ، سُمِّيت باسم الذي استحدثها ، وهو الرهاء بن البلندي بن مالك ابن دعر . ينظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، بيروت ـ دار صادر ١٩٩٥م ، ٣: ١٠٦. وابن شمائل القطيعي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ج ٢، ط ١، بيروت ـ دار الجيل ١٤١٢هـ ، ٦٤٤.

(٣) أ. س. ترتون : أهل الذمة في الإسلام ، ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ١٩٦٧م ، ٢: ٤٠، ٤١؛ وفليب حتّى : تاريخ سورية ؛ وشفيق جاسر : تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية ، ط ١، عمان ـ دار البشير ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ١٧٧.

(٤) فُتِحت مدينة قبرص في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، سنة ٢٨هـ . ينظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ٨: ٨٨. وابن خلدون : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، تحقيق خليل شحادة ، بيروت ـ دار الفكر ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ، ٢: ٥٧٦.

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ١٢٤.

(٦) مدينة عظيمة بفلسطين ، وهي في الإقليم الثالث ، بينها وبين بيت المقدس اثنا عشر ميلًا . ينظر : ياقوت : معجم البلدان ، ٣: ٦٩. ومراصد الاطلاع ، ٢: ٦٣٣.

وهي من مدن فلسطين، وجعلها القصبة، ثم توالت الزَّلازِل عليها، فانتقل منها أهلها إلى البيت المقدس، ثم بنى بعدها مدينة اللدّ على أثر بنائها القديم[١].

وممَّا يؤكِّد عمق النظرة الإيمانية عند خلفاء الأمة الإسلامية حينذاك، واعتبار حدوث الكوارث نذيرًا من الله للبشر، ما ذكره البلاذري أنه «أصابت الناس زلزلة سنة (٩٨هـ/٧١٧م)، فكتب عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإن الله ذو قدرة غالبة وعزٍّ قاهر، يعفو عمَّن يشاء، ويُؤَاخِذ من أراد، وإن هذه الرجفة عتابٌ من الله لخلقه، فأعتبوه بطاعته، وخافوا عقابه، فإنه يقول: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الآيات ٩٧ ـ ٩٩ سورة الأعراف][٢].

وكتب إلى الأمصار: «أما بعد، فإنَّ الرجف شيء يعاتب الله تعالى العباد، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا؛ فمن كان عنده شيءٌ فليتصدق به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾، وقولوا كما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وقولوا كما قال يونس: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»[٣].

ويحكي المقدسي عن الزلزلة التي حدثتْ في بيت المقدس زمن العباسيين،

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طُبع بمدينة بطربورغ، مطابع الأكاديمية الإمبراطورية، ١٣٨١هـ/١٨٦٥م، ٢٠١.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ٨: ١٤٦.

(٣) الداء والدواء، تحقيق علي بن حسن الحلبي، الدمام ـ دار ابن الجوزي ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٧٤. وقد ذكرها ابن عبد الحكم في كتابه سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، ٦٤.

فيقول: «جاءت زلزلةٌ فطرحت المغطى إلا ما حول المحرابِ، فلما بلَغَ الخليفة ـ أبا جعفر المنصور ـ خبرُه، قيل له لا يفي برده بيت مال المسلمين، فكتب إلى أمراء الأطراف وسائر القواد أن يبني كل واحد منهم رواقًا، فبنَوْه أوثق وأغلظ صناعةً مما كان»[١].

كما أمر المنصور «بقلع الصفائح الذهبية التي كانت على الأبواب من عمارته الأولى في عهد عبد الملك بن مروان، فقُلِعَتْ، وضُرِبَتْ دنانير ودراهم، وأنفقه في عمارة شرقي المسجد وغربيه الذي وقع زمن الرجفة»[٢].

وأمر بعمارة مدينة المصيصة[٣] على يد جَبْرائيل بن يحيى[٤]، وكان سورها قد تشعث من الزلازل، فبنى السور وسمَّاها المعمورة[٥].

وفي سنة (١٥٨هـ/٧٥٥م) وقع البناء الذي أقامه المنصور في بيت المقدس

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة بريل مدينة ليدن، ١٩٠٩م، بيروت ـ دار صادر، ١٦٨. كانت زيارة المنصور لبيت المقدس سنة (١٤٠هـ) بعد انقضاء الحج. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٠: ٨٢.

(٢) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ٣: ٣١٩ (بتصرف)؛ ومحمد حسن شراب: بيت المقدس والمسجد الأقصى، دمشق ـ دار القلم ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ٣٨٥؛ وشفيق جاسر: تاريخ القدس، ٢١٥.

(٣) بالفتح ثم الكسر، والتشديد، وياء ساكنة، وصاد أخرى، وهي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس، كانت من الأماكن التي يرابط بها المسلمون قديمًا. ينظر الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي ٢٠٠١م، ١٢: ٩٣؛ ياقوت: معجم البلدان، ٥: ١٤٤.

(٤) عمل لأبي جعفر المنصور، ولّاه سمرقند، وأمره بعمارة مدينة المصيصة، وفي سنة ١٤٧هـ سيَّره المنصور إلى محاربة الترك. ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ٥: ١٤٩ ـ ١٦٢، ٢١٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤: ٦٤٦. ويؤرِّخ البلاذري لهذا الحدث بسنة ١٣٩هـ (فتوح البلدان، ١٧٠).

بسبب زلزال آخر[١]، فأمر المهدي بإعادة بنائه، فبُني المسجد هذه المرة بعناية كبيرة، وأُنفِقَتْ عليه أموال طائلة[٢].

كما يذكر البلاذري دور أبي جعفر المنصور في ترميم حصون الشام؛ فيقول: «لمَّا وَلِيَ أبو جعفر المنصور تتبَّعَ حصون السواحل ومدنها فعمَّرَها وحصَّنها، وبنى ما احتاج إلى البناء منها، وفعل مثل ذلك بمدن الثغور، ثملمَّا استخلف المهدي استتم ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها»[٣].

وفي سنة (١٦١هـ/٧٧٨م) تعرضت مدينة الحدث[٤] للثلوج، فقد: «هجم الشتاء والثلوج، وكثرت الأمطار، ولم يكن بناؤها بمُسْتَوْثَقٍ منه ولا مُحْتَاطٍ فيه، فتثلمت المدينة وتشعثت[٥]، فلمَّا ولي الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/٧٨٦ - ٨٠٩م) أمر ببنائها وتحصينها»[٦].

وقد شهدت فترة حكم الخليفتين المنصور والرشيد حركة اهتمام بتحصين

---

(١) لم تذكر المصادر المتقدمة هذه الزلزلة، أي بين عامَي ١٤١هـ - ١٦٠هـ، الذي يبدو لي أنه يقصد ترميمات للعمارة الأولى.

(٢) القرماني: المصدر السابق، ٣: ٣١٩ (بتصرف)؛ ومحمد حسن شراب: بيت المقدس والمسجد الأقصى، ٣٨٦؛ وشفيق جاسر: تاريخ القدس، ٢١٧؛ وشاكر مصطفى: جنوب بلاد الشام في العصر العباسي، ١٩.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ١٦٧.

(٤) بالتحريك، وآخره ثاء مثلثة: قلعة حصينة بين ملطية وشمشاط ومرعش، من الثغور. ويقال لها الحمراء لحُمْرة تربتها، وقلعتها على جبل يقال له الأحيدب، كان حصن الحدث مما فُتح في أيام عمر، رضي الله عنه، فتحه حبيب بن مسلمة الفهري من قبل عياض بن غنم، وكان معاوية يتعاهده بعد ذلك. ينظر ياقوت: معجم البلدان، ٢: ٢٢٧، ومراصد الاطلاع، ١: ٣٨٥.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ١٩٤؛ وياقوت: معجم البلدان، بيروت - دار إحياء التراث العربي، ٣: ١٢٥.

(٦) المصدر نفسه، ١٩٥؛ وابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دمشق - دار الكتاب العربي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ١٩٣.

الثغور، كما أحدثا مواقع وحصونًا جديدة ذات أهمية عسكرية استراتيجية بالنسبة لخط الثغور البرية[١].

وفي أواخر سنة (٢١٦هـ/٨٣١م) زار المأمون بيت المقدس، وكانت قد حصلت زلزلة ثالثة بعد إصلاح المهدي، فأصاب المسجدَ خرابٌ، فأمر المأمون بتوزيع بنائه علىأمراء الأطراف وسائر القواد، وقام بالبناء قائده عبدالله بن طاهر[٢].

يقول المقدسي: «وللمغطى ستة وعشرون بابًا، باب يقابل المحراب يُسَمَّى باب النحاس الأعظم، وعن يمينه سبعة أبواب في وسطها باب مصفح مذهب، وعلى اليسار مثلهن، ومن نحو الشرق أحد عشر بابًا سواذج، وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخامأحدثه عبد الله بن طاهر»[٣]، كما قام المهدي بتجديد جامع السوق الأعلى بحماة من خَرَاج حمص[٤].

وفي سنة (٢٤٥هـ/٨٥٩م) أعطى المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/٨٤٧ ـ ٨٦١م) ثلاثة آلاف ألف درهم لمن تتضرر من الزلازل[٥]، وتعتبر هذه الزلازل أقوى الزلازل

---

(١) هيام هاشم البدرشيني: الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في منطقة الثغور الإسلامية الجزرية الشامية في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ٤٢.

(٢) محمد حسن شراب: بيت المقدس والمسجد الأقصى، ٣٨٦.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٦٨ ـ ١٦٩ (بتصرف)؛ وشاكر مصطفى: جنوب بلاد الشام في العصر العباسي، ٢٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ١٦٧؛ وعبد الله بن طاهر كان أمير خراسان، وكان إليه الحرب والشرطة، وكان أديبًا شاعرًا، تُوُفِّيَ سنة ٢٣٠هـ. انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥: ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

(٤) ابن الوردي: التاريخ، ١: ١٣٧.

(٥) الطبري: التاريخ، ٥: ٣٢٨؛ وسارة عبد الله الدوسري: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٤٢٢هـ/١٤٢٣هـ، ٢٥٧.

التي ضربت بلاد الشام خلال القرون الثلاثة الأولى ؛ وذلك لاتساع الرقعة التي شملتها وما ترتب عليها من الآثار .

المبحث الثالث

القَحْط وغَلاء الأسعار والمَجاعات

أدرك العرب أهمية الماء في الحياة ، وقالوا : «أطيب الطيب الماء»[1] . ولقد أعطى العرب الماء مكانةً مهمةً وخاصةً ماء السماء ، فتتبَّعوا أخباره وترقبوا قدومه ، لهذا سُمِّيَ العرب بأبناء السماء[2] .

وجاء الإسلام ليقرر هذه الأهمية الكبرى للماء ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [من سورة الأنبياء] .

حرص المسلمون على اللجوء إلى الله تعالى عند القَحط ، وهم في ذلك يقتدون بنبينا محمد ﷺ ؛ فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رجلًا دخل يوم الجمعة من باب كان وُجاهَ المنبر ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا ، فقال : يا رسول الله ، هلكت المواشي ، وانقطعت السبل ، فادْعُ الله يغيثنا . قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ، فقال : «اللهم اسقِنا ، اللهم اسقِنا ، اللهم اسقِنا ... إلخ الحديث»[3] .

---

(١) أبو حاتم السجستاني : المعمرون والوصايا ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ـ دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١م، ١٤٧، من وصية أبي الأسود الدؤلي لابنته ليلة البناء بها .

(٢) صلاح عبد الستار محمد الشهاوي : الماء في التراث العربي الإسلامي ، مجلة الداعي الشهرية ، مجلة إسلامية تصدر باللغة العربية عن الجامعة الإسلامية ، دار العلوم ديوبند ـ الهند ، العدد ١ ـ ٢، محرم ـ صفر ١٤٣١هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٩م ـ يناير ـ فبراير ٢٠١٠م، السنة ٣٤، ٥٧ ـ ٦٢. (بتصرف) .

(٣) البخاري: صحيح البخاري، ١: ٢٥٩، ورقم الحديث ١٠١٤.

وقد كان الخلفاء الراشدون أنموذجًا يُحْتَذَى به في تصرفاتهم وأعمالهم ؛ فقد عَمِلوا على تهيئة ما يمكن للترفق بالمسلمين ، فقد قام ـ على سبيل المثال ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سنة سبع عشرة من الهجرةبوضع ما بين مكة والمدينة مياهًا للسابلة ، واتخذ دارًا بالمدينة فيها الدقيق والسويقللمنقطع والضيف(١) .

وكانت بلاد الشام تفتقر إلى المجاري المائية الدائمة للري ؛ لذا كانت للأمطار أهمية كبيرة في تقرير مصير المواسم الزراعية ، بل إن الأنهار الدائمة مدينة بدوامها ـ بعد فضْل الله ـ لسقوط الثلوج وذوبانها ، كنهر العاصي ، وبردى ، ونهر الأردنّ(٢) .

لهذا فقد اهتم الأمويون بتوفير مصادر المياه ؛ فقد حفر معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ الآبار ، وأقام السدود للانتفاع بالمياه وإنشاء المصانع(٣)على الطرقات(٤) ، ووسّع يزيد بن معاوية نهر بردى للإفادة منه بشكل أفضل(٥) .

كما كان ينفق من بيت المال في العهد الأموي لتحسين وسائل الري والزراعة(٦) ، كما أصلح عبد الملك بن مروان قناة حلب ، وكانت للشرْب فقط(٧) .

---

(١) ابن حبان : السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ، ٤٧٣ ـ ٤٧٤.

(٢) محمد محفل : ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر السوري (العصر الراشدي والأموي) ، المكتب التنفيذي للاتحاد العام للفلاحين ، ٢: ١٥؛ ومحمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ، ٨٦.

(٣) المصانع ، الآبار والأبنية والأحواض تتخذ للماء . ابن منظور : لسان العرب ، ٨: ٢٩٢.

(٤) ثريا حافظ : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، قسم التاريخ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ١٦٩.

(٥) بدران : تهذيب تاريخ دمشق ، ١: ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٦) عبد الله حسين الشنبري : نصارى الشام في ظل الحكم الإسلامي منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية ، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي ، جامعة أم القرى ، ١٤١٦هـ ، ٥٦٨.

(٧) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق يحيى زكريا ، دمشق ـ=

وتذكر رجاء شوعي أن الخلفاء الأمويين خصَّصوا نفقات للنوائب والبوائق التي قد تصيب الأراضي الزراعية، واستَشهدت بجهود الخليفة هشام بن عبد الملك عندما صرف مبلغ مليونَيْ درهم في مصلحة الزراعة قرب النهر في الموصل[١]، وهذا يدل على اهتمامهم واعتمادهم على الزراعة بصفتها موردًا اقتصاديًا رئيسًا لخزينة الدولة في تلك الفترة.

وعلى صعيد المعالجات الرسمية لمواجهة القحْط قرَّر عبد الملك بن مروان وقْف الصوائف والشواتي سنة (٦٨هـ)؛ لأن القحط كانشديدًا بالشام، ونُوقِشَتْ في مجلسه مشكلة انحباس الأمطار والجدب، واقترح عليه الكيميائي خالد بن يزيد بن معاوية تحلية مياه البحر لحل المشكلة، وأجرى أمامه تجرِبة عملية على قلتَيْنِ من ماء البحر[٢].

وقد أرسل إلى روح بن زنباع[٣] قائلًا: «كيف نقول إذا قحطت السماء؟ قال: تقولون: اللهم الذنب الذي حبسْتَ عنا به المطر فإنا نستغفرك منه، فاغفر لنا،

=منشورات وزارة الثقافة ١٩٩١م، ١/ ١: ٣٤٠؛ وانظر: محمد محفل: ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر السوري (العصر الراشدي والأموي)، ٢: ١٦؛ والشنبري: نصارى الشام، ٥٦٩.

(١) رجاء شوعي: الإصلاح النقدي في العصر الأموي وأثره على اقتصاد الدولة وإدارتها، ٧٢.

(٢) ابن منظور: مختصر تاريخ مدينة دمشق، ٨: ٣٧؛ وبدران: تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ٥: ١٢٢ - ١٢٣؛ وهاني أبو الرب: تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، الأردن - منشورات بيت المقدس، ٢٠١؛ وخليل داود: الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني، رسالة ماجستير منشورة، ط ١، بيروت - دار الآفاق الجديدة ١٩٧١م، ١٨٢ - ١٨٣. (لعله يقصد تبخيرها ثم تصفيتها مما يرسب بها من أملاح). انظر: حاشية صفحة ٦٥٨ من رسالة الشنبري: نصارى بلاد الشام.

(٣) روح بن زنباع بن سلامة الجذامي، كان أميرًا على فلسطين، كان يقول عنه عبد الملك بن مروان: جَمَع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز، تُوُفِّيَ سنة (٨٤هـ). انظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق خليل مأمون، بيروت - دار المعرفة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ١: ٦٠٠؛ وابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق أحمد راتب ومحمد ناجي، دمشق - دار الفكر ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ٨: ٣٤١.

واسقنا الغيث ... ثلاث مرات»[١] . كذلك أمر الوليد بن عبد الملك عُمَّاله بتسهيل الثنايا[٢]وحفر الآبار[٣] ، كما قام سليمان بن عبد الملك بحفْر قنوات وآبار لأهل الرمل[٤] .

ويذكر البلاذري : «أن عمر بن عبد العزيز لمَّا شخص إلى المصيصة بَنَى لأهلها جامعًا من ناحية كفربّيا[٥] ، واتخذ بها صهريجًا[٦] ، وكان اسمه مكتوبًا عليه»[٧] .

كما حفر الوليد بن يزيد نهر الأردنّ[٨] ، واتَّخذ هشام بن عبد الملك القنوات والبِرَك[٩] ، وأمر بحفرنهيرات صغيرة في دمشق وبكري[١٠] ، وترع[١١] دمشق

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق عمر العمري ، ـ دار الفكر ، ١٨: ٢٤٨؛ وابن أبي الدنيا : المطر والرعد والبرق والريح ، بيروت ـ المكتبة العصرية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ، ٧٢.

(٢) الثنية : الطريق في الجبل ، وقيل : هي العقبة ، وقيل : هي الجبل نفسه . ابن منظور : لسان العرب ، ٣: ٤٩.

(٣) ثريا حافظ : المصدر السابق ، ١٧٠.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ١٤٩؛ ابن الفقيه : كتاب البلدان ، ليدن ـ مطبعة بريل ، ١٣٠٢هـ ، ١٠٢.

(٥) كفربيا : مدينة بإزاء المصيصة على شاطئ جيحان ، كانت مدينة كبيرة ذات أسواق كثيرة وسور مُحْكَم ، كانت قد خَرِبَتْ قديمًا ثم جدَّد بناءها الرشيد . الحموي : معجم البلدان ، ٧: ١٤٣.

(٦) الصهريج : واحد الصهاريج ، وهي كالحياظ ، مكان يجتمع فيه الماء . ابن منظور : لسان العرب ، ٨: ٢٩٨.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ، ١٧٠؛ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ١٤٦؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ١٧٩.

(٨) الطبري : التاريخ ، ٤: ٢٤٤.

(٩) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ـ مؤسسة الأعلمي ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ، ٣: ٢٢٨.

(١٠) كري : حفر. ابن منظور : لسان العرب ، ١٣: ٥٩.

(١١) ترع : الترعة : فم الجدول ينفجر من النهر. لسان العرب ، ٢: ٢٢٢.

لشكوى الناس من قلة الماء[١].

وقد كان الوقف الإسلامي بنوعَيْه الخاص والرسمي[٢] حاضرًا في معالجة الكوارث بنحو وقائي؛ فقد أُوقفت الأراضي والدُّور والحوانيت، وغيرها، لأغراضٍ دينيةٍ وإنسانيةٍ، وللفقراء والمعوزين، والخدمات العامة[٣]، ومِن ذلك ما قام به مسلمة بن عبد الملك حيث أوقف أرضًا ببغراس[٤] في سبيل البر[٥].

كما أجرى المأمون قناة من نهر منين[٦] من جبل قَاسَيُون إلى معسكره بدير مُرّان[٧] [٨].

كما اهتم الخلفاء بالأسعار؛ فقد ذكر أبو يوسف أن رجلًا قال لعمر بن

---

(١) ثريا حافظ: المرجع السابق، ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) الأوقاف الخاصة هي التي يوقفها بعض الناس، والأوقاف الرسمية ما يوقفها الخليفة لمصالح الناس. محمد زيود: حالة بلاد الشام الاقتصادية، ٩٤.

(٣) انظر: محمد زيود: المرجه السابق، ٩٤ - ٩٥.

(٤) بغراس: مدينة على يمين مَن يقصد أنطاكية من حلب. قال الحموي: «كانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك، ووقفها على سبيل البرّ، وكانت بيد الإفرنج، وكانت من حصونهم القوية، فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٨٤هـ». ينظر البلاذري: فتوح البلدان، ١٦٤؛ ياقوت: معجم البلدان، ٢: ٣٦٨. مراصد الاطلاع، ٢٠٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ١٥٣.

(٦) بالفتح، ثم الكسر، ثم ياء ساكنة، ونون أخرى؛ هو نهر موجود في قرية في جبل سنير من أعمال الشام. ينظر: تاريخ دمشق، ٢: ٣٩١، ومعجم البلدان، ٥: ٢١٨، ومراصد الاطلاع، ٣: ١٣٢٧.

(٧) قلعة بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة، وبناؤه بالجصّ وأكثر فرشه بالبلاط الملون، وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة، وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني، والأشجار محيطة به، نزله الرشيد ونزله المأمون بعده. ينظر: أبو سعد السمعاني: فضائل الشام، تحقيق عمرو علي عمر، - دار الثقافة العربية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ٦١. وياقوت: معجم البلدان، ٢: ٥٣٣، ومراصد الاطلاع، ٢: ٥٧٥.

(٨) بدران: تهذيب تاريخ دمشق، ١: ٢٥٢.

عبد العزيز: ما بال الأسعار عالية في زمانك وكانت في زمان الذي قبلك رخيصة؟... إلخ القصة[١].

كما خصَّص الخلفاء أوقاتًا للنظر في حوائج الرَّعِيَّة؛ فكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ يأمر غلامه أن يضع له كرسيًا في المسجد، ويسند ظهره إلى المقصورة، ويقوم إليه الناس فينظر في أمرهم[٢].

كما أفرد عبد الملك بن مروان يومًا للمظالم[٣]، و«كان لهشام بن عبد الملك موضع بالرصافة يبرز فيه، فتُضْرَب له به السرادقات؛ فيكون فيه ستين ليلة بارزًا للناس، مباحًا للخَلْق، لا يُفْنِي أيامه تلك إلا بردِّ المظالم والأَخْذ على يد الظالم من جميع الناس وأطراف البلاد»[٤].

وَبَرَزَ بعضهم في هذا الجانب بشكلٍ واضحٍ؛ ومن ذلك الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، تقول زوجته فاطمة: «دخلت عليه وهو في مصلَّاه ودموعُه تجري على لِحْيته، فقلتُ: أحَدَثَ شيءٌ؟ فقال: إني تقلَّدْتُ أمْرَ أمَّة محمد ﷺ، فتفكَّرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والغازي، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض؛ فعلِمْتُ أن ربي سيسألنيعنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ؛

---

(١) أبو يوسف: الخراج، القاهرة ـ المطبعة السلفية ١٣٩٢هـ، ١٤؛ وانظر: عصام الدين عبد الرءوف الفقي: الحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في مدينة دمشق من الفتح العربي إلى نهاية العهد الأموي، رسالة ماجستير، مقدَّمة لكلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ٧٣.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ٣: ٤٠. ونجدت خماش: الشام في صدر الإسلام، ٢٢٧.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق سمير مصطفى رباب، بيروت ـ المكتبة العصرية ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٩٥. ونجدت خماش: الشام في صدر الإسلام، ٢٢٧.

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ٢: ٢٢٧، تحقيق طه محمد الزيني، بيروت ـ دار المعرفة، ١٠٧. ونجدت خماش: المرجع السابق.

فخشيت ألا تثبت لي حجتي عند الخصومة، فرحمت نفسي فبكيت»[١].

وقد حرص خلفاء بني أمية على إخراج العطايا والأرزاق في وقتها؛ لما يترتب على حبس العطاء من الإضرار بمصالح الرعية، وتعرُّضهم للحاجة والعوز في وقت تصْعُبُ فيه المعيشة، وتقل فيه الأموال، وفي ذلك يقول معاوية ـ رضي الله عنه ـ: «ولا يصلح الناس إلا ثلاث: وذكر منها: إخراج العطاء عند محلِّهِ»[٢].

كما واصل جماعة من خلفاء بني العباس النظر في المظالم؛ فكان أول من جلس لها المهدي، ثم الهادي، ثم الرشيد، ثم المأمون، وآخر من جلس لها المهتدي[٣].

وكان أبو جعفر المنصور يأمر ولاة البريد في جميع الأقاليم أن يكتبوا إليه بأسعار المواد الغذائية، فإذا وجد تغيرًا في الأسعار كتب إلى ولاة الأقاليم متحريًا السببفي تغير الأسعار[٤].

ولم يقتصر هذا الاهتمام فقط على الخلفاء؛ بل إن بعض نساء البيت العباسي كان لهن دور في هذا المجال، فأمُّ جعفر بنت أبي جعفر المنصور[٥] أنفقت أموالًا كبيرةً في إقامة المباني العامة والخيرية في مناطق الثغور، بلغت قيمتها مئة ألف

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤: ٢٨٦. وانظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٥: ٥٧٩؛ وابن كثير: البداية والنهاية، ٩: ٢٠٨.

(٢) عبد الرحمن بن رجاء الله الجامعي السلمي: خطب خلفاء بني أمية وأمرائهم، رسالة دكتوراه، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، قسم الأدب والبلاغة، ١٤٢٧ ـ ١٤٢٨هـ، ٧٣ ـ ٩٢.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ٩٥.

(٤) الطبري: التاريخ، ٤: ٥٣٦.

(٥) زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسية الهاشمية القرشية، كانت أحب الناس إلى الرشيد، لُقِّبَتْ بزبيدة لأن جدها أبا جعفر كان يلاعبها ويرقصها وهي صغيرة، ويقول: «إنما أنت زبيدة» لبياضها، اشتُهرت بالصدقة والبر؛ ابن كثير: البداية النهاية، ١٠: ٢٩٤.

دينار[١] ، كما أقامت دار ضيافة دائمة ببغراس ، وأوقفت عليها الأوقاف[٢] ، وكان في حَبْرَى[٣] قرية إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ضيافة دائمة[٤] .

كذلك حرصت الدولة الإسلامية في العصر الأموي والعباسي على الاحتفاظ أحيانًا بعلاقات تجارية جيدة مع الدولة البيزنطية ؛ وهذا لا شك أسهم في مواجهة ظروف القحط والمجاعات[٥] .

واهتم الخلفاء بالتنظيمات المالية ، ووضعوا دواوين عِدَّة لهذا الغرض ، وحددوا مصارف أموال بيت المال بكل دقة ، وخصصوا جزءًا منه لمساعدة الفقراء[٦] .

واهتموا بتفعيل نظام الحسبة ، ومراقبة الأسواق ، ومنع الاحتكار ، في تنظيم إسلامي أصيل ، كما كانوا يتابعون تغيُّرات الأسعار[٧] ، ومن ذلك أن الوليد بن

---

(١) هيام هاشم البدر شيني : الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في منطقة الثغور الإسلامية ، ٤٢.

(٢) الإصطخري : مسالك الممالك ، ليدن ـ مطبعة بريل ١٩٣٧م ، ٦٥؛ وابن حوقل : صورة الأرض ، ليدن ـ مطبعة بريل ١٩٣٨م ، ١٨٤؛ وسارة الدوسري : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر العباسي ، ٢٥٧.

(٣) ويقال لها : حبرون ، بالفتح ثم السكون ، وضم الراء ، وسكون الواو ، ونون . وهياسم القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام بالبيت المقدس ، وقد غلب على اسمها الخليل . ينظر ياقوت : معجم البلدان ، ٢: ٢١٢، ومراصد الاطلاع ، ١: ٣٧٦.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ١٧٣.

(٥) عاطف رحال : تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، بيروت ـ بيسان للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م ، ١٨٧ ـ ٢٠٩؛ وأحمد إسماعيل : تاريخ بلاد الشام ، ٣٣٠.

(٦) الماوردي : الأحكام السلطانية ، فصل في الصدقات لمستحقيها ، ١٤٣ ـ ١٤٦. وانظر : نجدت خماش : الشام في صدر الإسلام ، ٣١٣ ـ ٣١٨.

(٧) الماوردي : الأحكام السلطانية ، فصل في المعاملات المنكرة ، ٢٧٣، ٢٧٤. وانظر : رجاء بنت شوعي محمد بن حسين : الإصلاح النقدي في العصر الأموي وأثره على اقتصاد الدولة وإدارتها (٤١ ـ ١٣٢هـ) ، رسالة ماجستير بجامعة الملك عبد العزيز ـ قسم التاريخ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م ، ٩٦.

عبد الملك كان يمر بالأسواق يُساوِم ويناقش في الأسعار مع البقالين وغيرهم[١]، وتدخَّل الخليفة هشام بن عبد الملك في تسعير بعض المواد الضرورية، كما كانت الدولة الأموية تدفع للتجار مالًا وقت الغلاء ثم ترجعه منهم وقت الرخص[٢].

وعندما وقع الحريق سنة (٢٦٤هـ) دخل أحمد بن طولون دمشق، وأمر بسبعين ألف دينار تخرج من ماله وتُعطَى كل من احترق له شيء[٣]، ثم أمر بمال عظيم يُفَرَّق على فقراء دمشق[٤].

ويذكر ابن الأثير أن أمور دمشق السياسية سنة (٢٩٠هـ) كانت مضطربة؛ نتيجة تَسَلُّط القَرَامِطَة[٥]، ولم يُفَكّ الحصار إلا بنجدات طولونية قَدِمَتْ مِن مصر[٦].

---

(١) رشاد عباس معتوق: نظام الحسبة في العراق حتى عصر المأمون، رسالة ماجستير في الحضارة، جامعة أم القرى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٤٩.

(٢) رجاء شوعي: الإصلاح النقدي في العصر الأموي وأثره على اقتصاد الدولة، ٩٧.

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٧١: ٢١٨. والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٠: ٤٨٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ١١: ٥٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٦: ١٨٩ (بتصرف)؛ ومحمد أحمد زيود: حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي، ٢١.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٦: ١٩١.

الخاتمة والنتائج

كانت هذه محاولة لدراسة جزء يكتنفه الغموض من تاريخنا الإسلامي، في جانب جهود الدولة الإسلامية بمراحلها السياسية المتنوعة في القرون الثلاثة الأولى، في مواجهة الكوارث بأنواعها المختلفة.

أهم النتائج ما يلي

- قدَّم الإسلام سُبُلَ الوقاية من الوقوع في الكوارث ومسبباتها.
- أظهر الخلفاء الأمويون جهودًا واضحة في الاهتمام بالطب والعناية بالمرضى.
- طغى التفسير الديني على الناس عمومًا عند حدوث الزلازل، وكانت دافعًا للمسلمين لمحاسبة النَّفْس والتوبة إلى الله.
- اهتم الخلفاء بتوفير مصادر المياه والعناية بها ورعايتها ومراعاة أحوال الناس عند حدوث القَحْط.
- كان الوَقْفُ الإسلامي بنوعَيْهِ حاضرًا في معالجة بعض الكوارث كالقحط والمجاعات.
- كانت الأحوال الاقتصادية في بلاد الشام جيدة خاصة في القرن الأول إلى منتصف القرن الثاني، إبان العصر الأموي.
- ساعدت حركة الفتوحات الإسلامية سكان بلاد الشام على مواجهة الكوارث، أو على أقل الأحوال التخفيف من آثارها.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

ابن الأثير محمد بن أبي الكرم : الكامل في التاريخ ، ط ٢، تحقيق خليل مأمون ، بيروت ـ دار المعرفة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .

أحمد بن حنبل : المسند ، ط ١، حققه السيد أبو المعاطي النوري وزملاؤه ، بيروت ـ عالم الكتب ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

أحمد بن عبد ربه الأندلسي : العقد الفريد ، ط ١، صيدا ـ المكتبة العصرية ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ط ١٠، تحقيق رشدي الصالح ، مكة المكرمة ـ مكتبة الثقافة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

الإصطخري إبراهيم بن محمد : مسالك الممالك ، ليدن ـ مطبعة بريل ١٩٣٧م .

الأصفهاني أحمد بن محمد : الأزمنة والأمكنة ، ط ١، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

ابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتعليق نزار رضا ، بيروت ـ دار مكتبة الحياة ١٩٦٥م .

البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل : صحيح البخاري ، القاهرة ـ دار الفجر ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

البلاذري أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

البلاذري : أنساب الأشراف ، ط ١، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي ، بيروت ـ دار الفكر ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ط ١، تحقيق محمد عبد القادر ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

الجوهري إسماعيل بن حماد : معجم الصحاح ، ط ٢، بيروت ـ دار المعرفة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .

أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد : المعمرون والوصايا ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ـ دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٦١م .

ابن حبان محمد بن أحمد البستي : السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ، ط ٢، صححه وعلق عليه السيد عزيز بك ، ـ مؤسسة الكتب الثقافية ١٤١١هـ/١٩٩١م .

ابن حجر أحمد العسقلاني : بذل الماعون في فضل الطاعون ، ط ١، الرياض ـ دار العاصمة ١٤١١هـ .
ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تميز الصحابة ، ط ١، تحقيق خليل مأمون ، بيروت ـ دار المعرفة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .
ابن حوقل أبو القاسم بن حوقل : صورة الأرض ، ط ٢، ليدن ـ مطبعة بريل ١٩٣٨م .
خليفة بن خياط : تاريخه ، ط ١، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .
ابن دقماق إبراهيم بن محمد : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق سعيد عاشور وأحمد الدراج ، مكة المكرمة ـ مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م .
ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد : المطر والرعد والبرق والريح ، ط ١، بيروت ـ المكتبة العصرية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .
الذهبي محمد بن أحمد : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ط ١، تحقيق بشار عواد ، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٣م .
الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق خيري سعيد ، القاهرة ـ المكتبة التوفيقية .
ابن سعد محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ، ط ١، أعد فهارسها رياض عبد الله ، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .
ابن الشحنة محمد بن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، دمشق ـ دار الكتاب العربي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
ابن شداد محمد بن علي : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق يحيى زكريا ، دمشق ـ منشورات وزارة الثقافة ١٩٩١م .
شيخ الربوة الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بطربورغ ـ مطابع الأكاديمية الإمبراطورية ١٣٨١هـ/١٨٦٥م .
الطبري محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، ط ١، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
ابن عبد الحكم عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه ، ط ٦، تصحيح وتعليق أحمد عبيد ، بيروت ـ عالم الكتب ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ط ٣، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .
عبد الرحمن سنبط الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، تصحيح وتعليق مكي السيد جاسم ، بغداد ـ مكتبة المثنى .

عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، ط ٣، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ابن العبري جمال الدين غريغوريوس : تاريخ مختصر الدول ، ط ١، القاهرة ـ دار الآفاق ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

أبو عبيد القاسم بن سلام الأزدي : الأموال ، ط ١، تحقيق مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ـ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨١م.

ابن عساكر علي بن الحسن : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق عمر العمري ، دار الفكر.

عصام الدين عبد الرءوف الفقي : الحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في مدينة دمشق من الفتح العربي إلى نهاية العهد الأموي ، رسالة ماجستير ، مقدمة لكلية الآداب بجامعة القاهرة.

ابن الفقيه الهمذاني : كتاب البلدان ، ليدن ـ مطبعة بريل ١٣٠٢ه.

ابن قتيبة عبد الله بن مسلم : الإمامة والسياسة ، تحقيق طه محمد الزيني ، بيروت ـ دار المعرفة.

القرماني أحمد بن يوسف : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، ط ١، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد ، بيروت ـ عالم الكتب ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

القزويني زكريا بن محمد : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ـ دار صادر.

القلقشندي أحمد بن علي : مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد ، بيروت ـ عالم الكتب.

ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ط ٤، حقق نصوصه شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

ابن قيم الجوزية : الداء والدواء، ط ٣، تحقيق علي بن حسن الحلبي ، الدمام ـ دار ابن الجوزي ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير) : تفسير القرآن العظيم ، ط ١٠، بيروت ـ دار المعرفة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

ابن كثير : البداية والنهاية ، ط ١، تحقيق أحمد عبد الوهاب ، مكة المكرمة ـ المكتبة التجارية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

الماوردي علي بن محمد : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط ١، تحقيق سمير مصطفى رباب ، بيروت ـ المكتبة العصرية ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

المسعودي علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ١، بيروت ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم ، ط ١، بيروت ـ عالم الكتب ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .
المقدسي محمد أبو عبد الله : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، بيروت ـ دار صادرمن طبعة بريل ١٩٠٩م .
ابن منظور جمال الدين محمد : لسان العرب ، ط ٦، بيروت ـ دار صادر ٢٠٠٨م .
ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ط ١، تحقيق أحمد راتب ومحمد ناجي ، دمشق ـ دار الفكر ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
مؤلف مجهول : العيون والحدائق في إخبار الحقائق من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم ، بغداد ـ مكتبة المثنى .
موقع الشيخ يوسف القرضاوي على الشبكة الإلكترونية : http://www.qaradawi.net، من كتاب : فتاوى معاصرة ـ الجزء الأول ، الخميس ٥/٧/٢٠٠١م .
ناصر خسرو : سفر نامه ، ط ٢، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ـ دار الكتاب الجديد ١٩٧٠م .
ابن النديم محمد بن إسحاق : الفهرست ، ط ٢، تعليق إبراهيم رمضان ، بيروت ـ دار المعرفة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .
ابن الوردي عمر بن المظفر : تاريخه المسمى تتمة المختصر في تاريخ البشر ، ط ١، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .
ياقوت الحموي : معجم البلدان ، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي .
أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم : كتاب الخراج ، ط ٤، القاهرة ـ المطبعة السلفية ١٣٩٢هـ .

ثانيا : المراجع الحديثة

أحمد إسماعيل علي : تاريخ بلاد الشام منذ قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي ، ط ٣، دمشق ـ دار دمشق ١٩٩٤م .
أحمد عبد الرزاق أحمد : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ط ٢، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .
أ. س. ترتون : أهل الذمة في الإسلام ، ط ٢، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٧م .
الألباني محمد بن ناصر : إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، ط ١، بيروت ـ المكتب الإسلامي ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
سوسن سالم الشيخ : إدارة ومعالجة الأزمات في الإسلام ، ط ١، القاهرة ـ دار النشر للجامعات ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

شفيق جاسر : تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين منذ فجر التاريخ حتى الحروب الصليبية ، ط ١، عمان ـ دار البشير ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
صلاح طهبوب : موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر الأموي) ، ط ١، عمّان ـ دار أسامة ٢٠٠٤م .
عاطف رحال : تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، ط ١، بيروت ـ بيسان للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م .
عبد الرزاق الكيلاني : الحقائق الطبية في الإسلام ، ط ١، دمشق ـ دار القلم ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .
عبد الله كامل موسى عبده : الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وإفريقية ، ط ١، القاهرة ـ دار الآفاق العربية ١٤٢٠هـ/٢٠٠٣م .
عبد علي ياسين : تاريخ صدر الإسلام من البعثة النبوية وحتى نهاية الدولة الأموية ، عمّان ـ دار يافا العلمية ٢٠٠٣م .
عبد عون الرطنان : موسوعة تاريخ العرب ، ط ١، عمّان ـ الأهلية ٢٠٠٤م .
فؤاد سلامة جميعان : مآثر العرب العلمية أساس حضارة الغرب ، ط ١، بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠١م .
فيليب حتّي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، بيروت ـ دار الثقافة ١٩٥٩م .
محمد أحمد باشميل : حروب الإسلام في الشام ، ط ١، ـ دار الفكر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
محمد أحمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي ، دار الفكر .
محمد حسن شراب : بيت المقدس والمسجد الأقصى ، ط ١، دمشق ـ دار القلم ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .
محمد خوام ورفاقه محمد عفت وحسن إبراهيم : تاريخ العلاج والدواء في العصور القديمة (العصر الإسلامي ـ عصر النهضة في أوروبا) ، الرياض ـ دار المريخ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
محمد محفل : ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر السوري (العصر الراشدي والأموي) ، المكتب التنفيذي للاتحاد العام للفلاحين .
مصطفى شاكر : جنوب بلاد الشام في العصر العباسي ١٣٢ ـ ٣٥٨هـ ، عمّان ـ منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام ١٩٩٢م .
نجدت خماش : الشام في صدر الإسلام ، ط ١، سوريا ـ دار طلاس للدراسات والترجمة ١٩٨٧م .
هاني أبو الرب : تاريخ فلسطين في صدر الإسلام ، ط ١، الأردن ـ منشورات بيت المقدس ٢٠٠٢م .

ثالثًا : الأبحاث والرسائل العلمية

ابتسام أكرم مندورة : أوضاع الدولة العباسية وعلاقاتها خلال فترة حكم الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ) ، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى ، قسم التاريخ ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

ثريا حافظ عرفة : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، قسم التاريخ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

خليل داود الزور : الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني ، رسالة ماجستير منشورة ، ط ١ ، بيروت - دار الآفاق الجديدة ١٩٧١م .

رجاء بنت شوعي محمد بن حسين : الإصلاح النقدي في العصر الأموي وأثره على اقتصاد الدولة وإدارتها (٤١ - ١٣٢هـ) ، رسالة ماجستير بجامعة الملك عبد العزيز ، قسم التاريخ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .

رشاد عباس معتوق : نظام الحسبة في العراق حتى عصر المأمون ، رسالة ماجستير في الحضارة ، جامعة أم القرى ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

سارة عبد الله الدوسري : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر العباسي ، رسالة ماجستير ، جامعة الملك سعود ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ١٤٢٢هـ .

صلاح التيجاني : معالجة الخليفة عمر بن الخطاب لمشكلة المجاعة في عام الرمادة ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، الاقتصاد الإسلامي ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز .

صلاح عبد الستار محمد الشهاوي : الماء في التراث العربي الإسلامي ، مجلة الداعي الشهرية ، مجلة إسلامية تصدر باللغة العربية عن الجامعة الإسلامية ، دار العلوم ديوبند - الهند ، العدد (١ ، ٢) ، محرم ، صفر ، ١٤٣١هـ ، ديسمبر ٢٠٠٩م ، يناير ، فبراير ، ٢٠١٠، السنة ٣٤.

عبد الرحمن بن رجاء الله الجامعي السلمي : خطب خلفاء بني أمية وأمرائهم ، رسالة دكتوراه ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، قسم الأدب والبلاغة ، ١٤٢٧ - ١٤٢٨هـ .

عبد الله حسين الشنبري : نصارى الشام في ظل الحكم الإسلامي منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية ، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي ، جامعة أم القرى ، ١٤١٦هـ .

ناصر محمد علي الحازمي : الحركة العلمية الطبية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ٤٩٢ - ٦٩٠هـ ، رسالة دكتوراه في الحضارة والنظم الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

هيام هاشم البدر شيني : الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في منطقة الثغور الإسلامية الجزرية الشامية في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي ، رسالة ماجستير في التاريخ ، جامعة الملك عبد العزيز ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ١٣٩ - ١٩٦

الْعَوَامُ والسُّلْطَةُ الْحَاكِمَةُ فِي مِصْرَ فِي عَصْرِ دَوْلَةِ الْمَمَالِيكِ الْجَرَاكِسَةِ (٧٨٤ - ٩٢٢هـ/١٣٨٢ - ١٥١٧م)

إيمان مصطفى عبد العظيم(*)

«إنَّ الرَّعِيَّة إذا قَدَرَت على أنْ تَقُول قَدَرَت على أنْ تفْعَل»(**)

المقـــدمة

عاشت مصر في العصر المملوكي - بوجه عام - فترة من أغنى فتراتها التاريخية وأزهاها ؛ فقد حظيت فيه بمكانة رفيعة حضاريًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ، **فمن الناحية الحضارية** غدت الديار المصرية - و«القاهرة» تحديدًا - «قِبْلَة العِلْم والعُلَماء» لكل شعوب المنطقة العربية والإسلامية ، **ومن الناحية السياسية** عاشت مصر طوال فترةٍ تقرب من ثلاثة قرون من الزمان حالةً من الاستقرار السياسي ، هي فترة الحكم المملوكي إلى حد بعيد دولة مستقلة ، نعم يحكمها «الغرباء» لكنها مستقلة ، بل زعيمة سياسية في المنطقة العربية والإسلامية .

ومن الناحية الاقتصادية حظيت مصر بثراء عظيم ، ورخاء اقتصادي كبير ، على

(*) مدرس التاريخ الإسلامي - كلية التربية - جامعة عين شمس .

(**) من أقوال أرسطوطاليس ، الفيلسوف الشهير ، إلى «تلميذه» الإسكندر المقدوني .

مدى فترات طويلة ، فالعصر المملوكي عصر الثروة والرخاء ، ورواج التجارة ، بعد أن غَدَتْ دولة المماليك قِبْلَة التجارة العالمية ، والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق والغرب . ومن **الناحية الاجتماعية** عاشت مصر في جو من الطبقية الاجتماعية ، نعم لكنها طبقية متميزةومختلفة ، فالمجتمع طبقتان متمايزتان ؛ **الأولى : هي الحاكمة** وتتمثل في المماليك «سلاطين وأمراء وجندًا» ، **ورجال الدين المسلمين** وأرباب الأقلام من الكُتَّاب والقضاة والخطباء والوعاظ والمفتين والتجار والمعلمين ، وأخيرًا **أهل الذمة** من النصارى واليهود .

والأخرى محكومة ، وتضم باقي أفراد الشعب المصري من : العمال وذوي الصناعات والحرف ، والفلاحين ، والعربان ، والأقليات الأجنبية ، وأخيرًا **العامة** وهم : الحرافيش والزعر **والعوام** أو المشاعلية[١] .

وهكذا ، من خلال العرض السابق لفئات طبقات المجتمع المصري ، مثَّلَت العامَّة بكل فئاتها الغالبية العظمى من أهل **هذه الطبقة المحكومة** ، وكانت لها علاقة خاصة بالسلطة الحاكمة ، علاقة شد وجذب ، علاقة إن دلَّت على شيء فإنما تدل على نمط خاص متميز للعلاقة بين الدولة والرَّعِيَّة ، أو فلنقل بين «السلطة الحاكمة» و«الشعب المحكوم» ، فعلى الرغم من هذه الأهمية لـ«طبقة العامة» حيث مثَّلت «قوام القوى المنتجة» في المجتمع ، فإنها لم تلقَ الاهتمام الكافي في كتابات المؤرخين المعاصرة ، حيث اهتمت معظم هذه المصادر العربية بالتأريخ للطبقة الحاكمة ، ورصد أخبار أعيانها[٢] بدرجة تفُوق غيرها من طبقات المجتمع ، دون التعرض ـ إلا

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ـ الأنجلو المصرية ١٩٦٢م ، ١١.

(٢) نذكر من هذه المصادر التاريخية في العصر المملوكي على سبيل المثال : وفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١هـ/١٢٨٢م) ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (٨٤٥هـ/١٤٤١م) ، وعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي=

في القليل ـ لفئة العوام تصريحًا أو تلميحًا ، كذلكلم يهتم الكثيرون من الباحثين «المحدثين» ـ اللهم إلا في دراسة أو اثنتين[1] ـ بأخبار العامة .

لذلك ، أسعى من خلال هذه الدراسة إلى معالجة أمر هذه العلاقة الخاصة المتميزة بين هذين الطرفين «السلطة الحاكمة والعوام» ، فهذا النوع من الدراسات أمر ضروري ومطلب أساسي لتوضيح السياسة التي تعاملت بها السلطة الحاكمة مع هذا القطاع العريض من الشعب المصري خلال تلك الفترة المتميزة ، مع ضرورة إيضاح سمات هذه العلاقة وخصائصها ، وأشكالها الإيجابية والسلبية ، ومظاهر التعاون بينهما إن وُجِدَت ، على الرغم من نُدْرة المادة العلمية ، وتناثُر الموجود منها في بطون المصادر التاريخية المختلفة ، **وذلك من خلال طرْح عدة محاور أساسية ، وعناصر رئيسية هي :**

ـ العامّة بين مصطلح اللغة والمفهوم التاريخي .

ـ مصر والسلطة الحاكمة قبل عصر سلاطين المماليك .

ـ العوام والسلطة الحاكمة في مصر زمن سلاطين المماليك البحرية .

ـ العوام والسلطة الحاكمة «في عصر دولة المماليك الجراكسة» .

ـ مظاهر الإيجاب والسلب في علاقة العوام بالسلطة الحاكمة الجركسية .

ـ دوافع رفض العوام واحتجاجاتهم .

ـ سياسة «الدولة» نحو العوام في الإيجاب والسلب .

=(٨٧٢هـ/١٤٦٧م) ، ونزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان للصيرفي (٩٠٠هـ/١٤٩٤م) ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي (٩١١هـ/١٥٠٥م) .

(١) نذكر من هذه الدراسات البحثية الحديثة : د.حياة ناصر الحجي : أحوال العامة في حكم المماليك «٦٧٨ ـ ٧٨٤هـ» ، الكويت ـ شركة كاظمة ١٩٨٤م ؛ محاسن محمد الوقاد : الطبقات الدنيا في القاهرة في عصر المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ١٩٩١م .

ـ الآثار المترتبة على العلاقة بين العوام والسلطة الحاكمة .

وبعد تقديم هذه المعالجة والدراسة ، عمدت إلى عرض لأهمالنتائج التي توصلتُ إليها في هذا البحث ، بحيث ذيَّلْتُ بها خاتمة البحث ، راجيةً من الله تعالى السداد والتوفيق ، آملة في مزيد من الأبحاث التاريخية المتميزة حول العصر المملوكي ، خاصةً العصر الجركسي .

مفهوم العامّة في اللغة

عالجَتْ بعض المعاجم اللُّغوية مفهوم العامة ، فذكرَتْ أن «العامة من الناس خلاف الخاصة» ، والجمع منها «العمم» و«العوام»[1] .

وقال البعض إنَّما سُمِّيت بـ«العمم» لكثرتهم وعموميتهم في البلاد[2] ، لذلك أُطلِق اسم العامة على الجموع الغفيرة من الناس، لأنهم كثيرون لا يحيط بهم البَصَرُ، وهذه الكثرة كانت سببًا في وصفهم بالدهماء[3] ، والغَوْغَاء[4] .

ومِن معاني العامة أيضًا : السوقة[5] ، ولا نقصد بها أهل الأسواق من الناس ، إنما

(١) ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (٧١١هـ/١٣١١م)) : لسان العرب ، القاهرة ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د.ت ، مادة (ع ـ م ـ م) . المعجم الوسيط ، القاهرة ـ دار المعارف ، د.ت ، مادة (عمم) . المعجم الوجيز، القاهرة ـ وزارة التربية والتعليم ، د.ت ، ٤٣٥.

(٢) الزبيدي (محمد مرتضى) : تاج العروس من جواهر القاموس ، بيروت ـ دار مكتبة الحياة ، د.ت ، مادة (عمم) .

(٣) الدهماء من «دهم» ، ومعناه الجماعة الكثيرة . ابن منظور: لسان العرب ، مادة «ده م» .

(٤) الغوغاء ، والغاغة من الناس هم الكثير المختلطون . نفسه ، مادة (غ ـ و ـ ى) .

(٥) الشيزري (عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر (٥٨٩هـ/١١٩٣م)) : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العريني ، القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦م، ١١.

هم السوقة لأن الملوك يسُوقُونهم إلى إرادتهم ، والسوقة من الناس مَن لم يكن ذا سلطانٍ(١) .

العامة والمفهوم الاصطلاحي

بدايةً لابد أن نشير إلى أن لفظ العامة استُخدِم للدلالة على المستويات الدنيا في كل جوانب الحياة المختلفة ، وندلِّل على ذلك فنجد ما يلي :

على المستوى السياسي «العامة» لا تملك سلطةً ، ولا يصلح أحد أفرادها أن يكون من زُمْرة الحكام ـ كما يرى البعض(٢) ـ ورَفْعُ واحدٍ من «السفلة» أشدُّ على الناس من موْت ألف من علْيَة القوم(٣) ، **وعلى المستوى الاقتصادي** نجدهم أقل الناس موردًا وأضعفهم دخلًا(٤) .

وعلى المستوى الثقافي وُصِفَت العامة بقُصُور العقل والجهل(٥) ، حتى قِيل إن إجماع العامة على أمر لا يدل على قُرْبه من الصواب ، مما جعَلَ البعض يصفهم بالسقاط أي ناقصي العقل(٦) .

وعلى المستوى الديني وُصِف أهل العامة بالغفلة عن أسرار الشَّرْع(٧) ، **فهم** «قليلو

(١) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (س وق) .

(٢) النابلسي (فخر الدين عثمان بن إبراهيم (ق ٧هـ/١٣م)) : لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ، القاهرة ـ مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت ، ٢١.

(٣) نفسه ٣٤.

(٤) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م)) : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م ، ٧٢ ـ ٧٣.

(٥) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ/١٢٨٢م)) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ـ دار الثقافة ، د.ت ، ٣: ١٨٣.

(٦) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (س ق ط) .

(٧) برنارد لويس : النقابات الإسلامية ، مجلة الرسالة ، العدد ٣٥٥، القاهرة ، ١٩٤٠م، ٦٩٨.

المعرفة في شئون الدِّين»، فعلى سبيل المثال، العامَّة لدى الصوفية هم المستجدون في الطريق الصوفي، غير الواصلين إلى الله تعالى، وهم الذين لا يُقْدِمون على معصيته خوفًا من التعرض لعقوبته[١]، في حين أن الخاصة عندهم هم «الذين يطيعون الله حبًا فيه لا خوفًا من عقابه»[٢]، ويقسِّم المذهب الإسماعيلي أتباعَه إلى سبع درجات، يحتل العامة أدناها[٣]، كما يُطلِق اليهود على الجاهلين بأصول دِينهم «عوام الأرض»[٤].

وللباحثين المحدثين **رؤى خاصة في تعريف** «العامة»، تختلف باختلاف نظرتهم للتقسيم الطبقي للمجتمع، والعوامل المؤثرة فيه، **فيعرِّف أحدهم العامة بقوله**: «أصحاب الأعمال الحرة على اختلاف أنواعها، الذين لا ينخرطون في سلك أرباب الوظائف في الدولة، وليس لهم دخل اقتصادي ثابت يحصلون عليه من نتاج أعمالهم»[٥].

ويعرِّف آخر العامة فيقول: «سواد الناس الذين لم يكونوا يتمتعون بأي سلطة، والذين كانوا يعملون في شتى حقول الكَسْب، وأنهم يعيشون في عالم خاص له أبعاده الفكرية والدينية التي تتدنَّى عن مستوى عالم الخاصة»[٦].

---

(١) ابن عطاء الله السكندري «تاج الدين بن عطاء الله السكندري (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)»: لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبو الحسن، القاهرة ـ المكتبة السعيدية ١٩٧٢م، ٢٢٦.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨م، ٢: ٥١.

(٣) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٩م، ١١٠.

(٤) نفسه.

(٥) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري في العصر الفاطمي، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٥م، ٧١.

(٦) فهمي عبد الرازق سعد: العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بيروت ـ الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٨٣م، ٦٧.

ويرى ثالث في العامة أنها : «السَّوَاد الأعظم من الناس الذين احتلوا سفح الهرم الطبقي للمجتمع ، وشكلوا قواه المنتجة التي لعبت دورًا حيويًا على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع»[1] .

وتعرِّف رابعة فتقول : «جمهور الناس من عامة الشعب سواء كانوا من العاملين من ذوي الدخل المتوسط أو العاطلين عن العمل أو المتقاعسين عن تعاطي الحرف المختلفة في المجتمع المعاصر حينذاك ، وافتقروا إلى السلطة»[2] .

وأخيرًا ، مِن خلال هذا العرض للتعريفات السابقة لطبقة العامة ، يتضح لنا أن بعضها لم يشمل كل فئاتهم ، والبعض الآخر جعل المفهوم شاملًا لكل أصحاب الأعمال الحرة ، **ويمكن لنا تعريف العامة بأنها :** «السواد الأعظم من الناس الذين لم يتمتعوا بأي سلطة ، سواء كانوا من العاملين من ذوي الدخل المنخفض أو من العاطلين ، ولم يحظَوْا بمكانة اجتماعية قيِّمة داخل المجتمع» .

وبعد ، سوف نبدأ دراستنا هذه أولًا بعرْض لطبيعة العلاقة بين الشعب المصري ، بوجه عام ، والسلطة الحاكمة في مصر الإسلامية ، عبر عصورها المختلفة بداية من «عصر الولاة» إلى العصر المملوكي الأول «دولة المماليك البحرية» .

العوام والسلطة الحاكمة في مصر قبل عصر سلاطين المماليك

بادئ ذي بَدء ، يجدر بنا أن نذكر أن مصطلح «العامة» أو «العَوَام» قد نَدُرَ وجوده في مصادرنا التاريخية لمصر في الفترة المبكرة من تاريخها الإسلامي ،

---

(١) عمر عثمان الشبراوي : عامة بغداد من ظهور السلاجقة حتى سقوط الخلافة العباسية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ١٩٩١م ، ١ - ٢.

(٢) حياة ناصر الحجي : أحوال العامة في حكم المماليك « ٦٧٨ - ٧٨٤هـ » ، الكويت - شركة كاظمة ١٩٨٤م ، ١٥ - ١٦.

فالحديث عن طبقات الشعب حديث عام دون تمييز لفئاتها أو طبقاتها ، وظهر هذا التمييز واضحًا مع الدولة الطولونية ، حيث الحديث عن طبقات الشعب المصري وعناصره ، دون ذكْرٍ للفئات أيضًا ، ثم نجده واضحًا جليًا في كتابات الفترة الفاطمية[1] وما تلاها من دُوَل ، ونقصد الدولة الأيوبية[2] والمملوكية «التي نحن بصدد رصدها» ، **لذلك سوف نتعرض لطبيعة العلاقة بين** «السلطة الحاكمة» ، الممثَّلَة في الحُكَّام المسلمين لمصر فيما بعد ، **من «ولاة وملوك وسلاطين»** ، والشعب المصري **بوجه عام** ، خلال عصور مصر الإسلامية المبكرة بداية من عصر الولاة ، فعصر الأمويين ، وعصر العباسيين ، ومرورًا بالدول المستقلة المختلفة التي قامت في مصر خلال العصر العباسي الثاني ، ومنها الدولة الطولونية ، والإخشيدية ، والفاطمية ، حتى الأيوبية التي تمايزت فيها فئات الشعب المصري وظهرت فيها بوضوح طبقة العامة أو العوام ، موضحين طبيعة هذه العلاقة وسماتها ، وآثارها الإيجابية والسلبية على الطرفَيْن ، **وسوف نبدأ بالعصر الأول :**

مصر والسلطة الحاكمة في عصر الـولاة

أولًا : في عهد الخلافة الراشدة «١١ ـ ٤١هـ/٦٣٢ ـ ٦٦١م»

فتَحَ «المسلمون العرب» مصر ، وغدَتْ ولايةً من ولايات الدولة العربية الإسلامية ، وتولَّى أمر شئونها «عمرو بن العاص» ، واليًا عليها من قِبَل الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه «١٣ ـ ٢٣هـ/٦٣٤ ـ ٦٤٤م» ،

---

(١) راجع لمزيد من التفاصيل ، نجوى كمال كيرة : حياة العامة في العصر الفاطمي «٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ ـ ١١٧١م» ، القاهرة ـ زهراء الشرق ٢٠٠٤م .

(٢) راجع لمزيد من التفاصيل ، شلبي إبراهيم الجعيدي : طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣م .

وتمتعت مصر في عهده بقدر كبير من الاهتمام والرعاية ؛ فقد أدرك «عمرو» منذ اللحظات الأولى لحكمه وإدارته أهميةَ مصر ومكانتها للدولة الإسلامية «الوطن الأم» ، فحين ذكَرَها واصفًا بناءها السياسي قال : «ولاية مصر جامعة تَعْدِل الخلافة» ، بمعنى أن مصر تملك من المقومات ما يجعل أميرها «الوالي» يقف في قوته على قدم المساواة مع الخليفة نفسه «الحاكم الأول» في الدولة الإسلامية ، وله من الهَيْبة والمكانة ما للخليفة نفسه أيضًا ، وقد ظهرت هذه السمة منذ خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه «٢٣ ـ ٣٥هـ/٦٤٤ ـ ٦٥٦م» ، حيث جاء ارتباط مصر إذ ذاك بأحداث الدولة الإسلامية الكبرى[١] سبيلًا أتاح لظهور جيل جديد فيها على درجة طيبة من الثقافة السياسية ، وحريص على ارتباط تفكيره السياسي دائما بالقيم الأخلاقية المستمَدَّة من الإسلام[٢] .

وفي هذه الفترة الأولى من حُكم العرب المسلمين لمصر ، لم يرسم «المسلمون الفاتحون» خطة سياسية أو إدارية لمصر بعد فتْحها ؛ بل تركوا إدارة البلاد إلى مَن كانوا يزاولونها من الروم «حكام مصر السابقين» ، حتى ترك الروم أعمالهم مختارين وهاجروا من مصر ، فأحلَّ المسلمون «العرب» محلهم رؤساء القبط «سكان مصر الأصليين» ، حتى جاء وقتٌ كان عُمَّال مصر جميعًا من النصارى وليس بينهم واحد من المسلمين ، سواء من العرب أو المصريين المسلمين[٣] ، لكن

---

(١) ونقصد بها أحداث الفتنة الكبرى ومقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وحدوث الخلاف بين علي بن أبي طالب «الخليفة الراشدي الرابع» «٣٥ ـ ٤٠هـ/٦٥٦ ـ ٦٦١م» ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، الذي انتهى بقيام الدولة الأموية ، للمزيد عن وقائع هذه الأحداث راجع : يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، دمشق ـ مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥م ، ٢٤ ـ ٦٨.

(٢) إبراهيم أحمد العدوي : مصر الإسلامية ـ مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م ، ٦٩.

(٣) محمد فخر الدين : مصر في ظل الحكم الإسلامي ، مصر ـ مطبعة الصاوي ، د.ت ، ٣٨.

بشرط أن يكون الجميع تحت مراقبة شديدة تتفق مع الحذر العربي ، والاحتياط الذي يدعو إليه الإسلام عند معاملة المسلمين لمن يخالفهم في الدين[١] .

لقد مثَّل «عهد الخلفاء الراشدين» في مصر الإسلامية عهد المثالية الإدارية الإسلامية ، فقد كان الولاة «الحكام» في مصر نموذجًا طيبًا لهذا العهد الجديد[٢] ، فقد حرصوا في سياساتهم الإدارية لمصر على أن تتمشى مع أهداف الدولة الإسلامية ؛ وهي : سياسة الإشراف الفعلي الدقيق على الولايات التابعة للدولة ، أو ما يُسَمَّى بـ«سياسة المركزية الشديدة» ، والرقابة الصارمة ، بهدف اتخاذ الوسائل الكفيلة لنجاح الحركة الإسلامية ، وتطبيق المُثُل الإسلامية تطبيقًا لا شك فيه[٣] .

وفيما يتعلق بعلاقة الخلافة «الراشدة» بالرعِيَّة ، حرصت الدولة الإسلامية على ألَّا تغالي في جباية الضرائب المقررة على المصريين ، خاصةً زمن القحط[٤] ، مما كان له أثر بعيد في أحوال البلاد ، حيث أدى ذلك إلى القضاء على طبقة «الإقطاعيين» الأجانب الذي أذلوا الفلاحين المصريين ، وغادر البلادَ أغلبُهم ، وعادت الأرض لمن

---

(١) يرى البعض أن السبب في سياسة العرب الإدارية على هذا النحو لأنهم اضطروا إلى ذلك اضطرارًا ؛ إذ لم يكونوا قد حذقوا بعد فنون الحكم ، فتركوها وما هي عليه ، وتخلوا عنها للتفرغ إلى أمور دينهم وجهادهم ، ثم إنهم لم يكن لديهم ما يصح إدخاله على النظام المقرر لشعب راق عريق في التمدن ، وُضِعت له نظم ثابتة متينة الأساس يقوم بتنفيذها مهرة العمال الذين شبوا ، بل واكتهلوا في المران على الإجراءات السياسية والإدارية حتى برزوا فيها . (محمد فخر الدين : المرجع نفسه ٣٩) .

(٢) ونخص بالذكر من هؤلاء الولاة المتميزين : عمرو بن العاص الذي حكم ولاية مصر من «٢١ - ٢٥هـ/٦٤١ - ٦٤٥م» في الولاية الأولى ، ومن «٣٨ - ٤٣هـ/٦٥٨ - ٦٦٣م» في الولاية الثانية ، وعبد الله بن سعد الذي حكم ولاية مصر في الفترة من «٢٥ - ٣٥هـ/٦٤٥ - ٦٥٥م» .

(٣) حسن أحمد محمود : مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية ، القاهرة - دار الفكر العربي ١٩٩٠م ، ٤٧ .

(٤) وذلك مراعاة للمبدأ الذي ورد في معاهدة الإسكندرية من تمشي الضريبة مع الأوضاع الاقتصادية ، راجع تفصيلًا لبنود هذه المعاهدة في ملاحق الدراسة .

يفلحها «المصريين» ، مما ترتب عليه تحرير رقيق الأرض ومزارعي الضياع الكبيرة ، مما أدى إلى استقرار اقتصادي عظيم ، وموجة من الرخاء لم تعرفها البلاد من قبل[١] ، كما كان للعرب أيضا سياستهم الضريبية التي اتجهت نحو تخفيف العبء إلى أبعد الحدود عن الطبقات الفقيرة المستضعَفَة ، على أن تتحمل الطبقات الغنية أكبر عبء ممكن ، تطبيقًا للآية الكريمة : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٢] ، مما حدا بالبعض إلى صبْغ هذا الاتجاه بالصبغة الاشتراكية أو بالاتجاه «الاشتراكي»[٣] .

ثانيًا : في عهد الدولة الأموية «٤١ ـ ١٣٢هـ/٦٦١ ـ ٧٤٩م»

شهدت مصر كل الأحداث السياسية التي واجهت البيت الأموي بعد وصول «معاوية بن أبي سفيان» إلى منصب الخلافة الإسلامية ، ووقفت على أبعاد هذه الأحداث وأهدافها ، هذه الأحداث التي قادها **ثلاث جماعات رئيسية ، هي :** الخوارج والشيعة وأبناء الصحابة بالحجاز[٤] ، غير أن مصر تجنَّبت جميع هذه التيارات المتنوعة والعنيفة لهذه الجماعات بفضل ولاتها وحَزْمهم ، واستطاعت أن تسير في طريقها الذي رسمته لنفسها من توجيه جهودها نحو بناء الحضارة

---

(١) ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري (٢٥٧هـ/٨٧٠م)) : فتوح مصر وأخبارها ، عني بتصحيحه ونشره هنري ماسيه ، باريس ـ مجلس المعارف الفرنساوي ١٩١٣م، ١٦٢.

(٢) الآية القرآنية رقم ١٠٣ من سورة التوبة .

(٣) حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ٤٧.

(٤) قامت جماعة الخوارج والشيعة بتيارات عنيفة ضد الأمويين ، وظلت تناوئهم الحكم طوال العصر الأموي دون أن تَكِل ، وإلى جانبهم كانت ثورات أبناء الصحابة الكبار ، ونقصد حركة «عبد الله بن الزبير» ضد الحكم الأموي ، التي انتهت بالفشل ، ومن بعدها أخذت مصر تتابع سياستها في دعم كيانها الإسلامي ، وتوثيق الروابط بينها وبين التطور الجديد الذي ساد الدولة الإسلامية .

الإسلامية ، والإسهام في حركة الفتوحات في الميدان الإفريقي[١] .

وفي هذا العهد الأموي ، خاصة في عهد **«الفرع السُّفيَاني»**[٢] ، **تغيَّرت السياسة** العربية الإدارية التي كانت سائدة في عهد الخلفاء الراشدين ، استجابة للظروف الجديدة في الدولة الإسلامية ، فلم تعد «مركزية» كما كانت سابقًا ، حيث أعطت الدولة الأموية «للوالي» السلطة المطلَقَة ، ففي مصر نجد صورة لذلك في الوالي مَسْلَمَة ابن مخلد ، الذي حكم في الفترة من «٤٧ ـ ٦٢هـ/٦٦٧ ـ ٦٨١م» ، وعبد العزيز ابن مروان الذي حكم في الفترة من «٦٤ ـ ٨٥هـ/٦٨٣ ـ ٧٠٤م»[٣] ، ولتأكيد هذه السياسة لم تكن الدولة الأموية تعزِل الولاة بسرعة ، كما كان الحال عند «الخلفاء الراشدين» ، إنما كانت تطيل مدة حكمهم[٤] ، لكي تستقر أمورهم ويتفرغوا لتحقيق أهداف الأمويين[٥] ، **وقد تميز الولاة في هذا العهد الأموي الأول** ، فكانوا من أمهر الناس ، وأكثرهم خبرة وولاءً للأمويين[٦] ، وخضعوا لمراقبة دقيقة وشديدة ، كانت عن طريق نظام البريد ، فإذا ثَبُت خروجهم عُزِلُوا على الفور ، أما إذا تبينَّ إخلاصهم فتُطْلَق لهم النفوذ ، وتمتد سنوات حكمهم لفترات طويلة[٧] .

---

(١) إبراهيم أحمد العدوي : المرجع السابق ، ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) تميز العهد الأموي بفترتين ؛ الأولى عُرِفت باسم «الفرع السفياني» نسبة إلى مؤسس الدولة معاوية بن أبي سفيان ، التي حكم فيها هو وذريته ، ثم فترة «الفرع المرواني» التي بدأت مع حكم مروان بن الحكم في الفترة من ٦٤هـ/٦٨٣م ، واستمرت حتى سقوط الدولة الأموية .

(٣) وتميزت سياسته الإدارية بالعدل والإنصاف ، كما قامت على البذل ، وخلا عصره من الحوادث الخطيرة ، وكان ذلك من جراء حب الناس له وتعاونهم معه والتفافهم حوله وثقتهم به ، بل طمعهم في ماله . (محمد فخر الدين ، المرجع السابق ، ٦٢) .

(٤) فقد ظل بعضهم يحكم مصر نحو ثلاث عشرة سنة أو عشرين سنة .

(٥) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ٤٩.

(٦) كان معظم هؤلاء الولاة من أصدقاء الأمويين أو من أمرائهم ، وأحيانًا من مواليهم .

(٧) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ٥٠.

وفي العهد الأموي الثاني «المَرْوَاني» تغيّرت الصورة الإدارية، من خلافة عبد الملك بن مروان إلى سقوط الدولة، حيث شهد ذلك العصر كثيرًا من التطورات والأحداث السياسية[١]، **إلا أن الدولة حافظت على الصلة بين الحاكم والمحكوم**، وهي الصلة القوية التي كانت أساس الحكم في العهد الراشدي، والعصر الأموي الأول، وذلك بالاستمرار في احترام العهود والمواثيق بين المسلمين والأقباط «سكان مصر»، فلم يُكرَهْ أحد على الدخول في الإسلام، بل كفلوا لهم حرية الدين والعبادة، كما أتاحوا لهم الفرصة في المشاركة في إدارة البلاد، مما كان حافزًا للكثير من المصريين للدخول في الإسلام[٢]، ثم أصبح تناقص الجِزْيَة بشكل ملاحَظ مؤشرًا يدل على كثرة الداخلين في الإسلام، وإن كان قد أدى ـ أحيانًا ـ إلى تورط بعض الولاة في استمرار فرْضِها على مَن أسلم من القبط، مما أدى إلى فقدان الثقة بينهم وبين السلطة الحاكمة، وإلى إجراءات عنيفة من جانب بعض الولاة الأمويين[٣]، ومقاومات بل وثورات من جانب المصريين أخذت تشتعل أحيانًا، وتنطفئ في أحيان أخرى[٤]، إلى أن قام الخليفة عمر بن عبد العزيز «٩٩ ـ ١٠١هـ/٧١٧ ـ ٧٢٠م» بحركة إصلاحية كبرى في الدولة والولايات التابعة لها، وتصحيح ما وقع فيه الولاة من أخطاء، وأصلح ما أفسده بعضهم،

---

(١) نذكر من هذه الأحداث ثورات الخوارج، وحركة عبد الله بن الزبير، وتعريب الدواوين، وسك العملة الإسلامية.

(٢) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ٥٠ ـ ٥١.

(٣) يعد «قرة بن شريك» أشر ولاة الأمويين على مصر، لأنه كان سيئ السياسة والتدبير، فقد حدث في ولايته غلاء شديد في الأسعار سنة ٨٧هـ/٧٠٥م من جراء انخفاض النيل، فضج الناس من وطأة جور هذا الوالي، ومن الغلاء أيضًا، مما جعل الخليفة «الوليد بن عبد الملك» يعزله نهائيًا سنة ٩٠هـ/٧٠٨م، فخرج من مصر بجميع أمواله.

(٤) يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة د.عبد الهادي شقيرة ود.حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٨م، ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

فأمر بإسقاط الجزية عن المصريين الذين دخلوا في الإسلام، ومن بعده استمرت هذه الإصلاحات أيضًا في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك «١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٣ - ٤٢م»[١].

ثالثًا: في العصر العباسي الأول «١٣٢ - ٢٣٢هـ/٧٤٩ - ٨٤٦م»

ظلت الحال في ولاية مصر إلى أيام هارون الرشيد «١٧٠ - ١٩٣هـ/٧٨٦ - ٨٠٨م» كما كانتفي عهد الأمويين، غير أن ولاتها من رجال «البيت العباسي» كانوا كثرة، وربما كان الغرض من ذلك أن تكون غِيرَتُهم على الدولة العباسية أشد، فتكون سياستهم أشد، وحُكمهم أعدل[٢]، ومِن خير ولاة العباسيين بمصر: «يزيد بن حاتم المُهَلَّبي»[٣] في عهد «الخليفة العباسي المنصور «١٣٦ - ١٥٨هـ/ ٧٥٣ - ٧٧٤م» وكان واليًا على مصر وخراجها، بَرٌّ وعدل، حتى مال الناس إليه، وقصده الكثيرون، وفيه قال الشاعر «محمد بن مسلم»[٤]:

وإذا تُباع كريمة أو تُشترى فسواك بائعها وأنت المشتري[٥]

وأيضًا الوالي «ابن ممدود»[٦]، الذي تولى من قِبَل الخليفة العباسي المهدي

---

(١) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ٥١؛ يوليوس فلهوزن: المرجع السابق، ٢٨٧.

(٢) محمد فخر الدين: المرجع السابق، ٦٤.

(٣) تولى حكم ولاية مصر في الفترة الزمنية من ١٤٣ - ١٥٢هـ/٧٦٠ - ٧٦٩م. (زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه: زكي محمد حسن، حسن أحمد محمود، القاهرة - مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١م، ٣٨).

(٤) وهو الشاعر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري «٥٨ - ١٢٤هـ/٦٧٨ - ٧٤٢م»، من بني زهرة بن كلاب من قريش، واحد من أكابر الحفاظ والفقهاء، وصحابي تابعي شهير من أهل المدينة. (خير الدين الزركلي: الأعلام، ٧: ٣١٧).

(٥) من بحر الكامل.

(٦) هو الوالي يحيى بن ممدود أبو صالح الحرسي، تركي الأصل، من أهل خراسان، حكم ولاية=

«١٥٨ ـ ١٦٩هـ/٧٧٤ ـ ٧٨٥م»، وكان من خير الولاة، وأجل الأمراء، تميز بالشدة في معاقبة المفسدين وقُطَّاع الطريق، حتى جَدَّ في قمعهم، ومازال بهم حتى قطع دابرهم، فعظمتْ حُرْمَته، وتزايدت هيبته في قلوب الناس، **ودائمًا ما كان ينادي**: «من ضاع له شيء فعليَّ أداؤه»، فنعمت مصر والمصريون في عهده بالأمن والأمان[1]، **أمَّا المتطرفون من ولاة مصر «من البيت العباسي»** فنذكر منهم: إسحق بن سليمان ابن علي[2]، في عهد «هارون الرشيد» صلاة مصر وخراجها، ولما جاءها أخذ في إصلاح أمرها، غير أنه لم يرض بما كان يأخذه «الولاة» من قبله من الخَرَاج، فزاد على المزارعين زيادة فاحشة، فسئمته الناس، وكرهوه، وخرجوا عليه، فلم يقدر على دفعهم[3]، مما دفع «هارون الرشيد» إلى عزله بهرثمة بن أعين[4].

وبعد الانتهاء من سرد بعض الولاة الحُكَّام في كلٍّ من الدولة الأموية والعباسية، وعرَفْنا منهم من كان عادلًا حازمًا، ومن كان شديدًا جائرًا، يهمنا تأكيدأنه قد حدث في مصر من جراء هذا الظلم عدة ثورات كانت من القبط أولًا، ثم من هل أهل مصر عامة

أهل مصر عامة، **نذكر منها**: انتفاضة القبط سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م في عهد هشام بن عبد الملك، وفي عهد بني العباس سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م.

=مصر في الفترة من ١٦٢ ـ ١٦٤هـ/٧٧٨ ـ ٧٨٠م. (يوسف الملواني: المصدر السابق ٥١).

(١) محمد فخر الدين: المرجع السابق، ٦٥.

(٢) تولى حكم ولاية مصر عامًا واحدًا في الفترة من «١٧١ ـ ١٧٢هـ/٧٨٧ ـ ٧٨٨م». (يوسف الملواني: المصدر السابق ٥٢).

(٣) محمد فخر الدين: المرجع السابق، ٦٥.

(٤) حكم ولاية مصر نحو الشهر من سنة ١٧١هـ/٧٨٧م، ثم عزل. (يوسف الملواني: المصدر السابق ٥٢).

وخلاصة القول : إن أسباب الثورات بمصر في عهد الدولتين «الأموية والعباسية» كانت غالبًا من جرَّاء الخراج «الضرائب» ولو كان محدودًا كالجزية ، فلو سار الولاة على نهج «عمرو بن العاص» لسادت السكينة مصر طيلة العصرَيْن ، فلقد تطبَّع في سكان مصر المَيْل إلى السلم ، والخوف حتى من شبح الحرب ، وإن كانوا أكثر أهل الدنيا مالًا(١) .

ثانيًا : في العصر العباسي الثاني «٢٣٢ ـ ٦٥٦هـ/٨٤٦ ـ ١٢٥٨م»

شهدت مصر في القرن الثالث الهجري ، ولأول مرة في تاريخها الإسلامي ، نمو فكرة «الاستقلال الذاتي» وظهور ما يُسَمَّى بـ«الدول المستقلة» ، التي سوف نعرض لها ولعلاقة السلطة الحاكمة فيها بالشعب المصري ، خاصة بالعوام منه فيما يلي :

أ ـ مصر والسلطة الحاكمة في الدولة الطولونية «٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ /٨٦٨ ـ ٩٠٤م»

نعمت مصر في العهد الطولونيباستقلال ذاتي ، صحبه استقرار سياسي كبير ، فقد كان أحمد بن طولون «مؤسسها»(٢) بصيرًا بالسياسة ، خبيرًا بمجريات الأمور ، وقد انعكست معالم هذا الاستقرار السياسي في رخاء الشعب المصري ، وظهور طبقات جديدة في المجتمع تألَّفت من كبار التجار ، وكبار رجال الجيش ، والعلماء ، **وامتد الرخاء إلى عامة الشعب** ، حيث انخفضت

(١) محمد فخر الدين : المرجع السابق ٦٨.

(٢) حكم مصر في الفترة من «٢٥٤ ـ ٢٧٠هـ/٨٦٨ ـ ٨٨٣م». ابن طولون. (كليفورد. أ.بوزورث : الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي «دراسة في التاريخ والأنساب» ، ترجمة حسين علي اللبودي ، د.سليمان إبراهيم العسكري ، ـ مؤسسة الشراع العربي بالاشتراك مع عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٥م، ٧٥ ـ ٧٦).

الضرائب التي يدفعها بما ساد الاقتصاد المصري من ازدهار، إذ انخفض سعر الغِلال، وخلت البلاد من الأزمات الاقتصادية، وزاد الإنتاج في الحبوب، كما انعكس صدى هذا الرخاء في روعة الاحتفالات الشعبية بكل من الأعياد الإسلامية والمسيحية على حد سواء، ومشاركة السلطة الحاكمة فيها، مثل الاحتفال بيوم الغطاس[1].

أمَّا عن طبيعة العلاقة بين «أحمد بن طولون» والشعب المصري فلم يكن يتصل اتصالًا مباشرًا بالشعب، بل كان يسمح لكبار الناس بالجلوس في حضرته، والاستماع إلى شكاواهم، وفي أثناء سيره مع بعض خاصته ـ لصلاة الفجر ـ لا يمتنع عن سماع شكوى المظلومين، وتمتَّع أهل الذمة من يهود ونصارى بحرية تامة وكرامة، حتى أننا لا نسمع عن إهانة لَحِقتهم من الشعب المصري المسلم، ولم يُرْوَ أيضًا لنا عَسْفٌ نزل بأحدهم لكونه نصرانيًا أو يهوديًا[2]، ومن بعد «ابن طولون» جاء خمارويه «٢٧٠ ـ ٢٨٢هـ/٨٨٣ ـ ٨٩٥م»، الذي تَرسم طريق والده وخطاه، وتفرغ للإصلاح بمصر.

وخلاصة القول: لقد اهتم الطولونيون بتقدم أحوال مصر الاقتصادية وازدهارها، ويدل على ذلك وفرة الثروات، ورخص الأسعار، وتوفر السلع في سائر أنحاء مصر بصورة لم تشهدها من قبل[3]، مما كان له أكبر الأثر على الشعب المصري بجميع فئاته.

---

(١) إبراهيم أحمد العدوي: المرجع السابق، ١٠٥.

(٢) علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، القاهرة ـ النهضة المصرية ١٩٤٩م، ٤٦٧.

(٣) البلوي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المديني (ق ٤هـ/١٠م): سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق ١٩٤٠م، ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

ب ـ مصر والسلطة الحاكمة في الدولة الإخشيدية «٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٦٨م»

تمتع في عهد «بني الإخشيد» المصريون جميعهم، من مسلمين ونصارى، بالرخاء الاقتصادي، وكانت الثقة والطمأنينة متبادلتين بين الجميع[١]، وليس أدل على يسر أهل مصر وأنهم كانوا في سَعَة من العَيْش أن الناس أصبحوا في عهد «كافور الإخشيدي»[٢] في غير حاجة إلى الزكاة التي يوزعها الأغنياء على الفقراء والمحتاجين، وذلك بسبب كثرة صدقات «كافور» على أفراد شعبه، حتى اضطر الأغنياء إلى أن ينفقوا أموالهم التي كانت مخصَّصة للزكاة في بناء المساجد وغيرها من المؤسسات الخيرية[٣].

ج ـ مصر والسلطة الحاكمة في الدولة الفاطمية «٢٩٧ـ٥٦٧هـ/٩٠٩ـ١١٧١م»

الدولة الفاطمية دولة اتسعت أكتاف مملكتها، وطالت مدتها، وكادت أن تملك مُلكًا عامًا وتَدِين لها الأمم، ولأهمية مصر جغرافيًا ورخائها اقتصاديًا، وبُعْد أهلها عن الفتن القوية، ربما لكونهم أكثر تقبُّلًا للدعوة العلوية الشيعية، توجهت عناية الفاطميين بها، واجتهدوا في العمل، وتحيَّنوا الفرصة حتى تم لهم ذلك ودخلوا مصر، وأقاموا فيها دولتهم، بل خلافتهم الإسلامية فيما بعد، التي ناوأت «الخلافة العباسية»، وشاركتها زعامة العالم الإسلامي.

وقد وجَّه الفاطميون جلَّ عنايتهم للنهوض بمصر، وفي عهدهم نمت البلاد

---

(١) نفسه ٤٧٣.

(٢) حكم مصر في الفترة من «٣٣٥ ـ ٣٣٧هـ/٩٤٦ ـ ٩٤٨م»، تحديدًا نحو سنتين وأربعة أشهر. (كليفورد: المرجع السابق، ٧٧).

(٣) القلقشندي «شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ/١٤١٨م)»: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة ـ المطبعة الأميرية ١٩١٣م، ٣: ٤٢٩ ـ ٤٣٣.

وزادت، فعاش المصريون يمارسون شئون سياستهم في جو من الاستقرار والاطمئنان، وتمتع المصريون بأمنهم واطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حد بعيد، فقد كان تجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب محلاتهم، بل يكتفون بإسدال الستائر عليها[١]، وازدهرت الزراعة والصناعة، والتجارة الداخلية والخارجية واتسع نطاقها.

د ـ مصر والسلطة الحاكمة في الدولة الأيوبية «٥٦٩ ـ ٦٤٨هـ/١١٧٣ ـ ١٢٥٠م»

قامت الدولة الأيوبية في مصر في ظروف خاصة، جعلت منها دولة حربية في المقام الأول، فقد وقع علي كاهلها عبء الجهاد ضد الصليبيين بهدف تطهير الشام العربية منهم، وحماية الشام ومصر من أخطار الحملات الصليبية الوافدة من الغرب الأوروبي، ومن هذا المنطلق أنفقت الدولة الكثير من مواردها على الجيش وبناء الحصون والاستحكامات والقلاع، وما يتبقى بعد ذلك يُنْفَقُ في الإصلاح الداخلي[٢]، إلا أنه رغم حالة الحرب المستمرة هذه، نشطت الزراعة في مصر، وأيضًا بعض الصناعات المهمة الأخرى مثل صناعة النسيج واستخراج الزيوت، كما نشطت التجارة الخارجية، وأصبحت مصر الوسيط التجاري بين الشرق والغرب الأوروبي[٣]، **أما ما يخص السياسة الإدارية في هذه الدولة** فنجد أن صلاح الدين الأيوبي «٥٦٤ ـ ٥٨٩هـ/١١٦٨ ـ ١١٩٣م» «مؤسِّسها» لم يُولِ اهتمامه الشخصي للتفاصيل الإدارية، إلا قليلًا، دون أن يتعدَّى ذلك محاولة القضاء على

---

(١) ناصري خسرو: «سفرنامة» رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن ٥ الهجري، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٩٣م، ١٢٤.

(٢) محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطى ـ دراسة في الأوضاع السياسية والحضارية، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٦م، ٢٣٠.

(٣) نفسه ٢٣١ ـ ٢٣٢.

المفاسد، واستند في إدارة الولايات التابعة له أيما استناد إلى أخيه العادل سيف الدين، ورئيس ديوانه القاضي الفاضل، أما إدارة الولايات فقد عهد بها كليًا إلى الولاة، **واشترط عليهم أمرين**: أولهما أن يتبعوا قدوته في القضاء على المفاسد، والآخر: أن يمدوه بالعساكر والمال إذا دعت الحاجة من أجل الجهاد عندما يُطْلَب منهم ذلك[1]، ومن بعده سار خلفاؤه على نهجه حتى تمتع المصريون ـ بوجه عام ـ بالرخاء وتوفُّر السلع الغذائية، ورخص أسعارها.

وعن أحوال العامة في ذلك العصر الأيوبي نجد أنها قد تعرضت «بوجه خاص» لكثير من العسف والظلم من جانب السلطة الحاكمة، من السلاطين بوجه خاص، بل من جانب معاونيهم في بعض الأحيان، نعم لقد قدَّمت السلطة الحاكمة الرعاية الاقتصادية والاجتماعية للعامة[2]، لكنها لجأت في كثير من الأحيان ـ تحت وطأة حاجتها إلى المال ـ إلى إطلاق يد ممثليها لجمع هذه الأموال بشتى الطرق والوسائل التي كانت غالبًا تتعارض مع مصالح العامة[3].

ومما زاد من أعباء العامة **«تفشي الفساد الإداري»** واستغلال بعض أفراد السلطة مواقعهم ومناصبهم للحصول على مكاسب شخصية دون النظر للمصلحة العامة، فيكشف لنا البوصيري[4] عن مدى هذا الفساد الإداري، خاصة في أواخر العصر

---

(١) السير هاملتون. آ. ر. جب: صلاح الدين الأيوبي، بيروت ـ بيسان للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٩٦م، ١٩١.

(٢) شلبي إبراهيم الجعدي: طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ/١١٧١ ـ ١٢٥٠م، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٤٢.

(٣) نفسه.

(٤) البوصيري: هو الشاعر محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي، البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبدالله «٦٠٨ ـ ٦٩٦هـ/١٢١٢ ـ ١٢٩٦م»، ترجع نسبته إلى بوصير «من أعمال بني سويف بمصر»، من أشهر أشعاره «البردة». (خير الدين الزركلي: المرجع السابق، ٧: ١١).

الأيوبي، فيشمل بنقْده الوزراء وكبار الفقهاء، والموظفين الذين يسرقون أقوات الناس، مما يؤكد ضعف النظام الإداري، وعدم قدرته على نشر العدل بين الناس، حيث يقول(١):

نقدت طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهم رجلًا أمينًا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمري سنينا
فكتاب الشمال هم جميعًا ... فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا ... بهم فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرًا ... ولا شربوا خمور الأندرينا(٢)

كما عانت العامة من التعدي على ممتلكاتهاالبسيطة والمحدودة، والسيطرة على أموال الناس وأملاكهم، وسار خدم كبار الأمراء على نهْج أسيادهم في التعدي على ممتلكات العوام واستغلالهم، وكوَّنوا من جراء ذلك ثروات كبيرة(٣).

وأمام هذا، حاولت العامة التصدي لهذه الممارسات بشتى الوسائل، فجأروا إلى من يعتقدون فيه الخير من السلطة الحاكمة، أو من بعض المشايخ المقربين إليهم بالشكوى، لإغاثتهم مما حل بهم من مظالم(٤)، وأحيانًا كانت تستجيب السلطة

---

(١) محمد زغلول: الأدب في العصر الأيوبي، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٧م، ٢٤٦؛ السيد محمد ديب: الحياة الاجتماعية كما صورها البوصيري، مجلة كلية اللغة العربية ـ جامعة المنصورة، ٥ (١٩٨٤م)، ١٥٣.

(٢) أبيات شعر من بحر المتقارب.

(٣) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤٢م)): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ١٩٩٨م، ٢: ٣٧٣.

(٤) النابلسي: لمع القوانين المضية، ٤٩. ابن أيبك الصفدي «صلاح الدين خليل (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)»: نكت الهميان في نكت العميان، القاهرة ـ المطبعة الجمالية ١٩١١م، ٢٩٦.

الحاكمة لطلباتهم حتى لو أدى الأمر إلى عزل أحد الولاة[(١)].

وفي أحيان أخرى، تلجأ العامة للمقاومة، لكنها «المقاومة السلبية»، أي التي يغلب عليها الطابع السلبي؛ كهروب الفلاحين من الأراضي الزراعية، للبُعْد عن مظالم المقطعين وغيرهم، كما لجأت إلى السخرية والتهكم من رموزها، وقد أثمر هذا الأسلوب بالفعل في تغيير بعض الأحوال، ونذكر هنا مثالًا على ذلك: عندما ازداد نفوذ المماليك في عصر الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتوجس الشعب المصري منهم خِيفَة، ولم يستطع التعبير عن سخطه بشكل ثائر، ترك للضمير الشعبي التعبير عن ذلك، فجاء تعبيرًا ساخرًا قائلًا:

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ... تُـرك بدولته يا شر مجلوب
لا أخذ الله أيوبًا بفعلته ... فالناس قد أصبحوا في صبر أيوب[(٢)]

وعندما اتُّهِم صاحب ديوان بيت المال «ابن العماد» بمصر بالسرقة، وكان قد وقع فانكسرتْ يدُه، سخر منه الشعب، وقال على لسان الشاعر أبو محمد عبد الحكم[(٣)]:

إن العماد بن جبرله أخي علم ... لـه يد أصبحت مذمومة الأثر
تأخر القطع عنها وهي سارقة ... فجاءها الكسر يستقصي عن الخبر[(٤)]

والجدير بالذكر أن هذا النقد اللاذع وُجِّه أيضًا لرأس السلطة الحاكمة، فلم تنج

---

(١) الأدفوي (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر(٧٤٨هـ/١٣٤٧م): الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والولاة بأعلى الصعيد، القاهرة ـ المطبعة الجمالية١٩١٤م، ١٨. ابن الزيات: الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، القاهرة ـ المطبعة الأميرية ١٩٠٧م، ٢٤٩.

(٢) أبيات شعر من بحر البسيط.

(٣) من أهم شعراء فترة أواخر العصر الأيوبي، تُوُفِّيَ في سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م.

(٤) من بحر البسيط.

هي الأخرى من النقد اللاذع والسخرية ، فكان صلاح الدين الأيوبي يسمع من المتظلمين والمستغيثين «أغلظ ما يمكن أن يسمع حاكم»[١] . وعنه وعن كبار قادته قال ابن عنين[٢] من الزجل :

سلطاننا أعرج وقاضيه ذو عمش والوزير منحدب

وكان صلاح الدين الأيوبي بالفعل به بعض عرجٍ ، والقاضي صدر الدين ابن درباس به بعض عمش ، والوزير الفاضل «ت ٥٩٦هـ/١٢٠٠م» منحدب[٣] .

وبعد ، ماذا حدث للشعب المصري والعوام «بوجه خاص» في العصر المملوكي؟ وكيف كانت العلاقة بين السلطة الحاكمة «السلاطين المماليك» وأمرائهم وكبار رجال دولتهم والشعب المصري خاصة «العوام»؟

وهو ما سوف نوضحه فيما يلي :

العوام في مصر والسلطة الحاكمة في العصر المملوكي

سوف نبدأ الحديث عن طبيعة العلاقة بين السلطة الحاكمة والشعب المصري ، خاصة «العوام» ، في العصر المملوكي الأول ، ومنه إلى العصر الثاني «الجركسي» وهو محور الدراسة .

---

(١) ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع (٦٣٢هـ/١٢٣٤م)) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بكتابسيرة صلاح الدين، القاهرة ـ مكتبة محمد صبيح د.ت ، ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) هو الشاعر محمد بن نصر الله بن مكارم بن حسن بن عنين الأنصاري ، الكوفي ، الحرواني ، الدمشقي ، شرف الدين ، أبو المحاسن «٥٤٩ ـ ٦٣٠هـ/١١٥٤ ـ ١٢٣٢م» ، أديب وشاعر ولغوي كبير ، وفقيه ومؤرخ . (عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، القاهرة ـ مؤسسة الرسالة ١٩٩٣م ، ٣: ٧٥١) .

(٣) ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (٩٣٠هـ/١٥٢٣م)) : بدائع في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، فيسبادن ـ مطبعة فرانز ستاينر ١٩٧٥م ، ١/ ١: ٢٣٩.

أولًا : في عصر دولة المماليك البحرية «٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م»

تميزت العلاقة بين السلطة الحاكمة «المماليك» والشعب المصري «بوجه عام» والعوام «بوجه خاص» ، منذ بدايات الحكم المملوكي ، بكَوْنها طيبة في مجملها ؛ التزمت فيها السلطة الحاكمة الترفُّق مع «العوام» ومحاولة إرضاء أفرادها ، واستمالتهم وكسب وُدِّهم ، وهذا لا يعني أنه لم تكن هناك مخالفات أو تجاوزات لتلك السياسة المملوكية في بعض الفترات ، ومن بعض الحكام والأمراء ، لكننا في المجمل العام نستطيع القول إن العامة في العصر المملوكي تمتعت بشيء من الرعاية ، وحرية التعبير عن الرأي ، والحضور إلى حد ما على المسرح السياسي ، فمن المعروف أن الحاكمإذاأدى حقوق الرعية عدلًا وإنصافًا ، وأحسَنَ إليهم ، تنقاد له قلوب العامة ، ويلتفون حوله ، ويبذلون كل ما في وُسْعِهم للزود عنه ، وبذلك تنجح سياسته ويستقر مُلْكه ، أما إذا كان الحاكم ظالمًا متعديًا فكما يقول ابن خلدون : «**يشمل الناس الخوف والذل ، ويلوذون بالكذب والمكر والخديعة ، فتخلقوا بها ، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم ، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ، وأجمعوا على قتله ...**»[١] .

وعلى الصعيد السياسي، كان نشاط العامة يتخذ شكل حركات التمرد التي تستهدف السلاطين أحيانًا ، والوزراء ، والقواد في أحيان أخرى ، كما كانوا شديدي التعلق بالسلطان خاصة إذا أظهر التقوى ، وأغدق عليهم الأموال ، فالدِّين والمال هما مفتاح كسب وُدِّ تلك الطبقة التي مثَّلت القاعدة العريضة للشعب المصري ، وهو ماأدركه السلاطين المماليك وحرصوا على العمل به طوال عصرهم .

---

[١] ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)) : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المقدمة ، القاهرة ١٩٣٠، ١: ١٩٩.

كما تأكد ارتباط علاقة العامة بالسلطان بطبيعة استقرار الحالة الاقتصادية ، فقد رفضت العامة على سبيل المثال حكم كتبغا(١) ، بسبب وقوع المجاعة ثم الطاعون ، في حين ابتهجوا لحكم السلطان «حسام الدين لاجين»(٢) نتيجة انفراج الأزمة سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م(٣) .

ويتجلى الدور السياسي للعامة أو «العوام» في ذلك العصر المملوكي الأول في عدة أمور مهمة ، نذكرها فيما يلي :

أولاً : ظاهرة التأييد الشعبي التي حرص العامة على إظهارها نحو بعض السلاطين المماليك ، التي تُعَدُّ ظاهرة غير عادية لطبقةٍ من المفتَرَض أنها حُرِمَتْ من كل شيء في بعض الأوقات . ثم إنَّ مشاركة العامة في الوفود الرسمية عند وقوع المفاوضات بين السلطان الغاضب والأمراء المماليك الأقوياء ، إن دلت على شيء فإنما تدل أيضًا على أهمية العامة ودورهم في المجتمع في ذلك الوقت(٤) .

ثانيًا : شارك العامة في جميع أنواع الاحتفالات السلطانية السياسية والاجتماعية ، خاصة «للسلاطين الذين حظوا بشعبية كبيرة عندهم» ، مثل حفلات افتتاح جامع جديد ، أو مدرسة ، أو خانقاه ، أو تأمير بعض المماليك السلطانية ، أو استقبال سلطان جديد عائد من الحج ، أو من الجهاد ضد الصليبيين أو

---

(١) السلطان المملوكي العادل زين الدين كتبغا ، حكم مصر في الفترة من ٦٩٤هـ/١٢٩٤م - ٦٩٦هـ/١٢٩٦م . (كليفورد : المرجع السابق ، ٩٩) .

(٢) السلطان المملوكي المنصور حسام الدين لاجين ، حكم مصر في الفترة من ٦٩٦هـ/١٢٩٦م - ٦٩٩هـ/١٢٩٨م . (نفسه) .

(٣) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م)) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧٠م ، ١ : ٨١٣؛ ابن إياس : المصدر السابق ١ : ١٣٣ - ١٣٤ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ٢ : ٥٩٥ . ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي) (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ٢٠٠٩م ، ١٠ : ٥٢ .

المغول[١] ، وفي هذه الاحتفالات حرص العامة على الهتاف باسم السلطان وترديد الأغاني الشعبية ، والاصطفاف على جانبي الطريق ، وفي أعلى أسطح المنازل ابتهاجًا برؤية السلطان . ومن هؤلاء السلاطين الذين حظوا بشعبية كبيرة لدى العوام في هذه الفترة : السلطان قلاوون[٢] ، والأشرف خليل بن قلاوون[٣] ، والناصر محمد بن قلاوون[٤] .

ثالثًا : لعب الصراع المستمر بين الأمراء المماليك ، في سبيل السلطة ، دورًا مهمًا في تدعيم الروابط العميقة بين السلطان والعامة ، فقد حرص السلاطين المماليك تحت وطأة هذا الصراع ، على إرضاء العامة ، مما دعا العامة للنظر إلى أنفسهم بوصْفهم فئةً قائمةً على مصلحة السلطان ، الذي رأى العامةَفئة تشكّل قوةلا يستهان بها ، ويمكن أن يُعَوَّل عليها كثيرًا في ظل تنافس الأمراء على السلطة[٥] .

رابعًا : عمل كثير من السلاطين على كسب ود العامة عن طريق إلغاء الضرائب والمكوس[٦] ، ومثال ذلك ما كان في عهد حسام الدين لاجين ،

---

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ٢: ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) وهو السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، حكم مصر في الفترة من «٦٨٨ - ٦٨٩هـ/١٢٨٩ - ١٢٩٠م» . (كليفورد : المرجع السابق ، ٩٩) .

(٣) وهو السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، حكم مصر في الفترة من «٦٨٩هـ/١٢٩٠م» . (نفسه) .

(٤) وهو السلطان الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون ، حكم مصر ثلاث ولايات ؛ الأولى في الفترة من «٦٩٣ - ٦٩٤هـ/١٢٩٣ - ١٢٩٤م» ، والثانية من «٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٨م» ، والأخيرة من «٧٠٩ - ٧٤٠هـ/١٣٠٩ - ١٣٤١م» . (نفسه) .

(٥) المقريزي : السلوك ٣: ٣٦٥.

(٦) المكوس : جمع مكس ، وفي اللغة : مكس مكسًا أي جبى مال المكس ، وفي الاصطلاح : لفظ يعني الضريبة التي تفرض على الإنتاج والسلع الواردة والصادرة الموجودة في الموانئ . (لويس معلوف اليسوعي : المنجد في اللغة ، بيروت - دار الشروق ٢٠٠٢م ، ٧٧١. محمد قنديل البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م ، ٣٢٥) .

والناصر محمد بن قلاوون[١].

خامسًا: تودُّدَ السلاطين المماليك إلى العامة عن طريق العناية الشديدة بإنشاء البيمارِسْتانات «المستشفيات» والجوامع والمدارس والخانقاوات والزوايا والأرْبِطة ودُور السبيل لرعاية الأيتام، حيث أفاد العامةُ من هذه المؤسسات العلمية، والمراكز الاجتماعية، رجالًا ونساءً وأطفالًا[٢].

سادسًا: كانت الصدقات أيضا من وسائل كسب محبة العامة، فأكثر العديد من السلاطين من توزيع الصدقات في مختلف المناسبات خاصة الدينية منها، وتتجلى مظاهر العطف السلطاني على العامة في إنشاء دور الايتام للنظر في مصالح الأيتام، وحِفْظ التَّرِكَة للقُصَّر منهم حتى بلوغهم سن الرُّشْد[٣].

سابعًا: شعُرَ العامة بأهمية العلاقة المباشرة والقوية التي ربطتْهم بالسلطان المملوكي، خاصة أن لقاء السلطان شخصيًا كان أمرًا سهلًا وميسَّرًا في دار العدل، فضلًا عن أن القضاة «المصريين» القائمين على تطبيق قواعد الشرع، وحضورهم المستمر في المجلس السلطاني، ممَّا جعل العامة تشعر دائمًا بأن هناك مَن يمثِّلهم ويدافع عن مصالحهم بحضور السلطان وكبار الأمراء[٤].

وجدير بالذكر أن العامة تعرضت للعسف والظلم والغبن «في العصر المملوكي الأول»، في أوقات مختلفة كان فيها السلطان لا يملك من أمر نفسه شيئًا، ومن ذلك على سبيل المثال: الأمير قوصون، أقوى الأمراء في عهد السلطان المملوكي المنصور أبي بكر[٥]، الذي أَجبر العامةَ على إنارة الشوارع في أرجاء القاهرة ليلًا

---

(١) ابن تغري بردي: المصدر السابق ١١: ٣٢٣.

(٢) المقريزي: السلوك ٣: ٣٦٥.

(٣) نفسه ١: ٨١٣؛ ابن إياس: المصدر السابق ١: ١٣٣ - ١٣٤.

(٤) المقريزي: السلوك ٢: ١٠٣و المواعظ والاعتبار ٢: ٢٠٨.

(٥) المنصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون، حكم مصر في الفترة «٧٤٢هـ/١٣٤١م».=

بإنارة الشموع فيها على حسابهم الشخصي ، فتحمَّل العامة ذلك الظلم قهرًا ، فلمَّا كانت فتنة قوصون للاستيلاء على الحكم ، ثم هزيمته وقتله ، كان العامة هم الجماعة الأولى التي نهبت دُورَه وإسطبلاته ومخازنه ، فلم تُبْقِ على شيء فيها إطلاقًا[١] .

وعن مظاهر رفْض العامة السلطةَ الحاكمة ، نذكر أنه قد تمثلت أبسط صور هذا الرفض «العامي» في إغلاق الأسواق ، والتوقف عن حركة البيع والشراء ، فإن لم يتغير الوضع قامت «النهابة والأشرار من العامة» بنهْب من يقترف الظلم سواء كان ناظرًا أو قاضيًا أو حتى محتسبًا[٢] .

ومجمل القول ، بغض النظر عن موقف «الأشرار والنهابة من العوام» ، هذه الفئة تَظهر على السطح خاصة في فترة الاضطرابات السياسية ، لتمارس أعمال النهب والسلب ، مستغلة فرصة الاضطراب في البلاد ، على الرغم من ذلك نقول : إن ما تحكَّم في موقف العامة تجاه السلطة الحاكمة المملوكية في السلب أو الإيجاب كان مدى عطف السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة عليهم ، وإنصافهم ، وإقامة العدل بينهم ، هكذا العامة أطاعوهم ، وأحبوا مَن أحسن إليهم ، وفي المقابل تمرَّدوا على مَن طغى عليهم ، واستبد بهم ، فكرهوه .

ثانيًا : العوام والسلطة الحاكمة في مصر في العصر المملوكي الجركسي

تميزت العلاقة بين السلطة الحاكمة والعوام في عصر المماليك الجراكسة ، واتخذت شكلًا إيجابيًا ؛ فالسلطة الجركسية حريصة من أول سلاطينها «برقوق»[٣] ، على تحرِّي العدل في الرعية ، ورفْع الظلم ، فنجدها من حين إلى آخر

=(كليفورد : المرجع السابق ، ٩٩) .

(١) المقريزي : السلوك ٢: ٥٩١. ابن تغري بردي : المصدر السابق ١٠: ٤٤ - ٤٦.

(٢) نفسه ٣: ٢١٢ - ٢١٣. ابن إياس: المصدر السابق ١: ٢٢٨.

(٣) السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين الجراكسة بمصر، والخامس والعشرون من ملوك الترك=

تنادي في الناس ـ وما أكثر هذه النداءات ـ لرفع الظلم وتحقيق العدل ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، وللعوام موقف من أحداث الدولة ومجريات الأمور ، فلا تمر حادثة تتعلق بشئونهاإلا كان لها رد فعل تجاهها ، وسوف نورد أمثلة على هذا ، ولنبدأ أولًا بالسلطة الحاكمة ، وحرصها على تحري الإنصاف وإرساء العدل ، ونداءاتها المتكررة في سبيل تحقيق ذلك :

نداء السلطان برقوق للشعب المصري ، في سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م

في رمضان (الثامن عشر منه)

نزل السلطان وجلس بالمقعد المطل على الإصطبل والميدان للحكم ، ونُودِي قبل جلوسه بيومين : «من ظُلم ، من قُهر ، من أُوذي ، عليه بالإصطبلات الشريفة يومي الأحد والأربعاء...»[1] .

مما كان له أكبر الأثر في نفوس الرعية ، وكبار رجال الدولة ، فها هو الصَّيْرَفي يعلق على هذا النداء فيقول : «... فداخل أهل الدولة والمباشرين من ذلك إرجاف شديد ، ووثبت الأسافل على الأعالي»[2] .

ومثال آخر : في سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م :

نداء الأمير الكبير يلبغا الناصري[3] للرعية : «نودي في القاهرة بالأمان

=وأولادهم بمصر ، حكم في الفترة من «٧٨٤ ـ ٧٩١هـ/١٣٨٢ ـ ١٣٨٨م» .

(١) الصيرفي «الخطيب الجوهري ، نور الدين علي بن داوود (٩٠٠هـ/١٤٩٤م)» : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق د.حسن حبشي ، القاهرة ـ دار الكتب ١٩٧٠م ، ١: ١٩٧.

(٢) نفسه .

(٣) هو الأمير الكبير «نائب حلب» الذي نازع السلطان برقوق ، السلطة والحكم ، فلجأ للتقرب من الشعب المصري ، وكسب وده ، عن طريق النداء «برفع الظلم ، وتحري العدل» ، فكان هذا النداء من الوسائل المؤكدة للوصول إلى محبة الشعب ، ويعلق الصيرفي على هذا النداء فيقول : «فليت شعري ما=

والاطمئنان والبيع والشراء، ومن ظُلم أو غُبن أو قُهر من عشرين سنة، فعليه بباب الأمير الأتابكي يلبغا الناصري ...»[١].

ومثال ثالث: في سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م «عهد السلطان برقوق»:

وفي (ربيع الآخر): «... نودي أيضًا من له ظَلامة، من له شكوى فعليه بالباب الشريف، وجلس السلطان على العادة في يومي الثلاثاء والسبت للنظر في المظالم ...»[٢].

وهكذا، خصَّص السلاطين المماليك يومين في الأسبوع للقاء الرعية، وسماع شكاواهم، والنظر في مطالبهم، وما إلى ذلك، وبُدِئَ بالسبت والثلاثاء، ثم أصبحا فيما بعد الأحد والأربعاء[٣].

ومثال رابع: في سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م:

في المحرم «الحادي عشر منه» نداء يقول:

«... نودي في المدينة، ألا من ظلم من يلبغا السالمي، فعليه بالأبواب الشريفة، كل ذلك ويلبغا معوق بباب السلسلة تحت الترسيم، وقيل أنه ضرب ضربًا شديدًا مبرحًا»[٤].

ومثال خامس: في سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م:

في جمادى الأولى «في السابع والعشرين منه»:

=يحتاج إلى عشرين سنة، بل الظلم والقهر الذي حصل على مصر وأهلها بقدومك يكفيهم !!!». (الصيرفي: نفسه).

(١) نفسه.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق ١/ ٢: ٥١٥.

(٣) حدث هذا التعديل في ربيع الأول من سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م، وظل العمل به ساريًا حتى نهاية الدولة المملوكية.

(٤) الصيرفي: المصدر السابق ٢: ٢٤٤.

«رسم للقضاة الأربعة أن يجتمعوا بمجلس السلطان للحكم بين الرعية وتخليص الحقوق، ودفع المظالم، وأن يكون اجتماعهم في يومي السبت والثلاثاء، ونودي في هذا اليوم: «من له ظلامة، من قُهر، من غُبن، عليه بالأبواب الشريفة»، ثم بطل حضور القضاة الأربعة، واستمر جلوس السلطان للحكم في يومي السبت والثلاثاء»(١).

وأمام هذه النداءات، حرص «العوام» على الإفادة منها، وتحقيق مطالبهم، فترددوا على السلطان المملوكي، وتقدموا بشكواهم، ويؤكد ذلك الخبر القائل:

في سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م: «شرع السلطان في النزول للإصطبل ليحكم به كل يوم سبت وثلاثاء، فكثرت عليه المحاكمات، وتزايدت شكوى الناس إليه»(٢).

وإلى جانب هذه النداءات المتكررة، حرصت السلطة الحاكمة «الجركسية» على إرضاء الشعب، بسرعة الاستجابة لشكاوى الشعب، خاصة «العوام»، وردع الظلمة والمفسدين، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ **نذكر منها**:

في سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م: في المحرم (في سابع عشره): خبر يقول:

«شُكي الأمير علي خان والي البهنسا، وهو ممتثل لدى المواقف الشريفة»(٣)، فرسم بضربه ضربًا مبرحًا، وأخرج من القاهرة منفيًا بعد أن

---

(١) الصيرفي: المصدر السابق ٣: ٣٧٧.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق ٣: ٦٦.

(٣) **المواقف الشريفة**: ذكر القلقشندي ألقابًا عدة للخليفة العباسي والسلطان في العصر المملوكي، ومنها: لقب **المواقف المقدسة**، وكني به الخليفة العباسي تنويهًا عن التصريح بذكره، **والأبواب الشريفة**، وكني به السلطان المملوكي، ومعناه: مقام السلطان التي تصدر عنها المراسيم والمكاتبات أوهيئة ديوان السلطان، ولعل المقصود بـ«المواقف الشريفة» السلطان المملوكي، كما نفهم من سياق النص. (محمد قنديل البقلي: المرجع السابق، ١٣، ٣٥٥).

أخذ منه عشرة آلاف دينار...»[١].

في سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م:

كثر الفساد بأحوال الناس، وزادت وطأة الظلم على العامة، فكان لهم موقف، عبّر عنه الصيرفي فقال: «اجتمع عالم كبير من العوام والخواص والناس، تحت باب السلسلة وهم يدعون للأمير منطاش، ويسألونه في إعادة والي القاهرة «حسين بن الكوراني»، حيث كثر فساد الزعر وعتوهم، فقالوا: «ليس لهم من يقمعهم إلا ابن الكوراني، فطلب في وقته، وخلع عليه، ونزل في موكب جسيم»[٢].

وفي سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م: خبر يقول:

«ضُرب كاشف الجيزة[٣]، لما شكوه الناس، بسبب أنه ظلم العباد والفلاحين، فشكوه إلى السلطان، ففعل به ما ذكرناه»[٤].

وتكررت الشكوى، فنجد في (سابع شعبان من العام نفسه): «... جماعة من الفلاحين وأهل البلاد، وقفوا للسلطان في يوم الأحد (سابعه)، وشكوا من أفعال قبيحة أوقعها فيهم من أخذ نساءهم وأولادهم وخدمهم، فطلب، وحاققوه على ذلك، وعلى أموال اقتطعها منهم بغير حق، فضرب عند ذلك بالمقارع[٥] ضربًا مبرحًا، وسلم إلى والي القلعة ليخلص منه أموال المسلمين، فضربه الوالي مرارًا بحضرة أخصامه»[٦].

---

(١) الصيرفي: المصدر السابق ١: ١١٤.

(٢) نفسه ١: ٣٥٩.

(٣) وهو «الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آص».

(٤) المقارع: جمع مقرعة، وهي السوط وكل ما قرعت به. (لويس معلوف اليسوعي: المرجع السابق، ٦٢١).

(٥) الصيرفي: المصدر السابق ١: ٢٤٤.

(٦) نفسه ٣٥٩.

وفي سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م :

في ربيع الأول : «... فلما عاد الأمير يشبك الدوادار الكبير ، وقف له جماعة من العوام ، وشكوا له من أمور الحسبة بأنها ضائقة ، وأن من بعد العصر ما يوجد الخبز على الدكاكين ، فعزل يشبك الجمالي ، وولى قاسم شغيته»[١] .

وفي سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م :

في شعبان : «... لما شق السلطان من القاهرة ، ارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وقالوا له جماعة من العوام ، أبطل عنا أمر المجامعة والمشاهرة التي على الحسبة ، فلم يلتفت إلى كلامهم ، وتغافل عن ذلك»[٢] ، ولما شق من الصليبية ، ضجت له العوام بالدعاء ، وذكروا له أمر الفلوس الجدد ، وأن البضائع صارت تباع بسعرين ، فلما طلع إلى القلعة ، نادى في ذلك اليوم بأن الفلوس تكون بنصفين الرطل ، وكانت بثلاثة أنصاف الرطل ، ففرح غالب الناس بهذه المناداة»[٣] .

وأمام حِرْص السلطة الحاكمة على تحري العدل والإنصاف ، وإرساء قواعده ، شعُرَت العامة بأهميتها وضرورة المطالبة بحقوقها ، وحرصت على أن تكون لها مواقف إيجابية ، نحو معارضة الظلم وتسلط بعض أفراد السلطة الحاكمة ، نذكر منها :

في سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م :

في يوم الخميس «الثالث من ربيع الآخر» ، خبر يقول :

رجمت العوام والغلمان القاضي «بهاء الدين بن البرجي» محتسب القاهرة ، وهرب منهم ، والتجأ إلى بيت سيدي أبي بكر ابن سنقر الحاجب ، واستقر عوضه

---

(١) ابن إياس : المصدر السابق ٣: ١٨٣.

(٢) نفسه ٤: ٣٢٦.

(٣) نفسه ٣٢٨.

عشية نهاره شمس الدين البجاسي على عادته»[1].

وفي سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م:

في رجب: «تغير خاطر السلطان على الأمير علاء الدين بن علي الطبلاوي، والي القاهرة، حيث قبض عليه، وأخيه وابن عمه وجميع عياله وحاشيته وأصحابه، وضربه وسجنه هو وأقاربه بالقلعة».

فكان للعوام رد فعلٍ، يذكره ابن إياس فيقول:

«فلما كان يوم السبت، «عاشر رجب»، طلع جماعة من العوام إلى الرملة، وعلى رؤوسهم أعلام ومصاحف شريفة، فوقفوا عند باب السلسلة، واستغاثوا، فأرسل إليهم السلطان بعض الأوجاقية وقال لهم: ما شأنكم؟ فقالوا: نسأل السلطان أن يشفعنا في الأمير علاء الدين بن الطبلاوي»، فلما سمع السلطان ذلك، حنق منهم وأرسل جماعة من المماليك، نزلوا من الطباق ومعهم قسي ونشاب، فأرموا على العوام، فتشتتوا وهربوا، ولم يلبث منهم أحد، كما قيل «السيف أصدق من أنباء الكتب»[2].

في سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م:

في شوال «سابع عشرينه»:

«... وفيه، ليلة الأربعاء، هرب الأمير شهاب الدين أحمد بن الزين والي القاهرة، فخلع على شرف الدين عيسى فلان الشافعي، عوضه في يوم الأربعاء، وقبض على ابن الزين وسلم إليه، وكادت العوام أن تقتله لبغضهم فيه، فضرب بالمقارع ضربًا مبرحًا عند فلان، وألزم بحمل ٤٠٠ ألف درهم»[3].

---

(١) الصيرفي: المصدر السابق ١: ٤٤٦.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق ١/ ٢: ٤٩٧.

(٣) نفسه ٥٤١.

وهكذا، تساند العامة مَن يقف في جانبها، ويعدل في حكمها، وتبغض الظالم، وتحاول أن تنتقم منه.

وفي سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م:

قدم قاصد من عند شاه رخ بن تمرلنك «تيمور لنك»، وصحبته هدية للسلطان، ومعها كسوة للكعبة، فأمر السلطان بإخفائها عن الأمراء وأرباب الدولة، فلما تسامع بها الأمراء شق عليهم، ونزلت طائفة من المماليك الجلبان[١] إلى الدار التي نزل بها القاصد، فنهبوا كل ما فيها هم والسواد الأعظم من العوام، ونهبوا نحو عشرة آلاف دينار، فلما بلغ السلطان ذلك رسم لحاجب الحجاب والوالي أن يدركوا رد النهب من الناس، فأدركوا بعض شيء من النهب ما بين خيول وقماش وسلاح وذهب عين، وقبض الحاجب على جماعة من المماليك والعوام، وكانت فتنة كبيرة ارتجت لها الأرض والقاهرة، فلما بلغ السلطان ذلك، قطع جوامك[٢] الكثير من المماليك، وضرب من العوام جماعة بالمقارع، وأمر بتتبع من كان سببًا في ذلك، واعتذر للقاصد، وأن ما حدث من غير علمه، وأرسل إليه جملة من المال أكثر مما نهب منه[٣].

ويضيف ابن إياس: «وقد حصل للقاصد من العوام غاية البهدلة له من السب والرجم، وغير ذلك، وتشوش السلطان غاية التشويش ولولا أنه كان دينًا لرسم

---

(١) الجلْبان: أو الأجلاب، فئة من فئات المماليك السلطانية، وتسمى أيضا المشتروات، وهي خاصة السلطان والأقرب إليه بين باقي مماليكه، جلبوا من سائر الأقطار إلى مصر واشتراهم السلاطين المماليك، فأصبحوا من المماليك السلطانية. (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت - دار الفكر المعاصر ١٩٩٠م، ١٢).

(٢) الجَوامِك: جمع جامكية، وهي الرواتب عامة، وكانت تصرف لمماليك السلطان شهريًا من مال وكسوة. (محمد قنديل البقلي: المرجع السابق، ٨٢).

(٣) ابن إياس: المصدر السابق ٢: ٢٤٤.

بقتل سائر العوام، ولكن دينه رده عن ذلك»[١].

والمثال هنا فريد من نوعه، فالغضب على السلطان المملوكي نفسه مباشرة، فلم يخشَهُ العوام، وعبَّروا عن غضبهم منه دون خوف أو تردد.

في سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م:

«... وقع اضطراب بالقاهرة، حيث لم ير الهلال يوم ٣٠ شعبان، وأكل الناس في أول يوم من رمضان، ونادى القاضي الشافعي بالإمساك، ثار عليه العوام، وقصدوا الإخراق به، فثبتت رؤية الهلال قريب الظهر، ولكن فطر غالب الناس في ذلك اليوم»[٢].

وفي سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م:

في واقعة هدم الأماكن: «... حصل غاية المقت من الناس على القاضي «فتح الدين السوهاجي» أحد نواب الشافعية، بسبب حكمه بهدم الأماكن...»[٣].

وفي سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م:

في ذي الحجة: «كان عيد النحر يوم الجمعة، وقد ثبت الشهر بالأربعاء في اليوم التاسع من ذي الحجة، فحنق السلطان من القاضي زكريا، وأشيع عزله، وقد فات الناس صوم يوم عرفة، والتكبير في صبيحته، وانطلقت ألسنة العوام على القاضي زكريا، وسبوه مجهرًا»[٤].

وفي سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م في ربيع الآخر:

«... ثار جماعة من العوام على الشيخ شهاب الدين أحمد الشيشيني الذي ولي

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق ٢: ٢٤٥.

(٢) نفسه ٣: ١٦٥.

(٣) نفسه ١٢٧ - ١٢٩.

(٤) نفسه ١٩٨.

قضاء الحنابلة، فيما بعد، وكادوا أن يقتلوه لولا أنه اختفى مدة طويلة حتى سكن الأمر، وسبب ذلك: نقل عنه أنه قد أفتى السلطان بحل ما يجبى إليه من أجرة الأملاك عن الشهرين الماضي خبرهما، فلما بلغ العوام ذلك ثاروا عليه وقصدوا قتله، فاستمر مختفيًا حتى توجه إلى مكة وجاور بها مدة»[1].

في سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م:

خبر خاص بفرض ضريبة جديدة بأجرة ٦ شهور على الأملاك:

«... فلما طلع الأتابكي قيت الرجبي إلى القلعة، وصلى الجمعة مع السلطان، ونزل، وقفت له جماعة كبيرة من العوام، وشكوا له أن أصحاب الأملاك ضيقوا عليهم، وطالبوهم بـ١٠ أشهر فعجلا بسبب هذه الغرامة، وما لهم من قدرة على ذلك، فلم يلتفت إلى كلامهم، فلما وصل إلى الجامع الصالح تجاه باب زويلة، كبروا عليه العوام، ورجموه، فجاءته رجمة في كلوته، فلما عاينوا المماليك ذلك سلوا سيوفهم، ووقعوا في العوام، وجرح منهم جماعة، وقتل نحو ثلاثة أنفار»[2].

وفي العام نفسه (٩٠٧هـ/١٥٠١م)، خبر آخر يقول:

«... طلب شخص من السلطان: «ألبسني خلعة، وأنا أضمن لك ٢٠٠ ألف دينار من غير رضا، ولا أسلة»، فعرف الأمراء، وكادت أن تثور فتنة بسبب ذلك، فاستدرك السلطان فارطه، وأحضر الرجل، وضربه بالمقارع، وأمر بقطع لسانه، وأشهره في القاهرة على جمل وهو عريان، فلما شق المدينة، كادت العوام أن ترجمه وتحرقه، ثم توجهوا به إلى المقشرة[3]، فسجن بها، وعد ذلك من

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) نفسه ٤: ١٧.

(٣) المقشرة: من سجون القاهرة في العصر المملوكي، وكان يقع بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين الجامع الحاكمي. (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢: ١٨٨ - ١٨٩. محمود رزق سليم: موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي، القاهرة - مكتبة الآداب ١٩٥٥م، ٢ /٢/ ١: ٢٩٨).

النوادر، وكان ضربه بالحوش بين يدى الأمراء حتى أرضاهم بذلك»[١].

في سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م:

تعليقًا على مجيء يحيى بن سبع أمير الينبع، يعتذر عما جرى منه في حق الحجاج، خبر يقول: «... فلما نزل من القلعة، كادت العوام أن ترجمه وتسبه سبًا فاحشًا، ولولا كونه صحبة الأمير الدوادار لرجموه لامحالة، فلما بلغ السلطان ذلك، نادى في القاهرة بأن لا أحد من الناس يتعرض لابن سبع ولا يسبه، ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة، فتكلم الناس في حق السلطان، بأنه أخذ من ابن سبع مالًا له صورة، وضيع حقوق الحجاج فيما فعل بهم»[٢].

ولم يقتصر موقف «العوام» الإيجابي على ما سبق، فكان لهم دور في نُصْرَة الحق، ونصرة المظلوم، نذكره في الموقف الآتي:

في سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م:

«... أراد صاحب دَين ألا يُدفَن المدين إلا بعد أن تقوم زوجته بدفع ما عليه من دين، فكان للعوام رد فعل: «... فقصدت العامة قتل صاحب الدين لا محالة، ورفعت الأمر بين يدى القاضي ابن الأمانة، أحد نواب الشافعية، فساس الأمر حسن سياسة، وعزر صاحب الدين أشد تعزير[٣]، هو والنقباء على عدم دفن الميت ورجوعه، وصلى على الميت ثانية وأمر بدفنه، فسكنت الفتنة»[٤].

هذا وقد تمثّل الرفض العامي في أوقات الغلاء أيضًا، والأزمات الاقتصادية،

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق ٤: ٢٣ - ٢٤.

(٢) نفسه ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٣) التعزير: في اللغة: اللَّوْم، فيقال عزَّرَ فلانًا، أي لامه. (لويس معلوف اليسوعي: المرجع السابق، ٥٠٣)

(٤) ابن إياس: المصدر السابق ٣: ١١.

فلم تصمت العوام، وعبَّرت عن رفضها في مواقف عدة؛ نذكر منها ما يلي:

في سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م: في صفر (عاشره):

«نادى السلطان أن يكون المثقال المصري بمائتين وثلاثين، والأفلوري بمائتين وعشرة بالفلوس، وأن يحط سعر الفضة المؤيدية فيصير كل نصف فضة بسبعة دراهم ...»، وكان رد فعل الناس: «... فهاج الناس وكثر اضطرابهم، فلم يلتفت إليهم، واستمر الحال، ثم أمر الوالي وهو المحتسب، أن يطلب السوقة والبياعين ويحط من سعر البضاعة بقدر ما انحط من سعر الذهب والفضة»[1].

في سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م: في ذي القعدة:

عز وجود اللحم الضأن والبقري، وارتفع سعره، وكذلك سعر القمح، مع كثرته وعلو ماء النيل، فثارت العامة على بدر الدين العيني «المحتسب»، ورجموه، لكونه كان محتسبًا، فأمر الوالي بتوسيط جماعة من العوام حتى شفع فيهم بعض الأمراء»[2].

في سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م:

في ربيع الأول: «... ماج الناس، وخافوا من النهب، فقد زاد فساد المماليك الجلب، وكثر أذاهم للناس، وأخذهم ما قدروا عليه من مال وحريم ...»[3].

في سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م:

في شوال: «وقعت غلوة خفيفة بالقاهرة، وتشحطت الغلال، وارتفع سعرها، فاستكعب الناس بالسلطان، وصار إذا شق من القاهرة يسمعوه الكلام المنكي»[4].

---

(١) الصيرفي: المصدر السابق ٢: ٤١٠.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق ٢: ١٠١.

(٣) الصيرفي: المصدر السابق ٢: ٤١٠.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق ٣: ٤٥.

ومن مظاهر الرفض أيضًا استخدم العوام «الشِّعْر والزَّجَل» في نقد السلطة الحاكمة، والتعبير عن الموروث الشعبي، والأمثلة على ذلك كثيرة:

في سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م:

على أثر سماع أخبار الخلاف بين الأمير يلبغا الناصري نائب حلب، والأمير سودون المظفري، يذكر الصيرفي موقف العامة فيقول: «... فلهج العوام بألسنتهم: «ديدنا من غلب، نايب حلب»، حتى إن الأطفال والإماء والعجائز صاروا لا ينطقون إلا بهذا الكلام»[١].

وفي السنة نفسها (٧٩١هـ/١٣٨٨م) خبر آخر يقول:

إن السلطان «برقوق» ألغى المكس المقرر على العامة، ورغم ذلك أصرَّ الصاحب كريم الدين على طلب المكس، وأن يدفعه العوام، فيقول الصيرفي:

«... فحصل بهذا الأمر قلقة كثيرة واضطراب عظيم في حق السلطان، وعزموا «العوام» على الفتك بالوزير وأعيان الدولة، وأجرى الله على ألسنة الخواص والعوام أن يقولوا: «السلطان من عكسه، عاد في مكسه»[٢].

وفي العام نفسه (٧٩١هـ/١٣٨٨م)، خبر ثالث:

انتهت السلطنة الأولى لبرقوق، وتولَّى «حاجي بن شعبان» وفي عهده أُشْهِرَ النداء بالحث على القبض على السلطان برقوق، فأظهر العوام الحزن الشديد على السلطان برقوق، ويتضح ذلك من تعليق الصيرفي حيث يقول: «... وتضاعفت الأدعية له (لبرقوق) من الخواص والعوام، وأظهروا الحزن والأسف على أيامه التي كانت كالأحلام ...»[٣]، ثم يواصل الصيرفي الكلام تعليقًا على موقف العوام،

---

(١) الصيرفي: المصدر السابق ١: ١٨٣.

(٢) نفسه ٢٢١.

(٣) نفسه ٢٢٨.

ويقول : «... وصار الناصري وأصحابه في غاية ما يكونون من الثقل على الناس ، وبغضوهم بغضًا زائدًا حتى أنهم أطلقوا القول فيهم جهارًا : «راح الظاهر وغزلانه ، وجاء الناصر وتيرانه»[١] .

في سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٢م :

في واقعة رؤية هلال شهر شوال[٢] ، التي ذكرها المقريزي ، فقال : «حادثة شنيعة» ، أنشد بعضهم لمحمود الوراق ، رحمه الله تعالى :

كُنا نفر من الولاة الجا ئرين إلى القضاة
والآن نحن نفر من جور القضاة إلى الولاة[٣]

وفي سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م :

حدث أن تمرد الأمير الأتابكي قرقماس الشعباني ضد السلطان جقمق[٤] ، فصنَّفَ «العوام» غناءً في ذلك : «فقالوا كلامًا ملحنًا مطولًا ، وصاروا يغنون به في أماكن المفترجات»[٥] .

يا قُرقماس إفو عليك عملت عملة وجت عليك[٦]

ويضيف ابن إياس : «... لما نزل في الحراقة ليتوجه إلى الإسكندرية ، فقاسى من العوام مالا خير فيه من سب وشتم حتى كادوا يرجمونه ، وكان غير محبب للناس»[٧] .

---

(١) الصيرفي : المصدر السابق ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) نفسه ٣: ٢٨٤.

(٣) من بحر مجزوء الكامل.

(٤) السلطان الظاهر ، سيف الدين ، جقمق ، الحادي عشر من سلاطين المماليك الجراكسة ، وقد حكم مصر في الفترة من «٨٤٢ - ٨٥٧هـ/١٤٣٨ - ١٤٥٣م» . (كليفورد : المرجع السابق، ١٠١) .

(٥) ابن إياس : المصدر السابق ٢: ٢٠٣.

(٦) زجل من بحر مجزوء الكامل .

(٧) ابن إياس : المصدر السابق ٢: ٢٠٣.

في سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م ، شهر ربيع الأول :

يذكر ابن إياس خبرًا يقول : «ولى السلطان «علي الشمس محمد البباوي» ناظر الدولة وقرره في الوزارة ، فقامت على السلطان الأشلة بسبب ذلك ، وعُدَّ من مساوئ خشقدم[١] ، فكان الرجل أُمي لا يقرأ ولا يكتب ، أصله طباخ من معاملين اللحم ، في كلامه غرثلة ، وعنده غترسة ، وشق ذلك على الناس لكونه لم يكن من أهل ذلك[٢] ، فقالوا :

قالوا البباوي قد وزر فقلت كلا ولا وزر
الدهر كالدولاب لا يدور إلا بالبقر[٣]

وقيل أيضًا :

تجنب العلم والفضايل وميل إلى الجهل ميل هايم
وكن حمارًا مِثل البباي فالسعد في طالع البهايم[٤]

وفي سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م :

رد السلطان قايتباي للناس مصادراتهم التي أُخذت منهم بسبب التجريدة العسكرية ، فتعجب الناس من ذلك[٥] ، وعبَّر الموروث الشعبي عن ذلك فقيل في المعنى :

كنا نؤمل أن ننال بجاهكم خيرًا يكون على الزمان معينًا

---

(١) السلطان المملوكي خشقدم ، الثامن والثلاثون من سلاطين المماليك ، وأول ملوك الروم بمصر في العصر الجركسي ، حكم في الفترة من «٨٦٥ - ٨٧٢هـ/١٤٦٠ - ١٤٦٧م» . (كليفورد : المرجع السابق ، ١٠١) .

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ٢: ٤١٥ - ٤١٦.

(٣) شعر من بحر الرجز .

(٤) شعر من بحر مخلع البسيط .

(٥) ابن إياس : المصدر السابق ٣: ٥٦.

والآن نقنع بالسلامة منكم لا تأخذوا منا ولا تعطونا[١]

وفي سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م خبر يقول:

عُزل بدر الدين المكيني عن قضاء الشافعية، وتولى بدلا منه عبد القادر بن النقيب، وقد عزل عنها، والناس غير راضية عنه[٢]، فقيل في المعنى:

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق[٣]

وفي سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م في المحرم خبر يقول:

«وفيه اشتد أمر الغلاء جدًا، حتى أبيع القمح كل أردب بستة دنانير، وأبيعت البطة الدقيق[٤] بأربعمائة وخمسين درهمًا، وأبيع خبز الذرة، ولم يظهر خبز الذرة فيما تقدم من الغلوات المشهورة، حتى صنف العوام رقصة، وهم يقولون[٥]:

زويجي ذي المسخرة يطعمني خبز الذرة[٦]

وفي سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م:

فرضت ضريبة على الأملاك والأوقاف، فقالت بعض الموالة[٧] في المعنى[٨]:

---

(١) شعر من بحر الكامل.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق ٣: ١٨٣.

(٣) شعر من بحر الوافر.

(٤) البطة الدقيق: البطة مكيال شهير من المكاييل المصرية في العصر المملوكي، والبطة من الدقيق توازي ٥٠ رطلًا أو سعة ٢٤ قدحًا. (فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يقابلها في النظام المتري، ترجمة د. كامل العسلي، الأردن ـ منشورات الجامعة الأردنية ١٩٧٠م، ٦٠).

(٥) ابن إياس: المصدر السابق ٣: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٦) شعر من بحر الهزج.

(٧) المَوَّالَة: لفظ عامي «جمع»، ربما يُقصَد به قائلو الموال. (أحمد تيمور: معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، إعداد وتحقيق د. حسين نصار، القاهرة ـ دار الكتب والوثائق القومية ٢٠٠١م، ١: ١٩١).

(٨) ابن إياس: المصدر السابق ٣: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

غرِمت شهرين عن أجرة مكاني أمس وأصبحت مغموس في بحر المغارم غمس
أقسم ورب الخلايق والقمر والشمس ما طقت شهرين كيف أقدر أطيق الخمس[١]

في سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م:

في ذي القعدة خبر يقول:

«كثر الحريق بالقاهرة، وصار في كل ليلة يحترق عدة أماكن بسبب الدريس الذي يكون ببيوت الأتراك، وكانت المماليك أكثرت من خزن الدريس في هذه السنة، وصارت المماليك يمسكون الناس من الطرقات غصبًا ويحبسونهم عندهم أيامًا بسبب نقل الدريس، وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك، حتى صنفوا العوام رقصة وهم يقولون[٢]:

اهرب يا تعيس وإلا يحملوك الدريس[٣]

في سنة ٩١٤هـ /١٥٠٨مخبر يقول:

في يوم الأحد، وهو الثلاثون من رمضان، غُمي الهلال ولم يُر، فقامت الأشلة على قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل، وقالوا قد فطرنا في أول رمضان صومنا في يوم العيد، وقيل في المعنى:

يا قاضيًا بات أعمى عن الهلال السعيد
أفطرت في رمضان وصمت في يوم عيد[٤]

وقيل أيضًا:

إن قاضيًا لأعمى أم على عمد تعامي

---

(١) موال.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق ٤: ٩٢.

(٣) زجل من بحر مشطور البسيط.

(٤) شعر من بحر مجزوء الخفيف.

سرق العيد كأن الـ عيد من مال اليتامى[1]

في سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م :

عزل قاضي شريف هو «علاء الدين الأخميمي» :

«عزل والناس عنه راضية ، وحاز الثناء الجميل من الدين والخير ومنع الرشوة ، لا يتعاطى شيئًا من معلوم الأنظار ، بل كان ينعم بذلك على طلبة العلم والفقهاء وغير ذلك[2] ، ثم عين السلطان شخصًا آخر «حسام الدين محمود» ، بن قاضي القضاة سري الدين عبد البر بن الشحنة في قضاء الحنفية ، وكان شابًا قليل الرأسمال من العلم ، لم يكن في طبقة علماء الحنفية ممن ولي وظيفة قضاء الحنفية ، سعى بـ٣ آلاف دينار ليلي الوظيفة ، وقد استكثر غالب الناس على الشاب محمود وظيفة القضاء ، وفيه قال القائل[3] :

لا واخذ الرحمن سلطاننا أقفاله بالطبع رهاجه
ولى علينا للورى قاضيًا ما كان للدهر به حاجة[4]

والطريف أن العوام لم تكتف بالرفض ونقد السلطة الحاكمة ، بل إنها لم تتردد في التعبير عن مشاعر الحب أو الكراهية لأفراد السلطة الحاكمة ، سواء عند توليتهم أو عزلهم ، وأمثلة ذلك كثيرة ، ومنها :

في سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م ، شهر ربيع الآخر ، خبر يقول :

«... في الشهر نفسه ، أشيع خبر الإفراج عن والي القاهرة ، فكان للعوام رد فعل : «فاجتمع لخروجه من الناس عدد لا يحصيه إلا الله تعالى ، وظنوا أنه قد أفرج

(١) شعر من مجزوء الرمل .

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ٤: ٤٦٠.

(٣) نفسه ٤٧٧.

(٤) زجل من بحر السريع .

عنه، فاشتروا من الزعفران، وأوقدوا له الشموع ما يبلغ ثمنه ألوف الدراهم، فلما أيسوا منه انقلبوا خائبين...»[١].

وفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م:

عند سلطنة «المنصور عز الدين أبو العز عبد العزيز بن برقوق» على غير رضا من العوام والناس: «... ولم تدق البشائر على العادة، ولا زينت القاهرة، وأصبح الناس في سكون وهدوء، فنودي بالأمان والدعاء للملك المنصور، فلم يضج الناس له بالدعاء، فعُدَّ ذلك من النوادر الغريبة»[٢].

وفي سنة ٩١٧هـ/١٥١١م:

عند وفاة الأمير طراباي الشريفي رأس نوبة النوب: «رُجت لموته القاهرة، وفرح بذلك الناس، فإنه كان صارمًا عسوفا شَّديد البأس، زائد القسوة، حصل منه الضرر الشامل لجماعة كبيرة»[٣].

في سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م: مثال إيجابي ودعاء بالخير للسلطان:

«ارتفعت الأصوات له بالدعاء، وكان محببًا للناس ولا سيما العوام، لهج الناس أنه سيعود سلطانًا، وكان الأمر كذلك»[٤].

ونظرًا لأهمية العوام، استعان «أهل الدولة» بهم كثيرًا في بعض الأمور، كعزل قاضٍ وتولية آخر، ونذكر من ذلك:

في سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م:

يذكر الصيرفي هذا الخبر ويقول:

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق ١/ ٢: ٥٢٣ - ٢٥٤.

(٢) نفسه ٧٣٠.

(٣) نفسه ٤: ٢٣ - ٢٤.

(٤) نفسه ٣: ٤٥١.

«ثم إن العوام توجهت إلى بيت أيدكار، وازدحموا عليه حتى أحضروه إلى منطاش، فأكرمه ورحب به وأدناه»(١).

وهكذا، شارك العوام فيما يمر بالدولة من أحداث سياسية، وأسهموا في القبض على الأفراد الأتراك المطلوبين من جانب السلطة الحاكمة.

في سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م:

وهذه حالة فريدة، في تولية القاضي «جلال الدين ابن البلقيني» لقضاء قضاة الشافعية بدلًا من شمس الدين الهروي، فيذكر الصيرفي هذا الخبر ويقول: «... ولم يزالوا يغضبون السلطان عليه، إلى أن عزله، وحسنوا له تولية «ابن البلقيني»، وبلغوه أن العوام، وأهل البلد الأكابر والأصاغر، والأماثل والأراذل حتى أهل الذمة لا يرضون إلا بابن البلقيني، وليس فيهم أحد يريد الهروي، ولا يلتفت إليه ولا ينظره، وإن اراد السلطان حقيقة ذلك، فيوليه في الجامع المؤيدي، ويجلس وينظر إلى مصر وأهلها من الفرح والسرور والدعاء لمولانا السلطان»(٢).

ويضيف الصيرفي:

«وأعلموا العوام بذلك، فتجمَّعوا من كل مكان، وملأوا الأراضي والبيوت والحيطان، وأشار أهل الدولة على القاضي «ابن البلقيني» أن يركب من باب سر المؤيدية، ويطلع من باب الفرج حتى جاء على باب زويلة، ومر بين يدي السلطان، وهو راكب وحوله وبين يديه وأمامه أهل مصر قاطبة، لا يُستثنى من رؤسائهم أحد، حتى أحاطوا بجوانب الجامع بحيث أن أحدًا ما يقدر يصل إليه ويمر بين يديه إلا بعنف شديد، فدهش السلطان من ذلك»(٣).

---

(١) الصيرفي: المصدر السابق ١: ٢٣٩.

(٢) نفسه ٢: ٤٤٤.

(٣) نفسه.

وفي سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م :

حدث خلاف بين السلطان والمحتسب القاضي «صدر الدين أحمد بن العجمي» ، واختفى في بيت الأمير الدوادار «مقبل» ، فكان للعوام رد فعل : «قصد العوام باب الأمير مقبل الدوادر ، وصاحوا صيحة واحدة ، ما نريد إلا هذا المحتسب ...»[1] .

ويضيف الصيرفي : «التفت حوله الناس ، وصارت تطلبه يخرج حتى خرج ، وقَبل تولية الحسبة ، فخرج واجتمع حوله من الخلائق والعوام عدد كثير ، وكان له يوم مشهود»[2] .

وبعد ،،،

نعم كان للعوام في أحيان كثيرة كلمةٌ نافذة ، وموقف إيجابي نحو رفْع الظلم ، إلا أن هذا لم يمنع في بعض الأحيان أن يتعرضوا للعسف والظلم عقابًا لهم على جرأتهم في النقد أو التعبير عن الرفض ، ونذكر من ذلك :

في سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م :

في شوال : «قبض والي القاهرة على جماعة من أراذل العامة وضربهم وشهرهم ، ونودي عليهم : «هذا جزاء من يكثر فضوله ، وتكلم فيما لا يعنيه» ، ثم نودي من الغد بالأمان ، وأن من تحدث فيما لا يعنيه ، ضرب بالمقارع ، وسمر ، فسكن الناس !!»[3] . أرذال العامة، وضربهم ، وشهر .

---

(١) الصيرفي : المصدر السابق ٤٦٨.

(٢) نفسه .

(٣) ابن إياس: المصدر السابق ١/ ٢: ٥٨٧.

وبعد ،،،

لماذا ثار العوام؟ أو ما الدوافع التي وقفت وراء رفضهم أو اعتراضاتهم أو احتجاجاتهم؟

في واقع الأمر لقد تعددت دوافع ثورات العوام في العصر المملوكي «الجركسي» ، نذكر منها ما يلي :

- ظلم الولاة والكشاف .
- غلاء الأسعار ، ووقوع الأزمات الاقتصادية .
- فساد المماليك الجلبان ، والتعدي علي الناس[1] .
- المصادرات السلطانية ، وتكرار فرض المكوس «الضرائب» بشكل مبالَغ فيه .
- التعرض لهجوم المنسر[2] واللصوص[3] .
- التجاريد العسكرية ، وما تستلزمه من نفقات وتجهيزات .
- حدوث الأوبئة والطواعين .

---

(١) نجد أمثلة كثيرة في فترة العصر الجركسي لهذا الفساد في أخبار السنوات : سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨، ٨٣٨هـ/١٤٣٤م، ٨٤١هـ/١٤٣٧م، ٨٥٩هـ/١٤٥٤ م، ٨٦١هـ/١٤٥٦م، ٨٧٧هـ/١٤٧٢م، ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، ٨٩١هـ/١٤٨٦م، ٨٩٤هـ/١٤٨٨م، ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، ٩٠٤، ١٤٩٨م، ٩١١هـ/١٥٠٥م، ٩١٢هـ/١٥٠٦م. (راجع ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٢: ١٢٤، ١٥٩، ١٧٦، ٣٢٤؛ ٣: ٨٢، ١٩٥، ٢٣٣، ٢٦٦، ٣٥٩؛ ٤: ٨٧، ١٠٧).

(٢) المَنْسَر : أو المَنْصَر ، لفظ عامي ، يُطلَق علي مجموعة من اللصوص وقُطّاع الطرق الذين اعتادوا السَّطْو على الأسواق للسرقة والنهب . (أحمد تيمور : المرجع السابق، ٥: ٤٠٤).

(٣) نجد أمثلة كثيرة في فترة العصر الجركسي لهذا الهجوم في أخبار السنوات : ٨٦٥هـ/١٤٦٠م ، ٨٩٠هـ/١٤٨٤م ، ٨٩١هـ/١٤٨٥م ، ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤، ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧، ٩٠٥هـ/١٤٩٩م. (راجع الصيرفي: السلوك، ٣: ٥٤٢. نزهة النفوس، ١: ١٢٩. ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، من سنة ٨٥٧ ـ ٨٧٢هـ ، مصر ـ دار المعارف ١٩٥١م ، ٦٠. بدائع الزهور، ٣: ٢١٨، ٢٣٣، ٣٠٦، ٣٨٢، ٤٣٤).

وأمام هذه الاحتجاجات، هل كان للسلطة الحاكمة سياسة محددة نحو «العوام» في حالات السلب والإيجاب؟ سؤال نطرحه، ونجيب عنه فيما يلي من سطور.

سياسة السلطة الحاكمة «الدولة الجركسية» نحو العوام في حالات الإيجاب والسلب:

لقد انتهجت السلطة الحاكمة في العصر المملوكي الثاني«سلاطين وأمراء»، وأيضًا كبار رجال الدولة، سياسة خاصة تجاه العوام، سياسة محورها الحفاظ على هذا القطاع الكبير من الشعب المصري، وكسب وُدِّه ورضاه، بل تأييده في كثير من الأحيان، فاستقرار العلاقة مع العوام كان يعني استقرار حكم السلطة الحاكمة، وتوترها كان يؤدي إلى عدم الاستقرار والتوتر السياسي، ومن هنا حرصت السلطة الحاكمة على التقرب للشعب، والعوام خاصة، حيث الاهتمام بالمشاريع العمرانية والإصلاحية، من بناء المساجد والمدارس والخانقاوات، ودُور العلاج، والرعاية الاجتماعية، وكثرة الصدقات ... إلى آخره.

أما في حالة السلب وتوتر العلاقة بينها والعوام، فكان العسف والقسوة والعنف مع العوام والإيذاء البدني والجسماني.

وبعد، من خلال هذا العرْض التاريخي السابق لأخبار «العوام» و«السلطة الحاكمة»، بِمَ تميزت العلاقة بين العوام والسلطة الحاكمة؟ وبم اتَّسم موقف كلٍّ منهما تجاه الآخر؟

تتلخص الإجابة في أنه قد تميزت العلاقة بين «العوام» و«السلطة الحاكمة» بالإيجاب ـ في أغلب الأوقات ـ أكثر من السلب، ومن الطرفين على حدٍّ سواء، فموقف السلطة الحاكمة تجاهالعوام كان إيجابيًا، وتمثَّلت مظاهر هذا الإيجاب في: حرْص السلطة الحاكمة على تحري العدل والإنصاف في الرعية، ورفْع الظلم عن أفراد الرعية عامة و«العوام» خاصة، وسرعة الاستجابة لمطالبهم، خاصة

«العوام»، وتخفيف العبء عنهمبإلغاء الضرائب أو بتقليل قِيمتها، وفي العناية بإنشاء المؤسسات الخدمية «علمية وطبية واجتماعية»، من مدارس وجوامع وزوايا وخانقاوات، ومستشفيات، ودُور سبيل ومراكز لرعاية الأيتام وغيرها، مع العلم بأن هذا الإيجاب لم يمنع ـ في قليل من الأحيان ـ استخدام العنف أو العسف مع العوام.

كما تميز موقف «العوام» تجاه «السلطة الحاكمة» بالإيجاب في حالتَي التأييد والرفض على حد سواء، ومظاهر هذا الإيجاب في «حالة التأييد» تتمثل في: إظهار التأييد الشعبي لأغلب سلاطين المماليك، وفي المشاركة في الوفود الرسمية، وفي جميع الاحتفالات السلطانية السياسية والاجتماعية، وفي أدعية الخير للسلطة الحاكمة وأفرادها، والابتهاج بهم ولهم.

أما في «حالة الرفض العامي» فيتمثل الإيجاب في: حرص العامة على استخدام حقها في المطالبة بما لها من حقوق، والتعبير عن مشاعرها في الفرح والغضب، وفي الحب والكراهية، وفي الوقوف بجانب السلطة الحاكمة عند طلب المساعدة أو المساندة.

وبعد، ما الطرق التي عبّرت بها «العوام» عن الرفض تجاه «السلطة الحاكمة»؟ لقد تبلورت وسائل «الرفض العامي» في:

الشكوى للسلطان وأعوانه من أفراد السلطة الحاكمة، سواء بالمقابلة الشخصية، أو بإرسال الشكوى للقصر السلطاني، واستخدام الشعر والزجل في النّقْد والسخرية، والتعرض لأفراد السلطة الحاكمة ـ مَوْضِع الظلم ـ بالرَّجْم والحرق أحيانًا، والثورة وأعمال الشغب، والسب والشتائم والهجاء، والتكبيرعلى أفراد السلطة الحاكمة والدعاء عليهم، وأعمال النهب والسلب من جانب «أشرار العوام».

وأخيرًا : هل ترتَّبتْ على طبيعة العلاقة بين السلطة الحاكمة و«العوام» في حالتي الإيجاب والسلب آثارٌ كان من شأنها التأثير في المجتمع المصري؟

تساؤل نجيب عنه فيما يلي :

الآثار المترتبة على العلاقة بين العوام والسلطة الحاكمة :

في واقع الأمر، لقد ترتبتْ على العلاقة بين السلطة الحاكمة والعوام في حالتَي السلب والإيجاب آثار عدة، نذكر منها :

أولًا : في الإيجاب كان :

- الاستقرار السياسي للسلطة الحاكمة في المجتمع .
- نشاط الحركة الاقتصادية من بيع وشراء في الأسواق .
- استقرار الأمن والنظام في المجتمع .
- مساندة السلطة الحاكمة ومعاونيها، في كثير من الأحيان .
- المشاركة في كل الاحتفالات والتجمُّعات السياسية والاجتماعية للسلطة الحاكمة .
- القيام بأداء مختلف أنواع الخدمات في المشروعات الإصلاحية للسلطة الحاكمة .

ثانيًا : في السلب :

في حالة السلب وتوتُّر العلاقة بين «العوام» والسلطة الحاكمة، ينعكس ذلك على المجتمع المصري «بوجه عام» على النحو التالي :

- انتشار التوتر وعدم الاستقرار السياسي .
- توقف نشاط الحركة الاقتصادية بإغلاق الأسواق التجارية .
- انتشار حالة من الفوضى داخل المجتمع .
- إخلال النظام الأمني بانتشار أعمال النهب والسلب، وكثرة السرقات .

نتائج الدراسة :

خَلُصت الدراسة إلى عدة نتائج مهمة ، تَكْمُن فيما يلي :

ـ حرصت السلطة الحاكمة في مصر الإسلامية ، منذ قيامها «خلفاء وسلاطين وأمراء» على مراعاة الشعب المصري ، بجميع طوائفه وفئاته ، خاصة «العامة أو العوام» وتيسير أحوال معيشتهم ، وتخفيف العبء عن الطبقات الفقيرة الكادحة .

ـ شكَّل «العوام» قطاعًا مهمًا من قطاعات الشعب المصري ، في العصر المملوكي بدولتَيْهِ «الأولى والثانية» على حدٍّ سواء ، ولعبت دورًا سياسيًا مهمًا في أحداث أمور الدولة ومجرياتها .

ـ تميَّز العامة أو «العوام» بالشجاعة في التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم نحو كثير من حوادث مجتمعهم ، مما دفعهم في بعض الأحيان إلى التعرُّض للكثير من العقاب الجسماني الشخصي .

ـ عمل الكثير من سلاطين المماليك على إحقاق الحق ، وإرساء قواعد الشَّرْع ، وتحرِّي العدل والإنصاف بين الرعية في مصر .

ـ عمل الكثير من سلاطين المماليك على كسب وُدِّ العامة «العوام» عن طريق عدَّةِ وسائل ؛ منها : إلغاء الضرائب ، والصدقات الكثيرة ، وبناء دُور العلم والرعاية الاجتماعية والصحية ... وغيرها .

ـ لعبت الحالة الاقتصادية ومدى استقرارها دورًا مهمًا في تشكيل دوافع العوام نحو تقبُّل السلطة الحاكمة والرضا نحوها .

ـ عاونت «العوام» السلطة الحاكمة ، في كثير من الأحيان ، مما دعا السلطة الحاكمة للاعتماد عليها في أحيانٍ كثيرة خلال العصرَيْنِ «المملوكي الأول والثاني» ، على حد سواء .

ـ كان لتوتر العلاقة بين «العوام» والسلطة الحاكمة أثرٌ سلبي على استقرار المجتمع، مما دفع أصحاب السلطة إلى تلبية مطالب العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من أجل تحقيق استقرار الأوضاع كافة.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر العربية

الأدفوي، كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، القاهرة ـ المطبعة الجمالية ١٩١٤م.

ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس (٩٣٠هـ/١٥٢٣م)

بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، فيسبادن ـ مطبعة فرانز ستاينر ١٩٧٥م، عدة أجزاء.

صفحات لم تنشر من بدائع الزهور، من سنة ٨٥٧ ـ ٨٧٢هـ، تحقيق د.محمد مصطفى، مصر ـ دار المعارف ١٩٥١م.

ابن أيبك الصفدي، صلاح الدين خليل (٧٣٦هـ/١٣٣٥م)

نكت الهميان في نكت العميان، القاهرة ـ المطبعة الجمالية ١٩١١م.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، (٢٥٧هـ/٨٧٠م)

فتوح مصر وأخبارها، عني بتصحيحه ونشره هنري ماسيه، باريس ـ مجلس المعارف الفرنساوي ١٩١٣م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ـ ٢٠٠٩م.

ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، القاهرة ـ ١٩٣٠م، عدة أجزاء.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ/١٢٨٢م)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، تحقيق إحسان عباس، لبنان ـ دار الثقافة، بدون تاريخ.

ابن الزيات، شمس الدين محمد (ق ٩هـ/١٥م)
الكواكب السيارة في ترتب الزاة في القرافتين الكبرى والصغرى، القاهرة - المطبعة الأميرية ١٩٠٧م.
ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع (٦٣٢هـ/١٢٣٤م)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بكتاب «سيرة صلاح الدين»، القاهرة - مكتبة محمد صبيح، بدون تاريخ.
ابن عطاء الله السكندري، تاج الدين بن عطاء الله السكندري(٧٠٩هـ/١٣٠٩م)
لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبو الحسن، القاهرة - المكتبة السعيدية ١٩٧٢م.
ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (٧١١هـ/١٣١١م)
لسان العرب، القاهرة - الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ.
البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المديني (ق ٤هـ/١٠م)
سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق - ١٩٤٠م.
الزبيدي، محمد مرتضى الزبيدي
تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت - دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ، عدة مجلدات.
الشيزري، عبدالرحمن بن عبد الله بن نصر (٥٨٩هـ/١١٩٣م)
نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦م.
الصيرفي، الخطيب الجوهري، نور الدين علي بن داوود (٩٠٠هـ/١٤٩٤م)
نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق د.حسن حبشي، القاهرة - دار الكتب١٩٧٠م.
القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ/١٤١٨م)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة - المطبغة الأميرية ١٩١٣م، ١٩١٣ - ١٩١٩م، ١٤ جزءًا.
الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المصري (٣٥٥هـ/٩٦٥م)
الولاة والقضاة، صححه فن جست، بيروت - مطابع الآباء اليسوعيين ١٩٠٨م.
النابلسي، فخر الدين عثمان بن إبراهيم، ق ٧هـ/١٣م
لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية، القاهرة - مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.
ناصري خسرو، أبو معين ناصر خسرو (القرن ٥هـ/١١م)

«سفرنامة» رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن ه الهجري ، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب ، القاهرة ـ ١٩٩٣م .
المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م)
إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، جمال الدين الشيال ، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م .
السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ـ دار الكتب ١٩٧٠م .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، تحقيق د.محمد زينهم ومديحة الشرقاوي ، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ١٩٩٨م .

ثانيا : المراجع العربية

إبراهيم أحمد العدوي : «دكتور»
مصر الإسلامية «مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية» ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م .
أحمد تيمور :
معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية ، إعداد وتحقيق د.حسين نصار ، القاهرة ـ دار الكتب والوثائق القومية ٢٠٠١م ، ٦ أجزاء .
آدم متز :
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ٢، ط ٢، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨م .
السيد محمد ديب :
الحياة الاجتماعية كما صورها البوصيري ، مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة المنصورة ، المنصورة ، العدد ٥، ١٩٨٤م .
برنارد لويس :
النقابات الإسلامية ، مجلة الرسالة ، العدد ٣٥٥، القاهرة ، ١٩٤٠م .
حسن أحمد محمود و«منى حسن أحمد محمود» : «دكتور»
مصر الإسلامية «منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية» ، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٩٩٠م .
حياة ناصر الحجي : «دكتور»
أحوال العامة في حكم المماليك «٦٧٨ ـ ٧٨٤هـ» ، الكويت ـ شركة كاظمة ١٩٨٤م .

خير الدين الزركلي :
الأعلام «قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين» ، ط ٣، بيروت ـ ١٩٦٩م .
زامباور :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، أخرجه د.زكي محمد حسن ، د.حسن أحمد محمود ، القاهرة ـ مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١م .
سعيد عبد الفتاح عاشور : «دكتور»
المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ـ الأنجلو المصرية١٩٦٢م .
عبد المنعم سلطان : «دكتور»
المجتمع المصري في العصر الفاطمي ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٥م .
علي إبراهيم حسن : «دكتور»
مصر في العصور الوسطى ، ط ٢، القاهرة ـ النهضة المصرية ١٩٤٩م .
عمر رضا كحيلة :
معجم المؤلفين ، القاهرة ـ مؤسسة الرسالة ١٩٩٣م ، عدة أجزاء .
عمر عثمان الشبراوي : «دكتور»
عامة بغداد من ظهور السلاجقة حتى سقوط الخلافة العباسية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٩١م .
فالتر هنتس :
المكاييل والأوزان الإسلامية وما يقابلها في النظام المتري ، ترجمة د.كامل العسلي ، الأردن ـ منشورات الجامعة الأردنية ١٩٧٠م .
فهمي عبد الرازق سعد :
العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، بيروت ـ الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٨٣م .
قاسم عبده قاسم : «دكتور»
أهل الذمة في مصر ، ط ٢، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٩م .
كليفورد . أ . بوزورث :
الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي «دراسة في التاريخ والأنساب» ، ترجمة حسين علي اللبودي ، د.سليمان إبراهيم العسكري ، ط ٢، القاهرة ـ مؤسسة الشراع العربي بالاشتراك مع عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٥م .

لويس معلوف اليسوعي :
المنجد في اللغة ، بيروت ـ دار الشروق ٢٠٠٢م .
محمد أحمد دهمان :
معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، بيروت ـ دار الفكر المعاصر ١٩٩٠م .
محمد زغلول :
الأدب في العصر الأيوبي ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٧م .
محمد فخر الدين :
مصر في ظل الحكم الإسلامي ، مصر ـ مطبعة الصاوي ، بدون تاريخ .
محمد قنديل البقلي :
التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م .
محمود رزق سليم : «دكتور»
موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي ، القاهرة ـ مكتبة الآداب ١٩٥٥م .
محمود محمد الحويري : «دكتور»
مصر في العصور الوسطى «دراسة في الأوضاع السياسية والحضارية» ، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٦م .
المعجم الوسيط ، القاهرة ـ دار المعارف ، بدون تاريخ .
وزارة التربية والتعليم :
المعجم الوجيز ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .
هاملتون. آ. ر. جب : «سير»
صلاح الدين الأيوبي ، ط ٢، بيروت ـ بيسان للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٩٦م .
يوليوس فلهوزن :
تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة د.عبد الهادي شقيرة ود. حسين مؤنس ، القاهرة ـ ١٩٥٨م .

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ١٩٧ ـ ٢٣٩

أَثَرُ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى الحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ فِي مِصْرَ العُثْمَانِيَّةِ

ماجدة منصور

ثمَّة عِدَّة تعريفات للتَّصَوُّف، جعلت تعريفه أمرًا نسبيًّا، فقد زادت تلك التعريفات ـ عند مؤرخي التصوف القدماء ـ عن الألف[1]، وزادت فيما بعد.

والحقيقة أن الصعوبة في إيجاد تعريف متَّفق عليه للتصوف منذ بداية الكتابة عنه حتى الآن أمر من الصعوبة بمكان، وذلك ـ بطبيعة الحال ـ يعود إلى عدة أسباب مختلفة.

فالتصوف كلمة اختلفت الآراء كثيرًا في تاريخ ظهورها، وحول الأصل الذي تُرَدُّ إليه، وهو أيضًا ظاهرة، تباينت وجهات نظر الباحثين بشأن مصدرها؛ فمنهم من أرجع التصوف إلى أصول إسلامية بحتة، ومنهم من أرجعه إلى مصادر إسلامية وغير إسلامية، وإذا كان الاختلاف قد طرأ حول تاريخ ظهور الكلمة، وحول أصلها اللغوي، وكذا حول مصدر التصوف نفسه، فطبيعي أن ينشأ خلاف حول التعريف الأمثل للتصوف، ومن الصعوبة بمكان احتواء تلك التعريفات في تعريف واحد مقنع لكل إنسان، ولكل زمان ومكان.

---

(١) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف، ملحق بكتاب إحياء علوم الدين للغزالي، المكتبة التجارية.

وهناك قضية مهمة، وهي اختلاف النظرة إلى التصوف في الماضي والحاضر، وهذه نتيجة منطقية؛ لتغُّير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية الطارئة على حياة الإنسان، ولمَّا كان الإنسانُ موضوعَ التصوف، فإن نظرة الإنسان تختلف من عصر إلى عصر، وهذا ما نراه من خلال تتبُّعنا تاريخَ التصوف.

قال عنه معروف الكَرْخِي: التصوف هو: «الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف»[1]، أما ذو النون المصري فقد سُئل عن الصوفية فقال: «هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء، فآثرهم الله على كل شيء»[2]، وقال بعضهم: «التصوف كله اضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف، والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية»[3].

أما محيي الدين بن عربي فيقول إن التصوف «هو الاسترسال مع الله تعالى، فهو عيش مع الله ولله وفي الله وبالله، وهو حفظ للأوقات وإسقاط للتدبير، وخوف من الله، ورجاء في الله، وهو سلب لأوصاف النفس المذمومة، وتحْلية لها بالأوصاف المحمودة، وهو بَعد كل ذلك تجريدٌ للتوحيد، فلا يشوب القلب خاطر شيطاني فيفسده، ولا هوى فيظلمه، وهو كشْفٌ عن الخواطر، وبحْثٌ عن كل ما يحظر على سر الصوفي، فيسترسل مع ما هو حق ويتجنب ما هو باطل»[4]، وقال الكتانيُّ: «التصوفُ صفاءٌ ومشاهدةٌ»، وقد زكَّى هذا التعريف بعض متصوفة العصر الحديث[5].

---

(١) عبد الحليم محمود: قضية التصوف (المدرسة الشاذلية)، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٣م، ٤١٦.

(٢) السهروردي البغدادي: المرجع السابق، ٦٢.

(٣) عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، الكويت ـ وكالة المطبوعات ١٩٧٨م، ١٧.

(٤) السهروردي البغدادي: المصدر السابق، ٦٤.

(٥) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، القاهرة ١٢٩٣هـ، ١: ٥٢٠.

أمَّا شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر «أبو الوفا التَّفْتَازانيّ» فقد عرَّفه بقوله : «إن التصوف بوجه عام فلسفة حياة وطريقة معينة في السلوك ، يتخذهما الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي ، وعِرفانه بالحقيقة وسعادته الروحية»[١] .

أما عن الأصل اللُّغوي لكلمة «الصوفي» فقد قيل عنه الكثير من الآراء من قِبَل قدامى الصوفية ، ولا تزال الأبحاث المعاصرة تبحث في مدى صحة كل رأي من هذه الآراء ؛ فالقُشَيْري ـ على سبيل المثال ـ يرى أن التصوف لقب ليس إلا ، ولا يَشهد له اشتقاقًا من جهة العربية ولا قياسًا ، على حين يرى البعض أن الأُصل اللغوي لهذا المصطلح يرجع إلى «غَوْث بن مر» ، وكان يسمَّى باسم «صوفة» ، وهو أول شخص تصوَّف[٢] .

وثمَّة قائل باحتمال أن يكون أصلها منسوبًا إلى كلمة «صوفيا» اليونانية ، وذلك بالمعادلة بين «ثيو صوفيا Theosophie» و«تصوف»[٣] ، وقد ذهب البيروني إلى أن لفظة صوفي إنما ترجع إلى لفظة «صوفيا» اليونانية ومعناها الحكمة ، وقد ذهب مذهبَ البيروني طائفة من الباحثين المحدثين الذين زعموا أن التصوف الإسلامي ـ سواء في اسمه أو في منهجه وموضوعه ـ إنما هو أثر من آثار الفلسفة اليونانية ، ومن هؤلاء فون هامر VON HAMER[٤] .

وهناك من قال إنه نسبة إلى «صوفة القفا» ، أي ما يتدلَّى من القَفَا من شَعر كانوا يرسلونه مُتَلَبدًا مُشَعَّثًا كالصوف ، وقيل إنه منسوب إلى أهل الصُّفَّة ، وقيل منسوب إلى الصف المقدَّم بين يدي الله تعالى[٥] ، وهناك من قال إنه منسوب إلى

---

(١) عبد الحليم محمود : المرجع السابق ، ٤٣٨.

(٢) أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي ، القاهرة ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٣م ، ٣.

(٣) القشيري : الرسالة القشيرية ، القاهرة ١٣٣٠هـ ، ٨٠٧.

(٤) زكي مبارك : التصوف الإسلامي ، القاهرة ـ مطبعة الاعتماد ١٩٣٨م ، ١: ٤٩.

(٥) محمد مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الإسلام ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب=

الصَّفْوَة، وقيل إنه منسوب إلى صفوة الفقهاء، وقيل إنه منسوب إلى الصفاء، وقيل إنه منسوب إلى الصُّوف[١].

تلك هي أهم الآراء التي قِيلت عن الأصل اللغوي لكلمة «صوفي». ومن الواضح أنها كثيرة ومتباعدة ومتضاربة، تعرَّض أكثرها للنقد والرفض من معظم الباحثين والصوفية، بَيْد أن كثيرًا من الآراء تؤيد نسبة «الصوفي» إلى «الصُّوف»؛ على أساس القول «تصوَّف» إذا لَبِس الصوف، كما قال «تقمَّص» إذا لبس القميص[٢]، كذلك لأن الصوفية اختصوا بلبسه لِمَا كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف[٣]، وقد أيَّد هذا الرأي الكثير من الصوفية والباحثين، وجُلُّهم من المسلمين سواء في القرون الماضية أو في العصر الحاضر.

أما عن تاريخ نشأة التصوف، فمثلما اختلفت الآراء حول الأصل اللغوي لكلمة الصوفي، اختلفت أيضًا في نشأته في الدولة العثمانية، ولن نخوض في هذا الموضوع لأنه خارج عن نطاق دراستنا، ويكفي أن نشير إلى أن ظاهرة التصوف بشكل عام ـ بصفتها ظاهرة اجتماعية ـ وُجِدت في المجتمع بشكل فردي، ثم بشكل جماعي بعد ذلك؛ نتيجة ظروف اقتصادية واجتماعية ودينية وسياسية مختلفة، كما يرى البعض أن للتشيع دورًا كبيرًا في نشأة التصوف وتكوين اتجاه خاص لدى بعض الصوفية.

ويقودنا هذا إلى الإشارة إلى أنواع المتصوِّفة وطرقهم:

=١٩٨٤م، ٢: ١٠٨ - ١٠٩.

(١) المرجع نفسه، ١١٠.

(٢) السهروردي البغدادي: المصدر السابق، ٦٥.

(٣) ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، القاهرة ـ دار المدني، ٤٠.

مِن الملاحَظ أن معظم الكتّاب والمؤرخين يقسّمون المتصوفة إلى أربعة أنواع تقريبًا ، هي :

أولًا : المتصوفة من أصحاب السجاجيد

كانوا ينتشرون في ولايات الدولة العثمانية المختلفة بنسب متفاوتة ، وقد تمتعوا بمراكز عالية في الدولة . وكانوا يمثّلون شريحة مميزة اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا من بين كل فئات المتصوفة .

ولمَّا دخل السلطان سليم الأول مصر اهتم بأمر المتصوفة من أصحاب السجاجيد اهتمامًا كبيرًا جدًا ، ورتَّب لهم موارد رزق سخية ودائمة ، وأعطاهم بلادًا كثيرة ومكَّنهم فيها ، وكانوا أعضاء في ديوان القاهرة ، وكان الوالي العثماني وكبار موظفي الحكومة في مصر يرجعون إلى أرباب السجاجيد عندما يُشكَل عليهم أمر[1] .

وقد ذكر بعض الباحثين أن عدد السجاجيد كان أربعًا ، وانتشر هؤلاء بصفة كبيرة في مصر؛ وهم الشيخ البكري ، والشيخ السادات ، والشيخ العناني ، والشيخ الخضيري[2] ، وقد أورد عبد الرحمن الجبرتي اسم سجادة خامسة هي السجادة الشعرانية بصفتها سجادة صوفية .

وقد أحاطت الخرافات والخزعبلات بهذه الطرق كثيرًا ، وخرجوا بأقوالهم وأفعالهم عن الإسلام وكفروا به ، على سبيل المثال يقول محمد البكري يصف نفسه «بأنه يضيء العالم بخلافته ، ويُغيث الملهوف ، ويحمي الضعيف ، ويكشف الخُطُوب ، ويفرِّج الكُرُوب ، وباسمه يزول البؤس والضر...»[3] ، وكانت لهم

---

(١) المصدر السابق ، ٦٢.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، بيروت ـ دار العلم ١٩٨٤م ، ٤٦٧.

(٣) المصدر السابق : ٥٠٠.

أوراد وأذكار يقرؤونها عقب الصلوات وفي الاجتماعات والحفلات التي كانوا يقيمونها بشكل جماعي، متأثرين فيها بابن الفارض وابن عربي[١]، وكلها أذكار ما أنزل الله بها من سلطان، خارجة عن تعاليم الإسلام.

ثانيًا: أتباع الطرق الصوفية

يُعَد هذا النوع من أهم متصوفة العصر العثماني، وقد شهدت الفترة السابقة على العهد العثماني وجود عدد من الطرق الصوفية التي لاقت من الشهرة والانتشار حدًا كبيرًا، لكنها لم تكن بتلك الكثرة العددية التي أصبحت عليها في العصر العثماني؛ حيث تعددت الطرق بسبب استحداث طرق جديدة، واستمرار الطرق السابقة، ووفود طرق من خارج الدولة العثمانية[٢].

ومن الطرق التي كانت موجودة في البلاد العربية والعثمانية: القَادِريَّة، والرِّفاعِيَّة، والأَحْمَدِيَّة، والبُرْهَانِيَّة، والشَّاذلِيَّة، والسُّهْرَوَرْدِية، والنَّقْشَبَنْدِية، والحَسَنِية، والكُشَيْرِية، والمَدِينِية، والفِرْدَوْسِية، والهَمَدَانِية، والطَّيْغُورية، والشطَارِية، والخُضَيْرِية، والعَزِيزِيَّة، والمَسْعُودِية، والمُصَافحة، والبَسْطَامِية، والأَدْهَمِية، والدُّسُوقِية، والمَلامَتِيَّة، والجَيْدَرِية، والمولَوِية، والبَرَاهِمِية، والقَدَرية، والبكْتَاشِية، والسَّعِيدِية (السَّعْدِية)، والمَتْبُولِيَّة، والأَوْسِية، والبيرَامِية، والطيابَة، والعلْوَانِية، والمَلاوِيَّة، والعَفِية[٣].

---

(١) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠م، ١: ١٥٠.

(٢) مصطفى البكري: أوراد الشيخ مصطفى البكري، القاهرة ـ ١٢٨٦هـ، ٥: ٢٠.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت ـ دار الجيل، ١: ٤٧٩، ٢: ٣١٧.

وكل طريقة من الطرق آنفة الذكر تتفرع إلى عشرات الطرق . وهذا الاختلاف يعود إلى عدة أسباب ، حاول البعض حصرها في اختلاف مشايخ التصوف فيما بينهم في فَهم النصوص المعنيّة بالناحية الروحية ، بالتالي الاختلاف في تنظيم المراسيم التعبُّدِية حسب فَهمهم للنصوص من حيث الكموالكيف ، كذلك بسبب الاختلاف في طرق ترويض النفس عن طريق التجرِبة وتفسيرها ، وبسبب تأثير المصادر الأجنبية ، كذلك المصادر الفلسفية[١] .

كذلك فمن المحتمل أن كل طريقة ، أو طريقة فرعية جديدة ، كانت تمثّل تشكيلًا جديدًا يأخذ أجزاءه من طرق مختلفة ، بيد أن مِن الضروري إدراك أن ازدياد أعداد الطرق في الدولة العثمانية يعود في الدرجة الأولى إلى انتشار التصوف ، كما أن زيادة أعداد الطرق الصوفية في البلاد العربية ـ خاصة في مصر ـ يرجع إلى السيادة العثمانية عليها ، وتشجيع العثمانيين الطرق هذه بسبب الارتباط بين كلٍّ مِن المتصوفة الأتراك والطوائف الحرفية من جهة ، وحركة الأخوّة والفتوّة من جهة ثانية ، وفرق الانكشارية من جهة ثالثة ، لذلك فإن السلطة العثمانية أظهرت كثيرًا من العطف على الطرق وأغدقت عليها بسخاء ، فكان أتباع الطرق إلى حد كبير في مأمن من اعتداءات الجند ، ومن هنا أقبل الناس على الدخول في الطرق الصوفية ، وكانت لكل طريقة معسكرات قائمة في القرى والأقاليم[٢] .

وقد انتشرت الطرق الصوفية بين معظم أبناء المجتمع العثماني ، الذين مثَّلوا الطبقتين الوسطى والدنيا ، وقد اندمجا في الطرق لأسباب متباينة ، إلا أن النتيجة

---

(١) محمد سيد كيلاني : الأدب العصري في ظل الحكم العثماني ، القاهرة ـ مكتبة دار الفرجا ١٩٨٤م ، ٩٦-٩٨.

(٢) عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر ، نشأتها ونظمها وروادها ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٦م ، ١٦٧ - ٢١١.

كانت انتماءهم لها ، وقد ظهر ذلك وانعكس في كتابات الجَبَرْتي ، وكتابات علي البيومي[(١)] .

والحقيقة أن انتماء هذه الطبقات للطرق الصوفية لم يكن ليمنع من انتماء بعض كبار رجال الدولة العثمانية وكبار الأمراء إلى الطرق أيضًا ، حيث جذبت هذه الطرق الكثير من الصفوة السياسية والفكرية والاجتماعية على حد سواء .

كان الانتماء للطرق قد استشرى بين جميع الناس ، حتى لقد لاحظ أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر أن «قلة من المسلمين فقط هم الذين لا يتَّبِعون أيًا من هذه الطرق الصوفية»[(٢)] . وهناك ظاهرة أخرى صاحبت الانتماء للطرق الصوفية ، وهي انتماء الشخص الواحد إلى عدة طرق في وقت واحد ، وقد ارتبط هذا التعدد في الانتماء إلى الطرق بظاهرة إمكانية تحوُّل المتصوِّف من طريقة إلى أخرى ، فعلى سبيل المثال علي البيومي (ت ١١٨٣هـ/١٧٦٩م) كان خلوتيًا وصار أحمديًا ، ثم أسس طريقة جديدة هي الطريقة البيُّومية[(٣)] .

ومن القضايا التي أُثيرت قضية التشابه بين الطرق الصوفية ؛ حيث يرى البعض أن الخصائص التي ميَّزت هذه الطرق عن بعضها لا تكاد تُذكَر[(٤)] ، ويرى البعض الآخر أن هذه الطرق اختلفت في خصائصها من حيث مناهج التصوف في السلوك ، والمعرفة والأخلاق ، والآداب ، والأذكار ، وأسرار النَّفْس ، وأصبح لكل طريقة أتباعها وأحبابها وروادها[(٥)] .

---

(١) عبد الوهاب الشعراني : لطائف المنن الجالبة للسرور والبشرى ، القاهرة ـ مطبعة بولاق ١٢٨٨هـ ، ٣١٥.

(٢) مقداد يالجن : فلسفة الحياة الروحية ، القاهرة ـ دار الشروق ١٩٨٥م، ٩٩ ـ ١٠٦.

(٣) سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، القاهرة ـ ١٩٨٣م ، ٥: ٦٧ ـ ٦٩.

(٤) فيوتو : وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٨٣م، ٨: ١٨٠.

(٥) توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان الحكم العثماني ، القاهرة ١٩٤٦م، ٧٩.

في الواقع إن هذا الموضوع يخضع للنسبية في جزء كبير منه، على أن المعطيات التاريخية تجعل الباحث لايستطيع أن يساير أيًا من الفريقين في رأيه، لأن الثابت أن هذه الطرق تشابهت في بعض الخصائص واختلفت في بعضها الآخر.

فقد عُرِفت الأَحْمَدِية بالزي الأحمر، والقَادِرِية والسَّعْدِية والبُرْهَانِية بالزي الأخضر، والرِّفاعِية بالزي الأسود، والدُّسُوقِية بالزي الأبيض، أما الشَّاذلية فقد كانت أعلامهم مختلفة الألوان[1].

أما بَيَارِق كل طريقة فكانت على الدوام من لون عمائمهم نفسه، طبقًا للعادات أو الممارسات التي تحددها لوائح هذه الطرق وتعليماتها، لهذا السبب كان لبعضها بيارق سوداء اللون مثل الرفاعية، كما كان لبعضها بيارق بيضاء اللون مثل القادرية، والطيابة، والعوانية، وكانت بيارق فريق ثالث حمراء اللون مثل الشناوية، والعيسوية، والنقشبندية[2].

ولم يكن جميع أتباع هذه الطرق مخلصين في الزهد أو التقشف أو العبادة؛ بل على العكس من ذلك، حيث خرج معظمهم على أبسط قواعد الدين والأخلاق والعُرْف والتقاليد، وكان معظم أدعياء التصوف في العصر العثماني يتخذون منه ستارًا لابتزاز الأموال، والتمتع بنعيم الدنيا بأموال الناس، كما كان هناك السكوت عن مفاسدهم وعدم التعرض لهم بالنقد؛ بدعوى أن نقدهم والتعرض لهم باللسان حرام وجالب لغضب الله[3]، وقد كذبوا فيما ادعوا.

---

(١) مشيخة عموم الطرق الصوفية: التصوف الإسلامي رسالته مبادئه ماضيه وحاضره، القاهرة ـ مطابع دار الكتاب العربي ١٩٥٨م، ١٣ ـ ١٥.

(٢) يوسف بن محمد بن عبد الجواد الشربيني: هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف، القاهرة ـ المطبعة الشرقية ١٣٢٢هـ، ٤١ ـ ٤٦.

(٣) السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٧٠م، ٦٧ و٦٨.

ثالثًا: المتصوفة من نُزلاء الزوايا(١) والتكايا والخانقاهات(٢) والأربطة

لقد انتشر هذا النوع بكثرة في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، حيث ازداد انتشار الزوايا والتكايا والخانقاهات والأربطة والوكالات والحمامات والأضرحة، نتيجة قوة الدولة وثرائها.

ومن زوايا القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي في مصر، على سبيل المثال: زاوية الشيخ الشَّعْرَاني، وزاوية أحمد بن شعبان، وزاوية أبي الحَمَايِل،

---

(١) الزوايا كما يُشتَدَل من مدلولها اللغوي هي موضع الانزواء، والزاوية في الأصل ركن البناء، وكانت تُطلَق في بادئ الأمر على المسجد الصغير أو على المُصَلَّى، وقد كانت الزوايا في البداية أركانًا في المساجد الجامعة، يأوي إليها مشاهير العلماء؛ حيث ينقطعون فيها للعبادة والذكر، ويلتف حولهم الطلبة والراغبون في تلقي العلم، وبسبب انتشار المتصوفة أصبحت الزاوية مؤسسة كبيرة تخدم الطريقة الصوفية، ونَمَتْ عمارتها بصورة كبيرة لتخدم حاجات أعضائها وطقوس الطريقة التي تنتسب إليها، لذلك فقد تطورت الزوايا مع الزمن، وكان ظاهرها الدين، وفي حقيقتها كان لأكثرها طابع عقائدي أو سياسي، لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر: (أبو الوفاء التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ٣: ١٣)، (عبد الوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار)، كتبة محمد علي صبيح، ٢: ١٢٢ وما بعدها).

(٢) الخانقاه ج. خوانق أو (خوانك)، كلمة فارسية معناها بيت. وقيل الخانقاه الموضع الذي يأكل فيه الملك، والخوانق لفظة جاءت تقريبًا بعد أربع مئة عامن الهجرة، وقال البعض: البيت الذي ينزل فيه الصوفي، وقيل سُمِّيت خانقاه من الخنق لتضييق الصوفية على أنفسهم. ومن الخوانق التي بُنِيت في مصر على سبيل المثال في العصر المملوكي: الخانقاه البندقدارية، والطيبرسية، والبيبرسية، والأرسلانية، والسريافوسية، والمهمندارية، والبكمترية، والجمالية، وخانقاه أم أنورك، والقوصونية، وخانقاه بشتاك، والمظفرية، والشخونية، والإسحاقية، والظاهرية، واليونسية، وغيرها. (راجع تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، بيروت ـ دار صادر، ٢: ٤١٥. وأيضًا: سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٦٢ م، ١٦٥؛ عبد المنعم الحنفي: معجم مصطلحات الصوفية، بيروت ـ دار المسيرة ١٩٨٠م، ٨٧.

وزاوية أبي السُّعُود الجَارِحي ، وزاوية إبراهيم ، وزاوية الشَّامِية ، وزاوية أبي الخير الكُلَيْباتي ، وزاوية تاج الدين الذاكر ، وزاوية أحمد الشنبكي ، وزاوية ابن الجَيْعان ، وزاوية علي الخَواص ، وزاوية عبد الرحمن المَجْذُوب ، وزاوية عُبَيْد البَلْعِيني ، وزاوية علي المَرْصَعِي ، وزاوية عبد الحليم المَنْزَلاوِي ، وزاوية علي المصري ، وزاوية الشيخ عبد الله ، وزاوية على بن عنان ، وزاوية علي بن خودة ، وزاوية حسن الرُّومِي ، وزاوية الحَلَوَجي ، وزاوية شاهين الجَرْكَسِي ، وزاوية شهاب النشيلي ، وزاوية كريم الدين الخلوتي ، وزاوية الشيخ مُرْشِد ، وزاوية محمد المنير البِلْبِيسي ، وزاوية محمد الشِّنَّاوِي ، وزاوية محمد ضرْغام ، وزاوية سليمان الخُضَيْري ، وزاوية الشيخ سعود ، وزاوية سيدي غَيْث ، وزاوية جلال الدين البَكْري[١] .

وعندما احتل الفرنسيون مصر عام ١٢١٤هـ/١٧٩٨م قام جومار ـ أحد علماء الحملة ـ بعمل إحصاء للزوايا الموجودة بالقاهرة وحدها ، فبلغت وحدها مئة وأربعًا وسبعين زاوية[٢] .

وقد كان لكل زاوية شيخ ونقيب أو نقباء ـ حسب عدد المجاورين للزاوية ـ وكذلك قرّاء وإمام أو أئمة ، ومؤدب أطفال أو مؤدبو أطفال ، كما كان لكل زاوية نظامها الداخلي في كيفية إقامة الشعائر وكيفية الحضور والغياب ، كذلك في آداب المعيشة داخل تلك الزوايا ، وغير ذلك من الأمور التي عالجتها الوثائق والمصادر المعاصرة .

أما التكايا فكانت من المؤسسات الصوفية المهمة في الدولة العثمانية ؛ حيث إن ظروف العصر قد فرضت ظهورها بصفتها مؤسسات لها شأن كبير ، فالتكية

---

(١) عبد الوهاب الشعراني : البحر المورود في المواثيق والعهود ، القاهرة ، ١٥٠.

(٢) جومار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ، ١٥٢ ـ ١٥٤.

باعتبارها عثمانية الأصل تقابل الخانقاه، وقد تطورت على حسابها، وأخذت تؤدي الوظيفة نفسها التي كانت تقوم بها الخانقاه، بل اختفى لفظ خانقاه من البلاد التي دخلت في الحكم العثماني وحلَّت محلها التكية التي أصبحت تضم شـيوخًا وفقهاء، مثلها في ذلك مثل الخانقاه والمدرسة قبل ذلك.

وإذا كانت التكايا ـ بوصفها مؤسسة عثمانية ـ قد قامت بنشاط واضح في عصر قوة الحكم العثماني، ونجحت في أن تثبت وجودها ووجود التصوف التركي، إلا أنها تأثرت بالضعف العام في الحكم العثماني، وتحولت وظائفها مع السنين، ليغلب عليها كونها أماكن يقيم فيها الدراويش والمرضى، ومَن قعدتْ بهم الشيخوخة عن اكتساب القُوت، والكسالى من الأتراك «تنابلة السلطان»[١].

بطبيعة الحال اعتمد الإنفاق على هذه التكايا ـ كذلك القائمين عليها من أصحاب الوظائف، وعلى النازلين فيها من المتصوفة ـ على الأوقاف والمنح التي كان يتبرع بها بعض الباشوات والولاة والأمراء والتجار، وغيرهم من أهل الخير[٢].

---

(١) سعاد ماهر محمد: المرجع السابق، ٢: ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) تباينت الأقوال في مجال البحث عن اشتقاق «درويش»؛ فمنهم مَن يَرَى أنه مشتق من «الدراشة»، ومنها اشتقاق الدرويش بمعنى الفقير (الشحاذ/ السائل)، ومنهم مَن جعله مشتقًا من «درويزة»، وتعني بالفارسية «كدائي» أي المتسوّل، ومنهم من يجعله من «دروا» أي السؤال بالكف، أو دريوز بمعنى الفقر وقلة ذات اليد، أما عن الدرويش اصطلاحًا فالمفهوم العام له هو المفلس والفقير والمسكين والمحتاج والزاهد، وتارك الدنيا والمعتزِل والصوفي، ويُصطَلَح بلفظة درويش على المُريد المنتهي إلى طريقة من الطرق الصوفية المعاصرة، أما المفهوم الخاص للدرويش فيرتبط في أذهان الكثير بأمرَيْن: الفقير حقيقةً وهو المُعْدم ماديًا، والفقير مجازًا: باعتباره فقيرًا إلى الله وإن كان غنيًا في المادة، وعند البعض «الدرويش» هو الرجل الزاهد في متاع الحياة عن رغبة وانصراف نفس لا عن فقر وإعدام. (راجع: عادل الألولسي الدرويش: مجلة التراث الشعبي، العدد السابع، عام ١٩٧٢ م، وزارة الإعلام، العراق، ٧ـ ٩؛ محمد قنديل البقلي: آداب الدراويش، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م، ٥٠٤).

رابعًا : المتصوفة الدراويش

يُطلَق عليهم المجَاذِيب أو الدراويش ، وهم القلندرية والمشعوذون والفلاحون ممن لم يرتبطوا حقيقةً بإحدى المؤسسات الصوفية في ذلك العصر . وكما سبق القول ، فإن ظروف الدولة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية السيئة آنذاك كانت المسؤولة أساسًا عن وجود مثل هذا النوع من المتصوفة بصفة خاصة ، هذا النوع الذي عبَّر بشكل صارخ عن الفئات الأكثر فقرًا وجهلًا ، إلا أن الأمر تطور لتجتذب الدروشة فئات جديدة من الفقهاء وطلاب العلم ، ولعل هذا يعود أيضًا في جزء منه إلى استمرار تيار الجهل الذي ساد في القرن السادس عشر الميلادي ، وتشجيع كبار المتصوفة هذا النوع من التصوف .

وقد أورد الشَّعْراني والنَّابُلْسي والغزِّي والجَبَرْتِي الكثير من أسماء هؤلاء المجاذيب والدراويش والقلندرية الذين انتشروا في رُبُوع الدولة العثمانية[1] ، بل إننا نقرأ عن بعض الدراويش الذين عاشوا في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، أنهم قالوا آراء مادية تخالف الكتاب والسنة ؛ منها : «إن البَّعْث والنُّشور والجنة والنار لا حقيقة لها ، وإن الشخص جنته وناره وحسابه في نفْسه ، وإن الدنيا لاتفنى ولا تزول ، وإنما هي شمس تطلع ، وقمر يغيب ، كما يقولون . وإن الشخص إذا خَرجت روحه ومات دخلت في جسد من الأجساد ـ في آدمي أو في حيوان ـ حتى يدور عليها الدور فترجع إلى صاحبها الأول ، فيظهر بصورته التي كان عليها أولًا ، وهكذا سائر العوالم»[2] .

وفى هذا الشأن يُذكر أن التكْرُوري ظهر في عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م ، ودخل

---

(١) عبد الوهاب الشعراني : الطبقات الكبرى ، ٢: ١٢٢ ـ ١٣٠.

(٢) أحمد صادق سعد : تاريخ العرب الاجتماعي ، بيروت ـ دار الحداثة ١٩٨١م ، ١٦.

الجامع الأزهر، وخلط في كلامه وادَّعى أنه نبي مرسَل «فمسكوه وأتوا به إلى الشيخ أحمد العماوي ... فسأله الشيخ عن حاله . فأخبره أنه كان في شربين فأتاه جبريل وأخذه وعرج به إلى السماء ليلة السابع والعشرين من رجب، وأنه قدّمه وصلى بالملائكة، وأن جبريل أذّن له، فلما فرغ من الصلاة أتاه جبريل بورقة وقال له : أنت نبي مرسل أنزل فأظهر بمعجزتك»، وقد استمر هذا الرجل على رأيه هذا أمام الشيخ أحمد العماوي، وأمام الوالي العثماني وأمام العلماء، فاضطروا في النهاية إلى قتله[1] .

دور المتصوفة في الحياة السياسية

شهدت الفترة الأخيرة من عصر الدولة المملوكية الثانية بروزًا لدور المتصوفة السياسي، وحاز بعضهم نفوذًا كبيرًا لدى سلاطين المماليك وأمرائهم، وبالطبع فإن هذا البروز للدور السياسي للمتصوفة يُعَدُّ انعكاسًا للوضع السياسي المملوكي المتردي آنذاك، كذلك الوضع الاقتصادي، وكانت الروح الدينية هي المسيطرة على العقول في مثل هذه الفترات المضطربة .

وحينما شنت الدولة العثمانية الحرب على الدولة المملوكية في الشام ومصر والحجاز واليمن اتَّخذ المتصوفة مواقف متباينة ؛ فبينما نجد البعض منهم يتخذ الجانب المؤازر للمماليك، نجد البعض الآخر يتقاعس عن ذلك بل يؤيد الجانب العثماني[2] .

بعد أن خضعت البلاد العربية للحكم العثماني أيَّد المتصوفة ذلك الحكم الجديد، وتعاونوا معه، وكان السلطان سليم الأول كريمًا معهم طالما أن هذا

---

(١) أحمد شلبي عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٨٧م، ٥٩٢ ـ ٥٩٣.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ١: ١٩٢.

موقفُهم، لذلك أمر بإحضار ألف رأس من الغنم، ومئة جمل ومئة بقرة، وتصدق بها على مجاوري الجوامع والمساجد والزوايا والمزارات[١].

في الوقت نفسه أصدر السلطان سليم مرسومًا شريفًا بعدم التعرض لأوقاف الجوامع والمدارس والمساجد والزوايا والربط والمعابد وأنواع البر، كما اهتم بالمتصوفة من أرباب السجاجيد اهتمامًا كبيرًا، ورتَّب لهم موارد رزق سخية ودائمة، وأعطاهم الأراضي الزراعية الواسعة ومكَّنهم منها[٢]، لذلك أخذ المتصوفة يولون ولاة الأمور تقديرًا واحترامًا لم يُعهَد فيهم من قبل، وأخذوا يكتبون عن مبادئ الاحترام والتقدير التي يجب أن يوليها المتصوفة لولاة الأمور، حفاظًا على مكانتهم وتقديرًا لهم.

من ناحية أخرى كان هناك متغير آخر دعَّم دور المتصوفة السياسي في هذه المرحلة؛ يتمثل في بروز الأزهر بصفته قوة سياسية لها وزنها، فقد ظهر الدور السياسي للأزهر في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي بصورة لم يُعهَد لها من قبل، على حين تصوَّف الكثير من شيوخه وطلابه ومجاوريه، حتى لقد وُجِد به نوع من الاختلاط بين المهام العلمية والتصوف، وأصبحنا نقرأ عن «الأزهري المتصوف»، و«المتصوف الأزهري»، بذلك حدث ما يشبه الاتحاد بين الطرفين[٣].

كذلك نرى بعض سلاطين آل عثمان يميلون إلى المتصوفة ويغدقون عليهم؛ مثل السلطان بايزيد الثاني المعروف بالزهد والتقشف، واشتُهر ببناء الجوامع

---

(١) عبد الحفيظ القرني: عبد الوهاب الشعراني إمام القرن العاشر، سلسلة الأعلام، عدد (١١٦)، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م، ١١٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، مصر ـ المطبعة الكبرى الأميرية، ٥: ١٩١.

(٣) محمد عفيفي عبد الخالق: الأوقاف ودورها في الحياة الاقتصادية في مصر ٩٢٣-١٠٦٩هـ/ ١٥١٧-١٦٥٨م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٨٥ م، ١٥.

والمساجد والزوايا ، والسلطان سليم الأول الذي كان من بين معلميه وأساتذته عالم صوفي ، والسلطان مراد بن سليم ، وغيرهم[١] ، وفي الوقت نفسه فإن مَيْل هؤلاء السلاطين إلى المتصوفة كان من أجل هدف سياسي ؛ وهو أن المتصوفة يشكّلون قوة محلية ولا يريدون أن يكون لهم دور سياسي وأساسي مهما اختلفت الأحوال ، حتى لا تضطرب الأمور في الدولة[٢] ، لذلك كان ميلهم ومجاملتهم من أجل ذلك ، وليس لأنهم متصوفة .

لقد حاول السلاطين العثمانيون ـ في القرن السادس عشر ـ الاحتفاظ بعلاقات تعاون مع المتصوفة ، خاصة مع الفئات البارزة منهم ، بحيث تكون هذه الفئات سندًا لهم في أماكن تجمعهم ، كي لا تمثل خطرًا على سلطة ولاة أمورهم ، وقد نجح هذا النظام في هذا طوال فترة قوة الدولة العثمانية ، وبدا أن هذه الفئات من المتصوفة قد أدركت ما عليها قبل أن تدرك الذي لها ؛ فاتجه مشاهير المتصوفة إلى التقليل من أعداد أتباعهم ونزلاء زواياهم والمترددين عليهم[٣] .

على هذا الأساس سارت العلاقات طبيعية بين الطرفين ، بل لقد عمد بعض السلاطين العثمانيين إلى إعطاء بعض الوظائف المهمة للمتصوفة إرضاءً لهم ؛ مثال ذلك تعيين الشيخ محمد البكري الصديقي مفتي الديار المصرية ، ولعل في هذا الإسناد ما يشير إلى إحدى الطرق أوالأساليب التي اتخذتها الدولة العثمانية تجاه المتصوفة[٤] .

---

(١) عبد العزيز الشناوي : الأزهر جامعًا وجامعة ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣م ، ١٧٣.

(٢) محمد الأمين فضل الله محب الله (المحبي) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، القاهرة ، ١٢٨٤هـ ، ١: ٩٦.

(٣) الشعراني : الطبقات ، ٢: ١٣٣.

(٤) عبد الوهاب الشعراني : لطائف المنن ، ٩٠.

لكنَّ هذا لا يعني تهاون الدولة العثمانية مع المتصوفة ؛ إذ سرعان ما يقوم السلطان بعزل ـ أوتأديب ـ من يزداد ظلمه وجَوْره في حكمه أو ولايته[١] .

وقد استمرت الدولة العثمانية في القرن السابع عشر الميلادي في انتهاج السياسة نفسها التي انتهجتها في القرن السادس عشر تجاه المتصوفة ، وحاولت الاحتفاظ بهم بوصْفهم عناصر مساعِدة لها في مصر ، لكن بشروط محددة ، لذلك فإن سلاطين الدولة العثمانية كان لا يرضيهم خروج أحد المتصوفة ـ مهما كان ـ عن هذه القاعدة ، وعندما برز نجم الشيخ زين العابدين البَكْري بدرجة فاقتْ ما تسمح به سياسة السلطان ، أَوْعز إلى والي مصر إبراهيم باشا بقتله سنة ١٠١٣هـ/ ١٦٠٠م ، فخرج من عنده ميتًا وأُشيع أنه مات فجأة[٢] .

وقد استطاعت الدولة العثمانية في المرحلة الأُولى أن تطبِّق سياستها دون مشاكل أو عقبات تُذكَر ، منذ أوائل القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي ، بعدها أخذت تواجه الصعوبات المختلفة في تنفيذها ، ولمَّا كانت لا تستطيع الضرب على أيدي الخارجين ـ كما كان عهدها من قبل ـ اتجهت إلى القوى المحلية لتضربها ببعضها ، سواء كانت هذه القوى ذات طابع عسكري أو ذات طابع ديني صوفي . أمَّا في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي فقد شهدت العلاقة بين الطرفين نوعًا من الرجحان في جانب المتصوفة ، خاصة الزعماء منهم ، ولم تعد الدولة العثمانية تعتمد على اجتذاب ولائهم جميعًا عن طريق الترهيب فقط ـ الذي كان أساس المرحلة الأُولى ومحور الثانية ـ بل اتجهت إلى استخدام الترغيب بشكل أوسع من ذي قبل .

---

(١) المصدر نفسه، ٩٠ ـ ٩١؛ وكذلك عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار، ١: ٤٠ ـ ٤١.

(٢) انظر لمزيد من التفصيل والأمثلة : أحمد شلبي عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، ١١٧.

بيد أن المتصوفة في هذه المرحلة ظَهَر تنوُّعُهم بجلاءٍ عن أي وقت مضى، وأصبحت فئة الزعماء من المشايخ ورؤساء الطرق وبعض مشايخ الأزهر وكبار الشيوخ جميعًا من ذوي المكانة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية المتميزة عن بقية المتصوفة، لذلك اتَّخذت الدولة العثمانية مواقف مختلفة نوعًا ما من فئات المتصوفة؛ فبينما نجد كثرة الإنعامات والأوقاف الواسعة على فئة الزعماء، نجد كذلك التقتير والبخل تجاه بقية المتصوفة الذين تكوَّنوا من بعض عوام المدن والصناع والفلاحين والدراويش والفقراء وغيرهم، وهذا كله على الرغم من مواقف فئة الزعماء من سياسة الباب العالي.

لذلك فقد وقف هؤلاء الزعماء أحيانًا في وجه تنفيذ السياسة العثمانية في مصر آنذاك، واشتركوا في عزل الكثير من الباشوات الذين عيَّنهم السلطان، وذلك بالاشتراك مع القوى الأخرى مثل المماليك وزعماء طوائف الحرف.

كذلك حاولت الدولة العثمانية أن تفيد من زعماء المتصوفة من المشايخ والعلماء المشهورين مثل أسرة الجبرتي ومرتضى الزبيدي في مصر؛ فقد راسل السلطان مصطفى الثالث (١١٣٩-١١٨٧هـ/١٧٢٦-١٧٧٤م) عائلةَ الجبرتي، بل أرسل إلى الشيخ حسن الجبرتي نسخًا من خزائن كتبه، لذلك فقد احترم بيت الجبرتي العثمانيين ومدحوهم، لدرجة أن الجبرتي قال عنهم: «فإنهم خير من تقلَّد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين. وأشد من ذبَّ عن الدين. وأعظم من جاهد في المشركين»[1].

وقد ازداد التقارب بين ولاة الدولة العثمانية وزعماء المتصوفة إلى درجة تدعو للدهشة؛ حتى أن المتصوفة لم يتخلَّفوا عن أداء أي واجب أُنيط بهم من طرف الوالي، بل إن الشَّعْراني في مصر مثلًا كان يأمر تلاميذه أن يحترموا السلطة

---

(١) المصدر السابق، ٤٠ - ٤١.

الدنيوية وأن يرضخوا لقوانين الوالي، وأن يدفعوا ما عليهم من الضرائب بشكل استرعى نظر بعض الباحثين والكتّاب[١].

كما قام بعض الباشوات في مصر، على سبيل المثال، بإنشاء الأضرحة والتكايا لهم؛ فقد قام الوالي العثماني خاير بك ببناء ضريح وزاوية للشيخ حسن الرُّومي[٢]، أمّا الوالي سليمان باشا فقد عمَّرَ مقام وجامع سيدي سارية بقلعة الجبل، وعمَّر تكية بقُوصُون على اعتبارهم بمثابة أعين له على الموظفين العثمانيين في مصر، ينقلون له بعض ظلمهم وجَوْرهم وتعسفهم في معاملة الرعية وجمع الضرائب وتسيير الأمور. ومن هنا يستطيع الباحث تفسير تلك الكَرَامات التي ادَّعاها المتصوفة في قضاء الأمور عند الموظفين العثمانيين بشكل عام، بداية بالباشا حتى أقل موظف في الإدارة العثمانية، على أساس أن كل طرف يحاول أن يسترضي هؤلاء الناس حتى لا ينقلوا أخباره بالسوء إلى مَن هو أعلى منه في السلطة، وهكذا استطاع المتصوفة قضاء بعض حوائجهم، إلا أنهم أظهروا أنفسهم في صور تحيط بها هالة من التقديس والكرامات.

وقد حاول بعض المتصوفة ـ انطلاقًا من هذا الباب ـ أن يتوسطوا لرفع بعض الظلم عن كاهلهم وكاهل إخوانهم من الرعية أحيانًا، واستعملوا في ذلك طرقًا شتى[٣]، وبرز في هذا المجال أشخاص بأعينهم مثل الشَّعْرَاني الذي يروي أنه مِمَّا مَن الله به عليه إلهامه لقضاء حوائج الناس، ويذكر نصًّا: «ونحن ما صحبناهم ـ أي

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس في ذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي، القاهرة ـ لجنة البيان العربي ١٩٦٩م، ٢٢.

(٢) عبد اللطيف الطيباوي: التصوف الإسلامي العربي، القاهرة ـ دار العصور للطبع والنشر ١٩٢٨م، ١٢٩.

(٣) سعاد ماهر محمد: المرجع السابق، ٥: ٢٧٣ ـ ٢٧٦.

الحكام ـ بالأصالة إلا لتخليص المظلومين وتفريج كربهم»[١]، وقد أفاد عامة المصريين الكثير من وراء ذلك الدور، إلا أنهم خسروا أيضًا، وتمثلت خسارتهم في إضعاف روح التمرد على العثمانيين[٢].

ويستطيع الباحث بعد هذا كله أن يخرج بعدة ملاحظات عن سير العلاقات بين المتصوفة والأمراء والوزراء والولاة العثمانيين؛ فهذه العلاقات كانت في جزء منها تعبيرًا عن السياسة الرسمية للدولة العثمانية والسلطان العثماني، وفي الجزء الآخر كانت تعبيرًا عن شخص الأمير أو الوزير نفسه، ثم إن هذه العلاقات لم تكن على وتيرة واحدة، بل خضعت لاهتزازات عدة أدَّت إلى تحسنها أحيانًا وتدهورها أحيانًا أخرى، وبين التحسن والتدهور تمثلت كل أوجه هذه العلاقات ونتائجها في النواحي المختلفة من إنشاءات وأوقاف ومساجد، وغيرها.

وعلى كل الأحوال، فقد تأثرت تلك العلاقة قوةً وضعفًا بين المتصوفة والأمراء والوزراء والولاة في القرن السابع عشر الميلادي، وذلك بالضعف الذي دب في الدولة العثمانية من حيث عدم استطاعة الولاة تنفيذ السياسة التي نفَّذوها من قبل.

ونتيجة لهذا التطور، سمحت الدولة العثمانية ـ تحت ضغوط مختلفة ـ للولاة والحكام بإقامة نوع من العلاقة، بحيث يشترك زعماء المتصوفة في إدارة شؤون البلاد بشكل مباشر أو غير مباشر، بحيث يتم إرضاء غرور هؤلاء الزعماء. وفي الوقت نفسه يكسب الحكام أنصارًاآخرين يدعِّمون حكمهم وسلطتهم، خاصة أولئك الزعماء من ذوي الوجود السياسي والاجتماعي والاقتصادي البارز والهادئ، وقد سُمح لبعض هؤلاء الزعماء بحضور اجتماع مجلس الولاية.

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن، ١٥١ - ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٨٢.

وقد برزت جمعية إدارة الولايات في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، واشترك فيها زعماء المتصوفة، وذلك جنبًا إلى جنب مع الولاة والحكام والعلماء لمعالجة المشكلات الطارئة التي تخص المجتمع، أو لبحث الأزمات العسكرية الملحة، وعلى الرغم من اشتراك بعض زعماء المتصوفة في اجتماع الجمعية فإنها لم تنعقد في بيوتهم إلا في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، حيث تَقدَّم دورهم خطوة أخرى(١).

وقد قرَّب الوزراء هؤلاء الزعماء من مجالسهم، سواء منها التي تناولت أمور الدولة أو تلك المجالس التي عقدها الوزراء للمُنادَمَة والتسلية، وذَكر النابلسي في رحلته (١١٠٥هـ/١٥٩٦م) أن «وزير مصر يرسل إلى الشيخ البكري من بكرة النهار، فيدعوه إلى الاجتماع به بقصد المنادمة والملاطفة والاستخبار... فكانوا يقطعون اليوم في أبحاث علمية ومسائل فقهية، وما يليق بمجالس الدولة العلِيَّة في الأمور الجالبة للمنافع الدينية والدنيوية عند الجمهور»(٢).

كما تعامل بعض الحكام مع المتصوفة بصفة شخصية، حيث لم يُخضِعوهم في هذه الناحية لسياسة الدولة خضوعًا تامًا ولا رسميًا، لذلك فقد جاء هذا الجانب غنيًا في مجالات عدَّة.

ومِن مظاهر اعتبار زعماء المتصوفة من زعماء البلاد واستشارتهم في كل دقيقٍ وجليلٍ، ما حدث عندما أراد الوالي العثماني في مصر محمد باشا النِّشَانجي أن يعزل جِرْكس بك، حيث كتب فرمانات وأرسلها إلى العلماء وشيوخ الطرق الصوفية، يُخبِرهم بالمنع من الاجتماع به أو دخول منزله(٣).

---

(١) طه عبد الباقي سرور: الشعراني والتصوف الإسلامي، القاهرة - مكتبة الخانجي ١٩٥٢م، ١٥٢.

(٢) أحمد شلبي عبد الغني: المصدر السابق، ٣٤٢.

(٣) عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر في زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة - دار المعارف ١٩٨٤م، ١٨١.

ولعل أهم مظهر من مظاهر اشتراك زعماء المتصوفة في الحكم إشراكهم طرفًا أساسيًا في عزل الولاة وأخذ رأيهم ومشورته، وقد دفع هذا ببعض الولاة العثمانيين إلى إقامة علاقة طيبة مع زعماء المتصوفة، حتى يضمنوا ولاءهم ووقوفهم معهم ضد القوى المحلية الأخرى، خاصة في أوقات الأزمات.

وقد تسبب ضعف الدولة العثمانية في ضعف نفوذ وزرائها وحكامها في الولايات المختلفة، بالتالي تتغلّب نفوذ القوى المحلية على نفوذ سلطات الحكام العثمانيين بشكل عام، وظهر ذلك الأمر في صورة صراع فيما بينهم؛ للدرجة التي قام فيها الباشا العثماني على مصر عام ١١٣٦هـ/١٧٢٤م بالتعاون مع العلماء والبكرية والسادات بعزل قاضي القضاة.

أما عن علاقة زعماء المتصوفة بموظفي الإدارة العثمانية فهي طويلة ومتشعبة، حيث عَينت الدولة العثمانية في كل ولاية من ولايات الدولة - ومنها مصر - نائب الباشا (الكَتْخُدا)، وقاضي القضاة، وناظر الأموال (الدفتردار)، والرُّوزْنامجي[١] وأمير الحج.

وقد حاول زعماء المتصوفة التعامل مع هؤلاء الموظفين وجذب اهتمامهم، والحصول على احترامهم بشتى الطرق والوسائل دون اهتمام كبير بالنواحي الصوفية أو الأخلاقية، ومن هذه الطرق أن يحاول المتصوف استدراج أحد الأمراء إلى مجلس ذكره، ويشير إلى نقيبه بأن يرفع من مكانة شيخه أمام هذا الأمير[٢]، أو أن يأمر الشيخ صاحب الحاجة بأن يسبقه في الذهاب إلى مجلس الأمير، حيث يقوم بالمدح وإطْراء صفات الشيخ وبركاته[٣]؛ ومنها احترام المتصوفة لولاة الأمور،

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ١: ١٦٨.

(٢) الروزنامجي متولّي ديوان الروزنامة، وهو ديوان مالي اختُصَّ بجباية الضرائب والإنفاق على بعض جهات البر. راجع: (أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٩م، ١١٧ - ١١٨.

(٣) عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن، ٣٨٠.

وعدم الإنكار عليهم في حياتهم الخاصة، بل وفي ظلمهم وفسقهم[١] وكذلك عدم الاعتراض على أحكام القضاة حتى لو كانوا يشكُّون في صحتها وبطلانها، وذلك حرصًا على الطابع الودي والتعاوني معهم[٢].

لقد كان المتصوفة يسلكون هذه الطرق وهم يتدثرون بالخِرْقَة الصوفية، ويختفون وراءها دون مراعاة لكل التجاوزات والانحرافات التي كانوا يقترفونها، وهذا بالطبع يعكس الجانب النفعي في حياة هؤلاء الناس، ذلك الجانب الذي كلما ازداد ابتعدوا عن التصوف الحقيقي، بل عن تعاليم الإسلام.

على أية حال، إن المتصوفة لم يبحثوا كثيرًا في صحة أفعالهم، وما إذا كانت تتسق مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف أم لا، لكنهم استطاعوا في النهاية تحقيق الكثير من وراء هذه الأفعال، وتجلى هذا في عدة أشكال[٣].

أثر المتصوفة على مظاهر الحياة الاجتماعية

لقد جعل معظم المتصوفة من الزهد والتقشف شعارًا لهم في كل كتاباتهم وممارساتهم الظاهرية أمام المجتمع، وأيضًا في نصائحهم لأتباعهم من المُرِيدين، ومن أبرز الشيوخ الذين حَمَلوا هذه الدعوة في مصر مثلًا عبد الوهاب الشَّعْراني، وعلي الخواص، وأمين الدين، وعبد الحليم بن مسطح، وعلي البحيري، ومحمد بن عنان، ومحمد المنير، ومصطفى العزيزي، وغيرهم كثير ممن أفاضت كتب التصوف في ذكرهم، حتى نجد شخصًا مثل الشعراني يكثر من حديثه عن الزهد وعدم الاهتمام بأمور الدنيا لدرجة مثيرة؛ فيذكر متفاخرًا أن من أخلاق

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: البحر المورود، ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن، ٤٦٨.

(٣) نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، بيروت ـ منشورات دار الآفاق ١٩٧٩م، ١: ٩٤.

المتصوفة : عدم اهتمامهم بأمر الرزق ، وانشراح صدورهم إذا لم يكن عند أحدهم دينار ولا درهم ، بل وصل به الحد إلى إعجابه بأحد المتصوفة الذي كان يستحيي أن ينش الذباب عن وجهه ؛ لقوة حيائه من الله أن يراه في طلب حظ نفسه ، وأوضح أنَّ مَن يذُب الذباب عن وجهه فقد طلب النعيم المعجل له في الدنيا[١] .

وقد زيَّنوا للناس حياة الفقر والرضا بالرثاثة والقذارة والصبر على كل مكروه ، والإذعان لكل ما يناله من الحكام المتجبرين والطغاة الظالمين ، كذلك الانصراف عن الدنيا ومتاعها ومشاكلها إلى الآخرة والاستعداد لها ، مما جعل التسليم المطلق بالقضاء والقدر ، والقناعة إلى حد الاستكانة ، والاتِّكاليَّة ، وعدم مقاومة الظلم ، هي السمعة الغالبة على جميع أفراد المجتمع[٢] .

أما الكَرَامات فهي من المظاهر التي انتشرت انتشارًا مفزِعًا بين معظم الناس ، وكان للمتصوفة الدور الرئيسي في إيجادها وانتشارها .

وقد آمن المتصوفة بالكرامات وحثوا الناس على الإيمان بها ، وها هو الشعراني يذكر أن العهود أُخِذت عليهم ألَّا يمكِّنوا أحدًا من المتصوفة بالإصغاء إلى من يُحِط من قدر أو مكانة أحد من الأولياء ـ أيًا كان ـ أو يعتدي على كراماتهم ومناقبهم ، بل وصل الأمر إلى إدراج من يفعل هذا مع من يحط من قدْر أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ وفضائلهما ، وتعددت أنواع هذه الكرامات التي آمنوا بها وحثوا الناس على الاقتناع بها وتصديقها ؛ كإحياء الموتى وكلامهم في الدنيا ، وانقلاب البحر وجفافه ، وانقلاب الأعيان ، وانْزِواء الأرض ، وكلام الحيوان والنبات والجماد ، وإبراء العلل ، وطاعة الحيوان ، وطي الزمان ونشره ، وإجابة الدعاء ،

---

(١) عبد الوهاب الشعراني : الجواهر والدرر ، ١١٠ ـ ١١١.

(٢) ليلى عبد اللطيف : المجتمع المصري في العصر العثماني ، القاهرة ـ دار الكتاب الجامعي ١٩٨٧م ، ١٨٠.

والعِلْم بالغيب ، والصبر على عدم الطعام والشراب لأَمَدٍ طويل ، والقدرة على رؤية الأماكن البعيدة من وراء حجاب ، والتطور بأشكال مختلفة ومتباينة ، ورؤية الله تعالى على شكل إنسان في أثناء النوم ! والقدرة على إطالة العُمر بطرد ملك الموت والتصرف في الفعل الإلهي ! وإرشاد الخلق ونصحهم بعد الموت من داخل القبر ! وغير ذلك كثير[١] .

وقد ازداد الاعتقاد في كرامات الأولياء في القرون الثلاثة الأخيرة ؛ بل وصل الأمر إلى حد الاعتقاد في الحيوانات ، ويذكر عبد الرحمن الجبرتي أن الناس في مصر «أقبلوا على عَنْزَة وأَتَوْا إليها بالنُّذور والهدايا ، وأتوا إلى صاحبها بالقناطير من اللوز والفستق ، وعملت النساء للعنزة القلائد الذهب والأطواق والحُلِي ونحو ذلك ، وافتتنوا بها ، وشاع خبرها في بيوت الأمراء وأكابر النساء ، وأرسلن على قدْر مقامهن من النذور والهدايا ، وذهبن لزيارتها ومشاهدتها وازدحمن عليها»[٢] ، ومن العجيب أن ينضم بعض علماء الأزهر للإيمان بهذه الكرامات والدفاع عنها مثل الشيخ حسن الكَفْرَاوي الذي «كان له بالشيخ صادومة التمام وعِشْرة ومحبة أكيدة واعتقاد عظيم ، ويخبر عنه أنه من الأولياء وأرباب الأحوال والمُكَاشَفات ، بل يقول إنه هو الفرد الجامع ، ونوّه بشأنه عند الأمراء ... أبرزه في قالب الولاية وجعل شعوذته ... من قبيل الخوارق والكرامات»[٣] .

لقد وصل هذا الاعتقاد في الأولياء وكرامتهم درجة خطيرة في القرن الثامن

---

(١) عبد الوهاب الشعراني : البحر المورود ، ١٨؛ وراجع أيضًا : عبد الحفيظ علي القرني : عبد الوهاب الشعراني إمام القرن العاشر ، ١٠٠ ـ ١٠٣؛ عبد الرؤوف المناوي : الكواكب في تراجم السادة الصوفية ، القاهرة ـ مطبعة الأنوار المحمدية ١٩٣٨م ، ١: ١١ ـ ١٣.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ١: ٢٤١ ـ ٢٤٧، ٣٨٥، ٤٤٠ ـ ٤٤١؛ ٢: ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(٣) المصدر نفسه ، ١: ٦٤: ٦٦.

عشر، تناسبت مع زيادة الاعتقاد في التصوف ـ مع وجود الخرافات والأوهام ـ الذي ساد ذلك العصر «حتى إنه في يوم ٢٤ من ذي الحجة عام ١١٤٧هـ أُشِيع في الناس بمصر أن القيامة قائمة يوم الجمعة السادس والعشرين من ذي الحجة، وفشا هذا الكلام في الناس قاطبة حتى في القرى والأرياف، وودَّع الناس بعضهم بعضًا»، وعندما مر يوم الجمعة دون قيام القيامة انتقلوا يقولون: فلان العالم قال: إن سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي تشفعوا في ذلك، وقَبِل الله شفاعتهم، فيقول الآخر اللهم انفعنا بهم»[(١)].

ومن الجدير بالذكر أن الحالة في مصر والدولة العثمانية طوال هذه القرون الثلاثة لم تكن راكدة، ولم يكن هناك استسلام تام لتلك الكرامات؛ فقد كان هناك كثير من العلماء المنكِرين لها إلى جانب الدولة العثمانية، وحاولت السلطات الحاكمة والعلماء الوقوف في وجه هؤلاء المشعوذين بالترهيب أو الترغيب، ونجحوا في ذلك لكن بشكل محدود[(٢)].

ومن الظواهر التي انتشرت بين الناس، ولعب المتصوفة دورًا أساسيًا في إيجادها واستمرارها وازدهارها، إلى يومنا هذا، ظاهرة المولد؛ حيث حفلت مصر وبعض الولايات العثمانية بعدد كبير جدًا من الموالد الصوفية، أو ذات الصبغة الصوفية، وقد كانت تقام تكريمًا لأهل البيت، أو لأقطاب المتصوفة، أو لزعماء الطرق، أو لشيوخ المدن والقرى والأقل أهمية أو للدراويش والمجاذيب، وكان من أهمها موالد أهل البيت، مثل المولد النبوي، و«موالد» الحسين، والسيدة زينب، والسيدة فاطمة، والسيدة سكينة، والسيدة نفيسة، والسيدة عائشة، وزين العابدين، والإمام الشافعي، وجعفر الصادق[(٣)]، ومن الموالد المرتبطة بزعماء الطرق الصوفية

---

(١) المصدر نفسه، ١: ٦٤ - ٦٦.

(٢) زكي مبارك: المرجع السابق، ١: ٤٢.

(٣) محمد سيد كيلاني: المرجع السابق، ١٩.

مولد الشعراني، ومولد عبدالوهاب المرزوقي العفيفي، ومولد يونس السعدي، ومولد علي البيومي[١].

ونرى في الواقع أن هذه الموالد كانت تُرصَد لإقامتها مبالغ مالية كبيرة؛ لإقامة المراسم والشعائر والاحتفالات المختلفة والإنفاق عليها، وقد تعددت أشكال الرصد، فمنها ما[٢].

كما قام المتصوفة بتشجيع الناس على حضور الموالد في المدن والقرى والأرياف من الرجال والنساء والأطفال، وخرجوا بهذا عن تعاليم الشريعة الإسلامية التي تحرّم هذه الموالد وغيرها، والحقيقة تكمُن في أن نتائجها سلبية على المجتمع، وثمّة انتهاك لحُرْمَة الدين؛ من ذلك: انتشار الشذوذ الجنسي، والمخدرات، والرِّشْوة، وإهمالهم الكثير من الفرائض الدينية الأساسية، ومن ذلك أيضًا ما ذكره الشعراني عن أحد الطلاب المجذوبين الذي كان يقيم عند نساء بباب الفتوح يخدمهن، وبعضهن بغايا، وما ذكره الجبرتي عن الشيخ محمد بن أبي بكر الشهير «بالأثرم»، الذي كان يُحضَر بين يديه الشراب، وتنكبُّ عليه نساء البلد.

وقد ذكر الشعراني في كتبه بعض أمثلة على هذا النوع من الخروج الأخلاقي عن الدين والأعراف والعادات السليمة، وهي أمثلة صارخة جدًا، ولها دلالاتها المهمة في هذا الشأن، خاصة أننا نتناول دور المتصوفة الذين قامت دعواهم في الأساس على الزهد والتقشف والتدين، ومن هنا فقد كان من السهل عليهم الدخول إلى البيوت والوصول إلى أسرارها بفضل ما أحاطوا به أنفسهم من هالات التُّقى والصلاح، حيث تُحدِّثهم النسوة عن أزماتهن الوجدانية بلا حرج ولا حياء.

---

(١) توفيق الطويل: المرجع السابق، ١٥٦.

(٢) نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ٢: ١٥٥ - ١٥٦.

ولم يكن دور المتصوفة في ترويج المخدرات (الحشيش والأفيون والخمر) أقل من دورهم السابق؛ ويرى أحد الباحثين أن الذين أدخلوا مادة الحشيش إلى مصر، وأشاعوا استعمالها بين المصريين في أوائل القرن السابع الهجري هم المتصوفة[١]، ويرى البعض الآخر أنه على الرغم من أن محرّمات الشريعة كانت لا تُراعَى بصورة واسعة في مسائل شُرب الخمر وتعاطي المخدرات، فإنه من المؤكَّد أنهم هم الذين سبقوا غيرهم في تعاطي هذه الأنواع من المخدرات، ويكفي للدلالة على هذا أن الشعراني أشار إلى ضرورة عدم بُغض الحشَّاشِين، وإلى عدم زَجْرهم وضرورة التلطُّف معهم، بل جعل مِن مِنن الله عليه «خفض جناحه لفسقة المسلمين كالحشاشين»، وحذَّر معاصريه من «ازدراء مَن جلس في خان بنات الخطايا أو باع الحشيش»[٢]، بل لقد قام بعضهم بالاتجار في الحشيش، مثال ذلك الشيخ عبد الله المجذوب الذي كان يطحن الحشيش ويبيعه.

من ناحية أخرى، أيَّد المتصوفة مبدأ رشوة الحكام والقضاة وغيرهم، وقال الشعراني: «إن العهود قد أخذت علينا أن نرشي بالدنيا ... كل من تحرك علينا بالأذى من جارٍ أو شيخ بلد أو غفير وغيرهم، ولاسيما إذا تصدى للمرافعة فينا عند الحكام والقضاء، ولو لم يكن بيدنا إلا لقمة واحدة أعطيناها له»، ثم يعود فيذكر في موضع آخر أن الشيخ الدَّشطوطي نصحه قائلًا: «إذا ذهب أحدكم إلى قاض ليثبت له حقًا فليرشه قبل ذلك بما استطاع، وألا يخاف عليه أن يقبل الرشوة من الخصم ويضيع مالكم».

وقد انتشرت مظاهر الرشوة، والنفاق، والتملُّق، والكذب. وقد عمل زعماء المتصوفة على استمرارها واستِفحالها في المجتمع، وغلَّفوها بغلاف ديني كاذب

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن، ٢٠٦ - ٤٦٦.

(٢) عبد الوهاب الشعراني: البحر المورود، ١: ١٤٦ - ١٤٧.

ومزور، حيث تظاهر الكثير منهم بالمحافظة على قواعد الدين وأسسه، وغالوا في شروطهم للمتصوفة الجدد، من ذلك قول الشعراني في الطبقات أنه «يُكرَه أن يغتسل الشخص عريانًا ولو في خلوة...»[1]، بيد أن الواقع الفعلي أن هؤلاء المتصوفة كانوا أول الخارجين على الدين الإسلامي؛ فبعضهم ـ ومنهم الشيخ عبد القادر الدشطوطي ـ لم يكن يقيم الصلاة ويدَّعي أنه يقيمها في أماكن بعيدة مثل مكة والمدينة وبيت المقدس، أما الشيخ بركات الخيَّاط فقد طلب منه إمام المسجد مع فئة من العلماء أن يصحبهم إلى صلاة الجمعة «فاعتذر بأنه لم يتعود إقامتها، ثم استجاب لإلحاحهم وأراد أن يتطهر بماء قذر نجس، فلما ضاقوا به انهال عليهم سبًا وطعنًا»، بينما كان الشيخ تاج الدين يمكث سبعة أيام بوضوء واحد، وانتهى أمره أنه كان في آخر عمره يتوضأ كل أحد عشر يومًا! أما إمام التصوف في القرن العاشر ـ وهو الشعراني ـ فقد أيَّد بشكل ضمني سقوط التكاليف الشرعية من صلاة وصوم وغير ذلك عن أولئك الذين سمَّاهم بـ«الأولياء».

من ناحية أخرى، كان بعض هؤلاء المتصوفة يقومون بأداء البدع والمحرمات، وما زالت سائدة إلى يومنا هذا؛ مثل الدعاء إلى وليٍّ من الأولياء بدلًا من دعاء الله عز وجل، ويذكر الشِّرْبيني أنه التقى برجل من المتصوفة كان يكثر الذكر والعبادة، وعندما قام وصلى وفرغ من صلاته توجه إلى ناحية أحمد البدوي قائلًا: «كن لي يا أبا الفرجات، وتقبل عبادتي، ويسر لي رزقي»، وعندما لامه الشربيني على ذلك وأوضح له الصواب، أجابه بأنه إنما فعل ذلك نقلًا عن شيخه الذي كان يقول له: «أقصد بعبادتك سيِّدي أحمد البدوي»[2].

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: الطبقات، ٢: ١٢٥.

(٢) المصدر السابق، ١٢٥.

كذلك شجّع المتصوفة ازدياد انتشار الاعتقاد في السحر والشعوذة ، وذلك من خلال جَرِّهم للمجتمعات التي يعيشون فيها للإيمان بالأولياء والدراويش ، سواء في كراماتهم أو طلاسِمِهم أو سحرهم[١] ، خاصة في جو ساده الجهل والفاقة والمرض .

على أية حال ، فإن كثرة أنواع هذه الأمراض الاجتماعية وانتشارها بشكل حاد ، أدى إلى إيجاد بعض المنكِرين على المتصوفة ، وهم رغم قلتهم وضعف دورهم فإننا يجب ألا نُهمِلهم ؛ فقد أنكر بعض العلماء على أولئك المتصوفة ما كانوا يفعلونه ويظهرونه من أفعال سيئة ، لا تتفق مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، وممن أنكر على المتصوفة في مصر محمد صفي الدين الحنفي في رسالة سمّاها «الصاعقة المحرقة» ، ردَّ فيها على المتصوفة الذين اتخذوا الرقص واللعب دينًا ، وخلطوهما بالعبادة .

بيد أن هذا الإنكار من العلماء والمثقفين سرعان ما قل وكاد أن يتلاشى في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، خاصة وقد انخرط الأزهر ـ معقل الفقهاء ـ في التصوف ، وأصبح يمثل جانبًا من جوانب التطور بشكل عام ، لينحصر الأمر في بعض الأشخاص بأعينهم ، ولتصبح ظاهرة فردية لا تستطيع أن تقدم حلًا أو علاجًا جذريًا بعينه ؛ فعلى سبيل المثال كان الشيخ الشربيني يعترض على هذه الأوضاع السيئة خاصة في الريف ، بينما كان الجبرتي يُبْدي نوعًا من الاعتراض على تلك المظاهر المنحرفة التي صاحبتْ موالد الأولياء ، والإيمان بكراماتهم .

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الباحثين والكتّاب أوغلوا في الكتابة عن دور المتصوفة في رفع الظلم الذي كان يقع على بعض أفراد المجتمع ، من قِبَل الأمراء

---

[١] علي مبارك : الخطط التوفيقية ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م ، ١: ١٦٢.

والوزراء والولاة العثمانيين، ويضربون بعض الأمثلة على ذلك كمقاومة الشعب المصري وتمرده على الولاة الظالمين، تلك المقاومة التي تمثلت في شخصية الشعراني، الذي استطاع بإيمانه وشخصيته وجهاده أن يمثل سلطة الشعب، وأن يرد العدوان عنه، وأن ينتزع له حقوقه من ظالميه، وكشخصية الشرقاوي الذي تزعم الشعب المصري عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م لرد عدوان الظالمين وعقابهم أيضًا، وبالغ البعض في ذلك إلى الحد الذي وصف به الشعب المصري في هذه الحادثة بأنه: «انتزع وثيقة حقوق الإنسان من العثمانيين في الحرية والعدل والأمن»[1].

والحقيقة أن المتتبِّع مواقف المتصوفة وأسبابها يلاحِظ عدم دقة مثل هذه المقولات، بالتالي بُعدها عن الصحة في أحيان كثيرة؛ فقد حاول الشعراني في القرن العاشر الميلادي أن يلعب دورًا مزدوجًا مع الحكام والمحكومين، بحيث يظهر في عيون الحكام بصورة الشخص المطيع والمؤيد لهم، على حين يبقى في عقول المصريين وقلوبهم الشخص المُعِين الذى يرفع الظلم عن كاهل المظلومين، وعلى الرغم من نجاح الشعراني بدرجة معقولة في تنفيذ هذه السياسة، فإن متابعة كتاباته تكشف عن حجم التناقضات والازدواجيات التي وقع فيها، بحيث يبدو أن الرجل قد تلوَّن مع كل الأطراف بكل الألوان، وحاول الإفادة منهم جميعًا، فبينما رفع الدعوة بضرورة أن يقيم الناس العذر للحكام الظالمين، رفع في مقابلها دعوة عدم قبول هدايا هؤلاء الحكام، وفي الوقت الذي اعترف باعوجاج الحكام في عصره، اعترف كذلك باعوجاج الرعية، بل أرجع اعوجاج الحكام إلى اعوجاج المحكومين، وبينما دعا معاصريه إلى التحلي بالمُثُل والأخلاق الفاضلة، فإنه ذكر في عدة مواضع أن الإنسان يحتاج في هذا الزمان: «إلى قلة (الحياء) في مواطن كثيرة، ويكون ذلك أرجح وأصلح من (الحياء) والحشمة، فكن يا أخي

(١) نجم الدين الغزي: المصدر السابق، ٢: ١٥٥ - ١٥٦.

مشاكِلًا للناس في أحوالهم وتلوَّن لهم كما تلونوا لك، فإن ظهروا بمظهر (الذئاب) فكن ذئبًا، وإن ظهروا بمظهر السباع فكن سبعًا، وإن ظهروا بمظهر الثعالب فكن ثعلبًا، وإن نصبوا عليك فانصب عليهم حتى تصل إلى حقك»(١).

وعندما تطورت الأوضاع المختلفة للمتصوفة، أصبحت مواقفهم من قضايا الظلم الاقتصادي والاجتماعي والإداري والتعليمي تعبِّر عن أوضاعهم الخاصة أولًا، ثم عن أوضاعهم بصفتهم متصوفة ثانيًا. ولعل في الحوادث التي حدثت في مصر في أعوام (١١٣٧هـ/١٧٢٤م) و(١٢٠١هـ/١٧٨٦م) و(١٢٠٨هـ/١٧٩٣م) خير دليل على ذلك كله.

دور المتصوفة في الحياة التعليمية والفكرية

سيطرت الروح الصوفية سيطرة تكاد تكون تامة على الأزهر بوجه عام، باعتباره أكبر مؤسسة تعليمية في الدولة العثمانية، وكان معظم شيوخه الذين تَرجم لهم الجبرتي وغيره منتمين إلى الطرق الصوفية، وكان العالِم الأزهري يجاز أولًا في العلوم الشرعية، ثم يجاز ثانيًا بإجازة الطريق الصوفي أو العكس.

ومن المتصوفة الذين كانوا شيوخًا في الجامع الأزهر وتولَّوا رئاسته: الشيخ إبراهيم الفيومي المالكي (١١٢٣-١١٣٧هـ/١٧٢١-١٧٢٥م)، الذي وُصِف بأنه كان «رجلًا وليًا»(٢)، والشيخ عبد الله الشبراوي (١١٣٧ - ١١٧١هـ/١٧٢٥ - ١٧٥٧م) الذي انتصر للشيخ علي البيومي عند الوالي حينما اعترض عليه المعترضون؛ بسبب عقْده مجلس الذكر في المشهد الحسيني، والشيخ محمد بن

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية في بيان أداء العبودية، مطبوع على هامش كتاب الطبقات الكبرى للشعراني، مكتبة محمد على صبيح وأولاده، ٣٨ - ٣٩.

(٢) يوسف بن محمد الشربيني: هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف، ٦٢.

سالم الحفناوي (الحفني) (١١٧١-١١٨١هـ/١٧٥٧-١٧٦٧م)، الذي كان خلوتيًا[١]، ومنهم الشيخ أحمد العروسي (١١٩٢ - ١٢٠٨هـ/١٧٧٨ - ١٧٩٣م)، الذي تلقَّي الطريقة على يد السيد مصطفى البَكري ولازمه كثيرًا، واجتمع بعد ذلك بالشيخ أحمد العريان، واهتم به اهتمامًا زائدًا فكان لا يفارقه، وزوَّجه إحدى بناته؛ خاصة أن العريان قد بشَّره بأنه سيسُود، ومنهم الشيخ عبد الله الشرقاوي (١٢٠٨-١٢٢٧هـ /١٧٩٣-١٨١٢م)، الذي أوغل في دخول الطريق الخلوتي، وصار له مجلس ذكْر، حتى أن مجلسه هذا كان يضم أحيانًا أناسًا يأخذون في الذكر والإرشاد وينادون في إنشادهم بقولهم: يا بكري مدد، يا حنفي مدد، يا شرقاوي مدد، وعندما مات الشيخ الحنفي نجح الشرقاوي في أن يكون خليفة بعده[٢].

إننا نجد في الحقيقة أن العصر العثماني في مصر وبعض الولايات العربية قد شهد توغل التصوف داخل الأزهر باطراد طوال القرون الثلاثة، ونستطيع أن نتبين صحة ذلك بصورة جليَّة في كتابات الشعراني، والنابلسي، والمحبي، وأحمد شلبي، والمناوي، وغيرهم؛ فالشيخ زكريا الأنصاري على الرغم من تصوفه إلا أنه التحق بالأزهر واستمر ملازمًا للاستماع إلى كبار علمائه وفقهائه والمتصوفين منهم خاصة، حتى أصبح أحد أركان الطريقين (الفقه والتصوف)، بل لقد كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان فوق سطح منزل، أما الشيخ محمد المنير البِلْبِيسي فقد كان يصوم كل عام بالجامع الأزهر، وكان الشيخ الشوني أول من عمل طريقة المحيا في الصلاة على النبي ﷺ بالأزهر، وأصبح شيخها في مصر ونواحيها، ورغم

---

(١) هاملتون جب وهارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة - دار المعارف، ٤: ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) عبد الوهاب الشعراني: دور الغواص على فتاوى سيدي على الخواص (مطبوع على هامش الأبريز الأحمد ابن المبارك)، القاهرة - المطبعة الأزهرية ١٩٢٧م، ٦٨.

اعتراض بعض رجال الأزهر عليه، فإن البعض الآخر سانده، وهناك عشرات الأسماء ممن كانوا قد تعلموا وتصوفوا في الوقت نفسه، ومنهم على سبيل المثال أيضًا محمد بن سالم الطَبْلاوي (ت ٩٦٧هـ/١٥٥٩م)، وصالح بن عبد الله الكتامي (ت ٩٩١هـ/١٥٨٣م)[١].

ولمَّا كان الأزهر أكبر مؤسسة تعليمية في ذلك الوقت سواء في تعليم الطلبة وتخرُّجهم، أو في نشر الثقافة، انعكس هذا التحول على مؤسسات التعليم في مصر وبقية البلاد العثمانية، وأصبح من الواضح فيها هي الأخرى اندماج الفقه والتصوف، وبروز الفقهاء المتصوفة على اعتبار أن معظم القائمين على التعليم فيها كانوا من خريجي الأزهر، أو ممن حضروا حلقات علمه، أو ممن تأثروا بالفكر السائد به وبمكانته العلمية واتجاهاته الفكرية.

ولم يقتصر التصوف على الجامع الأزهر؛ بل لقد انتشر في سائر المؤسسات التعليمية آنذاك، ومنها المساجد والجوامع والزوايا والتكايا، وكان معظم الشيوخ الذين قاموا بالتدريس فيها من المتصوفة الذين تلقَّوا تعليمهم في الجامع الأزهر.

وقد شهدت الزوايا هي الأخرى في ذلك العصر ـ الذي نحن بصدده ـ تعددًا لمهامها؛ فقد جاء في حجة وقف مصطفى باشا على زاويته أنه «وقفها مسجدًا لله تعالى، تصلى فيها الصلوات المفروضات، وتقام فيها السنن والجماعات، ويعتكف فيها على العبادة والطاعات ... وتلاوة القرآن العظيم، وأحاديث النبيعليه الصلاة والسلام، ومذاكرة العلوم وتفهيمها ومدارستها وتعليمها، وأذن في دخولها، والصلاة فيها والاعتكاف، وجعل حكمها حكم المساجد»[٢].

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر، القاهرة، ١٢٧٧هـ، ٢٢٧.

(٢) عبد الوهاب الشعراني: البحر المورود، ٥٢، ٦٣، ٦٧، ١٣١، ١٣٣.

أمّا التكايا فقد كانت تهتم بالجانب العلمي، وتحرص على أن يكون بها طلبة من الأتراك ومدرسون، حيث توفر لهم ـ كالعادة ـ كل ما يحتاجونه من أمور المعيشة، وقد حظيت بأوقاف واسعة انعكست على مستوى معيشة الطلاب النازلين بها، وعلى القائمين بالتدريس فيها.

في الحقيقة، إن العملية التعليمية داخل التكايا كانت تتشابه كثيرًا مع مثيلاتها في المؤسسات الصوفية الأخرى، سواء من حيث الدراسة أو نظامها، ولكونها كانت تضم الطلبة الأتراك فقد كانت تدرس بها بعض كتب التصوف التي لم يكن الطلبة المصريون يتداولونها بين أيديهم من قبل، سواء للدراسة أو القراءة، ومن أهم هذه الكتب كتاب «المثنوي» لجلال الدين الرومي، وقلَّما وجدنا زاوية أو تكية للأتراك في البلاد العربية لم تكن تدرِّس هذا الكتاب، وعلى سبيل المثال نصت حجة وقف حسن الدفتردار على التكية المولوية على أن «يصرف في كل شهر من شهور الأهلة من الفضة الموصوفة خمسة عشر نصفًا لقارئي المستوى بالتكية»[1].

أما الخانقاهات فعلى الرغم من تدهور أحوالها إلا أن الدراسة بمعظمها إجبارية، وكان يتولى مشيختها كبار العلماء والفقهاء، وتمنح الدارسين بها إجازات علمية، كذلك لم يكن الأمر فيها يخلو من عقد جلسات للوعظ والإرشاد.

ومن الأمور التي ارتبطت بالمؤسسات التعليمية الصوفية المكتبات، وقد كان الجامع الأزهر يأتي في المقدمة بشأن المكتبات، فقد كان لكل رواق مكتبته الخاصة لتيسِّر مهمة البحث والدرس للطلاب المنتمين إليه، فكان في كل من رواق المغاربة، ورواق الترك، ورواق الشَّوَام، ورواق الصعايدة، ورواق الحنفية، وغيرها من الأروقة، مجموعات من الكتب، تبلغ كل مجموعة منها الآلاف من المجلدات.

---

(١) عبد المتعال الصعيدي: المجددون في الإسلام، القاهرة ـ مكتبة الآداب بالجماميز، ٤٢٣.

كما كانت المساجد والجوامع الأخرى في الولايات العثمانية تضم مكتبات تتناسب مع حجمها وحجم أوقافها، وحجم العملية التعليمية بها وعدد الطلاب، وتضم هذه المكتبات كتبًا في التفسير والأحاديث والفقه والفرائض واللغة والنحو والصرف والطب والتاريخ والتصوف، وغيرها من أنواع المعرفة.

أما إسهامات المتصوفة في حركة التأليف أو التصنيف في العهد العثماني - باعتبارها المؤشر الحقيقي لتطور الحياة الفكرية أو تأخرها - فإنه موضوع معقَّد ومتشابك إلى أقصى حد؛ نظرًا لطول فترة الحكم العثماني من ناحية، وكثرة عدد الكتب وصعوبة تصنيفها وفق تخصصاتها واختلاط المتون والشروح والحواشي، وعدم وضوح العدد الحقيقي لمؤلفات المؤلِّف من تأليفه الخالص من ناحية أخرى، وهي سمة تتسم بها حركة التأليف في ذلك العصر، ونظرًا لكثرة هذه الكتب كما قلتُ أكتفِي بالإحالة إلى المصادر التي ذكرتُها في موضوع التصوف[1].

وقد كان الحديث الشريف من العلوم الشرعية التي اهتم بها المتصوفة اهتمامًا متباينًا، وانعكس ذلك التباين على تطوره؛ فقد كانت دراسة الحديث عند المتصوفة منذ القرن السادس عشر الميلادي - بل من قبله - منصبة تمامًا على تلك الأحاديث التي تحض على الزهد والفقر والعبادة حتى لو كانت ضعيفة، ويذكر الشعراني قائلًا: «أُخذ علينا العهود أن نعمل بها كما هو الغالب في الناس»، ولقد كان الشعراني أبرز مثال على صحة ذلك، فقد شُغِل بتلك الأنواع من الأحاديث ومعظمُها غير صحيح، وللشعراني مؤلَّفان في الحديث سارا في الدَّرْب نفسه، هما: «البَدْر المنير في غريب أحاديث البَشِير النَّذِير»، و«المنهج المُبِين في بيانِ أدلة المجتهدين»[2].

---

[1] عبد الرحمن الجبرتي: المصدر السابق، ١: ٣٧٢ - ٣٩٢.

[2] أرشيف وزارة الأوقاف بمصر: حجة وقف مصطفى باشا عبد الرحمن، رقم ٤٩٥ لسنة ٩٧١هـ.

وقد تعامل الشعراني مع الفقهاء والعلماء بمكرٍ وخداعٍ شديدَين، ونصح أتْباعه وزُمْرته بذلك؛ إذ قال: «ومن أخلاقهم - أي المتصوفة - موافقة الفقيه إذا أنكر شيئًا من أحوال أهل الطريقة أو أمرهم بشيء، ولا يقم أحدهم عليه - أي على الفقيه - الحجة إلا إن علم أنه يرجع إلى قوله، وذلك لأن الفقيه في دائرة لا يعرف غيرها، فإذا قال أن القطب مثلًا أو البدل أو الوتد لا حقيقة له، فقل له نعم، واقصِدْ بذلك أنه ليس حقيقة عنده، وإذا قال الأولياء قد انقرضوا ولم يبقَ منهم أحد فقل له صدقْتَ، أي على معتقَدِه هو، وكذا إن قال الخَضِر لا وجود له فقل له نعم ...».

وقال أيضًا: «سمعتُ سيدي علي الخواص يقول: لا اعتراضَ على الفقيه إذا أنكر على المتصوفة أمرًا يخالف الشرع، واعلمْ يا أخي أن غالب الإنكار الذي يقع بين الفقهاء والصوفية إنما هو بين القاصِر مِن كلٍّ منهما وبين مِثْله، وإلَّا فالكاملُ من الفقهاء يسلمُ للعارفين، والعارفون يسلمون للعلماء ...» وقد وصل الأمر في نهايته إلى قيام نوع من الوفاق بين الفقهاء - وجُلُّهم من المتصوفة - والمتصوفة، مما أدى إلى قوة تيار التصوف.

أما إسهامات المتصوفة في التأليف في مجال الشعر فهي كثيرة، وقد تعددت أهداف الشعر لديهم تعددًا كبيرًا، فمنه ما كان موجَّهًا لمدح الصحابة رضوان الله عليهم وذِكر مَنَاقِبِهم، وإظهار الولاء والاحترام لهم، ومنه ما كان موجَّهًا للوعظ والإرشاد، وتوضيح آداب الطريق للمريدين بشكل عام فيما يتصل بحياتهم الخاصة، وحياتهم بوصْفهم متصوفة، وطرق أكلهم وملبسهم وشتى أوجه اهتماماتهم ومعيشتهم[١].

وفي هذه الأسطر نبرز موقف زعماء المتصوفة من بعض العلوم؛ قال علي الخواص: «إن العلم عِلمانِ؛ علم يُحتَاج إليه مثل ما تَحتاج من القُوت فينبغي

---

(١) أرشيف وزارة الأوقاف بمصر: حجة وقف حسن أفندي الدفتردار، رقم ٢٨١٦، ٢ ربيع الثاني لسنة ١٠٣٧هـ.

الاقتصاد فيه والاقتصار على قدْر الحاجة منه ، وهو علم الأحكام الشرعية ، فلا ينبغي لفقيرٍ أن ينظر فيه إلا بقدر ما تَمَسُّ الإنسان الإحاطة بعلم جميع ما كلَّفه الله به من الأحكام في نحو شهر ... وعلم لا يُستغْنى عنه طَرْفَةَ عَينٍ وليس له حَدٌّ يقف العبد عليه ، وهو العلمُ المتعلِّقُ بالله تعالى ومواطن القيامة ، فإن العلم بمواطنها يؤدي العالِم بها إلى الاستعداد لكل موطن يليق به ليعد له الجوابَ»[(١)] .

أمَّا الشعراني فيذكر صراحة : «أُخذت علينا العهود أن لا نمكِّن أحدًا من إخواننا يشتغل بشيء من العلوم الكاسدة التي تعطل بها العمل . فإن العُمر ضاق عن مثل ذلك ، بل قال بعضهم نسيان العبد لكل علم لا يستطيع العمل به من رحمة الله به من الاشتغال بذكر الله وكثرة الاستغفار» ، ويضيف في موضع آخر : «فأي فائدةٍ لِمَن هو طوال عمره في زاوية أو مدارس يطالع دقائق البيوع والرهون والتقارير والدعاوى والنحو واللغة» ، ويقول أيضًا : «وهل يقال للملَكَيْن في القبر وللزَّبَانِيَة على جهنم دَعُوه لأنه كان يحفظ أبواب الفقه والنحو والأصول على ظهر قلبه ، أو يقرأ بالمدِّ والإِمَالَة والتَّفخِيم والتَّرقِيق ، كلا والله لا يترك ولا يكرّم لأجل شيء من ذلك ، إنما يكرم بالتقوى والعمل الصالح ومعرفة الله عز وجل ...»[(٢)] .

وقال الشعراني أيضًا : «ومما أنعم الله به عليَّ من صغرى كراهتي لتعلم علم الحرف وعلم الرمل والهندسة والسيمياء ، وغير ذلك من علوم الفلسفة ، وزجر أعواني في تعلم ذلك ، فإن هذه الأمور إنما يفعلها المفلسون من صفات الصالحين ، فيريدون أن يكون لهم تأثير في الوجود تشبيهًا بالصالحين الذين يقع منهم تأثير

---

(١) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ـ مؤسسة الخانجي ١٩٥٨م ، ٩٨.

(٢) لمعرفة بعض الكتب والمصادر التي أُلِّفَتْ في التصوف انظر ، الغـزي : الكواكب السائرة ، ج ١. المحبي : خلاصة الأثر . المرادي : سلك الدرر ، ج ١. محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس ، جـ ٨ ، مصر ـ المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ. الشعراني : البحر المورود . الشعراني : الطبقات ، ج ٢. الشعراني : لطائـف المنن . ومعظمها مصادر سبقت الإشارة إليها في موضوع التصوف .

بتوجههم إلى الله تعالى في ظالم أو فاجر... ولو أن أهل هذه العلوم شموا رائحة الأدب مع الله تعالى[١].

وقد انعكس ذلك على بقية العلوم مثل الطب، وفي ذلك قال الشعراني: «وينبغي لك يا أخي أن لا تطلب من العلوم إلا ما يكمل به ذاتك، وينتقل معك حيث انتقلتَ، وليس ذلك إلا العلم بالله تعالى من حيث الوهب والمشاهدة، فإنَّ عِلمك بالطب مثلًا إنما يُحتاج إليه في عالَم الأسقام والأمراض، فإذا انتقلت إلى عالَم ما فيه سقم ولا مرض فمَن تداوِي بذلك العلم، فقد علمت يا أخي أنه لا ينبغي للعاقل أن يأخذ من العلوم إلا ما ينتقل معه إلى البرزخ دون ما يفارقه...»[٢].

---

(١) محمد فؤاد شاكر: الأحاديث الموضوعة عند الصوفية في القرن السابع الهجري، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ـ جامعة سوهاج، قسم اللغة العربية، ١٩٨٩م.

(٢) عبد الوهاب الشعراني: تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم، القاهرة ـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٩٠هـ، ٧٣.

المصادر والمراجع

أولًا : الوثائق

أرشيف وزارة الأوقاف بمصر.

ثانيًا ـ المصادر والمراجع العربية

أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٩م .

أحمد شلبي عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٨٧م .

أحمد صادق سعد : تاريخ العرب الاجتماعي ، ط ١، بيروت ـ دار الحداثة ١٩٨١م .

ابن تيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، القاهرة ـ دار المدني .

ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبع بالمطبعة الكبرى الأميرية بمصر.

أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ط ٣، القاهرة ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٣م .

تقي الدين بن عباس المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، جـ ٢، بيروت ـ دار صادر .

توفيق الطويل : التصوف في مصر إبان الحكم العثماني ، القاهرة

جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة أيمن فؤاد سيد ، ط ١، القاهرة ـ مكتبة الخانجي١٩٨٧م .

زكي مبارك : التصوف الإسلامي ، جـ ١، القاهرة ـ مطبعة الاعتماد ١٩٣٨م .

السهروردي البغدادي : عوارف المعارف ، ملحق بكتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، القاهرة ـ المكتبة التجارية الكبرى .

سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ١ ـ ٥، القاهرة ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف ١٩٨٣م .

سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ط ١، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٦٢م .

السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٧٠م .

طه عبد الباقي سرور: الشعراني والتصوف الإسلامي ، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٥٢م .

عبد الوهاب الشعراني : الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار في طبقات الأخبار) ، ج ٢، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده .

ـــ البحر المورود في المواثيق والعهود ، القاهرة .

ـــ لطائف المنن الجالبة للسرور والبشرى ، القاهرة ـ مطبعة بولاق ١٢٨٨هـ .

ـــ الأنوار القدسية في بيان أداء العبودية ، مطبوع على هامش كتاب الطبقات الكبرى للشعراني ، مكتبة محمد على صبيح وأولاده .

ـــ الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر ، القاهرة ، ١٢٧٧هـ .

ـــ درة الغواص على فتاوى سيدي على الخواص ، (مطبوع على هامش الأبريز لأحمد ابن المبارك) ، القاهرة ـ المطبعة الأزهرية ١٩٢٧م .

ـــ تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم ، مصر ـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٩٠هـ .

عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ط ٥، بيروت ـ دار العلم ١٩٨٤م .

عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت ـ دار الجيل .

ـــ مظهر التقديس في ذهاب دولة الفرنسيس ، تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي ، ط ٢، لجنة البيان العربي ١٩٦٩م .

عبد الحليم محمود : قضية التصوف (المدرسة الشاذلية) ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٣م .

عبد الرحمن بدوي : تاريخ التصوف الإسلامي ، ط ٢، الكويت ـ وكالة المطبوعات ١٩٧٨م .

عبد المنعم الحنفي : معجم مصطلحات الصوفية ، ط ١، بيروت ـ دار المسيرة ١٩٨٠م .

عبد اللطيف الطيباوي : التصوف الإسلامي العربي ، القاهرة ـ دار العصور للطباعة والنشر ١٩٢٨م .

عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر في زمن الأيوبيين والمماليك ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٤م .

عبد الحفيظ القرني : عبد الوهاب الشعراني إمام القرن العاشر ، سلسلة الأعلام ، عدد (١١٦) ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م .

عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠م .

الأزهر جامعًا وجامعة ، ط ١، جـ ١، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣م .

عبد الرؤوف المناوي : الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، ط ١، ج ١، القاهرة ـ مطبعة الأنوار المحمدية ١٩٣٨م .

علي مبارك : الخطط التوفيقية ، ط ١، جـ ١، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م .
عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ، القاهرة ـ مكتبة الآداب بالجماميز .
عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها ، ط ٣، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٦م .
فيوتو : وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، ط ١، ج ٨، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٨٣م .
القشيري : الرسالة القشيرية ، القاهرة ١٣٣٠هـ .
ليلى عبد اللطيف : المجتمع المصري في العصر العثماني ، ط ١، القاهرة ـ دار الكتاب الجامعي ١٩٨٧م .
محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس ، جـ ٨، مصر ـ المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ .
محيي الدين بن عربي : الفتوحات المكية ، جـ ١، القاهرة ، ١٢٩٣هـ .
مشيخة عموم الطرق الصوفية : التصوف الإسلامي رسالته ومبادئه ماضيه وحاضره ، القاهرة ـ مطابع دار الكتاب العربي ١٩٥٨م .
محمد مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الإسلام ، ج ٢، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م .
مصطفى البكري : أوراد الشيخ مصطفى البكري ، القاهرة ، ١٢٨٦هـ .
محمد قنديل البقلي : آداب الدراويش ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م .
مقداد يالجن : فلسفة الحياة الروحية ، ط ١، القاهرة ـ دار الشروق ١٩٨٥م .
محمد سيد كيلاني : الأدب العصري في ظل الحكم العثماني ، القاهرة ـ مكتبة دار الفرجا ١٩٨٤م .
محمد الأمين فضل الله محب الله (المحبي) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، جـ ١، القاهرة ، ١٢٨٤هـ .
محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ـ مؤسسة الخانجي ١٩٥٨م .
نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، ط ٢، ج ٢، بيروت ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ١٩٧٩م .
هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ج ٤، القاهرة ـ دار المعارف .
يوسف بن محمد بن عبد الجواد الشربيني : هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف ، ط ١، القاهرة ـ المطبعة الشرقية ١٣٢٢هـ .

ثالثًا : الرسائل العلمية

محمد عفيفي عبد الخالق: الأوقاف ودورها في الحياة الاقتصادية في مصر ٩٢٣-١٠٦٩هـ/ ١٥١٧-١٦٥٨م، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٨٥م.

محمد فؤاد شاكر : الأحاديث الموضوعة عند الصوفية في القرن السابع الهجري، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة سوهاج، قسم اللغة العربية.

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦) ، ٢٤١ - ٢٧٦

الْجُهُودُ الْعِلْمِيَّةُ لِلأَقْفَهْسِيِّينَ فِي ضَوْءِ كِتَابَاتِ الْمُؤَرِّخِ التُّرْكِيِّ حَاجِي خَلِيفَة فِي كَشْفِ الظُّنُونِ عَنْ أَسَامِي الْكُتُبِ وَالْفُنُونِ

ناجية عبد الله إبراهيم(*)

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على النبي محمد الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تَبِعَهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ، اعتنى الكثير من العلماء الأتراك بالتراث الإسلامي عناية كبيرة ، لسنوات طوال ، وقد تجلّت عنايتهم وجهودهم العلمية في مؤلّفات عدة ، لا تزال رافدًا مهمّا للباحثين وطلبة العلم في التراث الإسلامي ، المخطوط منه والمطبوع ، كان في مقدمتهم في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي المؤرِّخ والبحاثة والعالِم القدير مصطفى بن عبد الله أفندي القسطنطيني - نسبة إلى القسطنطينية وهي إستنبول الحالية - الشهير بكاتب جلبي تارة ، وبالحاجي خليفة تارة أخرى ، المُتَوَفَّى سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م .

إنّ موضوع البحث محاولة متواضعة لرصد الجهود العلمية التي بذلها مجموعة من علماء مصر يُنسَبُون إلى أَقْفَهْس - وهي بلدٌ بصعيد مصر من كورة البَهْنَسا - أخذا وعطاء مع تحديد اتجاهاتهم الفكرية وأثرها في الحياة العلمية والثقافية للمجتمع

(*) أ.د. بكلية التربية للبنات - جامعة بغداد .

المصري خاْصة، وفي الثقافة العربية الإسلامية عامة، رصَدَها حاجي خليفة في واحد من بين أشهر كتبه ـ التي تخطَّتِ العشرين ـ، هو «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون».

وللضرورة العلميَّة والمنهجية سيتم تناوُل الموضوع في مباحث أربعة؛ هي:

١. المبحث الأول: سيرة حاجي خليفة الشخصية والعلمية.

٢. المبحث الثاني: كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون وأهميته العلميَّة.

٣. المبحث الثالث: الأُسس التي اعتمدها البحث في رصْد الجهود العلمية للأَقْفَهْسِيين في الكتاب المذكور.

٤. المبحث الرابع: علماء أَقْفَهْس وجهودهم العلمية في التأْليف والتصنيف وأثرها في الثقافة العربية الإسلامية.

وقَبْل تناوُل الموضوع لابد من الإشارة إلى أننا سنحاول الإيجاز في تناوُل سيرة المؤلف حاجي خليفة الشخصية والعلمية، لأن تفاصيلها ورَدَتْ في دراسات سابقة لنا، في الإطار نفسه، وإن كانت لمناطق أخرى من العالم العربي[1]. فقد عقدنا العزْم بعد التوكُّل على الله أن نعدها جميعًا مع غيرها من الدراسات اللاحقة في كتابٍ بعنوان «التراث العلمي العربي عند المؤرخين الأُتراك، حاجي خليفة أنموذجًا».

ندعو الله العلي القدير أن يوفِّقنا لإنجازه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) منها على سبيل المثال بحث: التراث العلمي العماني عند المؤرخ التركي حاجي خليفة، قُدِّمَ إلى الملتقى الثاني لوحدة الدراسات العمانية المنعقد في جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، في فترة ١٤ـ١٥/٥/ ٢٠٠٢. كذلك بحث: التراث الفكري الأردني عند حاجي خليفة، مدينة الكرك أنموذجًا، قُدِّمَ إلى ملتقى عمان الثقافي العاشر حول المعالم الثقافية والحضارية في الأردن عبر العصور، ونُشِر في كتاب=

المبحث الأول: سيرة حاجي خليفة الشخصية والعلمية

أولًا ـ سيرته الشخصية

أ - اسمه ونسبه ومولده

هو مصطفى بن عبد الله أفندي القسطنطيني الحنفي المذهب، الشهير بكاتب جلبي تارة، وبالحاجي خليفة تارة أخرى[١].

وُلِد في القسطنطينية ـ وهي مدينة إستنبول الحالية ـ في أواخر ذي القعدة سنة ١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م، وبها تُوُفِّيَ سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م.

ب - نشأته وتربيته

نشأ مصطفى على الصلاح والتقوى، فوالدُه كان رجلًا صالحًا ملازِمًا لمجالس العلماء والمشايخ، وقد اعتنى بتربيته منذ الطفولة. فعندما بلغ الخامسة أو السادسة من العُمْر عَيَّنَ له معلمًا يعلِّمه القرآن والتجويد، ثم التحق بدار القراء في إستنبول ليسمع ما حفظه من القرآن. ولمَّا بلغ الرابعة عشرة من عُمره ألحقهوالده بجماعتية في الحرم السلطاني كاتبًا صغيرًا في مكتب الأناضول للمحاسبة، فأخذ هناك قواعد الحساب والأرقام من بعض الخلفاء العاملين فيه[٢] وتأهل لمهاراتٍ انتفع بها في حياته.

=الملتقى، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة، الأردن، عمان ٢٠٠٢، ٥٠٩ـ ٥٤١. وبحث: التراث العلمي لمدينة زبيد في ضوء كتابات المؤرخ التركي حاجي خليفة، قُدِّمَ للمؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب، جامعة الحديدة، في ديسمبر ٢٠٠٢م. وبحث: التراث الفكري للجزائر عند حاجي خليفة، نُشِرَ في عدد خاص لمجلة البيان، جامعة آل البيت، الأردن، م٣ع، ١٤٢٣هـ /٢٠٠٢م.

(١) تنظر ترجمته في: حاجي خليفة: كشف الظنون، المقدمة، ص و: ط و٥ـ ١٨، دائرة المعارف الإسلامية ١: ٢٣٥ـ ٢٣٩. الزركلي: الأعلام ٧: ٢٣٦ـ ٢٣٧. سركيس: معجم المطبوعات العربية المعربة ١: ٧٣٢ـ ٧٣٤.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ١٤.

ثانيًا ـ سيرته العلمية

إنَّ عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م ـ وهو العام الذي بلغ فيه حاجي خليفة الثامنة والعشرين من عُمْره ـ كان حدًّا فاصلًا في حياته العلمية ؛ إذ عزم على الانصراف إلى العلم وتَكْريس حياته له ، وأخذ يلازم العلماء وكبار مشايخ عصره في الرواية والدراية ، ينتفع بهم ويروي عنهم ، كان مِن أبرزهم الملا أحمد الجلبي والعلامة الشيخ مصطفى الباليكسري المعروف بقاضي زادة الحنفي[(١)] .

ولمَّا عُيِّنَ في وظيفة «الخليفة الثاني» ـ أي المساعد ـ عام ١٠٥٨هـ/١٦٣٨م لم تمنعه هذه الوظيفة من مواصلة العلم ، إنما استمر في القراءة والمتابعة .

وعندما صَحِب الصدر الأعظم محمد باشا في رحلته إلى حلب ، وأقام بها بعض الوقت ، كان يتردَّد إلى حوانيت الورَّاقين ويتصفَّح ما فيها وما يَرِد إليها من الكتب والرسائل[(٢)] . ومِن حلب ذهب إلى مكة وأدَّى فريضة الحج . وبعد عودته تفرَّغ للتدريس على طريقة المشايخ وانتفع به وروَى عنه جماعة من الأفاضل والعلماء[(٣)] .

ومع أن حاجي خليفة تُوُفِّيَ سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م ، وهو لم يتجاوز الخمسين سنة من عمره ، فإن سِيرته العلمية كانت حافلة بالعطاء والمثابرة ؛ إذْ صنَّف كتبًا عدة ، بلغ عددها ٢٢ مؤلَّفًا بين كتاب ورسالة وترجمة وجداول مرتبة ترتيبًا زمنيًا ،

---

(١) لمزيد من التفاصيل ينظر للباحثة : التراث العلمي لمدينة زبيد في ضوء كتابات المؤرخ التركي حاجي خليفة ، المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب ، جامعة الحديدة ، في ديسمبر ٢٠٠٢، ١: ١١٧. والتراث الفكري للجزائر عند حاجي خليفة ، مجلة البيان ، جامعة آل البيت ، الأردن ، م٣ ع ٤، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ٧٣٣.

(٣) حاجي خليف : كشف الظنون ، م١/المقدمة ، ص ز .

آخرُها كان كتاب «ميزان الحق في اختيار الأحق» ، الذي أتمَّه قبل وفاته بشهر أو يزيد[١] .

المبحث الثاني : كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون وأهميته العلمية

يُعَدُّ كتاب «كشف الظنون» واحدًا من أنفع ـ كذلك أوسع ـ ما كُتِبَ في موضوعه بالعربية . وهو دائرة معارف عظيمة في مصنفات الكتب والعلوم ، وهو أهم مؤلفات حاجي خليفة . قضى أكثر من عشرين سنة في جمع مواده ، وكتَبَه باللغة العربية . ويقع الكتاب في مجلدَيْنِ كبيرَيْنِ ، ذكر فيه زهاء «١٥» ألفًا وقِيلَ «٢٠» ألفًا من أسماء الكتب والرسائل والشروح والمختصرات[٢] وغيرها ، وما يزيد عن «٩٥٠٠» مِن أسماء المؤلفين . وتكلم فيه عن نحو ٣٠٠ علم وفن ، وكان قد سمَّاه في بادئ الأمر باسم «كتاب إجمال الفصول والأبواب في ترتيب العلوم وأسماء الكتب» ، ثم عاد وسمَّاه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»[٣] .

وقد اعتَنَى بكتاب حاجي خليفة هذا والتعليق عليه والتذييل له جمْعٌ مِن العلماء الأفاضل ، كان من بينهم إسماعيل باشا البغدادي ، المُتَوَفَّى سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م ، في كتابَيْهِ:

١. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، ويقع في مجلدَيْنِ كبيرَيْنِ .
٢. هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين .

---

(١) ن.م م١/المقدمة ، ص ز و ص ١٠.
(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ، م١/المقدمة ، ص د و ط .
(٣) ن . م ١: ٧.

وكما يبدو من العنوانَيْنِ هدف المؤلف من تصنيفهما ، لا سيما الكتاب الأول ، تأكيدًا أو تصويبًا لِمَا ذكره حاجي خليفة في كتابه .

المبحث الثالث : الأسس المعتمدة في رصد الجهود العلمية للأَقْفَهسِيِّين في كتاب كشف الظنون

إنَّ السؤال المطرُوح الآن:

ما نصيبُ علماء أقفهس بمصر وجهودهم العلمية في التأليف والتصنيف من هذا الكم الهائل من أسماء الكتب والرسائل والمؤلفين الذين ذكرَهم حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون»؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال علينا أن نعرِّف أولًا بالمنطقة التي ينتسب إليها العلماء موضوع البحث ، ثم نشير إلى جملة من الأهمية بمكان للبحث ، كما يلي:

أقفهس : بلغة العَوَام أقفاص ، والنسبة إليه إقفاص ، والصواب أقفهس ، وهي اسم بلد بصعيد[(١)] مصر غربي النيل ، مِن كورة[(٢)] البهنسا ، بمحافظة المنيا[(٣)] اليوم . والبهنسا قديمًا كانت في عهد الفراعنة قِسمًا مِن أقسام مصر بالوجه القبلي ، يُسَمَّى «بامازيت» . وفي عهد الرومان سُمِّيَتْ «أوكسيرنشيت» ، أمَّا بعد الفتح الإسلامي فسُمِّيت كورة البهنسا[(٤)] . ثم أصبحت الإقليم لِمَا يُعرَف بالوجه القبلي من الديار المصرية .

---

(١) الصعيد بلاد واسعة في مصر ، تُطْلَقُ على كل ما كان في جنوب القاهرة اليوم ـ والفسطاط قديمًا ـ حتى أسوان ، ويُعْرَفُ اليوم بالوجه القبلي . البلاذري : فتوح البلدان ، ١: ٧٤٣.

(٢) الحموي : معجم البلدان ، ١: ٢٨١، ٦١٢. ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ١: ١٠٥، ٢٣٥. محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، ٢/٣: ١٨٦، ٢١١.

(٣) د.عبد الفتاح محمد وهيبة : دراسات في جغرافية مصر التاريخية ، ١١٥.

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ٩: ٣٩.

في ضَوْء ما تقدَّم نشير إلى الملاحظات الآتية:

١. اعتماد النسبة «الأقفهسي» إلى المكان «أقفهس» معيارًا لرصد العلماء الأقفهاسيين وجهودهم العلمية ، مِن خلال ما ذكره حاجي خليفة عن المؤلِّف أو مصنفاته تحت أيِّ علمٍ من العلوم أو المعارف التي ورد ذكرها في «كشف الظنون» ، سواء كان ذلك العالِم المؤلِّف قد عاش حياته كاملة في أقفهس من الميلاد حتى الوفاة ، أو وُلِد فيها ثم رحل عنها ونزل بالقاهرة أو في غيرها من مدن مصر أو مدن العالم الإسلامي الأخرى وعاش فترة من الزمن أو بقية حياته فيها حتى وفاته ، أو وُلِد ونشأ وتُوُفِّيَ في القاهرة وظل يحمل نسبَهُ إلى أقفهس ، من خلال أبيه أو جَدِّه أو غيرهما في سلسلة نسبِهِ الأبوي ، إضافة إلى نسب القاهرة خاصة أو مصر عامة التي عاش حياته فيها ، وهو ما وقفنا عليه بالنسبة للعلماء الأقفهاسيين موضوع البحث ، إذْ لم نجد بينهم مَن نشأ وعاش وتُوُفِّيَ في أقفهس.

٢. إن حاجي خليفة لم يعتمد منهجًا واحدًا في ذكر أسماء العلماء المؤلِّفين عامة والأقفهاسيين خاصة ؛ فتارة يذكر اسم المؤلف مختصرًا بالشهرة واللقب فقط أو الكُنْيَة ، مثل «الإمام الأقفهسي[١]» و«جمال الدين الأقفهسي[٢]» و«ابن العماد الأقفهسي[٣]» ، وتارة أخرى يذكره مفصلًا بالاسم والشهرة واللقب لكن بحالات عدة ومختلفة ؛ ففي حالةٍ يذكره بالاسم الأول والثاني إضافة إلى نسبه إلى المكان والمذهب الذي ينتمي إليه ، مثال ذلك «شهاب الدين أحمد بن عماد ابن الأقفهسي الشافعي[٤]» ، فهو يذكره تارة هكذا وتارة أخرى يذكره بهذا الشكل لكن بدون النسبة إلى المذهب ، أي هكذا : «شهاب الدين أحمد بن

---

(١) كشف الظنون ، ٢: ١٤٣٣.

(٢) كشف الظنون ، ١: ٨٧٣.

(٣) كشف الظنون ، ١: ٩٣٠.

(٤) كشف الظنون ، ١: ٨٤٩.

عماد الأقفهسي[١]» ، وأحيانًا يذكره بحالة أخرى ، بالاسم فقط حتى الجد الأول .

ثم النسبة إلى المكان «أقفهس» فقط مقرونًا بتاريخ الوفاة ، هكذا : «شهاب الدين أحمد بن عماد بن يوسف الأقفهسي[٢] المتوفى سنة ٨٠٨هـ» ، أو يذكره نسبةً إلى المكان والمذهب معًا مقرونَيْنِ بتاريخ الوفاة ، هكذا : «شهاب الدين أحمد ابن العماد بن يوسف الأقفهسي[٣] الشافعي المتوفى سنة ٨٠٨٠هـ» .

حتى في هاتَيْنِ الحالتَيْنِ نجد ما يماثِلُهما لكن بإضافة الكُنْية للاسم ، لتكون حالة أخرى هكذا : «شهاب الدين أبي العباس أحمد بن العماد الأقفهسي الشافعي[٤] المتوفى ٨٠٨هـ» .

ولم ينحصر الأمر عند هذا الحد ، إنما هناك حالات أخرى في ذكر اسم هذا المؤلِّف وتاريخ وفاته ؛ منها «شهاب الدين أحمد بن عماد الدين الأقفهسي[٥] المتوفى سنة ٨٠٨ هـ» ، وحالة أخرى باسم «شهاب الدين أحمد ابن العماد الأقفهسي[٦] المتوفى سنة ٨٠٨هـ» ، أو «شهاب الدين أحمد بن عماد الأقفهسي الشافعي[٧] المتوفى سنة ٨٠٨هـ» ، أو بغير هذه وتلك ، وتكُون باسم «الشهاب أحمد بن عماد الأقفهسي الشافعي[٨] المتوفى سنة ٨٠٨هـ» ، وتارة باسم «الشهاب

---

(١) كشف الظنون ، ١: ٧٤٠.

(٢) كشف الظنون ، م٢/١٣٦٣.

(٣) كشف الظنون ، ١: ٣، ٤٠٧.

(٤) كشف الظنون ، ١: ٣.

(٥) كشف الظنون ، ١: ٦٣.

(٦) كشف الظنون ، ١: ٢٦٢، ٥٠٨.

(٧) كشف الظنون ، ١: ٨٤٩، ٢: ١٤٨٥.

(٨) كشف الظنون ، ١: ١٣٥، ٧٤٢، ٢: ١٤٨٦.

أحمد بن العماد الأقفهسي[١] المتوفى سنة ٨٠٨هـ» .

فإذا كانت هذه الحالات المتنوعة قد وردَتْ في ذِكْر اسم ابن العماد الأقفهسي بصفته مثالًا وهي كثيرة ، وكثرتها ترتبط بكثرة ما ورد عنه من إشارات في كشف الظنون ، فإنَّ الأمر يتكرر مع علماء آخرين ، منهم خليل الأقفهسي وإنْ كانت بنسبة أقل .

وخليل هذا تارة يذكره حاجي خليفة باسم «الصلاح خليل الأقفهسي[٢]» ، أي بالشهرة والاسم الأول واللقب ، وتارة أخرى يذكره مفصَّلًا لكن بحالتَيْنِ مختلفتَيْنِ ؛ الأولى باسم «صلاح الدين خليل بن محمد ابن محمد الأقفهسي[٣] الحافظ» ، والأخرى باسم «غرس الدين خليل بن محمد الأقفهسي[٤] المتوفى سنة ٨٢٠هـ» ، وهو نفسه «الإمام الأقفهسي» الذي ذكره مختصرًا فيما تقدَّمَ ذِكرُهُ سابقًا .

في أحيان أخرى نرى حاجي خليفة يكتفي بالاسم مختصرًا ويشير إلى تاريخ وفاته ، لكنه لا يذكر الوفاة بالسنة كما نتوقَّع ، وهو ما ورد عن الإمام الأقفهسي نفسه حيث اكتفى بالإشارة إلى ذلك بعبارة « ... المتوفى[٥] سنة ...» دون ذِكر سنة الوفاة .

لكنَّ ما يلفت الانتباه أن لقب «الأقفهسي» انحصر عند حاجي خليفة في ذِكر اسم المؤلِّف ونسبه ، وأحيانًا بإضافة المذهب «الشافعي» أو «المالكي» الذي ينتمي إليه المؤلف فقط ، بذلك يبدو للقارئ عند الوهلة الأولى مجهولًا لأيِّ إقليمٍ ينتمي

---

(١) كشف الظنون ، ٢: ١٩١٥.

(٢) كشف الظنون ، ١: ١٧١.

(٣) كشف الظنون ، ١: ٢٩٧.

(٤) كشف الظنون ، ٢: ١٥٤٠.

(٥) كشف الظنون ، ٢: ١٤٣٣.

ولأيّةِ مهنةٍ يَنْتَسِب . ومع أن إسماعيل باشا البغدادي ، وهو مَن ذيَّلَ على كتاب كشف الظنون ، يشابِهُ حاجي خليفة في تناوُلِه أسماء المؤلفين ، إلا أنه أحيانًا أصابَ في تناوُلِه لبعض العلماء الأقفهاسيين بالإشارة إلى نسبهم لمصر أيضًا ، بذلك جاءت الأسماء أكثر وضوحًا في نسبتها لإقليم مصر .

مثال ذلك ما أورده في اسم «شهاب الدين أحمد بن عماد بن يوسف الأقفهسي المصري[1] الشافعي المتوفى سنة ٨٠٨هـ» ، أو في حالة أخرى ذكرها باسم «شهاب الدين أحمد بن عماد بن يوسف الأقفهسي المصري[2] المتوفى سنة ٨٠٨هـ» .

أمَّا الشوكاني فقد اعتمد لقب القاهري بدلًا من المصري في نسب الأقفهسي هذا ، إذْ أشار إليه باسم «أحمد بن عماد بن يوسف بن عبد النبي الشهاب أبو العباس الأقفهسي ، ثم القاهري الشافعي ، ويعرف بابن العماد»[3] .

بذلك تكُون المصادر المعتَمَدَة في دراسة علماء أقفهس قد أسهمت ـ بشكلٍ جليٍّ ـ في توضيح نسبة أقفهس إلى إقليم مصر ، أو القاهرة عاصمته ، وليس غير ذلك .

على أن العُذر يبقى مبررًا لنا إذا أغفل البحث بعض العلماء الأقفهاسيين ممَّنْ لم تَرِد أية إشارة إلى أسمائهم مختصرة أو مفصَّلة ، ولا إلى نسبهم إلى أقفهس ، وتحت أي حقل أو علم من العلوم التي تناولها حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» .

٣. مع ذلك ، فإن ما يلفت الانتباه في هذا الجانب أنَّ حاجي خليفة رغم كل

---

(١) إيضاح المكنون ، ٣: ٣٥. وهدية العارفين ، ٥: ١١٨. وعن ابنه محمد الأقفهسي في ٢٠٣ من المجلد نفسه ، وعن غيرهما في ٥٣٢.

(٢) إيضاح المكنون ، ٣: ١١٩.

(٣) البدر الطالع ، ١: ٩٣. وانظر أيضًا : الزركلي : الأعلام ، ١: ١٧٨.

الحالات المتباينة التي ذكر فيها اسم المؤلف ، فإنه يكتفي بذكره بالطريقة التي يراها مناسبة ثم يذكُر بعد ذلك ما صنفه أو ألّفه في هذا العلم . لذلك فإنَّ العودة إلى كتب السِّيَر والتراجم خاصة وكتب التاريخ عامة والاطِّلاع على ما ورد فيها عن سِيَرِ العلماء الأقفهاسيين قد أفاد كثيرًا ، ليس في معرفة مؤلفات أولئك العلماء سواء تلك التي ذكرها حاجي خليفة لهم أو غيرها مما فاته ذِكرها فحسب ، بل في معرفة علماء أقفهاسيين آخرين أيضًا ، وهو ما سيتضح لاحقًا .

٤. مِن جهةٍ أخرى يلاحَظ أن حاجي خليفة عندما يذكُر المؤلِّف في موضع علمٍ محدَّد لا يذكره مرة واحدة بمؤلفاته جميعها ؛ إنما يذكره مكررًا في أماكن عدة من موضوعات العلوم والآداب والمعارف الكثيرة التي تناولها في كتابه ، وهذا يعود للمنهج الذي وضعه في تأليفه هذا الكتاب . لذلك تطلَّب البحث رصدًا دقيقًا لكتابه في مجلدَيْهِ الكبيرَيْن ، بُغْيَةَ الوقوف على علماء أقفهس وجهودهم العلمية .

المبحث الرابع : علماء أقفهس وجهودهم العلمية في التأليف والتصنيف وأثرها في الثقافة العربية الإسلامية

في ضوء ما تقدَّم رصدْنا ما ذكره حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» عن علماء أقفهس ، فكان العدد قليلًا لم يتجاوز أربعة علماء . ومع قلة عددهم فإنهم جميعًا كانوا من العصور المتأخرة ، ثلاثة منهم وُلِدوا وعاشوا في القرن ٨هـ/١٤م وتُوُفوا في أوائل القرن ٩هـ/١٥م ، وعالِم واحد فقط عاش معظم حياته في القرن ٩هـ/ ١٥م .

أمَّا عدد مؤلفاتهم جميعًا فبلغ «٧٧» مصنَّفًا بين كتابٍ - في جزء واحد أو أجزاء عدة - وشرحٍ ورسالة وأرجوزة ومنظومة شعرية ومختصر وتخريج لمعجم أو مشيخة ، ذكَرَ منها حاجي خليفة «٢٣» مصنفًا ، تميَّز بينهم الشيخ أحمد بن العماد

الأقفهسي المُتَوَفَّى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م ، إذ بلغ عدد مؤلفاته التي أوردها حاجي خليفة في كتابه «١٨» مؤلفًا ، مِن بين «٥٣» مؤلفًا ذكرها مؤرخون آخَرون .

على أن هذا العدد لمؤلَّفات علماء أقفهس لا يمثل كل علماء أقفهس في ذلك الوقت ، ولا جميع مؤلفاتهم ، إنما يمثل ما وقف عليه حاجي خليفة أو ما وقع تحت بصره من أخبار هؤلاء العلماء الأربعة ؛ ودليل ذلك أن إسماعيل باشا البغدادي وغيره من المؤرخين قد ذكروا علماء آخرين ينتمون إلى أقفهس ، في الفترة التاريخية نفسها ، أو قريبًا منها ، وقد رصدْنا منهم أربعة علماء آثرْنا تناوُلَهم في هذا البحث ، لنتبينَّ من خلال سِيَرِهم ما فات حاجي خليفة من علماء أقفهس وجهودهم العلمية ، وإنْ لم تُشِرْ تلك المصادر ـ التي اطلعنا عليها ـ إلى مؤلفاتهم باستثناء واحد منهم .

مِن خلال دراسة سِيَر علماء أقفهس ، يتضح أن أغلبهم كان من المشهود له بالديانة والنزاهة والخير والصلاح ، ومِمَّنْ طلب العلم منذ نعومة أظفاره وتتلمذ على كبار مشايخ عصره في القاهرة ومصر وغيرهما ، وحُبِّبَ إليه الحديث النبوي الشريف فطلبه لنفسه وجَدَّ فيه حتى برع في الفقه والأصول ، وأصبح من أعظم أئمة الفقهاء الشافعية في عصره ، أفتى ودرس وناب في الحكم أو تولى مناصب رفيعة في بلده مصر ، مثل قاضي الديار المصرية .

ومع أن أغلب العلماء الأقفهاسيين كانوا من الشافعية ، فإن بعضهم كان مالكيًا .

ومِن خلال قراءة متأنية لعناوين مؤلفاتهم ، بأنواعها المختلفة ، سواء كانت كتبًا أو شروحًا أو مختصرات أو منظومات شعرية أو غير ذلك ، يبدو واضحًا أنها تناولت علومًا كثيرة ومعارفَ عدة ، جعلت من أصحابها علماء موسوعيين ـ وهي سِمة غالبة عند الكثير من علماء المسلمين منذ زمن بعيد ـ رفدوا الثقافة الإسلامية بمؤلفاتهم وجهودهم العلمية على الصعيدَيْنِ النظري والعملي . فقد شملت تلك

المؤلفات علوم القرآن الكريم والفقه والحديث النبوي الشريف والأدب والنحو والعَرُوض والتاريخ والأنساب ، فضلًا عن علم الرصد وعلم القوس قزح ، وتسطيح الكرة ، وغير ذلك من مكونات الثقافة الإسلامية وعلومها السائدة في عصرهم ، التي تمثل امتدادًا للثقافة والعلوم النقلية والعقلية في العصور الإسلامية السابقة .

فيما يلي أسماء العلماء الاقفهاسيين الذين ذكرهم حاجي خليفة ، فضلًا عن تعريفٍ مركَّزٍ لسِيَرِتِهم الشخصية والعلمية ، ثم عناوين مؤلَّفاتهم التي ذكرها في كتابه كشف الظنون ، وما فاته وأضافه غيرُه من المؤرخين والعلماء ، مرتَّبِين على حسب ترتيب الحروف الهجائية ، كما يلي:

١ـ أحمد بن عماد بن يوسف بن عبد النبي الأقفهسي المصري ، القاهري ، الشافعي ، شهاب الدين أبي العباس المعروف بابن العماد[١] المتوفَّى سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م .

وهو أحد أئمة الفقهاء الشافعية وفضلائهم . وُلِد قُبَيْلَ سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ، اشتغل في الفقه والعربية وغيرهما .

كان كثير الفوائد كثير الاطلاع دمثَ الأخلاق ، وفي لسانه بعض حبسة . قرأ على كبار علماء عصره كالإسنوي[٢]

---

(١) تنظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، ٢: ٤٧ـ ٤٩، وعنه نقل ابن حجر العسقلاني في إنباء الغمر : ٥: ٣١٣ـ ٣١٥. السيوطي : حسن المحاضرة ، ٢٠٧. ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ٤/ ٧: ٧٣. الشوكاني : البدر الطالع ، ١: ٩٣ـ ٩٤. ابن إياس : بدائع الزهور ، ١/ ٢: ٧٥٦. الزركلي : الأعلام ، ١: ١٧٨.

(٢) هو جمال الدين عبد الرحيم بن حسن بن إبراهيم القرشي الإسنوي الشافعي ، يُكَنَّى بأبي محمد . وُلِد بإسنا سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م ، وقَدِم القاهرة سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م ، وسمع الحديث واشتغل بأنواع العلوم النقلية والعقلية ، وانتفع بكبار علماء عصره ، وإليه انتهت رئاسة الشافعية في الديار المصرية . صنَّف كتبًا عدة ، منها كتاب (كافي المحتاج في شرح المنهاج) ، ويُعَدُّ أنفع شروح المنهاج ، أخذ عنه ابن العماد=

والبلْقيني(١) وجمال الدين الباجي وغيرهم.

امتدحه الحافظ برهان الدين الحلبي، المتوفَّى سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م، وكتب عنه قائلًا(٢):

إمام محب ناشئ متصدق مصل وباك سطوة اليأس
يظلهم الرحمن في ظل عرشه إذا كان يوم الحشر لا ظل للناس

صنَّف ابن العماد تصانيف كثيرة مفيدة، نَظْمًا ونثرًا ومتنًا وشرحًا، تناولت موضوعات عدة كعلم الحديث والفقه وفروعه، وأحكام المساجد وأحكام النِّكاح وعلم الرصد وتسطيح الكرة وغير ذلك، أحصَيْنا منها «٥٣» مصنَّفًا، ذكر منها حاجي خليفة «١٩» مصنفا، يُضَمِّنها رسالةً وأرجوزة، ومنظومتَيْنِ إحداهما تزيد عن «٥٠٠» بيت، وثلاثة شروح، واحد منها على الأرجوزة والآخران على منظومتين شعرية وهي مرتَّبة على حسب ترتيب الحروف الهجائية، كما يلي:

=الأقفهسي، وانتفع به قراءةً وسماعًا، مِن ذلك ما أخذه من أول المهمات إلى الجنايات وأحكام الخناثي بقراءته والكوكب والتمهيد أخذه سماعًا عنه، تُوُفِّيَ سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م. تنظر ترجمته في: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ٢: ٤٦٣ـ٤٦٥. الإسنوي: طبقات الشافعية، ١: ١١ـ٢٨. السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٧. السيوطي: حسن الحاضرة، ٢٠٧. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٣/ ٦: ٢٢٣ـ٢٢٤. الزركلي: الأعلام، ٤: ١١٩. كحالة: معجم المؤلفين، ٥: ٢٥٣ـ٢٥٤.

(١) هو سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني، العسقلاني الأصل البلقيني المصري الشافعي، يُكَنَّى بأبي حفص، وُلِد في بلقينة في غربي مصر سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، وقدم مع أبيه إلى القاهرة لطلب العلم فاستوطنها، وأخذ عن علماء عصره، وأفتى ودرَّس وهو شاب ثم أصبح مجتهدًا حافظًا للحديث ومن العلماء بالدين، ولي قضاء الشام ما يقارب السنة. صنَّف كتبًا عدة؛ منها كتاب «تصحيح المنهاج» في ستة مجلدات، و«الملمات برد المهمات»، وكلاهما في الفقه، و«شرح سنن أبي داود السجستاني». كما كتَبَ تعقيباتٍ على الروضة في عدة مجلدات. تُوُفِّيَ بالقاهرة سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٣م. تنظر ترجمته في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ١٠٧ـ١٠٩. الزركلي: الأعلام، ٥: ٢٠٥. سزكين: تاريخ التراث العربي، ١: ٣٤٦، ٣٦٨، ٣٨٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٢: ٣١٥. السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٩.

١. الإبريز فيما يقدم على مؤنة التجهيز[١].

٢. أرجوزة في النجاسات المعفو عنها، وشرحها له أيضًا[٢].

٣. الاقتصاد في كفاية العقاد[٣]، وهي منظومة تزيد عن ٥٠٠ بيت، وله شرحٌ مختصر[٤] على هذا الكتاب.

٤. البيان التقريري في تخطئة الكمال للدميري[٥].

٥. تسهيل المقاصد لزوار المساجد[٦]. وهو في علم تسطيح الكرة.

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ٣. وانظر أيضًا: البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨. وبعنوان «الإبريز فيما يقدم على موت التجهيز» ذكره السخاوي في الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ٦٣. البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨، وفيه بعنوان «أرجوزة في النجلة المعفو عنها ثم شرحها». وانظر لاحقًا تسلسل رقم (٢٧).

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ١٣٥. السخاوي: الضوء اللامع، ١: ٤٨، وعنه نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤. البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨، وفيه وردت كلمة العقاد بلفظ (الاعتقاد)، واكتفى كلٌّ من الشوكاني والزركلي بالإشارة إلى هذه المنظومة على أنها في العقائد. انظر على التوالي: البدر الطالع، ١: ٩٣، الأعلام، ١: ١٧٨.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨. وعنه نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤.

(٥) حاجي خليفة: كشف الظنون ١: ٢٦٢. وانظر أيضًا: السخاوي، الضوء اللامع، ١: ٤٩، وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٥. البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨. والدميري هو محمد بن موسى بن عيسى، كان ماهرًا في الأدب، ولازم البهاء السبكي، وتخرج به وبجمال الدين الإسنوي وغيرهما، ودرس الحديث بقبة بيبرس. له تصانيف عدة؛ منها «شرح المنهاج» و«حياة الحيوان»، واشتُهِرت عنه كرامات وأخبار بأمور الغيب. تُوُفِّيَ سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م. تنظر ترجمته في: السيوطي: حسن المحاضرة، ٢٠٧.

(٦) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ٤٠٧. وانظر أيضًا: السيوطي: إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ق١/ ٣٢، وفيه ذُكِرَ المؤلف بلقب «الأقفهشي» خطأً. البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨. فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ١: ٣٩٩.

٦. التعليق على المهمات[١]. وهو تعقُّبات نفيسة على كتاب المهمات على الروضة، وهو في الفروع، للشيخ جمال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسنوي الشافعي، المُتَوَفَّى سنة ٧٢٢هـ/١٣٧٠م، الذي تقدَّم ذِكره، إذْ أكثر مِن تخطئته، ونسَبَهُ لسوء الفَهْم وفساد التصوُّر.

٧. توقيف الحكام على غوامض الأحكام[٢].

٨. الدرة الضوئية في الهجرة النبوية[٣]. وهي منظومة أولها:

الحمد لله القديم الصمد ..... إلخ، وهي في موضوع علم دراية الحديث، وعليها شرح له أيضًا.

٩. الدرة الفاخرة فيما يتعلق بالعبادات والآخرة[٤]. وهو في موضوع علم دراية الحديث.

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢: ١٩١٤، وبعنوان «التعقبات على المهمات» ذكره السخاوي في الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤، والسيوطي: حسن المحاضرة، ٢٠٧، وانظر أيضًا: هدية العارفين، ٥: ١١٨، وفيه بعنوان «التعقبات على المهمات في الفروع». الشوكاني: البدر الطالع، ١: ٩٣-٩٤. الزركلي: الأعلام، ١: ١١٨، وفيه ورد كتاب الإسنوي بعنوان «المبهمات على الروضة».

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ٥٠٨. وانظر أيضًا: البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨. كحالة: معجم المؤلفين، ٢: ٢٦، وبعنوان «توثيق الحكام على غوامض الأحكام»، وأنه وضعه في أحكام المساجد، وفي النكاح ذكره السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٢: ٧٥٦، وفيه: «وهو اسم لكتاب أحكام النكاح». فيما ذكر ابن العماد الحنبلي كتاب «أحكام النكاح» واحدًا من بين مؤلفات ابن العماد الأقفهسي. شذرات الذهب، ٤/ ٧: ٧٣.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ٧٤٠. وانظر أيضًا: البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨.

(٤) حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢: ٧٤٢. وانظر أيضًا: البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨-١١٩. وبعنوان «الدرة الفاخرة» ذكره السخاوي في الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وأضاف قائلًا: يشتمل على أمور تتعلق بالعبادات والآخرة، وفيه الكلام على قوله تعالى: «ونضع الموازين القسط»، وعنه=

١٠. رسالة في الأواني والظروف وأحكامها وما فيها من المظروف[1].

١١. رفع الجَناح عما هو من المآة مباح[2]. وهو في علم الرصد.

١٢. القول التام في أحكام المأموم والإمام[3]. وهو في علم قوس قزح.

١٣. كتاب الصلاح[4].

١٤. كشف الأسرار عما خفِيَ عن فَهم الأفكار[5]؛ وهو في علم الكشْف، مبنيٌّ على سبعة عشر سؤالًا كليًا، وتحتها مسائل جزئية كثيرة، ذكر فيها المؤلف أجوبة عن مسائل مُشْكَلَة وخفيات عن إدراك خواص قلوب مُغْفَلَة تتحيَّر فيها أفكار العلماء.

١٥. كشف الأسرار فيما تسلط الدوادار يشبك[6].

=نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤-٣١٥.

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ٨٤٩، وبعنوان «أحكام الأواني والظروف وما فيها من المظروف»، ذكره البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ٩١٠، وانظر أيضًا: البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢: ١٣٦٣. وانظر أيضًا: السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/٦: ٧٣. البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٩. الشوكاني: البدر الطالع، ١: ٩٣.

(٤) حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢: ١٤٣٣. وانظر أيضًا: البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨.

(٥) حاجي خلفة، كشف الظنون، ٢: ١٤٨٥. وانظر أيضًا: البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٩، فيما ذكره عمر رضا كحالة بعنوان «كشف الأسرار عما خفي من الأفكار»، معجم المؤلفين، ٢: ٢٦.

(٦) حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢: ١٤٨٦. وانظر أيضًا: البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٩. فيما ذكره السخاوي بعنوان «كشف الأسرار»، ثم أضاف قائلًا: تسلط به الوادار على أسئلة لكثير من الفقهاء بعد الثمانين وثمانمائة، وهو مسبوق به من النيسابوري. ينظر: الضوء اللامع، ٢: ٤٨. وعنه نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤.

١٦. موقف المأموم والإمام[١]، وهو غير كتاب «القول التام في أحكام المأموم والإمام»، الذي تقدَّم ذكره في رقم (١٢).

أمَّا مصنفاته الأخرى، التي أشارت إليها المصادر التاريخية، فقد أحصيْنا منها «٣٤» مصنفًا، اشتملت على «١٧» كتابًا و«٨» شروح، بعضها يتناول شرحًا لكتب أو قصائد علماء آخرين، إضافة إلى شروح عدَّة وضعها على كتاب في فروع الفقه الشافعي لم تُشِرْ المصادر إلى عددها كما سنشير إلى ذلك لاحقًا، و«٩» منظومات شعرية، وهي كما يلي:

١ ـ أحكام الأواني والظروف وما فيها من المظروف[٢].

٢ ـ أحكام الحكم في شرح الحكم الطائية[٣].

٣ ـ أحكام الحيوان[٤]؛ وقدألَّفه كما يتضح من العنوان في أحكام الحيوان، ثم اختصره في كتاب آخَر سمَّاه «التبيان فيما يحل ويحرم من الحيوان»[٥]. نظمه في ٤٠٠ بيت، فيما ذكر البغدادي أن هذا المختصر سمَّاه بعنوان «السر المستبان مما أودعه الله من الخواص في أجزاء الحيوان»[٦]، ويقع في مجلدٍ، ومنه نسخة خطية

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢: ١٣٦٣. وانظر أيضًا: السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨. وعنه نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤.

(٢) البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨.

(٣) كحالة: معجم المؤلفين، ٢: ٢٦.

(٤) البغدادي: إيضاح الكنون، م٣: ٣٥، وفيه: «إن ابن العماد الأقفهسي توفي سنة ٨٠٤هـ». وهدية العارفين، ٥: ١١٨.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ١: ٤٨، وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/ ٧: ٧٣. الشوكاني: البدر الطالع، ١: ٩٣. وفيه إن المنظومة تزيد على أربعمئة بيت. البغدادي: إيضاح المكنون، ٣: ٢٠٦. وفيه المختصر ورد بعنوان «البيان فيما يحل ويحرم من الحيوان». هدية العارفين، ٥: ١١٨. وفيه بإضافة: «في مختصر الأحكام».

(٦) إيضاح الكنون، م٤: ١١. وهدية العارفين، ٥: ١١٩. ينظر أيضًا: ابن حجر العسقلاني:=

تقع في (١٠٧ ورقات) قياس (١٥×٢٠سم)، محفوظة في معهد المخطوطات المصورة في جامعة الدول العربية[١]، تحت رقم (ف ١٠٤٠).

٤ ـ أحكام المأموم والإمام[٢]، هكذا ذكره الشوكاني، وربما يكون الكتاب نفسه الذي تقدَّم ذكرُه في رقم ١٦، تحت عنوان «موقف المأموم والإمام».

٥ ـ أحكام المساجد[٣]. وقد انتفع بهذا الكتابِ وأخذ عنه الرشيدي[٤]، وكتبه بخطه وقرأه عليه، أيْ قرأَه على مؤلِّفِه ابن العماد الأقفهسي برهان الدين الحلبي[٥]. كما سمع منه برهان الدين الحلبي كتابًا آخر هو التبيان فيما يحل ويحرم من الحيوان، الذي تقدم ذكره أعلاه.

٦ ـ أحكام النكاح[٦].

٧ ـ آداب الطعام[٧].

٨ ـ إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش[٨].

=إنباء الغمر، ٥: ٣١٤. الزركلي: الأعلام، ١: ١٧٨.

(١) الفهرس التمهيدي للمخطوطات المصورة بجامعة الدول العربية، الأمانة العامة، الإدارة الثقافية، ٥٣٩.

(٢) البدر الطالع، ١: ٩٣.

(٣) السخاوي: الضوء اللاع، ٢: ٤٨. وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٣. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/٧: ٧٣. ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ٢: ٧٥٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٩. ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٥.

(٥) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٥.

(٦) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٥.

(٧) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤. البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٨. كحالة: معجم المؤلفين ٢: ٢٦.

(٨) البغدادي: إيضاح المكنون، ٣: ١١٥. هدية العارفين، ٥: ١١٨.

٩ ـ ألفاظ القطرات في شرح جامع المختصرات[١] . وهو في الفروع ، أيْ فروع الشافعية .

١٠ ـ البحر العجاج في شرح المنهاج[٢] «للنووي» .

١١ ـ تحفة الإخوان في نظم التِّبيان للنووي . وهو في آداب حَمَلَة القرآن[٣] ، يزيد عن ٦٠٠ بيت ، نونية ، تعرَّض فيه لمؤدِّب الأبناء .

١٢ ـ التوضيح في شرْح المنهاج للنووي في مجلدَيْن[٤] . والمنهاج هنا يُرَاد به كتاب «المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج» ، الذي ألَّفه يحيى بن شرف النووي المُتَوَفَّى سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٨م ، وله نسخ عدَّة ، وطُبع عدة طبعات[٥] .

١٣ ـ حوادث الهجرة ، وشرحها[٦] له أيضًا .

١٤ ـ دلائل الحكام إلى معرفة غوامض جمل الأحكام[٧] . والراجح أنه الكتاب

---

[١] البغدادي : إيضاح المكنون ، ٣: ١١٥. هدية العارفين ، ٥: ١١٨.

[٢] البغدادي : إيضاح المكنون ، ٣: ١١٥. هدية العارفين ، ٥: ١١٨. وفيه بعنوان «البحر الأجاج في شرح المنهاج النووي» ، وذكر السخاوي أن ابن العماد الأقفهسي شرح المنهاج عدة شروح ، وجد من أكبرها قطعةً في صلاة الجماعة في ثلاثة مجلدات ، أطال فيه النَّفَس . ينظر : الضوء اللامع ، ٢: ٤٨. وفي المعنى نفسه ورد مختصرًا عند الشوكاني : البدر الطالع ، ١: ٩٣.

[٣] السخاوي : الضوء اللامع ، ٢: ٤١. وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ، ٥: ٣١٤. البغدادي : هدية العارفين ، ٥: ١١٨. وفيه بعنوان «التبيان في آداب حملة القرآن» ، ومثله في الشوكاني : البدر الطالع ، ٢: ٩٣. وانظر أيضًا : الزركلي : الأعلام ، ١: ١٧٨.

[٤] السخاوي : الضوء اللامع ، ٢: ٤٨. وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني : إنباء الغر ، ٥: ٣١٤. هدية العارفين ، ٥: ١١٨. فيما ذكر الشوكاني أنه «شرح المنهاج عدة شروح» ، البدر الطالع ١: ٩٣، وبعنوان «شرح المنهاج» ذكره الزركلي : الأعلام ، ١: ١٧٨.

[٥] سزكين : تاريخ التراث العربي ، ١: ٣٥٦.

[٦] ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ، ٥: ٣١٣. ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ٤/٧: ٧٣، وبعنوان «أحوال الهجرة» ذكره ابن إياس ، وأضاف قائلا : نظمه ثم شرحه . بدائع الزهور ، ١/٢: ٧٥٦.

[٧] البغدادي : هدية العارفين ، ٥: ١١٩.

نفسه الذي تقدَّم ذكره سابقًا بعنوان (توقيف الحكام على غوامض الأحكام).

١٥ ـ رفْع الإلباس عن وَهْم الوسواس[١].

١٦ ـ شرح الأربعين النووية[٢].

١٧ ـ شرح العمدة[٣].

١٨ ـ شرح قصيدة البُرْدَة[٤]، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التِّلْمِسَاني، المُتَوَفَّى سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٩م)، المعروف بحفيد ابن مرزوق، وهو في مجلد. وقصيدة البردة هذه تُعْرَف باسم (المتجر على الجامع الصحيح)[٥].

١٩ ـ شرح منظومة الآداب[٦]، وهي ذات المطلع: الحمد مني لربي مسبغ النعم والشكر ثم الثنا للمانح النحل[٧].

٢٢ ـ القوْل التام في آداب دخول الحمام[٨].

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/٧: ٧٣، وفيه بعنوان «رفع الإلباس عن وهم الوسواس». البغدادي: إيضاح المكنون، ٣: ٥٧٧، وهدية العارفين، ٥: ١١٨.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨. وعنه نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤. البغدادي: إيضاح المكنون، ٤: ٢٩٩.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٤. البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٩.

(٥) سزكين: تاريخ التراث العربي، ١: ٣١٩.

(٦) د. طه محسن: مجموعات مخطوطة في مكتبات إستنبول، ٦٨، رقم ١٢. ومنها نسخة مخطوطة محفوظة في مكتبات إستنبول الورقة (٩٢-١٣٢).

(٧) د. طه محسن: مجموعات مخطوطة في مكتبات إستنبول، م٦٨ رقم ١٢.

(٨) البغدادي: هدية العارفين، ٥: ١١٩، وبعنوان (آداب دخول الحمام)، ذكره السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨. وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٥.

٢٣ ـ المعفوات[١]. وهو في الفقه، مخطوط.

٢٤ ـ نظم التذكرة لابن الملقن[٢]، في علوم الحديث، وشرحها في كتابٍ آخر له.

٢٥ ـ نَظْم الدُّرَر من هجرة خير البشر[٣]، وهي قصيدة نظمها في حوادث الهجرة[٤] ثم شرحها.

فضلًا عما تقدم هناك عدة شروح لابن العماد الأقفهسي، وضعها على منهاج الطالبين في فروع الفقه الشافعي[٥] ومنظومات وقصائد شعرية تناولت موضوعات عدة، وهي كما يلي[٦]:

١ ـ الأماكن التي تؤخَّر فيها الصلاة عن أول الوقت، وبلغها نحو أربعين في اثني عشر بيتًا ثم شرحها.

---

(١) الزركلي: الإعلام، ١: ١٧٨.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٥. وابن الملقن هو سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، يُكَنَّى بأبي حفص، أصله من وادي أش بالأندلس، كان من أكابر العلماء بالحديث والفقه وتاريخ الرجال، صنَّف كتبًا كثيرة، قيل إن عددها بلغ نحو (٣٠٠) مصنَّف، منها على سبيل المثال كتاب «إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال»، و«إعلام بفوائد عمدة الأحكام». مولده في القاهرة سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م وبها تُوُفِّيَ سنة ٨٠٤هـ. تنظر ترجمته في: السيوطي: حسن المحاضرة، ٢٠٦، وذيل طبقات الحفاظ للذهبي، ٣٦٩، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/٧: ٤٤ـ ٤٥. الزركلي: الأعلام، ٥: ٢١٨.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٥. وبعنوان (منظومة تائية وشرحها) ذكرها الزركلي: الأعلام، ١: ١٧٨. كحالة: معجم المؤلفين، ٢: ٢٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٨، وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٥.

(٥) كحالة: معجم المؤلفين، ٢: ٢٦.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٤٩، وعنه نقل في ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ٣١٥. الشوكاني: البدر الطالع، ١: ٩٣.

٢ ـ الدماء المجبورة. في نحو أربعين بيتًا، وبلغها ستة وثلاثين.

٣ ـ قصيدة لامية نحو ٥٠٠ بيت، مشتملة على مسائل نثرية.

٤ ـ منظومة في العدد الكثير.

٥ ـ منظومة في العقائد تزيد عن ٥٠٠ بيت.

٦ ـ المَوَاطِن التي تُباح فيها الغِيبة، وهي عشرة أبيات، وبلغها إلى نحو العشرين.

٧ ـ النجاسات المَعْفُو عنها، ويُسَمَّى الدُّر النفيس، وهي ٢٧٠ بيتًا.

٢ ـ خليل بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن المصري المكي الأقفهسي الشافعي[١]، الإمام الأوحد الحافظ صلاح الدين وغَرْس الدين، يُكَنَّى بأبي الحرم وأبي سعد ـ وقيل أبي سعيد ـ وأبي الصفا، المعروف بالأشقر والأقفهسي، المُتَوَفَّى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م.

مولده في سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م، نشأ صغيرًا فحفِظ القرآن واشتغل في الفقه، كما اشتغل بالفرائض والحساب والأدب، وجلس للتكسُّب يتحمل الشهادة في حانوت الشهود وحبب الية الحديث، وسمع الكتب والأجزاء الكثيرة على الجَمِّ الغَفِير من العلماء والمشايخ، سواء في مصر والقاهرة، أو في رحلاته إلى مكة وبيت المقدس ودمشق. مِن العلماء الذين تتلمذ على أيديهم غرس الدين المليجي، وصلاح الدين الزفتاوي، والتاج المصري، والشمس المطرز، ومريم الأذرعية[٢].

---

(١) تنظر ترجمته في: ابن فهد الهاشمي: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ٢٦٨-٢٧٢. السخاوي: الضوء اللامع، ٣: ٢٠٢-٢٠٤. السيوطي: حسن المحاضرة، ١٧٠. الذهبي: ذيل طبقات الحفاظ، ٣٧٥. وفيهما: «توفي خليل الأقفهسي سنة ٨٢١هـ». الحسيني الدمشقي: ذيل تذكره الحفاظ للذهبي، ٢٦٨- ٢٧٢.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٣: ٢٠٢. ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر، ١: ١١٦. ومريم=

وفي سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م حجَّ وجاور مكة وسمع فيها من شيوخها، كابن صديق وابن سكر، كما سمع بالمدينة من جماعة، وقَدِم دمشق في سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م فأدرك بها أبا هريرة ابن الذهبي وغيره، وأكثر عنهم[1]. وبعد أن قطع شوطًا كبيرًا في طلب العلم ودراسته أصبح إمامًا حافظًا ومحدثًا مفيدًا بارعًا في فنون العلم كالحديث والفقه والأُصول والفرائض والحساب والعربية والعَرُوض. وكان له النَّثْر الفائق والنَّظْم الرائق. كما كانتْ له تعليقات حسنة وفوائد. فضلًا عن ذلك كان رحمه الله ديِّنًا خيِّرًا ورعًا زاهدًا لا تأخذه في الله لَوْمَة لائم. خرج وصنَّف أجزاء وكتبا كثيرة، أحصيْنا منها أحد عشر مصنفًا، تناولت موضوعات عدة كعلم الحديث والتاريخ والأنساب، فضلًا عن منظومات في الشعر والأدب، ذكر حاجي خليفة منها اثْنَيْنِ فقط؛ هما:

١ ـ اللامية في نظيرة لامية الطغرائي[2]، جاء في أولها:

دع التشاغل بالغزلان والغزل   يكفيك ما ضاع من أيامك الأول

٢ ـ تاريخ صلاح الدين[3] ـ خليل بن محمد بن محمد الأُقفهسي الحافظ. ومِن هذا الكتاب كان غالب ما نقله ابن حجر العسقلاني، المتَوَفَّى سنة

=الأذرعية هي مريم بنت أحمد بن أحمد بن قاضي القضاة محمد بن إبراهيم الأذرعي المصري الحنفي، سمعَت الكثير من كبار علماء عصرها، وقُرِئ عليها الكثير في مسموعاتها وأشياء كثيرة بالإجازة. كانت امرأة ذات ديانة وصيانة ومحبة للعلم. مولدها في القاهرة سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، وتُوُفِّيَتْ سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م. تنظر ترجمتها في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٥: ١٢٦ـ١٢٧. السخاوي: الضوء اللامع، ١٢: ١٢٤. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/ ٧: ٥٤.

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ١٧٠.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢: ١٥٤٠، وبعنوان (لامية نظيرة لامية العجم) ذكره البغدادي: هدية العارفين، ٥: ٣٥٣.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ١٧١، ٢٩٧، وفي ٢: ١٤٣٣ ذكره بعنوان (كتاب الصلاح للإمام الأقفهسي).

(٨٥٢هـ/١٤٤٩م) ، في كتابه «إنباء الغمر في أنباء العمر[١]» ، كما نقل فيه أيضًا من تاريخ ناصر الدين ابن الفرات[٢] .

أمّا كتبه الأخرى التي أشار إليها بعض المؤرخين فهي:

٣ ـ الأربعين من طريق أربعين من الفقهاء الحنفية[٣] . وهو في الحديث ، خرجه للإمام العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم المرشدي الحنفي[٤] مسند الحجاز .

٤ ـ تحفة القادم من فرائد الشيخ أبي القاسم[٥] .

٥ ـ شعار الأبرار[٦] ، وهو عبارة عن أربعين حديثًا من مسموعاته في الأدعية .

٦ ـ مختصر الأنساب للرشاطي[٧] . وهو في أنساب المغاربة .

٧ ـ مشيخة مجد الدين أبي محمد البلبيسي[٨] ، خرجها له خليل الأقفهسي

---

(١) طُبع الكتاب لأول مرة بعنوان (إنباء الغمر بأبناء العمر) ، في ٦ أجزاء بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م و١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١: ١٧٠- ١٧١، ١٩٧.

(٣) الحسيني الدمشقي : ذيل تذكره الحفاظ للذهبي ، ٢٧٦.

(٤) كان العلامة جمال الدين المرشدي رأس المحدثين في عصره . مولده في سنة ٧٧٠هـ، وتُوُفيِّ في ٨٣٣هـ/١٤٢٩م . تنظر ترجمته في : الحسيني الدمشقي : ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ، ٢٧٦.

(٥) البغدادي : إيضاح المكنون ، ٣: ٢٥٥.

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ٨: ٩٣.

(٧) الحسيني الدمشقي : ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ، ٢٦٨، ٢٧٠. والرشاطي هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن خلف اللخمي المري الرشاطي ، يُكَنَّى بأبي محمد من أهل المرية في الأندلس ، ومن علماء الحديث . تُوُفيِّ سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م . ينظر : ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ، ١: ١١٧.

(٨) ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ، ١: ١١٦. والبلبيسي هو المسند النسابة إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن علي بن موسى الكناني البلبيسي القاهري القاضي الحنفي ، يُكَنَّى بأبي محمد ، نزيل القاهرة . كان أديبًا فاضلًا دينًا عفيفًا ، حسن الفكاهة جيد المحاضرة ، اشتغل في الفقه والفرائض والحساب . ألَّف كتبًا عدة ؛ منها (مختصر أنساب الرشاطي) أجاد فيه . مولده سنة ٧٢٧هـ/=

عن شيوخه الذين سمع منهم؛ وهم أحمد بن كندغدي وأبناء الفيومي الثلاثة: إبراهيم ومحمد وفاطمة، ومحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الأيوبي. والمشيخة تقع في ثمانية أجزاء سمعها عليه ابن حجر العسقلاني[١].

٨ ـ معجم شيوخ ابن ظهيرة[٢]، وهو مجلد.

٩ ـ خرَّج معجم سالم ابن ياقوت[٣].

فضلًا عما تقدَّم خرَّج خليل الأقفهسي جزءًا من حديث جماعة من شيوخ مكة المشرفة، عندما رحل إليها وجاورها سنة[٤] ٧٩٦هـ/١٣٩٣م. وربما يكون هذا الجزء غير ما خرجه لنفسه، وهو أربعون حديثًا متباينة الإسناد، وأكملها خمسين

=١٣٢٧م، وتُوُفيِّ سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م. تنظر ترجمته في: ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر، ١: ١١٦ـ١٢٠. الحسيني الدمشقي: ذيل تذكره الحفاظ للذهبي، حاشية ٢٦٩ـ٢٧٠. السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ٢٨٦ـ٢٨٨، وفيه: «ولد سنة ثمان أو تسع وعشرين وسبعمائة». الزركلي: الأعلام، ١: ٣٠٢.

(١) ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر، ١: ١١٦. السخاوي: الضوء اللامع، ٣: ٢٠٣. الحسيني الدمشقي: ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، ٢٦٩.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٣: ٢٠٣ و٥: ٢٠٢. الحسيني الدمشقي: ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، ٢٥٣ـ٢٥٥، ٢٦٨. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، م٤ج٧/ ١٢٦. وابن ظهيرة هو جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة بن أحمد بن عبد الله بن عطية القرشي المخزومي المكي الشافعي. وُلِدَ بمكة المشرفة سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، وبها نشأ على العفة والصيانة والنزاهة. كان إمامًا علامة حافظًا متقِنًا لفنون عِدَّة من العلوم، وتفقه على كبار فقهاء بلده، ورحل إلى دمشق وحماة وحلب والقدس والإسكندرية وغيرها، وانتفع بالعلماء والفقهاء سماعًا وإجازة وإفتاء وتدريسًا، تُوُفيِّ بمكة سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م. تنظر ترجمته في: السخاوي: الضوء اللامع، ٨: ٩٢ـ٩٥. السيوطي: ذيل طبقات الحفاظ، ٣٧٥. الحسيني الدمشقي: ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، ٢٥٣ـ٢٥٥. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/ ٧: ١٢٥ـ١٢٦.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٨: ٩٣.

(٤) الحسيني الدمشقي: ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، ٢٦٨، ٢٦٩.

ثم بلغ بها السبعين[١]. وقيل بلغت مئة حديث، وسمَّاها المتباينات[٢].

وعندما توجَّه للقاهرة في سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م ولازم السماع على الشيوخ، خرج للقاضي أبي الفداء، وقيل ـ أبي محمد ـ مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم البلبيسي الحنفي، مشيخة في ثمانية أجزاء، وهي التي أشرنا إليها أعلاه. وكان قد سمعها عليه الشيخ ابن حجر العسقلاني[٣] كما أشرنا سابقًا.

كما خرج لست الفقهاء ابنة أخي الحافظ عماد الدين بن كثير الدمشقي، المتَوَفَّى سنة «٧٧٤هـ/١٣٧٢م» أربعين حديثًا عن أربعين صحابيًا عن أربعين شيخًا من شيوخ مشايخ الأئمة الستة، عن أربعين شيخًا أجازوا لها، وحدَّث كل منهم بذلك[٤].

٣ ـ عبد الله بن مقداد بن إسماعيل بن عبد الله قاضي القضاة الأقفهسي القاهري المالكي[٥]، جمال الدين، المُتَوَفَّى سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م.

مولده كان بعد عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. ونشأ ابلقاهة وطلب العلم وتفقَّه على الشيخ خليل الأقفهسي الذي تقدَّم ذكره سابقًا، وغيره من العلماء، حتى برع في الفقه والأصول، وأفتى ودرَّس وناب في الحُكم عن العلم سليمان البسطاني سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م، وصار المعمل عليه، وتولَّى قضاء الديار المصرية، وكان مشكور السيرة في أحكامه. امتدحه السخاوي قائلًا: «دينًا خيرًا عفيفًا حسن

---

(١) الحسيني الدمشقي: ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، ٢٧١.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٣: ٢٠٣.

(٣) ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر، ١: ١١٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٣: ٢٠٣.

(٥) تنظر ترجمته في: ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ٧: ٣٩٦. رفع الإصر عن قضاة مصر، ٢: ٣٠٣. السخاوي: الضوء اللامع، ٥: ٧١. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/٧: ١٦٠.

المعاشرة والتودد»[١]، إليه انتهتْ رئاسة المذهب المالكي، ودارتْ على رأسه الفُتيا عِدَّة سنين[٢].

مِن تصانيفه أحصيْنا ثلاثة شروح وتفسيرًا واحدًا ومنظومة شعرية، لم يذكر حاجي خليفة منها إلا شرحًا واحدًا، هو:

١ ـ شرح رسالة الشافعي في الفقه على مذهبه[٣].

أمَّا مؤلفاته الأخرى فهي:

٢ ـ شرح رسالة أبي زيد القيرواني[٤].

٣ ـ شرح لرسالة الشيخ خليل بن محمد الأقفهسي، المُتَوَفَّى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م، ذكره ابن الماذ الحنبلي[٥] دون الإشارة إلى موضوع الرسالة، فيما اكتفى ابن حجر العسقلاني بالإشارة إلى أنه «شرح الرسالة»[٦] دون ذِكْر موضوعها.

٤ ـ له تفسير في ثلاث مجلدات[٧].

٥ ـ منظومة في العقائد؛ مطلعها[٨]: الحمد لله العزيز الفرد ذي الطول ذي الإحسان أي ذي الآبد.

وهي مخطوطة محفوظة في مكتبات إستنبول، الورقة[٩] «٣٧٢-٣٧٨».

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ٥: ٧١.

(٢) ن.م ٥: ٧١.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ٨٧٣.

(٤) البغدادي: إيضاح المكنون، ٣: ٥٥٧. هدية العارفين، ٥: ٤٦٨.

(٥) شذرات الذهب، ٤/٧: ١٦٠.

(٦) إنباء الغمر بأبناء العمر، ٧: ٣٩٦.

(٧) السخاوي: الضوء اللامع، ٥: ٧١ وأضاف قائلًا: «إن هذا التفسير لم يشتهر».

(٨) د. طه محسن: مجموعات مخطوطة في مكتبات إستنبول، ٧٥، رقم ٤٣.

(٩) د. طه محسن: مجموعات مخطوطة في مكتبات إستنبول، ٧٥ رقم ٤٣.

٤ ـ محمد بن أحمد بن عماد بن يوسف بن عبد النبي الأقفهسي، القاهري المصري الشافعي[١]، شمس الدين أبو الفتح، المُتَوَفَّى سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٤م.

وهو ابن عماد الدين الأقفهسي، الذي تقدَّمذِكره سابقًا، ويُعرَف كأبيه بابن العماد. من أهل الاهرة مولدًا ووفلة. مَوْلِدُهُ كان في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م، ونشأ في القاهرة، واتجه نحو الدراسة والتحصيل العلمي، فقرأ القرآن والعُمْدة والشاطبية والمنهاجين الفرعي والأصلي، إضافةً إلى ألفية ابن مالك. كما سمع عن شيوخ كبار من علماء عصره كالتنوخي والراج الكومي والسويداوي وآخرين غيرهم، وأجاز له شيوخ آخرون كأبي هريرة بن الذهبي ويوسف بن السلار وغيرهما، وأخذ الفقه عن أبيه وغيره، وبحث في الأصول والعربية، كما كتب عن الولي العراقي[٢] كثيرًا من أماليهِ، وحضر دروسَه ودروسَ جماعةٍ غيره.

وبعْد أن قطع شوطًا كبيرًا في طلب العلم واللقاء بالشيوخ والانتفاع بهم، تألَّق نَجْمُه وشارك في العربية وغيرها، ووليَ التدريس بعد أبيه ببعض مدارس منية ابن خصيب[٣].

وكان قد حجَّ إلى الديار المقدسة مرتين؛ الأولى كانت مع أبيه في سنة ٨٨٠هـ/١٣٩٧م، وكان عُمْرُه آنذاك ثلاثين سنة. والأخرى في سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م، ثم استمر في جهده العلمي وأصبح شيخًا فاضلًا بارعًا في الفقه فقيهًا

---

(١) تنظر ترجمته في: السخاوي: الضوء اللامع، ٧: ٢٤ـ٢٥.

(٢) وهو ولي الدين أبو زرعة أحمد بن الحافظ أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، الإمام العلامة الحافظ الفقيه الأصولي. له كتب كثيرة مشهورة؛ منها كتاب «شرح البهجة» و«مختصر المهمات» وغيرهما، وأملى أكثر من ستين مجلسًا، وولي قضاء الديار المصرية. وُلِد سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م، وتُوُفِّيَ سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٣م. تنظر ترجمته في: السيوطي: حسن المحاضرة، ١٧٠. ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، ٣٧٥ـ٣٧٦. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/ ٧: ١٧٣.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٧: ٢٥.

من فقهاء الشافعية الأَعْلام. صنَّف كتبًا عدة، تناولَتْ علم الفقه والشريعة والنحو بشكل خاص، وقفْنا على ثمانية منها، لم يذكر حاجي خليفة منها إلا كتابين هما:

١ ـ الذريعة إلى معرفة الأعداد الواردة في الشريعة(١).

٢ ـ الشرح النبيل الحاوي لكلام ابن المصنف وابن عقيل(٢).

وهو شرح لكتاب «الألفية في النحو»، للعلامة جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الطائي الجياني، المعروف بابن مالك النحوي المُتَوَفَّى سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م، وهي مقدمة مشهورة في ديار العرب، جمَعَ فيها المؤلِّف مقاصد العربية وسمَّاها الخلاصة، وإنما اشتُهِرتْ بالألفية لأنها تتألف من ألف بيتٍ مِنَ الرجز. لكن ما يميِّز الشرح النبيل هذا أنه جامعٌ لأشتات العلوم، وذَكَر فيه أن ابن عَقِيل غالبًا ما يَستشهد بأشعار العرب، وابن المصنف يستشهد بذلك وبآيات القرآن الكريم. وقد جمَعَ الأقفهسي بينهما وأضاف فوائد من كلام ابن هشام والزمخشري(٣).

أمَّا كتبه الأخرى التي أشارت إليها المصادر التاريخية فهي:

٣ ـ الإرشاد إلى ما وقع في الفقه وغيره من الأعداد(٤).

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ٨٢٦. وانظر أيضًا: السخاوي: الضوء اللامع، ٧: ٢٥، وبعنوان «الذريعة للأعداد الواردة في الشريعة»، ذكره البغدادي في: هدية العارفين، ٥: ٢٠٣، وهناك مَن يظن أنه من تأليف والده شهاب الدين أحمد بن عماد الأقفهسي. الزركلي: الأعلام، ٦: ٢٣٠ـ ٢٣١.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ١٥٤، وانظر أيضًا: الضوء اللامع، ٧: ٢٥. البغدادي: هدية العارفين، ٥: ٢٠٣، وفي إيضاح المكنون، ٤: ٤٦ ينسبه خطأً إلى والده شهاب الدين أحمد بن عماد الأقفهسي. الزركلي: الأعلام، ٦: ٢٣٠ـ ٢٣١.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١: ١٥٤.

(٤) البغدادي: هدية العارفين، ٥: ٢٠٣.

٤ ـ إيقاظ الوسنان بالآيات الواردة في ذم الإنسان[١] .

٥ ـ فوائد على شرح الأسنوي لنهاية السول[٢] ـ مخطوط ـ وهو في أصول الفقه .

٦ ـ تنوير الدياجير بمعرفة أحكام المحاجير[٣] . وقد قرأ هذا الكتاب على محمد الأقفهسي المحب بن أبي السعادات بن ظهيرة ، بعد سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م ، عند مجاورته مكة[٤] .

٧ ـ الإعلام بما يتعلق بالتقاء الختانين من الأحكام[٥] . وقد قرأ هذا الكتاب على محمد الأقفهسي المحب بن أبي السعادات بن ظهيرة ، بعد سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م[٦] .

٨ ـ الألفاظ العطرات في شرح جامع المختصرات[٧] . كتب منه من أوله إلى آخر اللقيط ، ومن أثناء الجنايات إلى آخر الكتاب .

أمّا العلماء الأقفهاسيون الذين لم يَذكرْهم حاجي خليفة ، في كتابه المذكور ، فعددهم خمسة ؛ اثنان منهم وُلِدا وعاشا معظم حياتهما في القرن ٧هـ/١٣م وتُوُفِّيا في أوائل القرن ٨هـ/١٤م .

وثالِثُهم تُوُفِّيَ قبيل منتصف القرن ٨هـ/١٤م ، فيما عاش الرابع معظم حياته في القرن ٩هـ/١٥م ، وكانت وفاته في أواخر العقد السادس من القرن المذكور .

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ٧: ٢٥. الزركلي : الأعلام ، ٦: ٢٣٠-٢٣١.

(٢) الزركلي : الأعلام ، ٦: ٢٣٠-٢٣١.

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ٧: ٢٥، البغدادي : هدية العارفين ، ٥: ٢٠٣، فيما نسب الكتاب إلى أبيه أحمد الأقفهسي خطأ في ١١٨، من المجلد نفسه ، كذلك في إيضاح المكنون ، ٣: ٣٣٣.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ٧: ٢٥.

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ٧: ٢٥.

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ٧: ٢٥.

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ٧: ٢٥.

أمّا الخامس فعاش بين القرنين ٨ و٩هـ/١٤ و١٥م، وتُوُفِّيَ قبيل منتصف القرن ٩هـ/١٥م. ومع أن هؤلاء الخمسة لم تُشِرِ المصادر المترجِمة لسِيَرِهِمْ إلى مؤلَّفاتهم، باستثناء واحد منهم انفرد البغدادي بالإشارة إلى كتاب واحد من مصنفاته، فقد تناولتُهم هنا للفائدة والوقوف على ما فات حاجي خليفة من علماء أقفهس، وهم كما يلي:

١ ـ أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الشهاب بن التقي بن ناصر الدين الأقفهسي القاهري[1]. وُلِد بالقاهرة ونشأ بها فحفظ القرآن ومختصر أبي شجاع والملحمة. وقَدِم مكة بعد سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، فقطنها وأدَّبَ الأبناء، وكان خيرًا مباركًا ساكنًا كثير التلاوة. تُوُفِّيَ سنة[2] ٨٤٧هـ/١٤٤٣م ودُفِن بالمعلاة بين مكة وبدر.

٢ ـ الحسن بن عبد الرحمن الأقفهسي، سعد الدين[3]. كان ناظر الخزانة بمصر، وذا مكانة وجلالة. تُوُفِّيَ في أواخر شهر ذي الحجة من سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م.

٣ ـ عبد الرحمن بن علي بن محمد الأقفهسي المصري الصوفي[4]، تُوُفِّيَ في حدود سنة ٨٦٠هـ/١٤٤٥م. صنَّف كتاب «الجوهر المكنون في الحساب المصون»[5].

٤ ـ محمد بن عبد الله الأقفهسي[6]، سعد الدين بن فخر الدين. كان ناظر

---

(١) تنظر ترجمته في: السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ١٨٠.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٢: ١٨٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ٢: ٩٩-١٠٠.

(٤) البغدادي: هدية العارفين، ٥: ٥٣٢.

(٥) البغدادي: هدية العارفين، ٥: ٥٣٢.

(٦) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ٤: ١٤٥-١٤٦.

الخزانة بالديار المصرية، تُوُفِّيَ سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م.

٥ ـ محمد بن عبد الوهاب بن يوسف الأقفهسي المصري الدمشقي الفقيه الشافعي[1]، فخر الدين أبو عبد الله، كان رجلًا فاضلًا كثير النقل لفروع مذهبه، قوي الحافظة، يُقَال إنه حفظ محرر الرافعي في ٣٦ يومًا، ودرس بدمشق، وبها تُوُفِّيَ سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م.

---

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ٤: ١٥٥ـ١٥٦. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٣/٦: ١٣٢. وفيه «عز الدين» وليس فخر الدين.

قائمة المصادر الأولية والمراجع الحديثة

الإسنوي، جمال الدين عبد الرحيم (المتوفَّى سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م).

طبقات الشافعية، تحقيق عبد الله الجبوري، ج ١، بغداد ـ مطبعة الإرشاد ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (المتوفَّى سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٣م).

بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققه وكتب المقدمة محمد مصطفى، فرانز شتاينر، الجزء الأول، القسم الثاني، فيسبادن ـ ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

البغدادي، إسماعيل باشا (المتوفَّى سنة ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م).

إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، بيروت ـ دار الفكر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، بيروت ـ دار الفكر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (المتوفَّى سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢م).

فتوح البلدان، القسم الأول، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، القاهرة ـ مطبعة لجنة البيان العربي د. ت.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٩، القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الجلبي، المعروف بحاجي خليفة (١٠١٧-١٠٦٧هـ/١٦٠٨-١٦٥٦م).

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت ـ دار الفكر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، المتوفَّى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م.

إنباء الغمر بأبناء العمر، ط ١، الجزء ٥، حيدر آباد الدكن بالهند ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية د. ت.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط ٢، ج٢ وج ٤، حققه وقدم له ووضع فهارسه محمد سيد جاد الحق، ـ دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

رفع الإصر عن قضاة مصر، القسم الأول، تحقيق د.حامد عبد المجيد ومحمد المهدي أبو سنة، ومحمد إسماعيل الصاوي، مراجعة إبراهيم الإبياري، القاهرة ـ المطبعة الأميرية ١٩٥٧م.

والقسم الثاني، تحقيق حامد عبد المجيد، مراجعة إبراهيم الإبياري، القاهرة ـ الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٩٦١م.

الحسيني الدمشقي، الحافظ أبو المحاسن.

ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي د.ت.

الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

معجم البلدان، ط ١، ج ١، تحقيق مزيد عبد العزيز الجندي، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

الزركلي، خير الدين.

الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ٣، الأجزاء ١ ـ ٧، (بلا دار نشر) ١٩٧١.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، المتوفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م.

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٠ أجزاء في ٥ مجلدات، لبنان ـ منشورات دار مكتبة الحياة د.ت. والجزآن ٢ و ١٢، القاهرة ـ مكتبة القدسي ١٣٥٤ـ١٣٥٥هـ.

السيوطي، العلامة الشيخ جلال الدين أبو الفضل السيوطي الشافعي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م).

ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، عورضت بنسخة الخزانة التيمورية العامرة، دمشق ـ مطبعة التوفيق ١٣٤٧هـ.

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مصر ـ مطبعة الموسوعات ١٣٢١هـ.

السيوطي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الخالق المنهاجي (٨١٣ـ٨٨٠هـ/١٤١٠ـ١٤٧٥م).

إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول، تحقيق د.أحمد رمضان أحمد، القاهرة ـ دار الكتبوالوثائق القومية، مركز تحقيق التراث ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

الشوكاني، شيخ الإسلام محمد بن علي (المتوفَّى سنة ١٢٥٠هـ).

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ط ١، ج ١، القاهرة ـ مطبعة السعادة ١٣٤٨هـ.

د. طه محسن.

مجموعات مخطوطة في مكتبات إستنبول، ط ١، الكويت ـ منشورات معهد المخطوطات العربية ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

ابن عبد الحق البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (المتوفَّى سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م).

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط ١، ج ١، تحقيق وتعليق على محمد البجاوي، القاهرة ـ دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

د. عبد الفتاح محمد وهيبة.
دراسات في جغرافية مصر التاريخية، الإسكندرية ـ مؤسسة الثقافة المصرية ١٩٦٢م.
ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفَّى سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م).
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠ أجزاء في ٥ مجلدات، ط ١، بيروت ـ المكتب التجاري للطباعة والتوزيع د.ت. وج٦ القاهرة ـ منشورات مكتبة القدسي ١٣٥١هـ.
الفهرس التمهيدي للمخطوطات المصورة حتى أواخر شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٨، جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، الإدارة الثقافية، ومعهد المخطوطات المصورات.
فؤاد سزكين.
تاريخ التراث العربي، ج ١، ترجمة فهمي أبو الفضل، القاهرة ـ المطبعة الثقافية ١٩٧١.
ابن فهد الهاشمي، الحافظ تقي الدين أبو الفضل محمد بن محمد ابن فهد الهاشمي المكي.
لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، دمشق ـ مطبعة التوفيق ١٣٤٧هـ.
كحالة، عمر رضا.
معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، ج٢ وج ٥، دمشق ـ مطبعة الترقي ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
محمد رمزي.
القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، القسم الثاني، الجزء الثالث، مديريات الجيزة وبني سويف والفيوم والمنيا، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.
د. ناجية عبد الله إبراهيم.
التراث العلمي لمدينة زبيد في ضوء كتابات المؤرخ العثماني حاجي خليفة، بحوث المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب ـ جامعة الحديدة، اليمن، (٢٠٠٢م)، ص١١٤ـ ١٣٥.
التراث الفكري للجزائر عند حاجي خليفة، مجلة البيان، جامعة آل البيت، المجلد ٣، العدد ٤، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٢٠١ـ ٢٣٢.
يوسف إلياس سركيس.
معجم المطبوعات العربية والمعربة، المجلد ١، القاهرة ـ مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٠م.

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦) ، ٢٧٧ - ٣١٦

البَكَوَاتُ المَمَالِيكُ فِي مِصْرَ مِنْ نِهَايَةِ الحَمْلَةِ الفَرَنْسِيَّةِ حَتَّى مَذْبَحَةِ القَلْعَةِ ١٨٠١ - ١٨١١م
دِرَاسَةٌ فِي ضَوْءِ الوَثَائِقِ البِرِيطَانِيَّةِ غَيْرِ المَنْشُورَةِ

يوسف حسين يوسف عمر(*)

الملخص

تعتمد هذه الدراسة في مصادرها على الوثائق البريطانية غير المنشورة ، التي تناولت الجهود التي بذلها البكوات المماليك من أجل إعادة نفوذهم وسلطتهم المفقودة في مصر ؛ حيث استغلوا كل الظروف التي مرَّتْ بها مصر من أجل تحقيق ذلك الأمر ، بما في ذلك الحملة الفرنسية ، وما أعقبها من حالة ضعف وترهُّل لسلطات الدولة العثمانية في مصر ، ولقد خاض البكوات المماليك الكثير من الحروب ، كما دخلوا في مفاوضات عِدَّة مع الدولة العثمانية ، وطلبوا من بريطانيا وممثليها في إستانبول ومصر الوساطة من أجل موافقة الدولة العثمانية على إعادة نفوذهم وسلطتهم في مصر ، لكن الدولة العثمانية رفضت تمامًا القبول بمثل هذا الأمر ، وإن سمحت لهم بالإقامة في الصعيد ، وكان البكوات المماليك على استعداد للتحالف والاتفاق مع أيَّةِ قوة داخل مصر أو خارجها من أجل تحقيق آمالهم

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك ، قسم التاريخ ، «جامعة الأقصى» ، غزة - فلسطين .

وطموحاتهم ، وعلى الرغم من ذلك فإنهم قد فشلوا في ذلك بسبب الكثير من العوامل ، التي تمَّ الحديث عنها باستفاضةٍ خلال الدراسة ، لينتهي أمرهم فيما عُرِفَ باسم مذبحة القلعة عام ١٨١١م .

The Mamluk Beys in Egypt from the End of the French Campaign till the Castle Massacre 1801-1811
A Study in the Light of Unpublished British Documents

Abstract

This study is based on unpublished British documents sources that have dealt with the efforts external by the Mamluk Beys for regaining their lost power and influence in Egypt. Therefore, the Mamluk have exploited all the circumstances including the French campaign and the weakness of the Ottoman State authorities in Egypt. In this connection, the Mamluk Beys have launched a number of wars and engaged in negotiations with the Ottoman State. They have also called on British and its representatives in Istanbul and Egypt to intervene to regain their power in Egypt, but the Ottoman State has categorically rejected this request, even though it allowed them to stay in Upper Egypt. The Mamluk Beys have been willing to make an alliance or agreement with any force inside or outside Egypt for accomplishing their aspirations. Yet, they have failed to regain their previous power due to a number of factors that have been tackled extensively during this study ending up in what's called the Castle Massacre in 1811.

المقــدمة

خضعت مصر منذ انتصار الدولة العثمانية على المماليك في معركة الرَّيْدَانِيَّة عام ١٥١٧م للدولة العثمانية بشكل شبه كاملٍ، لكنَّ بقايا المماليك في مصر لم يُسَلِّموا بهذه السيطرة، وعملوا جُلّ جهدهم من أجل عودة نفوذهم وحُكمهم إلى مصر؛ لذلك فقد شكَّلوا قوة لا يُسْتَهان بها استغلَّتْ ظروف مصر المختلفة للعمل من أجل استرداد قوتهم وهيبتهم داخل البلاد، وكانت الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨م بقيادة بونابرت (الذي أصبح إمبراطورًا على فرنسا باسم نابليون بونابرت الأول NAPOLEON BONAPARTE I منذ مايو ١٨٠٤ حتى أبريل ١٨١٤م) - وما أثارتْه من فوضى وخلْط للأوراق - فرصةً سانحة للمماليك لتحقيق مآربهم والتحرر من سيطرة الدولة العثمانية[١].

كانت الدولة العثمانية قد قررتْ إرسال جيشٍ عثمانيٍّ بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا إلى مصر لانتزاعها من أيدي الفرنسيين، وكان من ضمن كتائب هذا الجيش وتشكيلاته الكتيبة الألبانية، التي كان يرأسها ابن حاكم قولة KAVALA علي أغا، بينما كان محمد علي (حاكم مصر منذ مايو ١٨٠٥ حتى مارس ١٨٤٨م) نائب رئيس الكتيبة الألبانية، التي كان قوامها ٣٠٠ جندي، ولم تكد تصل هذه الكتيبة ميناء أبو قِير في مصر في ربيع عام ١٨٠١م، حتى قرَّرَ ابن حاكم قولة أن يعود إلى بلده، فأصبح محمد علي قائد الكتيبة[٢].

بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر وانسحابها عام ١٨٠١م، تحت ضغط الهجوم البريطاني العثماني وثورات المصريين المستمرة، وصلت أخبار هذا الانتصار

---

(١) MARSOT, AFAF LUTFIAL-SAYYID, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali*, Cambridge-Cambridge University Press, 1994, p.29-31; Cleveland. *A History*, p.119.

(٢) F. O. 24-2, *Missett to Fox, Alexandria.*, 19 June 1800.

إلى كل القوى الموجودة في مصر، واعتقد المماليك حينها بإمكانية العودة إلى ساحة الأحداث من جديد، لذلك قام محمد بك الألفي ـ أحد أكبر زعماء المماليك ـ بإرسال مبعوث إلى إستانبول ليناقش مع الوزراء العثمانيين مسألة عودة حكم المماليك من جديد في مصر[١]، إلا أن المماليك لم يكُونوا موحَّدِين آنذاك، حيث انقسموا إلى فريقَيْن، أحدهما إلى جانب القوات العثمانية العائدة إلى مصر بقيادة إبراهيم بك الكبير، والآخر إلى جانب الإنجليز بقيادة محمد بك الألفي[٢]، ولم يمضِ وقت طويل حتى انسحب الإنجليز من مصر وفق معاهدة أميان Treaty of Amiens مع فرنسا في ٢٥ من مارس ١٨٠٢م[٣]؛ الأمر الذي أفضى إلى فترة من الفوضى نتيجة الصراع بين العثمانيين، الراغبين في أن تكُون لهم سلطة فعلية لا شكلية على مصر، وعدم العودة إلى الحالة التي كان عليها حكم مصر إبان حكم المماليك، والمماليك الذين رأَوْا في ذلك سلبًا لحقٍّ أصيلٍ من حقوقهم، ولقد شمل ذلك الصراع مجموعة من المؤامرات والاغتيالات في صفوف الطرفين، راح ضحيتها أكثر من والٍ من الولاة العثمانيين[٤].

ولقد استخدم محمد علي قواته الألبانية للوقيعة بين الطرفين المتنافسين، وإيجاد مكان له على مسرح الأحداث، كما أظهر تودُّدَه إلى كبار رجالات مصر وعلمائها من خلال مجالستهم والصلاة وراءهم، وإظهار العطف والرعاية تجاه

---

(١) MARSOT, *Egypt*, p.36-7.

(٢) ANNESLEY, GEORGE, *Edinburgh-Pentland Press*, 1994, p.21.

(٣) *The Rise of Modern Egypt, A Century and a half of Egyptian History 1798-1957 Little*, Tom Egypt, New York-Frederick A. Praeger, 1958, p.57.

(٤) VATIKIOTIS, PANAYIOTIS, J., *The History of Egypt*, *Baltimore-Orion Publishing Group*, 1985, p.51.

متاعب الشعب المصري وآلامه ؛ مما أكسبه ود المصريين[١] ، لكنَّ الأمور لم تكن قد استتبَّتْ تمامًا في مصر بسبب بقاء الوجود البريطاني فيها ، حيث أرسل السفيرُ البريطاني في إستانبول توماس بروس ، المعروف باسم إيرل إلجن السابع THOMAS BRUCE, 7th EARLOF ELGIN (مارس ١٧٩٩ حتى يوليه ١٨٠٣م) إلى وزير خارجية بريطانيا روبرت جينكينسون ، المعروف باسم لورد هوكسبري ROBERT JENKINSON, LORD HAWKESBURY (فبراير ١٨٠١ حتى مايو ١٨٠٤م) ، بتاريخ ١٣ من نوفمبر ١٨٠٢م ، رسالةً يخبره بأنه تلقَّى رسائل تفيد بأن الكولونيل الفرنسي هوراس سباستياني HORACE SEBASTIANI (نوفمبر ١٧٧١ حتى يوليه ١٨٥١م) وصل على ظهر فرقاطة فرنسية إلى الإسكندرية ، حيث طلب على الفور مقابلة قادة الجيوش البريطانية في مصر ، وأكد سباستياني أنه جاء مبعوثًا لفرنسا ، وأنه أُمِرَ بأن يعرف السبب وراء بقاء بعضٍ من القوات البريطانية في مصر حتى ذلك الوقت ، وعبَّر عن قلقه مما أسماه عدم انْصِياع بريطانيا لمعاهدة أميان ، وأن ذلك سوف يؤدي إلى فقدان الثقة بين الحكومتين[٢] .

موقف الدولة العثمانية من بقاء البكوات المماليك في مصر

أوضح سفير بريطانيا في إستانبول إلجن أن شئون مصر أصبحت مؤخرًا موضوعَ الاتصالات بينه وبين المبعوثين العثمانيين ، كما أوضح أنه كان مدعُوًا من قِبَل بعض وزراء الحكومة العثمانية ، حيث تمَّتْ مناقشة موضوع البكوات المماليك بشكل كافٍ . ومن حيث الظروف التي زار فيها سباستياني مصر ومهمته بها فإن هذه المناقشات لم تَقُدْ إلجن لأي أمل بشأن تنازل الحكومة العثمانية عن قرارها السابق

---

(١) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury, Constantinople*, 13 Nov. 1802, No. 48.

(٢) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury, Constantinople*, 16 Nov. 1802, No. 49.

بطرد البكوات المماليك من مصر ، أو أنها واعية بطبيعة مهمة الكولونيل سباستياني في القاهرة[١] ، ويبدو أن سباستياني استغل فترة وجودِهِ في القاهرة فتقدَّم باقتراحٍ ما إلى الحكومة العثمانية ، ورغم أن الوثيقة لا تُظْهِر فحوى هذا الاقتراح فإن إلجن اعتبر أن هذا الاقتراح منحاز إلى جانب البكوات المماليك ، ثمَّ تقدم سباستياني من القاهرة إلى دمياط عارضًا وساطته أيضًا بين والي عَكَّا أحمد باشا الجزار (١٧٨٠ - ١٨٠٤م) والباب العالي لتسوية المشاكل بينهما ، في محاولةٍ لتحقيق نفوذٍ مؤثِّرٍ في مصر[٢] .

في الوقت نفسه أرسل إلجن إلى وزير الخارجية البريطاني لورد هوكسبري يُخْبِره بأن الباب العالي قد اختار صدقي أفندي ليكون مبعوثًا ذا صلاحية بغرض مناقشة كل الظروف المتعلقة بالبكوات المماليك مع حكومة بريطانيا ، ومِن وجهة نظر إلجن فإن صدقي أفندي لم يشغل أي منصبٍ رفيعٍ داخل الدولة العثمانية حتى ذلك الوقت ، لكنَّه يتمتع منذ مدة طويلة بثقة السلطان سليم الثالث (أبريل ١٧٨٩ حتى مايو ١٨٠٧م)[٣] ، كما أكد إلجن أنه تحت ضغط الظروف الخاصة الموجودة في مصر فإنه يعتبر أنَّ مِن واجبه أن يستخدم كل وسائل التعبير لكي ينصح الباب العالي بخطورة طرد البكوات المماليك من مصر ، كما قدَّم إلجن عرضًا يتلخَّص في أن الباب العالي يجب أن يعترف بالوضع الحقيقي للحالة السائدة في مصر ، ويَقبل بأيَّة ترتيبات تؤدي إلى التصالح بين الطرفين طبقًا لخطة حكومة ملك بريطانيا جورج الثالث George III (أكتوبر ١٧٦٠ حتى يناير ١٨٢٠م) ، وأوضح إلجن أنه سوف يذهب بذلك الاقتراح إلى الإسكندرية ، وأنه سيتعاون مع ضابط البحرية

---

(١) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury, Constantinople,* 30 Nov. 1802, No. 60.

(٢) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury,* Constantinople, 30 Nov. 1802, No. 61.

(٣) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury,* Constantinople, 30 Nov. 1802, No. 62.

البريطانية وليام ستيوارت WILLIAM STEWART (يناير ١٧٧٤ حتى يناير ١٨٢٧م) من أجل تبنِّي هذا الاقتراح[١].

ولقد أخبر إلجن هوكسبري بتاريخ ٧ من ديسمبر ١٨٠٢م بأن محمد بك الألفي ومعه ٦ آلاف من المماليك تقدَّموا نحو الإسكندرية وسيطروا عليها، وأصدر الألفي منشورًا موجَّهًا إلى العرب؛ مانعًا إياهم من دفْع أيَّة ضريبةٍ إلى الحكومة العثمانية، وأن جزءًا آخر من المماليك دخلوا مدينة الجيزة، وأن خورشيدباشا حاكم الإسكندرية العثماني كان قد تنبَّأ بذلك وأخبر ستيوارت به قبل أن يحدث بعشرة أيام[٢]، وعلى الرغم من أن الضباط الإنجليز في مصر قاموا بحماية البكوات المماليك فإن هؤلاء كانوا لا يزالون يتوسَّلون للسماح لهم بالبقاء في بعض أجزاء القُطر المصري، ومع ذلك فإن الباب العالي قرَّر ألا يُسْمَحَ لهم بذلك، وهو القرار الذي سمعَتْ به كل القوى وفئات المجتمع داخل مصر[٣].

تغيُّر الموقف العثماني من بقاء البكوات المماليك

كان التصعيد في المواقف بين الدولة العثمانية والبكوات المماليك هو ما دفع إلجن إلى سؤال الوزراء الأتراك عما إذا كانوا قد توصلوا إلى حل بشأن البكوات المماليك أم لا، ولقد أعلن الوزراء العثمانيون مجددًا أن موقف الباب العالي، الذي كان دائمًا ضد بقاء البكوات المماليك في مصر، لا يزال الموقف السائد، لكن بالأخذ في الاعتبار الارتباط القائم بين الضباط البريطانيين والبكوات المماليك، ورغبة الحكومة البريطانية في القيام بواجباتها تجاههم؛ فإن الباب العالي يُبدي رغبته

---

(١) F. O. 78-36, *Elgin to Hawkesbury*, Constantinople. 10 Dec. 1802, No. 62.

(٢) F. O. 78-38, *Note de la Porte*, 5 Jan. 1803, Translated.

(٣) F. O. 78-38, *Minutes of the Conference held with the Reis Effendi on 3 Jan. 1803*.

في إعطاء البكوات المماليك إقليم أسوان فقط للإقامة فيه[١] ، وهو الأمر الذي بعث على السعادة والرضا التام عند إلجن ، لأن الباب العالي قد أذعن أخيرًا «إلى مشيئة ملك بريطانيا» ، وذلك من خلال السماح للبكوات المماليك بالبقاء والعيش داخل مصر ، وتخصيص مقاطعة لهم من أجل الإقامة فيها[٢] .

أمَّا فرنسا فلم تكن غائبة عن ساحة الصراع بين الدولة العثمانية والمماليك ؛ حيث قام السفير الفرنسي في إستانبول غليوم ماري ـ آن برون GUILLAUME MARIE - ANNE BRUNE (١٨٠٢ ـ ١٨٠٦م) بعدة زيارات ودية للوزراء الأتراك والشخصيات البارزة في الحكومة العثمانية بإستانبول ، وكان الغرض من هذه الزيارات البعث على الاعتقاد في أنحاء أوروبا بالأهمية العظيمة لمهمته ، وإثبات قدرته الفائقة في التأثير على الباب العالي ، كما أراد برون أن ينتهز هذه الفرصة للإسهاب في الحديث عما تتمتع به فرنسا من قوة وثروة وموارد هائلة ، وما تحتله الجمهورية الفرنسية الجديدة وحلفاؤها من مساحات شاسعة من الأراضي في أوروبا ، كما سيعلن برون عن النيات الحسنة لنابليون بونابرت تجاه الباب العالي ، بينما يَرثِي لحال الحكومة العثمانية بسبب تردي أوضاعها وتمزقها بين الباشوات والبكوات المماليك المتمردين ، كما سيستغل برون هذه الفرصة ليَعْرِض مساعدة الجمهورية الفرنسية على الحكومة العثمانية في قمْع الاضطرابات ، التي تشهدها عدة أجزاء من الأراضي العثمانية ، مما يعني ضمنيًا مساعدتها في ضبْط أوضاع مصر[٣] .

ومهما كانالأمر فقد كان واضحًا أن البكوات المماليك المحميين من بريطانيا قد أصبحوا في مَأْمَنٍ من أي انتقام بعد موافقة الدولة العثمانية على إبقائهم في أسوان ،

---

(١) F. O. 78-38, *Elgin to Hawkesbury,* Constantinople, 15 Jan. 1803, No. 73.

(٢) F. O. 78-39, *Stratton to Hawkesbury,* 10 March 1803, No. 6.

(٣) F. O. 78-39, E. MISSETT to A. STRATTON, *Alexandria.*, 12 March 1803.

خاصة بعد زيادة الضغوط الفرنسية ، التي تطالب بريطانيا بالانسحاب الكلي من مصر ، وقد يكون ذلك سببًا في صدور الأوامر والتعليمات بإجلاء الجيش البريطاني عن مصر ، مع بقاء أرنست ميسيت Ernest Missett الذي تم تعيينه مقيمًا لبريطانيا في مصر (مارس ١٨٠٣ - سبتمبر ١٨٠٧م)(١).

قامت حكومة بريطانيا بتعيين ألكسندر ستراتون Alexander Stratton قائمًا بالأعمال البريطانية في إستانبول The British Charge d'Affaires إلى حين تعيين سفيرٍ جديدٍ بدلًا من إلجن . وفي ٢٢ من مارس ١٨٠٣م أرسل ستراتون إلى هوكسبري بأنَّ مبعوثًا تركيًا عاد من الإسكندرية في ١٩ من مارس ١٨٠٣م ، وقد أحضر إلى الباب العالي أخبارًا عن اتفاق قد تمَّ بين قيادة أركان القوات البريطانية المتبقية في مصر والبكوات المماليك ، مفادُهُ أن الكثيرين من قادة المماليك ، ومن ضمنهم الألفي بك ، سوف يتركون مصر ويعيشون في بلد آخر غير محدَّدٍ ، لكنه لن يكون تحت سيطرة فرنسا(٢) ، ولا يُعرف في حقيقة الأمر صحة هذه الأخبار ، لكن الرسائل البريطانية ، حتى ذلك الوقت ، كانت تؤكد أن المماليك الذين عادوا إلى صعيد مصر ثانية كان يبدو أنَّ لديهم النيّة للقيام بأعمال عدائية ضد الدولة العثمانية ؛ حيث قاموا بقطع الإمدادات من صعيد مصر إلى القاهرة ، وهو ما يهدِّد بحدوث نقصٍ بالمؤَن في القاهرة ، التي وقعت في أيدي الجنود الألبان الذين أحكموا السيطرة عليها(٣) .

قامت بريطانيا بتعيين وليام دراموند William Drummond (١٨٠٣ - ١٨٠٤م) سفيرًا جديدًا لها في إستانبول ، ولقد شَكَّكَ دراموند في إمكانية بقاء

---

(١) F. O. 78-39, *A. Stratton to Hawkesbury,* Pera, 22 March 1803, No. 7.

(٢) F. O. 78-39, *Extract of a letter addressed Mr. Edward Lee, an ancient Smyrna Merchant in the city to Sir John Cox Hippisley,* Alexandria, 4 May 1803.

(٣) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere,* 7 June 1803, No. 2.

البكوات المماليك في مواقعهم، التي تمَّ تحديدها لهم، في الوقت الذي وصلتْهُ أخبار تفيد بأن البكوات المماليك في طريقهم إلى القاهرة، وأنهم أصبحوا على مسيرة يومَيْنِ منها، أمَّا بشأن ثورة الألبان فيؤكِّد دراموند أن قرار الباب العالي بهذا الشأن لابد أن يشغل اهتمام الحكومة البريطانية إلى أقصى درجة؛ ذلك أن هذا الحدث المؤسف يمكن أن يؤدِّي إلى تدهور الأوضاع في مصر بصورة كبيرة مجددًا، وأكَّد دراموند أنه حتى ذلك الوقت كان الباب العالي لا يزال يبحث التدابير والوسائلالتي يتعيَّن اتباعُها لقمع ثورة الألبان، مؤكدًا أن مصر أصبحت عُرضة للضياع من بين يدي الباب العالي ما لم تُسْرِع قوة أجنبية ما إلى نَجْدة الأتراك، ويرى دراموند بطبيعة الحال حتمية تدخُّل بريطانيا في هذا الأمر؛ شريطة أن يقوم الأتراك بتخصيص مدينتَي الإسكندرية ورشيد قاعدتَيْنِ للجيش البريطاني، مقابل تعهُّد بريطانيا بحفظ بقية أراضي مصر للباب العالي(١)، ويبدو أن البكوات المماليك لم يُضيِّعوا هذه الفرصة الناتجة عن تدهور الأوضاع في مصر، حيث وصلت أنباء إلى الباب العالي تفيد باستيلاء البكوات المماليك على القاهرة، وأن الباب العالي يعتزم حَمْلَهم على دفْع الجِزْيَة من أجل ترْك القاهرة بحَوْزَة الدولة العثمانية(٢).

زيارة الألفي بك إلى بريطانيا وأثرها على الدولة العثمانية

قام زعيم المماليك محمد بك الألفي برحلة إلى بريطانيا، الأمر الذي أثار قلق الباب العالي بصورة شديدة، بينما عملت فرنسا للإفادة من هذا الحدث من أجل تعزيز مكانتها في الدولة العثمانية ومصر، رغم تأكيد دراموند بأن الألفي بك لم

---

(١) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere*, 25 June 1803, No. 7.

(٢) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere*, 11 July 1803, No. 12.

يتم استقباله في بريطانيا إلا بصفته شخصًاغريبًا ، وأنَّه لم يتلقَّ سوى واجبات الضيافة المتعارَف عليها هناك عند استقبال الغرباء(١) ، لكن قضية زيارة الألفي بك إلى بريطانيا كانت لا تزال تثير حنق الدولة العثمانية ؛ لذلك فقد كتب هوكسبري إلى دراموند في ١٨ من أكتوبر ١٨٠٣م ، قائلًا : «إنه تفاديًا لأيَّة شائعات غير صحيحة قد تصل إلى الحكومة العثمانية بشأن زيارة الألفي بك ، فإن الأخير قام بهذه الزيارة دون علم أو تصريح من الحكومة البريطانية ، وأكد هوكسبري عزْم حكومة بريطانيا الثابت والأكيد على عدم الاستماع إلى أيَّة عُرُوض أو مقترحات من جانب الألفي بك ، من شأنها أن تؤثر على مصالح أو حقوق السلطان العثماني في مصر»(٢) .

دراموند ومحاولة اقتراح الحلول بين الأطراف المتنازعة

وصلَتْ أنباء غير مؤكَّدَةٍ عن وصول علي باشا النائب الجديد للسلطان في مصر إلى الإسكندرية ، لكنَّ المؤكَّد كان وصول رسائل تشير إلى أن المماليك يسيطرون على ضواحي القاهرة ، في الوقت الذي كان الألبان لا يزالون يسيطرون فيه على القلعة(٣) ، ووفقًا للأخبار الواردة من مصر ، يبدو أن البكوات المماليك والألبان الثائرين قد أحكموا سيطرتهم على مصر بأكملها ما عدا الإسكندرية ، وفي هذا الوقت العصيب وصل علي باشا النائب الجديد للسلطان إلى مصر وبرفقته بضع مئات من الرجال فقط ، وعلى الرغم من ذلك فقد أدَّى هذا الأمر إلى دفْع بعض كبار البكوات المماليك إلى إرسال رسائل إلى إستانبول تفيد استعدادهم للخضوع لسلطة السلطان العثماني ، ويبدو أن هذا الولاء

---

(١) F. O. 78-40, W. Hawkesbury to Drummond, *Dawning Street,* 18 Oct. 1803.

(٢) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere,* 27 July 1803, No. 15.

(٣) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, *Buyukdere,* 9 Aug. 1803, No. 16.

المشكوك فيه قد حاز على رضا الباب العالي[١].

أخبر دراموند هوكسبري في ٩ من سبتمبر ١٨٠٣م بأنه كان مكلَّفًا على مدى الأسبوعين الماضيين بمراسلة الباب العالي والاشتراك مع الوزراء العثمانيين في إيجاد السُّبل والوسائل الدفاعية المُثلى، التي تفرضها الأوضاع في مصر، وما آلَتْ إليه الأمور في الدولة العثمانية، وكان في مقدمة الأمور التي تحظى باهتمامٍشديدٍ القضاءُ على الحركة الوهَّابيَّة، واستتباب الأمن في مصر التي تردَّتْ فيها الأوضاع إلى حدٍّ بعيدٍ[٢]، ومن ذلك أن قوات الجيش التي يقودها عثمان بك البرديسي لم تتسلَّم رواتبها منذ ثلاثة أشهر، في الوقت الذي أدَّى فيه فرْض الضرائب الباهظة في رشيد ودمياط وسائر قرى دلتا مصر إلى تمرُّد القوات داخل معسكراتها قرب دمنهور، حيث أعلنت هذه القوات امتناعها عن أداء مهامها حتى يتم دفْع مستحقاتها المتأخرة، وقد وقعت مشادات بين الألبان والمماليك، حيث قُتل العديد من المماليك، ولولا تدخُّل محمد علي زعيم الألبان لكان من الممكن وقوع اشتباك عام بينهم وبين المماليك[٣].

لم يطرأْ على الأوضاع في مصر بين ٣٠ من سبتمبر حتى ٢٥ من أكتوبر ١٨٠٣م أي جديد؛ باستثناء قيام الباب العالي بعرْض شروط التسوية على البكوات المماليكالذين لم يُصْدَرْ عنهم أيُّ رد فعلٍ تجاهها، لكن دراموند حذَّر في ٢٥ من أكتوبر ١٨٠٣م من استقلال المماليك في مصر، «وما يشكِّلونه من خطر على مصالح بريطانيا، حيث أثبتت التجارِب أنهم أشبه بعصابة من الخَوَنَة واللصوص وقُطَّاع الطرق الذين لا هَمّ لهم إلا تحقيق مآربهم الخاصة أيًا كانت هُوِيَّة

---

(١) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, Belgrade, 9 Sep.1803, Separate

(٢) F. O. 78-41, E. Missett to Drummond, Cairo, 30 Sep.1803.

(٣) F. O. 78-41, W. Drummond to Hawkesbury, Belgrade, 25 Oct. 1803, No. 22.

القوة التي يستعينون بها ويوالونها» ، وأبدى دراموند خشيته من لجوء المماليك إلى الجيش الفرنسي لنُصْرتهم إذا ما دارتْ عليهم الدوائر ؛ لذلك فقد رأى دراموند «ضرورة الحفاظ على مصر تحت سلطة الدولة العثمانية ، التي اعتبرها بمثابة حليف لبريطانيا»[١] ، ويبدو أن توقعات دراموند كانت في محلها ، حيث أرسل إلى هوكسبري يُخبِره بإقبال البكوات المماليك الزائد على طلب المشورة الفرنسية ، وأنه لم يتلقَّ أي تعليمات أو توصيات تُخَوِّله سلطة عرْض الوساطة البريطانية لتسوية النزاع بين الباب العالي والبكوات المماليك ، لكنه غامر واقترح تسوية تمَّ إقرارها تقريبًا ، ويشير دراموند إلى أنه بموجب خطة التسوية التي اقترحهاسوف يتم تعيين باشا تركي جديد في مصر مع ترْك القاهرة بحوزة المماليك ، وسحْب الثوار الألبان من مصر ، واعتبر دراموند أن هذه الخطة تُعد مكسبًا عظيمًا للحكومة العثمانية ، وأنه في ظل هذه الظروف يتعيَّن على بريطانيا تأمين السيادة على مصر للباب العالي حمايةً لمصالحها ، خاصة بعد تواصل البكوات المماليك مع فرنسا طلبًا لمساعدتهم في مصر[٢] .

ومهما كان الأمر فقد أرسل دراموند إلى هوكسبري في ٧ من نوفمبر ١٨٠٣م ، يُخبِره بأن المعاهدة التي أبرمها بين البكوات المماليك والحكومة العثمانية تنص على :

١ ـ إعادة إقرار كل حقوق المماليك وامتيازاتهم في مصر .

٢ ـ تعيين إبراهيم بك شيخًا للبلد ، وأن يقيم في القاهرة هو وغيره من البكوات المماليك .

٣ ـ دفْع الدخل الحكومي القديم من الضرائب على الجمارك للباب العالي ،

---

(١) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, Belgrade, 6 Nov. 1803, No. 23.

(٢) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, Belgrade, 7 Nov. 1803, No. 40.

على أن يقوم بجبايته موظفٌ تركي.

٤ ـ إعادة فرْض ضرائب الخدمة الاسمية لمكة والمدينة المنورة.

٥ ـ أن يقيم نائب السلطان في الإسكندرية.

وأكد دراموند مجددًا في هذه الرسالة ضرورة كبْح نفوذ البكوات المماليك وسلطانهم في مصر، وأمله في أن يتمكّن الباب العالي من استعادة سلطانه الضائع هناك، وذلك حماية للمصالح البريطانية[1]، لكن الأمور من وجهة النظر العثمانية ربما كانت مختلفة عما كان سائدًا في بريطانيا؛ حيث أبلغ ناظر الخارجية العثماني ريس أفندي دراموند «أن الأوضاع في مصر قد استقرت بصورة نهائية»، لكن دراموند أكّد «أنه أبعد ما يكون عن التعلُّق بأيّة آمال وردية بهذا الشأن»، كما أخبر دراموند ريس أفندي بأنه يرتكب خطًا بعدم الإصرار على تعيين حكام أتراك على المدن كافة، التي تضم موانئ في مصر، من أجل تعزيز الدولة العثمانية سلطتَها في هذه المناطق[2]. وفي السياق نفسه كتب ستراتون إلى هوكسبري بتاريخ ٢٥ من نوفمبر ١٨٠٣م بأنه لا أمل في عودة الهدوء والاستقرار إلى مصر طالما بَقِيَتْ مقسَّمَة بين البكوات المماليك والأتراك، كما تحدَّث عن ضرورة تدخُّل قوة عسكرية تابعة لقوة ثالثة لردْع الطرفين وإلزامهما جادَّة الصواب[3].

أمَّا دراموند فقد أشار إلى سوء الأوضاع في مصر منذ جلاء القوات البريطانية عنها، وما تلا ذلك من أحداث أضعفت الحكومة العثمانية وأنهكَتْ قواها، وهو الأمر الذي شغل حيِّزًا هائلًا من اهتمام حكومة بريطانيا، ولعل ما بذله ملك بريطانيا جورج الثالث من جهود كبيرة لتخليص مصر من أيدي الفرنسيين وإعادة

---

(١) F. O. 78-40, W. Drummond to Hawkesbury, Buyukdere, 16 Nov. 1803, No. 26.

(٢) F. O. 78-41, A. Stratton to Hawkesbury, Buyukdere, 25 Nov. 1803, No. 2.

(٣) F. O. 78-40, F. O. to Drummond, Downing Street, 20 Dec. 1803, No. 4.

السلطان المطلق على مصر للحكومة العثمانية، يعطي ملك بريطانيا الحق في التدخُّل بأية كيفية تتراءى له لتحقيق الأمن الدائم لهذه البقعة المهمة من العالم، من منطلق التوافق التام بين اهتمامات ملك بريطانيا واهتمامات الباب العالي، كما أشاد ملك بريطانيا بدور البكوات المماليك في دعم الجهود البريطانية والعمل على نجاحها، وحقهم في العَيْش الكريم في مصر(١)، لذلك فقد ضغطت بريطانيا على الدولة العثمانية مجددًا من أجل بقاء البكوات المماليك في مصر، الأمر الذي تمخَّضتْ عنه موافقة الحكومة العثمانية على إعادة ترتيب مسألة وجود البكوات المماليك في مصر(٢).

ولقد أظهر النائب الجديد للسلطان في مصر علي باشا قليلًا من الاحترام للحكومات الأوروبية وقنصلياتها في مصر، ولم يعترف اعترافًا كاملًا بحقوقهم وامتيازاتهم، حتى أنهم بدأوا بالرحيل عن الإسكندرية، حيث وَجَدَ الأجانب أنفسهم غير آمنين على أرواحهم وممتلكاتهم في مدينة الإسكندرية، لكن علي باشا سرعان ما أدرك خطأه «الفادح» الذي ارتكبه، لذلك قرَّر الدخول في مفاوضات مع الأجانب حتى لا يرحلوا عن مصر(٣).

أمَّا وزارة الخارجية البريطانية فقد أرسلت إلى دراموند في ٢٠ من ديسمبر ١٨٠٣م رسالة حول تصورات ملك بريطانيا في ظل الأوضاع القائمة في مصر، التي تدعو إلى ضرورة تعيين بعض الأشخاص الموثوق بهم للإقامة في مصر، من أجل جمع المعلومات حول أيَّة أعمال عدائيَّة قد يقوم بها الأعداء، وتقديم النصْح والمشورة وكل المساعدات الممكنة إلى الحكام الأتراك في هذه المنطقة(٤).

---

(١) F. O. 24-2, Briggs to Hawkesbury, Alexandria, 10 Dec. 1803.

(٢) F. O. 24-2, Briggs to Hawkesbury, Alexandria, 10 Dec. 1803.

(٣) F. O. 78-40, F. O. to Drummond, Downing Street, 20 Dec. 1803, No. 5.

(٤) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 10 Jan. 1804, No. 3.

انطلاقًا من أنَّ بريطانيا كانت مهتمة بوجود النفوذ العثماني في مصر، فقد أرسل ستراتون إلى هوكسبري بتاريخ ١٠ من يناير ١٨٠٤م يُخبِره أنه تسلَّم رسالة من ميسيت، التي ذَكَر له فيها نجاح جهوده في الوقيعة بين البكوات المماليك والفرنسيين، حيث اكتشف الفرنسيون التحول الجليّ في سلوك البكوات المماليك تجاههم، وأكد ميسيت أن البكوات المماليك كانوا قد طلبوا الحماية من فرنسا، لذلك فقد نظرت الحكومة الفرنسية إلى سلوكهم بأقصى الغرابة في لحظة ضيقٍ ونفاد صبرٍ، زاد من وَقْعِها تجاهل البكوات المماليك المفاجئ للقنصل الفرنسي في مصر، بعد أن كتبوا إليه ليستنجدوا بفرنسا ويناشدوها عدم التخلي عنهم، ويشير ستراتون إلى ما ذكره ميسيت في رسالته من تردِّي الأوضاع في مصر، حيث عمد البكوات المماليك إلى استخدام وسائل العنف والتعسُّف في جمع الضرائب الباهظة من المواطنين والمقيمين في مصر، كما عمَّ الفساد وانتشرت جرائم القتل والسرقات وخطف النساء في وضح النهار، مما أثار مشاعر الغضب والاستياء والتذمر لدى المسلمين والمسيحيين في مصر على حدٍّ سواء[1].

الدولة العثمانية ومحاولة فرض سيادتها على مصر

صدر فرمان سلطاني في ذلك الوقت موجَّهٌ من السلطان العثماني إلى علي باشا، وقاضي مصر وشيخ البلد إبراهيم بك، وعثمان بك البرديسي، والبكوات الآخرين، ومفتيي المذاهب الدينية الأربعة، والعلماء والأمراء وضباط المؤسسات العسكرية، والمحامين والوكلاء بالقاهرة؛ جاء فيه: «فليكن معلومًا وواضحًا للجميع أن كل إيرادات الضرائب ومصادر الدخل العام والعقود في مصر تعود

---

(1) F. O. 78-42, *Telegram of an Imperial Ferman addressed to the Pasha of others in Egypt*, 20 Jan 1804.

ملكيتها وإدارتها إلى الباب العالي ، وقد تم إصدار وإرسال العديد من المراسيم السلطانية ، التي تتضمن الأوامر والتنظيمات واللوائح الخاصة بذلك ، وكانت الحكومة العثمانية قد اتخذت كل الترتيبات والاستعدادات برًا وبحرًا لإعادة النظام والاستقرار إلى مصر باستخدام القوة ، لكن استجابةً للالتماس الذي تقدَّم به البكوات المماليك يرجون فيه العفْو عما سلف منهم ، وتعهُّدهم برفْع أيديهم عن مصادر الدخل العام في مصر ، وأن يمتنعوا مستقبلًا عن اتِّباع سياسات مناهضة للحكومة العثمانية ؛ فقد أصدرنا عفوًا عامًا عن البكوات مؤخرًا وقمْنا بإرساله إليكم لتنفيذه»(١) .

ويتضح مما سبق أن السلطان العثماني كان يتَّبِعُ سياسة الترهيب والترغيب في تعامله مع البكوات المماليك في مصر ، في الوقت الذي تواترتْ فيه الأخبار عن اعْتزام بريطانيا القيام باحتلال الإسكندرية للحفاظ على مصالحها في مصر ؛ مما دفع ستراتون إلى إعلان عدم اعتزام حكومة بريطانيا الاستيلاء على الإسكندرية ، لكنَّه أوضح أن أفضل طريقة للقيام بذلك أن يطلب السلطان العثماني من القوات البريطانية احتلال الإسكندرية ، وهو ما كان ستراتون قد اقترحه على الريس أفندي من أجل حفْظ الهدوء والاستقرار العام والدفاع عن مصر ضد أي هجوم فرنسي متوقَّع ، وحسب ستراتون فقد اعترف الريس أفندي بأن احتلال القوات البريطانية للإسكندرية سوف يخدم المصالح الحقيقية للباب العالي(٢) .

ولقد غادر علي باشا الإسكندرية في طريقه إلى القاهرة - التي يسيطر عليها البكوات المماليك - على رأس قوةٍ تتألَّف ما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ جندي ، مما هدَّد بالاحتكام إلى السلاح مجددًا(٣) ، في استعراضٍ أشبه بالاستعراض الحربي ،

---

(١) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 21 Jan. 1804, No. 4.

(٢) F. O. 78-42, Stratton to Hawkesbury, Pera, 10 Feb. 1804, No. 7.

(٣) F. O. 78-42, *Extract of a letter from Briggs to Stratton*, Alexandria, 29 Jan. 1804.

لكن مخططاته أُحبطت على أيدي البكوات المماليك، فلم يَلْحَقْ به سوى «الخزْي والعار»، بعد أن تمَّ نزْع أسلحة قواته دون مقاومة وطرْدهم خارج مصر. وكان البكوات المماليك قد وافقوا سابقًا على استقبال علي باشا وأسرته في القاهرة، لكنهم عادوا ووضعوه رهْن الاعتقال بعد أن اكتشفوا «مخططاته السرية لاستمالة الألبان للانضمام إليه»، لذلك قرر البكوات المماليك إرسال علي باشا إلى حدود العريش، ومن هناك سوف يكون حرًا في المُضي إلى يافا ومنها إلى إستانبول[١].

قامت وزارة الخارجية البريطانية بتعيين تشارلز لوك CHARLESLOCK (١٧٧٠ - ١٨٠٤م) قنصلًا عامًا لبريطانيا في مصر، حيث أرسلت إليه رسالة بتاريخ ٣٠ من يناير ١٨٠٤م تطلب منه عند الوصول إلى مصر أن يقدِّم نفسه إلى علي باشا ويبلغه بأن تعيينه قنصلًا عامًا في مصر إنما جاء لمصلحة بريطانيا ومصر، وفيما يتعلق بالصراع بين البكوات المماليك وعلي باشا فقد أكَّدت وزارة الخارجية لتشارلز لوك ضرورةَ ملاحظة الأمور بينهما بدقةٍ، وألَّا يُعطي انطباعًا لأي طرف بأنه منحازٌ إلى الطرف الآخر، كما أكدت وزارة الخارجية البريطانية له ضرورةَ إرسال التقارير السرية إليها بكل وسيلة، حتى إذا تطلب الأمر إرسال مبعوث خاص إذا كان الأمر مهمًا جدًا[٢].

ومهما كان الأمر فقد عبَّرت حكومة بريطانيا عن شديد الأسى والأسف لتردِّي الأوضاع في مصر وانتشار الاضطرابات والفوضى فيها منذ رحيل القوات البريطانية عنها، خاصة بعد أن أصبح البلد بأكمله، باستثناء الإسكندرية، بحوزة البكوات المماليك الذين لا يمكن إجبارهم أو حتى إقناعهم بقبول التسوية التي تمَّ إبلاغهم بها منذ ٤ أشهر، في الوقت ذاته الذي يلتمس البكوات المماليك من

---

(١) F. O. 24-2, F. O. to Charles Lock, Downing Street., 30 Jan. 1804, No. 1.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to B. Pisani, Pera, 17 Feb. 1804.

حكومة بريطانيا الوساطة واستخدام مساعيها الحميدة لتسوية الخلافات بينهم وبين الحكومة العثمانية بصورة وُدِّيَّة. ويرى ستراتون أن الباب العالي سوف يفقد سلطانه على مصر لا مَحَالة إذا لم يتم التوصل إلى تسوية سِلْمِية بينهم وبين البكوات المماليك سريعًا، وقبل أن يمتد سلطانهم إلى الإسكندرية، خاصة أن القوات الألبانية التي أرسلها السلطان العثماني إلى هناك لا يُؤْمَنُ جانبُها، ولا يمكن الوثوق في ولائها. ويشير ستراتون في الوقت نفسه إلى أن حرْص حكومة بريطانيا على إبقاء السيادة العثمانية على مصر نابعٌ من الصداقة المنزَّهة عن أي أغراض، التي تربط بينهم وبين السلطان العثماني، لكن ستراتون يعترف بأن الإبقاء على السيادة العثمانية على مصر يخدم مصالح بريطانيا، التي تحرص كل الحرص على منع الفرنسيين من غزْو مصر مجددًا والقضاء على أي وجود لهم هناك، وذلك عن طريق إعادة النظام والاستقرار في مصر[١].

رغم ذلك فقد أكدت الحكومة العثمانية رفضها التام، بإجماع الآراء، عرْض ملك بريطانيا للوساطة من أجل إيجاد تسوية سلمية بين السلطان العثماني والبكوات المماليك، كما رفضت الحكومة العثمانية تدخُّل ملك بريطانيا في شئون مصر، وقد وعد ريس أفندي ستراتون تسليمه مذكرة رسمية بهذا المضمون في غضون بضعة أيام[٢]. وأشار ستراتون إلى ما أخبره به ريس أفندي عن سبب رفْض السلطان العثماني الإذعان إلى رغبة ملك بريطانيا جورج الثالث في التدخل والوساطة لتسوية الخلافات بين الباب العالي والبكوات المماليك في مصر، فعلى الرغم من ثقة السلطان والحكومة العثمانية في النيات الحسنة لملك بريطانيا وحرصه الصادق على وحدة الدولة العثمانية، فإنهم لا يستطيعون قبول عرض ملك

---

(١) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 25 Feb. 1804, No. 10.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 2 March 1804, No. 12.

بريطانيا حتى لا تختلط الأمور ، خاصة بعد أن تمَّ التوصل إلى تسوية مع البكوات المماليك بشروط تتفق مع رغباتهم وما كانوا يَطْمَحون إليه . ويضيف ستراتون أن الحكومة العثمانية تخشى غضب نابليون بونابرت - الذي رُفِضَتْ وساطته هو الآخر - إذا ما قُبِلَتْ وساطة ملك بريطانيا ، وهو ما لم يُصرِّح به ريس أفندي(١) .

تعيين خورشيد باشا واليًا على مصر

أرسل ستراتون إلى هوكسبري بتاريخ ١٠ من مارس ١٨٠٤م يخبره بأن الباب العالي قد أرسل سفينة حربية إلى الإسكندرية للعودة بتقريرٍ دقيقٍ عن الأحداث هناك ، وأنه من المقرّر إرسال أربع سفن حربية أخرى تحمل ألفًا من خيرة القوات العثمانية لتعزيز حامية الإسكندرية ، وأشار ستراتون إلى القرار الذي اتخذتْه الحكومة العثمانية بتعيين والي عَكَّا أحمد باشا الجزار نائبًا للسلطان في مصر خلفًا لعلي باشا الذي وافَتْهُ المَنِيّة(٢) ، كما أخبر ستراتون هوكسبري بقيام السفير الفرنسي في إستانبول برون بحضور اجتماع مع بعض الوزراء في الحكومة العثمانية ، حيث ناقشوا بشكل واسع شئون مصر ، وذلك بعد محاولات عدَّة لإثبات أن رُؤى بريطانيا بشأنمصر متطابقة مع مصالح السلطان ، وأن رُؤى فرنسا كانت إلى حدٍّ كبير معتدلة هي الأخرى بشأن رغبات ملك بريطانيا ، لذلك فقد تقدَّم الجنرال برون بعرض رسمي للوساطة بهدف الوصول إلى اتفاق بين البكوات المماليك والدولة العثمانية(٣) .

أمَّا دراموند في رسالته إلى هوكسبري بتاريخ ١٦ من مارس ١٨٠٤م فقد أكَّد أنه لا يعرف شيئًا عن ميسيت ، الذي تمَّ تعيينه في السابق مقيمًا لبريطانيا في مصر ،

---

(١) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 10 March 1804, No. 15.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 24 March 1804, No. 19.

(٣) F. O. 78-42, W. Drummond to Hawkesbury, Berlin, 16 March 1804, Private.

لكنه يعلم أن بقاءه في مصر غير مرغوب فيه من قِبَل الباب العالي، وأن الشعور بالغيرة ـ الذي يتصف به ميسيت ـ سوف يعيق العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية، وأنه من الصعب عليه أن يُقنِع الوزراء العثمانيين بعكس ذلك[١]، وبَعْد أقل من أسبوع أعاد دراموند إلى هوكسبري التعبيرَ عن وجود بعض الصعوبات، التي يَعْتقد حدوثها، وذلك في إشارة واضحة لبقاء ميسيت في مصر، خاصة بعد وصول تشارلز لوك الذي شغل منصب القنصل العام البريطاني في مصر. أمَّا المسألة الأخرى فهي أن القنصل الفرنسي في مصر قد كسب وُدَّ بعض البكوات المماليك عن طريق شرائهم بالمال، وأن تشارلز لوك إذا لم يستطع توفير ٤ آلاف جنيه لشراء البكوات المماليك الآخرين بالطريقة نفسها فإن مهمته في مصر لن يُكتَب لها النجاح[٢].

ذَكَر ستراتون أن بعض الوزراء في الحكومة العثمانية دعوه إلى اجتماع في ١٩ من مارس ١٨٠٤م، حيث أخبروه بترشيح أحمد باشا الجزار لكي يخلُف علي باشا بصفته حاكمًا على مصر، وأن هؤلاء حاولوا أن يشرحوا الأسباب التي دفعت الباب العالي إلى هذا «الاختيار الغريب» من وجهة نظر ستراتون، وهي أسباب لا تتعلق بالسياسة العثمانية السليمة، لكن لأسباب خاصة بمصر[٣]، لكن قرار الدولة العثمانية سرعان ما تغيَّر بسبب وفاة أحمد باشا الجزار في ٢٣ من أبريل ١٨٠٤م، حيث تمَّ تعيين أحمد خورشيد باشا حاكمًا لمصر من قبل السلطان العثماني[٤].

كان محمد علي زعيم الألبان يراقب الأحداث التي تَعْصِف بمصر، خاصة النزاع بين الدولة العثمانية والبكوات المماليك، وعمل جُلَّ جهده بأقصى طاقته من

---

(١) F. O. 78-42, W. Drummond to Hawkesbury, Berlin, 21 March 1804, Private.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 24 March 1804, No. 20.

(٣) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 25 May 1804, No. 31.

(٤) F. O. 78-42, E. Missett to A. Stratton, Alexandria., 4 April 1804.

أجل الإفادة من هذه الأحداث من أجل تعزيز مركزه السياسي ونفوذه في مصر، وبالفعل فقد تمكّن محمد علي والجنود الألبان الذين يعملون تحت إمرته من السيطرة على القاهرة وإجلاء البكوات المماليك منها، وهذا ما أثار حفيظة ميسيت، الذي أرسل إلى ستراتون رسالة في ٤ من أبريل ١٨٠٤م يُخبِره فيها أنه يشك في أن قائدَي الألبان، وهما محمد علي وحشمت بك، قد خضعا للمصالح الفرنسية، وأن الأحداث التي تلت ذلك لا تترك أي شك في مثل هذه الحقيقة، وأن خورشيد باشا الحاكم الفعلي لمصر قد أُجبِرَ من قِبَل القائدَين سابقَيالذكر على التراجع عن وعوده بتعيين بعض الضباط العثمانيين مِن المُفتَرَضِ فيهم أنهم أصدقاء لبريطانيا العظمى[١].

وبينما كان محمد علي يعزِّز نفوذه في مصر وقع انشقاقٌ في صفوف البكوات المماليك بسبب الرُّتَب الخاصة بالقيادة العسكرية بين الألفي بك وعثمان بك البرديسي، إذ انقسم البكوات المماليك بين الطرفين[٢]. كما أوضح ستراتون أن هناك حادثة ذات أهمية وخطورة قد حدثت في مصر؛ حيث وصلت أخبار إلى الوزراء العثمانيين بأن بعض الجنود الألبان عرضوا خدماتهم على خورشيد باشا، وأنريس أفندي ـ ناظر الخارجية العثماني ـ أرسل إلى الأخير يُخبِره أن الجنود الألبان بقيادة محمد علي بعد أن ذبحوا كل البكوات المماليك ومساعديهم في القاهرة قد قرروا القضاء على كل قادة المماليك في مصر[٣]، وأبدى ستراتون ثقته بصحة هذه الأنباء؛ حيث قال: «إنني لا أستطيع الشك في هذه المعلومات، ويبدو أن معلومات الباب العالي كانت منبثقةً من زعماء الألبان، الذين كانت مصالحهم

---

(١) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 8 April 1804, No. 21.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 10 April 1804, No. 23; F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 25 April 1804, No. 24.

(٣) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Pera, 25 April 1804, No. 24.

أكثر أهمية من أن يُرسِلوا تقارير مبالغًا فيها عن إنجازاتهم»[١].

ومهما كانالأمر، فقد كان هناك صراعٌ على السلطة بين الأتراك والبكوات المماليك والألبان في مصر، خاصة أن كلًا من زعيم الألبان محمد علي وحاكم مصر العثماني خورشيد باشا قد أعلن نفسه «خديوي لمصر»؛ مما دفع بريطانيا إلى الإعلان رسميًا أنها لن تتعامل إلا مع ممثل الباب العالي[٢]، لذلك فقد طلب محمد علي وساطة السفير الفرنسي في إستانبول برون، لكي يحصل على منصب الخديوي[٣]، خاصة بعد ازدياد انهيار سلطة البكوات المماليك[٤]، لكن الباب العالي لم يكن قد اتخذ قراره بعد بشأن هذا الأمر[٥].

عمل البكوات المماليك بسرعة من أجل ترتيب أوضاعهم وإعادة نفوذهم في مصر ولو جزئيًا؛ إذْ نجحوا في احتلال الكثير من المواقع المهمة في مصر من جديد، خاصة بعد الوفاق الذي تمَّ بين الألفي بك وعثمان بك البرديسي، كما استطاع البكوات المماليك التغلُّب على القوات العثمانية في الكثير من المعارك، وذلك بسبب قلة المؤَن والمياه والجند والخيول، وضعْف الروح المعنوية للجنود العثمانيين[٦].

---

(١) F. O. 24-2, *Lock to Hawkesbury,* Malta, 31 May 1804, No. 1.

(٢) F. O. 78-42, A. Stratton to Hawkesbury, Buyukdere. 10 July 1804, No. 43.

(٣) F. O. 24-2, Lock to Hawkesbury, Pera, 19 July 1804, No. 3.

(٤) F. O. 78-42, Stratton to Hawkesbury, Buyukdere, 8 Aug. 1804.

(٥) F. O. 78-48, *Extract of a letter from Major Missett to Stratton,* Rosetta, 18 Jan, 1805.

(٦) HUNTER, F. ROBERT, *Egypt Under the Khedives,* 1805-1879: From Household Government to Modern Bureaucracy, Cairo-American University of Cairo, 1999, p.14; CRABITES, PIERRE, Ibrahim of Egypt, New York: Routledge, 1935, p.1-2.

تعيين محمد علي واليًا على مصر

كان واقع الحال في مصر يُظهِر أن زعيم الألبان محمد علي الرجل الأقوى في مصر، وهو القادر على لَجْم تحركات البكوات المماليك وطموحاتهم في مصر؛ لذلك قام شيوخ الشعب المصري وأعيانهم بمبايعته في دار المحكمة ليكون واليًا على مصر في ١٧ من مايو سنة ١٨٠٥م، وأمام حُكم الأمر الواقع أصدر السلطان العثماني سليم الثالث فرمانًا سلطانيًا في ٩ من يوليه ١٨٠٥م بعزْل خورشيد باشا وتولية محمد علي على مصر[١].

كان محمد علي يواجه الكثير من التحديات في مصر، وكان أهم هذه التحديات وجود البكوات المماليك بزعامة الألفي بك، ولم يمضِ سوى ثلاثة أشهر على تعيين محمد علي واليًا على مصر حتى قرر البكوات المماليك مهاجمة القاهرة، لكنَّ محمد علي باشا استدرجهم إلى كَمِينٍ مُحْكَمٍ وهزمهم، وعلى الرغم من بقاء الوجه البحري تحت سيطرة محمد علي باشا فإن الوجه القبلي ـ الصعيد ـ كان لا يزال يخضع للبكوات المماليك، الذين بلغ عددهم حوالي ١٥٠٠ جندي، منقسمين إلى ثلاثة أقسام رئيسية تحت قيادة كلٍّ من الألفي بك، وعثمان بك البرديسي، وعثمان بك حسن، وكانت الحاجة إلى الوحْدة بين قوات البكوات المماليك قد منعتْهم من أن يقطفوا ثمار أيَّة فوائد من تفوُّقهم في الميدان على القوات العثمانية[٢].

كانت هذه الفوضى التي تَعْصِف بمصر قد دفعت الباب العالي إلى أن يطلب من الألفي بك إرسال مبعوث يمثله ليناقش مع الوزراء العثمانيين كيفية إعادة الهدوء

---

(١) F. O. 24-2, *Missett to Mulegre,* Alexandria, 1 Jan. 1806.

(٢) F. O. 24-2, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 22 March 1806.

إلى مصر ، إلا أن الألفي بك أعلن أن مصر لن يعود إليها الهدوء إلا بعد إعادة تأسيس حكومة المماليك[١] ، الأمر الذي رفضته الدولة العثمانية ومحمد علي باشا على السواء؛ مما أدى إلى استئناف العمليات العسكرية من جديدٍ ، حيث هَزَمَ الألفي بك في الفيوم ٥ آلاف من القوات الألبانية التابعة لمحمد علي باشا ، التي انسحبت إلى جنوب الجيزة ، الأمر الذي أثَّر كثيرًا على محمد علي باشا وجعله يضع كل القوات المتبقية في القاهرة تحت إمرة الضابط الرئيسي في بلاطه ، وعلى الرغم من ذلك فقد هُزِمت قوات محمد علي باشا مجددًا ، وفرَّت قواته جنوبًا إلى بني سويف أمام قوات الألفي بك الزاحفة نحو الجيزة[٢] .

لذلك قام الألفي بك بإرسال رسالة إلى حكومة بريطانيا عبْر ميسيت بتاريخ ١٣ من مايو ١٨٠٦م؛ جاء فيها : «... نحن نتطلَّع إلى مساعدة الحكومة البريطانية ، ونحن جميعًا ، وأولادنا والبكوات والمماليك والعرب ، واثقون من أن مصالح حكومة جلالة الملك تتضمن مصالحنا ، وإلا فلن يكون لدينا أمل بأن نرى مصالحنا قد تحققت ، كما أننا نتطلَّع إلى أن الحماية ، التي نحظى بها ، سوف تستمر إلى الأبد»[٣] ، وكان واضحًا من هذه الرسالة أن الألفي بك كان لا يزال يراوغ في علاقته مع الدولة العثمانية من خلال علاقته ببريطانيا ، حيث طلب مجددًا وساطة بريطانيا بينه وبين الدولة العثمانية ، لكن السفير البريطاني الجديد في إستانبول تشارلز أربثنوت CHARLES ARBITHNOT (١٨٠٤ - ١٨٠٧م) كان واثقًا في ذلك الوقت «بأن الباب العالي لن يرضى على الإطلاق عن مثل هذه الوساطة ، وأن الأحداث أثبتت أن هذا الظن لم يكن على خطأ»[٤] .

---

(١) F. O. 24-2, *Missett to Mulegare,* Alexandria., 10 May 1806.

(٢) F. O. 78-50, *Translation of a letter by Elfi Bey to Major Missett,* 13 May 1806.

(٣) F. O. 78-50, *Arbuthnot to Missett,* Pera, 5 June 1806.

(٤) F. O. 78-50, *Arbuthnot to Charles James Fox,* Pera, 6 June 1806, No. 27.

وبالرغم من ذلك فإن أربثنوت قد أكَّد في ٦ من يونيه ١٨٠٦م وصول مندوب من قِبَل الألفي بك للتفاوض والحوار مع الدولة العثمانية، وتحدَّث أربثنوت عن المحاولات التي قام بها هذا المندوب من أجل أن يقوم أربوثنوت بدور الوسيط بين البكوات المماليك والباب العالي، لكن أربوثنوت عبَّر له عن رأيه الشخصي مجددًا بأن الباب العالي لن يقبل على الإطلاق قبول مثل هذا العرض(١).

وبينما كان البكوات المماليك يحاولون التفاوض مع الدولة العثمانية، كانت قوات الألفي بك لا تزال تحقِّق الانتصارات على الأرض ضد قوات محمد علي باشا في مصر، حيث وصلتْ معلومات يقينيَّةتؤكِّد أن الألفي بك قد دخل القاهرة وأن محمد علي باشا قد فرَّ إلى القلعة ومعه ٦٠٠ من أتباعه، في الوقت الذي وصل قبطان باشا أمير البحر العثماني إلى الإسكندرية، لذلك فقد ساد الاعتقاد لدى البعض بأن هذا هو أفضل وقت للباب العالي من أجل إرجاع سلطة البكوات المماليك في مصر(٢)، بعد انسحاب القوات الألبانيَّة، لكنَّ جميع الآمال بانسحاب القوات الألبانية من مصر وإعادة امتيازات البكوات المماليك ذهبَتْ أدْرَاج الرياح؛ حيث وصل ضابط من ضباط محمد علي باشا ومعه خطاب إلى قبطان باشا، جاء فيه أن القوات الألبانية التي عاشت في مصر لمدة طويلة ليست راغبة في هجرة أوطانهم وأسرهم، وانطلاقًا منأنَّ قبطان باشا لا ينوي القيام بأي عمل عدائي ضد محمد علي باشا، فإنه أرسل خطابًا إلى الباب العالي في إستانبول لتلقِّي المزيد من التعليمات(٣).

ولقد صدرت الأوامر من الباب العالي إلى قبطان باشا بألَّا يتعجَّل نتيجة الاتفاق مع البكوات المماليك، بينما اعتبر ميسيت أن الأغلبية العظمى من الشعب

---

(١) F. O. 78-50, *Arbuthnot to Charles James Fox,* Buyukdere, 10 July 1806, No. 41.

(٢) F. O. 78-50, *Missett to Arbuthnot,* Alexandria, 14 July 1806.

(٣) F. O. 78-51, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 31 July 1806, No.

المصري تدرك أن قبطان باشا قد جاء إلى مصر من أجل إرجاع سلطة البكوات المماليك على ما كانت عليه من قَبْل، وأن محمد علي باشا يبذل أقصى ما في وُسْعِهِ لمَنْع تحقيق هذا الأمر[١].

مهما كان الأمر فقد وصلت أخبار جديدة تفيد بأن الألفي بك حقَّق انتصارًا آخر على قوات محمد علي باشا، وذلك في ٣١ من يوليه ١٨٠٦م بالقرب من قرية النجيلة على الضفة الغربية من نهر النيل، وكانت هزيمة جيوش محمد علي باشا في هذه المعركة شبه تامة لدرجة أن المدافع والأمتعة والخيام والخيول والجِمَال الخاصة بقوات محمد علي وقعَتْ في أيدي قوات البكوات المماليك بقيادة الألفي بك[٢].

كانت انتصارات الألفي بك قد أربكت الساحة السياسية في مصر؛ حيث كتب أربوثنوت بأنه ليسَتْ لديه أيَّة فكرة عن الإجراءات التي سيتخذها الباب العالي تجاه الوضع في مصر، خاصة أنه لا توجد أيَّة إجراءات فعَّالة تقوم بها الدولة العثمانية من أجل استعادة سلطتها في مصر[٣].

كان ميسيت قد أفاد بأن الباب العالي طلب من محمد علي باشا الجلاء عن مصر مرتَيْنِ، وكان رد محمد علي باشا للوهلة الأولى أنه مستعدٌّ للجلاء عن مصر، لكن سكان القاهرة الذين كانوا مقتنعين به لم يسمحوا له بمغادرتها، وأن هذه هي العقبة الحقيقية في عدم قيامه بتنفيذ الأمر، وكان محمد علي باشا قد استمال - بذكاءٍ - بعضَ الشخصيات المهمة والمؤثِّرة في مصر مثل العلماء والمشايخ والأعيان، الذين قاموا برفْع الكثير من العرائض - بناء على طلبه - التي تُثْني على محمد علي باشا، إلى قبطان باشا والباب العالي، وذكر ميسيت أنه في حالة نجاح

(١) F. O. 78-51, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 3 Aug. 1806.

(٢) F. O. 78-51, *Arbuthnot to Charles James Fox,* Buyukdere, 8 Sep.1806.

(٣) F. O. 78-51, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 10 Sep.1806.

محمد علي باشا في جمْع الأموال وإرسالها إلى إستانبول ، فإن ذلك سيكون في صالحه جنبًا إلى جنب مع العرائض ، التي رفعها السكان والشخصيات المهمة إلى الباب العالي التي تُثْني عليه(١) .

كان الألفي بك قد حاصر دمنهور بعد هزيمة جيوش محمد علي باشا ، لكنه سرعان ما رفع حصاره عنها بسبب رفْض قبطان باشا تزويده بالذخيرة ، مما يعني أن الدولة العثمانية قد غيَّرت في عِدَّة مرات من تحالفاتها في مصر ، ويعتبر ميسيت أن تَغيُّر موقف قبطان باشا كان نتيجة وصول ضابط من طرف محمد علي باشا ومعه هدايا ثمينة له ، ولقد عَلِم ميسيت أنه نتيجة للقلاقل الخطيرة في إستانبول فقد قام الباب العالي بإصدار الأوامر إلى قبطان باشا بالعودة فورًا إلى إستانبول ، في الوقت الذي استمرت فيه الصدامات العسكرية بين البكوات المماليك ومحمد علي باشا ، لكن الأخير كان لا يزال يتلقَّى الإمدادات العسكرية مما جعله يُعزز مكانته من جديد بعد كل هزيمة ، بينما كان البكوات المماليك يجهلون فن الحصار العسكري ممَّا كان يُفقِدهم ميزة كبرى(٢) .

ذَكَرَ ميسيت أن الألفي بك ، بعد انحياز قبطان باشا إلى محمد علي باشا من جديد ، أبدى رغبته في الدخول في مفاوضات جديدة مع الباب العالي ، وذكر ميسيت أن الحكومة الفرنسية تعارض أيَّة خطة يمكن من خلالها إعادة الهدوء والنظام إلى مصر ، في الوقت الذي تُظهِر فيه كثيرًا من الود تجاه محمد علي باشا ، وذكر ميسيت أنه في ظل الظروف المستجدة فإن محمد علي باشا سوف يتمكَّن من تعزيز سلطته في مصر(٣) ، وهو ما اعتبره أربثنوت ميزة لصالح الفرنسيين(٤) .

---

(١) F. O. 78-51, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 18 Sep.1806.

(٢) F. O. 24-2, *Missett to Arbuthnot,* Alexandria, 25 Sep.1806.

(٣) F. O. 78-51, *Charles Arbuthnot to Charles James Fox,* Buyukdere, 30 Sep.1806, No. 69.

(٤) F. O. 24-2, *Missett to Arbuthnot,* Alexandria, 17 Nov. 1806.

وافق الباب العالي على إعطاء البكوات المماليك صعيد مصر فقط للإقامة فيها ، لكن البكوات المماليك لم يقبلوا هذا العرض[١] ، وكان واضحًا أن رهان البكوات المماليك على بريطانيا لتحقيق آمالهم قد خاب ، لذلك كانت لديهم توجهات جديدة من أجل تحقيق هذه الآمال والطموحات من قِبَل روسيا وليس من خلال بريطانيا ، وأنهم من خلال ذلك سوف يحصلون على ما يريدون ، وسيكُونون في وضع أفضل من وضعهم الذي كان سابقًا مع بريطانيا[٢] .

كانت الأوضاع التي بدأَتْ تسير في مصر لغير صالح البكوات المماليك قد دفعت الألفي بك إلى الإعلان عن أنه سيقوم بالتفاوض مع محمد علي باشا بغرض إحلال السلام في مصر ، إلا أنه سرعان ما غيَّر رأيه وأصبح من أنصار الحرب من جديد على محمد علي باشا ، وقد يكُون الأمل في مساعدة روسيا سببًا من أسباب تغييره قراره[٣] ، في الوقت الذي وصلت فيه الأنباء عن وفاة عثمان بك البرديسي ، حيث عبَّر الألفي بك عن «حزنه» لوفاته ؛ لكنه قال إنَّ وفاته ربما كانت عقابًا له بسبب عداوته له ، حيث كان من رأي الألفي بك أن وفاة عثمان بك البرديسي قد تُعجِّل بدخوله إلى القاهرة ، التي كان قد أُخرِج منها ، إذْ إنَّ باقي المماليك ، طبقًا لزعْم الألفي بك ، يدينون بالولاء له ، مما يُسهِّل عملية الاستيلاء على القاهرة في وقت قصير ، وذلك بغرض إعادة الاستقرار إليها ، كما اعتبر الألفي أن الأموال التي أرسلها محمد علي باشا إلى الباب العالي قد جمعها من سلْب السكان المصريين والقرويين ونهبهم[٤] .

---

(١) F. O. 78-55, *Petrucci (British Agent at Rosetta) to Missett.* Rosetta. 23 Nov. 1806.

(٢) F. O. 78-55, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alexandria, 26 Nov. 1806.

(٣) F. O. 78-55, *Mehmet Bey Elfi to Missett,* 30 Nov. 1806, Translation.

(٤) F. O. 78-55, *Missett to Charles Arbuthnot,* Alex., 2 Dec. 1806.

ومهما كان الأمر ، فقد اعتبر الألفي بك أن موت عثمان بك البرديسي سيضع نهاية للخلافات الموجودة بين البكوات المماليك ، لكنَّ ميسيت كان يرى أن العكس هو الصحيح ، على الرغم من أن جميع المماليك كانوا يرغبون في أن يكون الألفي بك زعيمًا لهم ، كما أن موت عثمان بك البرديسي لم يكن مُفرِحًا للألفي بك فقط ؛ بل لجميع أعداء المماليك في إستانبول ، حيث كان عثمان بك البرديسي من الشخصيات المؤثِّرة في مصر[1] ، وربما كان موت عثمان بك البرديسي قد بعث على الاعتقاد لدى محمد علي باشا بقدرته مجددًا على قتال البكوات المماليك ، لذلك قام بإعداد العدَّة للقيام بهجوم على الألفي بك ، حيث عَبَرَ جيشه نهر النيل وعسكر في الضفة الشمالية منه في منطقة إمبابة ، وقد أعلن محمد علي باشا رسميًا أنه سوف يتولى قيادة تلك القوات ، أمَّا الألفي بك ، الذي يبدو أنه وجد أن قواته وأسلحته غير كافية لمواجهة القوات الضخمة التي حشدها محمد علي باشا ، فقد ترك البحيرة وانسحب إلى الفيوم ، بحيث يستطيع تلقي الدعم من البكوات المماليك في صعيد مصر ، ويوضح ميسيت أن قوات الألفي بك ، خاصة البدو ، كانوا غير مقتنعين به ، وأن الأخير كان يعلم ذلك جيدًا ، لذلك فهو لا يريد أن يدخل المعركة وتتخلى عنه قواته وقت الخطر[2] ، وهذا ما دفع الألفي بك إلى طلب مساعدة ممثلي بريطانيا مجددًا للتدخل بينه وبين الدولة العثمانية ، إلا أن تعليمات حكومة بريطانيا لممثليها ـ خاصة ميسيت ـ جاءت تنص على أن تكون مشاركتهم في النزاعات بين القوى المختلفة في مصر في أضيق نطاق[3] .

---

(١) F. O. 78-52, *Missett to Charles Arbuthnot*, Alex., 31 Dec. 1806.

(٢) F. O. 78-55, *Charles Arbuthnot to Viscount Howick*, Pera, 15 Jan, 1807, No. 5.

(٣) F. O. 78-56, *Missett to Arthur Paget*, Alexandria, 22 Aug. 1807.

وفاة محمد بك الألفي

تُوُفِّيَ الألفي بك في ٢٨ من يناير ١٨٠٧م في أثناء عودته إلى الصعيد، الأمر الذي بعث على السعادة لدى محمد علي باشا، لأن ذلك أسهم بشكل كبير في إضعاف قوة البكوات المماليك، وساعد في وقوع معظم مدن مصر في أيدي محمد علي باشا، بينما بقيت الإسكندرية في يد حاكمها العثماني، الذي امتاز بسَعَةِ عقله وحكمته، ولقد بُذِلَت الكثير من المحاولات من قِبَل محمد علي باشا ـ بمساعدة «العملاء» الفرنسيين ـ من أجل السيطرة على الإسكندرية، لكنَّ حزْم حاكمها وممثلي سكانها الرافضين سيطرة الألبان عليهم ممَّا مثَّلَ خيبة أمل لمحمد علي باشا، وعندما دارت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية (١٨٠٦ ـ ١٨١٢م) استغل محمد علي باشا الفرصة لإدخال حامية من قواته إلى الإسكندرية، لكنها قُوبلت بمقاومة عنيفة من قِبَل السكان[١].

حملة فريزر FRASER على مصر ١٨٠٧م

وَجَّهَتْ بريطانيا حملة من ٥ آلاف جندي بقيادة ألكسندر ماكينزي ـ فريزر ALEXANDER MACKENZIE - FRASER (١٧٥٨ ـ ١٨٠٩م)[٢]، من أجل احتلال الإسكندرية لتأمين قاعدة عمليات لها في مصر، بصفة ذلك جزءًا من استراتيجية أكبر ضد التحالف الفرنسي العثماني، الذي أخذ في التبلوُر منذ

---

(١) SCOTT, WALTER, *The Life of Napoleon Bonaparte, Emperor of the French: With a Preliminary View of the French Revolution*, Edinburgh-Cadell, 1827, Vol. II, p.141.

(٢) OLSON, JAMES S-SHADLE, ROBERT. (ed.), *Historical Dictionary of the British Empire*, Westport-Greenwood Publishing Group, 1996, p.25.

انسحاب الحملة الفرنسية من مصر(١)، حيث أنزلت حملة فريزر جنودها على شاطئ العجمي بالإسكندرية في ١٧ من مارس سنة ١٨٠٧م، ثم زحفت لاحتلال الإسكندرية، حيث سلَّمها له حاكمها أمين أغا دون مقاومة، فدخلها الإنجليز في ٢١ من مارس ١٨٠٧م(٢)، وعندها قرَّر فريزر احتلال مدينة رشيد من أجل قطْع طرق التعزيزات، التي قد تأتي إلى الإسكندرية عبر نهر النيل(٣)، فقد دفع ذلك حامية مدينة رشيد بقيادة علي بك السلانكي والأهالي إلى الاتفاق على استدراج القوات البريطانية لدخول المدينة دون مقاومة، حتى إذا دخلوا شوارعها الضيقة انهالت النار عليهم من الشبابيك وأسقف المنازل، ولقد نجحت الخطة وانسحب مَن نجا من القوات البريطانية إلى أبو قِير والإسكندرية، بعد أن خسرت بريطانيا في تلك المعركة نحو ١٨٥ قتيلًا و٣٠٠ جريح، بالإضافة إلى عدد من الأسرى، في الوقت الذي واصلت فيه قوات محمد علي باشا إنهاك الجنود البريطانيين في أكثر من مكان داخل مصر(٤).

---

(١) *The Royal Military Panorama or Officer's Companion,* London-C. J. Parrengton, 1814, Vol. IV, p.219-20; BELL, JAMES, *A System of Geography, Popular and Scientific, Or a Physical, Political, and Statistical Account of the World and its Various Divisions,* Glasgow-Archibald Fullarton, 1832, Vol. III, p.313.

(٢) GOTT, RICHARD, *Britain's Empire: Resistance, Repression and Revolt,* London-Verso Books, 2011), p.173; TUCKER, SPENCER, C. (ed.), *A Global Chronology of Conflict: From the Ancient World to the Modern Middle,* California-ABC Pub., 2010, p.1055.

(٣) RUSELL, WILLIAM & JONES, WILLIAM, *The History of Modern Europe, With a View of the Progress of Society from the Rise of the Modern Kingdoms to the Peace of Paris in 1763,* New York-Harper & Brothers, 1839, Vol. III, p.520.

(٤) OLSON-SHADLE, *Historical,* p.26.

حاول فريزر مرات عدَّة السيطرة على رشيد، لكن هذه المحاولات باءت جميعًا بالفشل، بينما كان محمد علي باشا يعمل على تجميع قواته، التي واصلت زحفها حتى حاصرت الإسكندرية(١)، وبعد مفاوضات بين فريزر ومحمد علي باشا تمَّ عقد الصلْح بينهما بتاريخ ١٤ من سبتمبر ١٨٠٧م، الذي نص على وقْف القتال في غضون ١٠ أيام، وإطلاق الأسرى الإنجليز(٢)، على أن تُخْلِيَ القوات البريطانية المدينة(٣). وبالفعل فقد أخلت القوات البريطانية الإسكندرية ورحلت إلى صقليَّة في ٢٥ من سبتمبر ١٨٠٧م. وبذلك تخلَّص محمد علي من واحد من أكبر المخاطر التي كادت أن تطيح بحكمه في مصر(٤).

محمد علي باشا وسياسة التحالف مع بريطانيا

كان من الواضح أن محمد علي باشا استطاع أن يُعزِّز نفوذه وسلطته بشكل كبير في مصر، خاصة بعد فشل حملة فريزر، حيث قال ميسيت في ٢١ من أكتوبر ١٨٠٧م إن مدينة الإسكندرية تمَّ إخلاؤها من قِبَل القوات البريطانية بعد أن استسلمَتْ لمحمد علي باشا طبقًا للاتفاق الذي تم بينه وبين فريزر، وأكد ميسيت الموقف الذي وصلَتْ إليه الأمور بين بريطانيا والدولة العثمانية؛ حيث قال: «إن العداوة بين بريطانيا العظمى والباب العالي لم تتوقف حتى بعد إخلاء الإسكندرية(٥)،

---

(١) YOUNG, GEORGE, *Egypt*, (New Jersey: Gorgias Press, 2002), p.39.

(٢) HARRISON, ROBERT T, *Gladstone's Imperialism in Egypt*, Westport: Greenwood, 1995, p.33; OLSON-SHADLE, *Historical*, p.25-26.

(٣) SCOTT, *The Life*, Vol. I, p.466; Harrison, Gladstone's, p.33.

(٤) F. O. 24-3, *Missett to George Canning*, Messina. 21 Oct. 1807.

(٥) F. O. 78-62, *From Lord Collingwood to Mehmet Ali Pacha of Egypt*. 16 Oct. 1808.

على الرغم من أن ملك بريطانيا جورج الثالث أعلن عن رغبته في أن يسود السلام جميع أرجاء العالم ، مؤكدًا أنه تُوجَد صداقة وطيدة وتحالف بين بريطانيا والباب العالي منذ أَمَدٍ بعيدٍ ، وأنه يَوَدُّ أن تظل هذه الصداقة لما فيه صالح الدولتين(١) . وبينما كانت العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية تسوء بسبب حملة فريزر وموقف بريطانيا السابق من البكوات المماليك ، تسلَّمت بريطانيا خطابًا من محمد علي باشا يُعرِب فيه عن رغبته في أن يُصبح حليفًا لبريطانيا ، داعيًا إياها لإبرام معاهدة سلام وصداقة معها بعد الاستقلال عن الباب العالي ، وحسب هذه الوثيقة فإن محمد علي باشا كان يريد من التحالف مع بريطانيا المحافظة على حُكمه وحياته ، حيث كان الصدر الأعظم علمدار مصطفى باشا ـ المعروف باسم بيرقدار مصطفى باشا ـ يُعَدُّ من أشد أعداء محمد علي باشا ، وحسب المصادر البريطانية فإن الصدر الأعظم كان يعمل من أجل التخلُّص منه ، لذلك فقد بذل جُلَّ جهده من أجل منْع إقامة علاقات بين محمد علي باشا وبريطانيا ، لكن الصدر الأعظم سرعان ما وافَتْهُ المَنِيَّة ؛ مما أدى إلى انخفاض حِدَّة القلق عند محمد علي باشا(٢) .

لم يكن محمد علي باشا وحده الذي يرغب بالاستقلال عن الدولة العثمانية والتحالف مع بريطانيا ؛ حيث تلقَّتْ بريطانيا خطابات عدَّة من البكوات المماليك يُعلِنون فيها رغبتهم في أن يكونوا حلفاء لبريطانيا من جديد ، ويطلبون أن يوقِّعوا معها معاهدة سلام وصداقة مع الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وقد طلب البكوات المماليك مساعدات وذخائر من بريطانيا ، وإذإن كلًا من محمد علي باشا والبكوات المماليك تربطهم روابط «صداقة» مع الباب العالي ، فإن الأمر كان

---

(١) F. O. 78-67, *From Admiral Lord Collingwood to W. W. Pole*, 24 May 1809; F. O. 78-67, *From Admiralty Office to George Hammond*, 7 July 1809.

(٢) F. O. 78-67, *Correspondence of Patrucci*, British Agent at Alexandria, July 1809.

يتطلّب السرية الكاملة ، وكان غرض البكوات المماليك من الدخول في معاهدة سلام وصداقة مع بريطانيا تدعيم قوتهم في مصر . أمّا سبب إقْدام محمد علي باشا على الدخول في تلك المعاهدة فهو الحصول على امتيازات تجارية من شركة الهند الشرقية في مصر(١) .

ويبدو أن بريطانيا كانت ترغب بشكل جدي في تعميق علاقاتها مع محمد علي باشا ؛ لذلك فقد بدأت ، بالفعل ، باتخاذ خطوات ملموسة في هذا الاتجاه ، حيث تحدَّث السفير البريطاني الجديد في إستانبول ستراتفورد كاننج Stratford Canning (١٨٠٩ - ١٨١١م) إلى وزير الخارجية البريطاني ماركيز ويلسلي Marques Wellesely (من ديسمبر ١٨٠٩ - ٤ من مارس ١٨١٢م) بشأن المكاسب التي يمكن أن يجنيها الإنجليز بعد ذلك من جراء التفاهم مع محمد علي باشا ، وأن أهمية مصر شيء معروف لا يحتاج إلى إثباتٍ ، وأن الإنجليز مهتمون بمصر ، وأنه يجب الإفادة من تلك الأهمية ، وأكّد كاننج تلقّيه معلومات عن مواهب محمد علي باشا الواعدة ومكانته في مصر ، وهذا يُظهِر شخصيته المحبّة للمغامرة وسعيه إلى أن يكون قويًا ، وأن تزداد قوته وذلك بالقضاء على البكوات المماليك(٢) .

مذبحة المماليك وتوطيد حكم محمد علي باشا

أراد محمد علي باشا القضاء نهائيًا على البكوات المماليك ، الذين كانوا لا يزالون يشكّلون خطرًا على حكمه في مصر ؛ لذلك لجأ إلى استراتيجية جديدة

---

(١) F. O. 78-73, *Stratford Canning to Wellesley,* Pera, 15 March 1811.

(٢) F. O. 78-73, *Account of the Massacre of the Mamlukes,* Stratford Canning to Wellesley, Pera, 1 May 1811.

تقضي بالتظاهر بمصالحتهم واستمالتهم بإغداق المال والمناصب عليهم، حتى يستدرجهم إلى العودة والإقامة في القاهرة، وبالفعل فقد استجاب الجانب الأكبر من المماليك لهذا الأمر، مفضِّلين حياة الرغد والترف على الحياة القاسية والمطارَدَة، التي يقوم بها محمد علي باشا ضدهم، وعندها دعا محمد علي باشا البكوات المماليك للاحتفال بتنصيب ابنه إبراهيم باشا على باشوية جدة وقائدًا على جيوش مصر المتوجِّهَة إلى القضاء على الثورة الوهَّابيَّة في نَجْد، حضر المئات من المماليك هذا الاحتفال بسبب وجود العديد من السفراء والقناصل، مما بعث على الطمأنينة والسكينة لديهم[1]. وتُظهِر وثيقة بريطانية كتبها ستراتفورد كاننج بتاريخ ١ من مايو ١٨١١م وصفًا دقيقًا لمذبحة القلعة، حيث قال: «لم يكن ما حدث في القلعة يومها سوى مأساة مروعة حقًا ومذبحة مدبرة لأكثر من ألف من المماليك بأمرٍ من محمد علي باشا، الذي جمع البكوات ومعظم مماليكهم في القلعة (عدا اثنين أو ثلاثة من البكوات كانوا لا يزالون في صعيد مصر، ومعهم ٨٠٠ من رجالهم تقريبًا) وذلك بحجة دعوتهم لحضور مراسم الاحتفال بتقليد ابنه باشوية جدة، وبعد أن ارتدى الباشا الشاب الخُلعة «العباءة» كان من المقرَّر تسيير موكبٍ عبر المدينة، فوجد الباشا ـ محمد علي ـ في ذلك الموكب بُغْيَتَه لتجميع قواته في القلعة دون أن يثير ذلك شكوك البكوات، الذين سبق أن وعدهم وأقسم لهم بأنه سوف يقوم بتأمين أرواحهم قبل دخولهم القاهرة. وفي اليوم المحدَّد احتشد الجميع في القلعة، وقام الباشا بإلباس ابنه الخِلْعَة، وبعدها صدرت الأوامر إلى الموكب بأن يتحرك، وفي الوقت نفسه صدر أمر سري بإغلاق أبواب القلعة، وبدعوى تكريمهم تمَّ وضع البكوات في قلب قوات الباشا، وتحرك الموكب قليلًا حتى دخل المماليك ممرًا طويلًا ضيقًا، حيث كان من المستحيل بالنسبة إليهم

---

(١) تؤكِّد هذه الوثيقة البريطانية غير المنشورة أن أحدًا من المماليك لم يَنْجُ من مذبحة القلعة، على خلاف بعض المصادر والمراجع التي ذكرت أن واحدًا فقط قد نجا من هذه المذبحة.

الدفاع عن أنفسهم، وفجأة قام الضابطان اللذان كانا على عِلْم بالخطة السرية بإصدار الأوامر لقواتهما بإطلاق النار على المماليك، وتردَّد قادة القوات للحظة غير مصدِّقين ما سمعوه، لكنَّ الأمر تكرر على مسامعهم فراحوا يطلقون النار على المماليك، الذين أحاط بهم الموت من كل جانب، وأخذ يحصدهم حصدًا فلم ينجُ منهم أحد من هذه المذبحة البشعة[١]. وكان مشهدًا دمويًا مروعًا حقًا يفوق كل وصْفٍ، وتم إرسال الجنود للبحث عن المماليك الذين لم يحضروا إلى القلعة مع البكوات كي يشاركوا رفاقهم مصيرهم المحتوم، وأُرسل جنود آخرون إلى القرى المحيطة للقضاء على أي مملوك يجدونه، كان الموت مصير المماليك أينما ثقفوا، فتُتْرَك جثثهم حيث كانت مصارعهم، واندفع الجنود إلى قصور البكوات والمماليك ومنازلهم ينهبون كل ما فيها ويحملون مَن فيها من حريم البكوات وخَدَمِهم، واستمر الحال هكذا على مدى ستة أيام، حتى توقفت المذبحة وآلة القتل عن الدوران، عندما لم يجد الجنود المزيد من المماليك كي يقتلوهم، وفرَّ عدد قليل جدًا من المماليك إلى صعيد مصر للانضمام إلى رفاقهم هناك، وقد بلغ عدد ضحايا مذبحة المماليك في القلعة وخارجها أكثر من ألف قتيل، وبلغت قيمة ما تمَّ نهْبُه عدة ملايين من القروش، حتى استبدت الرغبة في السلب والنهب بالجنود، فراحوا ينهبون كل ما يصادفهم من بيوت في طريقهم سواء كانت هذه البيوت للمماليك أم لغيرهم، حتى اضطر الباشا - محمد علي - إلى قتْل بعض رجاله دَرْءًا لشرورهم»[٢].

ولقد أرفق كاننج مع رسالته تقريرًا لأحد البريطانيين، تصادف وجوده في القلعة إبان هذه المذبحة، ويقول كاتب الرسالة إن رؤوس المماليك بعد المذبحة

---

(١) F. O. 78-73, *Account of the Massacre of the Mamlukes, Stratford Canning to Wellesley*, Pera, 1 May 1811.

(٢) *Loc. Cit.*

أُرسِلَتْ إلى إستانبول، لذلك يوجد شك بأن السلطان نفسه قد أعطى أوامره لاقتراف تلك المذبحة[١].

وبهذه المذبحة، التي دبَّرها محمد علي باشا في مصر، تشتَّتْ جموع المماليك وتفرقت ولم تقم لهم قائمة، وبذلك انتهت مشكلة المماليك نهائيًا، ودانت مصر كلها إلى حكم محمد علي باشا دون أي منافس حقيقي.

الخاتمـة

يتضح من الدراسة أن البكوات المماليك فشلوا تمامًا في استرداد نفوذهم وسلطتهم في مصر، على الرغم من كل ما بذلوه من جهود حربية ودبلوماسية من أجل تحقيق هذا الأمر، ويعود ذلك الفشل إلى مقاومة الدولة العثمانية ومحمد علي باشا طموحاتِهم تلك بكل الطرق الممكنة، إضافة إلى تفرُّق البكوات المماليك وعدم وجود قيادة سياسية وعسكرية واحدة توجههم، كما أن عرْض البكوات المماليك خدماتهم وتحالفهم مع أكثر من قوة أوروبية تَقْبل الاعتراف بهم وباستقلالهم عن الدولة العثمانية قد أضعف ثقة هذه القوى فيهم، حيث آثرتْ هذه القُوى عدم التضحية بعلاقاتها مع الدولة العثمانية من أجل مشروع قد لا يُكتَب له النجاح، كما كان واضحًا قدرة الدولة العثمانية ومحمد علي باشا على التعامل مع البكوات المماليك وحصْر نفوذهم في أضيق نطاقٍ ممكنٍ على الرغم من كل ما خاضوه من حروبٍ، الأمر الذي انتهى بالقضاء على نفوذ البكوات المماليك بعد تدبير مذبحة القلعة، التي دبَّرها محمد علي باشا عام ١٨١١م.

---

(١) فرانسوا شاتليه وآخرون: تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت ـ معهد الإنماء العربي ١٩٨٤م، ٩٧؛ جليني تيذر: الفكر السياسي: الأسئلة الأبدية، ترجمة محمد مصطفى غنيم، القاهرة ـ الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية ١٩٩٣م، ١٣؛ عبد الإله بلقزيز: إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر، بيروت ـ دار المنتخب العربي ١٩٩٢م، ١٠٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا : الوثائق البريطانية غير المنشورة Unpublished British Documents

وثائق وزارة الخارجية البريطانية

Public Record Office (P. R. O) Foreign Office (F.O)

اعتمدتُ في هذه الدراسة على الوثائق الموجودة في دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة National Library and Archives المتعلقة بمراسلات سفراء وقناصل بريطانيا العظمى مع وزارة الخارجية البريطانية ، في كلٍّ من :

TURKEY (The Ottoman Empire), F. O. 78.

EGYPT, F. O. 24.

ثانيًا : الكتب الإنجليزية

ANNESLEY, GEORGE, *The Rise of Modern Egypt. A Century and a half of Egyptian History 1798-1957,* Edinburgh- Pentland Press 1994.

BELL, JAMES, *A System of Geography, Popular and Scientific,* Or *A Physical, Political, and Statistical Account of the World and its Various Divisions* (Glasgow: Archibald Fullarton 1832), Vol. III.

CLEVELAND, WILLIAM L-BUNTON, MARTIN, *A History of the Modern Middle East,* Boulder - Westview Press 2009.

CRABITES, PIERRE, *Ibrahim of Egypt,* New York: Routledge 1935.

DODWELL, HENRY, *The Founder of Modern Egypt: A Study of Muhammad Ali,* Cambridge - Cambridge University Press 1967.

GOTT, RICHARD, *Britain's Empire: Resistance, Repression and Revolt,* London: Verso Books 2011.

HARRISON, ROBERT, *Gladstone's Imperialism in Egypt,* Westport: Greenwood 1995.

HUNTER, F. ROBERT, *Egypt Under the Khedives, 1805-1879: From Household Government to Modern Bureaucracy,* Cairo-American University of Cairo 1999.

LITTEL, TOM, *Egypt,* New York - Frederick A. Praeger 1958.

MARSOT, AFAF LUTFIAL-SAYYID, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali,* Cambridge - Cambridge University Press 1994.

OLSON, JAMES - SHADLE, ROBERT, (ed.), *Historical Dictionary of the British Empire,* Westport-Greenwood Publishing Group 1996.

RUSELL, WILLIAM & JONES, WILLIAM, *The History of Modern Europe, With a View of the Progress of Society from the Rise of the Modern Kingdoms to the Peace of Paris in 1763,* New York - Harper & Brothers 1839, Vol. III.

SCOTT, WALTRE, *The Life of Napoleon Bonaparte, Emperor of the French: With a Preliminary View of the French Revolution,* Edinburgh - Cadell 1827, Vol. II.

The Royal Military Panorama or Officer's Companion, London - C. J. Parrengton, 1814, Vol. IV.

TUCKER, SPENCER, C, (ed.), *A Global Chronology of Conflict: From the Ancient World to the Modern Middle,* California - ABC Pub. 2010.

VATIKIOTIS, PANAYIOTIS, J., *The History of Egypt,* Baltimore - Orion Publishing Group 1985.

YOUNG, GEOEGE, *Egypt,* New Jersey - Gorgias Press 2002.

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٣١٧ - ٣٤٩

الحضور الألباني في مصر العثمانية: الجبرتي مصدرًا

محمد الأرناؤوط(*)

يتمتع عبد الرحمن الجبرتي بمكانة خاصة في المدرسة التاريخية المصرية حيث أنه يمثل بداية التحول من التاريخ التقليدي/ الحولي الذي يركز على تسجيل الأحداث إلى التاريخ الحديث الذي لا يكتفي فيه المؤرخ بتسجيل الأحداث(1). وفي الواقع أن مكانة الجبرتي تتجاوز مصر حتى أن د. آيالون D. Ayalon وصفه في مقالته في «الموسوعة الإسلامية» بكونه «المؤرخ العظيم» الذي يمثل «ظاهرة فريدة في التاريخ عند المسلمين»(2).

(*) الأستاذ بقسم التاريخ والحضارة الاسلامية - جامعة العلوم الاسلامية العالمية - عمّان - الأردن.

(1) للمزيد حول مكانة الجبرتي في المدرسة التاريخية المصرية انظر الفصل الخاص به في هذين الكتابين: جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م، ١٠ - ٢٧؛ جاك كرابس جونيور، كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر - دراسة في التحول الوطني، ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ٦٥ - ٧٩.

(2) D. Ayalon, *The Encyclopedia of Islam*, art. *al-Djabarti* vol. II, Leiden - E.J. Brill 1991, p.355.

وللمزيد حول رأي آيالون بالجبرتي انظر دراسته المبكرة:

D. Ayalon, «Historian al-Jabarti and his Background», *BSOAS* XXIII (1962), pp.217-249.

ويبدو بوضوح في مقدمة كتابه المعروف «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» وعي الجبرتي بالتاريخ كعلم وبالمهمة الملقاة على المؤرخ. فهو يركز على أن «التاريخ علم يبحث فيه معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم»، والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت، و«فائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها»[١]. ومن هنا يمكن القول إن إدراك الجبرتي لدوره كمؤرِّخ هو الذي جعل كتابه «عجائب الآثار» متميزًا عن غيره مع أنه يمثل في الجوهر مدرسة التاريخ التقليدي/ الحولي، إذ أنه قدّم لوحة فسيفسائية كبيرة عن الأوضاع في مصر قبل وبعد الحملة الفرنسية، أو قبل وبعد وصول محمد علي إلى الحكم.

وفي هذا الإطار الفسيفسائي المتنوع والمتكامل، المليء بالتفاصيل عن الفئات والطوائف والجماعات الدينية والأثنية والعسكرية والاجتماعية الموجودة في مصر، يشكّل كتاب «عجائب الآثار» مصدرًا مهمًا للتعرف على الحضور الألباني في مصر قبل وبعد وصول محمد علي إلى الحكم.

وفيما يتعلق بالمنهجية المتبعة، التي تنبع منها قيمة ما لدينا في «عجائب الآثار»، يلاحظ أن الجبرتي لجأ إلى مصادر عديدة لجمع وتدوين المادة الموجودة في كتابه. فهو يذكر لنا أنه جمع مسودات كتابه من «أفواه الشيخة المسنين وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين وما انتقش على أحجار ترب المقبورين»[٢]. ومع ذلك يميز الجبرتي بين ثلاث فترات حسب المصادر التي اعتمد عليها، وهذا ما يجعل الأصالة في كتابه تتراوح حسب هذه المصادر بين فترة وأخرى.

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ضبطه وصححه إبراهيم شمس الدين، بيروت - دار الكتب العلمية ١٩٩٧م، ١: ٧.

(٢) المصدر السابق ١١.

أما الفترة الأولى فهي المبكرة التي تغطي معظم القرن الثاني عشر الهجري، وبالتحديد من سنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م إلى سنة ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م، التي اعتمد فيها الجبرتي كما يقول على «كراريس لبعض العامة من الأجناد» الذي لم يصل إلينا، وكتاب أحمد عبد الغني المعروف «أوضح الإشارات فيمن ولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات» الذي يغطي بزخم أحداث النصف الأول للقرن الثاني عشر الهجري، أي إلى ما قبل ولادة الجبرتي بقليل. وتمتد الفترة الثانية من ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م إلى ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م التي تشتمل كما يقول الجبرتي على «أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكّرناها». أما الفترة الثالثة التي تتمتع بقيمة خاصة فهي التي تمتد من ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م إلى آخر يوم كان يكتب فيه (نهاية ذي الحجة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م) والتي تشتمل على «أمور تعلّقناها وقيّدناها وسطّرناها»[1]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجبرتي كتب الأجزاء الثلاث الأولى من «عجائب الآثار» خلال ١٢٢٠-١٢٢١هـ/ ١٨٠٥-١٨٠٦م، بينما كتب الجزء الرابع الأهم خلال الفترة التي كان يغطيها بشكل مباشر ١٢٢١-١٢٣٦هـ/ ١٨٠٦-١٨٢١م.

وفيما يتعلق بموقفه من الأطراف المختلفة التي كانت تتصارع على حكم مصر (المماليك والفرنسيون والأتراك والألبان) يلاحظ أن الجبرتي كان على معرفة جيدة بها نتيجة لمكانة والده العلمية والاجتماعية وشهرته الشخصية التي أوصلته إلى أن يعيّن في «الديوان الكبير» الذي أنشأه الفرنسيون في مصر[2]، ولذلك فقد كتب ما كتب نتيجة للمعرفة المباشرة والملاحظة الشخصية والجرأة التي يفترض أن تكون

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ١١.

(٢) للمزيد حول هذا الديوان ومشاركة الجبرتي انظر محاضر هذا الديوان التي صدرت مؤخرا: التاريخ المسلسل في حوادث الزمان ووقائع الديوان ١٨٠٠ - ١٨٠١ لإسماعيل الخشاب، تحقيق محمد عفيفي وأندريه ريمون، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ٢٠٠٣.

لمؤرخ واع لدوره . ومن هنا فقد سجلت له موضوعيته فيما يتعلق بما كتبه عن الفرنسيين[(١)] ، كما يمكن أن تسجل له موضوعية هنا فيما يتعلق بموقفه من الألبان . فالجبرتي كان على معرفة جيدة بهم ، وله صلة شخصية بزعمائهم قبل انفراد محمد علي بالزعامة على الألبان والسلطة على مصر ، ولذلك فهو يجمع ما بين نقده لأغلبهم ومدحه لبعضهم . وفي إشارة ذات مغزى إلى محمد علي في نهاية مقدمة الكتاب يقول الجبرتي إنه لم يرد «أن يداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم» ، وهو ما جعل «عجائب الآثار» غير مرغوب فيه في دولة محمد علي ، حتى إن أول طبعة كاملة له لم تنجز إلا في سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩-١٨٨٠م[(٢)] .

وللتعرّف بشكل أفضل على «عجائب الآثار» كمصدر عن الحضور الألباني في مصر يمكن تقسيمه إلى أربع فترات : ما قبل الحملة الفرنسية على مصر ، وسنوات الحملة الفرنسية على مصر ، والفترة الانتقالية ما بين خروج الفرنسيين من مصر ، وصعود محمد علي ، وتولي محمد علي للحكم في مصر .

---

(١) الشيال : التاريخ والمؤرخون في مصر ٢٦؛ كرابس جونيور : كتابة التاريخ في مصر ٦٩.
وانظر بشكل خاص :

S. Moreh, *Al-Jabarti's Chronicle of the First Seven Months of the Frensh Occupation of Egypt,* (edited and translated by), Leiden - E.J. Brill 1975, pp.23-25.

(٢) حسب فون كريمر Von Kremer الذي زار مصر في سنة ١٨٥٠ كان كتاب «عجائب الآثار» مرجعًا نادر الوجود نظرًا لقيام السلطات بإتلاف أية نسخ تقع في أيديها وذلك بسبب نقد الجبرتي لعهد محمد علي . ولم يتغير الموقف إلا في عهد الخديوي إسماعيل، حيث طبع الكتاب أولًا على حلقات خلال ١٨٧٨ في جريدة «مصر» التي كانت تصدر في الإسكندرية قبل ظهوره كاملًا خلال ١٨٧٩ - ١٨٨٠م . وقد صدر لاحقًا في الفرنسية أيضًا خلال ١٨٨٨ - ١٨٩٦: كرابس جونيور : كتابة التاريخ في مصر ٦٨.

١ـ الحضور الألباني قبيل الحملة الفرنسية على مصر

بعد القرن الأول للحكم العثماني الذي تميّز بوجود ولاة يمثلون مركز السلطة، كان من بينهم بعض الألبان مثل محمد باشا دوكاجين وسنان باشا وغيرهم[١]، يلاحظ أن السلطة الحقيقية انتقلت في القرن الثاني إلى الأغوات/ البكوات المماليك الذين لم يتركوا للولاة سوى بعض المظاهر من السلطة. ولكن لا بد من القول هنا أن مفهوم «المماليك» الشائع قد تغير في هذه الفترة لأنه بالإضافة إلى الشركس الذين بقوا الأغلبية نجد بينهم الألبان والبشناق والأرمن وحتى بعض اليهود الذين أسلموا[٢].

ومن هذه الفترة يكشف لنا الجبرتي عن أحد البكوات/ الأمراء الألبان، هو حسين بك أرنؤد المعروف بأبي يدك، الذي يقدم عنه معلومات كافية للتعرف على كيفية قدوم وصعود هؤلاء الأشخاص في النخبة العسكرية الإدارية الحاكمة. فقد بدأ حسين بك سراجًا عند أحد البكوات/ الأمراء الشركس ثم ترقى بالتدريج إلى أن تولى الصنجقية والكشوفية في عدة أقاليم، وبذلك أصبح من البكوات/ الأمراء. وبالاستناد إلى الجبرتي فقد بقي حسين بك على صلة ببلاده إذ ذهب إلى

(١) كان الأول واليًا على حلب قبل ذهابه إلى مصر، بينما عين الثاني واليًا على الشام بعد مصر. للمزيد عنهما انظر كتابينا: معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في القرن السادس عشر - وقفية سنان باشا، دمشق ـ دار الحصاد ١٩٩٣م؛ دراسات في التاريخ الحضاري لبلاد الشام في القرن السادس عشر، دمشق ـ دار الأبجدية ١٩٩٥م، ٣٨ ـ ٥٤.

(٢) ميكل ونتر: المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم ومراجعة الدكتور عبد الرحمن الشيخ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م، ١٣٧.

وللمزيد حول تنقّل مركز السلطة الحقيقية ما بين الأغوات والبكوات خلال القرنين ١٧ ـ ١٨ انظر: جين هاثواي، سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية، ترجمة عبد االرحمن الشيخ، القاهرة (المشروع القومي للترجمة) ٢٠٠٣

«الروم» في ١١٢٤هـ/ ١٧١١م وبقي هناك إلى ١١٢٩هـ/ ١٧١٦م، ولكن لدى عودته إلى مصر فضّل أن يذهب إلى المدينة المنورة للمجاورة وبقي هناك أربع سنوات إلى وفاته في ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م[١].

وفي وقت لاحق برز من الألبان في هذه النخبة الحاكمة أحمد جاويش أرنؤد، الذي كان قد ارتقى إلى «باش اختيار وجاق التفكجية» قبل وفاته في التسعين من عمره في شوال ١٢٠١هـ/ ١٨٧٦م. وقد أشاد به كثيرًا الجبرتي الذي أدركه وعرفه جيدًا حتى قال عنه: «كان من خيار من أدركنا من جنسه ولم يخلف بعده مثله». ويؤكد الجبرتي هنا على أمرين نادرًا ما كان يجتمعان لدى شخصيات هذه النخبة الحاكمة. فهو من ناحية يشيد به باعتباره «من أهل الخير والدين والصلاح» والذي «يندفع في نصرة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسمعون لقوله وينصتون لكلامه ويتقونه ويحترمونه لجلالته ونزهته عن الأغراض». ومن ناحية أخرى يمتدحه الجبرتي لاهتمامه بالعلم إذ أنه «كان يحب أهل الفضائل ويحضر دروس العلماء ويزورهم ويقتبس من أنوار علومهم، ويذهب كثيرًا إلى سوق الكتبيين ويشتري الكتب ويوقفها على طلبة العلم». ومما له مغزاه هنا أن الجبرتي يعترف بأنه كان لهما شيخ مشترك (السيد مرتضى) حيث أن أحمد جاويش قد سمع عليه «صحيح البخاري ومسلم وأشياء كثيرة والشمائل والثلاثيات وغير ذلك». ومن هنا لا يعد من المستغرب أن تكون لأحمد جاويش مكتبة في بيته تضم «كتبًا نفيسة»، وقد وقفها قبل وفاته على مكتبة جامع شيخون العمري[٢].

ومن المعاصرين لأحمد جاويش كان هناك أيضًا في النخبة الحاكمة محمد آغا أرنؤد، الذي يذكره الجبرتي في حوادث ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م، ولكن دون أن

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ١: ١٢٦.

(٢) المصدر السابق ٢: ٢٦ - ٢٧.

يعطي عنه تفاصيل كافية . ويبدو من لقبه (آغا) أنه كان من الزعماء العسكريين في ذلك الوقت ، كما أن لقب «الجفلي» الذي أورده الجبرتي يوضح أنه كان ينتمي إلى عصبة الجفلية المعروفة ، التي كانت تُعدّ من الزمر المهمة في النخبة الحاكمة(١) . ولكن مع قدوم القائد العسكري حسن باشا في رجب ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م يبرز فجأة باعتباره «الوالي» أو «زعيم مصر» وذلك بعد أن قام حسن باشا بتقليده «آغات الجمليان» في شوال ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م(٢) .

ومع قدوم حسن باشا المذكور في رمضان ١٢٠٠هـ/ حزيران ١٧٨٦م كان قد قرأ الفرمان الذي يتضمن معرفة السلطان لـ«ما هو بالقطر المصري من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس وأن سبب ذلك خائنو الدين إبراهيم بك ومراد بك وأتباعهم» ، مما سمح لعدوهم اللدود إسماعيل بك بالعودة من منفاه بالشام وفرض سلطته على النخبة الحاكمة في القاهرة ، حتى أن الجبرتي استهل سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م بالقول «ومعها انفرد إسماعيل بك الكبير في إمارة مصر وصار بيده العقد والحل»(٣) . ولذلك فقد اندلع لاحقًا القتال بين إسماعيل بك وأنصاره وبين إبراهيم بك ومراد بك وأتباعهم الذين تمركزوا في الصعيد . ومع استمرار القتال بين الطرفين يكشف الجبرتي عن تطور مهم في منتصف رجب ١٢٠٢هـ/ نيسان ١٧٨٨م ألا وهو وصول «نحو الألف من عسكر الأرنؤد إلى ساحل بولاق وعليهم كبير يسمى إسماعيل باشا» ، فيما يبدو أنه دعم من استنبول لقتال قوات إبراهيم بك ومراد بك المتمركزة في الصعيد . وبعد أسبوع من وصول هذه القوة يخبرنا الجبرتي عن تطور مفاجئ ألا وهو قيام إسماعيل باشا «كبير الأرنؤد» بقتل رئيس

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ١: ١٩٠.
وللمزيد حول هذه العصبة أو الزمرة انظر : هاثواي : سياسات الزمر الحاكمة ١١٥ ـ ١٢٢
(٢) المصدر السابق ١: ٤٣٩.
(٣) المصدر السابق ٢: ٥٨.

عسكره لأنه «كان يخشاه ويخاف من سطوته» ولأنه هدّده بالذهاب إلى الصعيد لكون الأمراء هناك (إبراهيم بك ومراد بك) يدفعون عطايا أكثر للعسكر[١] . وبعد ذلك «سافر إسماعيل باشا بجماعته» كما يخبرنا الجبرتي إلى الصعيد لقتال «الأمراء القبليين» ولكن دون نتيجة حاسمة[٢] .

وفي مطلع شهر رجب ١٢٠٣هـ/ آذر ١٧٨٩م غادر إسماعيل باشا «كبير الأرنؤد» بصحبة الوالي عبدي باشا ، حيث يضيف الجبرتي هنا جملة ذات مغزى تقول بأن إسماعيل باشا «أبقى من عسكر القليونجية والأرنؤدية من اختارهم لخدمته وأضافهم إليه»[٣] ، وهي أول إشارة إلى بقاء قوة عسكرية من «الأرنؤدية» في مصر . ومع هذا الوجود للعنصر الألباني الجديد أخذت تكثر الأخبار لدى الجبرتي عن «الأرنؤد» .

وهكذا فهو يخبرنا عن قتال استمر خمسة أيام «بين عسكر القليونجية والأرنؤدية بسوق السلاح في مطلع شهر ذي الحجة ١٢٠٤هـ/ آب ١٧٩٠م ، حيث «قتل بينهم جماعة من الفريقين ، ثم تحزبوا أحزابًا فكان كل من واجه حزبًا من الطائفة الأخرى أو انفرد ببعض منها قتلوه»[٤] . وفي هذا السياق يخبرنا الجبرتي في أواخر ذي الحجة ١٢٠٤هـ/ ايلول ١٧٩٠م انقلاب مركب بـ «جماعة من الأرنؤد» عند الخليج المرخم ، حيث «غرق منهم ستة أنفار وقيل سبع»[٥] .

ويبدو أن إسماعيل بك الكبير ، الحاكم الفعلي في القاهرة آنذاك ، كان له مشروعه الخاص حيث أخذ يكثر من استقدام «الأرنؤد» من بلادهم لتجنيدهم في

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٣٧.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٩.

(٣) المصدر السابق ٢: ٥٥.

(٤) المصدر السابق ٢: ٦٢.

(٥) المصدر السابق ٢: ٦٢.

قواته، كما وطلب من فرنسا «بعثة عسكرية» في ١٧٨٩م، إلا أن باريس لم تستجب له بسبب الظروف المحلية والإقليمية المتغيرة[١].

وفي هذا الإطار فقد قام إسماعيل بك بتوزيع «الأرنؤد» الذين استقدمهم على عدة مناطق، وبالتحديد في بولاق والجيزة والقاهرة القديمة، حيث أنه بذلك كان يحتاط لنفسه من أي هجوم مفاجئ من «الأمراء القبليين». ويبدو أن «الأمراء القبليين» حاولوا اختراق هذا «الحاجز» بالتواطؤ مع أحد زعماء «الأرنؤد»، ألا وهو «صالح آغا آغات الأرنؤد». ففي منتصف محرم ١٢٠٥هـ/ ايلول ١٧٩٠م يذكر لنا الجبرتي أن إسماعيل بك قبض على المعلم يوسف كساب و«أمر بتغريقه في النيل» ونفى في اليوم ذاته صالح آغا المذكور لأنه قيل أنه تواطأ مع «الأمراء القبالي» بواسطة المعلم يوسف لكي «يملكهم المراكب الرومية والقلاع التي بناحية طرا والجيزة»[٢].

ولكن الطاعون الكبير الذي ضرب مصر في ذلك الوقت قضى على إسماعيل بك والكثير من قواته «الأرنؤدية» التي كان قد استقدمها من بلادها. وهكذا يذكر لنا الجبرتي أنه في رجب وشعبان ١٢٠٥هـ/ آذار ونيسان ١٧٩٠م زاد الطاعون حتى انه «مات به ما لا يحصى ومنهم إسماعيل بك الكبير وعسكر القليونجية والأرنؤد الكائنون ببولاق ومصر القديمة والجيزة، حتى كانوا يحفرون حفرة لمن بالجيزة»[٣].

---

(١) هنري لورنس وآخرون: نابليون والحملة الفرنسية في مصر، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة (سينا للنشر)، ١٩٩٥م، ١١٧، ١١٩.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٦٤.

(٣) المصدر السابق ٢: ٦٧.

٢ـ الحضور الألباني خلال سنوات الحملة الفرنسية على مصر

مع قدوم سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨ـ١٧٩٩م التي يسميها الجبرتي «أولى سنة الملاحم العزيمة والحوادث الجسيمة» المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر تبرز عند الجبرتي بشكل ملفت بعض المعطيات التي تتعلق بالحضور الألباني في مصر.

وهكذا مع وصول الجيش الفرنسي إلى ضواحي القاهرة واندلاع القتال في إنبابه بالقرب من الأهرامات ٢١ تموز ١٨٩٨م، تم اختراق جيش المماليك حتى وصل الجنود الفرنسيون إلى متاريس مراد بك. وفي تلك اللحظة يشهد الجبرتي بحضور «عدة وافرة من عساكر الأرنؤد من دمياط»، حيث طلعوا إلى إنبابه و«انضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس». ولكن المعركة لم تدم طويلًا كما هو معروف، حيث فرّ مراد بك ومن معه إلى الجيزة، بينما «بقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة ملقاة على الأرض ببر إنبابه تحت الأرجل»(١).

وبعد احتلال القاهرة تابع الجيش الفرنسي سيره باتجاه العريش، حيث حاصر قلعتها في أواخر شعبان ١٢١٣هـ/ شباط ١٧٩٩م. ويذكر الجبرتي هنا أنه كان في القلعة بعض المماليك و«صحبتهم نحو ألف عسكر مغاربة وأرنؤد». ويضيف الجبرتي أنه «لم يزل أهل القلعة يحاربون ويقاتلون حتى فرغ ما عندهم من البارود والذخيرة». فاستسلموا بعد أسبوعين من القتال. وقد أرسل حينئذ المماليك الأسرى إلى القاهرة بينما انقسم العسكر الذين استسلموا إلى قسمين: قسم رضي أن يتعاون مع الفرنسيين ويبقى في القلعة وقسم رفض ذلك فأطلق سراحه(٢).

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ١٣٣.
(٢) المصدر السابق ٢: ١٧٨.

وكان السلطان العثماني بعد أن وصلته أخبار الحملة الفرنسية على مصر قد أمر بإرسال جيشين كبيرين : الأول عبر البر بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، والثاني عبر البحر المتوسط بقيادة والي الأناضول مصطفى باشا الذي «حشد له عشرة آلاف من مشاة الأناضول والأرناؤوط» وأرسله مزودًا بالمدافع والسفن من سالونيك[1] . وفيما يتعلق بالجيش العثماني القادم من بر الشام ، الذي كان يتضمن الآلاف من «الأرنؤد» ، فقد تمكن أحد قواده (مصطفى باشا أرناؤوط) من فتح قلعة العريش في ٣ شعبان ١٢١٤هـ/ ٣١ كانون الأول ١٧٩٩م[2] . وبعد هذا النصر ، الذي كانت له «تواريخ لا نهاية لها لكثير من الشعراء يزيد عددهم عن نجوم السماء» ، انطلقت من العريش طليعة القوات العثمانية بقيادة طاهر باشا أرناؤط ، الذي كان قد برز خلال تقدم الجيش العثماني ، حيث «صحب المشار إليه جيش الإنكشارية وصحبه كذلك كافة جيوش الأرناؤط»[3] . وعندما وصل طاهر باشا مع قواته إلى بلبيس ، قام القائد العام يوسف باشا بتعيين إبراهيم باشا قائدًا على جبهة دمياط و«أرسل معه حشدًا عظيمًا من الأرناؤط» ، وأرسل معه ممش آغا لأنه «في الأصل كان من طائفة الأرناؤط وذا جدارة وكفاية في ضبط جند الأرناؤط وربط أمورهم»[4] .

وقد أدى هذا التقدم السريع للقوات العثمانية إلى إرغام قيادة الحملة الفرنسية على القبول بالصلح في شوال ١٢١٤هـ/ آذار ١٨٠٠م ، ولكن هذا الاتفاق سرعان ما انهار وعاد القتال بين الطرفين ، مما دفع قيادة الحملة إلى تحصين القاهرة

---

(١) الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني : مخطوط «ضيانامه» للدرارندلي ، دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م ، ١٩٧-١٩٨.

(٢) المصدر السابق ٢٧٦.

(٣) المصدر السابق ٣٢٧.

(٤) المصدر السابق ٣٣٢.

في وجه الهجمات العثمانية . وهنا يكشف لنا الجبرتي من قلب الأحداث في تلك الأيام كيف أنه «حضر نحو خمسمائة من عسكر الأرنؤد .. فلما قربوا من مصر (القاهرة) عارضهم عسكر الفرنساوية الواقفة على التلول الخارجة ، فحاموا ودافعوا عن أنفسهم منهم ودخلوا مصر»[1] . وقد أثار دخول هؤلاء «الأرنؤد» إلى القاهرة المحاصرة الحماس الكبير إذ «خرج الناس لقدومهم وضجت القلعة لحضورهم واشتدت قواهم ، واتفقوا أن يقولوا للناس إذا سئلوا أنهم حاضرون مددًا ، وسيأتي في أثرهم عشرون ألفًا» ، مما أدى إلى انتشار القتال ضد الفرنسيس في أرجاء القاهرة[2] .

وفي غضون ذلك كان طاهر باشا قد تقدم «وفي معيّته نحو خمسة آلاف من مشاه الأرناؤط وفرسانهم» إلى الخانكاه ، حيث دارت بالقرب منها معركة عنيفة مع القوات الفرنسية انتهت بهزيمتهم[3] . وبعد هذا الانتصار تحركت القوات العثمانية الإنجليزية باتجاه القاهرة ، حيث وصلوا إلى شبرا ، وحاصروا القاهرة من كافة الجهات . وقد صمّم «نحو ألفين من الشجعان من سائر الفرق ومن طائفة الأرناؤط والترك» على خرق الاستحكامات الفرنسية باتجاه حي الحسينية ، حيث استقبلوا بحماس كبير من السكان[4] . وبعد استسلام الفرنسيين جرى في ٥ ربيع الأول ١٢١٦هـ/ ١٦ تموز ١٨٠١م تنظيم موكب حاشد في القاهرة تقدمه أمراء المماليك ووالي مصر والعلماء والمشايخ «ثم فرسان الديوانكان ، ثم فرسان الأرناؤط ، ثم جند أمير الطليعة طاهر باشا»[5] ، الذي برز بسرعة كقائد للقوة الألبانية في القاهرة .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٢٣١.

(٢) المصدر السابق ٢: ٢٣١.

(٣) الدارندلي : ضيانامه ٣٣٩.

(٤) المصدر السابق ٣٤٨ - ٣٤٩.

(٥) المصدر السابق ٣٥٦.

٣ ـ الحضور الألباني في مصر خلال الفترة الانتقالية ١٢١٦ـ١٢٢٠هـ/ ١٨٠١ـ١٨٠٥م

على الرغم من الحماس الظاهر على سكان القاهرة لانتصار القوات العثمانية وانسحاب القوات الفرنسية إلا أن الجبرتي بعين المؤرخ المدقق أخذ يتابع الوضع الجديد وما نجم عنه بالنسبة لسكان القاهرة الذي هو واحد منهم ويمثل مصالحهم ومشاعرهم.

وهكذا فقد أشار الجبرتي إلى ظاهرة جديدة في الأيام الأولى لعودة الحكم العثماني ألا وهي انشغال الجنود الجدد بالتجارة. فقد لاحظ الجبرتي امتعاض «أهل الأسواق لذلك» بعد أن «كثر الخبز واللحم والسمن وتواجدت البضائع وانحلت الأسعار وكثرت الفاكهة» التي «تعاطى بيع غالبها الأتراك والأرنؤد». فقد كان هؤلاء يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبحر والبر ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة وبولاق بأعلى الأثمان»[١]. ويسجل الجبرتي في شهر ربيع الأول ١٢١٦هـ/ تموز ـ آب ١٨٠١م أنه «كثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء في أصناف المأكولات» حيث أصبحوا «يحتكرون ما يريدون من الأصناف ويبيعونها بأعلى الأثمان ولا يسري عليهم حكم المحتسب». ولكن حتى المحتسب في ذلك الحين كان سليم آغا أرنؤد، الذي اضطر الوالي العثماني الجديد محمد باشا إلى قتله في ١٢ شوال ١٢١٦هـ/ ١٥ شباط ١٨٠٢م لامتصاص غضب العامة وإرهاب الباعة[٢].

ومن ناحية أخرى فقد حرص الوالي العثماني الجديد محمد باشا على ملاحقة بقايا المماليك فأرسل في ١١ جمادى الثانية ١٢١٦هـ/ ١٩ تشرين الأول ١٨٠١م

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٣٣٣.

(٢) المصدر السابق ٢: ٣٥٧.

طاهر باشا «بطائفة من العسكر الأرنؤد» إلى محمد بك الألفي بالصعيد، و«وقفت طائفة العسكر والأرنؤد بالأخطاط والجهات وخارج البلد يقبضون على من يصادفونه من المماليك والأجناد»[1].

ومع ذلك يبدو أنه خلال الشهور الأولى من عودة الحكم العثماني الجديد أن معظم العسكر الألبان قد تمركزوا في القاهرة، حيث كونوا قوة مهمة حسمت الأمور لصالحهم فيما عرف بـ«هبة الأرنؤد» في مطلع محرم ١٢١٨هـ/ نيسان ١٨٠٣م. وحسب الجبرتي فقد بدأت الحوادث في اليوم الأول للسنة الهجري (١ محرم ١٢١٨ هـ/ ٢٢ نيسان ١٨٠٣) حين ذهب «جماعة من كبار العسكر» إلى الوالي محمد باشا للمطالبة برواتبهم المتأخرة فحولهم إلى محمد علي سرششمة، حيث حدثت أول مناوشة. وفي يوم الجمعة ٧ محرم ١٢١٨هـ/ ٢٩ نيسان ١٨٠٣م حاصر «الأرنؤد» بيت الدفتردار فاستنجد بالوالي، إلا أن محمد باشا ردّ على ذلك بقصف بيت الدفتردار وجموع «الأرنؤد» من حوله. وفي يوم السبت ٨ محرم ١٢١٨هـ/ ٣٠ محرم ١٨٠٣م خرج محمد باشا بقواته من القلعة و«انقسموا فرقتين: فرقة أتت على رصيف الخشاب وفرقة على باب الهواء ليأخذوا الأرنؤدية بينهم ويحصروهم من الجهتين»، حيث دار قتال عنيف. وقد حسم الأمر تدخل طاهر باشا مع قواته، الذي تقدم من الرميلة إلى باب العزب ومنه إلى القلعة التي استولى عليها وأخذ منها يقصف بالمدافع قوات محمد باشا الذي فوجئ بذلك. وقد استمر القتال نهار السبت بكامله و«اشتد ليلة الأحد طوال الليل»، ولما أصبح يوم الاثنين «زحف عسكر الأرنؤد إلى جامع عثمان كتخدا والي حارة النصارى، وملكوا بولاق وعدوا بالغليون إلى بر انبابة، كما «ذهب طائفة منهم إلى قصر العيني وقبضوا على من به من عبيد الباشا وعرّوهم وأخذوهم

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٣٤٩.

أسرى» ، وقصفوا أخيرًا بيت الوالي إلى أن احترق مما أرغمه على الهروب من القاهرة[١] . وقد وصفه الجبرتي بهذه المناسبة بأنه «كان سيء التدبير ولا يحسن التصرف ويحب سفك الدماء ولا يتروى في ذلك ، ولا يضع شيئًا في محله ويتكرم على من لا يستحق ويبخل على من يستحق»[٢] .

وبعد أن انحسر الوضع عن سيطرة طاهر باشا على مقاليد الأمور اجتمع المشايخ عند القاضي صباح يوم الجمعة ١٤ محرم ١٢١٨هـ/ ٦ أيار ١٨٠٣م وذهبوا معه عند طاهر باشا ، حيث عملوا ديوانًا وقام القاضي بتقليد طاهر باشا القائمقامية إلى أن تحضر الولاية له أو لغيره ، و«كلموه على رفع الحوادث والمظالم وظنوا به الخيرية» ، وكتبوا بذلك محضرًا أرسلوه إلى استنبول[٣] . ومع هذا الانقلاب في مركز السلطة أخذ الفرز يبرز بوضوع داخل القوات العسكرية العثمانية بين «الأرنؤد» من ناحية وبقية الانكشارية من ناحية أخرى . ويوضح الجبرتي هنا أنه «لما خرج محمد باشا وظهر عليه الأرنؤد شمخوا على الانكشارية وصاروا ينظرون إليهم بعين الاحتقار مع تكبر الانكشارية ونظرهم في أنفسهم أنهم فخذ السلطنة»[٤] .

ويشهد الجبرتي هنا أنه مع تولي طاهر باشا السلطة «صار يدفع إلى طائفة الأرنؤد رواتبهم المتأخرة ولا يعامل بقية الإنكشارية بالمثل ، مما أثار حنقهم ويبتوا على قتله بالاتفاق مع والي المدينة» . وهكذا فقد اجتمع هؤلاء صباح الأربعاء ٤ صفر ١٤١٨هـ/ ٢٦ أيار ١٨٠٣م و«هم نحو المائتين وخمسين نفرًا بعددهم وأسلحتهم» عند طاهر باشا وألحوا في طلب رواتبهم المتأخرة ، فلما رفض ذلك

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٣٩١ - ٣٩٥.
(٢) المصدر السابق ٢: ٣٩٧.
(٣) المصدر السابق ٢: ٣٩٨.
(٤) المصدر السابق ٢: ٤٠١.

ضربوه بالسيف وقطعوا رأسه[١] . ولما انتشر الخبر في القاهرة اندلع قتال عنيف بين «الأرنؤد» وبقية الانكشارية ، وأُقيمت المتاريس في عدة جهات ، و«صار الانكشارية إذا ظفروا بأحد من الأرنؤد أخذوا سلاحه وربما قتلوه ، وكذلك الأرنؤد يفعلون معهم» . وقد بقي جثمان طاهر باشا مرميًا إلى اليوم التالي حيث دفن دون رأس بقبة في بركة الفيل إلى أن وجد رأسه ودفن مع جسمه[٢] .

وقد علّق الجبرتي على ما حدث لطاهر باشا بالقول أنه قد «زالت دولته وانقضت سلطنته في لحظة» ، حيث أنه لم يستمر في الحكم سوى ستة وعشرين يومًا . وبهذه المناسبة قدم الجبرتي صورة نادرة عن قرب لطاهر باشا حيث ذكر أنه «كان أسمر اللون ، نحيف البدن ، أسود اللحية ، قليل الكلام بالتركي فضلًا عن العربي ويغلب عليه لغته الأرنؤدية ، وفيه هوس وانسلاب للمسلوبين والمجاذيب والدراويش . وعمل له خلوة بالشيخونية ، وكان يبيت فيها كثيرًا ويصعد مع الشيخ عبد الله الكردي إلى السطح في الليل ويذكر معه»[٣] .

وقد تصادف حينئذ في ذلك النهار وجود أحمد باشا في القاهرة ، في طريقه إلى المدينة المنورة لولايتها ، فحاول استغلال الوضع وإقناع المشايخ بالعمل معه ، حيث طالبهم بجمع الناس وأمرهم بـ«الخروج على الأرنؤدية وقتلهم» . ولكن «ولاية» أحمد باشا كما يقول الجبرتي لم تستمر سوى «يومًا وليلة لا غير» (مساء

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٤٠١.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٠١.

وتجدر الإشارة إلى أن أخويه حسن باشا وعابدين بك قاما لاحقا في ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م بإنشاء مسجد كبير عند هذه القبة ، وهو يعتبر من المساجد القيمة التي بنيت في القاهرة خلال العهد العثماني . ومع أن اللوحة المثبتة على الباب توضح أن بناء المسجد قام به الأخوان المذكوران إلا أن هذا المسجد اشتهر ولا يزال باسم «مسجد حسن باشا» . للمزيد عن هذا المسجد انظر : حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤، ٣٥٧-٣٥٩.

(٣) المصدر السابق ٢: ٤٠٢.

الأربعاء ٤ صفر ونهار الخميس ٥ صفر ١٢١٨هـ/ ٢٦ ـ ٢٧ أيار ١٨٠٣م) . إذ تحالف ضده «محمد علي والأرنؤد» الذين كانوا يسيطرون على القلعة وأمراء المماليك بزعامة إبراهيم بك ، الذي وجه إنذار لأحمد باشا بمغادرة القاهرة فورًا ، حيث خرج من بيته في حالة مزرية مساء يوم الخميس ٥ صفر هـ/ ٢٧ أيار ١٨٠٣م و«دخل الأرنؤد ونهبوا جميع ما فيه»(١) .

ويذكر الجبرتي في هذا السياق كيف أن «الأرنؤد» في أنحاء القاهرة عمدوا إلى الانتقام من العسكر «الأتراك» الذين كانوا وراء اغتيال طاهر باشا . وهكذا فقد «استمر الأرنؤد كلما مرت منهم طائفة ووجدوا شخصًا في أي جهة له شبه بالأتراك قبضوا عليه وأخذوا ثيابه» . كما أنهم تمكنوا في يوم الاثنين ٩ صفر من قتل اثنين من قواد الإنكشارية الأتراك (إسماعيل آغار وموسى آغا) اللذان قتلا طاهر باشا(٢) .

وفي هذا الإطار من التحالف الجديد بين زعماء المماليك وزعماء «الأرنؤد» في هذا الوضع الانتقالي يخبرنا الجبرتي عن قيام عثمان بك البرديسي بعمل «عزومة» حضرها إبراهيم بك و«محمد علي ورفقاؤه» ، حيث «ألبسوا محمد علي ورفقاءه خلعًا» . وقد تكررت هذه «العزومة» في اليوم التالي لابن أخي طاهر باشا ، الذي كان يسيطر على القلعة . ويبدو أن زعماء المماليك كانوا يسعون بذلك لكسب ود «الأرنؤد» ليحلوا محلهم في القلعة . وقد تم هذا في يوم الأحد ٥ صفر ١٢١٨هـ/ ٢٧ أيار ١٨٠٣م عندما «نزل ابن أخي طاهر باشا من القلعة ومن معه من أكابر الأرنؤد وأعيانهم وعساكرهم ... وسلموا القلعة إلى الأمراء المصرلية» ، ولكن بقي فيها «طائفة من الأرنؤد وعليهم كبير يقال له حسن القبطان»(٣) .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٢: ٤٠٤.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٠٥.

(٣) المصدر السابق ٢: ٤٠٧.

وقد تعزز هذا التحالف الجديد بين زعماء المماليك وزعماء «الأرنؤد» مع قدوم الوالي الجديد علي باشا الطرابلسي في أواخر ربيع الأول ١٢١٨هـ/ حزيران ١٨٠٣م. وكان علي باشا قد أرسل من الإسكندرية كتابًا إلى زعماء المماليك يلومهم فيه على قدومهم إلى القاهرة و«معاونة الأرنؤدية وقتل رجال الدولة والإنكشارية»، ولكنه وعدهم بتأمين عفو لهم من الدولة. وهكذا وصل بالفعل في شعبان ١٢١٨هـ/ تشرين الثاني ١٨٠٣م «الخط الشريف» الذي يحمل «الرضا عن الأمراء المصرلية بشفاعة صاحب الدولة الصدر الأعظم يوسف باشا»[1]. ولكن علي باشا كان يراسل في الوقت نفسه زعماء «الأرنؤد» ويمنيهم بالوعود في حالة وقوفهم معه ضد زعماء المماليك. وقد اطلع زعماء «الأرنؤد» أمراء المماليك على هذه المراسلات، واتفق الطرفان على التظاهر بعدم معرفة ما يخطط له علي باشا. ويذكر الجبرتي كيف أن الطرفان تحايلا عليه عند وصوله إلى ضواحي القاهرة، حيث استولوا على مراكبه وأقنعوه بعدم دخول القاهرة مع الإنكشارية لأن «البلدة في قحط وغلاء والعساكر العثمانية منحرفوا الطباع ولا يستقيم حالهم مع الأرنؤدية ويقع بينهم ما يوجب الفشل». وفي منتصف شوال ١٢١٨هـ/ أواخر كانون لثاني ١٨٠٤م حدث قتال مفاجئ في عسكر علي باشا سقط معه صريعًا. ولا يخفي الجبرتي هنا ارتياحه لما حدث له لأن «كل ذلك وبال فعله وسوء سريرته وخبث ضميره»، حيث يكشف أن علي باشا وعد عسكره بالقول «إن بلغت مرادي من الأمراء المصريين وظفرت بهم وبالأرنؤد أبحت لكم المدينة والرعية ثلاثة أيام تفعلون بها ما شئتم»[2].

وبعد هذا النجاح للتحالف الجديد أقنع أمراء المماليك زعماء «الأرنؤد» بخروج من بقي منهم من القلعة التي آلت إليهم تمامًا. وهكذا يخبرنا الجبرتي عن تطور

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٤٢٥.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٣٤.

مهم حصل في يوم الاثنين ١ ذي القعدة ١٢١٨هـ/ ١٢ شباط ١٨٠٤م عندما «أنزلوا حسين قبطان ومن معه من عسكر الأرنؤد من القلعة، وكانوا نحو الأربعمائة فذهبوا إلى بولاق، وسكنوا فيها بعد أن أخرجوا السكان من دورهم بالقهر عنهم»، و«لم يبق بالقلعة من أجناسهم سوى الطبجية المتقيدين بخدمة المصرلية»[١]. وهكذا يوضح لنا الجبرتي هنا بامتعاض عن كيفية تحول بولاق إلى مركز لسكن هذا العدد الكبير من «الأرنؤدية» الذين نزلوا من القلعة واستقروا هناك.

وفي هذا السياق يكشف الجبرتي عن دور اللاعب الرئيس وسط ما يجري في القاهرة، ألا وهو محمد علي، الذي يبدو أنه المخطط لكل ما يجري من وراء ستار. وهكذا يوضح الجبرتي أن محمد علي هو الذي «حرش العساكر على محمد باشا وأزال دولته» وذلك بـ«معونة طاهر باشا والأرنؤد»، ثم ينسب إليه تحريضه للأتراك ضد طاهر باشا «حتى أوقع به أيضًا». ولما ظهر على الساحة أحمد باشا تحرك محمد علي و«أزاله بمعونة الأمراء المصرلية». وبفضل هذا التحالف الجديد مع أمراء المماليك نجح محمد علي في «التحيل على علي باشا الطرابلسي حتى أوقعوه في فخهم وقتلوه ونهبوه». وبعد ذلك جاء الدور على أمراء المماليك ليتخلص منهم، حيث أنه أيد عثمان بك البرديسي ضد محمد بك الألفي ليتفرغ أخيرًا للتخلص من البرديسي الذي كان قد «تآخى معه وجرح كل منهم نفسه ولحس من دم الآخر». ولأجل ذلك كما يوضح الجبرتي، قام محمد علي بلعبة مثيرة حيث أن رجاله فرضوا ضريبة (فردة) جديدة و«نسب فعلها للبرديسي فثارت العامة». وعند ذلك «تبرأ محمد علي والعسكر من ذلك وساعدوهم في رفعها عنهم، فمالت قلوبهم إليه ونسوا قبائحهم وابتهلوا إلى الله في إزالة الأمراء»[٢].

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٤٣٧.

(٢) المصدر السابق ٢: ٤٤٤.

وهكذا، بعد أن رتب محمد علي كل هذه الحركات، جاء اليوم الذي قرّر فيه التخلص من البرديسي والانفراد بالزعامة. ففي ٢٨ ذي القعدة ١٢١٨هـ/ ١٠ آذار ١٨٠٤م اجتمع «الأرنؤدية» في الأزبكية، التي كانت المركز الآخر لتجمعهم في القاهرة، حيث أرسلوا من هناك قواتهم لحصار البرديسي وإبراهيم بك في مقرهما. وبعد استسلام وانسحاب البرديسي مع من بقي من رجاله استسلم وانسحب أيضًا إبراهيم بك، وكذلك «الذين بالقلعة من الأمراء» بعد أن أخذوا «يضربون بالمدافع والقنابر على بيوت الأرنؤد بالأزبكية» إلى أن «تحققوا خروج إبراهيم بك والبرديسي ومن أمكنه الهرب». وبهذا تمكن محمد علي وجماعته من الصعود إلى القلعة وتسلمها «من غير مانع»[١].

وقد تزامن ذلك مع قدوم الوالي الجديد المعين من إستنبول (أحمد باشا) وقدوم قوات جديدة من الدلاتية[٢] من برّ الشام الذين أنزلوا في القاهرة القديمة وأخذوا بترويع السكان هناك[٣]، مما أفسح المجال لمحمد علي للتحرك من جديد لإزالة أحمد باشا من طريقه كما يذكر الجبرتي[٤]. وهكذا حضر في أول صفر ١٢٢٠هـ/ أول أيار ١٨٠٥م حشد من سكان القاهرة القديمة إلى الجامع الأزهر «يشكلون ويستغيثون من أفعال الدلاتية» مما دفع المشايخ إلى الصعود إلى القلعة ومطالبة الوالي بالتدخل. ولما عجز أحمد باشا عن السيطرة على هؤلاء الدلاتية اجتمع المشايخ صباح يوم الخميس بالأزهر وتركوا التدريس فيه. وقد استمر هذا «الإضراب» عن التدريس إلى يوم الجمعة ١٠ صفر ١٢٢٠هـ/١٠ أيار ١٨٠٥م و«غالب الأسواق والدكاكين مقفلة». وقد تصادف في ذلك الوقت وصول فرمان من السلطان

---

(١) المصدر السابق ٢: ٤٤٥.
(٢) الدلالاتية.
(٣) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٤١.
(٤) المصدر السابق ٣: ٤١.

بتعيين محمد علي واليًا على جدة، ولكنه امتنع عن الصعود إلى القلعة لقبول الخلعة مما أرغم أحمد باشا إلى الهبوط إلى المدينة، حيث حوصر هناك من العسكر الناقمين عليه. وفي هذا الوضع اجتمع العلماء صباح الاثنين ١٣ صفر ١٢٢٠هـ/ ١٣ أيار ١٨٠٥م في بيت القاضي، و«كذلك اجتمع الكثير من العامة» هناك وركب الجميع إلى بيت محمد علي بالأزبكية وقالوا له «إنا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا ولا بد من عزله»، ولما سألهم عمن يريدونه أجابوه «لا نرضى إلا بك وتكون واليًا علينا بشروطنا»، فامتنع أولًا ثم رضي[١].

ويكشف الجبرتي هنا عن أمر مهم ألا وهو الانقسام بين زعماء «الأرنؤد» حول هذا التطور المفاجئ، إذ أن بعضهم أيد محمد علي بينما انحاز بعضهم إلى الوالي «المخلوع» من قبل العلماء. وهكذا يذكر الجبرتي أنه «طلع عمر بك الأرنؤدي الساكن ببولاق عند الباشا بالقلعة» وكذلك صالح آغا قوش، وهما من أهم زعماء «الأرنؤد» في تلك الفترة، وذلك لتأييده في موقفه. ويضيف الجبرتي أن «محمد علي والمشايخ كتبوا مراسلة إلى عمر وصالح آغا قوش المعضدين لأحمد باشا المخلوع ويذكران لهما ما اجتمع عليه رأي الجمهور من عزل الباشا، ولا ينبغي مخالفتهم وعنادهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم». ولكن عمر آغا وصالح آغا طلبا «سندًا شرعيًا في ذلك»، مما جعل المشايخ يجتمعون في يوم الخميس ١٦ صفر ١٢٢٠هـ/ ١٦ أيار ١٨٠٥م ويكتبون فتوى حول ذلك. ومع أنه نتيجة لذلك كما يضيف الجبرتي «نزل كثير عن إقناع الباشا وانحل عنه طائفة الينكجرية» إلا أنه «لم يبق مع إلا طوائف الأرنؤد المغرضون لصالح آغا قوش وعمر آغا»[٢].

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٤٣.

(٢) المصدر السابق ٣: ٤٤.

ويبدو أن المشايخ قد وسطوا أخوة طاهر باشا، الذين بقوا بعد قتله في القاهرة وأصبحوا من زعماء «الأرنؤد»[١]، حيث ذهبوا أولًا عند حسن بك. وفي يوم الجمعة ٢٤ صفر ١٢٢٠هـ/ ٢٤ أيار ١٨٠٥م طلع أخوه عابدي بك إلى القلعة وأنزل من هناك عمر بك وأزال المتاريس.

وفي اليوم التالي ركب الشيخ عمر وكرم في قلة من الناس وذهب إلى بيت حسن بك، حيث كان هناك عمر بك بعد نزوله من القلعة. وينفرد الجبرتي هنا بنقل نقاش مثير بين العمرين (عمر مكرم وعمر آغا) حول شرعية ما حدث. فقد استنكر عمر آغا ما حدث سائلًا عمر مكرم «كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، فرد عليه عمر مكرم: أولوا الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة»[٢].

وقد حسم الأمر أخيرًا في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ١٢٢٠هـ/ ١٠ حزيران ١٨٠٥م مع وصول رسول السلطان العثماني الذي كان يحمل الفرمان بتثبيت محمد علي في الولاية. ويصف لنا الجبرتي الموكب الكبير الذي خرج في ذلك

---

(١) يبدو أن أخوة طاهر باشا المقتول (حسن بك وعابدين بك) كانت لهم مكانة مهمة بين زعماء «الأرنؤد» وكان محمد علي يحسب حسابهم. فالجبرتي يكشف لنا أنه بعد التخلص من الوالي علي باشا الطرابلسي صعد محمد علي إلى القلعة وأخلى سبيل الوالي السابق محمد باشا المحبوس هناك في أواخر ذي القعدة ١٢١٨هـ، حيث شاعت إشاعة تقول بتولي محمد باشا لمصر حتى أن المشايخ ركبوا مع المحروقي إلى بيت محمد علي ليباركوا الولاية لمحمد باشا. ولكن في مطلع ذي الحجة ١٢١٨هـ/ جرى تسفير محمد باشا بعد هذه «الولاية الكذابة» التي استمرت ليلة ويومًا. ويوضح هنا الجبرتي أن السبب في ذلك كما قيل أخوة طاهر باشا، الذين كانوا ينفرون منه بسبب قتل أخيهم. ولذلك حين «رأى محمد علي نفرتهم وانقباضهم من ذلك وعلم أنه لا يستقيم حاله معهم وربما تولد بذلك شر، عجل بسفره وذهابه». (الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٤٤٧).

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٤٥-٤٦.

اليوم ، والذي تقدمه «كتخدا محمد علي وأكابر الأرنؤد وطائفة من العسكر كبيرة والوجاقلية وكثير من الفقهاء العاملين رؤوس العصب ، وأهالي بولاق ومصر القديمة» إلى بيت محمد علي بالأزبكية ، وبعد أن «حضر المشايخ والأعيان» قرأ هناك الفرمان بتثبيت محمد علي واليًا على مصر «حيث رضى بذلك العلماء والرعية»[1] .

٤ ـ الحضور الألباني في مصر بعد وصول محمد علي إلى الحكم

على الرغم من الانقسام الذي حصل بين زعماء «الأرنؤد» في صفر ١٢٢٠هـ/ أيار ١٨٠٥م حول الموقف من الوالي الجديد أحمد باشا ، حيث انحاز محمد علي وبعض زعماء «الأرنؤد» إلى صف علماء الأزهر الذين طالبوا وأفتوا بعزله ، بينما وقف بعض زعماء «الأرنؤد» مثل عمر بك وصالح آغا مع الوالي المعزول ، إلا أن الظروف التي واكبت تولي محمد علي للحكم أدت إلى تعاضد الجميع في وجه الخطرين الذين كانا يهددان الحكم الجديد : المماليك من الجنوب والإنجليز من الشمال[2] . ولكن هذا التعاضد بين زعماء «الأرنؤد» سرعان ما انهار بعد انحسار الخطر المشترك المملوكي/ الإنجليزي ، وعاد الانقسام القديم على أشده وصولًا إلى ما عرف بـ «نزاع» رمضان ١٢٢٢هـ/ تشرين الثاني ١٨٠٥م الذي خلده التراث الشعبي الألباني في عدة قصائد ، وكما في بقية الأمور فإن الجبرتي يمثل هنا مصدرًا مهمًا لمعرفة أسباب وتطورات ونتائج النزاع بين زعماء «الأرنؤد» .

ويكشف الجبرتي هنا عن أن بداية هذا «النزاع» تعود إلى يوم الاثنين ٢٣ شعبان ١٢٢٠هـ/ ١٦ تشرين الثاني ١٨٠٥م عندما «اجتمع عسكر الأرنؤد والترك على بيت محمد علي وطلبوا علائفهم فوعدهم بالدفع ، فقالوا لا نصبر وضربوا بنادق

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٥١.

(٢) المصدر السابق ٣: ٦٠، ٦٧، ٧١، ٨٠-٨١، ٨٤-٨٥. ١٢٩، ١٣٣ إلخ.

كثيرة ... ثم انصرفوا وتفرقوا وارتجت البلدة» . وفي اليوم التالي (الأربعاء) بقي «الحال على ما هو من الاضطراب» ولذلك فقد انتقل محمد علي من داره بالأزبكية إلى القلعة لشعوره بالخطر على حياته . ومع اكتشاف العسكر لذلك ساد الهرج يوم الخميس واستمر عليه حتى يوم الجمعة ، حيث جرت تداخلات جديدة بين القوى العسكرية المختلفة الموجودة في القاهرة (الأرنؤد والأتراك والدلاتية) . وهكذا يوضح الجبرتي المتابع للحوادث كيف انتهى إليه الأمر آنذاك : «الأرنؤد فرقتان : فرقة تميل إلى الأتراك وفرقة تميل إلى جنسها ، والدلاة تميل إلى الأتراك وتكره الأرنؤد»[1] .

ومع هذا الانقسام الجديد بين زعماء «الأرنؤد» تطور الأمر فجأة في يوم الخميس ١٨ رمضان ١٢٢٢هـ/ ١٩ تشرين الثاني ١٨٠٥م عندما «قصد محمد علي نفي رجب آغا الأرنؤدي وأرسل إليه يأمره بالخروج والسفر بعد أن قطع خرجه وأعطاه علوفته» ، حيث كان من الزعماء الذين حرضوا العسكر عليه في نهاية شعبان ١٢٢٢هـ/ تشرين الثاني ١٨٠٥م . ولكن رجب آغا رفض السفر بحجة وجود حساب قديم له مع محمد علي . إلا أن الجبرتي يفسر هذا الرفض للسفر بأمر آخر ألا وهو أن رجب آغا وأمثاله كان « لا يهون لهم مفارقة مصر التي صاروا فيها أمراء وأكابر بعد أن كانوا يتخبطون في بلادهم ويتكسبون بالصنائع الدنيئة»[2] .

ومع استمرار هذا «العناد» كما يسميه الجبرتي ، والذي يشتهر به «الأرنؤد» ، قام رجب آغا بـ«جمع جيشه إليه من الأرنؤد بناحية سكنه» في بيت اللوق ، مما دفع محمد علي إلى إرسال قوة من «الأرنؤد» من باب الخرق كما وحضرت قوة من الأتراك من جهة المدابغ وأقيمت المتاريس بين الطرفين مما روّع السكان هناك ،

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ١٥٥.

(٢) المصدر السابق ٣: ١٥٧.

حيث شاهد الجبرتي بأم عينه ما حصل للبيوت المجاورة[١]. وقد تدخل في هذا «النزاع» ليلة الأحد / الاثنين ١٢ رمضان ١٢٢٢هـ/ ١٣ تشرين الثاني ١٨٠٥م «عمر بك كبير الأرنؤد الساكن ببولاق وصالح قوج»، اللذان كانا قد وقفا ضد تولية محمد علي وأيدا أحمد باشا «المخلوع» فأخذا رجب آغا إلى بولاق «وبطل الحرب بينهم ورفعوا المتاريس في حينها وانكشفت الواقعة عن نهب البيوت ... ومات فيما بينهم أنفار قليلة وكذلك مات أناس وانجرح أناس من أهل البلد»[٢]. ومع ذلك فقد أصر محمد علي على سفر رجب آغا من مصر، وهو ما تحقق في ٢٥ رمضان ١٢٢٢هـ/ ٢٦ تشرين الثاني ١٨٠٥م، ولكن الجبرتي يوضح أنه قد «تخلف عنه كثير من عساكره وأتباعه» من «الأرنؤد» الذين بقوا في القاهرة[٣].

ولكن الموقف بين هؤلاء (محمد علي وعمر بك وصالح آغا) سرعان ما تعقد مرة أخرى في ذي الحجة ١٢٢٢هـ/ ٣٠ كانون لثاني ١٨٠٨م بسبب ياسين بك. وكان محمد علي قد أنعم على ياسين بك عند قدومه إلى القاهرة ودفع إليه كل ما طلب لكي «يسافر مع أتباعه إلى الإسكندرية لمحاربة الإنكليز»، وحتى أنه «قلد أباه كشوفية الشرقية» في ربيع الأول ١٢٢٢هـ/ أيار ١٨٠٧م. ولكن ياسين بك جمع بحجة القتال ضد الإنكليز كل «عاهر وأزعر ومخالف وعاق ... وتطلعت نفسه للرياسة وداخله الغرور، وانتشرت أوباشه يعبثون في الضواحي». وبهذا أصبح الخطر يتهدد القاهرة نفسها، مما أرغم محمد علي في ١٩ ربيع الأول ١٢٢٢هـ/ ٢٧ أيار ١٨٠٧م على «أمر عساكره الأرنؤد بالاجتماع إليه والخروج إلى ناحية بولاق ... وأحالوا بينه وبين بولاق ومصر»[٤]. وبعد توسط الزعماء

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ١٥٧.
(٢) المصدر السابق ٣: ١٥٨.
(٣) المصدر السابق ٣: ١٥٧.
(٤) المصدر السابق ٣: ١٤١.

للصلح بينها تكرر الموقف نفسه عندما أرسل محمد علي ياسين بك لقتال المماليك في الصعيد في ذي الحجة ١٢٢٢هـ/ شباط ١٨٠٨م، ولكنه انهزم وولى هاربًا إلى المنية مما أثار عليه غضب محمد علي. ولذلك عندما حضر بطلب من محمد علي إلى القلعة أراد أن يقتله فـ «تعصب له عمر بك الأرنؤدي وصالح قوج وغيرهما». وبعد عدة أيام (الجمعة ٢٢ ذي الحجة ١٢٢٢هـ/ ٢٠ شباط ١٨٠٨م) «تكلم عمر بك وصالح آغا مع الباشا في أمره وأن يقيم في مصر»، ولكن محمد علي أصر على قتله ووافق أخيرًا على سفره على قبرص»[1].

ويبدو أن ما حصل قد ترك أثره على العلاقة المتوترة في الأصل بين محمد علي وعمر بك وصالح آغا، حتى جاءت الفرصة المناسبة لكي يحسم محمد علي أمره ويتخلص منهما. ففي صفر ١٢٢٤هـ/ آذار ١٨٠٩م كان قبودان بولاق يقوم بتجهيز حملة ضد المماليك في الصعيد وأراد أخذ مركب يخصّ «شخصًا من الأرنؤد الذين يتسببون في بيع الغلال عند قرية تسمى سهرجت فحجره ليأخذ منه السفينة»، ولكن «الأرنؤدي» رفض وقتل القبودان عندما سلّ عليه سيفه. وقد هرب هذا «الأرنؤدي» إلى بولاق والتجأ هناك عند عمر بك الأرنؤدي. وقد امتعض محمد علي من ذلك وطلب من عمر بك «الأرنؤدي القاتل للقبودان»، وشدّد في طلبه حتى أنه هدد عمر بك بإحراق داره إذا لم يسلمه. وقد أثار هذا التهديد عمر بك، مع ما في نفسه من رواسب، فامتنع عن تسليمه و«جمع إليه طائفة الأرنؤد وصالح آغا قوج جاره» استعدادًا للمواجهة. وقد توجه محمد علي نفسه على رأس قوة إلى بولاق في يوم الخميس: ١٣ صفر ١٢٢٤هـ/ ٣٠ آذار ١٨٠٩م حيث «حصل قلقة وانزعاج» كما يشهد الجبرتي. وبعد يومين من التوتر لجأ «الأرنؤدي القاتل» إلى «كبير من كبار الأرنؤد» (دون أن يسميه الجبرتي) فهدد

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ١٦٢.

محمد علي بقتله إذا لم يرسل له رأس «الأرنؤدي القاتل» ، وهو ما حصل في يوم الخميس ١٥ صفر ١٢٢٤هـ/ ١ نيسان ١٨٠٩م وقد انتهز محمد علي هذه الفرصة و«أمر عمر بك الأرنؤدي بالسفر من مصر وقطع خرجه ورواتبه فلم يسعه المخالفة» في أواخر صفر ١٢٢٤هـ/ ١٥ نيسان ١٨٠٩م[1] . ويخبرنا الجبرتي أخيرًا أنه في يوم السبت ٣ جمادى الأولى ١٢٢٤هـ/ ١٦ حزيران ١٨٠٩م «نزل عمر بك الأرنؤدي إلى المراكب من بيته في بولاق وسافر عن طريق دمياط ليذهب إلى بلاده ، وسافر معه نحو المائة وهم الذين جمعوا الأموال» . ولا يفوت الجبرتي هنا الملاحظة بأنه «اجتمع لعمر بك المذكور من المال والمنوال أشياء كثيرة عبّاها في صناديق كثيرة وأخذها معه ، وذلك خلاف ما أرسله إلى بلاده في دفعات قبل تاريخه»[2] .

وأما فيما يتعلق بصالح قوج فقد كان محمد علي قد قرّر في رجب ١٢٢٤هـ/ آب ١٨٠٩م إرسال قواته إلى الصعيد لمحاربة أمراء المماليك ، وحرص على إرسال زعماء «الأرنؤد» على رأس هذه القوات مثل صالح قوج وأحمد بونابرته وحسن باشا وعابدين بك (أخوة طاهر باشا) وغيرهم . وفي جمادى الأولى ١٢٢٥هـ/ حزيران ١٨١٠م «وصلت الأخبار بأن حسن باشا وصالح قوج وعابدين بك وعساكر الأرنؤد وصلوا إلى ناحية حول والبرنبل فوجدوا المصريين جعلوا متاريس ومدافع على البحر فحاربوهم حتى أجلوهم عنها» . ولكن أمراء المماليك عادوا و«دهموا الأرنؤود من كل ناحية فوقع بهم مقتلة عظيمة وأخذوا منهم عدة بالحياة»[3] . ومع ذلك فقد أخذت «حسن باشا وصالح قوج وعابدين بك ومن معهم» البادرة مرة أخرى وصعدوا جنوبًا و«ملكوا

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ١٨٠.
(٢) المصدر السابق ٣: ١٨٣.
(٣) المصدر السابق ٣: ٢١٠.

البنادر حتى جرجا»[١]. ويبدو أنه بسبب ذلك أمر محمد علي بتعيين صالح قوج حاكمًا على أسيوط في نهاية ١٢٢٥هـ/ كانون الأول ١٨١٠م[٢].

وفي ذلك الوقت كان محمد علي لا يزال يحتاج إلى زعماء «الأرنؤد» حتى يتخلص تمامًا من أمراء المماليك، وهو ما نفذه فيما سمي بـ «مجزرة القلعة» في يوم الجمعة ٦ صفر ١٢٢٦هـ/ ٢ آذار ١٨١١م. ويكشف الجبرتي هنا أن محمد علي قد أسرّ بما يريده لثلاثة فقط من زعماء «الأرنؤد» (حسن باشا وصالح قوج والكتخدا) بينما أبلغ الرابع (إبراهيم آغا آغات الباب) بذلك في صباح ذلك اليوم. ويضيف الجبرتي أنه عندما اكتمل دخول موكب المماليك إلى القلعة «أمر صالح قوج بغلق الباب وعرّف طائفته بالمراد فالتفوا ضاربين بالمصرية»[٣].

وبعد أن قتل أمراء المماليك في القلعة «أصبح يوم السبت والنهب والقتل والقبض على المتوارين والمتخفين من المماليك في أحياء القاهرة». و«أكثر من كان يقبض عليهم عساكر حسن باشا الأرنؤدي فيكبسون عليهم في الدور أو الأماكن التي تواروا فيها واستدلوا عليهم فيقبضون على من يقبضون عليه وينهبون من الأماكن ما يمكنهم حمله»[٤]. وبعد هذه «المجزرة» أصبح في وسع محمد علي أن يرسل خيرة قواته إلى الحجاز لمواجهة الدولة السعودية الناشئة هناك بناء على أمر السلطان العثماني. وقد استعرض محمد علي في يوم الأحد ٦ ربيع الأول ١٢٢٦هـ/ ٣١ آذار ١٨١١م موكب الجيش الذاهب إلى الحجاز بقيادة ابنه طوسون باشا. وقد وصف الجبرتي هذا الموكب الذي تصدّره «عشرة مدافع كبار... وخلفهم طوائف العسكر الرجالة أرنؤد وأتراك وسجمان وهم كثيرون

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٢١٣.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٢٣.

(٣) المصدر السابق ٣: ٢٢٤.

(٤) المصدر السابق ٣: ٢٢٧.

ثم كبارهم ركبانًا بطوائفهم»[١] .

وبعد ذهاب هذا الجيش الكبير إلى الحجاز ، الذي سحب معه الكثير من «الأرنؤد» وكبارهم ، شعر محمد علي بالأمان فذهب إلى الإسكندرية في منتصف ربيع الأول ١٢٢٦هـ/ ٩ نيسان ١٨١١م ، حيث «اجتهد ببناء أسوار إسكندرية وجدد بها أبراجًا وحصونًا» ، إلى أن عاد إلى القاهرة في آخر الشهر . ويخبرنا الجبرتي هنا عن أمر مهم تزامن مع وصول محمد علي ، حيث «وصلت عساكر كثيرة من الأرنؤد والأتراك حتى غصّت بهم المدينة فلا يكاد المار يقع بصره إلا عليهم أمام وخلف وبداخل الأزقة والعطف ، وذلك خلاف الذين أقرهم وأبقاهم (محمد علي) في الإسكندرية ومن هو بالجهات والأقاليم القبلية والبحرية»[٢] .

ومن ناحية أخرى فقد وردت آنذاك الأخبار من الجيش المرسل إلى الحجاز ، وبالتحديد عن هزيمته أمام القوات السعودية في الصفراء التي حدثت في ١٧ ذي القعدة ١٢٢٦هـ/٣ كانون الاول ١٨١١م . ويكشف لنا الجبرتي عن الفوضى التي حلّت بالجيش إثر ذلك خلال انسحابه إلى ميناء ينبع . وفي هذا الإطار يبرز لنا الجبرتي كيف أن صالح قوج «كرّ راجعًا إلى القصيد واستقل برأيه لأنه يرى في نفسه العظمة وأنه الأحق بالرئاسة ويسفه رأي المحروقي وطوسون باشا ويقول : هؤلاء الصغار كيف يصلحون لتدبير الحروب» . ويضيف الجبرتي أن كل ذلك وصل إلى محمد علي في القاهرة فـ «حقده في نفسه ، وتمم ذلك بسرعة رجوعه إلى القصير ولم ينتظر إذنًا في الرجوع أو المكث»[٣] .

وفي الواقع لم يكن الأمر يتعلق بصالح قوج فقط بل بثلاثة آخرين من زعماء الأرنؤد (محو بك وسليمان آغا وخليل آغا) الذين كان محمد علي يعتبرهم من

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٢٣١.
(٢) المصدر السابق ٣: ٢٣٣.
(٣) المصدر السابق ٣: ٢٣٧-٢٣٨.

أسباب الهزيمة التي لحقت بقواته في الحجاز. ومن هنا فقد شكّل وصول هؤلاء الزعماء إلى القاهرة في آخر جمادى الثانية ١٢٢٧هـ/ ٩ تموز ١٨١٢م فرصة للمواجهة الأخيرة بين محمد علي وزعماء «الأرنؤد» الذين كانوا يعتبرون أنفسهم من الأنداد له. وهكذا يخبرنا الجبرتي كيف أن هؤلاء طلعوا إلى القلعة في ٣ رجب ١٢٢٧هـ/ ١٣ تموز ١٨١٢م للسلام على محمد علي الذين كان منزعجًا لأنه طلب قدومهم «مجردين دون عساكرهم ليتشاور معهم فحضروا بجملة عساكرهم». في تحد واضح له، خاصة وأنه «ثبت عنده أنهم هم الذين كانوا سببًا للهزيمة». ويوضح الجبرتي أنهم بقوا على هذه الحالة حوالي عشرين يوما و«أمرهم في ارتجاج واضطراب وعساكرهم مجتمعة حولهم»، إلى أن قرّر محمد علي «قطع خرجهم وعلائفهم» وطلب منهم مغادرة مصر[1].

ويكشف الجبرتي هنا عما حلّ بهم إثر هذا القرار الحاسم. فقد «شرعوا في بيع بيوتهم وتعلقاتهم، وضاق ذرعهم وندر طبعهم إلى الغاية، وعسر عليهم مفارقة أرض مصر وما صاروا فيه من التنعم والرفاهية والسيادة والإمارة والتصرف في الأحكام والمساكن العظيمة والزوجات والسراري والخدم والعبيد والجواري»[2]. ويذكر الجبرتي بهذه المناسبة كيف أن محمد علي كان حريصًا على أن يسافر صالح قوج بأقصى سرعة خشية أن يثير بقية زعماء «الأرنؤد» ضده، وهو ما ثبت بعد ذلك. ولم يتوان محمد علي، كما يكشف الجبرتي، عن دفع كل ما طلبه صالح قوج «حتى أنه أنشأ مسجدًا بساحل بولاق بجوار داره وبنى له منارة ظريفة واشترى له عقارًا وأمكنه وقفها على مصالح ذلك المسكن فدفع له الباشا جميع ما صرف عليه»[3]. وفي هذا الحال لم يفت الجبرتي كيف أن محمد علي بالغ في

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٢٤٧.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٤٧.

(٣) المصدر السابق ٣: ٢٤٩.

العطاء لبقية زعماء «الأرنؤد» كحسن باشا وعابدين بك (أخوة طاهر باشا) لكي ينفكوا عن صالح قوج وجماعته «حتى مالوا عنه وفارقهم الكثير من عسكرهم وانضموا إلى أجناسهم المقيمين عند حسن باشا وأخيه»[1] . وبعد كل هذا التمهل ، الذي كان له سببه كما سنرى ، جاء يوم الخميس ١٩ شعبان ١٢٢٧هـ/ ٢٨ آب ١٨١٢م ليشهد سفر صالح قوج حيث «صحبه نحو المائتين ممن اختارهم من عساكره الأرنؤدية وتفرق عنه الباقون وانضموا إلى حسن باشا وأخيه عابدين بك وغيرهما»[2] .

ويبدو أن تصرف أو تحمل محمد علي كان له ما يبرره ، إذ أن تخلصه من صالح قوج ساعده على التخلص من آخر زعيمين معارضين له من «الأرنؤد» الذين كان يحسب لهم حسابهم ، فمع انتشار خبر قطع محمد علي لـ «خرج» المذكورين (صالح قوج ومحو بك وسليمان آغا وخليل آغا) وأمرهم بالسفر من مصر أرسل إليه أحمد بك ، وهو من «عظماء الأرنؤد وأركانهم» كما يصفه الجبرتي ، إلى محمد علي يطلب منه أيضًا «قطع خرجه» لكي يسافر مع أخوانه ولكن محمد علي ردّ عليه بلطف نظرًا لما كانت له من مكانة ، إلا أنه انتهز فرصة مرضه فـ «أرسل حكيمه فسقاه شربة وفصده فمات من ليلته» . كما يكشف الجبرتي . ومن هنا فقد كانت جنازته في آخر رجب ١٢٢٧هـ/ ٧ آب ١٨١٢م تعبّر عن مكانته ، حيث «خرج أمامه صالح آغا وسليمان آغا وهم راكبون أمامه ، وطوائف الأرنؤد عدد كبير مشاة حوله»[3] .

أما الزعيم الآخر المهم الذي تخلص منه محمد علي بهذه المناسبة فقد كان أحمد آغا .وكان أحمد آغا كما يصفه الجبرتي «عظيمًا فيهم ومن الرؤساء

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٤٨.

(٣) المصدر السابق ٣: ٢٤٧.

المعدودين، صاحب همة وشهامة وإقدام، جسورًا في الحروب والخطوب، وهو الذي مهد البلاد القبلية وأخلاها من الأجناد المصرية». وفي ذلك الوقت كان احمد آغا «حاكم قنا ونواحيها»، عندما مرّ به في طريق العودة صالح قوج وجماعته، الذين أخبروه عن مخاوفهم من انقلاب محمد علي عليهم. ولذلك فقد اتفقوا على أنه إذا تحقق ذلك يكتبون له فـ «يأتيهم على الفور بعسكره وجنده وينضم إليه الكثير من المقيمين بمصر (القاهرة) من طوائف الأرنؤد كعابدين بك وحسن باشا بعساكرهم لاتحاد الجنسية»[1]. ولما قطع محمد علي «خرج» المذكورين وأمرهم بالسفر أخبروا أحمد آغا بذلك فكتب إلى محمد علي يظهر انشقاقه ويطلب إليه السفر مع إخوانه. ولكن محمد علي أبقى حامل الكتاب في القلعة إلى أن تأكد من سفر قوج وجماعته فرد على أحمد باشا بالموافقة وطلب منه أن يأتي وحده إلى القاهرة دون قواته، وهكذا وصل أحمد بك إلى القلعة مع خمسين من رجاله فقط ليلة ٢٧ رمضان ١٢٢٧هـ/ ٤ تشرين الاول ١٨١٢م، حيث أنبه محمد علي على ما فعله ثم أمر بقتله وقت السحور[2].

وبهذا يمكن القول أن محمد علي تمكن أخيرًا في ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م من التخلص من كبار زعماء «الأرنؤد» الذين كانوا يتعاملون معه بندية كواحد منهم مع أنه أصبح واليًا على مصر، وبقوا لذلك يشكلون مصدر إزعاج أو تهديد لمشروعه في بناء دولة مركزية حديثة. وبالمقارنة مع هؤلاء فقد حرص محمد علي على أن يبقى إلى جانبه حسن باشا وعابدين بك (أخوة طاهر باشا) بما كان يغدقه عليهما. وفي غضون ذلك كان الجبرتي قد نقل لنا في حوادث ربيع الثاني ١٢٢٤هـ/ أيار ١٨٠٩م خبرًا مهمًا يتعلق بوصول «زوجة الباشا أم أولاده وابنه

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٤٩-٢٥٠.

الصغير واسمه إسماعيل ... وكثير من أقاربهم وأهاليهم ، حضر الجميع من بلدهم قوله إلى إسكندرية» . ويعلق الجبرتي هنا على ذلك بالقول أنه «لما طابت لهم واستوطنوها وسكنوها وتنعموا فيها أرسلوا إلى أهاليهم وأولادهم وأقاربهم بالحضور ، فكانوا في كل وقت يأتون أفواجًا نساءً ورجالًا وأطفالًا»[1] . ولا يخفى هنا أن محمد علي اعتمد على هذه «الموجة الجديدة» في تكوين السلالة الحاكمة الجديدة التي أصبح لها امتدادها العسكري والمدني[2] .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ١٨٧.

(٢) للمزيد حول عائلة/ سلالة محمد علي والنخبة الجديدة التي اعتمد عليها انظر : الأمير عثمان إبراهيم ـ كارولين وعلي كورخان : محمد علي الكبير ـ خصوصيات عائلة ملكية ، ترجمة هدى كشرود ، القاهرة ـ المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٥؛ روبرت هنتر : مصر الخديوية ـ نشأة البيروقراطية الحديثة ، ترجمة بدر الرفاعي ، القاهرة ـ المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٥.

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٤٠٣ - ٤٦١

الشَّوَاشِيدُ وَدَوْرُهُم فِي الْحَزبِ الإِيطَالِيَّةِ - اللِّيبِيَّةِ ١٩١١- ١٩٣٢م

رجب علي عبد المولى أحمد العبد(*)

المقدمــة

الشواشيد : هم الجواسيس والعملاء والخَوَنَة من أبناء الشعب الليبي ، الذين جنَّدَتْهم إيطاليا وقرَّبَتْهم إليها واستغلَّتْهم ضد الحركة الوطنية والمقاومة الليبية ، في أثناء احتلالها وسيطرتها على الأراضي الليبية . فمنذ أن بدأت إيطاليا تمهِّد لاحتلال طرابلس الغرب عام ١٩١١، وهي تحاول البحث عن بعض الزعامات المعادية للدولة العثمانية ، واستمالتها للوقوف بجانبها كي تعمل هذه الزعامات على تهيئة الرأي العام الليبي ، الذي كان يعاني من ظلم الأتراك ، لتقبُّل الوجود الإيطالي فوق أراضيه والانضمام إليه . إضافة إلى ذلك فإن إيطاليا كانت تحاول دائمًا استغلال الخلافات والصراعات القائمة بين الزعامات ومشايخ القبائل في ليبيا ؛ فكانَتْ تحاول دائمًا بثَّ المزيد والمزيد من الفُرْقة لتعميق الانقسامات بينهم، محاوِلَةً استخدام السياسة الاستعمارية الأوربية اللئيمة ، وهي سياسة فَرِّقْ تَسُد ، التي كانت سمة من سمات الاستعمار الأوربي في جميع البلدان التي وقعت تحت سيطرته . فكان لهذا الأسلوب دور كبير في شق صفوف حركة المقاومة الليبية وإضعافها أمام الإيطاليين كي تكون هشة وضعيفة في أثناء الزحف الإيطالي داخل

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة المنيا .

البلاد. وقد استغلت إيطاليا هذه العملية بطرق شتى؛ منها: تقريب بعض الزعامات منها، فضلًا عن إعطائهم المال والسلاح، وتوليتهم مناصب قيادية في البلاد، وتوزيع الأسلحة عليهم لمواجهة معارضيهم في الداخل، لأنها تعرف الكثير عن دواخل البلاد الليبية، خاصة الصراع القبلي في الداخل. فكانت تقوم بإذكاء الصراعات الداخلية: مثل الصراع على السلطة أو السيطرة على الأراضي الزراعية أو أراضي المراعي، فأدّى ذلك إلى فَصْمِ عُرَى الوحدة الوطنية بين الليبيين، مما جعل أسلوب تجنيد هذه العناصر المتصارعة ضد بعضها سهلًا في العمل مع الطليان، واستخدامهم جواسيسَ وأعوانًا لها ضد حركة المقاومة الليبية في أثناء زحفها على البلاد، وأيضًا ضد القبائل التي رفضت الانضواء تحت السيطرة الإيطالية.

كذلك كان للأسلوب الذي اتبعته إيطاليا من اتِّباع سياسة فَرِّقْ تَسُد، وأيضًا إضعاف الروح المعنوية للمجاهدين عن طريق وسطاء بين المتعاونين معها يُرْسَلون إلى معسكرات المجاهدين لبث روح التقاعُس والتخاذل والهزيمة بين صفوفهم، وأيضًا الفقر والجوع وقلة ذات اليد، دورٌ أكبر لانضمام بعض الأهالي والعمل في خدمة الطليان. إضافة إلى ذلك فهناك بعض المدن قامت بمهادنة الطليان، وذلك لمعرفتهم أنهم لا قِبَل لهم بمحاربتهم، وأيضًا لنُدْرة الأسلحة والذخيرة. وكان نظير هذا التعاون مع الطليان ضد أبناء البلاد أنهم كانوا يُعْطُون مَن يتعاون معهم دقيقًا أو شعيرًا أو قطيعًا صغيرًا من الأغنام وناقة، ومنهم مَن كان يُعطَى المناصب الإدارية تحت حماية السلطة الإيطالية له، لمحاربة بني وطنهم والإرشاد عنهم وعن خططهم الحربية.

لكن هل تُلامُ إيطاليا على إيقاد نار الفتنة بين زعماء البلاد؟ إن مصلحتها تفرض عليها ذلك، فكان الواجب على كل إيطالي يجري وراء مصلحة بلاده أن يسلك ذلك الطريق، وأن يضع نصب عينيه المَثَل المعروف فَرِّقْ تَسُد، وفي هذا لا معنى للسلوك الأخلاقي عند الاستعماريين.

وتهدف هذه الدراسة كشف ألاعيب الاستعمار الإيطالي، وفضْح أساليبه لتجنيد أبناء البلاد ومحاولته الدائمة لبث الفُرقة بينهم، لتحقيق مأربه وأطماعه الدنيئة للسيطرة على الأراضي الليبية، كما تهدف هذه الدراسة أيضًا توضيح نضال الشعب الليبي في سبيل مقاومة الاستعمار ورفض الكثير من أبنائه الدخول في العمالة مع الاستعمار، إضافة إلى فضح دور الجواسيس والخونة الذين تعاملوا مع الإيطاليين، ودخلوا في خدمتهم وباعوا وطنهم ودِينهم بحِفْنَة من الدنانير والدراهم والوعود الزائفة بالحصول على المناصب والزعامة على مناطقهم أو قبائلهم أو مساندتهم ضد أعدائهم من القبائل الأخرى، المتصارعة معهم على المراعي أو الأراضي. وقد استلزم هذا الموضوع دراسة مجموعة من القضايا، من بينها الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومنها تخلي تركيا أو أنصار العهد الجديد أنصار تركيا الفتاة وعدم مواجهتهم الاستعمار الإيطالي وتخليهم عن مساندة الشعب الليبي، وانسحاب قادتهم وجنودهم حاملين معهم عتادهم وأسلحتهم معهم، تاركين أبناء الشعب الليبي فريسة سهلة للإيطاليين، فضلًا عن أن إبقاءَهم بعضَ الجنود والقواد يدافعون عن طرابلس الغرب جنبًا إلى جنب مع أبناء ليبيا ضد الإيطاليين كان ذرًا للرماد في العيون، معتمدين في تسليحهم على ما كان يحصلون عليه من الدول المجاورة كمصر وتونس، أو كانوا يتحصلون عليه من الجنود الإيطاليين الذين كانوا يقعون في الأسْر في أثناء المعارك الحربية، إضافة إلى اعتمادهم على ما كانت تُخرِجه الأرض من محاصيل زراعية وثمار، وما كان يأتيهم عن طريق المساعدات الخارجية من الدُّوَل العربية والإسلامية التي كانت تساندهم وتساعدهم، واعتمادهم الأكبر على ما كان يأتي إليهم من مصر وتونس عبر الحدود بين البلدين.

أسلوب إيطاليا في تجنيد العملاء

إن ما أصاب ليبيا من سوء الإدارة والإهمال لهو أكثر مما أصاب أيَّة ولاية من الولايات التابعة للإمبراطورية العثمانية . ولم يفعل السلاطين العثمانيون خلال فترة السبعة والسبعين عامًا من حُكْمِهم المطلق (١٨٣٥ ـ ١٩١٢م) ـ يُطْلَق عليها فترة الحكم العثماني الثانية لليبيا ـ سوى فرض الضرائب ، بينما فعل الإيطاليون الكثير لكسب الأهالي إلى جانبهم مستغلين سخطهم على السلطات العثمانية ، وعوَّلت بعثاتهم على فقر البلاد والتطور الذى يمكن تحقيقه تحت إشراف سلطة مستنيرة ، ولإشعار الأهالي بالفوائد التي سيجنونها في المستقبل وزَّعوا الرشاوى على مَن لهم تأثير بين الليبيين ، فأسسَتْ إيطاليا مصرف روما وفروعه المحلية الكثيرة التي منحت المزارعين قروضًا بفوائد بسيطة ، كما أقامت متاجر تُباع فيها البضائع بأسعار زهيدة . وبالطبع فإن هذه الأساليب ساعدت الإيطاليين على الحصول على أنصار من بين العناصر الجشعة والمحتاجة من السكان[١] .

على ضوء ذلك بدأت إيطاليا تمهِّد لاحتلال ليبيا بالبحث عن بعض الزعامات واستمالتها واستغلال نفوذها في الدعاية لإيطاليا . كما كان للسياسة العثمانية في ليبيا التي عجزت عن تطوير البلاد وتحقيق نهضة متكافئة فيها ، ما ولَّدَ لدى الليبيين شعورًا بالعداء للسياسة العثمانية ، خاصةً الطبقة البرجوازية التي أخذت تتضرر من بعض الإصلاحات العثمانية ، مثل إدخال التجنيد الإجباري ، وفرض الضرائب على هذه الفئات بعد إلغاء الامتيازات القديمة . كما أدى قيام ثورة الاتحاد والترقي (La Revolution Le Comite et progres) سنة ١٩٠٨م إلى استغناء الاتحاديين

---

[١] ج. ف. أبوت : الحرب المقدسة في طرابلس الغرب ، ترجمة عبد الحفيظ الميار ، القاهرة ـ دار الفرجاني ١٩٩٣، ١٥٣.

عن خدمات كثير من الفئات المرتبطة بالعهد القديم (العهد الحميدي)[١].

وقد فتحت هذه التطورات أمام الاستخبارات الإيطالية الباب للنفاذ داخل هذه الفئات الناقمة، وتجنيد بعضها للعمل لمصلحة إيطاليا ومشاريعها المتنامية في ليبيا التي أخذت تنفذها بشكل جدي عن طريق مصرف روما. وكان من أوائل الذين تم تجنيدهم حسونة القرمانلي[٢] وأبناء عمر المنتصر، وقد أعلن أحمد ضياء المنتصر صراحةً عن الأسباب التي جعلته ينحاز إلى العَدُو، بقوله: (عندما جاء الشبان الأتراك، وبسبب كرههم لأشياع العهد الحميدي فقد هاجموا أسرتنا. فأولا عند الانتخابات لمجلس المبعوثان انتخبت عضوًا عن سنجق الخمس وطرابلس، ولكن لم أُعتمَد من قبل حكومة الشبان الأتراك بحجة أنني لا أعرف اللغة التركية، بينما اعتُمِد آخرون لا يعرفون اللغة التركية إلا قليلًا. وأيضًا أُقِلْت بدون وجه حقٍّ من منصبي كقائمقام لترهونة. ثم قيامهم بتجنيد بعض القتلة لقتل أخي أبي القاسم[٣]، فتم قتله بطريقة بربرية في الشارع بعد أن وعدوا بتقديم الحماية للقاتل...)[٤].

---

(١) JEAN-PIERRE DERRIENNIC: *Le Moyen-Orient Au XX e siècle,* Seconde edition, Paris 1993, p.19.

(٢) كان حسونة باشا ـ سليل الأسرة القرمانلية التي كانت تحكم طرابلس ـ في ذلك الوقت عميدًا لبلدية طرابلس، وكان دوره آنذاك في إطار الأفكار المطروحة حينها باحتمال قيام حكم ذاتي في البلاد، شبيه بوضع (الباي) في تونس. ولم يزد دور الرجل في هذه المرحلة عن دور الوجاهة الموروثة التي لم يُعرَف عنه أنه أساء استعمالها للإضرار بالمواطنين. انظر: مذكرات جيوليتي (الأسرار السياسية والعسكرية لحرب ليبيا ١٩١١ ـ ١٩١٢)، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي، ط ٣، مصراتة ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٨٦، ٥٩.

(٣) تم قتل أبي القاسم المنتصر عام ١٩٠٩ على يد رمضان وحمد الشتيوي، اللذين التجآ مع والدهما بعد ذلك إلى بني وليد وقضوا مدة طويلة هناك عند سعد بن عطية أحد أعيان ورفلة، وخال عبد النبي بلخير أحد قادة الجهاد. انظر محمد المرزوقي: عبد النبي بلخير داهية السياسة وفارس الجهاد، ليبيا، تونس ـ الدار العربية للكتاب ١٩٧٨، ٧٢.

(٤) حبيب وداعة الحسناوي: منشور كانيفا: ملاحظات أولية حول الأبعاد الأيديولوجية للسياسة=

وجاء على لسانه أيضًا قوله : (... لحسن حظنا ، حدث وعرفنا أن إيطاليا قررت احتلال طرابلس ، فانضم أخي سالم وأنا إلى مصرف روما ، وأدنَّا علنًا كل شيء قام به الترك ضدنا وقدَّمنا للإيطاليين تعاونًا في احتلال مدينة طرابلس)[1] .

وكان أمام رجال العمالة الليبيين مهمة إقناع زعماء الجمعية السنوسية بالوقوف إلى جانب الإيطاليين في الحرب ضد الأتراك ، لقاء تعهُّد إيطاليا في حالة نجاحها بإغداق الأوسمة والألقاب عليهم ووضع مبالغ كبيرة من المال تحت تصرفهم . إلا أنه لم يُقَدَّر لذلك كله أن يتحقق[2] .

وعلى ضوء ذلك سارت الجاسوسية الإيطالية في علاقتها بالسنوسيين في اتجاهين ؛ فحاولت من جهة أن تتوصل إلى إقامة علاقات ودية مع زعماء الجمعية عن طريق الرشاوى والوعود بالمناصب والمرتبات العالية ، لقاء الامتناع عن تحريض الشعب على المقاومة تحت راية الجهاد ، ولقاء الوقوف إلى جانب الطليان في حربهم مع الأتراك ، ومن جهة أخرى اتخذت الإجراءات لشل هيبة الجمعية السنوسية في عيون السكان ، ولهذه الغاية كان يُجرَى التشكيك بصلاحية التعاليم الدينية السنوسية . وفي النهاية سيطر الاتجاه الثاني في نشاط العملاء الإيطاليين فوق أراضي الولاية[3] .

=الاستعمارية الإيطالية تجاه العرب الليبيين ، مجلة الشهيد ، العدد الرابع ، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م ، ٥٥.

(١) نفسه ، ٥٦.

(٢) نيكولاي إيلشتين بروشين : تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩، ترجمة وتقديم د.عماد حاتم ، مراجعة د.ميلاد المقرحي ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٨، ١٠٠، ١٠١.

(٣) نيكولاي إيلشتين بروشين : تاريخ ليبيا في العصر الحديث (منتصف القرن السادس عشر ـ مطلع القرن العشرين) ، ترجمة وتقديم الدكتور عماد حاتم ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (سلسلة الدراسات المترجمة) ١٩٩١، ٣٩٠.

كما كان لتوقيع اتفاقية لوزان[١] بين الدولة العثمانية وإيطاليا في ١٨ من أكتوبر ١٩١٢م، دون شك، تأثير سلبي ومباشر على حركة المقاومة في ليبيا. وكان ذلك التأثير في الجبهة الغربية أعمق منه في الجبهة الشرقية، وذلك لاختلاف ظروف انتقال القيادة السياسية والعسكرية من السلطات العثمانية في كلا الجهتين[٢]، فقد حاولت السلطات الإيطالية استغلال ظروف التناقضات

(١) وقَّعت تركيا صلح لوزان عام ١٩١٢ عندما رأت أنها لا تستطيع مواصلة الحرب ضد إيطاليا، نظرًا لبداية الحرب البلقانية، لهذا لجأت إلى عقد الصلح معها. وفي ١٥ من أكتوبر عام ١٩١٢ وقَّعت اتفاقية تمهيدية (سرية)، وفي ١٨ من الشهر نفسه أبرمت اتفاقية السلم النهائية في لوزان، ولم تعترف تركيا شكليًا بالسيادة الإيطالية على ليبيا. ولم تتعهد إلا بسحب قواتها واستدعاء موظفيها من ليبيا.

واستنادًا إلى الاتفاقية الإيطالية التركية السرية التي أُبرِمت في ١٥ من أكتوبر عام ١٩١٢ صممت إيطاليا على استحالة إلغاء القانون الذي أعلن سيادتها على طرابلس الغرب وبرقة. وأعلنت تركيا من جانبها استحالة اعترافها الشكلي بهذه السيادة. وعليه تعهدت تركيا بإصدار فرمان سلطاني يمنح سكان طرابلس الغرب وبرقة (حكمًا ذاتيًا مطلقًا تامًا)، يؤمن لهما الانتقال إلى ظل القوانين الجديدة. بينما تعهدت إيطاليا بإعلان العفو العام وبمنح حرية الدين الإسلامي وبالاحتفاظ بالأوقاف، كذلك بتقبل الممثل التركي وتعيين لجنة بإسهام الوجهاء المحليين لإعداد جهاز مدني وإداري لهاتين المنطقتين. وتعهدت تركيا بعدم إرسال قواتها إلى طرابس الغرب وبرقة.

وفي الواقع لم تُرَاعَ أحكام اتفاقية الصلح التمهيدية التي أبرمت في ١٥ من أكتوبر عام ١٩١٢، التي نصت على إقامة حكم ثنائي إيطالي ـ تركي، من نوع خاص على ليبيا. واعتبرت إيطاليا ليبيا مستعمرة اعتيادية تابعة لها. إلا أن تركيا لم توافق على ذلك. إذ لم تتنازل تنازلًا تامًا عن حقوقها وسيادتها على طرابلس الغرب وبرقة إلا عقب الحرب العالمية الأولى، وذلك وفق اتفاقية صلح لوزان لعام ١٩٢٣. انظر فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني، مراجعة يوري روشين، موسكو ـ دار التقدم ١٩٧١، ٣٧١.

(٢) عندما هاجم الطليان ليبيا عام ١٩١١ أبقوا على وحدتها الإدارية. وهم لم يلجؤوا إلى تجزئتها إلى ولايتَيْ برقة وطرابلس إلا تحت ضغط عوامل عسكرية مؤقتة، وقد اضطروا بعد ذلك إلى إنشاء حكومة موحدة يعتمد سلطانها على وحدة البلاد كلها ويشرف عليها حاكم عام مقره مدينة طرابلس. انظر جميل عارف: صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام، ج ١، القاهرة ـ المكتب المصري الحديث ١٩٧٧، ٢٩٥.

والخلافات بين بعض الزعماء، التي نجمت عن خروج تركيا من البلاد، فتبنّتْ سياسة (فَرِّقْ تَسُدْ) والاعتماد على بعض العناصر البارزة في بعض المناطق في فرْض سيطرتها على البلاد، ثم توظيف بعض العملاء من بين الزعماء من أجل توسيع رقعة الاحتلال والتوغل في المناطق الداخلية(١).

كما عَمِلَت القيادة الإيطالية بزعامة جولييتي على استغلال التناقضات بين زعماء السنوسية ورؤساء القبائل، فحاولت المخابرات الإيطالية أن تبذر بذور الشقاق بينهم، وساعدت بكل الوسائل على إثارة النزاع القبلي؛ فأوحت لشيوخ القبائل، خاصة في بَرْقَة، بأنهم لن يطيقوا مقاومة الغزو الإيطالي، وأن هذه المقاومة لا معنى لها في حد ذاتها، لأن إيطاليا حملت إلى البلاد الطمأنينة والازدهار ورفع مستوى حياة الأهالي. إلا أن جميع محاولات المخابرات والدعاية الإيطالية في إبطال تأثير السنوسيين بين سكان ولاية طرابلس باءت بالفشل(٢).

لقد تفنَّنَت القيادة الإيطالية في تطبيق سياسة (فَرِّقْ تَسُدْ) بين أهالي البلاد، أحيانًا بتوزيع المال والهدايا وتشغيلهم في مناصب محددة، وأحيانًا بتوزيع السلاح على مجموعةٍ ما، وتشجيعها على القيام بعمل ما ضد مجموعة أخرى من الليبيين، وهكذا تضرب واحدًا بآخر إلى أن يُفْني بعضهم بعضًا(٣).

---

(١) عبد الله علي إبراهيم: آثار صلح لوزان على حركة الجهاد، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي (١٩١١ - ١٩٤٣م)، ج ٢، طرابلس - منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨، ١١٤، ١١٥.

(٢) نيكولاي إيلشتين بروشين: تاريخ ليبيا في العصر الحديث (منتصف القرن السادس عشر - مطلع القرن العشرين)، ٣٩١.

(٣) محمد علي التركي: معركة القبلة، طرابلس - منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨، ٢٧٣.

ولقد أشاد غراتسياني بهذه السياسة قائلًا : (لقد تم تطبيق نظرية فرق تسد تطبيقًا تامًا على أحسن الوجوه ، تلك النظرية التي كانت بسبب ظروف المكان والزمان والعمل عظيمة النفع ، لذلك اتبعْناها)[١] .

وقد كان لهذه السياسة نتائج شديدة الخطورة على حركة الجهاد ؛ فقد حاول العدُو أن يبعث المنازعات القبلية ويذكِّي الصراع على السلطة ، ومد مناطق النفوذ بين الزعماء ورؤساء المجاهدين في المناطق المختلفة مستغلًا عملاءه التقليديين ، والعملاء الجدد الذين استطاع تجنيدهم من رجال الصف الثاني الذين كانوا يطمحون إلى الزعامة وتولِّي وظائف المدير والقائمقام ومشايخ القبائل في مناطقهم ، ومنافسة الزعامات التقليدية على هذه الوظائف . وعن طريق هذه السياسة استطاع العدو جذب بعض عناصر التأثير في الحركة إلى جانبه ، والتأثير عليها بالمنح والعطايا والمرتبات ، والدفع بها في اتجاه فَصْم عُرى الوحدة الوطنية ، والدفع ببعض الأفراد ـ سواء عن وعي أو عن غير وعي ـ إلى ارتكاب أعمال استفزازية ضد بعض الزعامات والمناطق ، مما ساعد العدو على شق وحدة المقاومة ، وتجنيد بعض القبائل وتسليحها واستخدامها في حرب قبائل أخرى ، الأمر الذي جعل حركة المقاومة تفقد الكثير من عناصر قوتها خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، والحروب الأهلية التي بدأت تشهدها بعض المحاور الرئيسية في الجبهة الوطنية كمنطقة الجبل الغربي ومحور مصراتة وورفلة ، وعندما حقق العدو أغراضه في هذا المجال أسقط من برنامجه ـ للسيطرة على البلاد ـ سياسة ما كان يُسَمَّى بسياسة الزعماء ، واعتمد سياسة جديدة ظهرت بشكل واضح وجليٍّ في المرحلة الفاشيستية ، ونعني بها التعامل مع القاعدة الشعبية بشكل مباشر بعد أن فشل العملاء من الأعيان في ترويضها وإنهاء المقاومة والتسليم للعدو[٢] .

---

[١] نفسه ، هامش ٢٧٢.

[٢] حبيب وداعة الحسناوي : مرجع سابق ، ٦٠، ٦١.

بعد هزيمة سليمان الباروني عام ١٩١٣ في معركة جندوبة، تمكّن الإيطاليون من تحطيم المراكز الأخرى للمقاومة في طرابلس. وقد ساعدت على ذلك إلى حد ما خيانة عدد من الإقطاعيين من أمثال: عبد الهادي بن قطنش الذي احتل الإيطاليون بمساعدته بني وليد، واستحق بذلك أن ينصّبه الإيطاليون متصرفًا على بني وليد، وعبد النبي بلخير الذي ساعد الإيطاليين على الاتفاق على (روح الصحراء الشرير)، حسبما كانوا يسمُّون سيف النصر. لقد هيأ عبد النبي بلخير لقاء الإيطاليين بسيف النصر[1]. وبنتيجة المفاوضات التي امتدت منذ شهر مارس حتى شهر ديسمبر سنة ١٩١٣م عُيِّنَ الأخير متصرفًا في جفارة[2]، بينما ترقّى عبد النبي بلخير إلى درجة مستشار لقاء خدماته للإيطاليين[3].

وهناك العديد من الأفراد ممن تعاونوا مع القوات الإيطالية، كذلك مع الإدارة الإيطالية من الليبيين، كذلك هناك من خدم في صفوف القوات الإيطالية من

---

(١) يقول الطاهر الزاوي في كتابه جهاد الأبطال: (إن عبد النبي ذهب إلى سيف النصر في هون، مرسلًا من قبل الطليان، وذكر له من عدالة الطليان وحسن نيتهم نحو سيف النصر ما جعله يصدق، وجاء معه إلى بني وليد فوجدوا الطليان احتلوها بواسطة عبد الهادي بن قطنش فنزلوا في شميخ. وقام عبد النبي بدور الوسيط بين الطليان وسيف النصر واجتمعوا بالحاكم الإيطالي في شعبة الكرمة بوادي بني وليد، واتفقوا على أن يكون سيف النصر متصرفًا في الجفرة). لمزيد من التفاصيل انظر محمد المرزوقي: عبد النبي بلخير داهية السياسة وفارس الجهاد، ٦٨ وما بعدها.

(٢) تشير بعض المصادر إلى أن الذي دفع سيف النصر بهذا التوجه المؤقت نحو الإيطاليين هو نقمته على الدولة العثمانية، التي قتلت أباه وعمه منذ عامي ١٨٤١ و ١٨٤٢، أضف إلى ذلك شعوره بالغيرة من الأهمية التي نالتها عائلة المنتصر أحد أهم منافسيه بيبرت، كل ذلك كان من بين أهم العوامل في تحديد هذا الاتجاه وانضمامه للطليان. انظر أحمد عطية مدلل: المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي وتأثيرات الأوضاع الدولية عليها، أغسطس ١٩١٤ ـ أبريل ١٩١٥، مراجعة د.عقيل محمد البربار، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٩، هامش ٥٦، ٥٧.

(٣) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سابق، ١٣٠. وانظر أيضًا محمد المرزوقي: المرجع السابق، ٦٩.

الليبيين أنفسهم[١]، كما كانت هناك حركة جاسوسية بين الإيطاليين والمجاهدين، وذلك لرصد تحركات المجاهدين قبل نشوب المعارك وبعد انتهائها وانسحاب المجاهدين والإيطاليين[٢].

فبينما تخاطر الأغلبية الهائلة من الأهالي في قتال الغزاة، هناك أيضًا مَن كانوا يحاولون تعبئة جيوبهم بالمال بالعمل جواسيسَ للإيطاليين، أو كما يعبِّر عنها العرب بكلمة (بياع) أي مَن باع بلده[٣].

فالجواسيس الذين كانوا يساعدون السلطة العسكرية في فرض حكم الإرهاب هم في أغلب الأحيان يتكوَّنون من نساء ساقطات وأطفال، أو النموذج المشهور لليهود الإفريقيين، وكان يكفي أن يُدلي هؤلاء بتهمة مغرضة ضد شخص ما لتجلِب له الموت، وإذا لم يكن المُخبِر متأكدًا من أقواله تُخَفَّف العقوبة إلى النفي أو السجن[٤].

ومن حين لآخر كان يقبض على أفراد يمارسون هذه التجارة البغيضة، ويقتادون إلى مقر القيادة وأذرعهم مقيَّدة خلف ظهورهم.

وها هو الصحفي والكاتب الإنجليزي (جي. أف. أبوت)، الذي كان مرافقًا لتغطية أحداث الغزو الإيطالي على ليبيا، يذكر: (أنه ذات مساء شاهد خمسة

---

(١) موسوعة روايات الجهاد رقم ٣٥، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٩٦، ٩٧. مقابلة مع المجاهد أحمد عمرو الغشتالي، شريط رقم ٦/ ١٣٩.

(٢) موسوعة رقم ٣٥، شريط رقم ٦/ ١٤٠، مقابلة مع المجاهد أحمد علي الزواوي، ١٢٤.

(٣) جي. أف. أبوت: الجهاد في طرابلس، ترجمة د.عبد القادر المحيشي، مراجعة د.محمد عبد الوهاب سيد أحمد، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٠، ٢٠٣.

(٤) عبد الرحمن عزام: كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية، ترجمه عن الألمانية د.عماد الدين غانم، مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد الأول، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٦، ٥٦.

مقتادين من سواني بنى آدم على أقدامهم بواسطة اثنين من الخيالة، سلَّماهم للسجان، فك وثاق أذرعهم، وأحصاهم بصوت عالٍ: (واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة)، ودفعهم واحدًا إثر آخر عبر الباب الصغير. ولاحقهم المجاهدون في الفناء بالشتائم). وفي مناسبة أخرى أُحضِر جاسوس منفردًا، أَمسك الحارس بأحد أطراف الحبل الذي قُيِّدَتْ به يداه، وقاده أعلى الدروج إلى غرفة القائد. فقام شيخ عربي كان يقف فوق الشرفة بصَفْعه والبصق على وجهه، وعيَّره بكلمة (كلب)، ومن المحتمل أنه كان سيصيبه إصابة خطيرة لولا تدخُّل أحد الجنود في الوقت المناسب[1].

وفي ليلة الرابع عشر من أبريل عام ١٩١٢م كشف الليبيون أمر اثنين من الجواسيس العاملين في خدمة الاستخبارات الإيطالية. وكانا قد كُلِّفا بأن يندسَّا بين القبائل لمحاولة تقديم الهدايا لمشايخها وإقناعهم بالاستمالة لإيطاليا. غير أن البدو ما إن بدأ هذان العميلان في الاتصال بهم حتى أسرعوا بتبليغ السلطات العثمانية المعنية عنهما، وبعدها أسرع الملازم (رمزي بك) القائد التركي إلى المكان الذي أُخبِر أنهما موجودان فيه، حيث قيل له إنهما كانا نائمين في تلك اللحظة في إحدى الخيام، مندسَّيْن بين جماعة البدو، فاتجه إلى هناك، ودخل الخيمة في ظلمة الليل وهم نيام، حيث أطفأ مصباحه وصاح فجأة قائلًا بأعلى صوته: (إنهما هنا)[2].

وفُوجِئ الجاسوسان وتلعثما، ثم ما لبثا أن وشى كلٌّ منهما بصاحبه في الحال. وقد اعترف أولهما بأنه قد قام بقطع الأسلاك التلغرافية وتخريبها بين بنغازي وإجدابيا. وبعد أن ضُرِبا بالعصي ضربًا مبرحًا، اعترف هذا الشخص بأنه قد قَبض

---

(١) جي. أف. أبوت: المرجع السابق، ٢٠٤.

(٢) جورج ريمون: من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا، نقله عن الفرنسية وحققه وقدَّم له محمد عبد الكريم الوافي، ط ٢، القاهرة ـ دار الفرجاني ١٩٨٢، ٢٧٠.

ثمن خيانته ثلاث قطع (نابليون) ذهبية من العملة الفرنسية ، أما الآخر فقد حاول أن ينفي بعد ذلك التهم الموجهة إليه رغم كل الدلائل التي تشير إلى تجسسه . وقد تقرر أن يتم إعدامهما ومعهم جاسوس ثالث متعاون معهم ، سبق أنْ قُبِض عليه من قبل متلبسًا بجريمة التجسُّس ، غير أن المقدم عزيز المصري بك ـ قائد المعسكر ـ كان قد عفى عنه ، إلا أن هذا الجاسوس ظل يواصل خيانته من جديد فكان الحكم عليه بالموت[١] .

وفي الثاني من يونيو عام ١٩١٢م لم يكن نزول الإيطاليين بسوسة مباغتًا للمجاهدين ، بل كان متوقعًا ؛ فقَبْل وصولهم إلى هناك أُنزل أحد مواطني درنة ، الذي كان يعمل جاسوسًا للإيطاليين ، على الساحل ، وكانت مهمته إغراء شيوخ البادية هناك باستقبال السفن الإيطالية والتفاوض مع الإيطاليين ، فإذا ما فعلوا ذلك سيتأكدون من شهامة الإيطاليين وكرمهم قولًا وعملًا . وكالعادة أُلقِيَ القبض على ذلك الجاسوس وتم تسليمه للمدير ، وباستجوابه اتضح أنه متفِقٌ مع الإيطاليين على إشارات محددة يُطمْئِن بها الإيطاليين على سلامة النزول ، فأجبره العرب على تأديتها ، فلما رآها البحارة الإيطاليون نزلوا إلى الساحل فأصلاهم العرب نارًا حامية ، الأمر الذي جعلهم يهرعون إلى قواربهم ركضًا . وردًا على هذا الاستقبال غير الودي من جانب العرب أخذوا يدكون المنطقة الساحلية بأسرها وعلى غير هدى طوال اليوم[٢] .

وفي مقابلة قام بها مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي مع المجاهد جبريل موسى محمد البرعصي ، تحدَّث في بداية حديثه عن عدة أشخاص عملوا مع

---

(١) نفسه ، ٢٧١.

(٢) مذكرات أنور باشا في طرابلس الغرب ، تقديم وترجمة عبد المولى صالح الحرير ، مراجعة حبيب وداعة الحسناوي ، طرابلس ـ منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩م ، ٧٤. وانظر أيضًا : أورخان قول أوغلو : مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا ، ترجمة وجدي كدك ، مراجعة د.عماد حاتم ، طرابلس ـ منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩، ٧٤، ٧٥.

الطليان جواسيس أمثال[١].

وذكر أن السبب في انضمامهم للطليان كان الفقر والجوع ثم الحرب، لأنهم كانوا لا يملكون حتى السلاح للدفاع عن أنفسهم، وعندما سئل عن مناطق رَحّبت بالطليان ذكر أن أهل العبيدات رحبوا بالطليان لأنهم لا يريدون الحرب لأنها متعبة وشاقة، وعاملهم الطليان معاملة طيبة فتركوا لهم الحرية في الذهاب والإياب، والسماح لهم بالزراعة وترشيح الشيخ المستشار، ومقابل ذلك عمل الكبار منهم مع الحكومة الإيطالية[٢].

وكان ثمن مَن يستسلم للطليان أنهم كانوا يعطونه الدقيق والشعير والأموال، وإن شئت فقل عشر نعجات وناقة، خاصة بالنسبة للمهاجرين، وانصاع للإغراءات كثيرون منهم العمارنة، وكذلك رجل اسمه (محمد بوغاليه)[٣].

---

(١) وهم:

ـ طاهر المهير برعصي، كان ضابطًا مع أحمد الشريف، وانضم للطليان وعمل مع الاستخبارات الإيطالية ووشى بالمجاهدين، وهو السبب في اعتقال عمر المختار.

ـ محفوظ بونصر الله، وهو خزعجه، كان ضابطًا في الدور ثم عمل مع الطليان.

ـ بومرضية، وهو خزعجه، وعمل مع الطليان أيضًا.

ـ السعيطي بويادم، كان من المحافظية (قوات المجاهدين)، ثم عمل مع الطليان وهو من قبيلة اليتامة.

ثم ذكر أن قادة كبارًا جاهدوا ثم أطاعوا الطليان، ثم ردوا وجاهدوا مرة أخرى، ومنهم:

ـ حمد بوخير الله، كان مع الطليان ثم جاء إلى المحافظية، وبقي حتى هاجر.

ـ محمد بوعثمان الأصميع أطلين، عمل عسكريًا مع الطليان، وجاء بحصانه وبندقيته وظل مع المحاربين إلى أن انتهى عمر المختار، وبعد ذلك هاجر.

ـ سعيد بوحويدش، وهو عريفي، عمل مع الطليان ورجع للدور حتى هاجر.

(٢) موسوعة روايات الجهاد الشفوية، مجلد رقم ٢٧، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١، ١٩، ٢٠، مقابلة مع المجاهد جبريل موسى البرعصي، شريط رقم ٣.

(٣) موسوعة روايات الجهاد الشفوية، مجلد رقم ٢٧، شريط رقم ٩/ ١٠، مقابلة مع المجاهد حمد عبد الرازق العقيلي، ٥٥، ٥٦.

وأيضًا كان أهل المدن أول من استسلم للطليان، ومن القبائل هناك الفواخر والمغاربة أيضًا. أمَّا عن الأفراد الذين قاتلوا لصالح العدو فثَمَّة رجل اسمه (بوحلفاية)، كان يطارد المجاهدين ويسلبهم أموالهم وسلاحهم وهو مغربي، كذلك (الكيلاني الضريريط)، وهو كذلك من العملاء الذين أوغلوا في العمالة، وأيضًا أحمد الشارف وخالد القيصة[1]، كذلك شخص يُدْعَى (بوالمهدى)، وهو موظف قديم كان يعمل مع الترك، لكنه ما لبث أن خان الأمانة بعد أن كانت شهرته بين العرب الليبيين أنه لا يتحرك إلا والحرس بجانبه، وله حصان مزيَّن ونياشين مختلفة، وبعد دخوله مع الطليان قال فيه العرب:

بعد السيف والنيشان ظهرت كلب يا بو المهدي[2]

وأيضًا كان أول من انضم للطليان ورحَّب بهم أيضًا قبيلة الجبالة، وبعد ذلك منطقة الزاوية، واختلف الجبالة مع الزنتان بسبب السلطة، كل يريد أن يحكم الآخر. وكانوا يقولون إن الجبالية ستين عيلة نشربوا فى شيشة ولا نحملوش الكون من خريبشه. ووصل الأمر إلى أن قادة الجبالية كوَّنوا عدة باندات (فرق عسكرية) ضد الليبيين لصالح الطليان[3].

وهناك بعض من انضم للطليان بسبب إغراءات الطليان لهم فانقلبوا على المجاهدين، ومنهم خالد القيصة، والشارف الغرياني، والظافر، وكان السبب في رِدَّتهم هو الطمع وحب المال. كما أن القبائل التي انحازت مع الطليان قبائل المغاربة، وبعضهم تجنَّسوا بالجنسية الإيطالية وصاهروا الطليان، وكان يقال إن قبيلة الحاسة فيها أكبر بصاص على المجاهدين لصالح الطليان[4].

---

(١) المصدر نفسه، مجلد ٢٧، شريط رقم ١١، مقابلة مع المجاهد خليفة إبراهيم الفرجاني، ٦٣.

(٢) نفسه، مجلد ٢٧، شريط رقم ١٢، مقابلة مع المجاهد عمر محمد الشيخي، ٦٤، ٦٥.

(٣) نفسه، مجلد ٢٧، مقابلة مع المجاهد أمحمد الصويعي محمد، ٩٩.

(٤) نفسه، مجلد ٢٧، شريط رقم ٢٦، ١٣٧.

ومن خلال التشديد في الأساس على شق صفوف قبيلة المغاربة التي كان يرأسها صالح لطيوش، استخدم الإيطاليون شيخًا سنوسيًا خائنًا يُدْعَى (شريف الغرياني)، الذي تأتَّى له أن يقنع ثلاثة عشر شيخًا من كتلة الشماخ بالخضوع للسلطات الإيطالية(١).

وكان مِن بين المتعاونين (الليبيين المطلينين) ـ على حد تسمية المجاهدين لهم ـ أنماط مختلفة من التعاون مع الإيطاليين، بَدءًا من السلبية والابتعاد عن المشاركة الفعالة في صفوف المقاومة، حتى التعاون الوثيق مع السلطات الإيطالية على هيئة أدلاء ومخبرين وموظفين وإداريين ووغيرهم، وقد دخل كثير من البدو سلك الجيش أو الشرطة الإيطالية من أجل أن يحصلوا على لقمة العيش(٢).

علاوة على أن هناك عددًا كبيرًا من رؤساء القبائل الليبية ورؤساء بعض الجمعيات الإسلامية قَبِل الرشاوى وخانوا الحركة الوطنية وانصرفوا عنها، فإنَّ أسر المجاهدين لم تحتمل مصاعب الحرب الإيطالية، وما نتج عنها من مجاعة، فعادت إلى الواحات التي هجرتها أملًا في الحصول على الحبوب وعلى المساعدة المالية من الإيطاليين. وعندما أَعلن جنرالهم «كانيفا» قائد الجيوش الإيطالية منشورًا في ١٥ من يناير ١٩١٢ شد إليه أنظار بعض المناضلين، وكان مما نص عليه المنشور: «... أمَّا من يسلم نفسه ويحضر ومعه بندقية وذخيرة سينال مكافأة ويعطى ٢٠ فرنكًا وكيسًا من القمح أو الشعير حسب رغبته»، مما كان له أثره في شق صفوف المجاهدين في المقاومة(٣).

---

(١) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سابق، ٢٠٣.

(٢) نفسه، ١٩٩.

(٣) عبد العظيم مهيدي أحمد صميدة: العلاقات المصرية الليبية ١٩٤٥ ـ ١٩٧٣، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة المنيا، ١٩٩٧، ١١. وللمزيد عن منشور كارلو كانيفا انظر: ج. ف. أبوت: الحرب المقدسة في طرابلس الغرب، ٢٥٨، ٢٥٩.

ولإضعاف الروح المعنوية للمجاهدين يَذكر المجاهد أحمد موسى العريبي أن معركة بلال معركة مهمة جدًا ، فقد جاءتنا جماعة من الطليان ، وجاءوا جانبنا ومعهم خالد القيصة وعبد الله أبو حليمة وهما من ، وكانا جاسوسَيْن للطليان ، وقالا لنا : (عليكم تسليم أنفسكم للحكومة ، ونحن ننصحكم ، وإلا تكون مسئوليتكم على أنفسكم ، ونحن بريئان من دمائكم ، والذي يريد منكم أن يهاجر فالطريق مفتوحة أمامه ، وعليكم بتجهيز الضيافة للحكومة) . لكننا قررنا الجهاد وعدم التسليم ، فإما حياة سعيدة وإما استشهاد في سبيل الله ، ووضعنا خطة حكيمة بوضع الخيل في الأماكن المنخفضة ، والمجاهدون بقَوْا على بئر بلال ، وأحكَمْنا الخطة في منطقة القطيفية ، وظنوا منها أننا مستسلمون ودخلنا تحت سيطرتهم ، واستطاع المجاهدون إطلاق النار على الدبابات بمجرد ظهورها ، حتى أنهم أبادوها جميعًا ، وقُتِل قائد الدبابات نفسه وحوالي ٢٠ جنديًا إيطاليًا ، واستُشهِد من المجاهدين المهدي الحرنة وناصر الأعمى وعبد السلام إدريس وصالح الأطيوش قائد المعركة[١] .

وكان هذا الأسلوب من قبل المجاهدين يعتمد في أساسه على مراقبة تحرك العدو من خلال فرق استطلاع ، أسمَوْها حينئذ (الشوافة) أو (البصاصة) ، بغرض إعطاء فرصة للمجاهدين بنصب الكمائن من خلال التخفي بين الصخور والشجيرات ، والتواري عن الأنظار لاقتناصه ، حتى لا تتمكن فرقته أحيانًا من معرفة الجهة التي انطلق منها الرصاص ، فتصاب بالذعر وتضطر لمغادرة المكان ، وكثيرًا يستطيع عدد محدود من المجاهدين إثارة الرعب والفزع في قوة معادية تفوقهم عددًا وعُدَّة ، فتضطر نتيجة للمفاجأة غير المتوقعة إلى ترك أمتعتهم والفرار بجلدهم ، أو التخفي والعُزُوف عن المواجهة إذا كان الوقت ليلًا ، ذلك أن كل جندي يعلم مسبقًا بأن

---

(١) موسوعة روايات الجهاد الشفوية ، مجلد رقم ٢٧، شريط رقم ٢٦، ١٣٥: ١٣٨.

قائده لن يراه تحت جنح الظلام حتى يمكن أن يوجّه إليه لومًا أو عتابًا ، وهو نوع من الحرب طبّقه المجاهدون وأفادوا من تنفيذه ، وتناسب قلةَ عددهم ونقص ذخيرتهم . ومما ساعد في نجاح هذا النوع من الحرب طبيعة البلاد المتميزة بصحرائها الشاسعة وندرة المياه فيها ، بالإضافة إلى جبالها المتنوعة وصخورها المتعددة وما يتخللها من أودية وهضاب وعرة[1] .

في مقابلة مع المجاهد حسين صالح موسى الأوجلي ، عن كيفية حصول الطليان على الأخبار عن الدور وتحركاته فذكر : (أنه كان بواسطة جواسيس من عامَّة الناس يدخلون الأدوار بطريقة مجمع الأخبار عن المجاهدين)[2] .

كما كان هناك أشخاص متعاونون مع العدُو ، الذي استخدمهم جواسيسَ مثل المدعو عبد الكافي ، وأيضًا كان هناك شخص يمدح الطليان لأنه متعاون معهم ، يُدعَى الشاعر (بوشهاوي) ، وكان هذا الشاعر يتباهى بتعاونه مع الطليان مرددًا بعض أبيات الشعر التي تبينُ وضعه ومكانته بين قومه ، فقال :

شيخ أمجنس في كل إقرانات أيونس ... ما هو كيف إلا أمغير إكنس باطل من الدوران ونايخ
شيخ مشايخ برنوس الزقره يثني ... فوق كنادر فرتيسيه

رد عليه أحد الشعراء المجاهدين :

يا أبو شهاوي وحق النور الضاوي ... أن تأكل الندم بعد الهزاوي

وقال مذكِّرًا أبا شهاوي ببعض أيام ماضيه ، فقال له :

أنسيت الجيه والركبة على البغالية ... متقنع تقنيع وليه متصيف من الموت وخايف
شندى لك وحده معبيه ... غير أنت السيئ ورأسك دايخ

---

(١) أحمد عطية مدلل : مرجع سبق ذكره ، ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) موسوعة روايات المجاهدين الشفوية ، مجلد رقم ٢٨ ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١ ، ٤٨ ، لقاء مع المجاهد حسين صالح موسى الأوجلي ، شريط رقم ٣/ ٦٠ .

وبالفعل كان مصير هذا الشاعر الخائن أن قُتِل برصاصة مجهولة[١] .

وقد ذكر المجاهد محمد مفتاح عثمان التريه أن أبا شهاوي هذا ضُبِط ونُقِل إلى الدور ، فرأى القائدُ قجه السوداني ـ قائد من قواد المقاومة ـ إعدامه ، لكن المغاربة عارضوا ذلك وأصروا على أن يتكفل به بولقمة الشبلي ، الذي أحضره إلى النجع وبات ليلة بالدور وظل يسامر مع بولقمة ، وبعدها سرق بندقيته في آخر الليل وذهب إلى شاطئ البحر عند منطقة المرة ، فخاف واختفى هناك بعد أن قَتَل اثنين من رجال الدور ، وخرج مع الشط وذهب للطليان ، وأخبرهم بأنه قَتل اثنين من الدور. فرجعت الحكومة الإيطالية ووجدت الناس المقتولين فتأكدوا من صحة كلامه ، وها هو يردد الشعر على الجماعة :

ماضي كيفك يا بوشنه عايش بمعيشة دونيه   وكالت خبزه بعونه مزقارة بين لشاديه
ناحوش لدراز يجبنه للصبح وهو فيه ضويه   لباس الزقرة[٢] يثنيه فوق كنادر فرنيزيه
والبرطا فوق أحذاي فخوش كاغط بوخمسين وميه   وأخرى زاد أنديرواطنه فوق غزيرنصيه

ماني كيف يا بوشنه عايش في معيشة دونية .

فرد عليه المجاهدون :

أنسيت الجيه والركبة ع البغالية   متقنع وليه مستفر من الموت
جابوك عايل الرسمية والبارود يدير صرايف   يا عين الفراقنة القوية فيك وجه وما لزت تشايخ

ورد عليه المجاهدون مرة أخرى فقالوا :

راهن يجنك مفاويض من الغير ما هنش منك
إلا أنت حذاوي تمزقز كما كلب ميص من ميص راوي[٣]

---

(١) نفسه ، مجلد ٢٨، مقابلة مع المجاهد عيسى سعد طاهر ، شريط رقم ٣/ ٧٣، ٦٤ ـ ٦٥.
(٢) الزقرة أي البرنوصي .
(٣) موسوعة روايات الجهاد ، مجلد رقم ٢٨، مقابلة مع المجاهد محمد مفتاح عثمان التريه ، ٢٢٦.

وعلى ما يبدو فإن (بو شهاوى) هذا كان مشهورًا بين المجاهدين بخيانته وانضمامه للطليان ، فما مِن مجاهدٍ يتحدث عن الخونة إلا يذكره . فها هو المجاهد عمر محمد الشيخي يتذكره عندما تم أسرُه من قِبَل المجاهدين ، وكان في إحدى جلساته معهم يحكي لهم ويلعب معهم (السيرة) ، وهي لعبة شعبية ، يقول طالبًا النجدة من الطليان لفك أسره :

بالك على غفلة إيجي مطلق سبيب[1] طاليا مول النعال محلق

وفعلًا حدثت معركة بين المجاهدين والطليان ، استطاع بعدها الفرار والعودة للطليان ، وأصبح كاوليري مع الطليان ، فيقول المجاهدون عنه بعد أن أصبح مبعوثًا للطليان :

مبعوثان وشيخ مشايخ حلما فارغ يفزع غير أوكال طبار

فرد عليهم بوشهاوي :

مبعوثان وشيخ العمدة والطليان يقوى زنده
وأنت باللى باركندا رأسك دايخ باطل من الدوران ونايخ[2]

وهناك نموذج ثانٍ من الشِّعر ، بمناسبة أن قبائل الفواخر سلَّمتهم إيطاليا السلاح للتصدي للمجاهدين . فقال أحد المخلصين مندِّدًا بالشخص الذي يرفع السلاح في وجه المجاهدين حتى يرضِي الطليان :

يا كلب لابس بندقية وأجريدي وماشي تحارب في عساكر سيدي
بندقة ووشاحة وراكب هجين اتقول في درجاحه

فقال الفاخري المتعاون مع الطليان ما يلي :

---

(١) سبيب أي مجموعة من الأفراد مهمتهم جمع المعلومات من العدو .

(٢) موسوعة روايات الجهاد ، مجلد رقم ٢٧، شريط رقم ١٢، مقابلة مع المجاهد عمر محمد الشيخي، ٦٦.

واخد أمـري على نجعـي ونحـارب بيـدي
واين ينطري نغوز[١] هو وأعلامه نجد عليه بكرهه حديدى

فرد المجاهد عليه وقال :

على الله العلامة أتسير له تقعيده ويجيبك العبيد[٢] أتقولها يا سيدي

وفعلًا حدث هذا ؛ ذات يوم جاء المجاهدون بقيادة قجه السوداني ، وحاصر أفراد قبيلة الفواخر المتعاونين مع الطليان ، ونقلهم بالعشوة من مكان إقامتهم السابقة إلى مقر الدور ، واستدعى الشعراء وأمر الشاعرَيْن بالتحاور أمامه ، ثم أمر بأخذ ٢/٥ من أموال الشاعر الموالي للطليان ومواشيه ، وأطلق صراح الشاعر الآخر[٣] .

وعقب إعلان الجمهورية الطرابلسية في ١٨ من نوفمبر عام ١٩١٨م ، فإن إيطاليا كانت تأمل في إفساد أي تعاون أو إخاء يمكن أن يتنامى فيصنع أمّة موحّدة قادرة على المواجهة الحقيقية ، لهذا فقد ثابرت خلال فترة الترقُّب والانتظار التي أعقبت إعلان الجمهورية الطرابلسية ، في استخدام وسائل التسلل السياسية ، وهي بالطبع أخطر ـ في حالة نجاحها ـ في التأثير على المعنويات القتالية للمجاهدين ، وربما في تفتيت عُرَى الوحدة الوطنية التي تحاول القيادات بناءها عن طريق التحالف الجمهوري ، وقد تمكّنت الحكومة الإيطالية من استمالة (عبد القادر الغناي) ، الذي كُلِّفَ بقيادة جيوش الجمهورية خلفًا لإسحاق باشا ، وقد تمثَّل نجاحها في عقد عدة اتصالات فردية معه ، دون علم حكومة الجمهورية[٤] .

---

(١) نغوز هو قائد المجاهدين ، يسمى رمضان المهشهش .

(٢) العبيد يعني قجه السوداني .

(٣) موسوعة روايات الجهاد الشفوية ، مجلد ٢٨، مقابلة مع المجاهد عيسى سعد طاهر ، شريط رقم ٣/ ٧٣، ٦٥.

(٤) عمرو سعيد بغني : حركة الجهاد الليبي خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢١م ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨، ٢٣١.

وقد طمع الإيطاليون في استمالة الغناي إليهم بواسطة أحمد المنتصر، الذي نجح في استقطابه إلى مدينة طرابلس على ظهر مدمرة إيطالية، بعد أن مكّنهم من احتلال الزاوية في أول شهر يناير عام ١٩١٩ دون قتال، في الوقت الذي كان الشيخ محمد فرحات الزاوي قد زار الزاوية وبقي فيها عدة أيام، عاد بعدها إلى طرابلس بعد أن وقف على عملية احتلال الزاوية من قبل الإيطاليين، وكان سفر الشيخ محمد فرحات إلى هناك قد جاء بأمر من السلطات الإيطالية التي أوفدته إلى الزاوية على ظهر سفينة إيطالية، وقد شهد اجتماعًا بميدان الزاوية، وخطب حسن المصراتي قائمقام الزاوية في الناس، موضحًا لهم: (أنه حصل صُلح مع الطليان، ونبّه عسكر المجاهدين بلزوم الهدوء وعدم القيام بأي حركة عدائية ضد الطليان، والذي يقوم بأي حركة عدائية يُعدَم)[1].

وكانت نتيجة ذلك وقوع فوضى بين صفوف المجاهدين، وانسحاب بعض الضباط والجنود الموالين لعبد القادر من مواقعهم على خط النار في الزاوية، وانضمامهم معه إلى الصفوف الإيطالية، بعد أن تمكّن بعض الضباط المعترضين على سياسة الغناي مثل: عبد الله تامسكت وعبد العاطي الجرم وغيرهما، من الإفلات من الأسْر والانسحاب بمن تبعهم من المجاهدين الرافضين لمحاولات الغناي الاستسلامية[2].

في نوفمبر عام ١٩١٨ عقب انتهاء العمليات العسكرية والحربية في أوروبا، أنزلت إيطاليا إلى طرابلس الغرب جيشًا مؤلّفًا من ٨٠ ألف جندي، وبدأت مفاوضات مع رؤساء البدو في غربي ليبيا، باذلة الجهود لدفعهم إلى الاستسلام، إلا أن المفاوضات لم تنجح، فاستأنفت إيطاليا العمليات الحربية في فبراير ١٩١٩.

---

(١) محمد أمحمد الطوير: الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي ضد الغزاة الإيطاليين، ط ١، مصراتة ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٩٣، ٨٨، ٨٩.

(٢) عمرو سعيد بغني: حركة الجهاد الليبي خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢١م، ٢٣١.

ولم يستطع الغزاة الإيطاليون تحطيم مقاومة القبائل إلا بعد مرور ١٣ عامًا أخرى، وقد تميزت العمليات الحربية التي كانت تجري في البلاد، في أنحاء متفرقة، بمقاومة عنيفة وبطولة فائقة أبداهما الشعب الليبي. ولم يكن بوُسْع القوات العسكرية الإيطالية إخضاع البلاد وإنجاز احتلال ليبيا واستعمارها إلا في عام ١٩٣٢، بعد مذابح جماهيرية كبيرة وتنكيلات وحشية بالقبائل المحبة للحرية[(١)].

كما أن الإجراءات الجديدة[(٢)] التي قام بها فولبي (١٩٢١ ـ ١٩٢٣م)، كانت تهدف إلى القضاء على حركة المقاومة المسلحة، وتوجيه ضربات قاسية للجماهير الشعبية تشل قوتها وتعجزها عن الحركة، وتجبرها بالتالي على الخضوع والتسليم؛ فبدأ العدُو يمارس ضغوطًا متزايدة على أفراد القاعدة الشعبية العريضة، تستهدف إفقارهم وإذلالهم وفقدان الاستقرار المعنوي في صفوفهم، فقد صُودِرت أملاك السكان في المناطق الريفية والزراعية، فكانوا ضحية للتجريد المستمر من الأراضي، وزاد الأمر سوءًا لجوء الفلاحين الفقراء إلى بيع أراضيهم، وإجبارهم على بيعها بأسعار زهيدة يحددها العدو، ودفَعَ هذا بهم إلى حالة التشرد والصَّعْلَكة، وفي المدن دفع بالسكان إلى البطالة والعوز والفقر، وهكذا فإن الأعداد الهائلة التي لبَّت

---

(١) فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي: مرجع سبق ذكره، ٣٧٣.

(٢) لما رأى الكونت فولبي جدية نوايا قادة المجاهدين في السعي المتواصل للتصدي للقوات الإيطالية، هددهم بإعلان الأحكام العسكرية ومصادرة أملاك أعضاء هيئة الإصلاح المركزية وأموالهم، مع غيرهم من المجاهدين، في حالة قيامهم بمهاجمة القوات الإيطالية، مع سحب الأوسمة الفخرية التي كانت قد مُنِحت إلى البعض بين سنة ١٩١٢ و١٩٢٠، مثل الشيخ محمد فرحات الذي كان قد حصل على وسام كواليير أوفيشالي، أي الفارس، في حين كان أحمد المريض قد حصل على وسام كوماندातور مقابل وسام كواليير (الفارس) إلى كلٍّ من علي بن تنتوش ومحمد الصغير شلابي وحسين بن جابر وفرحات القاضي ومحمد الصغير المريض ومحمد فكيني وحمد الأدغم وعبد الصمد النعاس والفيتوري الرمالي. لمزيد من التفاصيل انظر محمد أمحمد الطوير: الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي ضد الغزاة الإيطاليين، ١١٦.

نداء الجهاد في المراحل الأولى أصبحت تعاني البؤس والذل بعد فقدان الأرض ووسائل العيش الكريم ، ولم تستطع حركة الجهاد استيعابهم ، نظرًا لعوامل كثيرة ، فقام العدو بضم أعداد من هؤلاء بصفتهم جنودًا مأجورين. ومنهم شكَّل باندات[1] خربيش وخليفة الزاوي وغيرهما ، وهم الذين قدَّموا مجهودهم بصفتهم أيادي عاملة رخيصة لتنفيذ المشاريع الاستيطانية الإيطالية ، كذلك المشاريع العمرانية والصناعية التي تمت في ليبيا في أثناء مرحلة الاستعمار الإيطالي ، خاصة بعد انتهاء مرحلة الكفاح المسلح[2] .

عندما جاء المدعُوّ (غراتسياني) لبَرْقَة عن طريق باخرة بحرية ، أسس بمساعدة الشارف الغرياني الأسلاك الشائكة بطول الحدود مع مصر ، فضلًا عن فكرة تجميع الأهالي من أمساعد ووضْعهم في معتقل البريقة ، الأمر الذي جعل حالة الأهالي صعبة جدًا ، وتدهورت الظروف الاجتماعية للأهالي بسبب الظلم والاضطهاد ، ودخلت الفتيات أماكن الدعارة وأصبح الرجال الكرام بدون كرامة ، كما كان هناك شخص يُدعَى (شهاب الأشهب) من عائلة بن إدريس ، وهو من أتباع السنوسية ، كان عين (ماليتي) الصادقة ، ومعه أيضا بعض المساعدين له ، وهو شخص من عائلة الحاسة ، ومعه المدعو (موسى الشيلابي) ، والصبحي كان من أعوانه أيضًا ، ومن الأعمال التي قام بها المدعو شهاب أنه كان يقوم بإحضار النساء إلى ماليتي الذي ارتكب أعمالًا شنيعة ضد الأهالي ، وكوَّن له فرقًا وعيونًا من

---

(١) البندة هم جنود مرتزقة غير نظاميين ، وكثيرًا ما أَطلق عليهم الكُتاب (شراذم) ، لأنهم ليسوا من الجيش النظامي ولا من الشرطة ولا يتمتعون بحقوق الخدمة ، وفي العادة يخضعون لقيادة أفراد من أصل عربي أو يتكلمون العربية ، مثل عاكف أمسيك الغرياني (بندة عاكف) ، أو إبراهيم القريتلي (بندة القريتلي). انظر يوسف سالم البرغثي : المعتقلات ، الندوة العلمية ، سبتمبر ١٩٨١، طرابلس - مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣، ١٢٤.

(٢) حبيب وداعة الحسناوي : منشور كانيفا ، ٦١، ٦٢.

الأهالي المحتاجين وضعاف النفوس[١].

وها هي الشاعرة أم الخير ـ شاعرة المعتقلات ـ التي اعتُقِلت في معتقل البريقة بأمر من غراتسياني عام ١٩٣٠م، أنشدت قصيدة وصفت فيها وصفًا دقيقًا آلام رفاقها المعتقلين، وما تعرضوا له من مصائب وأهوال من أمراض وتعذيب ورمال محرقة وعجاج ثائر يعمي الأبصار، وفيها تتحدث بألم عن أذناب الإيطاليين الذين خانوا الوطن ومواطنيهم بانضمامهم إلى صفوف الإيطاليين جواسيسَ وجنودًا[٢].

وقد هاجمت الشاعرةُ (باريله) مرات عدة فكان يعذبها، وكاد في إحدى المرات أن يُقدِم على شنقها، ومما قالته فيه:

حكمك جاير يا باريله ... فن المال أورق العيله
جضينا مالحكم الجاير ... والسوط اللى ديمه عايل
ضديتك رعيان سلايل ... واتحارب فى ناس رعيه
ما سكنا فى بومختار ... اللى كاد أركان الحربية
سخر لك في الجو ثقيلة ... واقطع يدك يا باريله

إنها تواجهه وتقول له: (إن حكمك يا باريله حكم ظلم وجَوْر، وأهلكَ المواطنين وأفنى أموالهم، ولقد اشتدت أوجاعنا وعلا ضجيجنا بسبب قسوتك ولهيب سياطك الدائمة، وتصفه بالجبن والنذالة والهروب من مواجهة الفرسان البواسل بقيادة عمر المختار إلى حرب الأهالي العُزَّل من السلاح)[٣].

وهذه المقاومة للظلم والظالمين نجدها قائمة حتى ضد أفراد محدَّدين من أهل الوطن الخونة، وها هي الشاعرة أم الخير مرة أخرى تهاجم أحدهم وجها لوجه،

---

(١) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٨، مقابلة مع المجاهد المبروك مفتاح الهايف، ٨٩: ٩١.

(٢) عبد العالي أبو عجيلة جاد الله: أم الخير شاعرة معتقل البريقة، مجلة الشهيد، العدد رقم ٥، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥، ١٦٢.

(٣) نفسه، ٣٠١.

قائلة له حين اشتد ضربه وإرهابه للمعتقلين :

تأخـــذ سو أبســـيس

يا خـــاطى القيـــس

يا أفويهن دافل فيه أبليس

وأبسيس هو أحد المواطنين الذين عملوا مع الطليان ، لكنه اشتُهِر بعطفه وتعاونه مع أبناء وطنه ، أما ذلك الخائن الطاغي فقد قالت له : إن شراستك وخبثك ولؤمك ترجع إلى رابطة قوية بينك وبين إبليس ، وهي أنه بصَقَ في فمك فتطبَّعْت بطباعه الخبيثة من لؤمٍ وغدرٍ وخيانةٍ ، وما بصاقه في فمك سوى جرعة خبيثة أمدك بها ، لتقوية صفاتك الشيطانية(١) .

كما تورط مشايخ القبائل والزوايا ، الذين كانوا يمثلون الزعامات المحلية ، في اتفاقيات شخصية مع الطليان ، وعينوا مشايخ من قِبَلهم مرة أخرى ومنحوا رواتب وهدايا ، لكن الجماهير لم تمكِّنهم من تحقيق تلك الوعود وتنفيذ تلك الاتفاقيات ، الذين قال فيهم الشاعر عبد القادر العبار :

جماعة سلوق اللى مشايخ باقا ما يامنوا لختومهم فلاقة

لا يــامـــنــوا بــالــزور ولا يامنوا بختوم فاماتورى

هاذول ماطاعوا لعسكر نورى يا بال كاولير هووا سلاقا

كما قال أيضًا :

لا يــامــنــوا بــالــتــســاكــر ولا يامنوا بحديث حيلة عاكر

أوخاذ البنادقم التريس الساكر يخلي قلوب العارفين حراقا

ويصف الشاعر في هذه الأبيات المشايخ الذين انطلقوا من قرية سلوق بإذن من الطليان للاتصال بالمجاهدين وجرّهم إلى الاستسلام ، بأنهم موظفون مع الطليان

---

(١) نفسه ، ٣٠٢.

مقابل مرتب ، وأن المجاهدين لن ينصاعوا لهم ولضمانات أختامهم المزورة ولا حتى لأختام سادتهم الطليان ، وأن المجاهدين سبق لهم أن عصوا أوامر عساكر نوري باشا التركي ، ومن السهل عليهم عدم طاعة أوامر راكب الحصان ، أي (الكاولير) الإيطالي ، وأعوانه الذين شبههم الشاعر بالكلاب . ويستطرد الشاعر في أبياته فيذكِّر بأن المجاهدين لا يثقون في الرسائل التي يحررها الطليان وأعوانهم بقصد طلب التصالح ، ويحث المجاهدين على التمسك بالبندقية التي يُعَدُّ أي تفريط فيها عارًا ومذلة تصيب قلوب العارفين بالحُرْقَة والتحسُّر[1] .

كما حاول أحد الشعراء توبيخ أولئك المشايخ بقوله مستهزئًا :

عالسلامة ياشيخ شريف　　ما فيكم لا شيخ نظيف
منحاشن جاء هالخريف　　والشايب عارفكم غراق
امعاه على خيل معاكيف　　وعند الطليان فوارق
خليتوه اتقول ضعيف　　أبقيتوله كي بو فراق

ولم ينفك عمر المختار عن إسداء النصائح إلى تلك الفئة بأن تسلك مسلك الجهاد دون السماع إلى الوعود الإيطالية ، وكثيرًا ما أخذهم الطليان حجة ضد عمر المختار ، عندما تحصلوا على توقيعات أولئك المشايخ بأنهم يوافقون على إنشاء الأدوار المختلطة ، إذ يُبرِز الطليان توقيعات المشايخ بالموافقة ، وقد حمَّله الطليان مسئولية العصيان تلك وألصقوا به لقب عاصٍ[2] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ فقد كان مديرو المربعات وشيوخ الأشواط ومدير المديرين في المعتقلات الجماعية من الليبيين ، ووُصِف بعضهم بأنهم أشداء على أبناء جلدتهم إظهارًا لإخلاصهم للفاشيست ، فكانوا يضربون الناس لأتفه

---

(١) يوسف سالم البرغثي : المعتقلات الفاشستية بليبيا دراسة تاريخية ، مراجعة د.صلاح الدين حسن السوري ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥، ٦١.

(٢) نفسه ، ٦٢.

الأسباب ويسبون ويشتمون ويسخرون من أولئك البؤساء، حتى أنه ذات مرة دَفَعت الغيرة والحَمِيَّة أحد المعتقلين لضرب مدير الربع المدعو أقويدر البرعصي، الذي ألحق الإهانة الشخصية بأحد المعتقلين، بقوله: (يا كلب، يا حفيان، يا حمار). فكان أولئك من المديرين وشيوخ الأشواط شديدين على أبناء جلدتهم[١].

ووصفت الشاعرة معامَلَة تلك الفئة من المديرين وشيوخ الأشواط للمعتقلين بقولها:

حتى اللى ماو لابس كاكى هـابـه فـيـنـا يـا مـادار

وكان من ضمن عمل شيخ الشوط، ويُدْعَى (الكابوفيلا)، حصر سكان مجموعة الخيام المسئول عنها صباحًا ومساءً، ويقدِّمه إلى مدير الربع الذي يستدعِي من ثبت غيابه عن التمام إلى بوابة الربع التابع له، ويأمر شيخ الشوط بجلده مئة سوط أمام سكان ربعه[٢].

كما نددت الشاعرة بمعاملة شيوخ الأشواط السيئة للأهالي، فقالت معرِّضة بتلك الفئة من شيوخ الأشواط:

انزرعوا يا رعيـــان الشـــوط
عليكم لانت المدير ولاذ السوط
تنوضو كيف اكلاب الغوط[٣]

ولقد تزامن مجيء شيخ الشهداء (عمر المختار) قائدًا لحركة الجهاد مع وصول الحزب الفاشيستي في إيطاليا، الأمر الذي ترتب عليه مواجهة المجاهدين أسلوبًا

---

(١) يوسف سالم البرغثي: المعتقلات، الندوة العلمية، سبتمبر ١٩٨١، ١٢٩.
(٢) يوسف سالم البرغثي: المعتقلات الفاشستية بليبيا دراسة تاريخية، ١١١، ١١٢.
(٣) نفسه، ١١٤.

جديدًا في الحرب، وعقلية متعصبة سعَتْ إلى تدميرهم والقضاء عليهم، وقد تمثلت سياسة الفاشيست تجاه المجاهدين في تطبيق ما يلي:

١ ـ لا مع الزعماء ولا ضد الزعماء، لكن بدون الزعماء.

٢ ـ تطبيق سياسة فرق تسد.

٣ ـ تطبيق النظام العسكري الفاشستي، القائل بضرورة القضاء على حركة الجهاد الليبي، بغض النظر عن الوسيلة والوقت والتكلفة.

من هذا المنطلق بدأ الفاشست يقدِّمون بعض الإغراءات لبعض الزعامات الليبية، حتى إذا تعاونت معهم أو ركنت إلى الهدوء غدروا بهم، وسيطروا على المقاومة، ثم قضوا على مَن ساعدها. هذا ما حدث ـ على سبيل المثال ـ للهادي كعبار؛ إذ سلَّم مدينة غريان في ١٧ من نوفمبر عام ١٩٢٢م دون مقاومة للإيطاليين، ثم شُنِق في مصراتة فيما بعد. كذلك كان الفاشست كثيرًا ما يعلنون العفو عن بعض المجاهدين إذا استسلموا لهم، وحين تتم عملية الاستسلام يُعدَم المستسلِم وتصادَر أملاكه، مثلما حدث لعبيدة بن زكري وأمحمد الدريدي والهادي كعبار، وغيرهم كثيرون[1].

وأيضًا لم تَسْلم أهالي الزاوية من غدر الإيطاليين الفاشست، فعقب عودتهم إلى مدينتهم عام ١٩٢٢، التي وجدوها محترقة من قبل الإيطاليين، وجدوا رجال الشرطة الإيطالية الكاربينيرى في انتظارهم عقب مباشرتهم رفع أنقاض ما هُدِّمَ وأُحْرِق بفعل الأعمال الانتقامية بأيام معدودة، دون النظر إلى عهد الأمان المقدَّم لهم من قِبَل القبطان (كاستريوطى) مدير الشرطة العسكرية الملكية بالزاوية، حيث تم القبض على كل مَن حمل السلاح في وجه الإيطاليين حتى ضاقت السجون

---

(١) عقيل محمد البربار: حركة عمر المختار في الجبل الأخضر، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨، ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

الإيطالية في الزاوية بهم ، فأُرسِل الكثير منهم إلى سجون طرابلس بالسرايا الحمراء وفورتي قرقارش ، بعد أن قُدِّموا إلى المحاكم العسكرية الصورية في الزاوية والعزيزية وطرابلس ، وكانت التهمة الموجهة إليهم هي تهمة الخيانة العظمى لإيطاليا ، سواء بحمل السلاح أو بالتحريض على حمله مما جعل الأحكام السريعة التي صدرت ضد المقبوض عليهم ، وهم أكثر من ٣٠٠ شخص ، تتراوح بين عقوبة الإعدام أو السجن المؤبد أو لمُدَد مختلفة تصل إلى ٣٥ سنة وأقل من ثلاث سنوات . وقد تم تنفيذ أحكام الإعدام عدة مرات بميدان الزاوية ، لكن أكبر مجموعة تم تنفيذ ذلك فيها يوم العاشر من ديسمبر عام ١٩٢٢، هي التي كانت تضم أبرز أعيان المنطقة ، مثل : محمد زكي مقيق ، وأعبيدة عبد الله المحجوبي ، وأمحمد الدرديري[١] .

وقد حاولت إيطاليا أن تعطي بعض الإغراءات لعمر المختار نفسه ، لكنها لم تفلح في تحقيق ما سعت إليه . وقد فشلت جميع محاولات الإيطاليين في استدراج المختار إلى الاستسلام ، وكانوا على استعداد أن يدفعوا أي شيء لهذا الغرض ، لكن عمر المختار كان يصر على شروط مفادها تحرير البلاد من الوجود الإيطالي ، وضرورة حضور مندوبين من الحكومة المصرية والتونسية في المحادثات[٢] ، وأيضًا عدم تدخل إيطاليا في الشئون الدينية للمسلمين ، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في الإدارات الإيطالية ، وتعيين الموظفين من الإيطاليين والعرب ، وافتتاح معاهد متخصصة لتدريس المواد الدينية ، وافتتاح المدارس التي تُعَلَّم فيها اللغتان العربية والإيطالية ، وحق الأهالي في الدراسة بالمعاهد العليا ، وإلغاء القانون الخاص باللامساواة في الحقوق بين الأهالي والإيطاليين ، ونقل إدارة الأوقاف إلى رجال الدين المسلمين ، وإعادة الممتلكات التي انتُزِعت من السكان لأصحابها ، وإعطاء

---

(١) محمد أمحمد الطوير : الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي ضد الغزاة الإيطاليين ، ١٢٦.

(٢) عقيل محمد البربار : حركة عمر المختار في الجبل الأخضر ، ٣٣٧.

الشعب حق انتخاب رئيس له ومجلس من الأعيان والسماح بحمل السلاح والسماح بإدخاله من خارج الحدود(١).

وقد وعد سيشيلياني نائب الحاكم بإعطاء الرد على شروط عمر المختار في ١٣ من يونيو ١٩٢٩م، وبعدها تم لقاء الحاكم بادليو وعمر المختار في سيدي رحومة، وقد وافق بادليو من الناحية المبدئية على شروط عمر المختار، لكن ذلك كله بقي مجرد كلام.

وبعد شهر تقريبًا تم اللقاء الثاني لعمر المختار مع نائب الحاكم، الذي أعلن أن بنغازي قد اختيرت لتكون مكانًا للقاء، وقد فوَّض عمر المختار حسن الرضا السنوسي لتوقيع الاتفاقية. وتمكن الإيطاليون من استمالة هذا الأخير إلى جانبهم فوقَّع اتفاقية لا تتضمن تلك الشروط التي كان عمر المختار قد اتفق عليها مع بادليو، وأَلزمت الشروط الجديدة للاتفاقية المجاهدين بالاستسلام الشامل وتسليم أسلحتهم، وقد رفض عمر المختار الاعتراف بهذه المعاهدة(٢).

إزاء هذا الفشل الإيطالي حاول الفاشست استدراج بعض الزعامات المحلية، بهدف تشتيت صف المجاهدين؛ فانشق الحسن الرضا السنوسي عن الدور بعد توقيعه لما عُرِف بصلح سيدي أرحومة في ١٩ من يونيه ١٩٢٩، وخرج معه ٣٠٠ من أتباعه وكوَّنوا معسكرًا تابعًا للإيطاليين بغوط الجل قرب مراوة، أُطلق عليه المجاهدون اسم (دور الدقيق)، إشارة إلى أن هذا الدور لا عمل له سوى تلقي المرتبات والتموين من الإيطاليين، واستمر هذا الدور من ١٥ من أغسطس ١٩٢٩م إلى ١٠ من يناير ١٩٣٠م(٣).

---

(١) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سبق ذكره، ٢٠٧.

(٢) نفسه: ٢٠٨.

(٣) المبروك الساعدي: النظم الحربية لدى عمر المختار، أعمال الندوة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، ط ٢، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م، ٩٧ ـ ٩٨.

واستطاعت إيطاليا من خلال مساعدة حسن الرضا، الذي سلّم نفسه للإيطاليين في واحة جالو، أن تُعِد باسمه منشورًا خاصًا، يحتوي على دعوته المجاهدين إلى الكف عن المقاومة المسلحة وعدم الانصياع لأوامر عمر المختار، وقد قامت إيطاليا بتوزيع هذا المنشور بالطائرات في شهر يونيو عام ١٩٣٠، وعلّلت إيطاليا هذا التصرف بأن المطلوب من السنوسية الالتفات إلى الأمور الدينية وعدم الخوض في حروب ضد السلطات الإيطالية[١].

وبتأثير من الحسن الرضا تيسّر للإيطاليين تطويق الفرقة التي كان يرأسها (خالد أبو قليوان)، أحد زعماء المجاهدين وزميل عمر المختار، وتم تدميرها، وذلك لتحطيم إرادة المجاهدين في المقاومة بعد تجريدهم البدو من أسلحتهم ومصادرتها[٢].

ولقد عز على المجاهدين انفصام وحدة صفهم وما حل بإخوتهم الذين انصاعوا لحِيَل عملاء إيطاليا وخداعها، مما جعل الكثيرين يجهشون بالبكاء أمام عمر المختار الذي وقف صامدًا كالجبل الأشم رغم فداحة النكسة[٣].

وأخيرًا، عندما فشلت إيطاليا في تشتيت جهود المجاهدين من خلال استدراج الحسن الرضا، ورغم مهادنته للطليان، لم يَسْلَم من بطشهم فانقضوا على الدور التابع له، وأسروا العدد الكبير من أفراده وزجُّوا بهم في سجن سيدي خريبيش ببنغازي (السجن الكبير). وأُخِذ قائده الحسن الرضا أسيرًا إلى

---

(١) عبد العظيم مهيدي أحمد صميدة: العلاقات المصرية الليبية ١٩٤٥ - ١٩٧٣، ١٨.

(٢) المرجع نفسه، ١٧. وانظر أيضًا: نيكولاي إيلشتين بروشين: تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩، ٢١٠.

(٣) إدريس صالح الحرير: مواقف خالدة لعمر المختار، أعمال الندوة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، ط ٢، طرابلس - منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م، ٧٣.

إيطاليا حيث تُوُفِّيَ هناك[١] .

إن سياسة الإغراء والاستسلام لم تقف عند هذا الحد ، بل لقد جندت إيطاليا بعض المرتزقة من الليبيين يقودهم (الوجيه عاكف بك ، تركي الأصل) ، بهدف نشر الرعب والقتل في طول البلاد وعرضها . لقد كان عاكف بك هذا ممن حاربوا الإيطاليين تحت إمرة أنور باشا في بداية الغزو الإيطالي ، وكان يحمل رتبة يوزباشي في الجيش التركي ، لكنه استسلم وانضوى تحت خدمة الإيطاليين فيما بعد ، فكان على حد قول غراتسياني : (... وفي حرب طرابلس كان مخلصًا لنا ومثالًا في التفاني والشجاعة ، له إلمام تام بمواقع برقة شبرًا شبرًا ...)[٢] .

وإزاء فشل الإيطاليين في سياستهم لاستدراج المختار والمجاهدين إلى التسليم وعدم نجاح سياسة فرق تسد في تحقيق الهدف المرجو منها ، رغم الأضرار الجسيمة التي ألحقتها بحركة الجهاد ، التفت الفاشست إلى تطبيق نظام عسكري يقتضي القضاء على المقاومة مهما كلف الأمر ، فأعدوا قوات كبيرة للقضاء على عمر المختار[٣] .

معاملة المجاهدين للجواسيس ومصيرهم

يذكر جي. أف. أبوت أن معظم هؤلاء التعساء كانوا مهتمين فقط بالتجسس ، وكان هناك نوع من العقاب يناله هؤلاء الجواسيس ، وهو أن لدى العرب طريقة سريعة مع (البائعين) وهي الجلد بالعصي حتى يعترف الجاسوس بما يقوم به من خدمات للعدو ، وربما يتم تحويل خدماته للمجاهدين ، لأن كثيرًا ممن يَدفع لهم

---

(١) يوسف سالم البرغثي : المعتقلات الفاشستية بليبيا دراسة تاريخية ، ٦٤. وأيضًا انظر : إدريس صالح الحرير : المرجع السابق ، ٧٣.

(٢) عقيل البربار : المرجع السابق ، ٣٣٨.

(٣) نفسه ، ٣٣٩.

الطليان للتجسس عُرِف عنهم لعب أدوار مزدوجة[١].

ذكر المجاهد عقيلة أبو الجارد علي البرعصي أنه في معركة يوم الرحيبة، كان يتم القبض كثيرًا على أسرى ليبيين يعملون مع الطليان، يصل عددهم من عشرين إلى ثلاثين، كنا نأخذ أسلحتهم ونتركهم، وكثيرًا ما تصلنا منهم بعد ذلك الذخائر وبعض الأسلحة وكثير من الأطعمة أحيانًا، ويمدوننا بمعلومات خروج الإيطاليين أو أي باندة خونة نستعد لها، وبعد ذلك تغيّر الوضع وأصبحنا مطارَدِين حتى من الأهالي الذين كوّنوا باندات وأصبحوا يطاردون المجاهدين، وكان أحدهم اسمه السنوسي بوشغيلان، يسكن في الأبيار ومعه باندة، ومهمته مطاردة المجاهدين أينما وجدوا، لكن المجاهدين حاصروا الأبيار وقبضوا على السنوسي بوشغيلان وقَتلوا الفضيل، وأظهر السنوسي أنه مع المجاهدين، وأنه سيجمع السلاح ويكون معهم، وما أن اطمأن الحراس حتى فر ورجع إلى ضلالته الأولى[٢].

وبعد معركة الرحيبة التي وقعت في ٢٨ من مارس ١٩٢٧م، التي خسرها الإيطاليون وتم أسر أعداد كبيرة من المجندين الليبيين مع الطليان، بلغ عددهم أكثر من أربعمئة أسير، كان معظمهم من أبناء المناطق الساحلية، وعند استشارة ممثل الشريعة، الشيخ محفوظ الورفلي، بشأنهم أفتى بإعدامهم جميعًا، بدعوى أنهم حملوا السلاح ضد دين الله مع طائفة كافرة، ونفذ فيهم حكم الإعدام فورًا[٣].

---

(١) جي . أف . أبوت : الجهاد في طرابلس، ٢٠٥.

(٢) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٧، شريط رقم ٢٣، ١٣٠، ١٣١. مقابلة مع المجاهد عقيلة أبو الجارد البرعصي.

(٣) عقيل البربار: الأسس الاقتصادية والاجتماعية لحركة الجهاد، أعمال الندوة العلمية التي عقدت بالمركز بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣، ٨٩.

وعن اتصال المجاهدين ببعضهم، كان هناك في الدور ما يسمَّى بالكراكون (نقطة مراقبة) قبل الدور بمسافة، حيث توجد نقطة لمراقبة ١٠ أو ١٥ نفرًا على خيولهم في الحطب، وإذا ظهر العدو يأتي أحدهم يقول إنه ظهر، وبعده يأتي آخر ويقول لقد اتجه نحوكم أو ذهب إلى مكان آخر، لم يكن هناك هاتف بصفته وسيلة اتصال، بل كان الاتصال يتم عن طريق فرسان على خيولهم ويتصلون بالمنتجعات[١].

وعندما يحل الدور بمنطقة ما تُوضَع دورية في كل اتجاه لتراقب وضع القوات الإيطالية في تلك المنطقة، تعطِي أخبار تحركاتها للمجاهدين أولًا بأول حتى يكونوا على علم باتجاه العدو وتحركاته، وحين يلتقي أفراد الدورية بالأعداء يطلقون ثلاث طلقات، وعند سماع تلك الطلقات يستعد الجميع لملاقاة الأعداء في الجهة التي سُمِع منها إطلاق الرصاص. كما تقوم دوريات أخرى تُعرَف باسم (الرباط) بمراقبة الإيطاليين في مراكزهم التي يحتلونها للحصول على معلومات عن تحركاتهم عن طريق الأهالي الموجودين داخل تلك المدن، وكثيرًا ما يتعرض بعض هؤلاء الأهالي للعقاب بسبب تعاونهم مع المجاهدين، كما حدث مع سليمان بن سعيد العرفي قائد القوات المحلية وعضو مجلس النواب، الي أدانته المحاكم الإيطالية بالتعاون مع المجاهدين وحكمت عليه بالإعدام فأُعدِم شنقًا في قرية طلميثة (الدرسية) أمام الجميع[٢]، كما أُعدِم الشيخ حمد عبد ربه الدرسي في شحات بتاريخ ١٤ من يونيو عام ١٩٣٠م، بعد أن ثُبِّت تعاونه مع إخوانه المجاهدين وكانت مخيماته استراحة لهم[٣].

---

[١] موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٨، ١٥٥، مقابلة مع المجاهد محمد موسى عبد الله، منطقة رقم ١٣.

[٢] المبروك الساعدي: النظم الحربية لدى عمر المختار، ١٠٥، ١٠٦.

[٣] يوسف سالم البرغثي: المعتقلات، ١١٥.

بعد احتلال القوات الإيطالية منطقة الجبل الغربي اتجهت أغلبية القبائل الرافضة الوجود الإيطالي في ليبيا إلى المناطق الجنوبية ، وكان من بين هذه القبائل قبيلة العميان . وفي أثناء سير هذه القبيلة إلى الجنوب وصلت معلومات من الشيخ أحمد البدوي يحذرهم من الوقوع في قبضة الحملة الإيطالية التي يقودها (غالياني) ، وما أن وصل الخبر إلى المجاهدين حتى أرسلوا مجموعة من الشوافة (فرق الاستطلاع) ليتحققوا الأمر ، فوجدوا مجموعة من الزوائد في قتال مع فرقة الاستطلاع الإيطالية ، التي يقودها أحمد العياط ، وكانت النتيجة سقوط أحمد العياط قتيلًا وجرْح أحد رفاقه ، أما من جانب محلة الزوائد فقد استُشهِد أحد المجاهدين .

وبشأن فرقة الاستطلاع التابعة لقبيلة العميان ، رجعت إلى قبيلتهم وأخبرتهم بما شاهدتْه ، فقام زعماء القبيلة بوضع خطة لمواجهة الحملة الإيطالية التي تسير في اتجاه القبلة ولا تفصلها عنها إلا مسافات قصيرة ، فوضعوا خطة مُحكَمَة تمثلت في وضْع النساء والشيوخ والأطفال في الوسط وطوَّقوهم بالإبل والصوف والتموين ، بينما أخذ المقاتلون مواقعهم على هيئة دائرة بعد أن حفروا حفرًا صغيرة للاختباء ، لأن الأرض منبسطة وليست فيها أشجار ، وبدأت المعركة بين قبيلة العميان والطليان في ٩ من مارس ١٩٢٤م ، التي عُرِفت بمعركة الطابونية ، ولم تحقق أية نجاحات وقررت الانسحاب[١] .

أما المهمة التالية التي وضعها الإيطاليون نصب أعينهم فكانت احتلال منطقة القبلة ، حيث كانت تعيش ست قبائل[٢] . وقد استطاع الجنرال غراتسياني

---

(١) محمد علي التركي : معركة القبلة ، ٢٧٦ .

(٢) يتكون معظم سكان القبلة من الزنتان وأولاد بوسيف والمشاشة والجعافرة وأولاد بربك والقنطرار ، بالإضافة إلى قبيلة المقارحة التي مقرُّها في وادي الشاطئ ، وتتوغل شمالًا حتى الشويرف وأجزاء من أعالي وأواسط وادي بي الكبير ، وقبائل أخرى صغيرة من الطوايين ، وعكارة والمطرة والحدادة والمساكلية والغبابنة والعواتة والطلابة والرواونة والعليقات . انظر : أحمد عطية مدلل : مرجع سبق ذكره ، هامش ٢٩٠ .

وضباطه أن يستغلوا العداوة التقليدية بين تلك القبائل، فأشعلوا بينها نيران حرب قبلية كان مجاهدو بَرْقَة يسمُّونها مذبحة الأخ لأخيه، فالبربر قبائل «الميشاشي» و«الرينيه» وقسم من قبيلة أولاد بوسيف الذين كانوا يرتادون الجزء الشمالي من منطقة القبلة، كانوا في الواقع حلفاء للإيطاليين وكانوا يسمونهم (أدرينتي) أي أنصار الإيطاليين، وكان يُسْمَح لهم بحمْل السلاح والتنقل بحرية أكبر في البلاد. وكانت تُقَدَّم لهم المساعدات بين الفَيْنَة والفَيْنَة، وكان أعداؤهم أبناء الجزء الآخر من قبيلة أولاد بوسيف بالإضافة إلى قبائل الزنتان والرحيبات، الذين يرتادون جنوبي القبلة. وقد أخذ أنصار الإيطاليين يقومون برفقة الجنود الأجانب بشن الغارات على معسكرات الثوار، فيدمرون منازلهم ومزروعاتهم[1].

كما أن الطليان كان عندهم مَن يقوم بجمع المعلومات عن المقاومين، وعيونهم من الليبيين، خاصة من الذين يصابون بالجوع فكانوا يذهبون إلى الطليان ويعملون معهم. وعن مصير أي جاسوس يعمل لصالح الطليان أو الليبيين فإن عقوبته الإعدام من الطرفين، إلا إذا رأى أحد الطرفين أن هناك فائدة من استغلال هذا الجاسوس لصالحهم، وحدث ذات مرة أنه تم القبض على رجل لعائلة القيصة، قيل إنه يعمل جاسوسًا لصالح الطليان[2].

وهذ يؤكد أن الإيطاليين كانوا يعوِّلون في حربهم ضد المجاهدين على عملائهم من الليبيين، فنجاح عملياتهم تتوقف إلى حد بعيد على مدى إخلاص أولئك العملاء لهم[3].

---

(١) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سبق ذكره، ٢٠٢.

(٢) موسوعة روايات الجهاد الشفوية، مجلد رقم ٢٨، ١٥٦. مقابلة مع المجاهد محمد موسى عبد الله، منطقة رقم ١٣.

(٣) محمد علي التركي: معركة القبلة، ج ٢، طرابلس ـ ١٩٨٤، ٢٤٢.

ويذكر جي. أف. أبوت أنه كان هناك شرطيان من أهالي طرابلس، فعندما قرر الأتراك إخلاء العاصمة أبلغوا الشرطة أن يفعلوا ما يَرُوق لهم: التخلف لخدمة الحكومة الجديدة، أو أن يذهبوا لديارهم، فعدد كبير جدًا من هؤلاء المساكين اعتبَروا - مثلما فعل الجميع وقتذاك - أن حكم السلطان قد وصل إلى نهايته، فقرروا البقاء، إلا أن حال هذين الرجلين كانت عجيبة؛ كانا يستطلعان برفقة ضابط إيطالي خارج خنادق عين زارة في الساعات الأخيرة لليلة السادس والعشرين من ديسمبر عام ١٩١٢م، عندما لمحتْهم جماعةٌ من ثلاثين أعرابيًا كانت تقوم بالمهمة نفسها، فغضب المجاهدون عندما شاهدوا مؤمنَيْن في زي الكفار، غضبًا كان بلا حدود، لكنهم - وهم يتَّسِمون بضبط النفس الذي يُظْهِرونه أحيانًا - قرروا أخذهم أحياء، وزحفوا في صمت إلى مدى قصير منهم وأطلقوا النار، قاتلِين الضابط الإيطالي، لكنهم ما أصابوا إلا حصانَي الشرطيَّيْن، فسقط الأخيران، واندفع العرب للأمام، فأسروا الراكبين، واقتادوهما للعزيزية، وبعد استجوابهما من قِبَل القائد العام وضباط الأركان الذين عقدوا محكمة عسكرية يعاونهم فرحات بيه الزاوي، كانت القضية واضحة المعالم، فقد أُلقِيَ القبض على المسجونَيْن متلبسين، وفي الاستجواب الدقيق بررا فعلهما بأنهما خدما العدو لأن لديهما أسرًا تحتاج الطعام، ولم يشفع لهم ذلك، فقد نُفِّذ فيهما حكم الإعدام شنقًا[1].

وفي مقابلة مع المجاهد محمد سعد طاهر، ذكر أن كثيرين تعاونوا مع الطليان، لكنني أعرف واحدًا يُدعَى أبا الشهاوي كان وكيلًا للإيطاليين في قمينس، وأن الذين كانوا يتجسسون لصالح الطليان كان من أجل الحصول على المال، وأن مصير أي جاسوس يتجسس لصالح العدو القتل، وذات مرة وجد (المجاهدون)

---

(١) جي. أف. أبوت: الجهاد في طرابلس، ٢٠٥: ٢٠٧.

شخصًا يُدعَى عبد الرجال غرباوي، يشتري الشاي من البريقة ويحمله للطليان، قبضوا عليه وشنقوه لأنه يخدم العدو[١].

وفي مقابلة مع المجاهد عبدالله يونس بوزيد، ذكر أنه إذا أمسك المجاهدون جاسوسًا لصالح الطليان فإنهم يقتلونه، وحصل أن السيد محمد الرضا أمر بالقبض على أحد أفراد العائلة السنوسية، وهو السيد هلال، وفعلًا قبضوا عليه وأتَوْا به إلى الدور حيث بقِيَ في خيمة حسن الظريف[٢]. وكان لمحمد هلال هذا ـ وهو شقيق أحمد الشريف ـ بعض الاتصالات بالإيطاليين في طبرق لكن لغايات شخصية، ولم يعجب سلوكه هذا محمد إدريس والأتراك، ولدى عودته قُدِّم محمد هلال للمُثُول أمام محكمة سنوسية قضت عليه بالسجن المؤبد[٣]، إلا أنه تمكَّن من الهرب من الجغبوب في مارس ١٩١٧م، ووضع نفسه تحت حماية السلطات الإيطالية في طبرق[٤].

وهذه الخيانة من جانب أحد زعماء السنوسية قد ترتب عليها:

١ ـ من الناحية السياسية إضعاف مركز السيد إدريس السنوسي العسكري من ناحية، وقوته السياسية في المساومة في أثناء المفاوضات الإنجليزية الليبية من ناحية أخرى.

٢ ـ من الناحية الأخلاقية الإقلال من نفوذ العائلة السنوسية وهيبتها في نظر البدو، خاصة بعدما اندمج السيد هلال مع الضباط الطليان ومارس حياة من

---

(١) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٨، ١٧٤، ١٧٥. مقابلة مع المجاهد محمد سعد طاهر، منطقة رقم ١٣.

(٢) نفسه، مجلد رقم ٢٨، ١٤٨.

(٣) جاك بيشون: المسألة الليبية في تسوية السلام، ترجمة علي ضوى، مراجعة د.صالح المخزوم، ط ١، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١، ١٦٤.

(٤) نفسه، ١٧٨.

العَرْبَدة والفسق وشرب الخمر[(١)].

ومما لا شك فيه أنه منذ هذا الوقت، كان هناك تنافس بين أحمد الشريف ومحمد إدريس الذي آلمه أن يكون قد اضطر في الماضي إلى التخلي عن الزعامة، بسبب صغر سنه لأحمد الشريف[(٢)].

وفي السابع من شهر فبراير ١٩٢٦م تمكن العقيد رونكيتي المنطلق من طبرق على رأس طابور آلي جزئيًا، مكوَّن من ألفَيْ رجل من احتلال الجغبوب بعد مسيرة دامت ستة أيام. وكان الإيطاليون في أثناء هذه العملية متأكدين من تعاون محمد هلال شقيق أحمد الشريف، وكذلك من تعاون الشارف باشا الغرياني، وقد عُيِّنَ هذا الأخير في الحال حاكمًا للجغبوب ومديرًا لزاويتها. وباحتلال الجغبوب من الناحية العملية أصبحت تحت يدي القيادة الإيطالية كل حدود البطنان، بَدءًا من البحر إلى مناطق الكثبان، وهو ما أتاح لها مراقبة الصحراء الليبية والحدود المصرية[(٣)].

وقد تمت الإفادة من الشارف الغرياني على أوسع نطاق، وتمكن الإيطاليون بواسطته من الدخول إلى الجغبوب دون قتال، ثم إرساله لأتباعه إلى الكفرة، ونجح في إثْناء بعض سكانها عن المقاومة، وكان تعاوُن هؤلاء مع الإيطاليين لتحقيق مصالح شخصية وحماية لأنفسهم وأتباعهم، ضاربين عرض الحائط بمصالح الوطن والمواطنين[(٤)].

---

(١) هنري أنيس ميخائيل: العلاقات الإنجليزية الليبية، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠، ٦٦.

(٢) جاك بيشون: المرجع السابق، ١٦٤.

(٣) نفسه، ١٧٨.

(٤) يوسف سالم البرغثي: حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢م)، ط١، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٠م، ١٣٨.

وذات مرة قَبض المجاهدون على شخص وقُتِل ضربًا بالرصاص في الدور، لأنه جاء لجمع معلومات حول الدور، ونفذوا فيه حكم الإعدام وهو شاب صغير لعائلة القيصة، خبأ تصريحه بين طبقات صندله الذي كان يرتديه، ومع الضرب أقر واعترف بعد أن استجوبه محمود أبو هدمة قائد الدور، وبعدها أمروا بشنقه، وكانت كل قبيلة واقفة في طابور المجبري على حِدَةٍ، والزوي على حدة، والمغرب على حدة، وطابور السوادين على حدة، وبعد أخذ رأيهم وضعوه وضربوه بالرشاش بعد أخذ أقواله(١).

وفي مقابلة مع المجاهد عبد السلام سعد أحمد الفرجاني، الذي كان مقاتلًا في صفوف المجاهدين في معركة سواني بن يادم، حيث كانوا مع القائد رمضان السويحلي، خرج عليهم القريتلي الذي كان يقاتل في صفوف الإيطاليين وكان معه حوالي ١٥٠ مقاتلًا، واستطاع المجاهدون أن يلقوا القبض عليهم، ونقلوهم إلى القائد رمضان السويحلي في مصراتة، وكان عدد المقاتلين الليبيين في صفوف الطليان من هؤلاء الأسرى حوالي ١٢٠ مقاتلًا، وتم بعد ذلك إعدام بعضهم، والبعض الآخر استُبدِل بهم أسرى مجاهدون وقعوا في قبضة الطليان(٢).

وبعد ذلك اشتبك المجاهدون مع الإيطاليين، وحققوا انتصارًا باهرًا في معركة الكراريم بشرقي مصراتة، وذلك عندما أسروا أحد قادة المجندين علي القريتلي الي حُوكِم في السدادة، وصدر ضده حكم الإعدام شنقًا ونُفِّذ فيه على الفور، الأمر الذي ترتب عليه قيام إيطاليا بمهاجمة زعماء هيئة الإصلاح المركزية التي لم تستطع الاستمرار في الصمود خلال العام التالي، أمام ازدياد مهاجمة القوات الإيطالية

---

(١) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٨، ١٩٠: ١٩٢. مقابلة مع المجاهد أحمد مهنى الصديق عيسى، منطقة رقم ١٣.

(٢) موسوعة روايات الجهاد، مجلد رقم ٢٧، ١٤١.

لها ، خاصة عقب احتلال ورفلة[١] في شهر ديسمبر عام ١٩٢٣، مما دفع بأعضاء الهيئة المذكورة ومَن كان برفقتهم من المجاهدين إلى الهجرة في اتجاهات مختلفة ، سواء إلى داخل ليبيا أو خارجها ، فهاجر أحمد المريض والمبروك المنتصر إلى مصر ومَن معهم مِن الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا من أتباعهم ، البالغ عددهم حوالي ٢٠٠ شخص[٢] .

مساعدة الجواسيس للمجاهدين

لقد أحس بعض المجندين الليبيين بوخز الضمير ، وعادوا للمجاهدين بسلاحهم وخيولهم ، وأصبحوا عونًا للقوات المقاتِلة فوق الجبل الأخضر بقيادة عمر المختار[٣] .

وكان معظمهم يساعد المجاهدين دون أي تردد ، وبمجرد أن تتهيأ الفرصة الملائمة كانت الأسلحة والملابس العسكرية الإيطالية ، بل حتى المرتبات أحيانًا ،

---

(١) تم تشكيل الحملة الإيطالية على ورفلة على النحو التالي :

- قوات الجبل بقيادة الجنرال غراتسياني ، وتتكون من ٤٠٠٠ بندقية و٥٣٠ فارسًا و٤ قطع مدفعية .
- القوات الشرقية بقيادة الكلونيل متزني ، وتتكون من ٥٣٠ فارسًا و٤ قطع مدفعية و٣٥٠٠ بندقية .
- قوات ماريوتي ، وتتألف من ١٣٠ فارسًا و٨٥٠ بندقية وقطعتَيْ مدفع .
- قوات ماليتي ، وتتكون من ٨٠٠ بندقية .
- قوات فولبيني ، وتتكون من ٥٠٠ بندقية و٥٠ فارسًا .
- قوات غلياني ، وتتكون من ٢٥٠ بندقية و٩٠ فارسًا .

ونستطيع أن نتبين مدى الأهمية التي كان يوليها الإيطاليون لهذه الحملة ، التي جردوا لها كل هذه الإمكانيات الضخمة التي لا تتكافأ في واقع الأمر مع إمكانيات المجاهدين المحدودة . انظر : محمد المرزوقي بن عبد النبي بلخير داهية السياسة وفارس الجهاد ، ١٦٠.

(٢) محمد أمحمد الطوير : الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي ضد الغزاة الإيطاليين ، ١٣٤.

(٣) يوسف سالم البرغثي : حركة المقاومة بالجبل الأخضر ، ١٤٢.

تقدَّم إلى المجاهدين . أما فرار البدو من الجيش الإيطالي بكل ما لديهم من ذخيرة فلم يكن ظاهرة نادرة على الإطلاق . وعلى هذه الصورة كانت الكتائب المشكَّلَة من الأهالي المورد الدائم للسلاح والتموين والاحتياطي من الرجال(١) .

وبعد أن ثبت بالدليل القاطع لدى الإيطاليين أن المجاهدين يحاربونهم بسلاحهم نفسه الذي كانوا يتحصلون عليه غنائم في أثناء المعارك ، أو ما يصلهم من هدايا ومساعدات من أقربائهم وإخوانهم الخاضعين للسلطات الإيطالية ، ثبت لدى المخابرات الإيطالية أن المجندين الليبيين بالجيش الإيطالي كانوا يتعاطفون مع بني جلدتهم المجاهدين ويمدونهم بالأسلحة ، ويتبرعون بمرتباتهم زكاة ، مما جعل السلطات الإيطالية تشك في نوايا تلك الفئة ، حيث لاحظ غراتسياني أن المدعو سليمان سعيد العرفي رئيس الدوريات المحلية له اتصالات خفية بعمر المختار في وادي الباكور ، فأقدمت السلطات الإيطالية على تغيير نوع السلاح المستعمَل من قِبَل الجيش الإيطالي حتى لا يستفيد المجاهدون بالذخيرة ، وكبَّد ذلك الإجراء الخزانة الإيطالية الخسائر المادية الفادحة وتعرَّض غراتسيانى إلى اللوم الشديد من قبل المسئولين في روما(٢) .

عندما تكتشف السلطات الإيطالية أي شيء من هذا القبيل تكون عقوبته المصادرة ثم الإعدام للقائمين عليه ، كما حدث للمواطن محمد الحداد من بنغازي الذي كانت تتم عن طريقه الإمدادات من المؤن والأسلحة ، فأعدمت السلطات الإيطالية الأب والابن بناء على قرار المحكمة الطائرة(٣) ، لقد أسهم هؤلاء المواطنون

---

(١) نيكولاي إيلشتين بروشين : مرجع سبق ذكره ، ١٩٩.

(٢) يوسف سالم البرغثي : حركة المقاومة بالجبل الأخضر ، ١٤١.

(٣) ابتكر القائد الفاشستي غراتسياني المحكمة الطائرة ، وأنشأها في أبريل عام ١٩٣٠م ، وهي محكمة عسكرية كان يتنقل أعضاؤها بالطائرة ، إلى حيث يُلقَى القبض على مَن يُعرَف أنه ساعد أحدًا من المجاهدين ، أو اشترك في عمل عدائي ، وكانت المحكمة تأخذ بالظن وتحاكِم محاكمة صورية وتُصدِر=

الخاضعون للحكم الإيطالي في تمويل المجاهدين[1] .

ويقول غراتسياني : (العرب الخاضعون لحُكمنا يمدون الثوار بكل شيء : رجال ، وسلاح ، ومؤن ، وأموال . كذلك المشايخ ندفع لهم الرواتب ، يزيدون عليها قيمة الأعشار ويبعثونها إلى الثوار من أجل تمويل الجنود التابعين لقبيلتهم . كذلك الموظفون يدفعون الأعشار من رواتبهم)[2] .

كما كان المجندون الليبيون يقومون بإيصال المعلومات إلى المجاهدين عن تحركات العدو وعن خططه ، فها هو أحد المجندين يترنم بأغنية شعبية ، لا بقصد الطرب ، بل بقصد تنبيه المجاهدين لما يُحاك لهم من مؤامرات إيطالية ، بُغْيَة اجتياح معسكراتهم المختلطة في أثناء الليل والقضاء عليهم ، فيقول : (الجار ما ايخون الجار ... وحنا جارنا خاينيه) ، فتنبه المجاهدون إلى ما يقصده ذلك المجند ، وعندما قُرّب وقت تنفيذ الكمين الإيطالي حاول ذلك الحارس أن يخبر المجاهدين بخطورة الموقف ، فقال :

اصحوا يا رقود الليل جاكم السيل أو غمكم

أي أن الخطر مُحْدِقٌ بكم ، وأن الإيطاليين سيقومون بتنفيذ مخططهم ، وكان من المحتمل أن تكون النهاية المحققة لجنود الأدوار المختلطة ويتم القضاء عليهم لولا تنبيه ذلك الحارس للمجاهدين ، وقد أفشل هذا المجند الخطة الإيطالية ، كما أن أولئك المجندين الذين أرغمتهم ظروف الحاجة ، نظرًا لسياسة التجويع الإيطالية ،

=الحكم في التو وتنفذه في الحال ، وقد فَصلت هذه المحكمة خلال المدة من إنشائها حتى شهر مارس ١٩٣١م في ٤٠٠ حادث ، كان عدد المتهمين في تلك الحوادث ٧٠٠ شخص ، مُثِّلَ منهم أمام المحكمة ٤٤٨ متهمًا ، إذ إن بعض المتهمين تمكنوا من الفرار ، وقد أصدرت المحكمة أحكامها بالإعدام والسجن ضد ٢٥٠ من الذين مثلوا أمامها. انظر : المبروك الساعدي : النظم الحربية لدى عمر المختار ، ١١٠.

[1] عقيل محمد البربار : الأسس الاقتصادية والاجتماعية ، ٨٢.

[2] نفسه ، ٨٣.

على الانخراط في صفوف القوات الإيطالية ، قد أفادوا كثيرًا المجاهدين ، وأطالوا عُمْر حركة المقاومة الوطنية ، فهرب عدد منهم بأسلحتهم وخيولهم والتحقوا بالمجاهدين ، وعلى سبيل المثال هرب ١٩ شخصًا من إحدى الكتائب الإيطالية خلال مدة ١١ شهرًا ، كما كانوا يمدون المجاهدين بقطع الغيار الصالحة لبنادقهم ويضعون القطع التالفة بالبنادق المستعملة لديهم ، ويقومون بإخفاء تلك البنادق بالمخازن الإيطالية ، وكانوا هم المصدر الوحيد والمهم للذخيرة بالنسبة للمجاهدين ، حيث كانوا يقومون في أثناء حدوث أية معركة ضد المجاهدين بإطلاق عدة أعيرة نارية بالهواء ، ويلقون بباقي الذخيرة بالأرض ، ويتظاهرون بالتراجع والانسحاب ، فيقوم المجاهدون في جنح الظلام بالبحث عن تلك الذخيرة بموقع المعركة[1] .

وقد أثبت ذلك حسن الرضا السنوسي الذي أكد للإيطاليين أنه في أثناء المعارك كان الجنود الليبيون يتركون على الأرض الذخيرة والعتاد والأسلحة مبعثرة ، وبعد انتهاء المعركة يتسلل المجاهدون في أثناء الليل ويستحوذون على هذه الذخيرة والعتاد من أجل استعمالها ضد الإيطاليين[2] .

في إطار إيجاد حلٍ لمعضلة التعاون بين المجندين والأهالي من جهة ، والمجاهدين من جهة أخرى ، فكّر الإيطاليون في إحضار بعض المجندين من بين المواطنين بالمناطق الغربية والجنوبية التي تم إخضاعها بالكامل مع نهاية سنة ١٩٣٠م ، وذلك كي يضمنوا عدم وجود أية رابطة كالمصاهرة أو القرابة بين المجندين والأهالي بمناطق الجبل الأخضر وبرقة ، فكانت فرقة عاكف أمسيك الغرياني وفرقة إبراهيم القريتلي وغيرهما ممن استطاعوا تقديم الخدمات الجيدة في سبيل تحقيق الأهداف الإيطالية في القضاء على عنصر التعاون بين المجاهدين والمجندين[3] ، وقد عوَّل

---

(١) يوسف سالم البرغثي : حركة المقاومة بالجبل الأخضر ، ١٤٣.

(٢) عقيل محمد البربار: الأسس الاقتصادية والاجتماعية ، ٨٩.

(٣) يوسف سالم البرغثي : حركة المقاومة بالجبل الأخضر ، ١٤٦.

غراتسياني كثيرًا على مجهودات بندة عاكف وبندة القريتلي ، وقام بتسريح العديد من المجندين بالجيش الإيطالي من أبناء المنطقة ليتخلص من عقدة وصول الأسلحة والذخائر والمعلومات إلى المجاهدين ، وقد جعل غراتسياني حيازة الأسلحة جريمة عقوبتها الإعدام ، وقام بعدة حملات واسعة لنزع جميع الأسلحة من أيدي الأهالي المستسلمين ظاهريًا للسلطات الإيطالية[١] .

دور الجواسيس في القبض على المجاهد الكبير عمر المختار

يتميز الجبل الأخضر بكثافة أشجاره ووعورة سطحه ، حيث الجبال المتنوعة والصخور المتناثرة والأودية العميقة المتشابكة ، وكان هذا سلاحًا ذا حدين ، فهو بالنسبة للإيطاليين يُعَدُّ مشكلة معقدة ، يصعب من خلالها استعمال الآلات الثقيلة والعربات والمدافع ، وهو بالتالي عامل ساعد المجاهدين على التخفي والمباغتة والتطويق ، ومناسب أيضًا لاستعمال البندقية التي لا يمتلك المجاهدون سواها ، وهو مهم أيضًا في إثارة الرعب والفزع في نفوس الإيطاليين من خلال مجموعات قليلة من المجاهدين موزعة على جهات مختلفة[٢] .

ومنذ أن وطئت أقدام غراتسياني منطقة الجبل الأخضر في ٢٧/ ٣/ ١٩٣٠م أصبح المجاهدون يعانون من ضخامة القوات الإيطالية الجرارة التي بلغت حوالي ١٣ ألف جندي ، وأيضًا قيام غراتسياني بتكليف عدد من الجواسيس بمتابعة تحركات المجاهدين ، وأفادت المجموعة المكلَّفَة بمراقبة دور العبيدات والحاسة ، بقيادة القائمقام الفضيل أبي عمر نائب عمر المختار بالدور المذكور ، أن المجاهدين يعسكرون بضواحي قرية القبة ، فيما تفيد الروايات أن أحد المجاهدين تقدَّم إلى

---

(١) نفسه ، ١٤٧.

(٢) أحمد عطية مدلل : مرجع سبق ذكره ، ٩٧.

الفضيل بوعمر يطلب السماح له بالذهاب من القبة حيث يعسكر الدور بالدبوسية، لزيارة أهله وإحضار المؤن والأسلحة من شحات، وفعلًا سمح له الفضيل بوعمر بعد أن جمع له النقود، واصطحب المعنيُّ معه أربعة مجاهدين، كان من بينهم المجاهد أحميدة أبو عمر الحاسي، وعقب وصول المجاهد المذكور إلى شحات طلب من رفقائه البقاء بمكان محدد قرب شحات حتى يعود إليهم، لكنه لم يعد مجاهدًا بل عاد على رأس القوات الإيطالية. وتنبه المجاهد أحميدة أبو عمر الحاسي إلى الخديعة، وكلَّف أحد أتباعه بالاتصال بعمر المختار وإخباره بالخيانة التي تمت[1].

لكنَّ المبعوث كان غير أمينٍ، فتخلف بعض الوقت بنجع للمودة وهو في طريقه إلى الدبوسية مقر الدور، وإذ بالإيطاليين تقودهم مجموعة الجواسيس تتحرك قواتهم التي كانت بقيادة الرائد (راغاتسي) نحو وادي بدهاش، وفق تعليمات قسم المخابرات، فيما تم تجنيد (٢٠٠) من الأهالي لتعزيز القوات النظامية، وتم نقل هؤلاء المجندين بالسيارات من شحات إلى القبة، وكان الاشتباك مع المجاهدين بالدبوسية فيما عُرِف بمعركة الأثرون الأولى يوم التاسع عشر من سبتمبر عام ١٩٣٠م عند الفجر، وعلى حين غِرَّة من أمرهم، حيث كانوا لا يتوقعون الخيانة المُرَّة، التي اكتسبت مرارتها من أن الجواسيس كانوا مع المجاهدين في السابق، ويعرفون خططهم المتعلقة بنقاط الحراسة والمراقبة وتوزيع الحراسات، فقادوا القوات الإيطالية دون أن يتعرضوا إلى مواقع الدوريات، وحاصروا الدور، بل تمكنوا من الدخول وسط جموع المجاهدين وهم نائمون، وكانت المفاجأة، وجُرِح الفضيل بوعمر واستُشهِد خمسة من المجاهدين[2].

---

(١) يوسف سالم البرغثي: المرجع السابق، ٢٣٩.

(٢) نفسه، ٢٤٠.

لكن كانت المفاجأة المذهلة لقوات غراتسياني عندما ظهر الدور من جديد شمال وادي الغريب، وانساب بوديان قرية بطة، وكانت القوات الإيطالية المتحركة من مواقعها في المرج وتاكنس وزاوية العرقوب تجوب المنطقة في يوم ٧/١٠/١٩٣٠م، بحثًا عن المجاهدين، فيما وصلت المعلومات إلى الإيطاليين في يوم ٨/١٠/١٩٣٠م عن طريق أحد الجواسيس[1] الذي تم القبض عليه من قبل المجاهدين في أثناء وجوده بالقرب من معسكرهم في وادي السانية، واقتيد الجاسوس إلى الدور وتظاهر بالبكاء، وقال: «إنني ندمت على فعلتي وتركي للمجاهدين، وها أنا عدت لأبقى معكم»، وصدَّق الجميع أكذوبة ذلك الرجل، وعند المساء هرب الجاسوس بعد أن سرق حصان المجاهد عثمان الشامي قائمقام دور البراعصة والدرسة، واتصل بالإيطاليين بطلميثة وأخبرهم أن المجاهدين موجودون بموقع وادي السانية، فيما قرر عمر المختار الرحيل من الموقع فور علمه بما حدث من الجاسوس، وعَلِم المجاهدون بوجود القوات الإيطالية قرب موقع الدور في الصباح الباكر، فترصدوا لها في محاولة لفتح ثغرة في صفوف العدو، وكانت معركة عنيفة كان خلالها الاشتباك بالسلاح الأبيض، وأصيب جواد عمر المختار، وسقطت نظارته ذات الأجنحة الذهبية، وفقَدَ ختمه الخاص، واستيقظ غراتسياني من أحلامه عندما سُلِّمَت له نظارة عمر المختار فجُنَّ جنونه، وازداد شراسة وحمقًا وأصدر منشورًا قال فيه: (... تحصلنا على نظارة عمر المختار وغدًا رأسه ...)[2].

---

(١) وهو طاهر المهير البرعصي، كان ضابطًا مع أحمد الشريف، وانضم للطليان وعمل مع الاستخبارات الإيطالية، ووشى بالمجاهدين، وهو السبب في اعتقال عمر المختار. انظر: موسوعة روايات الجهاد الشفوية، مجلد رقم ٢٧، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١، ١٩، ٢٠. مقابلة مع المجاهد جبريل موسى البرعصي، شريط رقم ٣.

(٢) يوسف سالم البرغثي: المرجع السابق، ٢٥٠: ٢٥٣.

وقد تحقق لغراتسياني ما أراد، بفضل مجموعة من الجواسيس الذين كانوا يتابعون عن بُعد حركة الدور ويرصدون حلَّه وترحاله، وحالما انتبهوا إلى وجود عمر المختار بعد أن تم لهم ذلك عن طريق التنصت في أثناء الليل، بينما كان الدور يعسكر بموقع وادي الكوف قرب مزرعة كهف الدرقوش جنوب ضريح سيدي عبد الواحد حاليًا، رسم الجواسيس خطتهم بحيث يبقى أحدهم يراقب تحركات المجاهدين، فيما يعود الشخصان الآخران إلى البيضاء وإبلاغ السلطات الإيطالية بذلك، وعلى الفور، في سرية تامة، تحرَّكت قيادة الجيش الإيطالي بقواتها من بطة وجردس الجراري ومراوة وبئر قندولة، واتجهت تلك القوات يوم ١٩٣١/٩/١٠م إلى الموقع تقودها مجموعة الجواسيس في محاولة لتطويق الدور والإحاطة به من كل جانب، وما أن طلع الفجر ليوم ١٩٣١/٩/١١م[١] حتى تم القبض على المجاهد الكبير عمر المختار، وتم تجريده من السلاح ومن حقيبته الخاصة، وصُفِّدَت يداه بالسلاسل وركب الحصان أسيرًا من دون ركاب وكانت الحراسات من حوله[٢]. فَجِيء به إلى بنغازي، حيث جَرَتْ له محاكمة حضرها غراتسياني الذي قطع إجازته وعاد من أجل ذلك. وقد اتُّهمت المحكمة عمر المختار بالنشاط المعادي لمصالح الدولة وأمن البلاد، وحُكِم عليه وهو في السبعين من عمره بالإعدام شنقًا في ١٦ من سبتمبر عام ١٩٣١م بمنطقة سلوق بحضور ٤٠ ألفًا من البدو، الذين جمعهم الطليان من المناطق المجاورة، أما جثمانه فدُفِن بصورة سرية خوفًا من هيجان شعبي جديد[٣].

وكان لإعدام عمر المختار وقْع أليم في نفوس العرب والمسلمين، فقد استنكروا هذا التصرف البعيد عن القيم الأخلاقية والإنسانية.

---

(١) نفسه، ٢٦٧.

(٢) نفسه، ٢٧٤.

(٣) نيكولاي إيلشتين بروشين: مرجع سبق ذكره، ٢١٢.

وقد رثاه المرحوم أحمد شوقي بقصيدة طويلة ، معدِّدًا مآثر البطولة لدى عمر المختار ، فقال :

خُيِّرتَ فاخترتَ المبيتَ على الطوَى لم تَبنِ جاهًا أو تَلُمَّ ثراءَ
إن البطولةَ أن تموتَ من الظما ليس البطولةُ أن تعُبَّ الماءَ
إفريقيا مهْدُ الأسودِ ولحْدُها ضجَّتْ عليك أراجلًا ونساءَ
والمسلمون على اختلافِ ديارِهم لا يملُكونَ مع المُصابِ عزاءَ
في ذمةِ اللهِ الكريمِ وحفْظِهِ جسدٌ ببرقةَ وُسِّدَ الصحراءَ[1]

وبعد استشهاد عمر المختار وقع الاختيار على يوسف أبو رحيل ، ليرأس وحدات المجاهدين التي لم يكن عددها يزيد آنذاك عن الـ ٧٠٠ مجاهد ، وظل المجاهدون يواصلون غاراتهم على مدى أربعة أشهر ، فاضطر الإيطاليون لتجريد قوات كبيرة ضدهم ، وراحوا يضيِّقون عليهم الخناق مثلما سدوا جميع المنافذ دون استثناء ، ودب الخلاف بين المجاهدين ، واتضحت أهمية وجود قائد مهيب كعمر المختار . وقرر يوسف أبو رحيل وعبد الحميد العبار أن يَنفُذا عبر الأسلاك الشائكة ويبحثا عن ملاذٍ آمن في مصر ، أما بقية المجاهدين فبَقَوا في الجبال مقضيًا عليهم بالهلاك جوعًا أو برصاص الغزاة[2] .

وبعد استشهاد المجاهد الكبير عمر المختار قامت السلطات الإيطالية بتسخير كل المعتقلين لبناء مشاريع استيطانية إيطالية ، مثل إنشاء الطرق ونقل الحجارة وتكسيرها مقابل نصف كيلو شعير للفرد العامل ، واضطر الجميع للالتحاق بالعمل حتى يحصلوا على قُوتِهم ، وهكذا تم تحقيق الشعار الفاشستي الذي يقول :

---

(١) انظر مرثية أمير الشعراء أحمد شوقي بالملحق الأول المنشور في العدد الخاص عن أعمال الندوة العلمية التي عقدها مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ، بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار ، ط ٢، طرابلس ١٩٨٣م ، ١٧٣: ١٧٥.

(٢) نيكولاي إيلشتين بروشين : مرجع سابق ، ٢١٣.

(معاملة الخاضعين لسلطتنا بكل شدة لدرجة تجويعهم حتى الخيط الرفيع من الحياة)، ولقد تناول المعتقلون وضعهم هذا في عدة أشعار خلَّدت تلك الذكرى الأليمة من سنوات الاعتقال، فقال جلغاف بوشعراية:

محابيس في نقطة سلوق ابقينا　　لا نعجة لا ناقة تحوش علينا
في نقطة سلوق قعدنا　　بالفأس نخدموا ولدهر ما ساعدنا
في نقطة سلوق فقارا　　بالفأس نخدموا من غير واخذ اجار[1]

ولقد أدت كل هذه الإجراءات الإيطالية التعسفية مجتمِعةً إلى تقويض الأسس الاقتصادية والاجتماعية لحركة المقاومة، وأصبح المجاهدون في وضع سيئ جدًا، فصارت هجماتهم على القوات الإيطالية سريعة وانتحارية يتكبدون فيها خسائر بشرية جسيمة، ثم جاء اعتقال عمر المختار واستشهاده فأسهم في غياب القيادة، في كسر معنويات المجاهدين، فانتهت المقاومة المسلحة في شهور قليلة بعد استشهاد شيخ الشهداء[2].

وفي ٢٤ من يناير ١٩٣٢ أعلن بادوليو الحاكم العام في ليبيا، في تصريح رسمي، نهاية المقاومة في ليبيا، اعترف فيه: «أنه للمرة الأولى، بعد عشرين عامًا من نزولنا بهذه الأرض، قد تم احتلال المستعمرتَيْن طرابلس الغرب وبرقة وتهدئتهما»[3].

بعد ذلك قامت إيطاليا بمصادرة مساحات كبيرة من أراضي برقة وطرابلس، وسحبها من أصحابها وإعطائها للمستعمرين الإيطاليين، والسماح لهم بإقامة المزارع الكبيرة وأيضًا إقامة الصناعات ومد شبكة من المواصلات لخدمتها، خاصة

(١) يوسف سالم البرغثي: المعتقلات، ١٣٦.
(٢) عقيل محمد البربار: الأسس الاقتصادية والاجتماعية، ٩١.
(٣) عبد العظيم مهيدي: مرجع سبق ذكره، ١٨.

في المناطق الشمالية الساحلية[١].

مصير الخونة بعد هزيمة إيطاليا

أمَّا أولئك الخونة الليبيون الذين شاركوا في نصب المشانق الجماعية، وتعذيب إخوانهم الليبيين وتشريدهم والزجِّ بهم في المعتقلات الرهيبة، فإن إيطاليا كما قالت الشاعرة أم الخير:

أو يندم اللى وأخذ معاهم صوله   بعد طغوته يطرب على رفقانا

لم تنفعهم بعد اندحارها وانهيارها، ولم يجدوا من مُعِين سوى أبناء وطنهم الذين قابلوا الإساءة بالإحسان وغفروا لهم خطاياهم، وها هم اليوم يستمتعون بالعيش في وطنهم مواطنين أحرارًا، بل قد خَصصت لهم ثورة الفاتح من سبتمبر بعض المزارع عند قيامها بإجلاء بقايا المستوطنين الإيطاليين عن الأرض الليبية[٢].

الخاتمـة

وضح من خلال الدراسة أنه كانت هناك أنماط مختلفة من التعاون مع الإيطاليين؛ بَدءًا من السلبية والابتعاد عن المشاركة الفعالة في صفوف المقاومة، حتى التعاون الوثيق مع القوات الإيطالية على هيئة أدلاء ومخبرين وموظفين إداريين. وقد قَسَّمت السلطات الإيطالية أهالي البلاد وفق طريقتها الفاشية المعتادة إلى مستسلمين وعصاة. وكانت تَعقد آمالًا خاصة على هؤلاء البدو المستسلمين باعتبارهم حلفاء لها في صراعها ضد الوطنيين، وقد دخل كثير من البدو سلك

---

(١) JACQUES COULAND, *L'eveil du monde arabe, editions sociales.* Paris 1964, p.49.

(٢) عبد العالي أبو عجيلة: أم الخير شاعرة معتقل البريقة، ٣٢١.

الجيش أو الشرطة الإيطالية من أجل أن يكسبوا لقمة العيش.

وعلى الرغم من كل الحِيَل التي استخدمها الإيطاليون، خاصة استخدامهم الجواسيس من أبناء الشعب الليبي، وتجنيدهم لنقل المعلومات عن المقاومين، وكيفية تحركاتهم للتصدي لهم ومعرفة أساليبهم القتالية، حتى تجنَّب الجيش الإيطالي الخسائر الكبيرة التي كان يتكبدها جراء صدامه مع القوات الوطنية الليبية المجاهدة، فإن الطليان استطاعوا عن طريق حيلهم السيطرة على الشعب الليبي واستخدام كل الطرق لإذلاله والنيل من كرامته، لكنَّ الغزاة الطليان لم يستطيعوا تحطيم مقاومة القبائل إلا بعد مرور ٢٠ عاما أخرى، وقد تميزت العمليات الحربية التي كانت تجرِي في البلاد بمقاومة عنيفة وببطولة فائقة أبداهما الشعب الليبي. ولم يكن بوُسْع الطغمة العسكرية الإيطالية إخضاع البلاد وإنجاز احتلال ليبيا واستعمارها إلا في عام ١٩٣٢، بعد مذابح جماهيرية كبيرة وتنكيلات وحشية بالقبائل المقاتِلة، وبعد أن استطاعت أن تبث الفرقة بين رؤساء القبائل والزعماء الوطنيين، وبعد القضاء على المجاهد الكبير شيخ الشهداء المناضل عمر المختار الذي كان لأسْرِهِ والقبض عليه وإعدامه أثر كبير على حركة المقاومة الليبية، ومنذ ذلك أصبحت إيطاليا حرة طليقة في ليبيا، تفعل ما تشاء من أفعال، ولا أحد ينازعها في ذلك. كما وضح من خلال الدراسة أن كثيرًا من أبناء الشعب الليبي الذين استسلموا للطليان أو عملوا جواسيس وعيونًا لهم، وأيضًا مقاتلين في صفوف الأعداء ضد بني وطنهم، أحس البعض منهم بوخز الضمير وعادوا للمجاهدين بسلاحهم وخيولهم، وأصبحوا عونًا للقوات المقاتلة وتصدوا للطليان، وكانوا خير عَوْنٍ لإخوانهم لمعرفتهم بأساليب الطليان الحربية، فعملوا في كثير من المواجهات والمعارك على دَحْضِ خططهم لمعرفتهم المسبَقَة بها من خلال عملهم جنودًا مع الإيطاليين.

لكن حتى الأشخاص الذين كانوا متَّهمِين بأحط أنواع التعاون والعمالة مع الإيطاليين، كانوا يقدِّمون العون إلى المجاهدين كلما سَنَحَتْ لهم الفرصة، خاصة

إذا كانت بينهم صلة قرابة، وكان معظمهم يساعد المجاهدين دون أي تردد، فكانت الأسلحة والملابس العسكرية الإيطالية، بل حتى المرتبات أحيانًا، تُقَدَّم للمجاهدين، كما كان فرار البدو من الجيش الإيطالي بكل ما لديهم من ذخيرة وسلاح يمثّل المورد الدائم لسلاح المجاهدين.

ولم تنتهِ محاولات الإيطاليين في تحطيم مقاومة الأهالي، بالتهديد والوعيد ولا بالوعود السخية إلى أية نتائج إيجابية. لذلك قرروا عزْل الجبل الأخضر عن بقية أجزاء البلاد، وقطعوا جميع خطوط إمدادات المجاهدين بالسلاح والذخائر.

كذلك ترتب على القضاء على حركة المقاومة الليبية أن احتلت إيطاليا الأراضي الليبية كافة، وقامت الحكومة الإيطالية بنزع ملكية الأراضي بحجة الاحتياجات العامة، وبمصادرة أراضي الثوار لتُعطَى للمستعمرين الإيطاليين. وأيضا ترتب على ذلك أن هاجَرَ كثير من الليبيين إلى مصر وإلى تونس وبلاد الشام، من أجل ملاذ آمن في هذه البلاد.

لقد تناول بعض الكُتَّاب الليبيين شأن القيادات الوطنية بين الاتهام والتبرئة، لكن هل من المصلحة ألا تخضع أحكامهم لدراسة معمّقة وبدون أية رؤية ومعرفة دقيقة لبعض فترات المقاومة؟

إن المدقِّق في تاريخ حركة المقاومة الوطنية ضد الغزو الإيطالي يلاحظ أن بعض الزعماء قد اختلفوا فيما بينهم، بسبب بعض المصالح المتضاربة أحيانًا، وأحيانًا أخرى بسبب اختلاف وجهات النظر في كيفية التعامل في مواجهة الاحتلال الإيطالي لبلادهم، فكان لذلك بعض النتائج السلبية على حركة المقاومة الليبية، وعلى الرغم من ذلك فقد كان لبعضهم الآخر مواقفه المشرِّفة في حركة المقاومة في أثناء العدوان الإيطالي على ليبيا، طوال فترة المقاومة التي استمرت أكثر من عشرين عامًا.

وقد فطن بعض الوطنيين إلى الخطر الكامن وراء انعدام توحيد القيادة، لكن بعد فوات الأوان، وقد نتج عن ذلك تشعُّب في المواقف، واختلاف في وجهات

النظر، فرأينا بعض الزعماء يعارِضون المقاومة المسلحة لإيطاليا عقب احتلالها البلاد، ورأينا آخرين يقفون على الحياد ويعلنون الاستسلام، كأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد، ورأينا بعضهم يتمسك بأن يكون هو صاحب الكلمة النهائية في إبرام الهدنة، نظرًا لأن الاعتداء واقع على أراضيه. وهكذا وضحت مواقف الزعماء في كثير من الحالات على أساس جهوي أو قبلي، لكل قبيلةٍ أو جهةٍ زعيم يتولى أمرها ويقرر مصيرها ويحدد موقفها. وقد ترتب على ذلك تعريض مواقف الزعماء وشخصياتهم لأن تكون عُرْضة للشك والريبة، ولا شك في أن هذه الزعامات بما جرَّته من فتن وصراعات ومنافسات واتهامات وانقسامات فيما بينها، كانت نكبة كبرى على مقدرات الوطن الليبي الذي عبث بها الاحتلال الإيطالي.

في النهاية ألا تثير هذه الحقائق والأفعال التي استخدمها الطليان ضد الشعب الليبي الحقد والكراهية والاشمئزاز بما فيه الكفاية؟ وهل يمكن أن يَنسى مَن احتُلَّتْ ديارهم واغتُصِبَت أراضيهم ذلك الاحتلال المقيت الذي سلبهم حريتهم وإرادتهم بسبْي نسائهم وقتْل أطفالهم وإهانة شيوخهم؟! لقد وضح سلوك غزاة ليبيا ووحشيتهم وقسوتهم وسوء إدارتهم للبلاد، وبثهم الفُرْقة بين أبناء الشعب الواحد، كي يحققوا أمجادهم على حساب معاناة الشعوب وأنين الأطفال والنساء ومعاناة الرجال.

المصادر والمراجع

أولًا : الوثائق المنشورة

موسوعة روايات الجهاد الشفوية ، مجلد رقم ٢٧، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١.

موسوعة روايات الجهاد الشفوية ، مجلد رقم ٢٨، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١.

موسوعة روايات الجهاد الشفوية ، مجلد رقم ٣٥، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩٦.

ثانيًا : المراجع العربية والمعربة

أحمد عطية مدلل : المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي وتأثيرات الأوضاع الدولية عليها أغسطس ١٩١٤ ـ أبريل ١٩١٥، مراجعة د.عقيل محمد البربار ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٩.

إدريس صالح الحرير : مواقف خالدة لعمر المختار ، أعمال الندوة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار سبتمبر ١٩٨١، ط ٢، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م .

المبروك الساعدي : النظم الحربية لدى عمر المختار ، أعمال الندوة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار ، سبتمبر ١٩٨١، ط ٢، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م .

جاك بيشون : المسألة الليبية في تسوية السلام ، ترجمة علي ضوي ، مراجعة د.صالح المخزوم ، ط ١، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١.

جورج ريمون : من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا ، نقله عن الفرنسية وحققه وقدم له محمد عبد الكريم الوافي ، ط ٢، القاهرة ـ دار الفرجاني ١٩٨٢.

ج. ف. أبوت : الحرب المقدسة في طرابلس الغرب ، ترجمة عبد الحفيظ الميار ، القاهرة ـ دار الفرجاني ١٩٩٣.

ج. ف. أبوت : الجهاد في طرابلس ، ترجمة د.عبد القادر المحيشي ، مراجعة د.محمد عبد الوهاب سيد أحمد ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٠م .

حبيب وداعة الحسناوي : منشور كانيفا : ملاحظات أولية حول الأبعاد الأيديولوجية للسياسة الاستعمارية الإيطالية تجاه العرب الليبيين ، مجلة الشهيد ، العدد الرابع ، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م .

عبد الرحمن عزام : كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية ، ترجمه عن الألمانية د.عماد الدين غانم ، مجلة الوثائق والمخطوطات ، العدد الأول ، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥.

عبد العالي أبو عجيلة جاد الله : أم الخير شاعرة معتقل البريقة ، مجلة الشهيد ، العدد رقم ٥، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥.

عبد الله على إبراهيم : آثار صلح لوزان على حركة الجهاد ، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي (١٩١١ ـ ١٩٤٣م) ، ج ٢، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨.

عقيل محمد البربار : الأسس الاقتصادية والاجتماعية لحركة الجهاد ، أعمال الندوة العلمية التي عقدت بالمركز بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار ، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣م .

عقيل محمد البربار : حركة عمر المختار في الجبل الأخضر ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨.

عمرو سعيد بغني : حركة الجهاد الليبي خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢١م ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨.

فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ترجمة د.عفيفة البستاني ، مراجعة يوري روشين ، موسكو ـ دار التقدم ١٩٧١م .

محمد المرزوقي : عبد النبي بلخير داهية السياسة وفارس الجهاد ، ليبيا ، تونس ـ الدار العربية للكتاب ١٩٧٨م .

محمد أمحمد الطوير : الشيخ محمد فرحات الزاوي أحد قادة الجهاد الليبي ضد الغزاة الإيطاليين ، ط ١، مصراتة ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٩٣م .

محمد علي التركي : معركة القبلة ، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٩٨.

نيكولاي إيلشتين بروشين: تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩، ترجمة وتقديم د.عماد حاتم، مراجعة د.ميلاد المقرحي، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٨.

نيكولاي إيلشتين بروشين: تاريخ ليبيا في العصر الحديث (منتصف القرن السادس عشر ـ مطلع القرن العشرين)، ترجمة وتقديم د.عماد حاتم، سلسلة الدراسات المترجمة، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٩١.

هنري أنيس ميخائيل: العلاقات الإنجليزية الليبية، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠.

يوسف سالم البرغثي: المعتقلات، الندوة العلمية سبتمبر ١٩٨١، طرابلس ـ مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٣.

يوسف سالم البرغثي: المعتقلات الفاشستية بليبيا دراسة تاريخية، مراجعة د.صلاح الدين حسن السوري، طرابلس ـ منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ١٩٨٥م.

يوسف سالم البرغثي: حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢م)، ط ١، طرابلس ـ منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٠م.

المذكرات الشخصية

أورخان قول أوغلو: مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا، ترجمة وجدى كدك، مراجعة د.عماد حاتم، طرابلس ـ منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩.

جميل عارف: صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام، ج ١، القاهرة ـ المكتب المصري الحديث ١٩٧٧م.

مذكرات أنور باشا في طرابلس الغرب، تقديم وترجمة عبد المولى صالح الحرير، مراجعة حبيب وداعة الحسناوي، طرابلس ـ منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩م.

مذكرات جيوليتي: الأسرار السياسية والعسكرية لحرب ليبيا ١٩١١ ـ ١٩١٢م، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي، ط ٣، مصراتة ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ١٩٨٦.

المراجع الأجنبية:

JACQUES COULAND, *Leveil du monde arabe, editions sociales.* Paris 1964.

JEAN-PIERRE DERRIENNIC: *Le Moyen-Orient Au XX e siècle,* Seconde edition, Paris 1993.

الرسائل الجامعية

عبد العظيم مهيدي أحمد صميدة : العلاقات المصرية الليبية ١٩٤٥ ـ ١٩٧٣، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنيا ، ١٩٩٧.

تنويه

نظرًا لأن البحث يتناول بعض الأشخاص الذين ينتمون لبعض العائلات الليبية ، ويشير إلى اتهام أفراد منها بالجاسوسية أو العمالة مع الإيطاليين ، أود الإشارة إلى أن هذا ليس من باب التشهير ، لكن الأمانة العلمية في كتابة الأبحاث تُحتِّم ذِكْر أسماء هؤلاء الأشخاص ، إلى جانب أن هذه الأسماء المذكورة تم نقلها من خلال المقابلات الشخصية التي سُجِّلت في روايات الجهاد الشفوية التي قام بتدوينها مركز الجهاد الليبي ، ودُوِّن بالهامش رقم الشريط واسم المجاهد الذي تمَّت معه المقابلة الشفوية ، إلى جانب بعض الكتابات التي تناولت حركة المقاومة الليبية في مواجهة الاستعمار الإيطالي ، وهي في غالب الأحيان لكُتاب ليبيين.

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٤٦٣ ـ ٤٩٧

دَوْرُ سُلَيمَانَ النَّابُلسِيُّ فِي سِيَاسَةِ الأُرْدُنُ بَيْنَ عَامَيْ ١٩٢٢ـ١٩٥٧م

نعمان عاطف عمرو

سامي محمد علقم(*)

ملخص الدراسة

لقد تأثر سليمان النابلسي بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي رافقته في حياته، الأمر الذي مهَّد له الطريق للالتحاق بأحدث المدارس والجامعات في عصره، مما أتاح له فرص الانفتاح على النخب السياسية والاجتماعية، وصقلت شخصيته بالمفاهيم والقيم الوطنية، الأمر الذي مهد له طريق الصعود إلى القمة من خلال كاريزمية شخصية وعلاقات ناجحة.

ولدى عودته إلى الأردنّ ـ بعد إنهاء دراسته الجامعية ـ بدأ الاحتكاك بالجماهير من خلال عمله في التدريس، وبعدها أُتيحت له الفرصة للتعرف على العمل الحكومي من خلال الوظائف التي تسلمها في الحكومة، وبعد اكتسابه هذه الخبرة توجه إلى العمل السياسي العام من خلال انضمامه للمعارضة ومن ثم قيادتها، وهذه المرحلة أكسبته صفات جديدة، خاصة عندما كان هدفًا للإقامة الجبرية والاعتقال السياسي.

(*) جامعة القدس المفتوحة، منطقة الخليل التعليمية، الخليل ـ فلسطين ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

إلا أن هذه التجربة لم توقف النابلسي ؛ بل جعلته يستمر في حرصه على القضايا الوطنية العامة ، وشكّل حزبًا سياسيًا وخاض الانتخابات البرلمانية مع نخبة من زعماء العشائر والشخصيات المركزية ، الأمر الذي مكّنه من النجاح ومن ثم تولّي رئاسة الوزارة .

لقد حاول النابلسي بناء نظام وطني برلماني ملكي ، كما حاول إطلاق الحريات وإبعاد الأردن عن الأحلاف الغربية ، خاصة حلف بغداد وأيزنهاور ، والتوجه إلى المعسكر الشرقي ، إلا أن استعجال النابلسي في ترسيخه هذه المبادئ أدى إلى نفور شرائح اجتماعية من اليسار ؛ الأمر الذي أدى إلى تدخل الملك لوقف ذلك ، وأُلصقت تهمة الارتباط بالخارج للنابلسي ، الأمر الذي كان له أثر على نمو الحياة الحزبية وتطورها في الأردن فيما بعد .

Abstract

Sulaiman Al-Nabulsi has been affected by the changing social, economic and political circumstances which accompanied him in his life. This paved the way for him to join the most modern schools and universities in his time, offering him opportunities to be open up to political and social elites and refined his personality with national concepts and values. This also paved the road for him to climb to the summit through his charismatic personality and successful relationships.

Upon his return to Jordan after completing of his university education, he began contact with the masses through his work in teaching. Then, he had an

opportunity to learn more about government work through the jobs assigned to him by the government. After the acquisition of this expertise, he moved towards the public political action through joining the opposition and later its leader. This stage provided him with new special qualities especially, when he was the target of house and political arrests.

This experience did not stop Al-Nabulsi, but that made him continue his commitment to public national issues and form a political party. He participated in parliamentary elections with a select group of tribal leaders and central personalities. This fact enabled him to succeed and then assume the position of the prime minister of Jordan.

Al-Nabulsi tried to build a national parliamentary royal system, launch freedoms, take Jordan away from Western alliances, especially the Baghdad Pact and Eisenhower, and head towards the Eastern camp. The rush of this premier in entrenching these principles led to the discontent of the left and the intervention of the king to stop that process. As a result, Al-Nabulsi was charged with association with abroad. Al-Nabulsi's experience had an impact on the growth and development of partisan life in Jordan later.

المقدمة

تُعَد هذه الفترة فترة مميزة في تاريخ النظام السياسي الأردني، رغم الأحداث والتجاذبات التي مرت بها المنطقة؛ إذ حافظ الأردن على استقرار سياسي معقول، وامتص المؤثرات الخارجية على الحركة الجماهيرية، التي تم التعبير عنها بالانتخابات البرلمانية، وتكليف الملك حسين سليمانَ النابلسي بتشكيل حكومة، بصفته رئيس أكبر كتلة برلمانية، واعتُبرت هذه الحكومة ممثّلة للوعي القومي الأردني الذي تأثر في ذلك الوقت بسياسة جمال عبد الناصر، حيث أَطلقت الحكومة الحريات العامة وحاولت تغيير مسار الأردن عن طريق تحويل التمويل والتحالفات من المعسكر الغربي، الذي تُوج بإنهاء المعاهدة الأردنية البريطانية ومحاولة إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي، والحصول على تمويل عربي عوضًا عن الدعم البريطاني للمملكة، إلا أن الأحداث تسارعت بدرجة لم تمكّن سليمان النابلسي رئيس الوزراء من تحقيق برنامجه الوزاري.

ويهدف هذا البحث إلى توضيح المعوقات التي أسهمت في إفشال وجود التيار الوطني في السلطة بزعامة رئيس الوزارة سليمان النابلسي، التي هي في غالبها داخلية، إذ أسهمت التوجهات اليسارية المبالغ فيها، من خلال الحكومة ومن خارجها، في إفشالها وعدم إطالة عمرها لتتمكن من تحقيق أهدافها.

من ناحية أخرى، فإن اهتمامات الحكومة في تجربتها الأولى، وتركيزها على الجوانب السياسية والخارجية، وعدم طرحها برنامجًا اقتصاديًا يعالج الفقر والبطالة والإنتاج، أظهرها على أنها غير قادرة على الحل العملي للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تجسد حياة الناس.

أما من الناحية الخارجية، فإن تركيز التجربة على البُعد القومي، وعدم معالجتها القضايا الوطنية أو الأخذ بعين الاعتبار الخصوصية الوطنية، مما جعلها تظهر كأنها

تعمل عكس التراث الوطني ، وأنها مرتبطة بالخارج أكثر ، حيث أسهم في إبراز هذه الصورة حركة الإخوان المسلمين وحزب التحرير .

أما من حيث تقييم التجربة فإن نقص الخبرة السياسية والاندفاع القومي تجاه الانفتاح مع الخارج ، مما أفقدها إمكانية تحقيق أهم أهدافها الذي يتمثل في إقامة نظام ديمقراطي برلماني في ظل الملكية ليعزز الشراكة المجتمعية ، وإن فشل هذه التجربة في تحقيق ذلك بالتأكيد أدى إلى تراجع الفكر الديمقراطي البرلماني والشراكة المجتمعية لصالح الأنظمة الشمولية القبلية .

رغم تعدد وجهات النظر تجاه حكومة النابلسي ، فإنها تشكل مرحلة من مراحل الانعطاف الحاد في الحياة البرلمانية الأردنية ؛ فالكثير من الكُتاب يحمِّلون هذه الحكومة مسؤولية إعلان الأحكام العرفية وإلغاء الحياة النيابية بعدها مباشرة بسبب نشاطاتها القومية . ومن خلال تتبُّعنا سياسةَ الحكومة ونشاطها ، نجد أنها تأثرت بشكل كبير بشخصية رئيس الوزراء سليمان النابلسي ، الذي حاول تطبيق تجربة اكتسبها من خلال سنوات طويلة من النضال والعمل السياسي الوطني ، فكانت نشأة الرجل لها أثر في مستقبله .

نشأته والعوامل التي أثرت في تكوين شخصيته

قلة هم الرجال الذين تركوا أثرًا بارزًا في تاريخ الأردن وشاركوا في تكوين تاريخه السياسي الحديث ، سليمان النابلسي من هذه الفئة . إن دراسة حياته ليست أمرًا سهلًا ، بسبب قلة المصادر التي تناولتها وضآلة المعلومات المتوفرة عنها ، فضلًا عن الاختلاف بين أصدقائه ورفاقه في فَهم شخصيته ، وتقييمهم دوره في الحياة السياسية الأردنية .

يعود أصل عائلة النابلسي إلى مدينة نابلس بالضفة الغربية ، إلا أنه نشأ وترعرع في مدينة السلط حيث كانت أسرته تتمتع بنفوذ سياسي واجتماعي واقتصادي

فيها، وتمتلك مساحات واسعة من الأراضي؛ الأمر الذي وفر لسليمان إمكانية الدراسة في أفضل المدارس والجامعات. عمل مع عمه الحاج فوزي النابلسي مُسْتنطِقًا، وهي وظيفة قضائية رفيعة المستوى تماثل منصب النائب العام في وقتنا الحاضر. رغم استقرار الأسرة في السلط فإنها حافظت على صلات وثيقة مع جذور العائلة في مدينة نابلس.

تعلَّم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن وألمَّ بالمبادئ الأولية في الحساب، في كتاتيب الشيخ فهيم زيد الكيلاني في السَّلْط، وبعدها التحق بكلية النجاح في نابُلُس حيث أكمل الدراسة الثانوية فيها عام ١٩٢٦م[١]. والتحق بالكلية الإنجليزية في القدس، التي أُطلق عليها فيما بعد اسم (كلية شباب القدس The Jerusalem Men Collage) وكان من زملائه فيها بهاء الدِّين طوقان، وسامي جاسر من السَّلْط، ورَوْحِي الخَطِيب، وعبد الكريم الشَّاعر المعروف بأبي سَلْمَى، وحسن الكَرْمي من فلسطين. بعد سنة من الدراسة في هذه الكلية التحق بالجامعة الأمريكية ببيروت وتخرج فيها عام ١٩٣٢م[٢].

تأثر النابلسي في دراسته الابتدائية بالشيوخ الذين علموه مبادئ الدين الإسلامي وتشرَّب شيئًا من التدين وحفظ أجزاء من القرآن الكريم وكثيرًا من الأحاديث النبوية الشريفة. وتعلم في الكلية أول دروس الوطنية في مقاومة وعد بلفور والاستعمار البريطاني، وكان لمدير الكلية آنذاك محمد عَزَّة دَرْوَزَة تأثير قوي على سليمان. كما أسهمت الاحتفالات والنشاطات الطلابية في تنمية شخصيته، وألهبت المظاهرات وكلمات خطبائها مشاعر الفتى، وظلت ماثلة حية في حياته.

---

(١) جورج طريف داود: السلط وجوارها ١٨٦٤ ـ ١٩٢١، عمان ـ منشورات بنك الأعمال ١٩٩٤م، ٤٥٠ ـ ٤٥١.

(٢) عبد الكريم غرايبة: الأردن رباطًا وثغرًا، عمان ـ مكتبة الرأي، مؤسسة الصحيفة الأردنية ١٩٩٠م، ٢١.

وإذا كانت نابُلُس قد ألهبت حماسه الوطني بمظاهراتها ونشاطها السياسي المعادي للصهيونية والاستعمار، فقد بقيت السلط المكان الذي يقضي فيه معظم إجازاته الصيفية ويمضي فيه بقية أوقات فراغه[1]. في الجامعة الأمريكية ببيروت تنامت ثقافته وبانت معالم شخصيته من ذكاء اجتماعي وحضور بديهة عالية وشخصية قادرة على اجتذاب الأصدقاء، وأظهر تفوقًا في الدراسة، واختير في نهاية السنة الدراسية الأولى خطيبًا بالعربية في مهرجان التخرج، ومن هنا وجد سليمان نفسه لأول مرة يخرج من محيطه الضيق إلى أفق أوسع، فخاض غمار العمل السياسي على نطاق الجامعة العربية؛ الأمر الذي وفر له مجالًا واسعًا للتعرف على النشطاء السياسيين والقادة الوطنيين، فاتسعت مداركه الوطنية وتوفرت له ثقافة عالية في مقاومة المستعمرين.

ورغم أن سليمان تخصَّص في الاقتصاد، إلَّا أن نشاطه الطلابي والصحافي أخذ من وقته الشيء الكثير، فقد شارك في إنشاء «النادي الفلسطيني الأردني» خارج الحرم الجامعي، حيث أخذ يتردد عليه الطلبة الأردنيون والفلسطينيون. وانضم إلى «جمعية العروة الوثقى»، وهي جمعية ثقافية أسهمت في بلورة الفكر الوطني الحر في أوساط الطلبة، وكانت مهدًا للحركة القومية العربية في الجامعة. وفي العروة الوثقى التقى سليمان النابلسي بطلبة عرب تبادل وإياهم مختلف الآراء والأفكار، فقد كانت الجمعية منبرًا لعرض الآراء ومناقشة القضايا والمسائل الوطنية وبحث التحديات التي تواجه الأمة. وبذلك أسهمت هذه الجمعية - التي تولى سليمان رئاستها ثلاث مرات متتالية - في صقل شخصيته وإبراز مواهبه الخطابية وقدراته القيادية[2].

---

(١) DANIEL PIPES, *Greater Syria, The History of an Ambition of,* Oxford University Press, 1990, p.99.

(٢) علي محافظة: العلاقات الأردنية البريطانية من تأسيس الإمارة حتى إلغاء المعاهدة (١٩٢١ - ١٩٥٧)، دار النهار للنشر ١٩٥٩م، ٢١٩.

ورغم ثرائه انضم في أثناء دراسته في الجامعة إلى قيادة الفقراء والطبقة الوسطى ، ولم يكتف بنشاطه الجامعي ؛ إنما تجاوز حدود الحرم الجامعي واتصل بمجموعة من القوميين العرب في بيروت ، وعلى رأسها تقي الدين الصلح ، وأسس حزب النداء ، وتأثر خلال ذلك بالزعيم اللبناني رياض الصلح . وبعد أن أنهى دراسته الجامعية عُرض عليه الانضمام إلى الحزب السوري القومي فرفض ، وبقي على خطى القوميين العرب لا يرضى عنهم بديلًا . وبعد إنهاء الدراسة عاد إلى السلط ، وعُرضت عليه وظيفة معلم فلم يقبل بها ، وفضَّل أن يكون معلمًافي الكرك ، وسعى المعلم الشاب أن ينقل الأفكار التي تشبع بها إلى طلابه ، وبدأ بتنظيم ندوات الخطابة وحفلات الترفيه البريء[1] . وربما كان قبوله العمل بالكرك كونها توفر له الاحتكاك بجماهير جديدة تمكِّنه من أداء رسالته الوطنية .

إلا أنه لم يبق في مجال التعليم إلا عامًا واحدًا ، استقال في نهايته ، وعُيِّنَ بعد ذلك رئيسًا لديوان رئاسة الوزراء سنة ١٩٣٣م في عهد وزارة إبراهيم هاشم باشا الأولى ، وبقي في منصبه هذا حتى سنة ١٩٣٨م ، وكان سمير الرفاعي ومسلم العطار يشغلان منصب سكرتير رئاسة الحكومة خلال هذه المدة على التوالي ، ثم نُقل من رئاسة الوزراء إلى وزارة المالية في عهد وزارة توفيق أبو الهدى الأولى سنة ١٩٣٨م ، التي وفرت له خبرة واسعة في المجال المادي والاقتصادي ، وفي العام التالي شغل منصب مراقب اللوازم في الوزارة ، واكتسب خبرة جيدة في وزارة المالية ، وطوَّر في أساليب الإدارة ، وأظهر تفانيًا وإخلاصًا في عمله ، الأمر الذي أدى إلى تعيينه رئيسًا لدائرة تدقيق الحسابات[2].

---

(١) سعيد التل : الأردن وفلسطين ، وجهة نظر عربية ، عمان ـ دار اللواء للصحافة والنشر والتوزيع ١٩٨٦م ، ٥٦.

(٢) جمال الشاعر : سياسي ستذكر ، تجربة في العمل السياسي ، لندن ـ رياض الريس للكتب والنشر ١٩٨٧م ، ٢٠٣ - ٢٠٤.

وفي عام ١٩٤٢م أصبح سكرتيرًا عامًا لمجلس الوزراء، لكنه ما لبث أن استقال من عمله في الحكومة ليتفرغ للعمل السياسي، وبعد أن أيقن أن عمله الإداري الحكومي يتعارض والنشاط السياسي الذي يمارسه، شعر أنه آنالأوان لأن يتولى قيادة حركة المعارضة السياسية، خاصة بعد أن تُوُفِّيَ عبد الله النمر الحمود ومحمد الحسين، اللذان سبقاه في قيادة المعارضة، إلا أن عبد الحميد شومان - رئيس مجلس إدارة البنك العربي آنذاك - عهد إليه أن يتولى إدارة البنك العربي في عمان، فقبل العرض(١). فأصبح يعمل في البنك العربي ويمارس نشاطه السياسي في المعارضة.

سليمان النابلسي في المعارضة السياسية

واجهت الأحزاب السياسية الأردنية منذ نشأتها عقبات ومتاعب كثيرة، حالت دون تبلورها في حركة وطنية عامة ذات جذور شعبية، وكان لطبيعة تكوينها أثر واضح في ضعفها، كما كان لحكومة الانتداب وللأمير وحكوماته المتعاقبة دور في إنهاكها وتفتيت قواها والحد من نشاطها ومحاصرتها جماهيريًا. وبالرغم من ذلك فإن النابلسي اشترك في المؤتمرات الوطنية الأردنية، وانتقد بشدة المؤتمرات التي عقدها أنصار الحكومة بتحريضها للرد على المؤتمرات الوطنية، وكان سليمان يرى في الشعب الأردني شعبًا فريدًا بين الشعوب العربية على حد قوله، فهو لم يضرب يومًا لأجل مصالحه الخاصة ولم يَقُمْ بمظاهرة في سبيل منافعه الذاتية، بل يقوم بذلك من أجل المصالح العامة والقضية الوطنية، وهذه سمات الشعب الوطني الحر(٢).

---

(١) علي أبو نوار: حين تلاشت العرب، مذكرات في السياسة العربية، ١٩٤٨ - ١٩٦٤، لندن - دار الساقي ١٩٩٠م، ٣٠.

(٢) علي محافظة: أبحاث وآراء في تاريخ الأردن الحديث، عمان - دار الفارس للنشر والتوزيع ١٩٩٨م.

وفي عَمان أسس سليمان النابلسي مع الدكتور قاسم ملحس النادي الفيصلي في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي ، من أجل نشر الوعي السياسي بين فئات الموظفين والحرفيين الصغار الذين انضموا إلى هذا النادي . وقاوم النابلسي ورفاقه اتفاقية عقدتها حكومة إبراهيم باشا مع شركة لوهمبورج الصهيونية للتنقيب عن المعادن في شرق الأردن ١٩٤٥م ، ونتيجة لمعارضته لهذه الاتفاقية أُلقِيَ القبض عليه ووُضِع تحت الإقامة الجبرية لمائة يوم[١] . وبعد إعلان استقلال الأردن سنة ١٩٤٦م أنشأ بالتعاون مع محمود عودة الفرعان وعلي مسمار وصلاح طوقان الحزب العربي الأردني ، وتولى منصب الأمين العام للحزب ، حيث تصدى ورفاقه للفساد الإداري في البلاد من خلال نشاطهم السياسي .

ولقد أثرت هذه التجربة بصورة كبيرة في نفسية سليمان ؛ فقد تعلم منها درسًا في الصلابة والتحمل وشَعر بأهمية المعارضة السياسية في البلاد ، وتصرف بوصفه قائدًا سياسيًا يشعر بالمسؤولية نحو شعبه ، ويتحمل الأذى في سبيل الدفاع عن وطنه ومقاومة الفساد ، وكانت تجربته في الإقامة الجبرية المتتالية طويلة ومُرَّة وقاسية ، علمته دروس الصبر والصلابة ، وفي حمى المؤامرة أُلصقت به تهمة التخطيط لمحاولة الانقلاب العسكري على الملك ، التي كادت أن تودي به إلى حبل المشنقة ، وكان قادرًا على الهرب من البلاد مثلما فعل غيره من السياسيين ، غير أنه لم يفعل ذلك ، لشعوره بأنه زعيم للشعب ، وعليه أن يصمد وأن يقود المعارضة لمبدأ أيزنهاور وعدم القبول بالهيمنة الأمريكية ، وضرب في موقفه هذا مثلًا في الصمود والتحمل[٢].

لقد خرج سليمان النابلسي من رئاسة الوزارة وليس له بيت يؤويه ، ووجد نفسه

---

(١) المرجع نفسه، ٢٢٢.

(٢) سليمان موسى : أعلام من الأردن ، عمان ١٩٨٦م، ٦١.

في ضائقة مالية شديدة، لكنه رفض العُروض التي قدَّمها أصدقاؤه في مصر وسوريا لإعانته ماليًا. واستمر يستدين من بنك القاهرة، بفضل مساعدة مديره العام حيدر شكري، ورفض أيَّة منحة من الحكومة المصرية لتأمين دراسة ابنته رباب وابنه فارس، ولربما كان ذلك مثالًا للتعفف ومحاولة لدَرْء تهمة التبعية إلى الخارج. عارض سليمان والحزب العربي المعاهدة الأردنية ـ البريطانية لعام ١٩٤٦م، وعدّا الاستقلال الذي نالته البلاد بموجب هذه المعاهدة استقلالًا ناقصًا، وعارض مشروع سوريا الكبرى الذي نادى به مؤسس المملكة الملك عبد الله بن الحسين، ودخل ميدان الاحتراف السياسي مبكرًا[1]. وفي الرابع من شباط سنة ١٩٤٧م دخل وزارة سمير الرفاعي الثانية وزيرًا للمالية والاقتصاد مع بشارة غُصيب، ممثلين عن الحزب العربي الأردني، فكانت أول تجربة له في الحكم، واستمرت الوزارة في السلطة حتى ٢٧ من كانون الأول لعام ١٩٤٧م. كانت في تلك السنوات تُسَمَّى وزارة الشباب، وقد أنجزت قانون الانتخاب لسنة ١٩٤٧م، وتألف في عهدها أول مجلس أعيان أردني، وأبرمت معاهدة أخوة وتحالف مع العراق في ١٤ من نيسان من السنة نفسها.

انصرف سليمان، بعد استقالة حكومة الرفاعي الثانية، إلى العمل السياسي، ومع أن الحزب العربي الأردني لم يحصل على الترخيص بالعمل، إلا أن قيادته واصلت هجومها على توفيق أبو الهدى الذي فاوض الإنجليز ووقَّع معهم معاهدة التحالف الأردنية ـ البريطانية لسنة ١٩٤٨م. وقد رفض نواب الحزب العربي الأردني التصديق على المعاهدة، رغم أن الملك عبد الله استدعى النواب إلى القصر من أجل إقناعهم بالتوقيع على الاتفاقية، وبسبب معارضة الحزب العربي الأردني للمعاهدة، اقْتِيد النابلسي إلى السجن بسبب المقالات العنيفة التي نشرها في

(١) المرجع نفسه، ٦٢.

صحيفة العهد الأسبوعية لصاحبها وديع القوس، ضد حكومة توفيق أبو الهدى، وبقي في السجن مدة تسعة أشهر، ودارت الحرب العربية الإسرائيلية (أيار ١٩٤٨م) وهو رهن الاعتقال. بعد خروجه من السجن واصل العمل السياسي، ورفض ورفاقه وحدة الضفتين، اعتقادًا منهم أن بقاء فلسطين كيانًا مستقلًا منفصلًا لن يشجع إسرائيل على التوسع وتجاهل حقوق الشعب الفلسطيني[١].

ومع ضم الملك عبد الله الضفة الغربية للأردن (١٩٥٠م) بدأ النابلسي يسعى لإقامة تنظيم سياسي جديد يضم السياسيين في الضفتين، وتألفت الجبهة الوطنية وتقدمت بطلب رسمي للترخيص في تشرين الأول ١٩٥٠م، ولم تحصل عليه، ودخل سليمان وزارة سمير الرفاعي الثالثة عام ١٩٥٠م، مع بشارة غصيب، وتولى وزارة المالية والاقتصاد. وفي هذه الوزارة سعى إلى مقاومة الفساد والرشوة، وقال في هذا الصدد: «عندما يستشري الفساد في الدول من العبث على أي وزير أو عدد قليل من الوزراء أن يقاوموه»[٢].

وبعد استقالة الحكومة في ٢٠ من تموز ١٩٥١م بقي النابلسي خارج الحكم، إلى أن عُيِّنَ سفيرًا للأردن في لندن في حزيران ١٩٥٣م في عهد وزارة فوزي الملقي، وفي استقالة وزارة الملقي وتأليف وزارة جديدة برئاسة توفيق أبو الهدى في أيار ١٩٥٤م قدَّم النابلسي استقالته وعاد إلى عمان، رغم أن توفيق أبو الهدى طلب منه البقاء في منصبه سفيرًا للأردن في لندن، إلا أنه رفض وعاد إلى عمان، ويبدو أن موقف النابلسي من رئيس الحكومة توفيق أبو الهدى نابع من تأييد أبو الهدى للاتفاقية الأردنية البريطانية، التي حصلت الأردن بموجبها على الاستقلال

---

(١) علي محافظة: المرجع السابق، ٢٢٣.

(٢) منيف الرزاز: الأعمال الفكرية والسياسية، عمان ـ مؤسسة منيف الرزاز للدراسات القومية ١٩٨٦م، ٧٨.

رغم معارضة العديد من الشخصيات الوطنية لهذه المعاهدة ، واعتبروا أنها أعطت الأردن استقلالًا منقوصًا وربطت الأردن من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية ببريطانيا . لذلك ترك الرجل الوظيفة مقابل الثبات على مبدأ الرفض للسياسة البريطانية وللمعاهدة مع بريطانيا ، وبقي معارضًا لمن تماشى مع سياسة رئيس الوزراء في حينه توفيق أبو الهدى ، الذي سبق له أن عمل معه وعارض مواقفه السياسية .

النابُلسي والأحزاب السياسية ١٩٥٤ ـ ١٩٥٧م

عند الحديث عن علاقة حكومة النابلسي بالأحزاب السياسية ، لابد من الأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية التي مرت بها المنطقة في تلك الفترة ، والتأثيرات الخارجية والقومية التي أثرت في الأردن ، خاصة في ظل وجود ثقافة عربية تزدري الأحزاب ، الأمر الذي أثر في شعبيتها ، خاصة أن هذه الحكومة لم يتسنَّ لها البقاء في الحكم إلا فترة وجيزة ؛ فقد تشكلت في ٢٩ من تشرين أول ١٩٥٦م ، وأُقِيلت في ١٠ من نيسان ١٩٥٧م . ومن هذا المنطلق يمكن تقسيم علاقة حكومة النابلسي بالأحزاب السياسية إلى جزأين :

الأول : علاقتها بالأحزاب والحركات القومية الوطنية التي اتسمت بالانسجام والدعم لحكومة النابلسي ، على اعتبار أنها تمثل هذا التيار .

الآخر : العلاقة التي ربطت حكومة النابلسي بالأحزاب والحركات الإسلامية ، التي اتسمت بالتوتر والمعارضة .

ولا يمكن النظر إلى علاقة التيار الإسلامي ـ خاصة جماعة الإخوان المسلمين ـ بحكومة سليمان النابلسي ونسق معايير الاختلاف أو الخلاف السياسي المحلي فقط ، فهذه العلاقة حددتها مسارات كثير من العوامل والأسباب السياسية

والفكرية والعقائديَّة، إضافة إلى مؤشرات المرحلة الزمنية التي جاءت فيها حكومة النابلسي ووصلت خلالها العلاقة مع التيار الإسلامي إلى ذروة العداء، وبشكل أكثر دقة يمكن القول إن العلاقة بين التيار الإسلامي وحكومة النابلسي كانت بالدرجة الأولى علاقة بين تيارين؛ الأول الأحزاب الإسلامية (الإخوان، وحزب التحرير)، والآخر تيار الحكومة بكل مفرداته ومكوناته الحزبية والفكرية والسياسية[(١)].

ونستطيع تحديد العوامل والمحددات التي أسهمت في صياغة هذه العلاقة من خلال العوامل التالية:

التناقض الفكري والعقائدي بين أحزاب التيار الإسلامي، وأحزاب الحكومة المشاركة أو الداعمة لها؛ فبعض هذه الأحزاب كانت تتبنَّى الماركسية والشيوعية أو الفكر القومي الذي يتعامل في ذلك الوقت بعدائيَّة ضد التيار الإسلامي. هذا الخلاف العقائدي والفكري كان لا بد أن يفرز خلافًا حول القضايا الاجتماعية والتربوية، ونظرة كلا الطرفين إلى شكل المجتمع وهُويَّته الحضارية والثقافية[(٢)]. كما أن الفترة منذ عام ١٩٥٤م كانت بداية المد الناصري والقومي، وحَظِيَ نظام الحكم المصري آنذاك بشعبية كبيرة على الساحة الأردنية، مع الأخذ في الاعتبار أن علاقة الإخوان المسلمين بعبد الناصر اتصفت بالعدائية والمطاردة لعناصر الإخوان، مما أوجدَ جوًا من التوتر بين الإخوان في الأردن، وقوى وأحزاب حكومة النابلسي. وتُضاف إلى ذلك حالة التنافس السياسي بين أحزاب الحكومة والتيار الإسلامي على صعيد الانتخابات النيابية لعامي ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦م، وعلى

---

(١) محمد عبد القادر أبو فارس: صفحات من التاريخ السياسي للإخوان المسلمين في الأردن، عمان ـ دار الفرقان للنشر ٢٠٠٠م، ٨٨.

(٢) هاني الحوراني: حكومة سليمان النابلسي (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧)، عمان ـ مركز الأردن الجديد للدراسات ١٩٩٩م، ١٥٠.

ساحات العمل العام كافة، ومعادلة السلطة والمعارضة التي جاءت بعد تولي النابلسي رئاسة الحكومة، هذه المعادلة عَمَّقت حالة الخلاف والتناقض، خاصة في ظل ساحة سياسية حافلة بالقضايا الكبرى الساخنة(١).

من المؤكَّد أن كثيرًا من مواقف الإخوان المسلمين تجاه حكومة النابلسي لم تختلف عن موقف حزب التحرير، نظرًا لتطابق المنطلقات الفكرية الإسلامية للطرفين، خاصة في القضايا الكبرى كالموقف من الاستعمار والعلاقة مع الدولة، كذلك لتبني الحزب الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية. ونستطيع أن نتعرف على موقف الإخوان من حكومة النابلسي مما كتبه محمد عبد الرحمن خليفة، أحد قادة الإخوان المسلمين، بعد سقوط حكومة النابلسي، في افتتاحية جريدة الكفاح الإسلامي الناطقة باسم الإخوان المسلمين، العدد ٢١، في ١٧/٥/١٩٥٧م، حيث قال: «نحن حين نقاوم المبادئ الفتاكة الدخيلة علينا، الغريبة عنا فلأنها تنفث السموم في قلوب أبنائنا وتثير الشرور والأحقاد في صفوف أمتنا، ونقاومها لأنها مؤامرة دبرها الفكر اليهودي لطمس معالم الإسلام الحنيف والتمكين في النهاية لتعاليم حكماء الصهيونية ونبوءاتهم»(٢). في إشارة إلى توجهات سليمان النابلسي. والأكثر من هذا أن الصحيفة لسان حال جماعة الإخوان المسلمين اتهمت النابلسي بأنه استدعى الجيش العراقي لدخول الأردن، ووصفت فترة حكمه بأنها كانت بَهْلَوَانِيَّة، واتُّهمت النابلسي بأنه كان يتصرف بوجهين، يقابل شعبه بوجه ويقابل السياسيين ـ تحديدًا الخارجيين ـ بوجه آخر.

وقد كانت العلاقة بين الإخوان المسلمين والتيار الإسلامي بشكل عام وأحزاب حكومة النابلسي قبل تشكيل الحكومة وبعدها، علاقة صراع وعداء، انحاز

---

(١) سليمان النابلسي: قراءة في سيرته وتجربته، وقائع الثورة التي نظمها المركز الأردني للدراسات والمعلومات ١٩٩٧م، ٥٥.

(٢) مصطفى دندسلي: حزب البعث العربي الاشتراكي، ١٩٧٩م، ١: ٢٠.

خلالها الإخوان إلى جانب نظام الحكم، شعورًا منهم وقناعة بأن استيلاء هذه الأحزاب على السلطة يعني أن يدفع التيار الإسلامي فكرًا وتنظيمًا ـ بل والوجود الإسلامي بشكل عام ـ ثمنًا باهظًا شبيهًا بما حدث في مصر. ومما زاد من هذه القناعة ورسَّخها لدى جماعة الإخوان المسلمين والتيار الإسلامي، تصريحات صدرت من بعض قادة الحكومة، بأن الخطوة الأولى بعد نجاح الانقلاب هي تعليق المشانق لقادة الحركة الإسلامية وأفرادها في شوارع عمان[1].

لهذا كان الصراع صراع بقاء بين الجانبين، ورغم وقوف الإخوان إلى جانب الحكم في مواجهة الانقلاب، إلا أنهم حرصوا بعد انتهاء زَوْبَعة الانقلاب على تأكيد موقفهم المبدئي من الإنجليز والإمبريالية، وأنهم لن يكونوا عبيدًا للدولار، في إشارة إلى المساعدات العربية المقدَّمَة إلى الأردن على حد قول أحد قادتهم في صحيفة الكفاح. وأكدوا ضرورة عدم تعطيل الحياة النيابية. لقد حاول الإخوان إزالة الضباب الذي أحاط بموقفهم، فكانت المطالبة بالمحافظة على الحياة البرلمانية ومحاكمة المتهمين بالتآمر في محاكم علنية حرة، وكانت هذه محاولات من قِبل جماعة الإخوان لاستعادة وجودها، كونها حركة شعبية ذات استقلالية تعارض ما يتعارض مع موقفها من سياسات الحكومة، وتعبر عن ضمير الشارع وتنحاز إلى الخيار السياسي الذي يعطي للشعب حقوقه السياسية، بعيدًا عن الأحكام العرفية وغياب القانون[2].

لقد كانت تلك العلاقة ثمرة طبيعية لمعطيات الساحة العربية والدولية وحالات الاستقطاب الفكري والسياسي في المنطقة والعالم. وتجدر الإشارة إلى أن ممثل

---

(١) محمد عبد القادر أبو فارس: المرجع السابق، ٨٠.

(٢) خالد سالم إسماعيل أبو ربيع: الحياة البرلمانية في الأردن منذ وحدة الضفتين (١٩٥٠ ـ ١٩٦٧)، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية ـ كلية الآداب ١٩٩٢م، ٢٠٨.

حزب التحرير الشيخ أحمد الداعور هو الوحيد الذي حجب الثقة عن حكومة النابلسي عندما عرضت على البرلمان للتصديق عليها، مبررًا ذلك بأن بيانها الوزاري لم يُبْنَ على أساس الإسلام، إضافة لاتهامه النابلسي بالبعد عن الإسلام، والسير في ركب الاستعمار الغربي وخداع الجماهير، مع ذلك عندما بدأ النابلسي مشاورته لتشكيل حكومته اتصل بمختلف الأحزاب السياسية على اختلاف مشاربها، بما فيها الإسلامية، وعرض على حزب التحرير وزارة المعارف، إلا أن الحزب رفض، ويلاحظ أن النابلسي الذي عرض الاشتراك في الوزارة على الحركة الإسلامية بشقيها الإخواني والتحريري عاد وناصبهم العداء فور توليه المسؤولية، مما يوحي بأن عرضه كان غير جاد، وأنه كان يعرف مسبقًا أن عرضه سيقابل بالرفض[1].

ويصف نجيب الأحمد علاقة النابلسي بالحركات الإسلامية بالمطاردة، التي مارستها الحكومة تجاه حزب التحرير الإسلامي، وعملها على منع نشاطه، مما اضطره للعمل السري في تلك الفترة. كما اتهمت حكومة النابلسي حزب التحرير بالتعاون مع المخابرات المركزية الأمريكية، وأشارت إلى تلقي الحزب أموالًا طائلة من أثرياء دُفعت على شكل شيكات في بيروت لقادته، أما أعضاء جماعة الإخوان المسلمين فقد عمد النابلسي فور توليه رئاسة الوزراء إلى إبعاد عناصر مقربة منهم، كانت تتولى مناصب عليا في الجهاز الحكومي، أهمها إجراء تنقلات في دائرة الأوقاف، في محاولة منه لتخفيف وجود جماعة الإخوان بها، وفي ظل حكومة النابلسي طلبت سلطات الأمن، من رئاسة مجلس النواب، رفع الحصانة البرلمانية عن النائب الشيخ أحمد الدعور نائب حزب التحرير في البرلمان، بحجة مخالفة قانون الوعظ والإرشاد[2].

---

(١) هاني الحوراني: المرجع السابق، ١٦٥.

(٢) المرجع نفسه، ١٦٦.

أما حركة القوميين العرب فقد تابعت نجاح الرموز الوطنية وتشكيل حكومة سليمان النابلسي، وأيّدت المواقف الحكومية، رغم أن القوميين العرب لم يكونوا ممثلين في الحكومة، وكان همهم الرئيسي نجاح الخط القومي والديمقراطي في الأردن، الذي سلكه سليمان النابلسي منهجًا وعملًا. واكتفت الحركة بلقاء مندوبين من وزارة النابلسي اتفقت معهم على أمور مهمة؛ منها إلغاء المعاهدة الأردنية ـ البريطانية، وقبول المساعدات العربية ورفض المعونة البريطانية. والمتابع حقيقة العلاقة بين التيار القومي وحكومة النابلسي ـ رغم محدودية المصادر المتوفرة ـ يرى أن الجانبين اتفقا على نقاط أساسية، كمناهضة مبدأ أيزنهاور لعام ١٩٥٦م، والتبعية للاستعمار الغربي بالتحديد الأمريكي، وضرورة تحديد سلطات الملك وإبعاد الحزبية والعمل السياسي عن صفوف الجيش والأجهزة الأمنية[١]. ويظهر من هذا الالتقاء تأثير الخط القومي الذي مثّله عبد الناصر في مصر على حساب التأييد لسياسة الملك، التي كان عليها تحفظ العديد من الشخصيات المتأثرة بالحركة القومية في الأردن.

أما الشيوعيون فقد دعموا الحكومة الجديدة لسليمان النابلسي بكل وسائلهم البرلمانية والصحافية والجماهيرية. وقامت الجبهة رغم نشاطها المحظور بدعم الحكومة وسياساتها، بتشكيل لجان في القرى والمدن والمخيمات، كما دعمت الجبهة الحكومة في خطواتها لاستبدال المعونة العربية بالبريطانية، ودعمت اتفاقية التضامن العربي تمهيدًا لإلغاء المعاهدة البريطانية، ودافعت عن الحكومة أمام الهجمات التي تعرضت لها في الداخل من المعارضين لها، خاصة من قبل أجنحة التيار الإسلامي، فكانت تنظم المظاهرات التي تتوجه إلى رئاسة الوزراء، خاصة عندما تتعرض الحكومة إلى ضغوط محددة عند اتخاذ إجراءات كالتطهير من

---

(١) عبد الرحمن شقير: من قاسيون على ربة عمون، رحلة العمر، عمان ـ مركز الأردن الجديد للدراسات ١٩٩١م، ٩٧.

الفساد أو تحقيق مكاسب عمالية أو اجتماعية للمواطنين[1].

لذلك عمل أفراد الحزب الشيوعي في عهد حكومة النابلسي بشكل شبه علني ؛ فكانوا يرفعون شعارات الحزب على اللافتات في التظاهرات الجماهيرية ، وسعى الحزب حينها إلى فرض إرادته أمرًا واقعًا ، مما كان يشير إلى تأييدهم الحكومة التي رأوا فيها تحقيقًا لأهدافهم ، مما دفعهم للعمل نحو الإخلاص لها . غير أن الأمور زادت تعقيدًا عندما تقدم الحزب بطلب لحكومة النابلسي لإصدار جريدة ناطقة باسمه ، وكان الأمر محرجًا للحكومة ، خاصة إذا علمنا تلقي الحكومة أوامر من رأس الدولة «الملك» يطالب فيها بالحد من نشاط الشيوعيين ، ورفضَ الشيوعيون إيقاف الصحيفة التي كان قد صدر منها عددان بالفعل ، مما كان مؤشر بداية الخلاف بينهم وبين الحكومة ، واضطر النابلسي لانتقاد إصرار الشيوعيين على موقفهم هذا ، خاصة أن الأولويات في الحكم والإدارة كانت مختلفة في ذلك الوقت ، فلم تكن الحكومة ترى أن إصدار الجريدة من أولوياتها[2].

وفي هذه المرحلة خاصة بدأت حكومة النابلسي تتجنب التنسيق والعمل مع الشيوعيين ، عكس ما حدث ، ويبدو أن الضغوط التي مُورِست على الحكومة من قبل نظام الحكم والمناهضين لها بدأت تؤتي ثمارها ، وهذا يفسر رغبة الحكومة في الابتعاد عن أحد حلفائها والسير في سياستها ، مبتعدة عن الألغام المزروعة في طريقها ، ومما يدلل على موقف الحكومة هذا تجاهلها الشيوعيين في الاحتفالات التي أُقيمت بمناسبة إلغاء المعاهدة البريطانية . لذلك حاولت الحكومة الابتعاد عن الحزب الشيوعي حرصًا على تجنب المزيد من الخلافات حول هذه النقطة ، ورغب البعض أن يتوقف النشاط الشيوعي ، الأمر الذي عبَّر عنه بعض الوزراء من حكومة

(١) عبد الرحمن شقير : من قاسيون على ربة عمون ، ٩٨.

(٢) هاني الحوراني : المرجع السابق ، ١٣٢.

النابلسي، حيث قدَّموا الشكاوى من نقائص الحكومة التي قرَّبت الشيوعيين وسمحت لهم باستغلال الموقف ونشر مبادئهم في المدارس[١].

ويبدو أن تقرب هذه الأحزاب من النابلسي وحكومته ومبالغتها في ممارسة نشاطاتها مما أثر في مستقبل النابلسي السياسي وحكومته، خاصة بعد تحفظات الملك على خطها. والحاصل أن سليمان النابلسي سعى إلى الإبقاء على علاقته مع الشيوعيين، وحرص الشيوعيون على هذه العلاقات أيضًا، رغم ما أصابها في تلك المرحلة من خلافات، وعدم تفهُّم البعض مواقف البعض الآخر، وبقوا ينظرون للنابلسي بوصفه زعيمًا وطنيًا كبيرًا يَلقى كامل الاحترام والتقدير في صفوفهم، إلا أن هذه العلاقات بدأت تأخذ منحى آخر بعيدًا عن الاستعراضات الجماهيرية والتظاهرات العلنية، إذ بقي الحلف قائمًا بشكل غير معلن، على اعتبار أن الأولوية لبقاء التيار الوطني وزعيمه النابلسي في الحكم.

والحق أن الحزب الوطني الاشتراكي، الذي يمثله سليمان النابلسي، تأسس بصفته حالة أردنية خاصة في مرحلة انتقالية، من خلال ائتلاف مجموعة أحزاب حديثة النشأة وأحزاب أخرى أكثر تعقيدًا، ذات فلسفات عقائدية، فجاء هذا الحزب الأكثر توافقًا مع الحالة الأردنية، وجاء تركيبه العضوي من مجموعة من القيادات ذات الأصول العشائرية التقليدية التي تخلو من البنية الأيديولوجية المغلقة، مما أسهم في سرعة انتشاره واتساع قاعدته الجماهيرية، بالتالي حصوله على أكبر عدد من مقاعد مجلس النواب، حيث كان حزبه انتقائيًا في اختيار مبادئه وأفكاره وأهدافه، مما جعله الأكثر انسجامًا مع الواقع السياسي الأردني المعتدل[٢].

---

(١) هاني الحوراني: المرجع السابق، ١٣٣.

(٢) علي محافظة: العلاقات الأردنية البريطانية؛ سليمان النابلسي: المرجع السابق.

إن تركيبة الحزب وانتقاءه قيادات وطنية ذات أصول عشائرية مما جعله يكتسب قاعدة جماهيرية واسعة، بعيدة كل البعد عن بعده الأيديولوجي. لهذا لم يكن حصوله على عدد كبير من مقاعد مجلس النواب في الانتخابات العامة عام ١٩٥٦م محض صدفة، فهو يتنافس مع أحزاب ذات صبغة عقائدية قومية ودينية واجتماعية، تستقطب العديد من شرائح المجتمع الأردني، إلا أنه جاء تعبيرًا أردنيًا قوميًا، خاصة أنه اعتمد على رموز وطنية عشائرية ذات مصداقية في الشارع الأردني، مما مكّنه من حصد العدد الأكبر من مقاعد مجلس النواب لم يسبق لأي حزب سياسي أردني أن حصل عليها، رغم كون بعض هذه الأحزاب أكثر انتشارًا منه على الساحة الأردنية.

وعليه يمكن الاستنتاج أن الحزب الوطني الاشتراكي كان تعبيرًا موفقًا للحالة التي مرت بها الساحة الأردنية في تلك المرحلة الانتقالية؛ فهو لم يكن مجرد حزب يضم أشخاصًا ذوي نفوذ، ولم يكن عقائديًا في أطروحته السياسية، إنما كانت رموزه السياسية عنوانًا للتحديث الذي تحقق للدولة بتجاوز مرحلة المحافظة التقليدية المقاومة للتحديث، دون أن تتعدى ذلك إلى مرحلة الثورية التي طُرِحت في حينه، وعليه فليس مستغرَبًا أن يحظى هذا الحزب بالدعم الشعبي الكبير في مجتمع يبدو محافظًا إلى درجة كبيرة، وفي الوقت نفسه الدعم الرسمي من قبل القيادة السياسية الأردنية ممثلة في القيادة الملكية الشابة التي ترضى التطوير والتحديث بالوسائل السليمة، وفقًا للنموذج الليبرالي. من هنا، عندما كَلف الملك الحسين بن طلال سليمانَ النابلسي بتشكيل الوزارة القومية الوطنية بوصفه زعيم حزب سياسي حصل على أكبر عدد من المقاعد النيابية في الانتخابات، مما شكّل لديه القدرة على تشكيل الوزارة الجديدة، جاء ذلك منسجمًا مع روح الدستور من جهة، ومع نبضات المجتمع السياسي الأردني وتوجهاته من جهة أخرى، وكان ذلك بمثابة تعبير عن تأكيد الخصوصية الأردنية في الإطار القومي

الأعم[١] ومحاولة من الملك حسين عدم الاصطدام مع القوى القومية الصاعدة المتأثرة بعبد الناصر في مصر.

إذًا فمن هذه البيئة، وضمن هذه الشروط الموضوعية، كانت حكومة النابلسي، التي مهما اختلفت الآراء والتقييمات حولها فإنها لم تكن خارج الوعي السياسي الوطني وذروته؛ بل إن تأثرها بالمد القومي الوطني، وبالأحداث الكبيرة على الصعيد القومي مما جعله يبدو كذلك، لكنه كان بالتأكيد خارج النمط السياسي التقليدي في السياسة الأردنية آنذاك. لذلك ليس من المستغرَب أن يُجمع شيوخ السياسة الأردنية عليه بأنه كان الأبرز من بين رؤساء الحكومات الأردنية المتلاحقة[٢]، خاصة في مواقفه الوطنية ومحاولته بناء نظام برلماني تشريعي في ظل الملكية، مستفيدًا بذلك من التطورات المحلية والإقليمية والدولية التي مرت بها المنطقة، متأثرًا بمن التقى بهم وتتلمذ على أيديهم، سواء كان ذلك في بيروت أو غيرها، الأمر الذي ميّزه عن غيره من السياسيين التقليديين، وربما الفرصة التي أُتيحت لسليمان النابلسي هي التي صقلته بصفته قائدًا وطنيًا، وأنها لم تُعطَ لغيره ممن سبقوه أو لحقوه في العمل الوطني.

السياسة الداخلية والخارجية لحكومة النابلسي

السياسة الداخلية: ركزت حكومة النابلسي في برنامجها على الأهداف التالية: بناء الاقتصاد الوطني مما يوفر لجموع المواطنين الحياة الكريمة التي يستحقونها، عبر توفير فرص العمل والتقليل من معدلات البطالة والفقر، والعمل

---

(١) هاني الحوراني: حكومة سليمان النابلسي ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧، عمان ـ مركز الأردن الجديد للدراسات ١٩٩٩م، ١٧٢.

(٢) هزاع المجالي: قراءة في سيرته وتجربته، عمان ـ المركز الأردني للدراسات والمعلومات ١٩٩٦م، ٣٠.

على تنظيم جهاز الدولة وموظفيه من أجل توفير ضمانة كافية لمصالح المواطنين، والكفاءة في العمل وتقديم الخدمات لهم، والسعي لتقوية العلاقات الأردنية العربية عبر الإسهامات الجدية والمشاركة الفعالة، والدعم من أجل الحصول على الحرية والاستقلال. واعتمد البيان الوزاري لحكومة النابلسي على مجموعة من الأسس لسياسته الداخلية، من خلال التركيز على ضرورة إرساء قواعد الحياة النيابية الدستورية وتعميقها، وضمان سيادة القانون وإطلاق الحريات العامة كحرية التعبير عن الرأي، والمشاركة السياسية والحزبية وحرية الصحافة، من أجل ترسيخ الوحدة الوطنية وتأكيد الكيان القومي[1].

ومن أجل تحقيق ذلك أكد النابلسي ضرورة إلغاء كل القوانين التي تحد من حرية المواطنين، وإصدار قوانين أكثر تقدمية مثل قانون الأحزاب، وقانون المطبوعات، وقانون الوعظ والإرشاد، وقانون البلديات وقانون الإشراف على البدو، واستبدال قانون جديد بقانون الدفاع، وتعديل قانون الانتخاب. كما ركز النابلسي في سياسته الداخلية على الاهتمام بالجيش ودعمه بالأسلحة والمعدات الحديثة وبالدورات التدريبية، حتى يكون على قدر المسؤولية المُلْقاة على عاتقه بتوفير الحماية لأرض الوطن. ويمكن اعتبار التداخل بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية وضرورة إلغاء المعاهدة الأردنية البريطانية وقبول المعونة العربية ـ سياسة ذات بعد داخلي.

بعد هذا العرض السريع لأهم نقاط السياسة الداخلية لحكومة النابلسي، يمكن إيراد بعض الملاحظات النقدية عليها؛ من أبرزها خُلُوها من أية توجهات اقتصادية علمًا أن كتاب التكليف الاجتماعي كان قد وضعها في مقدمة الأولويات التي يجب التركيز عليها، خاصة إذا عَلِمْنا أن وضعية الدولة الحديثة في الأردن كانت

---

(١) هاني الحوراني: المرجع السابق، ١٧٣.

تتطلب التركيز على الجهد الاقتصادي والتنمية ، حيث ركز البيان الوزاري على قبول المعونة العربية ورفض المعونة البريطانية ، رغم أنه لم يحدد خطوطًا واضحة تفسر ذلك ، مثل عبء الدين العام ، أو تأكيده سياسة الإنتاج ، أو التقشف ، أو تحديد الاستيراد أو ما شابه ذلك من سياسات اقتصادية تدعم الاستقلال الوطني ، يضاف إلى ذلك تجاهل البيان الوزاري القضايا الاجتماعية والثقافية والتعليمية والصحية ، التي تُعَد من أهم القضايا بالنسبة للجمهور والمواطن الأردني ، التي من شأنها في حالة الاهتمام بها وتطويرها أن ترفع مستوى حياة المواطنين ، ولم يحدد البيان كيفية معالجة القضية الأكثر مركزية التي تستأثر باهتمام المواطن الأردني ، ألا وهي قضية البطالة وكيفية معالجتها باعتبارها القضية التي تؤثر في حياة المواطن مباشرة ، وتحظى بأول اهتماماته[1].

ورغم هذه الملاحظات من وجهة نظرنا إلا أن ما حدث على أرض الواقع لم يكن يتناقض مع ما كان المواطن الأردني ينتظره ، ولربما كان السبب وراء ذلك أن ولاية الحكومة للسلطة لمدة ستة أشهر فقط كانت مليئة بالأحداث القومية والوطنية المهمة ، ولم تكن تسمح بتحقيق برامج داخلية ، فمع أن حكومة النابلسي تمكنت من عرض بيانها الوزاري لم تتمكن من وضع التشريعات التي وعدت بها ، ولم تتمكن من اتخاذ الخطوات الإجرائية من إصدار قانون إلغاء المعاهدة الأردنية ـ البريطانية ، وتوقيع اتفاقية بشأن المعونة العربية للأردن ، وفي ظل التناقض في الاتجاهات والتوتر والحراك السياسي الدولي والإقليمي والوطني ، فإنها تعد كأنها أنجزت أهم مهامها . ومع هذا فقد كانت حكومة النابلسي فرصة تاريخية للأردن ، كونها جاءت تعبيرًا توفيقيًا عن مستوى التطور الاجتماعي والسياسي للمجتمع ، بالتالي كان من الأولى لها أن لا تتجاوز طبيعتها بوصفها حكومة تحديثية وطنية في

---

(١) محمد عبد القادر أبو فارس : المرجع السابق ، ٧٣؛ هاني الحوراني : المرجع السابق ، ١٧٤.

إطار أولويات مدروسة ، لذلك كان من الأفضل لهذه التجربة الوطنية أن لا تتجاوز أهدافها الوطنية لتنغمس في الهم القومي بكليته على حساب الهم الوطني[1].

أما بالنسبة للمنهج الديمقراطي الذي كانت حكومة النابلسي تعبيرًا عنه ، ألم يكن من الأَوْلَى بها أن تحيط المسيرة الديمقراطية بالعناية الفائقة في وقت كانت المنطقة العربية تتراوح خياراتها بين نماذج أمريكا اللاتينية في الحكم ونماذج قبلية في القرون الوسطى؟ من هنا كان الجدير بحكومة النابلسي التعامل مع الخيار الديمقراطي بصورة أكثر حكمة ودافعية ، وبما يسمح ويتناسب وتطور المجتمع ويسمح باستقرار قواعد العمل بالمنهج الديمقراطي . أما من حيث الأولويات التي لا تكون بذلك الوضوح في حينه فإنه لم يكن ترتيب الأولويات الوطنية ضرورة لحكومة وطنية ، فالاستقرار أولًا ، والتقدم ثانيًا ، والأهداف القومية ثالثًا[2] . غير أن حكومة النابلسي اندفعت تجاه الحريات العامة والديمقراطية دون أن تهيئ لها جوًا من الثقافة الديمقراطية ، الأمر الذي من شأنه أن يعزز الدستور والحياة النيابية ، إلا أن اندفاعها وَصَفها بأنها متطرفة في التضييق ، وأُلصق بها الارتباط بأنظمة خارجية مما أسهم في قِصَر عمرها .

أما السياسة الخارجية : التي ركز عليها النابلسي خلال فترة حكومته القصيرة ، فنجد أن المسألة التي أخذت اهتمامًا واضحًا في بيان حكومته هي المعاهدة الأردنية البريطانية ، التي مثَّلت له تقييدًا لسيادة الأردن وحريته ، حيث طالب بإلغاء المعاهدة وإنهاء القواعد البريطانية في الأردن ، والسعي لتأمين معونة عربية عاجلة للجيش الأردني لتعويض المعونة البريطانية التي رفضها ، وتحقيقًا لهذه السياسة باشرت حكومة النابلسي إجراء مفاوضات مع الحكومة البريطانية في شباط

---

(١) علي محافظة : المرجع السابق ، ١٨٣.

(٢) سليمان النابلسي : المرجع السابق ، ٥٣.

١٩٥٧م، أسفرت في ١٣ من آذار من العام نفسه اتفاق الجانبين على الأمور التالية :

أولًا : اتفاق الطرفين على إنهاء المعاهدة الأردنية البريطانية لعام ١٩٤٨م مع ملحقاتها .

ثانيًا : جلاء القوات البريطانية عن الأراضي الأردنية في فترة لا تتجاوز ستة أشهر .

ثالثًا : تدفع المملكة الأردنية الهاشمية أربعة ملايين جنيه إسترليني لبريطانيا ، ثمنًا للمنشآت العسكرية البريطانية التي ستجلو منها القوات البريطانية ، وقد لاقت هذه الخطوة تأييدًا شعبيًا واسعًا ، رفعت من شأن حكومة النابلسي وشخصه في قلوب المواطنين الأردنيين[1] ، وظهر من خلالها بصفته شخصية وطنية صلبة في الدفاع عن القضايا الوطنية ضد الاستعمار .

أما المسألة الثانية التي استحوذت على اهتمام النابلسي في المجال الدولي فكانت حلف بغداد ؛ حيث ذكر بيان حكومته أن الأحلاف الاستعمارية ـ ومن ضمنها حلف بغداد ـ تشكل خطرًا كبيرًا على الأمة ، ورفض الدخول في أية أحلاف استعمارية ، يُضَاف لذلك رفض حكومته مبدأ أيزنهاور عام ١٩٥٦م، على الصعيد الآخر حاول النابلسي نقل السياسة الخارجية الأردنية باتجاه المعسكر الشرقي ، وإقامة علاقات مع الاتحاد السوفيتي ، وفي هذا السياق سارع كل من عبد القادر الصالح وحسن النابلسي بتأييد من سليمان النابلسي بإجراء اتصالات مع السفارة السوفيتية في دمشق ، بقصد إقامة علاقات دبلوماسية بين الأردن والاتحاد السوفيتي[2].

---

(١) هاني الحوراني ؛ المرجع السابق ، ١٨٥.

(٢) منيب الماضي وسليمان الموسى : تاريخ الأردن في القرن العشرين ، عمان ، ١٩٥٩م، ٤٠.

من الأمور الطبيعية أن شخصًا يترأس حزبًا أيديولوجيًا ذا صبغة اشتراكية أن يتقارب مع القوى والأحزاب والدول الاشتراكية، بالتالي ليس غريبًا أن يكون توجُّه حكومة النابلسي في الانفتاح على المعسكر الاشتراكي مقابل التحفظ في العلاقات مع الدول الاستعمارية الغربية، إلا أننا نعتقد أن هذا التوجه السريع إلى الكتلة الشرقية دون تهيئة الأجواء السياسية الداخلية لذلك كان ذا مردود سلبي على حكومة النابلسي، فلا هي أفادت من هذه العلاقة، ولا أبقت العلاقة مع الغرب كما هي، وهذا يفسر غضب الملك حسين على هذه السياسة، ويفسر معارضة مبدأ أيزنهاور الذي هدف إلى وقف المد السوفيتي.

أما موقف النابلسي من القضية الفلسطينية فقد اعتبَر فلسطين قضية العرب جميعهم، ورأى أن المعركة ستستمر مع الاستعمار والصهيونية، ويجب العمل على تصفية الاستعمار ونفوذه، واعتبار إسرائيل كيانًا غير شرعي لا يجوز الصلح معه، فكان يؤكد دائمًا رفضه لكل صلح مع إسرائيل، ولكل مشروع ينطوي بطريق مباشر أو غير مباشر على الاعتراف بها أو إقامة علاقات مشتركة معها. ولم يكتفِ النابلسي بالموقف المبدئي من المسألة الفلسطينية؛ بل وعد باتخاذ إجراءات عملية استعدادًا لمعركة التحرير، حينما أشار إلى ضرورة حماية ودعم القوات المسلحة الأردنية، وتحقيق مبدأ خدمة العلم وإعادة النظر في قوانين الجيش، والحرس الوطني، واعتبار خطوط الهدنة خطًا واحدًا، والسعي لتوحيد التدريب والدراسات العسكرية مع جيوش مصر وسوريا(١).

على هذا يمكن أن نلاحظ أن سياسات حكومة النابلسي على الصعيد العربي، والصعيد الدولي كذلك، كانت تعمل لنقل السياسة الأردنية الخارجية إلى مسار جديد؛ إذ كانت تلك السياسة تقليديًا تتعاطى مع المعسكر الغربي، خاصة

(١) غازي نهار: القرار السياسي الخارجي الأردني تجاه أزمة الخليج العربي، إربد ١٩٩٢م، ٢٣.

بريطانيا ، ولاحقًا أمريكا ، مع ابتعاد عن المعسكر الشرقي ، بل إنها كانت ترى أن الشيوعية تهديد لها ولقيمها ومستقبلها ، بالتالي تلاقت مع الغرب من أجل مقاومتها ومناهضتها ، وبناءً عليه تحددت العديد من العلاقات الأردنية العربية ، والأردنية الدولية[١] ، الأمر الذي جعل النابلسي في مواجهة مباشرة مع السياسة الخارجية التقليدية للأردن ، وبالرغم من ذلك حاول إعادة الوُدِّ إلى تلك العلاقات ، وهو ما ظهر واضحًا في محاولاته استبدال المساعدة السعودية والمصريةودعمهما بالمساعدات البريطانية ودعمها ، مقابل إنهاء المعاهدة البريطانية الأردنية ، لولا تراجع الجانبين المصري والسعودي عن تقديم مساعدتهما لحكومته ، التي جاءت بناء على تحفظ السعوديين على سياسته الخارجية وانشغال مصر في وضعها الداخلي بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م .

إن نمو التيار الوطني القومي الذي شهدته الساحة الأردنية في منتصف الخمسينيات ، فترة حكومة النابلسي ، تحظى بحضور دائم في العقل والوجدان الأردني ، كمرحلة تاريخية جسَّدت آمال القاعدة العريضة من الجماهير الأردنية من حيث الحصول على قدر معقول من المشاركة الشعبية وإحياء الحياة النيابية ، وإظهار موقف الأردن الوطني والقومي بصفته جزءًا من حركة التحرر العربي ، إنها مرحلة حققت فيها الأحزاب السياسية الأردنية فوزًا بغالبية مقاعد المجلس النيابي ، وتشكلت أول حكومة ائتلافية من مختلف أطياف السياسة الأردنية برئاسة سليمان النابلسي أمين عام الحزب الوطني الاشتراكي ، ومشاركة من حزب البعث والجبهة الوطنية (الحزب الشيوعي)[٢] . وهي تلك الحكومة التي نالت ثقة البرلمان باستثناء صوت واحد ، وتمخضت عن إطلاق الحريات العامة ، ووقع في عهدها اتفاق

---

(١) هاني الحوراني : المرجع السابق ، ١٨٦.

(٢) منيب ماض وسليمان موسى : المرجع السابق ، ٤٣.

التضامن العربي ١٩٥٧/١/١٩م مع سوريا ومصر والسعودية، وتم إنهاء المعاهدة البريطانية الأردنية التي كانت تقيد الاستقلال الأردني. وأكدت قيادة الجيش العربي في تلك الفترة أن هذه المهلة المهمة من تاريخ الأردن السياسي والنيابي انتهت بإقالة حكومة النابلسي وما تبعها من إعلان للأحكام العرفية وحل الأحزاب السياسية، ومنع نشاطها، وما تبعها من إجراءات تعسفية ضد الحركة السياسية الشعبية من حملات الاعتقالات للنشطاء السياسيين وصدور الأحكام بالسجن للمئات منهم، عبر المحاكم العسكرية والعرفية، هذه الأمور شكلت انتكاسة لمجمل الحياة السياسية والنيابية الأردنية. ونلاحظ أن هذه التجربة بعد إقالة حكومة النابلسي في ١٠ من نيسان ١٩٥٧م تشكلت حكومة برئاسة د.حسين فخري الخالدي، وشغل سليمان النابلسي وزير الخارجية والاتصالات فيها، إلا أنها لم تستمر أكثر من أسبوع، وأعلن الملك الأحكام العُرْفية ووُضع النابلسي قيد الإقامة الجبرية. وتركت آثارها على تطور العلاقات الوطنية الداخلية طيلة السنوات اللاحقة حتى العام ١٩٨٩م، السنة التي استؤنفت فيها الحياة النيابية الأردنية بإجراء الانتخابات البرلمانية. ورغم الأهمية الاستثنائية التي تحتلها هذه المرحلة الوطنية فإنها لم تحقق ما يوازيها من دراسة وتقييم، بما يتناسب مع ما فعلته في تاريخنا السياسي المعاصر، ومع حجم النتائج السلبية التي تركتها عملية فشلها، والأهمية التي تمثلها عملية تقييمها كأحد الدروس التي لا بد من الإفادة منها، خاصة ونحن نحاول بناء تجربة ديمقراطية جديدة تواجه العديد من الصعوبات والتحديات والعقبات[1].

ولاشك أن تقييم تلك المرحلة وتجربتها ونتائجها عملية محكومة بالضرورة بظروفها وعواملها، التي هي مزيج من العوامل الداخلية والعربية والدولية، فمن

---

(١) منيب ماضي وسليمان موسى: المرجع السابق، ٤٥.

حالة النهوض القومي في مواجهة بقايا الاستعمار المباشر ووجود اتفاقاته، ونتائج الهزيمة العسكرية أمام المشروع الصهيوني في فلسطين، وانكشاف حالة التجزئة، إلى المطالبة الشعبية بالوحدة العربية بصفتها هدف توحيد، وحالة الاستقطاب الدولي التي مثلتها الحرب الباردة بين المعسكر الاشتراكي المتحالف مع حركات التحرر في العالم الثالث والتحالف الغربي الاستعماري الذي أخذ يتبلور فيه الدور القيادي الجديد للولايات المتحدة الأمريكية، بعد الحرب العالمية الثانية(١).

على أن تحليل تلك العوامل والتوجهات وطبيعة القوى التي مثلتها وخلافاتها هي بالضرورة المدخل الرئيسي لمحاولة فَهم أسباب فشل هذه التجربة وانتكاساتها ومحاولة تقييم مسؤولية الأطراف المختلفة عن نتائجها. وأهم هذه العوامل تتمثل في المواجهة الوطنية الشعبية لاستكمال الاستقلال الوطني ضد الوجود الأجنبي عبر تعريب الجيش، والتصدي لمحاولات ربط الأردن بالأحلاف الاستعمارية الجديدة. واستجابة القيادة السياسية لهذا التوجه، وانتصاره، لم تلغِ وجود القوى والمصالح والارتباطات التي كانت في ظل الهيمنة والوجود العسكري البريطاني، ولا استمرار محاولاتها لإجهاض عملية التغيير الوطني بضرب قواها، خاصة بعد أن وجدت سياسة مَلء الفراغ الأمريكية «مشروع أيزنهاور» حليفًا جديدًا وبديلًا عن العهد القديم. كما انعكس شكل العلاقات والصراع الدولي على طبيعة البرامج السياسية للعديد من الأحزاب، وشهد الفكر السياسي في تلك المرحلة بوادر تطور مهم، تسعى بقوة وتعمّق قيمًا بعد تبني الحلول الثورية الشمولية للقضايا السياسية والاقتصادية ونهج التغيير الثوري في المجتمع بصفته سبيلًا لتحقيق الأهداف من خلال تغيير الأنظمة وأسلوب الانقلابات العسكري(٢).

---

(١) علي محافظة: المرجع السابق، ١٨٢.

(٢) خالد سالم إسماعيل أبو ربيع: المرجع السابق، ٢٠٢.

ولقد رَسَّخت القناعة بصحة هذا النهج حالة التغيب للحياة الديمقراطية أو تزويرها ، الذي تعيشه معظم الأنظمة في العالم الثالث ، بما فيها تلك الأنظمة التي تدعي الدستورية البرلمانية ، لقد وفَّر هذا المناخ حالة من عدم الثقة بين النظام القائم والحركة السياسية ، مما أسهم في أن يكون الحل عبر حل الأحزاب السياسية وإعلان الأحكام العرفية ، كما شكل الوجود الوطني الحزبي في صفوف الجيش إحدى الأدوات الرئيسية لاستكمال الاستقلال الوطني ، وعامل قوة في النهوض السياسي الشعبي وحمايته ، لكنه في المقابل شكَّل عامل توتر وخوف للنظام ، وأحد العوامل الرئيسية التي قادت في النهاية إلى التصادم عبر الإعلان عن مؤامرة تقودها حركة من الضباط داخل الجيش ، وإعلان الأحكام العرفية وحالة الطوارئ وإنهاء التجربة الديمقراطية بحل الأحزاب السياسية ، وإنهاء الحياة البرلمانية وتقييد الحريات العامة والشخصية[١].

وإذا كانت تلك العوامل أهم العوامل التي أدت إلى إفشال هذه التجربة الوطنية التي شهدتها الساحة السياسية الأردنية ، في منتصف الخمسينيات ، فإن السؤال الذي لا يزال يطرح نفسه : هل كان بالإمكان تفادي ما حدث ؟ وما النتائج التي ترتبت على هذا الفشل ؟ وما الآثار التي تركتها الحياة السياسية الأردنية في المراحل اللاحقة ؟ من المؤكد أننا لا نملك إجابة دقيقة وافية عن هذه التساؤلات ؛ لأن ذلك يتطلب العودة إلى تفاصيل المواقف والأحداث التي حدثت في تلك الحقبة التاريخية ، الأمر الذي لم يتوفر حتى الآن بصورة علنية وموضوعية ، حيث بقي العديد منها محفورًا في الأرشيف ، أو ذهب مع رحيل العديد من الشخصيات التي واكبت تلك الأحداث ، ولم يبقَ سوى وجهة النظر الرسمية للدولة الأردنية التي هي الطرف الذي كان له الغلبة[٢] ، تلك النظرة التي اتهمت الحركة الوطنية

---

(١) خالد سالم إسماعيل أبو ربيع : المرجع السابق ، ٢٠٣.

(٢) هاني الحوراني : المرجع السابق ، ١٩٦.

التي واكبت حكومة النابلسي بالتآمر على النظام والاستقرار في المملكة والارتباط بالخارج ، على حين ترى المعارضة وأحزابها ورموزها السياسية أن النظام الرسمي هو الذي قام بالانقلاب على الحركة الوطنية والسياسية الشعبية وأحزابها وحركة الضباط الأحرار داخل الجيش . غير أن المؤكّد أن الخلاف الوطني في تلك المرحلة ـ خاصة بين البرنامج الوطني الشعبي ، ممثلًا بالحركة السياسية الشعبية المعارِض الارتباط بالاستعمار وأحلامه ومشاريعه ، الرافِض سياسة الأمركة ، الرامي للتوجه الوحدوي العربي ، المطالِب بترسيخ الحياة النيابية وقواعدها الديمقراطية ، من جهة ، وتبني النظام سياسة التحالف مع المعسكر الغربي ، وسياسة مواجهة الخطر الشيوعي ـ أدخل العلاقة بين النظام والحركة السياسية حالة لم يكن ممكنًا معها تجنب الصدام[١].

لقد أخذ الخلاف حول هذه القضايا ـ في وجود العوامل التي أشرنا إليها سابقًا ـ إلى وضع يصعب تجنب الصدام فيه ؛ إذ لم تتمكن أطرافه من مواصلة التعايش ، كما هو مفترض في نظام دستوري برلماني ديمقراطي ، الأمر الذي يطرح حقيقة ضعف نضج البناء السياسي الأردني ، ويوصل إلى حقيقة مَفَادُها أن السلطات الدستورية التشريعية والتنفيذية تفقد صلاحيتها بمجرد أن تتعارض مواقفها مع توجهات وسياسات الحكم الذي يتعامل مع أجهزة وظيفية ، تنفذ ولا تمارس رسم السياسات والحكم[٢].

لقد ترك فشل تلك التجربة والنتائج التي ترتبت على ذلك ، أثره المباشر على كامل المسار الوطني للدولة الأردنية حديثة النشأة ، بل لعله أحد أهم العوامل التي رسمت طبيعة هذا المسار وشكلت قاعدة العلاقات الوطنية ، وشكل تطور النظام السياسي طيلة عقود لاحقة ؛ تعطلت فيها الحياة الدستورية والحياة السياسية ،

---

(١) هاني الحوراني : المرجع السابق ، ١٩٧.

(٢) علي محافظة : أبحاث وآراء في تاريخ الأردن الحديث ، ٢٢٥.

وسادت علاقات الصراع والتناقض بين النظام الذي يمثله الملك والحركة السياسية الشعبية التي تمثل الأحزاب والحكومة، ودفع فيه العديد ثمنًا باهظًا في الكثير من التضحيات والآلام والخسائر، وتشوه التطور المفترض للمجتمع الذي بقيت هيئاته ومؤسساته ونقاباته تواجه مراحل مد وجزر، حوَّلتها في كثير من الأحيان إلى أدوات بديلة للأحزاب السياسية، وعطلت نموها وتطورها ودورها الاجتماعي والاقتصادي والمهني[١].

كما أن هذه النهاية المأساوية لتلك التجربة الوطنية أدت لتكريس مفاهيم مغلوطة؛ تمثلت في اعتبار العمل الحزبي والانتماء إليه حالة تضع المواطن خارج إطار الانتماء للدولة، والأهم من ذلك أن هذه النهاية أدت إلى منع تطور الفكر السياسي الأردني ونموه باتجاه ديمقراطي، وأسهمت في دفعه إلى تبني نهج التغيير من خلال العنف والانقلاب، واعتبار النظام البرلماني نظامًا يستهدف تزوير الإرادة الشعبية. بالمقابل تبنى النظام الشمولي نظام الحزب الواحد. وبشكل عام فإن النتيجة العامة لفشل تلك التجربة كانت إضعاف قدرة الدولة الأردنية على التطور والبناء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، بالتالي النهوض إلى مصاف الدولة الحديثة والابتعاد عن النمط التقليدي العائلي، كما يساعد في مواجهة التحديات والمخاطر الخارجية التي تواجه الدولة الأردنية. وفي كل الأحوال فإن ما آلتْ إليه التجربة الوطنية النيابية الديمقراطية في الخمسينيات من القرن المُنْصَرِم كانت النتيجة التي لا نملك إلا أن نفيد من دروسها، وأن تبقى رمزًا للحركة الشعبية الأردنية وقواها ورموزها وقياداتها، ونموذجًا لقدرة الشعب الأردني وطموحاته في بناء الأردن الحديث الديمقراطي[٢].

---

[١] علي محافظة: أبحاث وآراء في تاريخ الأردن الحديث، ٢٢٦.

[٢] هاني الحوراني: مصدر سبق ذكره، ١٩٧.

المراجـع

جمال الشاعر (١٩٨٧)، سياسي يتذكر، تجربة في العمل السياسي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٧م.

جورج طريف داود (١٩٩٤)، السلط وجوارها (١٨٦٤ ـ ١٩٢١م)، منشورات بنك الأعمال، عمان، ١٩٩٤م.

سعيد التل (١٩٨٦)، الأردن وفلسطين وجهة نظر عربية، دار اللواء للصحافة والنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٦م.

سليمان النابلسي (١٩٩٧)، قراءة في سيرته وتجربته، وقائع الثورة التي نظمها المركز الأردني للدراسات والمعلومات، ١٩٩٧م.

سليمان موسى، أعلام من الأردن، عمان، ١٩٨٦م.

عبد الكريم غرايبة، الأردن رباطًا وثغرًا، مكتبة الرأي، مؤسسة الصحيفة الأردنية، ١٩٩٠م.

عبد الرحمن شقير، من قاسيون على ربة عمون، رحلة العمر، مركز الأردن الجديد للدراسات، عمان، ١٩٩١م.

علي أبو نوار، حين تلاشت العرب، مذكرات في السياسة العربية (١٩٤٨ ـ ١٩٦٤م)، دار الساقي، لندن، ١٩٩٨م.

علي محافظة، أبحاث وآراء في تاريخ الأردن الحديث، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨م.

علي محافظة، العلاقات الأردنية البريطانية من تأسيس الإمارة حتى إلغاء المعاهدة (١٩٢١ ـ ١٩٥٧م)، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٥٩م.

غازي نهار، القرار السياسي الخارجي الأردني تجاه أزمة الخليج العربي، إربد، ١٩٩٢م.

محمد عبد القادر أبو فارس، صفحات من التاريخ السياسي للإخوان المسلمين في الأردن، ط ١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٠م.

مصطفى دندسلي، حزب البعث العربي الاشتراكي، ج ١، ط ١، د.ن، ١٩٧٩م.

منيف الرزاز، الأعمال الفكرية والسياسة، مؤسسة منيف الرزاز للدراسات القومية، عمان، ١٩٨٦م.

منيب الماضي وسليمان الموسى، تاريخ الأردن في القرن العشرين، ط ١، عمان، ١٩٥٩م.

هاني الحوراني، حكومة سليمان النابلسي (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧م)، مركز الأردن الجديد للدراسات، عمان، ١٩٩٩م.

هزاع المجالي ، قراءة في سيرته وتجربته ، المركز الأردني للدراسات والمعلومات ، عمان ، ١٩٩٦م .
خالد سالم إسماعيل أبو ربيع ، الحياة البرلمانية في الأردن منذ وحدة الضفتين (١٩٥٠ ـ ١٩٦٧م) ، رسالة ماجستير ، جامعة الإسكندرية ، كلية الآداب ، ١٩٩٢م .
DANIEL PIPES, *Greater Syria. The History of an Ambition at Oxford* University Press, .1990

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٥٤٧ - ٥٨٣

المُرَبّعَاتُ المُحَصّنَةُ البَاقِيَةُ بِمَدِينَةِ العَيْنِ بِدَوْلَةِ الإِمَارَاتِ العَرَبِيّةِ المُتّحِدَةِ
دِرَاسَةٌ أَثَرِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

تامر مصطفى محمد الحسيني النجار

اتَّسمت دولة الإمارات العربية المتحدة، وشعبها، منذ القِدَم بحبها للسلام وسعيها الدائم للأمن والأمان والتآخي مع شعوب العالم عامة، وشعوب المنطقة خاصة، لكن نظرًا لما تعرّضت له دولة الإمارات العربية المتحدة وشعبها من ظروف سياسية وأحداث تاريخية، بالإضافة إلى أهمية موقعها الجغرافي بالنسبة للمنطقة، فضلًا عن عوامل أخرى، كل هذه الأمور جعلتها تدخل في دائرة التنافس الدولي والإقليمي، مما اضطر سكان دولة الإمارات العربية المتحدة إلى بناء القلاع والحصون والمربعات والأبراج للدفاع عن بلدهم وأراضيهم وممتلكاتهم.

إذ نلاحظ أنه لا توجد مدينة أو بلدة، أو حتى قرية صغيرة خليجية، إلا بها قلعتها الضخمة والمميزة التي تتناسب وأهمية المدينة أو القرية وحجمها.

إن منطقة الإمارات خلال تلك الفترة (القرن التاسع عشر الميلادي)، التي تعد من أزهى الفترات تاريخيًا، كان بها العديد من القلاع والحصون والمربعات والأبراج، إلا أن العديد من تلك القلاع والأبراج قد دُمِّرَتْ وأُحرِقَتْ، وهو ما تشير إليه الوثائق التاريخية؛ حيث تشير إحدى الوثائق إلى أنه في يوم ١٨ من يوليو ١٨٢٠م قام القائد تومسون بوضع الألغام تحت الحصون والأبراج الموجودة في

رأس الخيمة ونسفها، واتجه نحو السفن وغادر المنطقة[1]، كما تشير الوثائق البريطانية إلى أن ١٢ سفينة ـ منها السفينة ليفربول وعليها ٥٠ مدفعًا، والسفينة عدن وعليها ٢٦ مدفعًا، والسفينة كيرلو وعليها ١٨ مدفعًا ـ قد دكت حصون رأس الخيمة فاشتعلت النيران فيها، ودمرتها نظرًا لكثرة استخدام الأخشاب داخل الحصون والأبراج[2].

في الماضي كانت حماية أغلب التجمعات السكانية في القرى داخل الواحة وما حولها تَضْمَنها الحصون والقلاع، إلى جانب أبراج المراقبة التي تم بناؤها لحماية قنوات الأفلاج الحيوية[3]، ومنذ زمن غير بعيد جعلت النزاعات الحدودية والغارات والمواجهات بين القبائل من هذه الحصون والقلاع وأبراج المراقبة ضرورة أساسية في المدينة، وعندما غدت المدن ذات أهمية أصبحت القلاع تشكّل جزءًا من شبكة دفاعاتها، وتُبْنَى القلاع عادة بغرض الحماية من الأعداء، ولتتحصَّن حامية المدينة في حالة تعرضها لهجومٍ ما، وكانت القلاع إحدى أهم وسائل الدفاع في العصور القديمة[4].

وتَكشِف القلاع والحصون والمربعات والأبراج، التي لا يزال العديد منها باقيًا حتى الآن، عن سِجل الإمارات العربية المتحدة الحافل بالنضال منذ فجر التاريخ، وبدأت الحصون أولًا بتحويل الرَّوَابي والتلال إلى أماكن يمكن للإنسان التحصُّن

---

(١) فاطمة الصايغ: الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة، ط ١، دبي ـ مركز الخليج للكتب ١٩٩٧م، ١١٢.

(٢) محمد مرسي عبد الله: تاريخ الإمارات العربية المتحدة (مختارات من أهم الوثائق البريطانية ١٧٩٧ ـ ١٩٦٥)، ٤ مجلدات، لندن ـ مركز الدراسات العربية ١٩٩٦م، ٩٩ ـ ١٠٥.

(٣) أحمد حسن الخرخور: الأبراج تراث وتاريخ، ط ١، رأس الخيمة ـ ١٩٩٢، ٨.

(٤) ناصر حسين العبودي: دراسات في آثار وتراث دولة الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي ـ المجمع الثقافي ١٩٩٠م، ١٥.

فيها، وقتما حُفِرت المصاطب حولها، وأُقيمت بعد ذلك المصاطب لتدعيمها، كذلك الخنادق العميقة.

وتعدَّدت مربعات العين وتوزعت في مختلف الأماكن لعدة أسباب؛ منها تباعد قراها، إذ تتكون العين من عدة قرى متفرقة، منها الهيلي، والقطارة، والمعترض، والمويجعي، والجاهلي، والمسعودي(١)، لهذا نجد أن بعض القلاع تحمل أسماء القرى التي أُنْشِئت بها، مثل قلعة المويجعي وقلعة الجاهلي، بينما يحمل بعضها اسم مُنْشِئها مثل قلعة سلطان، على حين سُمِّيَ بعضها وفقًا لأشكالها مثل قلعة المربعة. وتوجد مسافة بين كل قلعة وأخرى، تتفاوت بين ثلاثة وعشرة كيلومترات، وتقع جميعها جغرافيًا داخل منخفض البريمي(٢)، وهو دائري الشكل، قُطْرُه حوالي تسعة كيلومترات، ومنسوب ارتفاعه ٢٧٥م عن سطح البحر(٣).

ومن أسباب تعدد القلاع والحصون والمربعات في العين أنها كانت البوابة الشرقية لأبو ظبي، المجاورة لواحة البريمي محط أنظار الكثير من القوى المجاورة؛ وهو ما يلْزَم تأمين الإمارة من هذه الجهة، ونظرًا لأن جبل حفيت كان يوفِّر قلعة طبيعية للعين من جهة الشرق، كان يجب تأمين الجهة الغربية، وهكذا نرى الحصون والقلاع على شكل قوس ممتد لحماية المدينة التي كانت محط أطماع الكثيرين، بالتالي كانت موضع اهتمام أسرة آل نَهْيَان دائمًا، وقد جاءت تلك الحصون والقلاع لتشكل خطًا طبيعيًا لحدود أبو ظبي، وتحدد نطاق نفوذ آل نهيان(٤).

---

(١) عبد الحميد غنيم: مدينة العين، التوسع الحضري وموارد المياه، الكويت - مكتبة الفلاح ١٩٨٦، ٥١.

(٢) عبد الحميد غنيم: مدينة العين، التوسع الحضري وموارد المياه، ٥١.

(٣) دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة مسحية شاملة، ٥٦٥.

(٤) مسلم سالم بن حم وآخرون: زايد في العين - معجزة قاهر الصحراء، ط ١، - شركة الشرق الأوسط ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٧٨.

المربعات

هي مبانٍ دفاعية منفصلة عن المحيط العمراني، أو متصلة بسور المدينة الدفاعي، ذات أشكال منتظمة مربعة الشكل أو مستطيلة، وهي تكمّل الدور الذي يلعبه الحصن، وتشكل خطًا دفاعيًا أماميًا للمدينة، كما تُستخْدم في النشاطات الاجتماعية، وغالبًا كانت تُسَمَّى بمسميات القبائل والشيوخ، ومنها ما سُمِّيَ حسب شكلها الخارجي، وثَمَّة نوع آخر من المربعات يُشَار إليه (بالغرفة)، وتُسْتَخدَم بصفتها مجلسَ استقبالٍ خاصًا يُبنَى بأمرٍ من الحاكم، أو أي شخص عالي المقام، لكي تُعْقَد فيها الاجتماعات غير الرسمية أو استضافة الزوار، حيث يُبْنَى المجلس عادة من طابقَيْنِ، العلوي يُسْتَخْدَم في أشهر الصيف، حيث يَطِيب فيه الجو[1].

المعنى اللغوي

تَرِد كلمة مربعة بمعانٍ مختلفة، ذات مدلول معماري مختلف، فقد ذكر الفيروزآبادي أن (المربعة أي المجلس، موضع الجلوس)[2]، كذلك (المربعة: مجلس، مكان الجلوس، مقعد)، ويضيف: (مربعة: جزء من مدينة، حي من حجارة، قاعة استقبال مربعة الشكل أساسًا)، وقد يُسْتَدَل عليها من لفظ

---

(١) عبد الستار العزاوي: المربعات دراسة تاريخية وتحليل معماري، ط ١، الشارقة ـ ١٩٩٨، ٣.

(٢) المجلس: من جلس يجلس جلوسًا ومجلسًا، كمقعد، والمجلس: موضعه. الفيروزآبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي) المتَوَفَّى سنة ٨١٧هـ: القاموس المحيط، ١٤ جزءًا، ط ٥، بيروت ـ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ١٩١٣، ٦٩. عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت ـ ١٩٨٨، ٣٥٠.

(مقعد) : (مكان القعود ، أريكة ، أكبر غرفة في البيت ، دار الاستقبال ، غرفة الجلوس)[١] ، وقد يكون تخطيطها وشكلها على هيئة مربع (مربعة : جزء من مدينة ، قاعة استقبال مربعة الشكل أساسًا)[٢] ، وورد في القرآن الكريم معنى (جلس ، قعد)[٣] مصدر (المجلس) ربع البيت أو الحوض : جعله مربعًا ، تربع في

---

(١) الفيروزأبادي : (المقعد : الجلوس) (المقصورة : الدار الواسعة المحصنة) : القاموس المحيط ، ٣٩٧ - ٥٩٤. عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية ، ٣٧٠، ٤٠٤.

(٢) عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية ، ٣٠٧. بالإضافة إلى الأبراج أسطوانية الشكل التي كانت تُبنَى أيضًا أبراجًا مربعة ، لكنها أقل كثرة من الأولى ، وتُدعَى المربعة نسبة إلى أشكالها) . ريم المتولي : مقدمة حول القلاع في أبو ظبي ، محاضرة في ندوة المتاحف ودورها في دولة الإمارات العربية المتحدة ، بتاريخ ٦/١٢/١٩٩٢، جامعة الإمارات العربية المتحدة في العين ، ٤ .

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الأنعام : آية ١٦٨] .

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام : آية ٦٨] .

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الأعراف : آية ١٦] .

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف : آية ٨٦] .

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة : آية ٥] .

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [سورة التوبة : آية ٤٦] .

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [سورة التوبة : آية ٨٣] .

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة : آية ٩٠] .

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [سورة الإسراء : آية ٢٢] .

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء : آية ٢٩] .=

جلوسه : ثنى قدميه تحت فخذيه مخالفًا لهما[١] .

ويُعَدُّ الاسم من التربيع والربع (الدار جمع رباع وربوع وأربع وأرباع ، والمحلة ، والمنزل) ، والموضع يربعون فيه الربيع ، كالربع ، كمقعد)[٢] ، مما يستوجب الملاحظة بأن تخطيط المربعة وبناءها من أجل أن تكون مجلسًا أو ربعة أو تكية ، والمربعة بعيدة عن التخطيط ، وعناصرها تختلف عن المقصورة (حجرة من الحجر ، دار كبيرة محصنة بالحيطان)[٣] .

وقال الفيروزآبادي : «المقصورة : الدار الواسعة المحصنة ، أو هي أصغر من الدار»[٤] ، «ومقعد : مكان القعود ، أريكة ، أكبر غرفة في البيت ، دار الاستقبال ، غرفة الجلوس»[٥] .

وقد ترد كلمة الإيوان (الليوان) لاستخدام الأغراض نفسها ، لمجلس ، أو لاجتماعات ولأغراض مختلفة[٦] .

يذكر لنا المؤرخون مربعات ضمن سرد حوادث تاريخية أو وصف وذكْر لمواقع مدن أو مناطق تتعلق بأسماء أشخاص أو حوادث ؛ وأشهرها ـ حسب رواية

=﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [سورة المجادلة : آية ١١] .

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [سورة الجن : آية ٩] .

(١) لويس معلوف : المسجد الأبجدي ، بيروت ـ ١٩٩٠، ٢٤٦.

(٢) الفيروزأبادي : (الربعة والمرباع والمرتبع وهي ربعة أيضًا) ، القاموس المحيط ، ٩٢٧.

(٣) عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة ، ٤٠٤.

(٤) الفيروزأبادي : القاموس المحيط ، ٥٩٥.

(٥) عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة ، ٤٠٤.

(٦) مصطفى جواد : الإيوان والكنيسة في العمارة الإسلامية ، مجلة سومر ، العدد ٢٥، لسنة ١٩٦٩، ١٦٣ - ١٧٦.

الطبري ـ المربعة المعروفة بأبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي[١]، وقال: «وقرية أخرى قائمة إلى اليوم مما يلي مربعة أبي فروة»[٢]، وكذلك يوضح المربعة قائلًا: «رأى المعتصم راكبًا منصرفًا من المصلى في بغداد، فلما صار في مربعة الحرش»[٣]، ويضيف: «ركب أبو العباس محمد بن المقتدر من القصر... فاعترضه رجل بمربعة الحرش ...»[٤]، وذكَر الطبري المربعة في مدينة البصرة حيث قال: (أن يخرج عليهم جمع ... من المربعة)، كذلك قال: «صاحب الزنج تفرق أصحابه في الأنهار حتى صاروا إلى مربعة دبا»[٥]، ويشير ياقوت إلى موقع دبا قائلًا: «دبا: من نواحي البصرة فيها أنهار وقرى، ونهرها الأعظم الذي يأخذ من دجلة حفرة الرشيد»[٦].

ويضيف ياقوت: «مربعة الخرسي، مربعة أبي العباس ومربعة الفرس»[٧]، ويوضح لنا اليعقوبي مواضيع المربعة خلال بناء مدينة الجعفرية من قِبَل الخليفة المتوكل قائلًا: «وجعلت الأسواق في موضع معتزل، وجعل في كل مربعة وناحية سوقًا، وبني المسجد الجامع سنة سبع وأربعين ومائتين»[٨].

---

(١) الطبري (أبو جعفر بن جرير الطبري المُتَوَفَّى سنة ٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك، ليدن ـ ١٩١٠، ٣/ ٢٧٤، ٢٧٩.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تاريخ ٣/ ٢٧٩، ٢٨٠.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، صلة ٤٤، ٢٨٠.

(٤) الطبي: تاريخ الأمم والملوك، تاريخ ٣/ ١٨٥٤.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تاريخ ٣/ ١٧٧٤.

(٦) ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي المتوفَّى سنة ٦٢٦هـ): معجم البلدان، بيروت ـ ١٩٥٥م، ٢/ ٤٣٦.

(٧) ياقوت: معجم البلدان، ٥/ ٩٩. ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكريم محمد بن عبد الكريم بن محمد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير): الكامل في التاريخ، بيروت ـ ١٩٩٥، ٨/ ١٨٠.

(٨) اليعقوبي (أحمد بن واضح المتوفَّى ٢٨٤هـ): البلدان، النجف ـ ١٩٥٧م، ٣١.

عمارة المربعات

المربعة عبارة عن وحدة معمارية بتخطيطها وبنائها، سواء كانت حسب النصوص مربعة منفصلة أو متصلة مع مبانٍ أخرى، ضمن تخطيط المدن، وهذا ما يؤكد أن اسم المربعة يطلق على وحده سكنية مربعة، وتأخذ المربعة اسمًا معروفًا تُشتَهر به، وقد يكون الاسم ملاصقًا لشخص بَانِيها، أو اسم المنطقة، أو حدث سياسي أو عوامل طبيعية[١].

ونقلًا عن الدكتور العلي، عن مدينة البصرة وفي بني سليم خطة لكلاب بن أمية، يقول: «يقال لها مربعة كلاب، وتقول العامة مربعة كلاب بلا علم»[٢]، وقال: «بالقرب حتى سكة أصطفانوس كانت مربعة بني منقر، وهم من تميم»[٣]، ويذكر الجاحظ: «... وباعة مربعة منقر»[٤].

وترد المربعة عند باب عثمان في سكة المربد، ينسب إلى عثمان بن أبي العاص[٥]... وكانت عند مربعة باب عثمان[٦]، وقال ابن جبير عن بغداد: «نزلنا فيها يعرف بالمربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر»[٧].

---

(١) عبد الستار العزاوي: المربعات دراسة تاريخية وتحليل معماري، ٧.

(٢) صالح أحمد العلي: خطط البصرة، بغداد ـ ١٩٨٦، ٨٧، عن طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ١٩١.

(٣) صالح أحمد العلي: خطط البصرة، ١٢٢.

(٤) الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، المتوفَّى سنة ٢٥٥هـ): الحيوان، ط ٢، ٧ أجزاء، بيروت ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ، ٢/٤٣.

(٥) البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيي بن جابر المتوفَّى سنة ٢٨٩هـ): فتوح البلدان، بيروت ـ ١٩٧٨، ٣٤٦.

(٦) صالح أحمد العلي: خطط البصرة، ١١٧. (عن أسماء المغتالين من الشعراء، نوادر المطبوعات، ٥٢).

(٧) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد المتوفَّى ٦١٤هـ): الرحلة، بيروت ـ ١٩٨٦م، ١٧٩.=

وحسب النصوص والنماذج فإن اسم المربعة يطلق على تلك الوحدة المعمارية مهما كانت أهدافها[١]، وغالبًا ما تقوم بالجانب الاجتماعي والدفاعي بصفتها وحدة معمارية ذات طابع عسكري، بما تضم من عناصر دفاعية، وتُطْلَق كلمة المربعة على الشكل بالتخطيط (المربع)[٢].

والمعنى المجازي في كلمة المربعة مأخوذ من الجلوس «متربعًا» على الأرض، (الموضع يرتبعون فيه الربيع، كالمربع، كمقعد... وقعد الأربعاء والأربعاوي... أي متربعًا. والتربيع: جعل الشيء مربعًا... وتربع في جلوسه: خلاف جثا وأقعى)[٣]. كذلك يتم جلوس الأشخاص بشكل مربع وليس بهيئة دائرة أو حلقة.

=ويذكر ابن الأثير (من حوادث سنة ٤٩٥هـ وفي رجب كانت الفتنة شديدة في بغداد... عبر إيلغازي بأصحابه إلى الملاحين المعروفة بمربعة القطانين)، الكامل ١٠/ ٣٣٨.

(١) يطلق مثلًا الاسم على مربعة علي بن راشد (منطقة الخان في الشارقة)، أو مربعة الفهيدي (في مدينة دبي)، أو الجهات مثلًا كالمربعة الغربية (الشرقية، الشمالية، الجنوبية)، أو موقع طبيعي مثل البئر أو العين، وأحيانًا يطلق على مربعة الفتح أو النصر، أو حسب حجمها كالمربعة الطويلة، أو اسم قبيلة أو عشيرة من أبناء الشيوخ والأعيان كمربعة أو ربعة أو مجلس أو مضيف، ولا تزال المجالس لدى شيوخ دولة الإمارات العربية المتحدة عامرة ومفتوحة للضيوف والزوار، كذلك غالبية البيوت فيها بناء المجالس ضمن مخطط الدور والبيوت، ويطلق في العراق اسم الربعة، مجلس أو مضيف، ولا تزال تلك المواقع تحمل أسماء أصحابها مثل مضيف أو ربعة الشيخ حبيب الخيزران وأولاده شيخ عشيرة العزة في منطقة الخالص، والمرحوم الشيخ عواد الحمد (ناحية العظيم)، ولا تزال الربعة يديرها أبناؤه وأحفاده أحمد حسون العواد وأخوه زين (فخذ آلبو عواد) العزاوي، وربعة مصيف الشيخ مزهر العاصي شيخ عشيرة العبيد في منطقة الحويجة، وقد رسم الأثاري (أندريه) تفاصيل المضايف (المجالس) وأشكالها، في منطقة وسط وجنوبي العراق (راجع ANDRAEBOEH & ERANST WALTER ANDRAE, RAINER MICHAEL, *Boehmer* (*Bilder Eines Ausgrabers, Berlin,* 1992, p.106).

(٢) يذكر الحربي (وبزبالة من الآبار التي يسمى (يسني)، منها: بئر مدورة... وبئر تعرف بالمربعة... وبئر تعرف بالبرمكية مربعة). أبو إسحاق الحربي: كتاب المناسك وأماكن الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض - ١٩٨١، ٢٨٥.

(٣) الفيروزآبادي: كلمة الربع، القاموس المحيط، ٩٢٧ - ٩٣٠.

وتُطْلَق كلمة المربعة على منطقة أو مساحة من الأرض، أو محلة من مدينة، رغم عدم وجود بناء مربعة فيها، ومن المحتَمَل أن يرد بأن تخطيط المنطقة مربع[(١)].

ويذكر الطبري نصًا: «القرية التي في مربعة أبي العباس كانت قرية جده من قبل أمه»[(٢)].

ونستدل من ذلك أن اسم (المربعة) كان يُطْلَق على احتمال بناء تخطيط مربع، أو على منطقة أو محلة مربعة الشكل في تخطيط مبانيها، ضمن موقع مربع[(٣)].

ويُطْلَق على المربعة في مناطق أخرى أو أحيانًا أخرى بالشارقة اسم (الغرفة)، ونلاحظ إطلاق هذا الاسم على مجموعة مربعات في منطقة رأس الخيمة، مثل (غرفة القصيدات) و(غرفة العريبي) و(غرفة البقشي)، ومربعة الجزيرة الحمراء يُطْلَق عليها (غرفة أبو عبلا)[(٤)].

---

(١) يذكر حاليًا في بغداد اسم محلة المربعة في جانب الرصافة، بشارع الرشيد، مقابل جامع السيد سلطان علي رضي الله عنه، ومن المحتمل أنه كانت هناك مربعة بالمنطقة وأُزيلت وبَقِيَ الاسم فقط، ويذكر ابن الأثير (ومن حوادث سنة ٥٥١هـ ذكر حصر السلطان محمد بغداد ... وخرب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية والمستجدة والنجمي). انظر الكامل: ١١/ ٢١٢.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٢٧٩.

(٣) وبناء المضيف في الأرياف حسب مواده الأولية المتوفرة؛ إما من الطين (الطوف)، أو اللبن، أو الطابوق، أو القصب، أو الجريد، وتقع دائمًا قرب التجمعات السكنية، ومن الأمثلة (مضايف شيوخ آل عريبي من عشائر آلبو محمد، التي ترجع لعشيرة العزة في محافظة ميسان). اليعقوبي: البلدان، ٣٢٥.

(٤) يطلق غالبًا على البناء المرتفع ـ كالمربعة أو المجلس ـ اسم الغرفة، وأحيانًا يستمر الاسم حتى يشمل منطقة باسم (منطقة الغرفة ـ طريق الخالص ـ محافظة ديالي ـ العراق) على سبيل المثال. وتُعَدُّ المجالس المجاورة للبيوت في الشارقة ـ كمجلس بيت النابودة ومجلس إبراهيم المدفع ـ من الأماكن التي كانت تقدِّم الخدمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتُعَد (الديوانية) ركنًا أساسيًا من أركان المنزل، وكلما كبرت القبيلة أو العشيرة احتاج شيخها أو زعيمها إلى مكان أكبر ليتسع العدد الكبير، والديوانية مكان عام يلتقي فيه الناس لممارسة الحياة أو العلاقات الاجتماعية، والديوان الكبير هو ديوان القبيلة أو العائلة الكبيرة، يكون فيه مكان للنوم وللاجتماع وللأكل وللطبخ ومكان لدواب الضيوف. انظر: محمد العوضي: الديوانية،=

مربعة العين[١] (المعروفة بقلعة العين)

الموقع : تقع قلعة المربعة وسط مدينة العين بالقرب من متحف العين الوطني .

تاريخ الإنشاء : ١٩٤٨م .

أمر ببناء هذه القلعة المغفور له سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ، وذلك خلال فترة حكمه للمنطقة الشرقية[٢] ، حيث أعطى تعليماته وأوامره ببناء القلعة كي يهنِّئ شعبه بحياته في أمنٍ واستقرارٍ وأمانٍ ، وتُؤَمِّن لهم معيشتهم وحياتهم .

تُعَد قلعة المربعة آخر قلاع مدينة العين ، وتحتل موقعًا متميزًا في وسط المدينة ، وقد تميزت القلعة من خلال موقعها بالإشراف على مدينة العين ، حيث توفر لها الحماية والأمان المطلوبَيْن[٣] .

تقع القلعة على مرتفع من الأرض ، وتحتل مساحة واسعة ، وكانت في البداية عبارة عن برج للمراقبة وقاعدة للحرس ، واقد اشْتُقَّ اسمها من هذا البرج المربع ، كما كانت مركزًا لتجمُّع سكان مدينة العين ؛ حيث كانت تُقام بها الأعراس والاحتفالات والمناسبات الدينية واللقاءات الرسمية ، كما استُخْدِمت القلعة فترةً ما سجنًا ، كما استُخْدِمت مركزًا للإدارة الأمنية في المدينة ، كما استُعْمِلت مقرًا

=مهامها ، تطورها ، وشروط بنائها ، مجلة عمار ، العدد ٢٣ مايو ١٩٩٨، ٥٦ - ٦١.

(١) اشتقت المربعات اسمها من شكلها المربع ؛ فهي تعني الحصن أو المجلس مربع الشكل ، أو المستطيل جوازًا ، وقد عرفها العرب منذ مدة طويلة ، وتتعدد استخداماتها ، فهي تستخدم غالبًا لأهداف عسكرية ، أو منازل للحكام ، أو نقاط مراقبة مزودة بوسائل دفاعية كفتحات للرمي والبنادق . (جريدة الخليج : أغسطس ٢٠٠٤) .

(٢) علي محمد راشد : الحصون والقلاع في الإمارات العربية المتحدة ، أبو ظبي - المجمع الثقافي ٢٠٠٤م، ٢٩.

(٣) محمد فاتح صالح : شواهد من التراث ، ١١١.

لشرطة العين حتى عام ١٩٨٥م ، حيث انتقل مركز الشرطة بعد ذلك لمكان آخر ، ثم تحوَّلت بعد ذلك لأثر سياحي بعد أن تسلَّمتها إدارة الآثار والسياحة ، حيث تم ترميم القلعة والاهتمام بها وإعادتها إلى سابق عهدها ، وذلك بتوجيهاتٍ من المغفور له الشيخ زايد ، كما قامت إدارة السياحة والآثار بإزالة المباني المستَحْدَثَة حولها ، ليُعَاد إليها رونقها وتألقها المعماري .

شهدت القلعة الكثير من الخلافات بين الناس وحل مشاكلهم ، وكان يتم حلها وتسويتها بالعدل بينهم داخل القلعة ، استنادًا إلى قانون البادية وما أقره الشرع الإسلامي .

يحدِّثنا الرحالة البريطاني «ثيسجر» عن إجراءات التقاضي البسيطة في مجلس زايد ، الذي يَفِد إليه أيضًا آخرون للحصول على هدية فقط ، وقد يلحون في كثير من الأحيان بما يحض على مضاعفتها ، يقول هذا الرحالة : «قد يقوم أحد العرب فجأة من بين الجلوس ، وينبري جالسًا في مواجهة زايد مباشرة ، ثم يضرب الأرض بعصاه لاسترعاء الانتباه ، ويقطع حديث زايد مع محدثِّه ، ويسأله قائلًا : والآن يا زايد ما العملُ بخصوص هذه النُوق التي اغتُصِبَتْ مني؟ ويتوقف الشيخ عن متابعة حديثه ليتابع شكوى الرجل» ، ويلاحظ ثيسجر أن أكثر القضايا كانت تتصل بسرقة الإبل ، وأنَّ المدعَى عليهم غالبًا ما يكونون في مجلس الشيخ ، فقد كان زايد يَسْتَأْنِسُ بهم ويُحْسِن إليهم أيضًا ، وتتعالى أصوات الخصوم يقاطع بعضها بعضًا ، والشيخ يصغي ويتابع غير ضجرٍ ، ولم يكن الشيخ يعمد إلى الإضرار بأولئك الخارجين الذين كانوا يعملون وفق قانون البادية ، كما كان في الوقت نفسه حريصًا ألا يخسر شهرته في إجراء العدل ، وأخيرًا يصدر الشيخ حُكمه الذي يرضي الجانبين كليهما ويحقق لهما العدل[١] .

---

(١) محمد فاتح صالح : شواهد من التراث ، ١٢٦.

وصف القلعة

تتكون قلعة المربعة من ثلاثة طوابق، يعلوها سطح المربعة، وفيما يلي وصف للقلعة:

القلعة من الخارج

يتمثل في قلعة المربعة أسلوب معماري مميز، يُعَدُّ من المبادئ المعمارية المهمة، وهو أسلوب الانحدار لجدرانها الأربعة، مما يزيد من قوة الجدران الشاخصة عموديًا، أما واجهات الجدران من الداخل فتكون عمودية، ويظهر التدرُّج في البناء بحيث يكون الطابق الأرضي للمربعة أكبر من مساحة القمة، والناظر من بعيد للقلعة يدرك أن ثَمَّة فارقًا بين قاعدتها وسطحها من حيث المساحة؛ فجوانبها الأربعة تميل بشكل مائل وتدريجي نحو الداخل، وهذا من فنون العمائر الحربية لأنها تتيح للحرس أن يراقبوا جوانب القلعة من الفتحات والشُّرفات، كما أنها تمنح القلعة متانة وقوة، وتصميمُها بسيطٌ جدًا، فهي ترتكز على أربع دعائم من الزوايا وترتفع قاعدتها ٨٠ سم عن الأرض. وربما كان ظهور هذا الفن الخاص بالعمائر الحربية يفسِّر لنا عِلَّة عدم وجود أبراج للمراقبة بقلعة المربعة.

سور القلعة

يحيط بالقلعة من الخارج من جميع واجهاتها الأربع سور قليل الارتفاع، يبلغ ارتفاعه ٢,٥م، يُتَوَّج هذا السور بشرفات مثلَّثة.

فناء القلعة

نصل من خلال المدخل الرئيس إلى ساحة كبيرة تحيط بالقلعة، حيث كانت القلعة مركزًا لتجمُّع الناس في الكثير من المناسبات، كما كانت مركزًا لتبادل

المنافع والآراء ولقضاء أمور الناس الإدارية، وكانت تُسْتَخْدَم القلاع سابقًا لإيواء الناس الذين يحتشدون داخلها في حالة وقوع هجوم على المدينة.

تمثل الساحة المحيطة بالقلعة ثلاثة أرباع مساحة القلعة تقريبًا، وهناك بأحد جانبي البرج الرئيس عريش تم بناؤه حديثًا، إذْ يُعَدُّ مثالًا جيدًا للهندسة الإماراتية التقليدية.

وتضم الساحة في الركن الغربي من الواجهة الشمالية حجرة مستطيلة الشكل، بها محولات كهرباء لإنارة القلعة بالليل، كما تضم عن يمين المدخل ويساره من الداخل مجموعة من الحجرات الصغيرة خاصة بالحرس، لتأمين مَبِيتهم وما يحتاجون إليه.

المدخل الرئيس

يُعَدُّ المدخل الرئيس بمثابة قلعة صغيرة تحمي قلعة المربعة، يتوسط المدخل الواجهة الجنوبية للساحة، وهو مدخل مربع الشكل، يبلغ طول ضلعه أربعة أمتار تقريبًا، وارتفاعه خمسة أمتار تقريبًا، أما اتساعه فيبلغ ٣,٨٥م. بالمدخل فتحةُ بابٍ طولها حوالي ثلاثة أمتار، وارتفاعها أربعة أمتار، نصل من خلال هذه الفتحة إلى فناء القلعة، وتُغْلَق على الباب ضلفتانِ من الخشب قليل الزخارف، وتتميز ضلفتا الباب باستخدام المسامير الطبيرة (أبو الكبة) والطويلة، ويوجد بإحدى هاتين الضلفتين باب صغير قليل الارتفاع، مشغول داخل الباب الكبير، ويتوسط ضلع القلعة الشرقي، كان مخصصًا لدخول الأفراد، يرتفع باب القلعة الخشبي الصغير - الذي لا يتَّسع إلا لدخول فرد واحد - عن الأرض بحدود عشرين سم عن مستوى الأرضية الخارجية والداخلية، لمنع دخول المياه، وتوجد على جانبي المدخل من الداخل مصاطب صغيرة لجلوس الحرس، والمدخل من الداخل مُدَعَّمٌ بعمودَيْنِ حجريين، وذلك لحمْل قمة المدخل.

ويُتَوَّج المدخل بعُقَدٍ على هيئة قوس مموَّج ، ويُسقَّف المدخل من الداخل بسقف تقليدي مصنوع من أغصان النخيل والحصائر المنسوجة من سعف النخيل ، وتعلو المدخل مجموعةٌ من المزاغل وفتحات رمي السهام المستطيلة والدائرية ، وتعلو هذه الفتحات شرفات مثلثة كانت تُستَخْدَم للمراقبة والحراسة ، فقد كان الهدف مراقبة الغزاة ، فهذه الشرفات كانت خط الدفاع الأول عن المدينة .

المدخل الفرعي

ثَمَّة بنهاية الطرف الجنوبي من الواجهة الشرقية مدخل آخر لساحة القلعة ، وتُغْلَق على الباب ضلفتان من الخشب قليل الزخارف ، وتتميز ضلفتا الباب باستخدام المسامير الطبيرة .

مدخل القلعة

يتوسط الواجهةَ الشرقية مدخلُ القلعة ، يُصْعَد إليه من خلال درجتَيْ سلمٍ ، وهو عبارة عن فتحة باب مستطيلة الشكل ، ارتفاعه ١,٦٤م ، واتساعه ١,٠٨م ، يُغْلَق عليه مصراعان من الخشب ، ويُزَخْرَف المدخل من أعلى وعلى جانبَيْه بزخرفة هندسية .

الواجهات

تشتمل القلعة على أربع واجهات ، نتناول شرحها في ما يلي :

الواجهة الشرقية

وهي الواجهة الرئيسية ، تضم مدخل القلعة الرئيس ، يبلغ ارتفاعها حوالي خمسة عشر مترًا ، وعرضها حوالي ثمانية أمتار ، تضم الواجهة ثلاث نوافذ ، عليها

أسياخ حديدية وهي موجودة في الطابق الأول للمربعة ، وتتوزع على جانبي النوافذ فتحاتُ التهوية والإضاءة ، ومزاغل البنادق والمراقبة تتنوع في شكلها بين المثلثة والمربعة والدائرية والمستطيلة ، وفي واجهة الطابق الثاني للمربعة ثَمَّة خمس نوافذ مشغولة بزخرفة من الجص مَطْلِيَّة باللون الأبيض ، وهناك ثلاث نوافذ في وسط الواجهة وواحدة على جانبي الواجهة حيث تسمح بالتهوية والإضاءة ، وتعلوها مباشرة فتحات المزاريب ومزاغل البنادق مستطيلة الشكل ، ويُتَوِّج الواجهةَ صفٌّ من الشرفات المثلثة .

الواجهة الغربية

تتشابه مع الواجهة الشرقية ؛ إذ يبلغ ارتفاعها حوالي خمسة عشر مترًا ، وعرضها حوالي ثمانية أمتار ، تشتمل على مجموعة من الفتحات للإضاءة والتهوية ، فضلًا عن المزاغل التي تتنوع بين المثلثة والمربعة والدائرية والمستطيلة ، وهذه هي الفتحات في الطابق الأول للمربعة . أمَّا واجهة الطابق الثاني للمربعة فتوجد بها ثلاث نوافذ عليها أسياخ حديدية ، تتوزع اثنتان في جانب وواحدة في الجانب الآخر من الواجهة ، تعلو ذلك مباشرة فتحات المزاريب ومزاغل البنادق مستطيلة الشكل ودائرية ، ويُتَوِّج الواجهةَ صفٌّ من الشرفات المثلثة .

الواجهة الجنوبية

يبلغ ارتفاعها خمسة عشر مترًا ، وعرضها ستة أمتار ، وهي بذلك تضيق عن الواجهة الغربية والشرقية للقلعة . توجد بأسفل الواجهات مصاطب ربما كانت تُسْتَخدم لجلوس الجنود ، وفي طابقها الأول نافذة واحدة عليها أسياخ حديدية ، وتحيط بها مجموعة من الفتحات الخاصة بالإضاءة والتهوية متنوعة الشكل ، بين المثلثة والمستطيلة والدائرية ، وفي طابقها الثاني ثلاث نوافذ ، منها نافذتان مشغولتان

من الجص ، أما النافذة الثالثة فهي خالية من الزخرفة ، فضلًا عن الفتحات المخصصة للتهوية والإضاءة والبنادق التي تعلو ذلك مباشرة ، ومزاغل البنادق مستطيلة الشكل ودائرية ، ويُتَوِّج الواجهةَ صفٌّ من الشرفات المثلثة .

الواجهة الشمالية

تتشابه مع الواجهة الجنوبية من حيث الارتفاع والعرض ، لكنْ يخلو طابقها الأول من أيَّة نوافذ ، بل يضم مجموعة من الفتحات المستخْدَمَة للإضاءة والتهوية ، أما طابقها الثاني فتوجد به نافذتان ، واحدة منهما عليها أسياخ حديدية ، أما النافذة الأخرى فمشغولة بالجص ، تعلو ذلك مباشرة مزاغل البنادق الدائرية ومستطيلة الشكل ، ويُتَوِّج الواجهةَ صفٌّ من الشرفات المثلثة .

داخل القلعة

نصل من خلال مدخل المربعة إلى ردهة مستطيلة الشكل ، على جانبيها ثلاث قاعات مستطيلة الشكل خالية من أيَّة نوافذ ؛ القاعة الأولى في الضلع الشمالي ، والثانية في الضلع الجنوبي ، والثالثة في الطرف الشمالي من الضلع الغربي ، ونصل إلى الطابق الثاني من القلعة من خلال درج بالطرف الجنوبي من الضلع الغربي للردهة ، ويتشابه الطابق الثاني للقلعة مع الطابق الأول من حيث تصميمه ، إلا أنه من إحدى القاعات الثلاث توجد قاعة مستطيلة أخرى داخلها ، كما تظهر بالطابق الثاني للقلعة فتحات الإضاءة والتهوية ، كما يضم هذا الطابق مجموعة من الفتحات الحائطية ربما كانت تُسْتَخْدَم لحفظ الأدوات الخاصة بالحراس ، ويُسَقَّف هذا الطابق بسقف من جذوع النخل ، ونصل من خلال درج بالطرف الجنوبي من الضلع الغربي إلى الطابق الثالث ، يتكون هذا الطابق من ردهة مستطيلة ، على جانبيها قاعتان مستطيلتان ، إحداهما بالضلع الشمالي والأخرى

بالضلع الجنوبي من الردهة ، كما تظهر أيضًا مجموعة من الفتحات الحائطية ، وسقف هذا الطابق من جذوع النخل .

سطح القلعة

نصعد إلى سطح القلعة من خلال درج بالطرف الجنوبي من الضلع الغربي ، يُعَدُّ سطح القلعة من الأماكن المهمة فيها ، وللحراس دور مهم وحيوي فيها ، ألا وهو التحذير لأي قادم ، وقديمًا جرت العادة أن يُطلِق الحراس طلقة تحذيرية واحدة من البندقية المُسَمَّاة محليًا «أم عشر» ، ويُطْلَق على البندقية ذات العشر طلقات ، أمَّا إن كانت هناك غارة ووجب تحذير المدينة فيُطلق الحراس طلقتين فقط ، أمَّا في حالة رؤية هلال شهر رمضان أو هلال شهر شوال أو الأعياد أو عودة الحاكم إلى المدينة فتُطلَق ثلاث طلقات ، أمَّا إطلاق سبع طلقات فإنه يشير إلى حدث مهم .

يحيط بسطح المربعة سور فُتِحت فيه صفوف من مزاغل البنادق ، وأكثرُ ما يميز القلعة فتحاتُ الجزء العلوي التي كانت تُستَخدم لأغراض الدفاع والمراقبة ، وتنقسم لعدة أنواع منها الدائري والمستطيل والمربع والمثلث ، وكلها لها أغراض عِدَّة ، أهمها الدفاع والمراقبة ، وتعلو المربعةَ من أركانها الأربعةِ أربعةُ أعمدة صغيرة ، وهي عبارة عن حليات مخروطية تشبه المآذن ، استُخْدِمت لغرض الزينة ولإبراز القلعة بشكل جميل ، ويحيط بسور القلعة صفٌّ من الشرفات المثلثة ، وتوجد بسطح القلعة فتحة ربما كانت تُستَخْدَم للحصول على الماء للجنود أعلى السطح .

مربعة العانكة(١)

الموقع: قرية العانكة التي تقع على بعد ٥٥ كم غرب مدينة العين.

تاريخ الإنشاء: يعود بناء المربعة إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أَمر ببنائها الشيخ سعيد بن طحنون(٢) الذي حكم إمارة أبو ظبي في الفترة من (١٨٤٥ - ١٨٥٥م)(٣)، وربما أمر الشيخ سعيد ببنائها لحماية منطقة العين وحماية أراضي آل نهيان من مد القوات السعودية، خاصة أنها تقع في الطريق بين أبو ظبي والعين، وكانت المربعة تتحكم في الممر المؤدي إلى واحة العين من الجهة الجنوبية(٤).

---

(١) يلفظها القوم (العانجة) بقلْب الكاف جيمًا معطشة، حسب عادتهم في النُّطق. واللفظُ فصيحٌ، ففي اللغة في مادة ع - ن - ك: عنك يعنك عنكًا وعنوكًا: الرمل: تعقد وارتفع، فلم يكن فيها طريق، ورملة عانك: لا يقدر البعير على المشي فيها إلا أن يَحْبُو، ويقال: قد أعنك البعير، ومنه قول رؤبة: أوديت إن لم تحب حبو المعتنك، يقول: هلكت إن لم تحمل حمالتي بجهد، واعتنك البعير واستعنك حبًا في العانك فلم يقدر على السير، وأعنك الرجل: وقع في العنكة، واحدُها عنك، وهو الرمل الكثير، والعانك الأحمر، يقال: دم عانك وعرق عانك إذا كان في لونه صُفْرة، وأنشد: أو عانك كدم الذبيح مدام، والعانك من الرمل ما كان في لونه حُمْرة، قال الجوهري: والعانك الأحمر، الشخص: ذهب في الأرض، عنك الرجل باحثًا عن الرزق، عنك اللبن: خثر، وعنكت المرأة على زوجها: نشزت، وعنكت عن أبيها: عصيته، وعنكت الدابة: حملت وكرت. (فالح حنظل: مجلة ليوا، العدد السابع، يوليو ٢٠٠٤، ١٦).

(٢) تولى الشيخ سعيد بن طحنون إمارة أبو ظبي في ظروف سياسية محددة؛ حيث تولّى خلفًا لعمه الشيخ خليفة بن شخبوط، الذي اغتالته جماعة يقودها عيسى بن خالد عام ١٨٤٥م، وبقيت الإمارة تحت رحمة هذه الجماعة فترة من الزمن انفلتت فيها الأمور واختلطت القيادات، واستمرت تلك الفترة ربعين يومًا، انتهت بيوم يسمّى «يوم اليدافة»، إذ وقع اختيار آل نهيان على سعيد بن طحنون بن شخبوط، وقد وصفه الرواة بأنه ضَبْعٌ من ضباع البادية في رجولته وحِنكته، وتم إعلان مشيخته بالنداء المعروف (الدور ... دور الشيخ سعيد بن طحنون). (فالح حنظل: مجلة ليوا، العدد السابع، يوليو ٢٠٠٤، ١٦).

(٣) علي محمد راشد: الحصون والقلاع في دولة الإمارات، ٣٧.

(٤) PETER HELLYER: HIDDEN RICHES, *An Archaeological Introduction to the*

هي عبارة عن مربعة من طابقين على شكل مربع ، وهي تشبه القصر الذي بناه الشيخ سعيد بن طحنون في أبو ظبي ، وهو الموجود الآن في أحضان قصر الحصن ، وتعد قلعة العانكة من القلاع القليلة التي وُجِدَتْ بها بوابة خارجية ثم فناء نصل من خلاله إلى بوابة المربعة .

قد وقعت العديد من المعارك الحربية في تلك الفترة ؛ أهمها معركة العانكة ، تلك المعركة التي قلبت موازين القوى في المنطقة ، إذ أنزل مقاتلو أبو ظبي ـ بقيادة الشيخ سعيد بن طحنون ـ هزيمة بقوة نجدية يقودها سعد بن مطلق المطيري كانت متجهة إلى البريمي ، إذ إنه عندما تولى الشيخ سعيد بن طحنون إمارة أبو ظبي كانت متخمة بالمشاكل السياسية والاقتصادية إثر الفوضى التي ضربت أطنانها هناك خلال فترة حكم عيسى بن خالد وجماعته ، كما واكب وصوله إلى السلطة بدايات سيطرة فيصل بن تركي على الرياض ، فقد أَوْفَدَ فيصل بن تركي جيشًا إلى منطقة البريمي باعتبارها قاعدة عسكرية متقدمة تنطلق منها الجيوش النجدية إلى داخل عمان ، وقد أجّجت هذه الحملة الخلاف القديم في المنطقة ، بين القبائل الهنائية الحليفة في الغالب للبوسعيديين والقبائل الغافرية المتحالفة في الغالب مع السعوديين[1] .

وصف المربعة

عبارة عن مبنى مستطيل الشكل ، يمتد من الشرق إلى الغرب ، بطول ٢٠م تقريبًا ، ومن الشمال إلى الجنوب بطول ١٠م تقريبًا ، وتتكون المربعة من طابقين وسطح للقلعة ، ونلاحظ أن تصميمها المعماري متدرج ، بمعنى أن مسقط المربعة

United Arab Emirates, Abu Dhabi 1998. p.162.

(١) فالح حنظل : مجلة ليوا ، العدد السابع ، يوليو ٢٠٠٤، ١٨.

يأخذ في التقلص بالطابق الأول ثم تتقلص أكثر في الطابق الثاني ، وكذلك حتى السطح ، وهذا التدرُّج يمنح المربعة القوة ، ويتيح للواقفين على السطح أن يرَوْا أسفل المربعة ومَن يقف أمامها .

مدخل المربعة الخارجي

يتوسط الضلع الجنوبي للسور مدخلٌ مربع الشكل ، طول ضلعه ٤م تقريبًا وارتفاعه ٥م تقريبًا ، ويتوسط المدخل فتحة باب أبعادها ٣×١,٥م ، يُغْلَق عليها بمصراعَيْنِ من الخشب ، تؤدي إلى دركاه مربعة نصل من خلالها إلى فناء المربعة .

مدخل المربعة الداخلي

إنه المدخل الرئيسي المؤدي إلى المربعة ، يقع في منتصف الواجهة الجنوبية ، ويبعد عن المدخل السابق حوالي ١٥م ، ويُغْلَق عليه بمصراعين من الخشب المُعَزَّز بعوارض حديدية مثبتة بالمسامير الكبيرة ذات الرؤوس الغليظة ، مما يزيده صلابة ومنعة ، وله مِزْلاج خلفي من الخشب لتثبيت إغلاقه ، ويحيط بالمدخل تجويف ، وتعلو المدخل نافذة صغيرة ، ربما كانت تستخدم للإضاءة والتهوية .

السور

يحيط سور المربعة بها من كل الاتجاهات ، ويصل ارتفاعه إلى ٢,٥م تقريبًا ، ويعلوه صف من الشرافات المثلثة ، وبه فتحات مزاغل موزَّعة على امتداد السور لرمْي البنادق .

الواجهــات

الواجهة الجنوبية

إنها الواجهة الرئيسية للقلعة ، يبلغ طولها ١٥م تقريبًا ، ويبلغ ارتفاعها ١٢م تقريبًا ، يتوسطها مدخل المربعة الداخلي ، وبالواجهة ثلاث نوافذ مغشاة بقضبان (أسياخ) حديدية ، تُستَخدَم لدخول الهواء والإضاءة ، كما توجد فتحات لرمي البنادق ، وتعلو الواجهة شرافات مثلثة الشكل .

الواجهة الشمالية

تَحْمِل تصميم الواجهة الجنوبية نفسَه ، حيث يبلغ طولها ١٥م تقريبًا ، ويبلغ ارتفاعها ١٢م تقريبًا ، كذلك تتشابه مع الواجهة الجنوبية في عدد النوافذ وفتحات المزاغل ، وتعلو الواجهة شرافات مثلثة الشكل .

الواجهة الشرقية

يبلغ طولها ١٠م تقريبًا ، أما ارتفاعها فيبلغ ١٢م تقريبًا ، وبالواجهة نافذتان مُغَشَّاتان بقضبان (أسياخ) حديدية تُسْتَخدَم لدخول الهواء والإضاءة ، كما توجد فتحات لرمي البنادق ، وتعلو الواجهة شرافات مثلثة الشكل .

الواجهة الغربية

تتشابه مع الواجهة الشرقية ، حيث يبلغ طولها ١٠م تقريبًا ، أما ارتفاعها فيبلغ ١٢م تقريبًا .

داخل المربعة

يؤدي مدخل المربعة إلى ردهة مستطيلة الشكل ، على جانبيْها قاعتان

مستطيلتان ، يُغْلَق عليهما بضلفتي باب خشبي ، ومن الداخل نجد دخلات حائطية ، وفتحات للإضاءة والتهوية ، ونَلْحَظ خُلُوَّ تلك القاعات من أيَّة نوافذ .

ونصل من خلال سلم بالزاوية الشمالية الغربية من الردهة إلى الطابق الأول للقلعة ، ونصل من خلال السلم إلى ردهة داخلية أخرى ؛ وهي عبارة عن قاعة وسطى ، على جانبيها قاعتان مستطيلتان ، يُغْلِق عليهما بابٌ خشبي ، والقاعتان عبارة عن مساحة مستطيلة ، توجد بكل منهما نافذتان مستطيلتان مُغَشاتان بقضبان (أسياخ) حديدية ، كما توجد بها دخلات حائطية ، كما توجد مصاطب على شكل نوافذ مغلقة ، لوضع المستلزمات الضرورية عليها .

وفي زاوية الردهة الشمالية الغربية بالطابق الأول سلمٌ يؤدي بنا إلى الطابق الثاني ، وهو يشبه الطابق الأول ، إذ إننا نصل من خلال السلم إلى ردهة داخلية أخرى ، وهي عبارة عن قاعة وسطى ، على جانبيها قاعتان مستطيلتان ، يُغْلِق عليهما بابٌ خشبي ، والقاعتان تُشْبِهان في تصميمهما القاعتَيْنِ السابقتَيْنِ بالطابق الأول ، وكذلك تتشابه في وجود الدخلات الحائطية والمصاطب .

ثم نصل من خلال سلم الزاوية الشمالية الغربية إلى سطح المربعة ؛ حيث نجد أنه يحيط بالسور شرافات مثلثة للمراقبة والحماية ، بالإضافة إلى وجود فتحات المزاغل لرمي البنادق ، ورغم مساحته الصغيرة فإنه يتيح للحراس الرؤية الكاملة ، كذلك يتيح السيطرة على كل ما يحيط بالمربعة .

الدراسة التحليلية للمربعات بالعين

فوائد المربعة

للمربعة الكثير من الفوائد التي تُبرِز أهميتها ودورها في حماية الواحة، التي أُنْشِئت بها أو على حدودها، ومن هذه الفوائد[1]:

١ ـ الاطلاع والمشاهدة

من أهم فوائد المربعة الاطلاع ومشاهدة القادمين نحو المنطقة، حيث يمكن للأفراد داخلها معرفة هوية التجمعات والحركات وأهدافها قُرب المربعة، وأن موقعها وارتفاعها يساعدان أحيانًا في تحديد موقع المدينة بالنسبة للقادمين إليها برًا، أو تسهيل سير خط السفن القادمة نحوها، حيث تُعَد منارًا في موقعها للمناطق الساحلية.

تكون المربعة مصممةً في تخطيطها وموقع بنائها كي تكون للرصد والمشاهدة نحو الخارج، فضلًا عما يحيط بها إذا كانت منفردة البناء، أو المرصد للحرس المرابطين لجوانبها إذا كانت متصلة مع وحدة سكنية أخرى.

٢ ـ الدفاع

تُعَدُّ المربعة مركزًا دفاعيًا؛ إذ إن جميع عناصرها المعمارية وتخطيطها وأسلوب بنائها وشكلها مما يساعد مهمة الدفاع عن المنطقة المحيطة بها.

أمَّا بناء المربعة ـ المرتفع بطابقين ـ مع شرفة للدفاع، وكثرة المزاغل والمسننات

---

(١) عبد الستار العزاوي: المربعات ـ دراسة تاريخية ـ تحليل معماري، ٣٤.

العليا (الطرابيش) ، وعدم وجود الفتحات والشبابيك في طابقها الأرضي ، فجميع عناصرها الدفاعية هذه تساعد في التزويد من قوة الحرس والمدافعين عن الموقع وثباتهم .

ولا يتغير الموقف الدفاعي سواء كانت المربعة متصلة أو منفردة بعيدة عن المدن وأسوارها ، وهذا يدل على أنها تكون أول خط دفاعي للمنطقة ، حسب المنطقة وطبيعتها وعوارضها وعواملها الطبيعية .

يُغْلَقُ باب المربعة (أو أبوابها) ليلًا ، ويرتقي المدافعون إلى السطح للرصد ، وبعضُ الحرس مُوَزَّعون على الشبابيك والفتحات كالمسننات (الطرابيش) ، وغالبًا يكُون هناك بعض الحرس خلال فترة النهار للمراقبة وحراسة المنطقة والتربص لما يدور حولهم خارج المربعة ، ويجلسون أحيانًا فوق دكة قرب الباب .

٣ ـ الاجتماع

إنَّ بناء المربعة وموقعها مما يشجع أحيانًا أن تكون المربعة مقرًا لاجتماع الرجال في أوقات مختلفة ، وغالبًا ما يكون ليلًا ، وفي المناسبات الدينية كليالي شهر رمضان المبارك والأعياد ، وقد يدور الحديث في سرد البطولات والقصص والمجالات الثقافية وحلِّ بعض مشاكل أهالي المنطقة .

وقد يجتمع فيها أصحاب المهن كالتجار لعقد صفقات البيع والشراء ، وغالبًا ما يوجَد فيها الحرس المدافِعون عن المنطقة والمناوبون لأوقات المراقبة داخل المربعة ، ويحدث فيها تجمُّعٌ للأفراح للزواج أو الولائم لقدوم ضيوف المنطقة .

كما يلاحَظ أنه ليس من الضروري توافر جميع العناصر الدفاعية في المربعات ، وهذا في حالة أن يكون موقعها محصَّنًا في الجزيرة وموقعها قرب الساحل للاطلاع مباشرة ، وهذا ما يتضح في مركز اللؤلؤ (بيت المريخي) بجزيرة دلمار .

٤ ـ تخزين السلاح (أو المواد الثمينة)

إنَّ بناء المربعة وحالتها مما يساعد أن تكون مخزنًا آمنًا للمواد المهمة والثمينة، خاصة الأسلحة وأدوات الدفاع، وقد تُخَزَّن بداخلها بعض المواد الغذائية المهمة تحسبًا لأوقات الضيق أو الحصار.

إذا كانت المربعة منفردة وتقع على الحدود وأطراف المدن والقصبات أو مقابِلة للسواحل فتُخزَّن بها مواد الدفاع وآلاته، كذلك المواد الغذائية القابلة للتخزين لمدة طويلة كالحبوب والتمور، وإذا عُدَّت المربعة جزءًا من القصر أو الحصن فإنها تكون مأوى للمدافعين، أو مخزنًا ـ خاصة الطابق الأرضي ـ لحفظ ما يحتاج المبنى من مواد ثمينة.

وقد تُشتَغَل المربعة بصفتها بناءً محصَّنًا لحجزٍ أو سجنٍ مؤقت لفترة أو مدة طويلة، حسب ظروف المنطقة والمواقع، خاصة المربعة القريبة من السلطة (المشايخ)، وقد نعثر غالبًا على سكة السجن لربط المجرمين عند قدمه (المربط)[1].

أنواع المربعات

أولًا: المربعة المنفصلة أو المفردة

تُعَدُّ من المباني الشاخصة والعالية واضحة المعالم من مسافات بعيدة، خاصة بالمناطق الصحراوية، ولا يَحْجُبُها شيء كالأشجار والتلال، وتُبْنَى المربعة المنفردة في أطراف المدن والقصبات بصفتها أساسًا في تخطيطها، وقد تُشَيَّد وسط

---

(١) خشبة طويلة ذات أخاديد، تُوضَع داخلها ساق المجرم، بعدها تمر قطعة حديد طويلة تشتمل طول الخشبة، وفي النهاية قفل، وتطرح أرضًا (عبد الستار العزاوي: المربعات، ٣٤).

الوحدات السكنية منفردة عنها وغير متلاصقة[١].

ثانيًا : المربعة المتصلة مع المباني[٢]

تُبنَى مع بناء الوحدة السكنية أو الخدمية متداخلة معها ، وقد تَظْهَر منها جوانب أو أضلاع حسب موقعها في المخطط المبني ، فمنها ما تقع في ركن المبنى أو الوسط ، وقد تكون في الطابق الأول فوق المدخل أو ضمن وحداته ، كذلك تكُون وسطًا أو ركنًا .

تتميز المربعة بتخطيطها وعناصرها وموقعها ، مما يزيد من عناصر الدفاع والسيطرة والمحافظة على المبنى ، خاصة القلاع في المناطق البعيدة أو الصحراوية ، كذلك حصون المدن أو محطات الطرق البرية أو في قصور الحكام والمسئولين في المناطق المزدحمة بالسكان كالمدن والقصبات .

ويشترك في أهداف المربعة الجانب الاجتماعي ، وتكون غالبًا مجلسًا أو مكانًا لاجتماع الرجال الذين تحيط مساكنهم بتلك المربعة .

العناصر المعمارية للمربعة

أولًا : تخطيط المربعة

عندما ننظر إلى تخطيط المربعة نجد أن الاسم يختلف عن الشكل ؛ إذ نستطيع عند النظر إلى التخطيط أن نلحَظ هذا الفرْق جَليًا في المربعة بأنواعها ، سواء المتصلة بالمباني أو المنفصلة بعيدًا عن أي مبنى ، فنَلْحَظ أن شكلها يكون مستطيلًا ،

---

(١) أحمد حسن الخرخور : الأبراج تراث وتاريخ ، ٥٢. علي محمد راشد : الحصون والقلاع ، ٦١.
(٢) عبد الستار العزاوي : المربعات ، ٢٥.

أي أن أطوال جدرانها المتقابلة متساوية غالبًا ، بالتالي فإنَّ لفظ مربعة اسمٌ وليس شكلًا ، ويرجع إلى الجلوس مربعًا (تربعًا) ، وهو ما يدل على الحالة الاجتماعية المعروفة عند العرب والمسلمين ، ولم يكن ضروريًا أن تُعْقَد المجالس في المربعات ، لكن من المعروف أن موقعها وحجمها يسهلان الاجتماع فيها والجلوس بداخلها خلال الأيام الاعتيادية ، فهي منتدى أهل المنطقة ، ومقر اجتماعهم في الوقت الذي تنعدم فيها المقاهي والنوادي ، فالمربعة كانت تعوِّض تلك الحالة الاجتماعية[١] .

ثانيًا : المدخل

من العناصر المهمة في تخطيط المربعة موقع المدخل ، سواء كانت ذات طابق واحد أو طابقَيْن ، وتمتاز المداخل بفتحاتها الضيقة ، أي يكون الباب ضيقًا في العرض ومنخفضًا في الارتفاع نسبة للمباني المجاوِرة أو الملاصِقة بها من وحدات سكنية أو خدمية ، أما بالنسبة لموقع الباب في تخطيط المربعة فيكون في وسط ضلعها الطويل (حسب شكل تخطيطها بصفتها مستطيلًا) ، وهو الأكثر شيوعًا ، وقد يكون ضلعها الصغير وسطًا أو جانبيًا[٢] .

يمتاز مدخل المربعة حيث يخترق سمك جدرانها ، والباب يرتفع قليلًا من (١٠ ـ ٢٠ سم) عن مستوى الأرضية الخارجية والداخلية ، وتساعد هذه الظاهرة في ارتفاع العتبة لمنع دخول مياه الأمطار ، أو تؤدي إلى زيادة في الإحكام والقوة لفتحة المدخل ، حيث تزيد العتبة من قوة ربْط أساس فتحة المدخل ، كما يضيق ويقلل من الارتفاع لفتحته[٣] .

---

(١) عبد الستار العزاوي : المربعات ، ٤٣.

(٢) ناصر حسين العبودي : آثار الشارقة ز دولة الإمارات العربية المتحدة ، ٤٥.

(٣) عبد الستار العزاوي : المربعات ، ٤٤.

ثالثًا : الشبابيك

تُعَد الشبابيك من العناصر المهمة في بناء المربعة ، التي تقوم بمهمتين أساسيتين ؛ أولاهما نشْر النور والضوء وتبديل الهواء بالداخل ، والأخرى مهمة الاطلاع والرصد من خلالها .

يكون ارتفاع الشبابيك الداخلية (المطلة على الفناء) بين ٣٠ ـ ٥٠سم أو أكثر عن مستوى الأرضية ، وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الطابق الأرضي للمربعة غالبًا ما يُستَخدَم مخزنًا لمواد غذائية أو أسلحة ، كما يقدِّم هذا الارتفاع للشبابيك زيادةً في قوة الدفاع من الداخل وصعوبة المرور واجتيازه من الخارج ، ويغلب على شكل الشبابيك في الطابق الأرضي المستطيل ، ويضم إطارًا خشبيًا للشباك ، وقد نجد فتحات أو نوافذ مربعة أو مثلثة أو دائرية دون إطار للشباك ، وقد تُغْلَق حسب المواسم (غالبًا بالشتاء بالمواد الأولية نفسها) ، ويكثر استخدامها في المربعات ذات الطابق الواحد ، المبنية من مادة الطين[1] .

رابعًا : الكوي

تتخلل جدران المربعة في أقسامها العلوية فتحات (ك) ، يتناسب عددها وحجمها مع سَعَة المربعة وسُمْك جدرانها ومواردها الإنشائية ، وتُسَمَّي في اللهجة المحلية ـ الشارقة ـ مصباح مصابيح ، لتنفرد بخاصية إدخال الضوء[2] .

وتأخذ تلك الفتحات (الكوي) أشكالًا كالآتي :

١ ـ الشكل الدائري .

---

(١) عبد الستار العزاوي : المربعات ، ٤٧.

(٢) عبد الستار العزاوي : أبراج الشارقة ، ٧٧.

٢ ـ الشكل المستطيل.

٣ ـ الشكل المربع.

وتُبْنَى هذه الكوي خلال عملية تشييد جدران المربعة، ويُخَطَّط لها مسبقًا، ويكون موقعها غالبًا تحت السقف بمسافة بين ٢٠ ـ ٣٠سم، وتعلو الجزءَ العلوي مساندُ خشب (أو جذوع) زيادة في قوتها من الجانب الإنشائي، حيث يستند عليها سقف المربعة (في حالة موقع تلك الكوي في الجدران الرافعة لأخشاب السقف)، ودائمًا يكُون الأسلوب في البناء لجميع الكوي بطريقة واحدة، وتبلغ سعة الكوي ١٥ ـ ٢٥سم، وقُطر الدائرة ٣٠×٢٠سم للمستطيلة، و٣٠×٣٠سم للمربعة، ويتخللها أحيانًا إطار خشبي تتوسطه قضبان حديد (واحد أو اثنان)، أو تكون خالية من الإطار للأشكال الدائرية (مفتوحة)، أو يتقاطع في وسطها قضبان حديد أو خشب[١].

تَكْمُن فوائد الكوي في المربعة في دخول الضوء وتبديل الهواء، خاصة خروج الدخان في موسم الشتاء خلال استخدام النار، ويكُون وجود القضبان أو الأخشاب لمنع دخول الطيور أو يقلل من فراغ الفتحة.

خامسًا: السلالم

السلالم من العناصر المهمة لبناء المربعات، وتُعَد من ضمن الأساليب الدفاعية التي تزيد من متانة المربعة وقوتها ضد هجمات العدو، فهي تُعَد من الأساليب الدفاعية الأساسية عند تخطيط المربعة.

---

(١) عبد الستار العزاوي: المربعات، ٥٦.

سادسًا : المزاغل

تَظهَر المزاغل على اختلاف أشكالها وأحجامها على المربعات ، مما يدل على استخدامها بصفتها عنصرًا دفاعيًا ، حيث تُستَخدم تلك المزاغل للمراقبة أو الرمي عند هجوم العدو ، فتُعَد من العناصر المعمارية التي تحقق الهدف الدفاعي للمربعة ، وللمزاغل أنواع كثيرة وأحجام مختلفة ؛ منها :

١ ـ المزاغل العمودية

توجد شقوق مستطيلة بعرض ١٠ ـ ١٥سم وطول ٤٠ ـ ٥٠سم تخترق جدران المربعة في طوابقها العليا ، كالطابق الأول أو الثاني ، وكذلك الستارة العليا ، ويكون المزغل العمودي (الشاقولي) مستطيل الشكل من الداخل في واجهة الجدار ، كذلك من الخارج في الشكل أو زيادة بمساحته وموقعه في الجدار ، على ارتفاع ٤٠ ـ ٦٠سم عن مستوى أرضية الطابق ، حيث يتمكن المدافع من الاطلاع والرمي نحو الهدف[١] .

٢ ـ المزاغل الأفقية

أما النوع الثاني من المزاغل فهي المزاغل الأفقية ، التي تُستَخدَم للرمي أو الطلاع ، وتختلف أماكن وجودها ؛ فمنها ما يكون مع مستوى أرضية الطابق الأول ، أو تخترق سقف الطابق الأول والثاني ، أو توجد فوق المدخل حيث تُستَخدَم للاطلاع على مَن يدخل ، أو لرمي السوائل الحارقة فوق العَدُو المهاجم للمربعة .

---

[١] عبد الستار العزاوي : المربعات ، ٦٨.

ويتم بناء المزاغل الأفقية مع الجدران ، ويُعقَد غالبًا بالمواد الأولية نفسها ، ويتراوح طولها بين ٦٠ ـ ٨٠سم ، وسعتها ٥ ـ ٧سم ، وتكون فتحتها العليا أضيق من السفلى لاتساع مدى الاطلاع ، ويكُون استخدام المزاغل الأفقية في الدفاع عن (المباني ، القلاع ، الحصون ، القصور ، الأسوار ، المربعات) الذي يعتمد على اقتراب العدو عند واجهات الجدران ، حيث يسهِّل استعمال تلك المزاغل الأفقية لسكب السوائل أو رمي السهام والنبال(١) .

٣ ـ المزاغل الدائرية

تتخلل واجهات جدران المربعة مزاغل دائرية (المرامي) ، وتَظهَر واضحة في الطابق الأول والثاني والستارة العليا ، وتُعَد المزاغل الدائرية عنصرًا دفاعيًا ، وتُوَزَّع في واجهات جميع الجدران ، حيث تخترق بناءَ الجدار حسب متطلبات مواقع الدفاع والاستحكام بالسيطرة الدفاعية عن المنطقة المحيطة بالمربعة ، إذا كانت منفصلة أو منفردة خارجة أو متصلة بقسم من المبنى ، حيث يستوجب التخطيط للدفاع نحو الخارج أكثر من الجوانب المطلة على الداخل(٢) .

٤ ـ المزاغل المثلثة

توجد فتحات في واجهة جدران المربعة ذات شكل مثلث ، قاعدتها للأسفل أو لأعلى ، وهو نوع يمكن دمْجه مع الكوي لاستخدامه للاطلاع وتبديل الهواء ودخول النور للداخل ، تظهر هذه الأنواع من المزاغل في بعض مربعات منطقة الخليج ـ خاصة في دولة الإمارات العربية المتحدة ـ وتقع في الأقسام السفلية قرب

---

(١) عبد الستار العزاوي : أبراج الشارقة ، ٥٥.

(٢) أحمد حسن الخرخور: الأبراج تراث وتاريخ ، ٤٦.

أرضية الطابق الأول ، أو في قسم الجدار العلوي ، ويبدو استخدام السفلي للرمي والاطلاع ، والعلوي لتبديل الهواء[١] .

٥ ـ الأنف

يُعَدُّ عنصر الأنف عنصرًا دفاعيًا مهمًا في المربعة ، ويُسْتَخدَم خاصة عند اقتراب العدو نحو المربعة ؛ حيث يتم من فتحته السفلى الرمي العمودي وسكب السوائل الساخنة ، ويكون موقع الأنف في واجهة المربعة فوق المداخل (الأبواب والشبابيك) لطوابقها الأرضية والعليا ، ويسيطر مباشرة ـ بشكل شاقولي ـ على سمة تلك العناصر ، أمَّا موقع الأنف فيكُون في مواجهة المربعة من الخارج وفي قسمها العلوي بالطابق الأول والثاني (إن وجد) ، وقد تُوَزَّع على جوانب جدران المربعة أو تقصر أحيانًا فقط لجانب واحد ، أي حسب موقع الباب أو الشباك[٢] .

سابعًا : الحنايا والتجاويف

تَظهر هذه الحنايا والتجاويف بجدران المربعة بمختلف أنواعها وأشكالها ، سواء كانت ذات طابق واحد أو عدة طوابق ، وتختلف هذه التجاويف فيما بينها ، سواء في أشكالها أو أحجامها ، كما أن لهذه التجاويف والحنايا العديد من الوظائف التي تؤديها لمرتادي المربعة ، سواء من الحراس المقيمين بها أو الضيوف ، وهي ما تُعْرَف بالفوائد الخدمية ، كما أن لها فوائد معمارية للمربعة .

ويمكن تلخيص فوائد هذه التجاويف والحنايا الموجودة داخل المربعة باختلافها حسب الموقع والحجم كما يلي :

---

(١) عبد الستار العزاوي : المربعات ، ٧٣.

(٢) ناصر حسين العبودي : صفحات من آثار وتراث دولة الإمارات العربية المتحدة ، ٨٥.

١ ـ الفوائد الخدمية[١]

أ ـ وضْع احتياجات الحرس داخلها .

ب ـ وضع المصابيح التي تُعْرَف محليًا باسم الصراي .

ج ـ تخزين بعض معدات الدفاع سهلة الحمْل .

د ـ وضع بعض مواد الطعام أو الشراب داخل الحنايا .

هـ ـ وضع أقسام الملابس لاستخدامها حسب الطقس .

٢ ـ الأهداف المعمارية والإنشائية[٢]

أ ـ تفيد الحنايا ذات العقود في أن تجعل الجدران مترابطة وأكثر قوة .

ب ـ زيادة في الربْط باستخدام الأخشاب في تسقيف التجاويف المربعة ، الكبيرة أو الصغيرة .

ج ـ كثرة الحنايا والتجاويف تقلِّل من استخدام مواد البناء في الجانب الاقتصادي .

د ـ تخفيف الوزن للجدران نتيجة وجود التجاويف والحنايا .

---

(١) عبد الستار العزاوي : المربعات ، ٧٥.

(٢) عبد الستار العزاوي : أبراج الشارقة ، ٤٠.

نتـائج البحـث

بعد العرض السابق نستطيع أن نخرج بالنتائج التالية :

١ ـ المربعات مبانٍ دفاعية منفصلة عن المحيط العمراني ، أو متصلة بسور المدينة الدفاعي ، ذات أشكال منتظمة مربعة الشكل أو مستطيلة ، وهي تُكمِل الدور الذي يلعبه الحصن ، وتشكِّل خطًا دفاعيًا أماميًا للمدينة ، كما تُسْتَخْدَم في النشاطات الاجتماعية .

٢ ـ شغلت المربعات في الغالب مسقط مستطيل الشكل ، وقد استُخدِمت نقاط ارتكاز للمراقبة ومسكنًا لشيوخ القبائل ، وكانت عادة داخل المدينة كما في مربعة المربعة (١٩٤٨م) ، أو في الصحراء لتتحكم في الممر المؤدي إلى واحة العين من الجهة الجنوبية كما في مربعة العانكة (النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي) .

٣ ـ ظهر نوعان من المربعات ؛ النوع الأول المربعة المنفصلة أو المفردة ، وهي تعد من المباني الشاخصة والعالية واضحة المعالم من مسافات بعيدة ، خاصة بالمناطق الصحراوية ، ولا يحجبها شيء كالأشجار والتلال ، وتُبنَى المربعة المنفردة في أطراف المدن والقصبات بصفتها أساسًا في تخطيطها ، وقد تُشَيَّد وسط الوحدات السكنية منفردة عنها وغير متلاصقة .

أما النوع الآخر فالمربعة المتصلة مع المباني التي تُبنَى مع بناء الوحدة السكنية أو الخدمية متداخلة معها ، وقد تَظهر منها جوانب أو أضلاع حسب موقعها في المخطط المبني ، فمنها ما تقع في ركن المبنى أو الوسط ، وقد تكون في الطابق الأول فوق المدخل أو ضمن وحداته كذلك وسطًا أو ركنًا .

٤ ـ زُوِّدَتْ واجهات المربعات بالمزاغل وفتحات البنادق والسهام مختلفة

الأشكال، فقد وُجِد منها المستطيل والمربع دائري الشكل، وتوجد سور القلاع بصفوف من الشرافات المثلثة كانت تُستَخدَم أيضًا للمراقبة والرمي.

٥ ـ وُجِدَ للمربعات في مدينة العين، خلال فترة الدراسة، حرم خارجي يحيط بالمربعة، مثل مربعة المربعة (١٩٤٨م) وحصن العانكة (النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي).

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

القرآن الكريم.

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكريم محمد بن عبد الكريم بن محمد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير): الكامل في التاريخ، بيروت ـ ١٩٩٥، ٨/ ١٨٠.

ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد، المتوفَّى سنة ٦١٤هـ): الرحلة، بيروت ـ ١٩٨٦م.

البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر المتوفَّى سنة ٢٨٩هـ): فتوح البلدان، بيروت ـ ١٩٧٨.

الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، المتوفَّى سنة ٢٥٥هـ): الحيوان، ٧ أجزاء، ط ٢، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٤٢٤هـ، ٢/ ٤٣.

الطبري (أبو جعفر بن جرير الطبري، المتوفَّى سنة ٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك، ليدن ـ ١٩١٠، ٣/ ٢٧٤.

الفيروزأبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي، المتوفَّى سنة ٨١٧هـ): القاموس المحيط، ١٤ جزءًا، ط ٥، بيروت ـ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ١٩١٣.

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، المتوفَّى سنة ٦٢٦هـ): معجم البلدان، بيروت ـ ١٩٥٥م، ٢/ ٤٣٦.

اليعقوبي (أحمد بن واضح المتوفى سنة ٢٨٤هـ: البلدان، النجف ـ ١٩٥٧م.

ثانيًا: المراجع

إبراهيم بن إسحاق الحربي: كتاب المناسك وأماكن الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض ـ ١٩٨١.

أحمد حسن الخرخور: الأبراج تراث وتاريخ، ط ١، رأس الخيمة ـ ١٩٩٢.

جريدة الخليج : أغسطس ٢٠٠٤.
دولة الإمارات العربية المتحدة ، دراسة مسحية شاملة .
ريم المتولي : مقدمة حول القلاع في أبو ظبي ، محاضرة في ندوة المتاحف ودورها في دولة الإمارات العربية المتحدة بتاريخ ١٩٩٢/١٢/٦ ـ جامعة الإمارات العربية المتحدة في العين .
صالح أحمد العلي : خطط البصرة ، بغداد ـ ١٩٨٦ عن طبقات فحول الشعراء لابن سلام .
عبد الحميد غنيم : مدينة العين ، التوسع الحضري وموارد المياه ، الكويت ـ مكتبة الفلاح ١٩٨٦.
عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية ، بيروت ـ ١٩٨٨.
عبد الستار العزاوي : المربعات دراسة تاريخية وتحليل معماري ، ط ١، الشارقة ـ ١٩٩٨.
علي محمد راشد : الحصون والقلاع في الإمارات العربية المتحدة ، أبو ظبي ـ المجمع الثقافي ٢٠٠٤م .
فاطمة الصايغ : الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة ، ط ١، دبي ـ مركز الخليج للكتب ١٩٩٧م .
فالح حنظل : مجلة ليوا ، العدد السابع ، يوليو ٢٠٤.
لويس معلوف : المسجد الأبجدي ، بيروت ـ ١٩٩٠.
محمد العوضي : الديوانية ، مهامها ، تطورها ، وشروط بنائها ، مجلة عمار ، العدد ٢٣ مايو ١٩٩٨، ٥٦ ـ ٦١.
محمد فاتح صالح زعل : ذاكرة الطين ـ شواهد من التراث المعماري والعسكري ، مجلة تراث ، أبو ظبي ـ نادي تراث الإمارات ٢٠١٢م .
محمد مرسي عبد الله : تاريخ الإمارات العربية المتحدة (مختارات من أهم الوثائق البريطانية ١٧٩٧ ـ ١٩٦٥) ، ٤ مجلدات ، لندن ـ مركز الدراسات العربية ١٩٩٦م .
مسلم سالم بن حم وآخرون : زايد في العين ـ معجزة قاهر الصحراء ، ط ١، ـ شركة الشرق الأوسط ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .
مصطفى جواد : الإيوان والكنيسة في العمارة الإسلامية ، مجلة سومر ، العدد ٢٥ لسنة ١٩٦٩.
ناصر حسين العبودي : دراسات في آثار وتراث دولة الإمارات العربية المتحدة ، أبو ظبي ـ المجمع الثقافي ١٩٩٠م .

ثالثًا : المراجع الأجنبية

ANDRAEBOEH & ERANST WALTER ANDRAE, RAINER MICHAEL, *Boehmer Bilder Eines Ausgrabers, Berlin,* 1992.

PETER HELLYER: HIDDEN RICHES, *An Archaeological Introduction to the United Arab Emirates,* Abu Dhabi 1998.

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٥٨٥ ـ ٦٠٧

قَطَرُ فِي مَرْحَلَةِ تَحَوُّلٍ
المَلامِحُ الأَسَاسِيَّةُ لِعَهْدِ الشَّيْخِ حَمَد بن خَلِيفَة آل ثَانِي
١٩٩٥ـ ٢٠١٣م

يوسف إبراهيم العبد الله

نود الإشارة بادئ ذي بَدء إلى أن هذه الدراسة ليست دراسة مقارنة بين عهدين: عهد الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني (١٩٧٢ ـ ١٩٩٥م) وعهد ابنه وولي عهده الشيخ حَمَدبن خليفة آل ثاني (١٩٩٥ ـ ٢٠١٣م)؛ إنما تطمح أن تكون دراسة تحليلية لمرحلة انتقالية مهمة من تاريخ قطرالمعاصر، تحاول إبراز ـ كذلك تفسير ـ كيفية انتقال الدولة في أواخرالقرن العشرين من عهد إلى عهد، أَكْمَلَ فيه الشيخ حَمَد عهد والده، وإنْ تم ذلك بمقتضيات وآليات عصر جديد ينتمي إليه الأمير الشاب، بإيقاع يتميز بحيوية الشباب وجرأته ورحابة آفاقه، يشهد بذلك ماصارت إليه قطر الآن من تقدم وازدهار في مختلف الميادين.

والدراسة المتأنية توضح أنه لم يكن ثمة خلاف حول المبادئ والأسس العامة للسياسة القطرية، داخليًا وخارجيًا، بين الأمير الشيخ وولي عهده الشاب؛ فقد كان حَمَد ولي العهد شريكًا لوالده في شؤون الحكم وممارسة السلطة، فإلى جانب منصبه وليًا للعهدكان وزيرًا للدفاع وقائدًا عامًا للجيش، كما كان ينوب عن والده خاصة في العقدالأخير من حكمه، فيأداء الكثير من المهام السياسية وإدارة دفة الحكم، ولعل أحد العوامل التي برزت خلال هذه الفترة ودفعت إلى التحول

صوب مرحلة جديدة، ذلك الاختلاف الطبيعي بين الأجيال، فوليُّ العهد وأقرانه ينتمون إلى جيل يتسم بالجرأة والقدرة على المبادرة وسرعة الإنجاز، جيل لم يعد يقنع بسياسة التطور المتزن والحذر التي يمثلها الأمير الوالد وجيله.

وتتفق أغلب المؤلفات والدراسات التي عالجت التطورات السياسية الكبيرة التي شهدها عهد الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني (١٩٧٢ - ١٩٩٥م) على أن تلك التطورات أرْسَتْ بنية التحديث الأساسية، سواء فيما يتعلق ببناء الدولة المستقلة سياسيًا وإداريًا، أو في وضع أسس بنائها الاقتصادي والاجتماعي، فيما يسميه باحثو السياسة والمجتمع «مرحلة ظهوركيان الدولة الحديثة»، واستكمال أسس تطورها السياسي والاجتماعي، كما شهد هذا العهد استكمال صدور التشريعات والقوانين التي تستجيب لطبيعة المستجدات التي شهدها العصر، وانعكست آثارهاعلى بنية المجتمع وتحديثه في مختلف المجالات[1].

والواقع أن الشيخ خليفة كان تأثيره في حياة قطر السياسية كبيرًا قبل توليه الحكم في فبراير ١٩٧٢م فيما عُرف بحركة التصحيح؛ عندما كان وليًا للعهد ورئيسًا لمجلس الوزراء في عهد الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، ثم تحمَّل عبء تحول الإمارة إلى دولة مستقلة عام ١٩٧١م، فقد شهد الاقتصاد في عهده تطورًا هائلًا بعد استثمار عائدات النفط والغاز الطبيعي، تمثل في وضع أسس لصناعة جديدة، كانت لهاانعكاساتها على بنية المجتمع وتطور التعليم والثقافة والرعاية الصحية، حتى لقد بدت قطر منذ سبعينيات القرن الماضي وقد خلعت عن كاهلها رداء المجتمع التقليدي، وتجاوزت مرحلة التحول للانطلاق إلى آفاق العصر، والأخذ بمعطياته في مختلف المجالات.

---

(١) راجع: فاطمة علي الكبيسي: وظائف الدولة في المجتمع القطري، دراسة للدور التحديثي ١٩٧١ - ١٩٩٠، الدوحة - مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر ٢٠٠٢م، ١٥٨ - ١٥٩.

وفي هذا العهد أيضًا مهّدت قطر لاستقلالها وخروجها من المباحثات التي جرت لتكوين دولة اتحادية في الخليج العربي، تضم الإمارات العربية التسع المعنية بالانسحاب البريطاني، فيما عُرِف بـ«الاتحاد التساعي» بعد أن تعثّرت هذه المباحثات، فانسحبت قطر منها، وقام الشيخ خليفة بن حمدآل ثاني بإعلان «النظام الأساسي المؤقت للحكم» في أبريل ١٩٧٠م، وهكذا اختارت قطر أن تكون دولة مستقلة غير مرتبطة باتحاد الإمارات العربية، على الرغم من عدم استخدام كلمة «دستور» لوصف هذا النظام الأساسي، ومن ثَمَّ اعتُبِرت الدولة العربية الثانية ـ بعد الكويت ـ من دول الخليج العربية التي أخذت بالنظام الدستوري. وإذا كان ثَمَّة نقد وُجِّه لهذا النظام فإنه كان خطوة مهمة في التطور السياسي والدستوري لقطر. وعلى الرغم من تضمُّن هذا النظام الأساسي إنشاء «مجلس استشاري» فإن الشيخ أحمد بن علي لم يأمر باتخاذ الإجراءات التنفيذية لتشكيل هذا المجلس، ولم تكد تمضي بضعة أشهر على استقلال قطر وإلغاء معاهداتها مع بريطانيا (في سبتمبر ١٩٧١م) حتى انتقلت السلطة من الشيخ أحمدبن علي آل ثاني إلى الشيخ خليفة الذي تولى الحكم في ٢٢ من فبراير ١٩٧٢م، انتقالًا سلميًا هادئًا، آثر بعده الشيخ أحمد قضاء بقية حياته بين دبي وجدة، حتى وافاه الأَجَلُ في قصره بِبَنْدَر عباس عام ١٩٧٧م(١).

وقد اكتسب الشيخ خليفة شعبية واضحة من خلال إصداره العديد من المراسيم والقرارات؛ كان أبرزها إلغاء المرسوم الذي كان يخصِّص للحاكم ربع ميزانية الدولة، كذلك تخفيض المخصصات المالية للأسرة الحاكمة، وإعادة هذه المبالغ لخزينة الدولة، فضلًا عن إصدار قرارات تتعلق بزيادة رواتب الموظفين والقوات

---

(١) KELLY, J. B, *Arabia, The Gulf and the West, A Critical View of the Arabs and their Oil Policy*, London 1988, p.129.

المسلحة ، ورفع مساعدات العَجَزة والمسنين الخاضعين لنظام الضمان الاجتماعي ، كما أبدى اهتمامًا كبيرًا بحل مشكلة الإسكان بإلغاء الأقساط المتراكمة على القطريين ، وبناء ٢٥٠٠ وحدة سكنية خلال عام واحد ، كما خُصِّصت مبالغ كبيرة من الميزانية للتعليم والصحة وغير ذلك من الخدمات الاجتماعية التي قُوبلت بارتياح كبير من الأهالي ، ويتصل بما سبق اتجاه الشيخ خليفة إلى تعريب قيادات الجيش والشرطة ، وتعيين قادة وطنيين بدلًا من الضباط الإنجليز ، وعلى رأسهم «روي كوكرين» قائد قوات الدفاع القطرية(١) ، الذي خلفه الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني في هذا المنصب ، كذلك تم عزل قائد الشرطة البريطاني الكولونيل «لوك» الذي خلفه الشيخ حمد بن قاسم ، كما تضمنت المراسيم والأوامر الأميرية التي أصدرها الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني إفساح المجال لعودة القطريين الذين استَبْعَدَهم العهد السابق(٢) .

بعد نحو خمس سنوات من الحكم ، قرر الشيخ خليفة في ديسمبر ١٩٧٦م تعيين ابنه الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني وليًا للعهد ، بإجماع أهل الحَل والعَقْد في البلاد(٣) ، لما توسَّم فيه الجميع من جدارة وكفاءة ، وقد سبق لولي العهد أن تولَّى منصب قائد قوات الدفاع القطرية .

استطاعت قطر في عهد الشيخ خليفة تحقيق تطورات سياسية ودستورية ؛ كان أبرزها التعديلات التي أدخلها على «النظام الأساسي المؤقت للحكم» ، الذي كان

---

(١) كان كوكرين قد حصل على الجنسية القطرية ، ولَقَّب نفسه بـ«محمد المهدي» ، راجع صحيفة الجمهورية ، المصرية ، عدد ٢٦ فبراير ١٩٧٢م .

(٢) جمال زكريا قاسم : تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، المجلد ٥، القاهرة - دار الفكر العربي ٢٠٠١م، ٢٦٧ - ٢٧٠.

(٣) CRYSTAL, JILL, *Oil Politics in the Guld, Rulers and Merchants in Kuwait and Qatar*, Cambridge 1992, p. 157.

قد صدر في الثاني من أبريل ١٩٧٠م، ليصبح «النظام الأساسي المؤقت المعدل» الذي صدر في ١٨ من يونيو ١٩٧٢م[١]، فتألَّف «مجلس الشورى»، الذي نص النظام الجديد على أن يتألف من ستة عشر عضوًا، وتمت زيادتهم إلى ثلاثين عضوًا تم اختيارهم من أعيان البلاد، ورغم ممارسة المجلس أعماله فإنه لم يكن مجلسًا تشريعيًا بالمعنى المعروف، إنما كان مجلسًا استشاريًا كما هو واضح من اسمه؛ حيث اقتصر دوره على مناقشة الميزانية ومشروعات القوانين التي تُعرَض عليه قبل إصدارها، كما كان من حقه مناقشة بعض الأمور الاقتصادية والاجتماعية، وطلب توضيحاتمن الوزراء بشأنها، وأُخِذ في الاعتبار حينها أن الاكتفاء بهذا الدور للمجلس يتفق مع ما بلغته البلاد من تطورٍ آنذاك، حتى يمكن تهيئتها بالتدريج إلى مبدأ المشاركة الشعبية، كما أن الأخذ بمبدأ تعيين الأعضاء دون الانتخاب أصبح مرهونًا باكتساب المزيد من التجربة والوقت إلى جانب انتشار التعليم والثقافة[٢].

ويلاحَظ أن قصور المشاركة الشعبية لا يعني تمتع الحاكم بسلطات مطلقة؛ فثَمَّة عناصر تُحِد من سلطته، سواء من أعضاء الأسرة الحاكمة، أو من فئة كبار التجار المنتمين لأسر عريقة، بالإضافة إلى ما أحدثه التطور الاقتصادي في قطر من ظهور فئات ثرية اكتسبَتْ قدرًا من التأثير والنفوذ، ولعل هذا ما حدا بالشيخ خليفة بن حمد إلى إصدار قرارات تالية تُعدِّل بعض نصوص المواد، تقضي بإفساح المجال لأعضاء مجلس الشورى للمشاركة بالرأي بصورة أكثر فاعلية في معالجة أمور الدولة؛ فتقرَّرَتْ زيادة عدد الأعضاء مع منحهم الحصانة الكفيلة لضمان حريتهم في إبداء الآراء، كما تم تنظيم حضور الوزراء جلسات المجلس وتوجيه

---

(١) راجع: عادل الطبطبائي: السلطة التشريعية في دول الخليج العربي، نشأتها وتطورها، الكويت ـ ١٩٩٥م، ١٣٤.

(٢) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ٢٦٨ ـ ٢٧٠.

الأسئلة إليهم ، ومع ذلك ظل المجلس دون صلاحيات تشريعية ، ويمكن القول إن البنية المؤسَّسَة للنظام السياسي القطري في ظل «النظام الأساسي المؤقت المعدل» ، وما أسفرت عنه التجرِبة العملية من هيمنة كاملة للسلطة التنفيذية ممثَّلَةً في أمير البلاد ، قد تميزت بالطابع السُّلْطَوِي الذي لا يسمح بالمشاركة في اتخاذ القرار ، أو يتيح المجال أمام الآراء المعارِضَة ، وهو الأمر الذي انعكس سلبًا على حيوية المجتمع وقدرته على تفعيل إمكاناته للانطلاق نحو التنمية الشاملة في البلاد[1] .

وتتصل بالتطورات السياسية خلال عهد الشيخ خليفة بن حمد مشاركةُ قطر في ترتيبات تأسيس مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الذي أُعلِن عنه في فبرايرعام ١٩٨١م ، عندما وقَّع وزراء خارجية الدول الست ، وهي : المملكة العربية السعودية والكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان وقطر والبحرين ، بيانَ إعلانه في الرياض ، ووضعوا أسس هذا المجلس وأهدافه وهيكله ونظام عمله ، لتحقيق الغايات المنشودة من قيامه ، ولتنسيق التعاون بين دُوَلِهِ في مختلف المجالات ، خاصة المجالات الاقتصادية والاجتماعية ، وتحقيق التكامل والترابط بينها ، ومنذ أن بدأالمجلس اجتماعاته في مايو عام ١٩٨١م وقطر في نشاطهاتقدِّمإسهامات إيجابية فعَّالة على نحو ما هو مسجَّل في تاريخ المجلس ؛ فقد قامت قطر بتنفيذ بنود الاتفاقية الاقتصادية الموحدة ، وقداحتضنت الدوحة العديد من أنشطة المجلس ، مثل الدورة الرابعة للمجلس الأعلى لدول مجلس التعاون عام ١٩٨٣م ، والدورة الحادية عشرة عام ١٩٩٠م ، بالإضافة إلى العديد من الاجتماعات الوزارية ، واجتماعات اللجان المتخصصة المنبثقة عن المجلس . وخلال الدورة الثالثة للمجلس الأعلى ، التي عُقِدت في البحرين عام ١٩٨٢م ، أَقر فيها المجلس توصيات وزراء الدفاع المتعلقة ببناء القوة الذاتية للدول الأعضاء والتنسيق

---

(١) يوسف عبيدان وأمية أبو السعود : التجربة الديمقراطية في دولة قطر ، الدوحة ـ ٢٠١٠م ، ١٠٨ ـ ١١٣، ١٢٢ ـ ١٢٣.

بينها بما يحقق اعتمادها على نفسها في حماية أمنها، وعندما قامت القوات المسلحة للدول الست بمناورات عسكرية مشتركة أُطلِق عليها «درع الجزيرة»، أشاد الشيخ حمد ولي العهد ووزير الدفاع بهذه المناورات، وصرَّح في ٧ من أكتوبر١٩٨٣م بأنها تُعَد تجسيدًا صادقًا للتعاون والتنسيق الحقيقي بين دول المجلس الست[١].

كما استضافت قطر الاجتماع الثالث لوزراء دفاع دول المجلس الذي عُقِد في الدوحة في فبراير ١٩٨٤م، الذي أكَّد فيه الشيخ حمد ولي العهد ووزيرالدفاع الحاجةَ الملحة لتنسيق الجهود الدفاعية وحشد الطاقات، الأمر الذي يقتضي الإسراع بوضع استراتيجية دفاعية مشتركة لدول المجلس[٢].

وفيما يتعلق بسياسة قطر في الساحة الدولية، فقد تميزت بالتحرك الإيجابي النشيط، الذي يعكس فَهمًا ديناميكيًا للعلاقات الدولية، ينشد تحقيق الأمن لدولة صغيرة من خلال التفاعل الإيجابي مع المجتمع الدولي، ليس من خلال العُزْلَة. وكانت نقطة الانطلاق في هذا التحرك تنبع من الإيمان بسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، التي كانت على الدوام من المقومات الأساسية لسياسة الدولة الخارجية، وقد صاغ المُشَرِّع القطري هذا المعنى في صلب «النظام الأساسي المؤقت للحكم». وكان ولي العهد الشيخ حمد على رأس الوفد القطري المشارِك في القمة التاسعة لدول عدم الانحيازفي بلجراد في سبتمبر ١٩٨٩م، حيث أكد في خطابه أمام المؤتمر إيمان قطر بأهمية حركة عدم الانحياز، باعتبارها عاملًا فعَّالًا في كَبْح

(١) راجع تصريح ولي العهد في صحيفة العرب في ٧ من أكتوبر ١٩٨٣م، ووثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ج ٤، ووكالة الأنباء القطرية، د.ت، ٣٩. أيضًا: محمد بن عيد آل ثاني: السياسة القطرية في إطار مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ١٩٨١ - ١٩٩١، الدوحة - ١٩٩٣م، ٢١٠ - ٢٨١ - ٢٨٣.

(٢) راجع النص في وثائق مجلس التعاون، الجزء الرابع، ٢٣٠ - ٢٣١.

جِمَاح الاسْتِقطاب والمواجهة بين الدولتين العظميين[1].

والثابت أن قطر خلال فترة حكم الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حققت قدرًا كبيرًا من التنمية الاقتصادية، التي اعتمدت على موارد النفط والغاز كما أوضحنا، بَقِيَ أن نضيف أن الحكومة مُنِحَتْ عام ١٩٧٣م امتيازات التنقيب عن النفط في المناطق البحرية الواقعة في الجزء الشمالي الغربي من المياه الإقليمية لقطر، وتم اكتشاف النفط بكميات تجارية في نهاية عام ١٩٧٥م، واستطاعت قطر أن تزيد تدريجيًا من حصتها في النفط المستخرَج حتى وصلت عام ١٩٨٢م إلى ملكية مواردها جميعًا، وقد ترتب على ذلك ظهور العديد من الصناعات البترولية؛ منها تنفيذ مشروع تسييل الغاز الطبيعي، وإقامة مصانع للصناعات البتروكيمياوية، كذلك من بينها مصنع السماد النتروجيني ومصنع الإثيلين ومشتقاته، فضلًا عن مصنع الحديدوالصلب عام ١٩٧٤م[2].

وعلى الرغم من المصاعب الاقتصادية التي واجهتها قطر خلال الثمانينيات من القرن الماضي، نتيجة انخفاض أسعار النفط بسبب التُّخْمة النفطية التي أصابت العالم، ورغم العجز الواضح في ميزانيتها الذي أدى إلى تخفيض إنفاقات الحكومة نسبيًا، فإن العوائد التي كانت قد حققتها خلال عقد السبعينيات ـ إبان أزمة الطاقة العالمية ـ قد أتاحت لها فرصة تكوين أصول مالية معتبَرة، الأمر الذي جعلها تخطو خطوات واسعة في مجال التنمية والتحديث، خاصة في مجالات التعليم والصحة العامة.

وقد ظلت قطر تعاني من مشكلة الحدود مع البحرين، خاصة مشكلة «جزر حوار»، ثم «فشت الديبل وجراده»، وقد توصلت الدولتان عام ١٩٧٨م إلى

---

(١) محمد بن عيد آل ثاني: المرجع السابق، ٢٤٨ ـ ٢٤٩، عن نص خطاب ولي العهد المودع بأرشيف وزارة الخارجية القطرية.

(٢) راجع مجموعة قوانين قطر، الجزء الثاني، ٧٥٢، والجزء الثالث ١٤٩ ـ ١٦٦٨.

اتفاقية قضَتْ بتجميد الوضع القائم في الجُزُر، لكن المشكلة أُثيرت مرة أخرى عام ١٩٨٢م، وكادت أن تؤدي إلى صدام بين الدولتين الشقيقتين، وأبدت قطر ترحيبًا باقتراح سعودي مؤداه إحالة النزاع إلى محكمة العدل الدولية، ثم تصاعدت المشكلة مرة أخرى عام ١٩٨٦م، لكنَّ عاهل المملكة العربية السعودية استطاع احتواء الخلاف مؤقتًا وإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل الأزمة الأخيرة، وتوقيع اتفاق بهذا الشأن في الرياض في مايو من العام نفسه(١)، غير أن الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أصدر مرسومًا حدَّد فيه امتداد المياه الإقليمية لدولة قطر، أصبحت بموجبه جزر حوار وفشت الديبل وجراده وعدد آخر من الجزر الأخرى ضمن الحدود البحرية لقطر، وهو ما رفضتْه البحرين واعتبرته ماسًا بما تعده حقوقًا تاريخية لها(٢)، ولم يكن هناك بُدٌّ من رفع النزاع إلى محكمة العدل الدولية التي قضت بعد سنوات بأحقية البحرين في هذه الجزر، وقبلت قطر الحكم لتنتهي المشكلة وليحل الوئام بين الدولتين الشقيقتين.

وكان لأزمة الخليج الممثَّلة في غزو العراق للكويت ثم تحريرها ١٩٩٠/ ١٩٩١م، انعكاساتها السلبية على دول الخليج العربية جميعًا، وفيما يتعلق بقطر فقد شاركت في جميع الجهود الخليجية والعربية والإسلامية التي بُذِلت والقرارات التي صدرتلحل الأزمة؛ بَدءًا من الاجتماع الوزاري الخليجي في ٣ من أغسطس ١٩٩٠م والقمة العربية الطارئة بالقاهرة في ١٠ من الشهر نفسه، كما أدان مجلسا الوزراء والشورى القطريان في اجتماع مشترك في ٢٧ من أغسطس العدوان، وطالبا بالانسحاب الكامل للقوات العراقية وتأكيد سيادة الكويت واستقلالها، وأكد الأمير أن واجب بلاده ـ بصفتها عضوًا في مجلس التعاون

---

(١) RAMAZANI, R. K., *The Gulf Cooperation Council, Record and Analysis,* Virginia University Press 1988, p.126.

(٢) *Ibid.*, pp. 34-35.

والجامعة العربية واتفاقية الدفاع العربي المشترك ومنظمة الأمم المتحدة ـ يحتِّم عليها المشاركة في تحقيق الأغراض التي تهدف إليها قرارات الهيئات المذكورة ، ومن هذا المنطلق قررت الدولة منح تسهيلات عسكرية لبعض الدول الصديقة بناءً على طلبها ، وجاء هذا القرار في إطار الضرورة التي أوجبَتْ مواجهة الظروف الاستثنائية التي تمر بها دولة الكويت ومنطقة الخليج بأسرها . ويتصل بذلك أيضًا أن مؤتمر القمة لدول مجلس التعاون الخليجي ، الذي عُقِد بالدوحة في ٢٢ من ديسمبر ١٩٩٠م ، توصل إلى قرارات مهمة بشأن ضرورة تحرير الكويت دون قيد أوشرط ، كما شاركت قطربقوة عسكرية من خيرة رجال جيشها في حرب تحريرالكويت ، كان لها أثرها في صد العدوان على منطقة الخفجي[١] .

وفي ظل هذه التطورات ، بادرت قطربإبرام اتفاقية للتعاون الدفاعي مع الولايات المتحدة الأمريكية ، في يونيو ١٩٩٢م ، على اعتبار أن الظروف التي مرت بها المنطقة اقتضت إبرام تلك الاتفاقية بصفتها خطوة لتعزيز الأمن ، ومن الملاحظ أن قطر حَذَتْ حَذْو كلٍّ من الكويت والبحرين اللتين سبقتاها في توقيع مثل هذه الاتفاقية .

ويضيف الدكتورجمال زكريا قاسم أن هذه التطورات الخطيرة كان من تداعياتها إثارة بعض قضايا الحدود ومشكلاتها مع كل من البحرين والمملكة العربية السعودية ، الأمر الذي أدى إلى خروج قطر في سياستها الخارجية عن الخط الخليجي لغالبية دول مجلس التعاون ، حين اتجهت إلى تطبيع علاقاتها مع العراق وتوثيق روابطها مع إيران ، وهو الاتجاه الذي لم يكن الأمير متحمسًا له ، وإنه عندما حاول الحد من الاستمرار فيه لَقِيَ معارضة في محيط الأسرة[٢] .

---

(١) محمد بن عيد آل ثاني : المرجع السابق ، ٢٩٠ ـ ٢٩٣.

(٢) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ٢٧٩.

وعلى الرغم من ذلك ظلَّت قطر تؤكد حرصها على دعم إمكانياتها الدفاعية الذاتية وتقويتها، مؤمِنَةً بأن أمْن الخليج لن يتحقق إلا استنادًا إلى أبعاد ثلاثة يتصدَّرُها البُعد الخليجي، مما يستوجب معه إنهاء الخلافات الحدودية بين دول الخليج العربية، وإيجاد قوة دفاع رادعة بواسطة دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية. والبُعد الثاني يقوم على اتفاقية الدفاع العربي المشترك. والبُعد الثالث يعتمد على البُعد الإقليمي وعدم استبعاد الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وعدم تجاهلها في مشروعات الأمن الخليجي، باعتبار أن لها حقوقًا وواجبات تجاه الخليج مثل بقية دوله[1].

عهد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني (١٩٩٥ ـ ٢٠١٣م)

هكذا نلاحِظ أن عهد الشيخ خليفة بن حمد ـ الذي امتد إلى ٢٣ عامًا ـ حفل بالكثير من الإنجازات على المستوى السياسي والدستوري والإداري والتنظيمي، وضعت البنية الأساسية لعملية التحديث، التي تابعها ـ بخطًى أوسع ـ ولي عهده وابنه الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، الذي تقلَّد زمام الحكم خلفًا لوالده، بعد مبايعة أفراد الأسرة الحاكمة وموافقتهم في ٢٥ من يونيو ١٩٩٥م، في انتقال هادئ للسلطة، سادته روح المحبة والتقدير والإجلال من جانب الابن لأبيه، لتمضي البلاد تحت قيادة الأمير الشاب، الذي تمتع بعقلية متفتحة ورؤية ثاقبة، وروح طموحة، تشهد بها النهضة العظيمة التي شهدتها قطر في شتى المجالات في عهدها الجديد.

والشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، كما هو معروف، وُلِد بالدوحة عام ١٩٥٢م، وتلقَّى تعليمه العام حتى الثانوية في مدارسها، ثم درس في كلية ساند

---

(١) جمال زكريا قاسم: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ٥: ٢٨٨؛ وانظر أيضًا: صحيفة السياسة الكويتية، عدد ٧ يونية ١٩٩٢م.

هيرست العسكرية الملكية في بريطانيا، وتخرَّج فيها عام ١٩٧١م لينضم إلى القوات المسلحة القطرية التي تدرج في مناصبها ورُتَبها حتى عُيِّنَ قائدًا عامًّا للقوات المسلحة، حيث لعب دورًا مهمًّا في تطويرها وتحديثها وتسليحها، وقد بويع بولاية العهد عام ١٩٧٧م، وفي العام نفسه صار وزيرًا للدفاع، كما تولَّى منصب رئيس «المجلس الأعلى للشباب» (١٩٧٩ ـ ١٩٩٥م)، إلى جانب منصبه في رئاسة «المجلس الأعلى للتخطيط»، وقد أكسبه ذلك كله خبرة ودراية كبيرتَيْنِ بشئون الحكم والسياسة، مما هيَّأه لتحمُّل مسئولية الحكم.

وقد أدرك الشيخ حمد بن خليفة أن النهج الديمقراطي أصبح ضرورة واجبة للنهوض بالبلاد بخطوات أوسع نحو بناء دولة عصرية، تجتاز أبواب القرن الحادي والعشرين بجرأة محسوبة، ومن ثَمَّ بدأت مراحل التحول نحو الديمقراطية تسير بخطوات متدرجة متوائمة مع درجة النمو السياسي والاقتصادي لقطر، خاصة أن البلاد صارت تضم قاعدة متسعة من المتعلمين تعليمًا حديثًا، كما أن الاقتصاد القطري أصبح من الاقتصادات المزدهرة عالميًا، حتى لقد أورد التقرير السنوي لوحدة الأبحاث الاقتصادية لمجلة الأيكونومست أن الاقتصاد القطري سيكون الأسرع نموًا خلال عام ٢٠٠٩م بنسبة ١٣,٤٪ لتحتل صدارة قائمة الدول العشر الأكبر نموًا في العالَم[١]. فضلًا عن أن الوفرة الاقتصادية شكَّلت مصدرًا وقاعدة للتطور السياسيوالاجتماعي. يُضَاف إلى هذا وذاك أن سكان قطر الذين لم تتجاوز أعدادهم مئة ألف نسمة في بداية سبعينيات القرن الماضي، ارتفع عددهم في أول تعداد رسمي للسكان عام ١٩٨٦م إلى نحو ٣٧٠ ألف نسمة، ثم تعدى سكان الدولة نصف المليون في ثاني تعداد عام ١٩٩٧م، لكنَّ هذا راجعٌ إلى الزيادة[٢] في

---

(١) راجع: يوسف عبيدان وأمية أبا السعود: التجربة الديمقراطية في دولة قطر بين الواقع والمأمول، الدوحة ـ وزارة الثقافة والفنون والتراث ٢٠١٠م، ١٣٧.

(٢) عن السكان ونسب زيادتهم سواء من المواطنين أو المقيمين، وتوزيعهم بين المهن والوظائف،=

حجم العمالة الوافدة المشارِكة في خطط التنمية الطموحة.

ويلاحَظ أن قطر في هذا العهد الجديد سَعَتْ إلى تصفية مشكلاتها الحدودية مع المملكة العربية السعودية، كما تَمَّتْ تسوية بعض القضايا الخلافية مع دولة الإمارات العربية المتحدة، بالإضافة إلى انتهاء نزاعها مع البحرين بقبول حكم محكمة العدل الدولية عام ٢٠٠١م، كما أشرنا، فضلًا عن العمل على إنشاء جسر المحبة لربط الدولتين بريًا، فأصبحت قطر تتمتع باستقرار سياسي يتيح لها التفاعل مع محيطها الإقليمي.

وفي ظل هذه التطورات رُفِعَت الرقابة عن الإعلام عام ١٩٩٥م، فأُتيحت للمواطنين الفرصة للتعبير عن آرائهم بحرية، بما يخدم مصلحة الوطن ويرفع من شأنه من خلال انطلاق قناة الجزيرة المستقلة عام ١٩٩٦م، ثم القناة الفضائية القطرية عام ١٩٩٨م، ثم أُجْرِيَتْ أول انتخابات بلدية عام ١٩٩٩م، وشَكِّلت لجنة لوضع دستور دائم، وكان ذلك كله يمثل استجابة لما طرأ على البيئة الإقليمية من أحداث ومتغيرات جديدة، أدت إلى تنامي المطالب الشعبية المنادِيَة بالتغيير والإصلاح السياسي، وهو ما استجابتْ له القيادة الجديدة، التي أخذت على عاتقها تبنِّي القِيَم الخاصة بالديمقراطية وحقوق الإنسان.

ولأول مرة في قطر يُطَبَّق الانتخاب العام في انتخابات المجلس البلدي المركزي، عندما صدر القانون رقم ١٢ لعام ١٩٩٨م بقانون تنظيم انتخاب المجلس البلدي كبداية يمكن البناء عليها فيما بعد في تشكيل مجلس الشورى؛ فقد جرت هذه الانتخابات في مارس ١٩٩٩م، وكان ذلك نقلة نوعية باتجاه التحولات الديمقراطية، حين توجَّه المواطنون إلى صناديق الاقتراع المباشر لاختيار ممثليهم في

=راجع دراسة سيد الحسيني «ملامح البناء المهني القطري ١٩٧٠ ـ ١٩٨٦» من كتاب «ندوة قضايا التغير في المجتمع القطري»، ج ١، الدوحة ـ جامعة قطر ١٩٩١م، ٤٣١.

المجلس البلدي، فضلًا عن مشاركة المرأة لأول مرة في هذه الانتخابات لتمارس حقها في الترشح وفي التصويت لعضوية المجلس.

وفيما يتعلق بإعادة تنظيم الجهاز الإداري للدولة والخدمات العامة، فقد اقتضى الأمر تشكيل مجلس جديد للتخطيط، وإنشاء ديوان للمحاسبة والرقابة على المشروعات الحكومية لضبط المناقصات، وضمان تنفيذها في إطار القواعد العامة لميزانية الدولة.

وكان الأمير في خطابه الذي ألقاه في افتتاح دور الانعقاد السابع والعشرين لمجلس الشورى، في ١٦ من نوفمبر ١٩٩٨م، قد ذكَر أن «النظام الأساسي المؤقت المعدل، الذي وُضِع في بداية عهد الاستقلال، وتضمن الأسس الجوهرية لسياسة دولة قطر، وتنظيم السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فيها، وقواعد ممارسة هذه السلطات لاختصاصاتها، وإن حقق الغرض المقصود منه في الحقبة الزمنية التي وُضِع فيها، إلا أنه قد آن الأوان لتطوير نظامنا الدستوري بما يتلاءم مع ما شهدته بلادنا من تطور في مختلف المجالات خلال ربع القرن الماضي، وأيضًا بما يتناسب مع متطلبات المجتمع القطري وعاداته وتقاليده، وهذا الهدف يشكِّل واحدًا من المقومات الرئيسية للمجتمعات والدول في عالمنا المعاصر، كما أنه يسهم في تعزيز قدرة سلطات الدولة التشريعية والتنفيذية والقضائية على أداء مهماتها بكفاءة وفاعلية، ودفع عمليات التنمية ...»[1].

ومن هنا أصدر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني قرارًا أميريًا في ١٢ من يوليو ١٩٩٩م، بتشكيل لجنة لإعداد دستور جديد دائم لقطر «إيمانًا منا بأهمية ترسيخ أسس الممارسة الديمقراطية في حياتنا السياسية، وتدعيم مؤسسات الدولة، وتعظيم

---

(١) راجع نص خطاب الأمير بمجلس الشورى في ١٦ من نوفمبر ١٩٩٨ في كتاب «مشروع الدستور الدائم لدولة قطر»، ٣ ـ ٤.

دور المشاركة الشعبية ... يحل محل النظام الأساسي المؤقت المعمول به حاليًا، ويتلاءم مع ماشهدته بلادنا من نهضة وتطور في مختلف المجالات»، وقد تألَّفت اللجنة من ثلاثين عضوًا ـ بخلاف الرئيس ونائبه ـ على أن تنجز الدستور في مدة لاتتجاوز ثلاث سنوات. وبالفعل شُكِّلت اللجنة من أهل الكفاءة والاختصاص لوضع هذا الدستور الذي كان من بنوده الأساسية «تشكيل برلمان منتخب عن طريق الاقتراع الشعبي المباشر، لتتويج سعيه نحو تكريس المشاركة الشعبية كأساس للحكم»[1].

وفي الخطاب الذي ألقاه الأمير الشيخ حمد في أول اجتماع للجنة إعداد الدستورفي ١٣ من يوليو١٩٩٩م، أوضحالخطوط الأساسية للمبادئ الجوهرية لسياسة الدولة وتنظيم سلطاتها ونظام الحكم فيها، وتحديد الحقوق والواجبات، وبعد أن تحدَّث عن مراحل التطور الدستوري السابقة، ذكر أنه «أخذًا بسُنَّة التطور والتدرج، كان من الضروري بعد ذلك أن تكون خطتنا التالية هي إعداد دستور دائم ليتلاءم مع ما حققته بلادنا من إنجازات، ويلبي تطلعاتنا وآمالنا ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين، ولتوسيع قاعدة المشاركة الشعبية بقيام مجلس نيابي منتخب ...»[2].

وقد أتمَّت اللجنة عملها بالفعل، ورفعت مشروع الدستور الدائم للأمير في ٢ من يوليو ٢٠٠٢م، وفي ١٥ من أبريل ٢٠٠٣م أعلن الأمير طرْح الدستور للاستفتاء العام على الشعب، على أن يتم ذلك بالاقتراع العام السري المباشر، ويصبح موافقًا عليه إذا أقرَّته أغلبية الآراء الصحيحة. وجرى الاستفتاء بالفعل في ٢٩ من أبريل ٢٠٠٣م ووافقت الغالبية العظمى من المواطنين عليه، ولذلك أصدر

---

(١) راجع القرار الأميري رقم ١١ لسنة ١٩٩٩ بتشكيل لجنة إعداد الدستور، المصدر السابق، ٥ ـ ١٠.

(٢) نص خطاب الأمير في كتاب «مشروع الدستور الدائم لدولة قطر»، ١٣ ـ ١٥.

الأمير قراره في ٨ من يونيو ٢٠٠٤م بإصدار الدستور ونشره في الجريدة الرسمية بعد سنة من صدوره، يتم خلالها استكمال المؤسسات الدستورية واتخاذ الإجراءات القانونية، بالتالي لم يُعمَل بهذا الدستور إلا في ٨ من يونيو عام ٢٠٠٥م(١).

وقد اعتُبِر هذا الدستور الدائم بداية لمرحلة جديدة في تاريخ قطر المعاصر؛ إذ يستجيب للتحولات السياسية والاجتماعية والتنموية التي تشهدها البلاد، وقد جاء هذا الدستور في خمسة أبواب، ضمت ١٥٠ مادة، تناولت نظام الدولة وأسس الحكم، والمقومات الأساسية للمجتمع، والحقوق والواجبات العامة، وتنظيم السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، كما احتوى الدستور على المبادئ التي تكرِّس الفصل بين السلطات، وتُقنِّن الحقوق والحريات والممارسة السياسية، وتجسِّد المشاركة الشعبية في صُنْع القرارات، مما يُعَد إنجازًا تاريخيًا مهمًا(٢).

ويلاحِظ المتخصصون في النظم السياسية أن هذا الدستور يمثل نقلة نوعية في عملية التحول نحو الديمقراطية؛ لأنه لم يصدر بصفته منحة من الحاكم أو بإرادته المنفردة، إنما طُرِحَ على الشعب في استفتاء عام ليقول الشعب رأيه في دستوره، كما أن هذا الدستور أكَّد مبدأ أن الشعب هو مصدر السلطات، ويقرر مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية، مع تعاونها، كذلك يفصل بين الإمارة ورئاسة مجلس الوزراء لعدم تركيز السلطة التنفيذية في يد واحدة، كذلك إرساء مبدأ الانتخاب بدلًا من التعيين في عضوية مجلس الشورى، وإعطاء هذا المجلس سلطة التشريع بدلًا من دوره الاستشاري البحت،

---

(١) راجع: رعد ناجي الجدة: النظام الدستوري في دولة قطر، الدوحة - ٢٠١٢م، ١٢٩ - ١٣٢. أيضًا: يوسف عبيدان وأمية أبو السعود: المرجع السابق، ١٣١ - ١٨٧.

(٢) راجع نص هذا الدستور في كتاب «مشروع الدستور الدائم لدولة قطر»، ٢٧ - ٧٣.

يضاف إلى ذلك كله توسيع دائرة الحقوق والحريات العامة، مثل حق الانتخاب والترشح والحق في التجمع وتكوين الجمعيات، وغير ذلك[1].

وبالرغم من الخطوات المهمة السابقة تظل هناك خطوات تتعدى صناديق الانتخابات؛ بمعنى مشاركة هذه الهيئات في اتخاذ القرارات، وتحرير المجلس البلدي من هيمنة السلطة التنفيذية، كما أن العِبْرَة في الدساتير ليست في المبادئ الديمقراطية المتعلقة بكوْن الشعب مصدر السلطات، وإقرار الحقوق والحريات العامة وغير ذلك، لكن العبرة تتمثَّل في وضع هذه المبادئ موضع التطبيق، فبالرغم من نص الدستور القطري الذي صدر عام ٢٠٠٤م على مبدأ سلطة الشعب، ونص كذلك على تشكيل مجلس الشورى وتحديد اختصاصاته، باعتباره الجهة التي سيمارس الشعب سلطاته من خلالها، فإن الجماهير لا تزال في انتظار صدور القانون المنظِّم لانتخابات هذا المجلس، كما لاحظ بعض الكتَّاب أن بعض مواد الدستور احتفظت للأمير بسلطات عدة، مما جعل لمركزه وضعًا مميزًا في نظام الحكم، ومن ثَمَّ فإن الترجمة الحقيقية للنص الدستوري على سلطة الشعب تتطلب إجراءات عملية؛ تتمثل في الفصل الحقيقي بين السلطات الثلاث، وألا تهيمن إحداها على الأخرى، وأن يمارس نواب الشعب في مجلس الشورى القادم سلطات حقيقية في التشريع والرقابة والمحاسبة والمساءلة، والأمل معقود على أن يكون دور المجلس يمثِّل تطبيقًا فعليًا للمبادئ الديمقراطية[2].

وفيما يتصل باستكمال الإصلاحات التشريعية والقضائية، فقد صدر القانون رقم ١٢ لسنة ٢٠٠٨م بإنشاء «المحكمة الدستورية العليا»، بصفتها هيئة قضائية مستقلة تتولى الفصل في المنازعات المتعلقة بدستورية القوانين واللوائح، وتفسير

---

(١) يوسف عبيدان وأمية أبو السعود: المرجع السابق، ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق، ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

النصوص والقوانين إذا أثارت خلافًا في التطبيق، والفصل في المنازعات التي تنشأ بشأن الأحكام النهائية المتناقضة، والفصل في تنازع الاختصاص بتحديد الجهة المختصة بالفصل في الدعوى بين جهات القضاء، وغير ذلك[1].

* * *

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية والتطور الدبلوماسي في عهد الشيخ حمد بن خليفة، يلاحَظ أن الدولة تحولت من بلد يثبِّت أقدامه في الساحة الدولية إلى بلد يقوم بدور نشط وعملي على الصعيدَيْن الإقليمي والدولي؛ فتولت قطر رئاسة «منظمة المؤتمر الإسلامي» (منظمة التعاون الإسلامي الآن) لمدة ثلاث سنوات (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٣م)، وقدَّمت خلال هذه الفترة الدعم الكامل لقضايا المسلمين في أنحاء العالم، كذلك تم افتتاح «مركز قطر الثقافي الإسلامي (فنار)» في يناير عام ٢٠٠٨م، الذي يتبع وزارة الأوقاف، ويستهدف إبلاغ رسالة الإسلام إلى غير المسلمين ونشر ثقافته، ورعاية شئون المسلمين الجدد وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

وقد أكَّد الأمير في خطابه إلى مجلس الشورى عام ٢٠٠٥م أسس السياسة الخارجية القطرية؛ التي تتمثل في التعايش السلمي والتعاون الدولي، على أساس الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة، والانفتاح على الحضارات والتفاعل معها، والإيمان باحترام حقوق الإنسان، والالتزام بتسوية النزاعات الدولية بالطرق السلمية، وضرورة تعزيز مكانة الأمم المتحدة ودورها في العلاقات الدولية، باعتبارها تمثِّل الشرعية الدولية، كما أوضح أهمية تعزيز العلاقات مع دول مجلس التعاون الخليجي، الذي يأتي في مقدمة أولويات السياسة الخارجية لقطر، سعيًا نحو تحقيق التكامل بين دوله.

---

(١) راجع نص قانون إنشاء المحكمة الدستورية العليا في كتاب رعد ناجي الجدة، المرجع السابق، ٣٠٥ - ٣١٢.

وفيما يتصل أيضًا **بالسياسة الخارجية والدبلوماسية القطرية** ، فقد اتخذت الدولة خطوات رشيدة لتثبيت مكانة قطر في المحافل الدولية ، مما أهَّلَها لأن تلعب دورًا فعالًا ومؤثرًا وفْق سياسة واقعية ومتوازنة ؛ ففي عام ١٩٩٦م شاركت قطر في مؤتمر الدول المانحة لعملية إقرار الإسلام في البوسنة ، كما تحمَّلت نفقات مؤتمر المصالحة بين القبائل الصومالية عام ١٩٩٧م ، ونجحت في تحقيق المصالحة بين السودان وأريتريا عام ١٩٩٨م ، وفي عام ٢٠٠١م فازت قطر بأحد المقاعد الأربعة المخصَّصَة للقارة الآسيوية للمجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة .

وفي عام ٢٠٠٢م أُنشِئ «صندوق قطر للتنمية» ، بصفته مؤسسة تابعة لمجلس الوزراء ، تهدف إلى دعم مشروعات الدول العربية والدول النامية ، بلغ رأسماله مليار ريال قطري ، كذلك تولَّت قطر رئاسة مجموعة السبعة والسبعين والصين في الأمم المتحدة في يناير ٢٠٠٤م ، كما حصلت قطر على العضوية غير الدائمة في مجلس الأمن للعامَيْن (٢٠٠٦ و٢٠٠٧م) .

وقد لعبت قطر دورًا مقدرًا في حل الخلاف اللبناني ـ اللبناني ، بعد رعايتها الحوار بين الفُرَقاء ، ذلك الحوار الذي انتهى بالتوقيع على اتفاق الدوحة في مايو ٢٠٠٨م ، وقد تبنَّت قطر سياسة حكيمة أدت إلى الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية ، إلى جانب حرص الدولة على دعم مسيرة مجلس التعاون الخليجي لتحقيق التكامل بين دُوَلِه كما أشرنا ، من خلال حضورها الدائم ومشاركاتها الفعالة في المؤتمرات والاجتماعات الخليجية ، وبحث القضايا والتحديات التي تواجه المنطقة[1] .

* * *

---

(١) راجع خطابات سمو الأمير الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني في «كتاب الوطن» ، ط ١ ، ٢٠٠٣م ، وقرارات سمو الأمير المنشورة في الجريدة الرسمية لسنوات (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٨) .

أمَّا **التطور الاقتصادي** في قطر خلال عهد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني فقد شهد نموًا هائلا ؛ تمثَّل في استغلال النفط والغاز الطبيعي في إقامة صناعات تحويلية وتكميلية لتأسيس قاعدة صناعية صلبة ذات مردود اقتصادي كبير ، كما تبنَّت الدولة سياسات جديدة تتعلق بتحرير الاقتصاد والتجارة بهدف تدعيم وتوسيع مشاركة الاستثمارات الأجنبية والقطاع الخاص الوطني .

وتفيد الدراسات بأن تأسيس هذه القاعدة الصناعية في حقول النفط والغاز وإنشاء مصانع للبتروكيماويات والأسمدة ، بالتعاون والشراكة مع شركات عالمية ، بلغ حجم الاستثمار فيها أكثر من ستين مليار دولار . ولأن قطر تمتلك ثاني أكبر احتياطي للغاز الطبيعي في العالم فقد نجحت الدولة فيإنشاء «مدينة راس لفان الصناعية» ، وطوَّرتْ بشكل كبير «شركة قطر للغاز المسال» ، و«شركة راس غاز» ، وشرعت في تصدير إنتاجها من الغاز الطبيعي المسال ، من خلال شركة عملاقة تأسست لنقل ذلك الغاز . وقد تبنَّت الدولة إنشاء أكبر مصنع للألومنيوم في العالم في شمال «منطقة أمسعيد» الصناعية .

وإلى جانب ذلك أُنشِئت في قطر سوق للأسهم وشئون المال ؛ أتاحت فرصًا كبيرة لتوسيع نطاق الاستثمارات الوطنية ، وقد نتج عن ذلك كله أن الاقتصاد القطري أصبح واحدًا من أسرع الاقتصادات نموًا في العالم ، بالإضافة إلى أنه حافظ على معدلات نمو مرتفعة ، بسبب الزيادة الكبيرة في أسعار النفط والغاز ، خلال السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين ، وحسَّنَ توظيف العائدات في مشروعات عملاقة ذات مردود اقتصادي كبير .

* * *

وفي مجال **التطور الاجتماعي** ، شهدت البلاد صدور تشريعات وإقامة مؤسسات أحدثتْ تقدمًا كبيرًا منذ بداية عهد الشيخ حمد بن خليفة ؛ فإلى جانب تشجيع الدولة للتعليم ، الذي جعلته إجباريًا حتى سن العشرين ، فقد أُنشِئت عام

١٩٩٥م «مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع» ، وهي مؤسسة خاصة غير ربحية تدعِّم الدولة في مسيرة تحولها الاقتصادي والاجتماعي نحو اقتصاد المعرفة ، وذلك بمبادرة من الأمير ، وتتولى حرم الأمير «الشيخة موزة بنت ناصر المسند» رئاسة مجلس إدارتها . وتستند المؤسسة في تحقيق استراتيجيتها إلى ثلاث ركائز أساسية : التعليم والبحث العلمي وتنمية المجتمع ، من خلال إنشاء قطاع حيوي للتعليم ، يمْكِنه جذب واستقطاب أرقى الجامعات العالمية إلى قطر ، كما تسهم المؤسسة أيضًا في إنشاء مجتمع متطور وتعزيز الحياة الثقافية والحفاظ على التراث .

وتوفِّر المؤسسة تعليمًا متميزًا يغطي جميع المراحل الدراسية ، بَدءًا من المرحلة الابتدائية حتى الجامعة ، وقد أنشأت المؤسسة مدينة تعليمية متكاملة للتعليم العالي لتقديم تعليم متميز للقطريين ولغيرهم من أبناء الدول الأخرى ، وقد استقطبت هذه المدينة فروعًا من الجامعات العالمية مثل فرجينياكومنولث (١٩٩٩م) ، وأيل كورنيل (٢٠٠٣م) ، وتكساس وكارنيجي ميلون وجورج تاون (٢٠١٠م) وغيرها ، لتكون مركزًا للتعليم المتميز والعصري في المنطقة[١] .

وفي نوفمبر عام ٢٠٠٢م صدر القانون رقم ٣٧ الخاص بإنشاء «المجلس الأعلى للتعليم» ، ليصبح السلطة العليا المسئولة عن رسم السياسة التعليمية بالدولة ، وعن خطط تطوير التعليم ، والإشراف على تنفيذها ، فضلًا عن تطوير التعليم بما يكفل تلبية احتياجات الدولة من الموارد والكفاءات البشرية ، وذلك من خلال توفير نظم تعليمية متنوعة تعزز الإبداع والتميز العلمي ، وتعمل تحت مظلة هذا المجلس هيئات تنفيذية ثلاث ، تتحمل المسئولية المباشرة عن إنجاز خطط التطوير ، وهي : هيئة التعليم ، وهيئة التقويم ، وهيئة التعليم العالي .

---

(١) راجع : الأمانة العامة لمجلس الوزراء : الإنجازات الداخلية للدولة ، الدوحة ـ مطابع الشرطة ٢٠١١ ـ ٢٠١٢، ٣٨١.

وفي مجال التطور الاجتماعي أيضًا ، نلاحظ أن الدولة أنشأت «المجلس الأعلى لشئون الأسرة» عام ١٩٩٨م ، وذلك لدراسة المشكلات التي تواجه الأسرة واقتراح الحلول المناسبة لها . كما تم إنشاء «المجلس الأعلى للبيئة والمحميات الطبيعية» ، وذلك للحفاظ على البيئة وحل مشكلاتها وتطويرها . كما تأسس في هذا العهد «المجلس الوطني للثقافة والتراث» (وزارة الثقافة والفنون والتراث فيما بعد) ، اليأُنيط به دعم التطور الثقافي والفكري والإبداعي ، والاهتمام بما يتعلق بالتراث في شتى المجالات ، وقد أنشأت الدولة كذلك «متحف الفن الإسلامي» الذي وضع قطر على الخريطة العالمية للمتاحف ، يضاف إلى هذا كله «دار الإنماء الاجتماعي» ، وغير ذلك من المؤسسات والهيئات الداعمة للتطور الاجتماعي في قطر .

وفيما يتصل بهذا المجال تم إنشاء مؤسسات تُعْنَى بحقوق الإنسان ؛ منها مكتب المنسق الوطني لمكافحة الاتجار بالبشر ، فضلًا عن مكتبَيْنْ لحقوق الإنسان بوزارتَي الخارجية والداخلية ، واللجنة الوطنية لحقوق الإنسان عام ٢٠٠٢م .

أما بالنسبة للسياحة والنهضة العمرانية ، فقد أَوْلَت الدولة اهتمامًا كبيرًا لقطاع السياحة لتعزيز دوره في خدمة الاقتصاد الوطني ؛ فأنشأت «الهيئة العامة للسياحة» ، ودعَّمت الخطوط الجوية القطرية بزيادة عدد خطوطها ورحلاتها وتحديث طائراتها وكوادرها الفنية ، ثم قامت بتدشين مطار الدوحة الدولي الجديد ، الذي تقرَّر حينذاك أن يبدأ العمل به عام ٢٠١٥م . يضاف إلى هذا كله قيام شركة Qatar Rail - وهي إحدى شركات مجموعة الديار القطرية للاستثمار - بالإعلان عن مشروع إنشاء خطوط للسكك الحديدية ومترو الأنفاق ، بدأ العمل في بناء المرحلة الأولى منه عام ٢٠١٢م ، كما تقوم الآن بدراسات ميدانية لتنفيذ مشروعات للنقل العام في الدولة ، منها قطار الخليج الغربي وقطار مدينة لوسيل .

ومن الضروري الإشارة هنا إلى أن تقرير التنمية البشرية، الصادر عن منظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية عام ٢٠٠٥م، قد صنَّف قطر ضمن مجموعة الدول ذات الدخل المرتفع التي تتميز بتنمية بشرية عالية، ولعل أبرز نتيجة لذلك حصول قطر على المركز الأول عربيًا والأربعين عالميًا (بعد أن كانت الثالث عربيًا والسابع والأربعين عالميًا في تقرير عام ٢٠٠٤م)، الأمر الذي يوضح مدى التقدم والتطور الاقتصادي والاجتماعي الذي بلغته البلاد في عهد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني (١٩٩٥ ـ ٢٠١٣م)[1].

وفي تقليد جديد، لم يسبق حدوثه في دول الخليج العربية، أعلن الأمير الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني في ٢٦ من يونيو عام ٢٠١٣م تسليم مقاليد الحكم لولي عهده وابنه الشيخ تميم بن حمد آل ثاني، ليفتح بذلك صفحة جديدة في مسيرة قطر، يتولى فيها جيل جديد مسئولية الحكم بطاقة قوية وأفكار خلاقة، تتفق وطبيعة العصر، كما ذكر الشيخ حمد في خطاب تنازُله عن المنصب الرفيع، وبذلك بدأتْ صفحة جديدة من تاريخ قطر المعاصر.

* * *

---

(١) يمكن الرجوع إلى تفاصيل مهمة بشأن هذه التطورات في كتابَيْ محمود عبد الفتاح: أشهر ٢٥ حدثًا في تاريخ قطر، ومعالم في قطر، القاهرة ـ مركز الراية للنشر والإعلام ٢٠١٢م. كذلك كتاب مصطفى بدر: حقائق مذهلة عن قطر، القاهرة ـ مركز الراية للنشر والإعلام ٢٠١١م. كذلك مراجعة أعداد جريدة الراية القطرية في أكتوبر وديسمبر ٢٠٠٥م ويونيو ٢٠٠٦م. وراجع مواقع الديوان الأميري واللجنة الدائمة للسكان ووزارة الخارجية والجهاز المركزي للإحصاء، على الشبكة الدولية والجزيرة نت.

المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٦٠٩ - ٦٤٢

الخَلِيجُ العَرَبِيُّ
الاتِّجَاهَاتُ الحَدِيثَةُ فِي كِتَابَةِ التَّارِيخِ المُعَاصِرِ
دِرَاسَةٌ فِي تَطَوُّرِ المَنْهَجِ العِلْمِيِّ

فتحي العفيفي(*)

مقدّمة

بدايةً لابد من توضيح أنه لم يظهر أي نوع من الاتفاق بين المؤرخين - في العالم - على دلالة واحدة لمصطلح التاريخ المعاصر Contermporary History. وتحدَّدَت الاختلافاتُ بينهم بدرجة كبيرة بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م، فقد اتفق المؤرخون الأنجلو - أمريكيون على أن التاريخ المعاصر لا يزيد عُمْره عن السبعين عامًا الأخيرة، أي مع انفجار الحرب العالمية الأولى، لكنَّ الفرنسيين يرَوْن أن التاريخ المعاصر يبدأ بالثورة الفرنسية الكبرى ١٧٨٩م التي وضعت أسس ما يرَوْنه نظامًا عالميًا لم يتغير بعد بشكل جوهري في رأيهم، ويرى الألمان أن التاريخ المعاصر يبدأ بعد حرب الوحدة الألمانية ١٨٧٠م وظهور ألمانيا بصفتها واحدة من القوى العظمى في أوربا والعالم، أمَّا في المنطقة العربية والهند وإفريقيا، فيرى مؤرخوها أن عصرًا جديدًا قد بدأ منذ نهاية الأربعينيات، والانتصارات التي

(*) متخصص في التفكير الاستراتيجي - جامعة الزقازيق.

حققتْها حركة التحرر الوطني ، وظهور الدول حديثة الاستقلال بدورها وثِقَلها ، الذي أعاد توزيع موازين الاستراتيجية العالمية ، فيما يرى مؤرخو الثقافة الإنسانية أن التاريخ المعاصر يبدأ مع الثورة التكنولوجية التي ارتبطت بالاستخدام الواسع للكمبيوتر ، وانفجار ثورة المعلومات[1] ، وبين هذه التعريفات جميعها نستطيع أن نقرر ـ باطمئنان ـ أن التاريخ المعاصر في الخليج العربي قد أخذ في التبلور مع بداية النهاية للوجود العثماني ، وانفراد بريطانيا منذ تجديد معاهدات الحماية ١٩١٥م ، وهي المرحلة الانتقالية حتى بزوغ خليج ما بعد الحرب العالمية الثانية والطفرة النفطية الهائلة ، وبداية العصرنة في الممارسة والمضمون التاريخي .

وتميَّز القرن التاسع عشر بظهور الطريقة العلمية في كتابة التاريخ ، وكان ذلك على يد مدرسة علمية من المؤرخين بزعامة المؤرخ الألماني الشهير ليوبولدفون رانكة (١٧٩٥ ـ ١٨٨٦م) ، الذي دعا المهتمين والعلميين الذين يكتبون عن الماضي إلى ضرورة إعطاء الكلمة العليا للوثائق والمصادر ، وتؤكد نظريته الأساسية أن التاريخ هو تصوير ما حدث بالضبط ، بعد نقد الوثائق والمصادر الأولية وتحليلها والتحقق منها ، وبناءً على ذلك قال المؤرخون إن رانكة أعلن عن ميلاد التاريخ العلمي[2] .

قبل الحديث عن إسهامات التيار الرئيس العام في كتابة التاريخ الحديث والمعاصر ، الموسوم بـ«الموثقون النهجيون والتأريخ العلمي» لابد من تحديد مجموعة من الضوابط والقضايا والإشكاليات المنهجية ، التي عَرَفت تطورًا مذهلًا بتطور المنتج التاريخي ذاته ، فالعلمُ يطوِّر المنهج ، والمنهج يطوِّر علومه ومعارفه ويجدد

---

(١) حكمت أبو زيد : التاريخ تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦١م؛ شاكر مصطفى : «التاريخ هل هو علم؟» ، مجلة عالم الفكر ، عدد خاص بفلسفة التاريخ ، العدد الأول ، الكويت ١٩٧٤م ، ١٨٨؛ لانجلوا وسنيوبوس : النقد التاريخي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٦٣م .

(٢) وللاطلاع على تفكيك لبنية مصطلح (تطور منهج البحث التاريخي) ، انظر الملحق رقم (٢) .

قناعاته باضطراد، وذلك وفق المتغيرات التي تطرأ على الأجندة البحثية القائمة والمحتملة، التي يتم إنجازها بحسب الاتجاهات والتيارات والمدارس الفكرية على تنوعها واختلافها، ومِنْ ثَمَّ فإن الكتابة عن منطقة الخليج العربي في الحقبة المعاصرة لم تكن استثناءً من السياق التاريخي العربي العام، بحيث يمكن تحديد المفاهيم الأساسية وفق هذا المحور حول المرتكزات التالية :

الفكر الكلاسيكي ومشكلات الاستبداد المنهجي

في قضايا المنهج وإشكاليات البحث تطالعنا ثلاث قضايا رئيسية :

الأولى : تتعلق بالخطوات والإجراءات، أي استيفاء البحث من حيث الشكل.

والثانية : تتصل بالمحتوى والمضمون (نظريات التفسير ـ المنهاجية والطريقة).

والثالثة : التحديث (الحداثة الزمانية ـ التراكم المعرفي والخبراتي ـ تسكين المعايير).

القضية الأولى (الخطوات والإجراءات واستيفاء البحث من حيث الشكل)

يختلف البحث العلمي الأكاديمي الاحترافي عن كتابات الهواة؛ بأن له خطوات منهجية محددة لا بد للباحث من استيفائها كاملة، بموضوعية وتجرد وفَهم عميق وتطبيق أمين، وهي تبدأ من الفروض وصولًا إلى النتائج، وهذه الخطوات يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ اختيار موضوع البحث : الذي ينبغي أن يكون جديدًا، ويصاغ بطريقة علمية سليمة تعبِّر عن المقولات الرئيسية فيه.

٢ ـ الفروض، والتساؤلات البحثية (المشكلة التي يعالجها البحث)، (الوحدة الموضوعية، ومراعاة الوزن النسبي).

٣ ـ صياغة فصول البحث المقترحة، والقابلة للتعديل بعد مراعاة (الإطار النظري، وتعريف المفاهيم، والعلاقة بين المتغيراتوالمؤشرات).

٤ ـ المصادر وتوثيق البحث (المسح المنظم للأدبيات (الدراسات) السابقة ـ أنظمة التوثيق ـ تصنيف المصادر والمراجع).

٥ ـ التعامل مع الاقتباسات (النقد الظاهري قبل الاقتباس، النقد الباطني للمعلومات (المحتوى) ـ المُفَاضَلة بين الروايات).

٦ ـ التأليف والتركيب التاريخي (الوصف ـ التحليل ـ النقد)، (الحياد، الموضوعية، الاجتهاد).

٧ ـ المقدمة (تجرِبة الباحث ومعاناته)، مناقشة النتائج الجديدة في (الخاتمة)، قائمة المصادر والمراجع[1].

٨ ـ للتعامل مع الهامش فنيات وأصول لا يجيدها إلا الواثقون، فاستخداماته تتنوع بين: (١) الإحالات المرجعية للتوثيق وإرجاع المعلومة لصاحب الحق الأصيل فيها. (٢) تراجم لشخصيات أو معاهدات بدون التوسع في الكلام عنها حتى لا يَخِل ذلك بنسق المتن. (٣) عرض للآراء المتضاربة والمتناقضة ونقدها وتحليلها، والهامش هو أعمدة البحث التي يُحمَل عليها، وكلما كانت قوية ومتينة كان

---

(١) كثيرة هي المراجع التي تناولَتْ (منهج البحث التاريخي)، وجميعُها مأخوذٌ عن التصنيف الغربي الأوربي لكيفية التصدي للكتابة التاريخية العلمية، وثمّة اتفاق عام بين جميع هذه المراجع على هذه الخطوات المنهجية، لكننا في هذه الدراسة قد أجرينا بعض التعديلات الضرورية التي تتطلبها طبيعة التطوير المطلوب، انظر على سبيل المثال:

ـ زكي نجيب محمود: أسس التفكير العلمي، سلسلة كتابك رقم ٤، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٧م.

ـ حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ط ٤، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٦م.

ـ عبد الرحمن بدوي: النقد التاريخي، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٦٣م.

البحث قيمًا وصلبًا ، والبحث يُقرأ من حواشيه ، وعن طريقة التوثيق فإن أفضل طريقة للتاريخ المعاصر هي هكذا : (اسم المؤلف : اسم الكتاب ، مكان النشر ، دار النشر ، تاريخ النشر)[1] .

وتتخلل هذه الخطواتِ الرئيسية خلفيةُ الباحث العلمية عن طرق جمْع المعلومات ومعرفته بالعلوم المساعِدة ، والنظريات العلمية ، والمهارات والأدوات مثل اللغات ، والتقنيات الحديثة ، التي تُسْهِم جميعها في إبراز شخصية الباحث .

القضية الثانية : المحتوى والمضمون (نظريات التفسير ـ المنهاجية والطريقة)

تعددت مدارس تفسير التاريخ وتنوَّع التصنيف العلمي حيالها ، إلا أنها لا تَخرج عن ثلاث نظريات رئيسية ؛ تتمثل فيما يلي :

التفسير المثالي : وهذا ينقسم بدوره إلى شقَّيْن : الأول يتعلق بالدِّين ، حيث إن المعتَقَد الديني ذو أهمية شديدة في تفسير حركة التاريخ ، وإن التعبئة العامة حيال الدفاع عن المقدَّس من أعظم الأيديولوجيات التي يستخدمها أهل السياسة في تكوين عصبيات جديدة حول الحُكم ، وفي حروبهم الخارجية كالذي قدَّمَه مشروع الحملات الصليبية من الغرب الأوربي على الشرق الإسلامي في أعقاب مؤتمر كليرمونت ١٠٩٥م ، والحروب التي أعقبت هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م من الولايات المتحدة الأمريكية على أفغانستان والعراق ، وتفجير ثورات الربيع العربي (٢٠٠١ ـ ٢٠١١م)[2] .

---

(١) عاصم الدسوقي : البحث في التاريخ (قضايا المنهج والإشكالات) ، القاهرة ـ مكتبة القدس ١٩٩٤م .

(٢) انظر عن سلطة الدين في صُنع التاريخ ، عبد الإله بلقزيز : إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر ، بيروت ـ دار المنتخب ١٩٩٢م ، ١٠٥. وانظر كذلك :

ـ عبد الجواد ياسين : السلطة في الإسلام ، العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ ، بيروت ـ ١٩٩٨م . وأيضًا : =

أما الشق الآخر فيتصل بدور الفرد في صناعة التاريخ، والمعنى البعيد لأهمية دور الفرد يتمثل في قدرة المجتمعات الحية والناضجة ـ التي يتصف أفرادها بالطاقة والحيوية، والقدرة على الإبداع والابتكار والتنمية ـ على صناعة نهضة حقيقية من خلال الانحياز والتخندق خلف مشروعات الإصلاح السياسيوالاجتماعي والاقتصادي، أما المعنى القريب لدور الفرد فيتصل بأهمية الكاريزما، وقدرة الأشخاص بحسب إمكاناتهم ومقوماتهم الذاتية على التأثير في الجماهير، سواء كان عن طريق تبني نظريات أو عقائد جديدة خلاقة، أو من الناحية الظاهرية التي تتعلق بأسلوب الخطابة ووسائل الإقناع والذكاء والمراوغة وصناعة الخطط والاستراتيجيات، وتملُّك مهارات القيادة، مثلما أحدثه جمال عبد الناصر في مصر والمحيط العربي، ودول مجموعة عدم الانحياز (١٩٥٢ ـ ١٩٧٠م)، والملك عبد العزيز آل سعود في شبه الجزيرة العربية والخليج العربي (١٩٠٢ ـ ١٩٥٣م)[1].

التفسير البيئي الطبيعي: هو ذلك التفسير الذي يعطي أهمية كبرى لدور الجغرافيافي صناعة التاريخ؛فالجغرافيا تؤثر من زاويتَيْن مهمتين، **الأولى**: تتعلق بالمناخ والطقس وطبيعة الوديان والجبال والبحار والمحيطات والأنهار، وكل ذلك يؤثر في المنتج التاريخي الإنساني وخصائص حضارة هذا الشعب أو ذاك،

= ـ خالد زيادة: كتاب السلطان: حرفة الفقهاء والمثقفين، لندن ـ رياض الريس للكتب والنشر ١٩٩١م، ٢٢.

ـ حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دراسة في علم التاريخ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٤م.

(1) محمد الجويلي: الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي (بين المقدس والمدنس)، تونس ـ سراس للنشر، المؤسسة الوطنية للبحث العلمي ١٩٩٣م، ١٧.

ـ عبد الغفار رشاد القصيبي: مناهج البحث في علم السياسة، القاهرة ـ مكتبة الآداب ٢٠٠٤م، ٩٨.

ـ حمد طربين: «عبد العزيز آل سعود منشئ دولة وباعث نهضة»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة، العدد ٧، الكويت ١٩٧٦م.

والعلاقات الداخلية بين طبقاته الاجتماعية والسيطرة المركزية على البلاد أو صعوبة تحقيق ذلك[(١)]، أما الزاوية الأخرى: فتتمثل في البُعد الإقليمي والدولي لخريطة الدولة ذاتها، فالموقع الجغرافي يحدِّد إلى حد بعيد أهمية الدولة، وطبيعة دورها الاستراتيجي، وتحالفاتها الإقليمية والدولية، وفاعلية دورها الاتصالي بالعالم، وهل هي دولة مرتكزجيو ـ ستراتيجي؟ أم دولة مقفلة وهامشية؟ ولاحِظْ هنا الفاعلية التي توفرها دولة مثل إيران في البُعد الأيكولوجي، بخلاف دولة مثل بنجلاديش، وأهمية دولة مثل المملكة العربية السعودية وجغرافيتها من العالم الإسلامي[(٢)]، والبُعد الأيكولوجي لإسرائيل في الشرق الأوسط[(٣)].

التفسير الدوري: وهنا تأتي نظريتان أساسيتان تتصارعان في تفسير التاريخ: **النظرية الأولى:** تتعلق بالدورة الحضارية؛ بمعنى أن كل أمة من الأمم تمر بمراحل أساسية (بداية ـ ذروة ـ نهاية)، ومن رَحِم المعاناة والانحلال تتولَّد نظرية التحدي والاستجابة (أي التحدياالجديد، والبداية الجديدة) من خلال عصبية جديدة، ومن أنصار هذا الرأي ابن خلدون، وتوينبي، وشبلنجر[(٤)]، **أما النظرية الأخرى:** فهي

---

(١) هاري إلمر بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م، ٦٨.

(٢) انظرعن الجغرافيا والعولمة التقدمية:

WARWICKE MURRAY: *Geographies of Globalization,* Routledge-New York, - 2006.

(٣) عن البُعد الأيكولوجي لإسرائيل في تفتيت الشرق الأوسط وصلة ذلك بمنطقة الخليج العربي، انظر:
ـ فتحي العفيفي: أبعاد التفكير الاستراتيجي الإسرائيلي في ظل متغيرات العولمة.

إبراهيم البحراوي وآخرون: مشروع استراتيجية إسرائيل ٢٠٢٨م، دراسة تحليلية، جامعة الزقازيق ـ مركز الدراسات الإسرائيلية ٢٠١٢م، ٩٥ ـ ١٣٦.

(٤) عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تمهيد وتعليق علي عبد الواحد وافي، القاهرة ١٩٦٠م، ٣٢. =

النظرية المادية المنسوبة إلى كارل ماركس؛ حيث أعطى للاقتصاد أهمية كبرى، سواء تعلّق الأمر بالوفرة المالية، أو بالمذاهب الفكرية المختلفة (اشتراكية ـ رأسمالية ـ نيولبرالية ـ عولمة ... إلخ)[1]، ومناص التصارع هنا أن الدورة الحضارية عند الأولى بشرية، وعند الثانية تنموية، وفي عالمٍ تتقلّص فيه القَبَلِية والعصبية، امتزج التفسيران ليصبح قَوَام التعاقب مرهونًا بالتنمية البشرية وحيوية الدولة[2].

المنهاجية والطريقة: المِنْهاج هو الدَّرْب (الاتجاه) الذي يَسْلكه الباحث، والفارق

=ـ أرنست كاسبرد: في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، مراجعة علي أدهم، القاهرة ـ د.ت.

ـ الصالح أحمد العلي: علم التاريخ عند المسلمين، بغداد ـ دار المثنى ١٩٦٣م، ١٢٢.

ـ ألدو مييلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة عبد الحليم النجارومحمد يوسف موسى، القاهرة ـ جامعة الدول العربية ١٩٦٢م، ٧٧.

(١) عبدالرؤوف الضبع: «المؤتمر القومي الأول لتطوير منظومة البحث العلمي ٢٨ ـ ٢٩ ايو ٢٠٠٥)، المجلة المصرية للتنمية والتخطيط، السنة ١٥، العدد ٢، كانون الأول/ ديسمبر٢٠٠٧م، البحوث الإنسانية، ٢٨٤.

ـ عماد الدين خليل: التفسير التاريخي: بيروت ـ ١٩٧٥م، ١٠١.

ـ هرنشو (ف. ج. س): علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، القاهرة ـ ١٩٣٧م، ١٢.

(٢) التعاقب الدوري يجد صداه في تاريخ الخليج المعاصر فيما صار يُعرَف بـ«دورية الأزمات)، فلا يكاد يمر عقد من الزمان إلا تجد المنطقة نفسها مع أزمة جديدة وقد داهمتها، تُربك حسابات دولها وتعقّد من استقطاباتها وتحالفاتها الجيو ـ ستراتيجية، ولا تكاد تستقر أمورها أو تستقيم أحوالها إلا من خلال التعايش القسري مع الأزمات التي منها (أزمة عبد الكريم قاسم ورغبته في ضم الكويت إلى العراق ١٩٦١ ـ ١٩٦٣، وأزمة الانسحاب البريطاني ١٩٦٨ ـ ١٩٧١م، واحتلال إيران الجزر الإماراتية الثلاث، وأزمة عودة الخوميني وصعود صدام حسين واشتعال حرب الخليج الأولي ١٩٧٩م، وأزمة غزو العراق للكويت وحرب التحرير ١٩٩٠ ـ ١٩٩١م، وأزمة ١١ من سبتمبر ٢٠٠١م، وحرب إسقاط صدام وإنهاء حكم البعث ٢٠٠٣م، ثم أزمة ثورات التحرير العربي وامتداداتها إلى البحرين، ودخول إيران الاستخباراتي إلى العراق على نحو غير مسبوق (٢٠١١ ـ ٢٠١٣م). انظر في ذلك: فتحي العفيفي: القرصنة في الخليج العربي، الغزو الأميركي للعولمة، الدوحة ـ المركز العربي للدراسات والبحوث ٢٠١١م، ٩٧.

كبير بينه وبين المنهج الذي هو الطريق الواضح أي (الخطوات والإجراءات) ، والطريق الواضح تتخلله بالضرورة مجموعةٌ من المسالك والدُّروب والطرق الفرعية ، هكذا هو الحال في العملية التاريخية ؛ فكما أن العلوم الإنسانية الأخرى تحتاج إلى منهج البحث التاريخي للتثبُّت من المعلومات وتدقيقها ، فإن علم التاريخ يحتاج إلى المنهاجية العلمية لعلم السياسة والاقتصاد ومقارنة الأديان(١) ، وغيرها .

هناك على سبيل المثال **المنهج الوصفي** : الذي يُعنَى بوصف الظواهر التاريخية المبحوثة من كل الجوانب المحيطة بها ، وفق زمان ومكان حدوثها ، ولا يتدخل الباحث بالتحليل أو النقد أو إبداء الرأي ، تاركًا هذه المهمة للآخرين وفق أدوات ومقتربات أخرى ، فالفائدة التي يقدمها للعلم هنا أنه جَمَع كل المعلومات الممكنة من المصادر المختلفة على تعددها وتنوعها وصعوبتها ، وقدَّم وقائع تاريخية جديدة لم تكن معروفة من قبل(٢) .

المنهج التحليلي : الذي يحلِّل الظواهر التاريخية التي سَبَقَ وصْفُها وفق دراسات علمية ومنهجية موثوقة ، وصار على الباحثين ضرورة تقديم إجابات مقنعة لتفسير ما حدث ، وهنا يتطلَّب الأمر عرض كل العوامل والأسباب والقوى الفاعلة في الظاهرة ، وعرض كل الآراء بتجرُّد شديد ، مشفوعًا هذا كله بالأدلة الدامغة التي تؤكد صحة ما ذهب إليه من استنتاجات(٣) .

---

(١) دانكن (هيوج) : دراسة التاريخ وعلاقاتها بالعلوم الاجتماعية ، ترجمة محمود زايد ، تقديم قسطنطين زريق ، بيروت ـ ١٩٦٣م ، ١٠٢.

(٢) زكي محمد حسن : دراسات في مناهج البحث في التاريخ الإسلامي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١، جـ ١، مايو ١٩٥١م ، ١٠٥. وراجع نقدًا لاذعًا لمنهج الوصف في : كارل بوبر : عقم المذهب التاريخي ، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، الإسكندرية ـ دار المعارف١٩٥٩م .

(٣) حامد عمار : المنهج العلمي في دراسة المجتمع ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٤م ، ١١. =

المنهج النقدي المقارن: هو الذي يتناول ما انتهى إليه أهلُ الوصْف، ثم أهل التحليل، بالنقد والمقارنة والتعليل، وترجيح ما يراه مناسبًا ومتوافقًا مع المنطق والمعقولية في حدود الظروف الزمانية والمكانية التي أنتجت الظاهرةَ، بعد استبعاد المَيْل والتحيُّز والتعصُّب. والمنهج النقدي في علم التاريخ (المعاصر) يحتاج بالضرورة إلى المقتربات والمداخل التحليلية المستخدَمَة في علم السياسة؛ مثل (اقتراب تحليل النظم)، و(اقتراب الثقافة السياسية)، و(الاقتراب البنائي الوظيفي)، و(مدخل النخبة السياسية)، و(مدخل صنع القرار)[1].

هذه المناهج مجتمِعَةً تُستَخدم بالضرورة في محاولة للإجابة عن السؤال البحثي المركزي في علم التاريخ (الحديث والمعاصر): (من ومن؟ أين ومتى؟ كيف؟ لماذا؟ وما الذي؟) أي: ماذا حدث؟ ولماذا حدث؟ وما الذي ترتَّبَ على ما حدث؟

أما عن الطريقة المستخدَمَة في البحث فإنها تنقسم إلى: (١) طريقة الترتيب الزمني، (٢) طريقة الترتيب الموضوعي[2]، فعندما نتحدث عن تطور الوجود البريطاني في الخليج العربي (١٩١٤ - ١٩٧١م) فإننا في الطريقة الأولى نتناول الوجود البريطاني (١٩١٤ - ١٩٤٥م) في الفصل الأول، ومن (١٩٤٥ - ١٩٥٢م) في الثاني، وهكذا. أما في الطريقة الثانية فنتحدث عن (نظام الحكم البريطاني في الخليج)، الفصل الأول (الوجود العسكري البريطاني)، والثاني

= - محمود فهمي زيدان: الاستقراء والمنهج العلمي، الإسكندرية - دار الجامعة المصرية ١٩٧٧م، ١٠.

- السيد علي شتا: المنهج العلمي والعلوم الاجتماعية، القاهرة - مكتبة الإشعاع ١٩٩٧م، ١٥٢.

(١) السيد عبد المطلب غانم: الاتجاهات المعاصرة في دراسة النظم السياسية، القاهرة - دار القاهرة للنشر والتوزيع ١٩٨٥م، ٣٢. أيضًا: علي الدين هلالونيفين مسعد: النظم السياسية العربية، قضايا الاستمرار والتغيير، بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٣م، ٤٣.

(٢) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، جـ ١، بيروت - ١٩٧٨م، ٧٧؛ محمد فيق غربال: «أساليب كتابة التاريخ العربي»، القاهرة - مجلة مجمع اللغة العربية ١٩٦٢م، ٩٢.

(المشروعات الاقتصادية البريطانية في الخليج) في الثالث. بيد أن الكثير من الباحثين لا يفضِّل أيًّا من الطريقتين على الأخرى، إنما يتم التوفيق بينهما في إطار من الوحدة الموضوعية والزمانية.

القضية الثالثة: التحديث (الحداثة الزمانية ـ التراكم المعرفي والخبراتي ـ تسكين المعايير)

التحديث يُقصَد به التجديد في البيانات والمعلومات، والوقائع والأحداث، وإضافة الموضوعات المسكوت عنها في ضوء المصادر الجديدة المُكْتَشَفَة، والمُفرَج عنها من دُور الوثائق المختلفة.

الحداثة الزمانية: هي التدرُّج بالتداعي إلى الموضوعات التي كان من الصعب على الباحث في التاريخ الحديث والمعاصر الاقتراب منها، إلا بعد مرور المدة القانونية (العُرفية) المتَّفَق عليها بين أهل التخصُّص. والتراكمُ المعرفي والخبراتي هو التطوير الدائم والمستمر والدؤوب للأطروحات السابقة في عملية مقصودة هدفها (البناء)، بحيث يضع كلٌّ مَن ينتمي إلى الجماعة العلمية لَبِنَةً في هذا الصَّرْح المعرفي على نحو تراكمي[1]، في عملية ديالكتيكية تستهدف تسكين المعايير التالية:

---

(١) سيف الدين عبد الفتاح: الاتجاهات الحديثة في دراسة الفكر السياسي الإسلامي، دراسة منشورة في مجلد بعنوان: اتجاهات حديثة في علم السياسة، تحرير علي الدين هلالومحمود إسماعيل محمد، القاهرة ـ اللجنة العلمية للعلوم السياسية والإدارة العامة، المجلس الأعلى للجامعات ١٩٩٩م، ٧، وانظر كذلك:

ROBERT T. HOLT and JOHN M. RICHARDSON Jr. *Competing Paradigms is - Compartive Politics in:* HOLT and JOHN E. TURNER (eds.), *The Methodogy of comparative Research,* New York: 1970.

ـ وأيضًا: نصر محمد عارف: نظريات السياسة المقارنة ومنهجية دراسة النظم السياسية لعربية، «مقاربة بيستمولوجية»، ليزبرج ـ فرجينيا ـ جامعة العلوم الإسلامية ١٩٩٨م.

ـ **المعيار الزمني**: وهو معيارٌ يؤكد التواصل واستمرارية الإنتاج وفق المنظومة التاريخانية.

ـ **المعيار المكاني**: يَعني استيعاب التنوُّعات المكانية (العربي ـ الفارسي ـ التركي) في طبيعة المنتَج التاريخي.

ـ **المعيار المذهبي**: يعني استيعاب الخريطة المذهبية (النظريات) في إطار المنهج المتكامل أو (الهَجِين).

ـ **المعيار المصدري**: يعني استيعاب خريطة المصادر على تنوُّعها في مجال التفاعل بين التخصُّص ودائرة البحث[1].

ـ **المعيار الذاتي**: يتصل بهُوِية الباحث، وتفاعله مع التخصص، ودائرة البحث (المدرسة العلمية للباحث).

جهود التأسيس وصناعة توجُّهات الأجندة (جيل الرواد)

(لكل مرحلة أجندتها، ولكل جيل موضوعاته)

في سياق بناء الأجندة، تبدو الأعمال الببليوجرافية التي أُنجِزَت من الجماعة العلمية ـ على تنوُّعها تحت شرعية علمية من منهج البحث التاريخي ـ على درجة كبيرة من الأهمية والتنوُّع، إذ إنَّ التراكم في القضايا والموضوعات التي انشغلت بها قد استوفت ـ تقريبًا ـ الترتيب الزمني والموضوعي، وبدا أن ثمَّة إشكالية كبيرة تعترض الداخلين الجدد إلى مجال الكتابة التاريخية بهدف المواصلة، وقد تجسَّدت في صعوبة التجديد، الذي يبقى أمرًا مطلوبًا، لا لذاته إنما لِمَا له من تأثير مباشر وغير مباشر على تفسير الحاضر وصنع المستقبل.

---

(١) محمد عجاج الخطيب: لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، بيروت ـ ١٩٧١م، ١١٠.

هناك إذًا ثلاثة محاور أساسية في تشكيل الأجندة البحثية، تعانقها وتؤازرها ثلاثة تصنيفات أساسية لتأطير جهود الجماعة العلمية، وتتمثل فيما يلي:

١ ـ جهود التأسيس وصناعة توجهات الأجندة، (أصالة الوصف لدى جيل الرواد).

٢ ـ القضايا الأساسية للأجندة وجهود الاستمرار، (البناء في العُمق لدى جيل الوسط).

٣ ـ الجهود الحاضنة والإشكالات الأجدر بالتناوُل، (توليد الموضوعات وتجدُّدها لدى جيل الدارسين).

مرَّتْ مدرسة الكتابة التاريخية بالعديد من التطورات منذ منتصف القرن العشرين، بحيث حَمَلت الأجيال المختلفة على عاتِقِها مَهَمَّة التطوير والتحديث، واتخذ الجميع من الأحداث التي شهدتْها منطقة الخليج العربي منذ منتصف القرن الثامن عشر بداية للتاريخ الحديث؛ نظرًا لأنها أسَّست لأوضاع أنظمة الحكم التي لا تزال قائمة في بلدانها؛ فإذا كانت منطقة نَجْد قد شهدت بزوغ نجم محمد بن عبدالوهاب والأمير محمد بن سعود، ونشوء الدولة السعودية بمراحلها المختلفة في أربعينيات هذا القرن، فإنَّ قبائل العتوب التي استقرَّت في شرق الجزيرة العربية ـ بعد رحلة طويلة من التَّجْوَال في دولة بني خالد الخاضعة للعثمانيين ـ قد نجحت في تكوين ثلاث أسر حاكمة؛ هي آل صُبَاح في الكُوَيْت، وآل خَلِيفة في البحرين، وآل ثاني في قطر، (١٧١٦م)، (١٧٤٠م)، (١٨٦٨م)[1] على التوالي. كذلك فإن عُمان الكبرى أيضًا قد انشطرت إلى عمان الداخل التي خضعَتْ لحكم آل

---

(١) راشد بن فاضل البنغلي: مجموع فضائل النسب في معرفة قبائل العرب، نسخة أصلية وحيدة محفوظة في مكتبة حسن بن محمد بن علي آل ثاني، الدوحة، قطر. انظر كذلك، علي أبا حسين: تاريخ العتوب في ق ١٨، مجلة الوثيقة، العدد ٤، البحرين ـ ١٩٨٤م.

بوسعيد، وعمان الساحل حيث السيطرة والحماية البريطانية (الساحل المهادن أو المتُصَالح)[1]، وكانت هذه الأحداث الكبرى هي الملْهِمَة للباحثين المحترفين الجدد (الجيل الأول)، الذي اتخذ منها بدايات منطقية لصناعة الأجندة البحثية[2]، وكان واضحًا للمتخصصين والمشتغلين بالتاريخ المعاصر في هذه المنطقة، أن تصنيف الجماعة العلمية وتوجهات الأجندة أمران متلازمان، بحيث يمكن التمييز في هذا الصدد بين ثلاثة مستويات رئيسية، كان من اللافت للأنظار والمُسْتَغْرَب أنَّ لكل مستوى كُتَّابه ومؤرخيه، من دون أن يَحدُث أي خلْط في ذلك على النحو الذي يصنِّفُهما معًا «التاريخ والمؤرخون» إلى:

- التاريخ الإقليمي.
- التاريخ القُطري.
- التاريخ الدولي.

التاريخ الإقليمي

يُمكِن التمييز بين نوعَيْن من أوصاف الأجندة؛ هما: الأجندة النابعة والأجندة التابعة، فالأجندة النابعة (المستقلة) تعني القضايا والموضوعات التي احتلَّت أولوية ضمن صياغة الأجندة، والنابعة من إلحاحٍ موضوعيٍّ يَشِي بأن هناك فراغًا حقيقيًا في مجال المعرفة والإلمام بالخطوط العريضة والموضوعات الرئيسية، التي تشكِّل (إجمالي التاريخ الحديث والمعاصر للخليج العربي)، وهى مَهَمَّةٌ اضطلع بها

(١) جمال زكريا قاسم: الأصول التاريخية لقضية عمان، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ١٢، القاهرة - ١٩٦٤م.

(٢) أحمد تهامي عبد الحي: «دراسات الأجيال السياسية في العلوم الاجتماعية»، مجلة عالم الفكر، المجلد ٣٦، الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ٢٠٠٨م، ٨٧.

باحثون مؤطرون من خارج المنطقة المبحوثة، وكان للمدرسة المصرية قَصبُ السَّبْقِ في ذلك، حيث انبرى من بينها مَن تحمَّل عبء المغامرة الأولى «جهود الريادة»، فكان الحديث عن الغزو البرتغالي، والأوضاع الداخلية في عُمان، والمنافسات التجارية، والتنظيمات القبلية في الساحل الجنوبي للخليج العربي، والقواسم وعلاقتهم بالقوى المجاورة، ثم توغل البريطانيون في الإقليم حتى اتفاقيات الهُدْنة، وتطوُّر وجود العتوب في شرق الجزيرة العربية، ونشأة المشيخات الحديثة في الكويت والبحرين وقطر، والأطماع الفارسية في الخليج العربي.

تحت هذه العناوين الرئيسية جاءت القضايا الفرعية، التي غلب على طبيعة الكتابة فيها مهمة تحديد الأزمنة والأمكنة والأسماء والحوادث، بوصْف كل ذلك معارف جديدة لم تكن قد انتظمتْ في سياق تاريخي ومنهجي عام على هذا النحو[1].

---

(١) تاتي على رأس المدرسة المصرية للدراسات الخليجية الحديثة والمعاصرة، كتابات أستاذنا الدكتور جمال زكريا قاسم، الذي كان له فضل الريادة (وكان لي معه شرفٌ خاص، إذْ ترأس لجنةَ الحكم على رسالتي لنَيْل درجة الدكتوراه)، حيث موسوعته العلمية المهمة التي تناولت تاريخ الخليج الحديث والمعاصر في ٥ مجلدات؛ الأول يتناول من (عام ١٥٠٧م حتى عام ١٨٤٠م)، والثاني (١٨٤٠ - ١٩١٤م). والثالث (١٩١٤ - ١٩٤٥م). والرابع (١٩٤٥ - ١٩٧١م). والخامس (١٩٧١ - ١٩٩١م)، وجميعها صدر عن دار الفكر العربي بالقاهرة، هذا فضلًا عن الكثير من البحوث والدراسات المنشورة في المجلات والدوريات المصرية والعربية والدولية، ولا تتوقف جهود التأسيس عند حد التأليف والنشر، ووضْع اللبنات والقواعد الأساسية؛ إنما عمل أستاذنا في العديد من جامعات الخليج في قطر والبحرين والإمارات والكويت، حيث أسس بأقسام التاريخ المناهجَ العلمية اللازمة، كما تتلمذ على يديه الغالبية العظمى من العاملين في هذا التخصص، وأصبح التخرج على يديه في الدكتوراه على نحو خاص بمثابة شهادة أخرى وقيمَة مضافة إلى الدرجة العلمية المتحصَّل عليها، وغنيٌ عن البيان ما تميَّزت به كتابات سيادته من الدقة والموضوعية، وعدم التحيز أو الانفعال، وحرْص سيادته على التطبيق الأمين لمناهج البحث التاريخي، فهو في حد ذاته مدرسة كبيرة من مدارس التأسيس للتاريخ الاحترافي بمعناه الدقيق.

ـ وتصدّت كتابات الدكتور جمال زكريا قاسم لوجهات النظر الغربية (البريطانية) والفارسية التي=

أمّا الأجندة التابعة (المنحازة) فهيتلك التي خلطَتْ بين الكتابة عن الخليج بشكل عام ، وتلك التي تناولَتْ مصالح قوى بعيْنِها بهدف إبراز قيمة هذه القوى وأهميتها وجعْلها محورًا مركزيًا من محاور دراسة منطقة الخليج العربي[1] ، وكان هذا النوع

=كُتِبت بغرض حماية مصالح هذه القوى وغيرها ، وقد حملت عبء الدفاع عن المصالح العربية وحقوق المشيخات في مواجهةالمؤلفات الأجنبية هذه؛ مثل :

أرنولد ويلسن : الخليج العربي ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، سلطنة عمان ـ وزارة الثقافة والتراث القومي .

جان جاك بيربي (مترجم) : الخليج العربي ، بيروت ـ ١٩٥٩م .

جاكلين بيرن : اكتشاف جزيرة العرب ، بيروت ـ ١٩٦٣م ، هذا فضلًا عن كتابات لوريمر وسالدانها وبلجريف وغيرهم ممن سبق ذكرهم .

ـ من جهود التأسيس كذلك إطلالة أ.د. صلاح العقاد عن : التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣م . أيضًا : أ.د.جمال محمود حجر : دراسات في التاريخ الأميركي ، الإسكندرية ـ دار المعرفة الجامعية ١٩٩٥م، وبه موضوعات قيِّمَة عن بدايات العلاقات الأمريكية ـ الخليجية .

(١) هناك طائفة من المؤلفات الأجنبية عالجت التاريخ الإقليمي الخليجي ، أنظر على سبيل المثال :

- SADIK, MUHAMMED T. and WILLIAM P. SNAVELY. *Bahrain, Qatar and the'United Arab Emirates: Colonial Past, Present Problems and Future Prospects.* Lexington, MA: Lexington Books, (1972).
- RONALD DANNRUTHER, *The Gulf conflict: A political and strategic analysis, Adelphi Papers,* (London: Published by Brassey's for the IISS), Winter 199 1/92.
- ROSEMARY FOOT, S. NEIL MACFAR LANE and MICHAEL MASTANDIMO (eds): *U. S. Hegemony and international organization: The united states and Multilateral institution.* Oxford; New York; Oxford university press, 2003.
- ROSEMARY HOLLIS (ed.): *Managing New Developments in The Gulf* (London: Royal Institute of International Affairs, Middle East Programme; Abu Dhabi: Crown Prince Court, Division of Research and Studies, 2000.
- CHUBIN and S. ZABIH: *The Foreign Relations of Iran,* (Berkeley University of California Press, 1974).
- NARAYAN, B. K. *Oman and Gulf Security.* New Delhi: Lancers Publishers, 1979.

من التاريخ قد عَابه تعمُّد الجَوْر على الحقيقة التاريخية (النسبية)، والانْتِقاص من حقوق الآخرين، فالصراعُ حَامِي الوَطِيسِ الذي شهدَه الإقليم على أرض الواقع وفي المتون، قد انجرف إليه المؤرخون المحترفون في الحواشي والمراجع التي كتبوها[1]، فكانت عُرْضَةً للتشكيك والأخْذ عنها بحذر شديد، وللمراجعة القانونية المستمرة[2].

التاريخ القُطري

في اتجاهات صناعة الأجندة لدى جيل التأسيس، ظهرتْ مجموعة هائلة من الكتابة التاريخية التي تحاول الإمساك بتلابِيبِ التاريخ الوطني لكل قُطر من الأقطار الخليجية؛ وذلك بغرض الدفاع عن الخطوط الرئيسية لاسيما (العائلات والنُّظُم الحاكمة) ضد ما يعتقده هؤلاء من محاولات المصادر والمراجع الأخرى النَّيْل من الجذور والثوابت، وشرعية الحكم القائم، وتتميز هذه المدرسة بأنها

- NASSER H. ARURI: «*Politics In Kuwait*» in: JACOB M. LANDAU, ed., *ManState, and society in the contemporary Middle East, Man,* State and society (New York Praeger. Publishers, 1972).
- MOHAMED MUGHISUDDIN, ed., *Conflict and Cooperation in the Persian Gulf, Praeger Special Studies in International Politics and Government* (New York: Prager Publishers, 1977).
- MOHAMMED ZAYYAN AL-JAZAIRI, «*Saudi Arabia: A Diplomatic History, 1924-1964*», (Doctoral Dissertation, Univeristy of Utah, 1971).

(١) من هذه المؤلفات: جون كيلي: بريطانيا والخليج العربي (١٧٩٥ ـ ١٨٧٠م)، مجلدان، سلطنة عُمان ـ نشر وزارة التراث القومي والثقافة ١٩٧٩م. علي رضا ميرزا محمد: أسانيد لخليج «الفارسي»، القاهرة ـ دار الرائد العربي ١٩٧٦م. فريد هاليداي: الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، تعريب محمد الرميحي، لندن ـ دار الساقي ٢٠٠٨م.

(٢) حسين محمد البحارنة: دول الخليج العربي الحديثة: علاقاتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها، بيروت ـ شركة التنمية والتطوير بروديكو كتلة مؤسسة الحياة ١٩٧٣م.

مختلِطَة في الانتماء من حيث المعنى والمَبْنى، في إطار التنازع بين الأجندة النابعة والتابعة، وبدا الأمر أننا أمام نوعين جديدين من الأجندة في إطار التاريخ القطري(*):

الأجندة المُفْتَعَلَة والمخْذُولة والمطرودة من التراث التاريخي، والأجندة الطَّارِدة، حيث رُدَّ الاعتبار للدراسات الأكاديمية والمنهجية. ففيما يخص النوع الأول ظهَرَ جيل من كَتَبَةِ التاريخ في مرحلة التأسيس يتحدثون عن تمجيد الأسر الحاكمة، وشرعية الحكم، والحدود الجغرافية للأقطار من وجهة النظر الرسمية، والأوضاع القَبَلية، والمعارك القتالية بين القبائل، وتسلسل الحُكام، والعلاقة مع العثمانيين والإنجليز والفرس والعراق، وبدا أنصار هذه المدرسة كأنَّهم قد هجروا العلاقة مع

(*) أسهمت المراجع الأجنبية بنصيب وافر في الكتابة عن التاريخ القُطري، انظر:

- ABU JABER, KAMEL S., *The Arab Ba'th Socialist Party: History, Ideology and Organization.* Foreword by Philip K. HITTI. SYRACUSE, NY: SyracuseUniversity Press, 1966.
- AHMED ABDULLA SAAD BAZ, *«Political Elite and Political Developmentin Kuwait»*, (Ph. D. Thesis, George Washington University, 1981).
- ALAN RICHARDS and JOHN WATERBURY, *Apolitical Economy of theMiddle East: State, Class and Economic Development C Boulder,* Co:: West View Press 1990.
- ALBERT HOURANI, *The Emergence of the Modern Middle East* (Berkeley, CA: University of California Press; London: Macmillan Press, 1981).
- ALBERT HOURANI, *Arabic Thought in The Liberal age (1798-1939),* London 1962.
- ALEXANDER BLIGH, *From Prince to King: Royal Succession in the House of Saud in the Twentieth Century,* New York-New York University Press, 1984, pp.71-83, and ABBAS A. KELIDAR, *«The Problem of Succession in Saudi Arabia»*, Asian Affairs, Vol. 9, Part I (February 1978).
- JOHN TOWNSEND, *Oman: The Making of the Modern State, London-Croom Helm,* 1977, p.97; CHRISTINE OBSORNE, *The Gulf States and Oman, London:-Croom Helm,* 1977), pp.147-148, and B.K. NARAYAN, *Oman and Gulf Security,* New Delhi-Lancers Publishers, 1979).

المنهج التاريخي (الوليد)، وتقلَّصَتْ أهمية التوثيق لديهم، كما كانتْ قلة المراجع ودقتها سمة بارزة من عيوب هذه الكتابة، التي تحوَّلت مع الوقت إلى أجندة مطرودة من التراث التاريخي للكتابة، ومهجورة من حيث الرجوع إليها أو الاستشهاد بها[١]، بينما احتفظتْ مدرسة التاريخ القُطري لنفسها بالقدر الكافي من الموضوعية عندما استقطبَتْ حيالها مجموعة من جيل التأسيس الذين انْبروا للدفاع عن المجال الذي ارتضوه مهنةً لهم، يَرْتَزِقون منه ويضيفون إليه من اجتهادهم ودَأبهم، حيث ظهرت طائفة جديدة من الكتابات العلمية الرَّصِينة التي تتحدث عن البناء المنهجي للمعرفة التاريخية، وإن كانتْ قد جَنَحَتْ إلى تأكيد وجهة النظر الرسمية في القضايا التي تناولتها، لكنَّ هذه الطائفة من الرواد كانت من الصَّرَامَة في استخدام الوثائق الأصلية والمصادر الفعلية والمراجع الموثوقة، ما لم يكن من السهل على مَن خلفهم محاولة التقليد أو المحاكاة. وظهر من بينهم من أنفق السنوات الطوال في تعلم اللغات الأجنبية (الإنجليزية ـ التركية ـ الفارسية) ليَخرُج لنا بتاريخ علمي وموضوعي على درجة كبيرة من الأهمية، يُطالِعُنا في ذلك

---

(١) هناك طائفة من هذه الكتابات؛ منها: مصطفى الدباغ: قطر ماضيها وحاضرها، بيروت ـ دار الطليعة للنشر د.ت. محمد شريف الشيباني: إمارة قطر العربية، ط ١، بيروت ـ دار الثقافة ١٩٦١م. يوسف بن عيسى القناعي: صفحات من تاريخ الكويت، الكويت ـ ١٩٤٦م. فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب، مكة المكرمة ١٣٥٢هـ. أمين الريحاني: ملوك العرب، أو رحلة في البلاد العربية، مجلدان، بيروت ـ ١٩٢٩م؛ محمد بن عبد الله السالمي وناجى عساف: عمان تاريخ يتكلم، دمشق ـ ١٩٦٣م. هولي (دونالد): عمان ونهضتها الحديثة، ترجمة فؤاد حداد، لندن ـ نشر مؤسسة ستايس الدولية؛ عبد العزيز الرشيد: تاريخ الكويت، بيروت ـ دار مكتبة الحياة ١٩٧٨م.

- Ireland Philip, *Iraq*, London 1945.
- Huede, William, *A Voyage up the persian Gulf and Jaurney over land from Ludia to England in 1817*, London 1819.
- Philips, Wendell, *Oman A History*, London 1967.
- Sykes, Percy. *History of Persia*, 2 vols, London 1951.

تلك الدراسة القَيِّمة عن العراق(١) ، وأخرى عن الإمارات العربية المتحدة(٢) ، وثالثة عن الدولة السعودية(٣) ، ورابعة عن الكويت(٤) ، وخامسة عن قطر(٥) ، وسادسة عن عُمان(٦) ، وسابعة عن إيران(٧) ، وثامنة عن البحرين(٨) .

التاريخ الدولي

من المجهودات المبذولة في مرحلة التأسيس للأجندة أن فريقًا من المؤرخين الاحترافيين قد وَجَد أن التاريخ القومي والقُطري قد استَوْفَيَا أغراضهما عند حَدِّ وضْع الخطوط العريضة والرئيسية ، وأن التأثير الدولي بحاجة إلى إِطْلالة جديدة(٩) ، غيْر تلك التي وُضِعَتْ بأقلام الانطباعيين والمعاصرين للأحداث ،

(١) عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ، القاهرة ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٨م .

ـ عبد الرزاق الحسني : تاريخ العراق السياسي الحديث ، ٣ أجزاء ، صيدا ـ ١٩٥٧م .

(٢) محمد مرسى عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها ، الكويت دار العلم ١٩٨١م .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ، القاهرة ـ ١٩٦٩م .

(٤) بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في التطور الاجتماعي والاقتصادي للكويت (١٩١٣ ـ ١٩٦١م) ، الكويت ـ ١٩٧٣م .

(٥) محمود بهجت سنان : تاريخ قطر العام ، بغداد ـ ١٩٦٦م .

(٦) روبرت جيران لاندن : عمان منذ عام ١٨٥٦، مسيرًا ومصيرًا ، مترجم ، بيروت ـ ١٩٧٠م .

(٧) كمال مظهر أحمد : تاريخ إيران الحديث والمعاصر ، بغداد ـ مكتبة اليقظة العربية ١٩٨٥م .

(٨) يوسف الفلكي : قضية البحرين بين الماضي والحاضر ، القاهرة ـ ١٩٥٣م .

(٩) عن المراجع الأجنبية للتاريخ الدولي في الخليج انظر:

- SHAHRAM CHUBIN and CHARLES TRIPP, *Iran-Saudi Arabia Relations and Regional Order: Iran and Saudi Arabia in he Balance of Power in the Gulf.* Adelphi Papers; No. 304 (Oxford; New York: Oxford University Press for the International Institute for Strategic Studies, 1996).
- SHARHRAM CHUBIN, *Robert Litwak and Avi Plascov, Security in the Gulf,* Adelphi

فكانت هذه الموجة الثالثة من الكتابة التاريخية التي تنقسم بدورها إلى : (أ) الأدبيات العربية ، (ب) الأدبيات الأجنبية ، أما عن الأولى فهي التي تتناول الصراع الدائر بين القوى الدولية والوجود العثماني ثم البريطاني ، أي تلك الصراعات وصولًا إلى ظهور الأميركيين في الحياة السياسية الخليجية في هذه المرحلة من صناعة الأجندة ، وكان من الواضح استقرار الحكم ، وتنامي الأطماع الإقليمية لا سيما من الدولة الفارسية في البحرين ، ثم تسوية النزاع العثماني ـ البريطاني بموجب مشروع اتفاقية ١٩١٣م ، وظهور الألمان عبر سكة حديد بغداد ، وبداية النشاط الأميركي التجاري ، وقد استقرتْ في هذه المرحلة الكتابة التاريخية على أسس علمية وإن لم يختفِ الانحياز بشكل كامل[١] .

Library; 7 (Aldershot, Hants: Published for theInternational Institute for Strategic Studies by Gower, 1982).

- Shireen T. Hunter Huma Malik (eds): *Islam and Human Rights: Advancing a U. S. Muslim Dialogue,* Washington, DC: Center for Strategic and International Studies, 2005.
- R. K. Ramazan: *The GULF Co-operation Council: Records and Analysis* (charlottesvill, VA: university of Virginia, 1988).
- R. K. Ramazani: *«Emerging Patterns of Regional Relations in Iranian Foreign Policy»* Orbis, Vol. 18, No. 2 (Winter 1975).
- David E. Long: *The presian Gulf: An Introduction to It's peoples, politics, and Economics,* Westview special studies on the Middle East, 2nd ed. (BoulderTco: Westview press, 1978).

(١) من كُتاب هذه المدرسة : محمد رشيد الفيل : الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي ، الكويت ـ رابطة الاجتماعيين . محمود علي الداود : الخليج العربيوالعلاقات الدولية ١٨٩٠ ـ ١٩١٤م ، القاهرة ـ معهد الدراسات العربية ١٩٦٣م . مصطفى عبد القادر النجار : التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي ، البصرة ـ مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ١٩٧٥م . سليم طه التكريتي : الصراع على الخليج العربي ، بغداد ـ وزارة الثقافة والإرشاد ١٩٦٦م . سيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ١٨٤٠ ـ ١٩٠٩م ، القاهرة ـ ١٩٧٠م . أحمد عبد الرحيم مصطفى : الولايات=

أما عن الأدبيات الأجنبية : فقد عَرَفت منطقة الخليج العربي مجموعة كبيرة من اتجاهات الكتابة التي تعكس حقيقة الصراع الدولي في هذا الإقليم ، والمصالح الأجنبية ، وتؤكد أنَّ هذه الدول متناهية الصِّغر بحاجةٍ إلى حماية ، ووجود عسكري خارجي ، وأن الأطماع من القوى الرئيسية الثلاث (إيران ـ العراق ـ السعودية) من الممكن أن تؤدي إلى ضياع أيَّة دولة صغيرة في أي وقت ، فضلًا عن أن هذه المنطقة مرتَكز استراتيجي مهم ، وموردِ نفطي كبير للاقتصاديات العالمية ، وتعاني رخاوة أمنية كبيرة ، لكن مشكلة هذه الأجندة الأجنبية أنه كان يَعِيبُها المعاناة من السلبيات نفسها التي لازمتْ هذا النوع من الكتابات على مدار تطورها ؛ حيث عدم الإلمام الكافي بطبائع العادات والتقاليد لأهل المنطقة ، والتعامل الفَوْقي من منطق التنظير الأيديولوجي ، وعدم الدقة في التوثيق ، والخلْط بين الأمكنة والأزمنة والأشخاص ، فضلًا عن المَيْل والانحياز والتعصب والنظرة الدُّونية ، فالمنطقة برأيهم تحتاج إلى تدخل دولي باستمرار ، وأن هؤلاء الكُتَّاب يشعرون دائمًا بأن القصور الأمني إنما يرجع إلى القصور في التفكير ، وعدم القدرة لدى حكام الخليج على الإدارة المنفردة ، فكانت آفة المستشارين الأجانب قد استمرت فترات طويلة في التاريخ الحديث والمعاصر(١) .

=المتحدة والمشرق العربي ، الكويت ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ١٩٨٩م .

عبد العزيز عبد الغني إبراهيم : حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي دراسة وثائقية ، الرياض ـ ١٩٨١م . عبد الرحمن سلطان : الصراع الدولي في الخليج العربي ، القاهرة ـ الوعي العربي ١٩٨١م .

ـ ريكورد جفري : قوة الانتشار السريع والتدخل العسكري في الخليج العربي ، ترجمة مرتضى جواد باقر ، البصرة ـ مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ١٩٨٣م .

ـ عايد طه ناصف : الاستراتيجية الدولية في منطقة الخليج العربي ، البصرة ـ منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ١٩٨٢م .

(١) (Bell (Montague) *Britain and The Persian Gulf Journal of the united Empire,* .1964 =

البناء في العُمق وجهود الاستمرار (جيل الوسط)

في الفترة بين عامَي (١٩٥٧ ـ ١٩٧٤م) تمتْ صياغة القضايا الأساسية للأجندة المعاصرة، عندما استكملت الجامعات في أقطار الخليج العربي مرحلة الإنشاء والتأسيس، وتنوَّعت الكليات الدراسية والأقسام العلمية، وكانتْ في مقدمة الأقسام التي حرصتْ كل دول الخليج على وجودها منذ البداية أقسامُ «التاريخ»، ليس فقط لأجل غرْس الانتماء لدى الأجيال والتعريف بالهُوِيَّة الوطنية، إنما للتعرف على حقيقة ما يشاع من حين لآخر حول الادعاءات التاريخية، وحقوق الملكية، وكان من أبرز الأمثلة على ذلك أن جامعة الكويت على نحو خاص ـ التي أُنشئت عام ١٩٦٦م ـ قد جاءت ردَّ فعْلٍ للأزمة التي فجَّرها عبد الكريم قاسم حاكم العراق في أعوام (١٩٦١ ـ ١٩٦٣م)[1]. وقد

=- Hamilton: Americans oil in the Middle East 1926.

- HUERWITZ J. G: *Diplomacy in the Near and Middle East 2 vols,* ADocumentary Record vol. 1, 1914, vol. 11, 1914-1956.

- MARLOWE (JOHN): *The persion Gulf in the 20th century,* London 1962.

ـ من أمثلة المستشارين الأجانب: تشارلز بلجريف، أول مستشار بريطاني لحكومة الكويت منذ العام ١٩٢٦م، باشر عمله مستشارًا ماليًا للحكومة ثم تحول إلى مستشار عسكري، وسياسي، وقضائي، تمركزت السلطة بيده، وأصبح قائد الشرطة، ورئيسًا للقضاة، ومشرفًا عامًا على الصحة والمعارف، والأشغال العامة، والجمارك، عمل نحو ثلاثينَ عامًا حتى أُعفيَ من منصبه عام ١٩٥٦م، انظر: يوسف محمد عبيدان: أجهزة الحكم الخليجية في ظل الحماية البريطانية، مع دراسة تطبيقية على دولة البحرين، القاهرة ـ مجلة السياسة الدولية، السنة ٣٠، العدد ١١٥، يناير ١٩٩٤م.

(١) صلاح العقاد: التنافس الثقافي في الخليج العربي، مجلة السياسة الدولية، السنة ١٨، العدد ٥٠، أكتوبر ١٩٧٧م، ١٦٩. وعن أزمة عبد الكريم قاسم انظر: فتحي العفيفي: الجذور التاريخية للأزمة العراقية ـ الكويتية ١٩٦١ ـ ١٩٦٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ١٩٩٥م.

استقدمتْ هذه الجامعات مجموعة من الخبرات المصرية والعربية، واضِعين بذلك بدايات تأسيس مدرسة خليجية للكتابة التاريخية، فظهر في غُضُون سنوات معدودات جيلٌ من أبناء المنطقة الذين عكفوا على دراسة قضاياهم المختلفة[1]، وبفضل المنهج العلمي الذي يطوِّر قَنَاعاته بتطوُّرٍ مستمر، اسْتَشْعَرَ الأساتذة والباحثون أن كلًّا من التاريخ الإقليمي، والقُطري، والدولي قد استكملتْ جميعُها القضايا الأساسية والخطوط العريضة الرئيسية، وهربًا من مشكلة إعادة إنتاج ما أُنْتِج ذهب جيل الوسط إلى حتمية البناء في العُمق، الذي لن يتأتَّى إلا من خلال سد الفَجوات والثَّغرات بدراسات متخصصة، فظهر ما صار يُعرَف بـ«التاريخ النَّوْعِي»، الذي ينقسم بدوره إلى ثلاثة مستويات جوهرية؛ قد جاءت على النحو التالي:

---

(١) للتعرف على الرعيل الأول للمؤرخين الخليجيين وطبيعة كتاباتهم انظر على سبيل المثال:

- عبد العزيز محمد المنصور: التطور السياسي لقطر (١٨٦٨ - ١٩١٦م)، ط ٢، الكويت - ذات السلاسل ١٩٨٠م.

- عبد الله الصالح العثيمين: بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، ط، الرياض - ١٩٨٤م.

- محمد حسن العيدروسي: التطورات السياسية لدولة الإمارات العربية المتحدة، الكويت - ذات السلاسل ١٩٨٢م.

- أمل إبراهيم الزياني: البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي، المنامة ١٩٧٧م.

- محمود علي الداود: الخليج العربي والعلاقات الدولية (١٨٩٠ - ١٩١٤م)، القاهرة - معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية ١٩٦١م.

- مصطفى عقيل الخطيب: التنافس الدولي في الخليج العربي (١٦٥٠ - ١٨٤٠م)، رسالة دكتوراه منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٤م.

التاريخ الاجتماعي(*)

هو الذي تناول قضايا: البنية الاجتماعية، والفِئوية والطبقية، والهجرات الأجنبية، وتكوين الوعي الثقافي، والأندية، والجمعيات، وأفكار التغيير

(*) كان الكُتاب الغربيون قد دفعوا بطائفة من المؤلفات عن الواقع الاجتماعي الخليجي، إلا أنه قد عاب هذه المدرسة سوء الفَهم العميق للعادات والتقاليد، والخلط الشديد في الاستدلال والاستنتاج، وعدم الخروج بنتائج علمية سليمة، وكان هذا اللون هو ما أضعف إسهامات الأجانب في الأجندة البحثية عن هذه المنطقة. انظر في ذلك:

- G RENTZ, *«Wahabism and Saudi Arabia»* in: D. HOPWOOD, ed., *The Arabian Peninsula,* London-Alien and Unwin, 1972.
- G. H. JANSEN, *Militant Islam,* New York: Harper & Row, Publishers, 1979.
- GALLYA LAHAV, *Immigration and Politics in the New Europe:* Reinventing Borders, Cambridge, AM: CambridgeUniversity Press, 2004.
- GARY SAMMUEL SAMORE, *«Royal Family Politics in Saudi Arabia, 1953-1982»,* (Ph. D. Thesis, University of Harvard, 1984).
- GARY TROELLER, *The Birth of Saudi Arabia: Britain and the Rise of the House of Sa'ud,* London-Cass, 1976.
- GARYU MARKS LARRY DIAMOND eds, *Reexaminig Democracy,* Newbury Park, Calig Stage, 1992.
- GEORGE A. LIPSKY, *Saudi Arabia: it's people, it's Society. It's Culture, Survey of World Cultures;* 4 (New Haven: HRAF Press, 1959), and CIVLE ANTHONY LEATHERDALE, *«British Policy Towards Saudi Arabia, 1925-1989»,* (Ph. D. Thesis, University of Aberdeen, 1991).
- NIBLOCK, TIME (ed.): *Social and Economic Development in the Arab Gulf,* London-Croom Helm; Center for Arab Gulf Studies, 1980.
- NORA BENSAHEL and DANIE L. BYMAN (eds.), *The Future Security Environment in the Middle East: Confilict, Stability, and Political Change,* Santa Monica, CA: Rand, 2003.
- OCHSENWALD, WILLIAM, «Saudi Arabia and the Islamic Revival», *International Journal of Middle East Studies,* Vol. 13, No. 3, August 1981.

الاشتراكية على محدوديَّتِها ، والنُّخَب الاجتماعية الجديدة (رجال الدين ، رجال المال ، رجال الحراسة والأمن) ، والتغيُّرات الهيكلية في التراتبية الاجتماعية ، والعادات ، والتقاليد ، والبِنَى الأساسية في المجتمعات الخليجية(1) .

التاريخ الاقتصادي(*)

كانت الموضوعات الاقتصادية قد مثَّلت حافزًا كبيرًا للكتابة التاريخية ، منذ

---

(1) من إبداعات الأجندة في هذا المجال : عبد الله فهد النفيسي : العمل النسائي في الخليج العربي ، الواقع والمرتجى ، الكويت ـ شركة الربيعان للنشر والتوزيع ١٩٨٦م. نادر فرجاني : رحل فيأرض العرب عن الهجرة للعمل في الوطن العربي ، سلسلة الثقافة القومية ١٣، بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٧م. موزة عبيد غباش : المهاجرون والتنمية في دولة الإمارات العربية المتحدة ، رؤية اجتماعية : دراسة تطبيقية لآثار الهجرة الوافدة اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا ، القاهرة ـ دار الوفاء ١٩٨٦م؛ سعد الدين إبراهيم : النظام الاجتماعي العربي الجديد : دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية ، ط ٣، القاهرة ـ دار المستقبل العربي ١٩٨٢م؛ أيمن الياسيني : الدين والدولة في المملكة العربية السعودية ، نقله إلى العربية كمال اليازجي ، بيروت ، لندن ـ دار الساقي ١٩٨٧م؛ مبارك الخاطر : الكتابات الأولى الحديثة لمثقفي البحرين ١٨٧٥ ـ ١٩٢٥، المنامة ـ مطابع المختار الإسلامية ١٩٧٨م؛ مي بنت عبد العزيز العيسى : الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى ، الرياض ـ دارة الملك عبد العزيز ١٤١٧هـ؛ عبد المالك خلف التميمي : التبشير في منطقة الخليج العربي : دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي ، الكويت ـ شركة كاظمة للترجمة والتوزيع ١٩٨٢م.

JACOB M. LANDAU, ed., «Man, State and Society in the contemporary Middle - .East», Man, *State and Society,* New York-Praeger publishers, 1972

(*) من أفضل المجالات التي أسهم فيها الغربيون التاريخ الاقتصادي ، وذلك بالنظر إلى اهتمامهم الواضح بقضايا النفط وغيره ، انظر في ذلك :

- COTTRELL, ALVIN J. [et al.] (eds). *The Persian Gulf States: A General Survey, Baltimore,* MD: JOHNS HOPKINS University Press, 1980.
- CRYSTALL, JILL, *Oil and Politics in the Gulf: Rules and Merchants in Kuwait and Qatar,* Cambridge [UK]; New York: Cambridge University Press, 1990 (CambridgeMiddle East Library; 24).

اكتشاف النفط، وتحوّله إلى سِلْعة اقتصادية عالمية تتنافس حولها الشركات للحصول على عقود الامتياز، والجدوى الاقتصادية للصناعات القائمة على النفط، والاستثمارات العائلية، والنشاط الاقتصادي التقليدي، بداية من الغَوْص على اللؤلؤ حتى تجفيف الملح، وكَبْس التمور، وعمل الفخار، وشباك الصيد، وصناعة السفن، ثم النشاط غير التقليدي بعد النفط القائم على الاقتصاديات الإنتاجية والاستهلاكية المتخلفة في مجتمعات منفتحة على الاستيراد، وكانت هذه الأنماط من الكتابة تعطي أهمية كبرى للتفسير المادي للتاريخ ودور العامل الاقتصادي في دولة الرفاهية الاجتماعية، التي تنهض الصيغ التعاقدية فيها على «الولاء السياسي مقابل الرفاهية الاجتماعية»، إذًا فالاقتصاديات الخليجية تدور في

- Dale F. Eickelman, «From Theocracy to Monarchy: Authority and Legitimacy in Inner Oman. 1935-1957», *International Journal of Middle East Studies,* Vol.17, No. 1 (January 1985).
- David E Long, «Confrontation and cooperation in the GULF», *Middle East Problem,* No.10, Washington, DC: Middle East Institute, 1994.
- Shiren T. Hunter, «The Gulf Economic Crisis and its Social and Political Consequences», *Middle East Journal,* Vol. 40, No. 4 (Autumn 1986).
- Sigrid Faath (ed), *Anti-Americanism in The Islamic World,* London-Hurst; Princteon, NJ: Markus Wiener Publishers, 2006.
- Jill Crystall, *Oil and Politics in: The Guif: Rules and Merchants in Kuwait and Qatar,* Cambridge Middle East Library: 24 (Cambridge [UK]: New York: Cambridge University Press, 1990).
- Hossein Mahdary, «Patterns and Problems of Economic Development in Rentier States: The case of Iran» in *Studies in the Economic History of the Middle East; from the Rise of Islam to the Present Day,* edited by M. A. Cook, London, New York-Oxford University Press, 1970.
- Helen Lackner, *A House Built on Sand: A Political Economy of Saudi Arabia,* London: Ithaca Press, 1978; Jacqueline S. Ismael, *Kuwait: Social Change in Historical Perspective, Contemporary Issues in the Middle East,* Syracuse, University Press, 1982.

فلك النظم الرأسمالية التي تمثِّلها الولايات المتحدة[١].

التاريخ السياسي

غَنِيٌّ عن البيانِ تلك العلاقة وثيقة الصلة بين التاريخ المعاصر وعلم السياسة، حتى يكاد يجزم المؤرخون بأنه لا توجد حدود فاصلة بينهما، ومِنْ ثَمَّ يحتاج كاتب التاريخ المعاصر دائمًا المناهج والمقتربات الفكرية، والمداخل التحليلية المعمول بها في مجالات البحث السياسي، غير أن مدرسة جيل الوسط ـ المَنُوط بها صناعة أجندة قائمة على البناء في العمق ـ قد واجهت صعوبات حقيقية ومحاذير، بل ورفْضًا ومنْعًا، وصار يُطلَق عليها (الأجندة المهملة، والمطرودة، والمخذولة)[٢]؛ وذلك بسبب وجود نظم الحُكم الوراثية والتقليدية (مَلَكِية، أو

---

(١) من أدبيات الأجندة في التاريخ الاقتصادي انظر: مرزوق الشملان: تاريخ الغوص على اللؤلؤة في الكويت والخليج العربي، الكويت ـ مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٥م. كذلك: إياد حلمي الجصاني: النفط والتطور الاقتصادي والسياسي في الخليج العربي، الكويت ـ دار المعرفة ١٩٨٢م. الصادق محمد سليمان: الخليج بين ثقافة اللؤلؤ وثقافة البترول، مجلة الرافد (الشارقة)، السنة ٣، العدد ١١، أبريل ١٩٩٦م، ٦٢. أسامة عبد الرحمن: المورد الواحد والتوجه الإنفاقي السائد، مدخل لدراسة الميزانية العامة في أقطار الخليج العربي، بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٨م. طالب محمد وهيم: التنافس البريطاني ـ الأمريكي على نفط الخليج العربي، بغداد ـ دار الرشيد ١٩٨٢م. إبراهيم محمد شهداد: تطور العلاقة بين شركات النفط ودول الخليج العربي منذ عقود الامتياز الأولى وحتى عام ١٩٧٣م، الدوحة ـ مطابع قطر الوطنية ١٩٨٥م. سعد ثامر الحميدي: دور النفط في علاقات قطر الدولية، القاهرة ـ المركز الأكاديمي للدراسات الاستراتيجية ٢٠٠١م.

(٢) فهد القحطاني: صراع الأجنحة في العائلة السعودية: دراسة في النظام السياسي وتأسيس الدولة، لندن ـ الصفا للنشر والتوزيع ١٩٨٨م.

ـ أسامة عبد الرحمن: المثقفون والبحث عن مسار: دور المثقفين في أقطار الخليج العربية في التنمية، بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٧م، (سلسلة الثقافة القومية، ٩).

ـ محسن عبد الحميد: حق المعارضة السياسية في المجتمع الإسلامي، طهران ـ دار حسان ١٩٩٢م.=

عسكرية، أو دينية، أو مشيخية) فكانت قضايا التعدُّدية السياسية والتحرُّر والديمقراطية والتداوُل السِّلمي للسلطة من المحرمات والتابوهات العتيقة التي عانت منها الأجندة في مدرسة جيل الوسط[1]، وإنْ كانتْ هناك بعض الكتابات التي رُشِّحَتْ من طرْف خفي، تلميحًا لا تصريحًا، فكانت هذه الكتابات بمثابة فتح

=ـ عادل الطبطائي: السلطة التشريعية في دول الخليج العربي، نشأتها تطورها والعوامل المؤثرة فيها، الكويت ـ منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ١٩٨٥م.

ـ فؤاد إسحق الخوري: القبيلة والدولة في البحرين: تطور نظام السلطة وممارستها، بيروت ـ معهد الإنماء العربي ١٩٨٣م.

(١) كانت مدرسة المراجع والكتابات الأجنبية قد عوّضت الغياب العربي المبكر في هذا المجال، فظهرت مؤلفات أجنبية تتحدث في أمور السياسات الداخلية دون أي تعقيد. أنظر في ذلك:

- HENRY HELLER: *The cold war and the new Imperialism:* A Global History, 1945-2005, New York: Monthly Review press, 2006.
- HENRY LAURENS: *L'orient Arabe a'L'heure Americaine: De La Guerre du Golfe a' La Guerre d'Irak,* Paris: A. COLIN, 2004.
- HENRY MUNSON, JR., *Islam and Revolution in the Middle East* (New Haven, CT: Yale University Press, 1988).
- HERMANA FREDERICK; ELITS, «Saudi Arabia: Traditionalism Versus Modernism: A Real Dilemma, in: PETER J. CHELKOWSKI and ROBERT J. PRANGER, eds., *Ideology and Power in the Middle East: Studies in Honor of George Lenczowski* (Durham, NC: Duke University Press, 1988).
- HASSAN: *Iraq Report Gives Bush «best chance» that exists for progress.,* (Interview made by Bernard Gwertzman with Richard N. Haass, council on foreign relations, 6 December 2006.
- HABIB, JOHN S. *Ibn Sa'ud's Warriors of Islam: The Ikhwan of Najd and Their Role in the Creation of the Sa'audi Kingdom,* 1910-1930 Leiden: Brill, 1978. (Social Economic and Political Studies of the Middle East; V.27).
- GIACOMO LUCIANI, «The Oil Rent, The Fiscal Crisis of The State and Democratization», in: *GHassan Salame, e., Democracy Without Democrats?: The Renewal of Politics in The Muslim World* (London; New York: I. E. Tauris Publishers, 1994).

ثقوب صغيرة في جدار صلد ومسمط استعصى على الاقتحام لعقود طويلة[١].

الجهود الحاضنة وتوليد الموضوعات (جيل الدارسين)

(توليد الموضوعات وتجدُّدها لدى جيل الدارسين) : تعهَّد جيل الوسط برعاية كل الجهود الحاضنة وصناعة أجندة جديدة ومتطورة وفْق قاعدة الإشكالات الأجدر بالتناوُل، وهذا المحور قد تحقق من خلال مسارَيْن أساسيَّيْن ؛الأول يتعلق بالدراسات والبحوث المُقدَّمة للحصول على درجتَي الماجستير والدكتوراه، والمشروعات القومية، والآخر يتمثَّل في مراكز البحوث التاريخية وما تُصْدره من

---

(١) محمد جواد رضا : صراع الدولة والقبيلة في الخليج العربي، أزمات التنمية وتنمية الأزمات، بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢م.

- GARY SAMMUEL SAMORE; «Royal Family politics in Saudi Arabia, 1953-1982» Ph. D. Thesis, University of Harvard, 1984.

ـ عباس غالي الحديثي : مشكلات بناء القوة للدولة الصغيرة : دراسة تطبيقية في الجغرافيا السياسية لدولة الكويت، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٠م . فؤاد إسحق الخوري : القبيلة والدولة في البحرين : تطور نظام السلطة وممارستها، بيروت ـ معهد الإنماء العربي ١٩٨٣م . ميمونة خليفة الصباح : الكويت في ظل الحماية البريطانية، الكويت ـ ذات السلاسل ١٩٨٨م . نجاة عبد القادر الجاسم : التطور السياسي والاقتصادي للكويت بين الحربين ١٩١٤ ـ ١٩٣٩، القاهرة ـ المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٣م. عبد المالك خلف التميمي : التبشير في منطقة الخليج العربي : دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي، الكويت ـ شركة كاظمة للترجمة والتوزيع ١٩٨٢م . أحمد حسن دحلان : السياسة الداخلية في المملكة العربية السعودية، ط ٢، جدة ـ دار الشروق١٩٨٤م . روح الله رمضاني : سياسة إيران الخارجية ١٩٤١ ـ ١٩٧٣، ترجمة عليحسين فياض وعبد المجيد حميد جردي، البصرة ـ مركز دراسات الخليج بجامعة البصرة ١٩٨٤م . حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسي، الكويت ـ ١٩٦٢م . فتوح عبد المحسن الخترش : تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ١٨٩٠ ـ ١٩٢١م، الكويت ـ ذات السلاسل ١٩٨٤م. عبد الله الصالح العثيمين : العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت، الرياض ـ ١٩٩٠م . عبد الرحمن بن عمير النعيمي : التأثير الفكري لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على منطقة الخليج العربي، الدوحة ـ المركز العربي للأبحاث ٢٠٠٨م .

دوريات ومجلات مُحكَّمَة، وكلٌّ منهما يقوم على التدقيق المنهجي والتأكد من جدِّية الموضوعات وجديدها بوصفهما من الجهود الحاضنة لتطور دراسات التاريخ المعاصر.

الدراسات والبحوث المقدَّمة للدرجات العلمية والمشروعات القومية

تأتي جهود هذه المدرسة ضمن سياقات البناء في العمق؛ حيث تطورت الدراسات التاريخية المعاصرة لتصبح أكثر تخصصًا في تناوُل قضايا حيوية ولوجيستية طَفَتْ على السطح، بوصْفها قضايا تمثِّل أزمات ومداخل لنزاعات وحروب بين الدول الخليجية، التي كانت من بينها أزمة الملك غازي في العراق ودعواه بالحق التاريخي في الكويت ١٩٣٩م، والجزر الإماراتية الثلاث ١٩٧١م، وحرب الخليج الأولى ١٩٨١م، وغيرها من الموضوعات التي اتجهتْ من جديد إلى الوثائق البريطانية للاستشهاد بها في التحكيم الدولي، الذي فجَّر بدوره مشروعات وطنية للكتابة التاريخية للدفاع عن وجهات النظر المختلفة بين دول الخليج العربي، وكان آخرها لُجُوء قطر والبحرين إلى محكمة العدل الدولية[1].

---

[1] فتحي العفيفي: مشكلات الحدود السياسية في منطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية، رسالة دكتوراه منشورة، القاهرة - المركز الأكاديمي للدراسات الاستراتيجية ٢٠٠١م. سمير أحمد موسى: الصراع الاستراتيجي بين العراق وإيران (١٩٣٧ - ١٩٨١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الإسلامية ١٩٨٣م. ديفيد لونج وآخرون: أمن الخليج في القرن الحاديوالعشرين، أبو ظبي - مركز الإمارات للبحوث الاستراتيجية ١٩٩٨م. طيبة خلف عبد الله: التطور التاريخي للمجالس التشريعية في الكويت ١٩٢١ - ١٩٧١م، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة البصرة ١٩٨٦م. محمد جاسم محمد: العلاقات العراقية - الخليجية ١٩٥٨ - ١٩٧٨، رسالة ماجستير (كلية القانون والسياسة، جامعة بغداد ١٩٨٠م). محمد محمود خليل: تاريخ الخليج وشرق الجزيرة العربية، المسمى إقليم بلاد البحرين في ظل حكم الدويلات العربية، رسالة دكتوراه منشورة، القاهرة - مكتبة مدبولي ٢٠٠٧م. نوال حمزة الصيرفي: النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في ق١٠هـ، ١٦م، الرياض - مطبوعات دارة الملك=

الدوريات والمجلات العلمية : أسهمت البحوث الصغيرة المقدَّمَة للترَقّي لدرجات ما بعد الدكتوراه ، أو تلك التي تُعَدُّ للنشر بالمجلات والدوريات ، في بناء اللُّحْمَة وسد الفجوات في دراسات التاريخ المعاصر ، وكانت كل دول الخليج بلا استثناء

=عبد العزيز ١٩٨٣م . مفيد الزيدي : التيارات الفكرية في الخليج العربي ١٩٣٨ - ١٩٧١، رسالة دكتوراه منشورة ، سلسلة أطروحات الدكتوراه (٣٥) ، بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٠م .
وانظر كذلك :

ABDULLA, SAIF ABBAS, «Political Administration and Urban Planning in a Welfare Society; Kuwait». (Ph. D. Thesis, Indiana University, 1973).

BAZ, AHMED ABDULLA SAAD, «Political Elite and Political Development in Kuwait» (Ph. D. Thesis, George Washinfton University, 1981).

DEIJ, MASHAAN MOHAMMED, «Saudi Arabia's Foreign Policy 1953-1975», (Ph. D. Thesis, University of Idaho, 1981).

HAFIZ, FAISAL ABDULLA, «Changes in Saudi Foreign Behavior 1964: *A Study of the Underlying Factors and Determinants*». (Ph. D. Thesis, University of Nebraska, 1980).

HENSEL, HOWARD M. «Soveit Policy in the Gulf, 1968-1975», Ph. D. Thesis, University of Virginia, 1976.

AL-JAZAIRI, MOHAMMED ZAYYAN, «Saudi Arabia: A Diplomatic History, 1924-1964» (Doctoral Dissertation, University of Utah, 1971).

LEATHERDALE, ANTHONY CIVLE, «British Policy towards Saudi Arabia 1925-1989», Ph. D. Thesis, University of Aberdeen, 1981).

SA'ATY, MOHAMMED AMIN, «The Constitutional Development in Saudi Arabia» (Ph. D. Thesis, Clermont Graduate School, 1982).

SAMORE, GARY SAMMUEL, «Royal Family Politics in Saudi Arabia, 1953-1982». (Ph. D. Thesis, University of Haryard, 1984).

AL-TUHANY, HUWAIDAH METAIREEK, «The History of Najd Perior to the Wahhabis: A Study of Social, Political and Religious Conditions of Najd during Three Centuries Preceding the Wahhabi Reform Movement» (Ph. D. Thesis, University of Cambridge, 1983).

ZEDAN, FAYSAL MUHAMMED, «Political Development of Saudi Arabia» (Ph. D. Thesis, Claremont Graduate School, 1981).

قد حرصت على إنشاء المراكز البحثية وإصدار المجلات العلمية المتخصصة، التي كان من بينها ما أصدرته جامعة الكويت من: حوليات كلية الآداب، ومجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ومجلة شؤون اجتماعية، ومجلة العلوم الاجتماعية. وأصدرت البحرين «مجلة الوثيقة المتخصصة» الصادرة عن مركز الوثائق والدراسات التاريخية. فضلاً عن مجلة «الدَّارَة» السعودية التي تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض، ومجلة «المؤرخ العربي» التي تصدر في بغداد، وحوليات كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر، ومجلة «التراث» عن مركز جمعة الماجد بالإمارات، ثم المجلة المصرية للدراسات التاريخية، ومجلة «المستقبل العربي» بمركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، ومركز دراسات الخليج بجامعة البصرة[1].

---

(1) من جهود التناوُل في هذا المجال انظر: نجاة عبد القادر الجاسم: العلاقات الكويتية ـ البريطانية، دور النفط والمتغيرات السياسية الداخلية والخارجية في تحولاتها ١٩٤٦ ـ ١٩٥٤م، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، السنة ١٠، العدد ٣٧، شتاء ١٩٩٠م. منصور إبراهيم الحازمي: معالم التجديد في الأدب السعودي بين الحربين العالميتين، مجلة الدارة (الرياض، دارة الملك عبد العزيز)، السنة ٦، العدد ٢، يونيو ١٩٧٥م. روزماري سعيد زحلان: الخليج والقضية الفلسطينية (١٩٣٣ ـ ١٩٣٩م)، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، السنة ٦، العدد ٢٤ أبريل ١٩٨١م. إبراهيم محمد شهداد: ردود الفعل الشعبية في إمارات الخليج العربي تجاه العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦م من واقع الوثائق البريطانية، حوليات كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد ٥، السنة ٥، جامعة قطر ١٩٩٢م. مالكوميان هيلنيا: تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية، الوثيقة، السنة ١٦، العدد ٣٢، يوليو ١٩٩٧م. رأفت غنيمي الشيخ: التوجه العثماني نحو الخليج العربي من خلال محمد على، بحث منشور بمجلة الوثيقة، (السنة ٨، العدد ٦، مركز الوثائق التاريخية، المنامة، يناير ١٩٩٠م).

ـ ميمونة الخليفة الصباح: الاستقلال ظاهرة سياسية هامة في تاريخ الكويت الحديث، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، السنة ١٧، مايو ١٩٩٢م، جامعة الكويت ١٩٩٢م، ١٢٧. فتحي العفيفي: التوازن الاستراتيجي في الخليج العربي خلال عقد التسعينات، سلسلة محاضرات الإمارات رقم (٦٦)، (أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ٢٠٠٣م).

خاتمـــة

على هذا النحو قدَّم الموثِّقون المنهجيون تأريخهم الاحترافي المصنوع منهجيًا ، ووفق أصول البحث العلمي المتَّفَق عليها عالميًا ، وإقليميًا ، ومحليًا ، في هيراركية لا تخلُو من الجدِّية والطَّرَافة معًا ، وقد أبرزنا من خلال ذلك جهود التأسيس وصناعة توجُّهات الأجندة البحثية لدى جيل الرواد من علماء التخصص المشهود لهم بالكفاءة ، والإخلاص ، والتفاني في عملهم ، فضلًا عن الموضوعية والمثابرة ، إلى الحد الذي أفنَوْا فيه زَهرة شبابهم ، بل عمرهم كله ، دفاعًا عن العلم الذي ينتمون إليه ، يُجَوِّدون فيه يومًا بعد يوم ، حتى وصلت الكتابة التاريخية على أيديهم إلى مكانة متقدِّمة ، وبلغتْ شأْوًا عظيمًا في رسم حدود ملامح الخريطة الكلية العامة لتطور العناصر الرئيسية للتاريخ العام للإقليم . وما أن استوفَتْ هذه المهمة أغراضها جنبًا إلى جنب مع التوسُّع في بناء الأقسام العلمية بالجامعات الخليجية ووضْع الأصول والقواعد اللازمة ، حتى بزغ من تلامذتهم من حَمَلَ الراية وشرع في تأكيد جهود الاستمرار ، والبناء في العمق ، والتأصيل لأجندة جديدة قَوَامُها التاريخ القُطري ، والنوعي ، وهم جماعة جيل الوسط من مؤرخي المنطقة وخارجها ، الذين رعوا بدورهم جيل الدارسين من المتقدمين للحصول على درجات علمية في التاريخ ، وكذا الراغبين في الترقِّي للدرجات العلمية من أصحاب البحوث المتقدمة ، فضلًا عن اهتمام جيل الوسط بالتوسُّع في مجالات عمل البيئة الحاضنة للتاريخ ، من المراكز ، والجمعيات ، والدوريات ، التي من شأنها المساعدة في تَوْليد الموضوعات باضطراد ، لتَطْرَحَ هذه المدرسة ـ في نهاية المطاف ـ تحديًا مَفَادُه أن التاريخ الإستاتيكي بمفهومه التقليدي قد استوفى أغراضه على صعيد المعنى والمَبْنى ، الشكل والمضمون ، الإطار والمحتوى ، فكان التاريخُ البَيْني التحليلي النقدي الاستجابةَ الجديدة لمثل هذا التحدي .